

بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير الأصولي

لسورتي الفاتحة والبقرة

د. محمد بن بشر القبايطي

٩ من ذي الحجة ١٤٤٦ هـ

٢٠٢٥/٦/٥ م

المقدمة

"الحمد لله رب العالمين" والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، وبعد: فهذا كتاب في تفسير القرآن الكريم، وقد اعتنيت فيه بتوفيق الله تعالى بالتصريح بما استعملته من القواعد الأصولية في استخراج معاني القرآن الكريم، أو ما يسمّى وجوه دلالة النصوص على المعاني ولذلك سمّيته: التفسير الأصولي.

وقد حرصت على بيان وجوه الدلالة التي أقف عليها ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وبيّنت في مواطن كثيرة ما يحتاج إليه الطالب من قواعد اللغة والإعراب؛ ليسهل على القارئ فهم وجه الدلالات المختارة، وقد أكثرت من العزو إلى بعض المفسرين المهرة البررة؛ لتحقيق مقصود الكتاب، ولم أستقص في العزو، بل اقتصرت على ما بدا لي نفعه.

وأرجو أن يكون هذا الكتاب عوناً لي ولكم على تعلّم كتاب الله الحميد المجيد ودراسته، عسى الله تعالى أن يكرمنا وإياكم بصفة الربانيّة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾^١: والربّاني المنسوب إلى "الربّان"، وهو الذي يربّ الناس، أي: يصلح أمورهم، ويقوم بها، يقال: ربّ أمره فلان، فهو يربّيه ربّاً، وهو ربّاه، فإذا أريد به المبالغة في مدحه قيل: "هو ربّان"، فالربّانيّون هم عماد الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا، وهم السادة والقادة. ولذلك قال مجاهد: "وهم فوق الأحرار"؛ لأن

^١ سورة آل عمران الآية (٧٩)

"الأخبار" هم العلماء، والرَّبَّانِيّ الجامعُ إلى العلم والفقه البصرَ بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية، وما يصلحهم في دُنْيَاهُمْ ودينهم^١.

وقد اخترت هذا المنهج الأصولي؛ لتحسين القدرة على الفهم والاستنباط والتدبر، ولتحسين القلوب والعقول من الزيغ والقول على الله تعالى بغير علم.

أيها الكرام إن الهدى الذي نفتقر إليه مُستودع في القرآن الكريم، ومبين في السنة النبويّة المباركة، وإنه لَوَافٍ كافٍ لعلاج مشكلات الناس وإسعادهم وإصلاح الأرض، ولا سبيل إلى تحصيل ذلك إلا بتوفيق الله تعالى إلى إحسان التفقه في الدين والعمل وفق ذلك الهدى.

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، وَتَبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، اللَّهُمَّ اجْعَلِ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَنَا هَدًى، وَرَحْمَةً، وَبُشْرَى، وَحَيَاةً، وَنُورًا، وَشِفَاءً، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ عِلْمَ الْيَقِينِ، وَالْإِمَامَةَ فِي الدِّينِ، وَاجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ الْمُتَّقِينَ، حَسْبُنَا اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِينَا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ.

كتبه: محمد بن عبده بن محمد بن بشر

اليمن: ١٤٤٦/١٢/٩ هـ الموافق: ٢٠٢٥/٦/٥ م

وتمّت مراجعته في البلد الحرام مكّة حرسها الله القويّ العزيز.

^١ انظر: الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، ت: محمود شاكر، دار التربية والتراث - مكة المكرمة، بلا تاريخ، ج٦/٥٤٣-٥٤٤ بتصرف.

سورة الفاتحة:

قال الله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^١:

يفتح ربنا تبارك وتعالى كتابه العزيز بهذه الكلمات الطيبات المباركات التامات؛
لتلقَى أبصارنا وقلوبنا وأسماعنا وألسنتنا بجلالها وجمالها ونورها وبركاتها، فنرقى في درجات
الإكرام والإنعام الرباني، فاقرأ أيها المبارك "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"، وارق وتنعم.

"بِسْمِ اللَّهِ": الباء للمصاحبة تبرُّكا وتوسُّلاً، و"اسم": نكرة مضافة إلى اسم الجلالة:
الله، والنكرة إذا أضيفت إلى معرفة تفيد العموم، ففي هذه الإضافة المباركة تتجلى جميع أسماء
الله الحسنى بجلالها وجمالها وكمالها وبركاتها، ويُستأنس للقول بالعموم قوله صلى الله عليه وسلم:
"مَا أَصَابَ مُسْلِمًا قَطُّ هَمٌّ أَوْ حُزْنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي
بِيَدِكَ، مَاضٍ فِي حُكْمِكَ، عَدْلٌ فِي قَضَائِكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ
أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْذَنْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ
الْقُرْآنَ رِيْعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي؛ إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّهُ
وَحُزْنَها، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا". فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ قَالَ: «بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا
أَنْ يَتَعَلَّمَهَا»^٢، قال السعدي: "لفظ "اسم" مفرد مضاف، فيعم جميع الأسماء الحسنى"^٣.

واسم الجلالة "الله": عَلَّمَ على الأحد الصِّمد، ويُلمح إلى ما اشتق منه من الألوهة
التي هي أعظم الحقائق الدينيَّة، فالله وحده المستحق للتأليه والعبادة والتعظيم.

^١ سورة الفاتحة الآية (١)

^٢ أخرجه أحمد في مسنده (٣٩١/١)، وصححه الألباني في الكلم الطيب برقم (١٢٤)

^٣ السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة،

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ج ٣٩/١

وقد وُصف اسم الله بصفتي: "الرحمن الرحيم": وهما وصفان للمدح والثناء على الله ذي الجلال والإكرام، فاجتمع في البسملة جلال الألوهية وكمالها وألطف الرحمة الإكرام بالعباد.

وفائدة الابتداء بشبه الجملة: "بِسْمِ اللَّهِ" دون ذكر ما تعلّق به الجارّ والمجرور هو الاستغناء بحال القارئ، فالمقام مقام إخلاص واختصاص والتجاء وتوحيد، وقد أغنى الحال عن المقال، فيترجّح تقدير الفعل "أقرأ" متأخراً، وعليه يكون مفهوم البسملة: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وحده أقرأ لا باسم غيره.

وتقدير الفعل مؤخّراً ليس اختياراً مجرّداً، بل لوجود مرجّح المقام والحال، وعليه فلا يتأتّى اعتراض ابن عاشور على مثل هذا التقدير بقوله: "وَإِذْ قَدْ كَانَ الْمُتَعَلِّقُ مُحْذَوْفاً تَعَيَّنَ أَنْ يُقَدَّرَ فِي مَوْضِعِهِ مُتَقَدِّماً عَلَى الْمُتَعَلِّقِ بِهِ كَمَا هُوَ أَصْلُ الْكَلَامِ؛ إِذْ لَا قَصْدَ هُنَا لِإِفَادَةِ الْبَسْمَلَةِ الْخَصَرِ، وَدَعَا صَاحِبِ «الْكَشَافِ» تَقْدِيرَهُ مُؤَخَّرًا تَعَمُّقٌ غَيْرُ مَقْبُولٍ، لَا سِيَّما عِنْدَ حَالَةِ الْحَذْفِ، فَالْأَنْسَبُ أَنْ يُقَدَّرَ عَلَى حَسَبِ الْأَصْلِ"^١، ولا قوله في موطن آخر: "وَأَمَّا الْإِعْتِدَادُ بِمَوْضِعِ الْفِعْلِ الْمُقَدَّرِ فَحَوَالَةُ عَلَى غَيْرِ مُشَاهِدٍ؛ لِأَنَّ التَّقْدِيرَ إِنْ كَانَ بِنَيْتَةِ الْمُتَكَلِّمِ فَلَا قَبْلَ لِلْسَّامِعِ بِمَعْرِفَةِ نَيْتِهِ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الْخِيَارُ فِي التَّقْدِيرِ لِلْسَّامِعِ"^٢، والجواب: أنَّ قرينة المقام والحال كافية لبيان مراد المتكلّم.

^١ ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، التحرير والتنوير: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسية للنشر - تونس طبعة ١٩٨٤م، ج ١/٣١٧

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/٤٥٥

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^١.

منطوق الآية: "الحمد": لفظ عام، "الألف واللام في (الحمد) لاستغراق جميع المَحَامِدِ"^٢، "الله": "اللام فيه للاستحقاق"^٣، والحمد من أجل الطاعات أجزاً، "الحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن (أو تملأ) ما بين السماوات والأرض"^٤، فابتدأ ربُّنا بالتسمية التي تُفْتَحُ بها أبواب الخيرات، وثق بالحمد الذي به تتم وتختتم الصالحات.

"رب العالمين": إضافة "رب" إلى العالمين للتعريف بفضل الله على العالمين، ولتعلييل استحقاقه للحمد كله، ولتشريف العالمين، وقد وصف الله تعالى نفسه بالربوبية المطلقة للعوالم الظاهرة والباطنة العليا والسفلى، فهو وحده الرب: الخالق القيوم الرزاق الهادي الذي يربُّ الناس، أي: يُصْلِحُ أمورهم، ويقوم بها.

"العالمين": لفظ عام؛ لأن "أل": للاستغراق، فكل عالم داخل في هذا العموم، فيشمل كل المخلوقات.

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^٥: وهذان الوصفان الكريمان للثناء على الله تعالى بصفة الرحمة التي وسعت كل شيء، "رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا"، "وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ".

^١ سورة الفاتحة الآية (٢)

^٢ الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، ج ١/٥

^٣ البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٤ ١٩٩٧ م، ج ١/٥٢

^٤ مسلم، مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، المسمى بصحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط: ١٣٩٢ هـ، ج ٢٢٣، ٢٠٣/١

^٥ سورة الفاتحة الآية (٣)

﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾^١: "مَالِكِ" اسم أضيف إلى يوم الدين، وهو يوم البعث والجزاء والعرض والحساب والعدل والفضل، وهذه الصفة للتمجيد، فالله هو المالك الملك عز وجل في ذلك اليوم العظيم يوم الفصل، و"يوم الدين": إضافة يوم للتعريف، والدين: الجزاء بالخير والشر، فريق في الجنة وفريق في السعير.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^٢: **منطوق الآية**: الفعلان المضارعان في سياق الإثبات مُقَيَّدان بالضمير "إِيَّاكَ"، وهو ضمير للمخاطب الحاضر، وهذا الالتفات من خطاب الغيبة إلى خطاب الشهود يفيد الترقّي من مقام الإيمان بالغيب المبني على علم اليقين إلى مقام الإحسان المبني على عين اليقين، فيكون الاقتراب "كأنك تراه"، وفي تقديم الضمير على الفعلين دلالة على الحصر، وفي إفراد كاف الخطاب "إِيَّاكَ" تنصيصاً على التوحيد، وقد أُضْمِر المستعانُ عليه من جلب المنافع ودفع المضارّ للدلالة على التعميم والتعديد، والتعبير بصيغة المضارع لإفادة التجدد، ونون المضارعة تدلّ على جماعية الانبعاث لهذه الأمة، وَقَدَّمَ العبادة على الاستعانة؛ لأنها المقصود من خلق العباد، وهي المفتاح الأكرم لخزائن النعم.

ومفهوم المخالفة: لا نعبد غيرك، ولا نستعين غيرك، وقد اختار تعديّة الفعل "نستعين" بنفسه لا بحرف الباء، فلم يقل وبك نستعين، وفي ذلك جمال باهر وتناسب ظاهر، فلا فصل ولا وساطة. وبعد هذا التصريح بإخلاص التوجّه لله وحده عبادة واستعانة جاء طلب الهداية، ومن جمع الله تعالى له الإخلاص والهدى باتباع منهج النبوة، فلا يضلّ ولا يشقى.

^١ سورة الفاتحة الآية (٤)

^٢ سورة الفاتحة الآية (٥)

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^١: المنطوق: "اهدنا": صيغة أفعِل للدعاء، والفعل في سياق الإثبات يصدق على أي هدى، وقد قيّد بالمفعول الأول: "نا" المتكلمين، وبالمفعول الثاني: "الصراط المستقيم"، وفي إفراد المخاطب- تقدّست أسمائهم- بالطلب إقرار بتوحيد الربوبية، وجمع ضمير المتكلمين فيه إشارة إلى وحدة الأمة مسيرًا ومصيرًا، والهداية درجات متفاوتة في الرتبة والثوبة، وهي محض فضل يختصّ به الله من يشاء من عباده، ومن حُرّم الهداية أهلكته الغواية، و"الصراط": "أل": للعهد، والمقصود به دين الإسلام أو كتاب الله، وقد سيق على سبيل الاستعارة التصريحية، وزاد الاستعارة ترشيحًا وتقديرًا بالصفة: "المُسْتَقِيمَ"، وبالبديل: "صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ"؛ فقد صرّح بالمشبه به: "الصراط" عوضًا عن المشبه: الإسلام أو كتاب الله، وقد تجلّث في هذه الاستعارة البديعة معانٍ كثيرة، فهي تصوّر لنا مسار العباد في سفرهم إلى الله تعالى، وتُرينا الذين أنعم الله عليهم، وهم على جادة الصراط المستقيم، وتكشف حال المغضوب عليهم والضالّين، والشياطين تجتالهم، وتهوي بهم في قاع سحيق.

وصفة "المستقيم" صفة كاشفة لمدح الصراط إذا قلنا: إن أل للعهد، وإفراد الصراط في القرآن كثير جدًّا، ويحتمل أن تكون "أل" في الصراط للاستغراق، والمستقيم صفة مؤسّسة للتخصيص، والمعنى: اهدنا السبيل (الصُّرْط) المستقيمة، ويقصد بها شعائر الإسلام، ويُستأنس لهذا المعنى بقول الله عزّ وجلّ: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾^٢، والصراط المستقيم هو الصراط السّوي، وهو أقرب السبيل الموصلة إلى الغايات، وكل سبيل غيره معوّج ولا حصر للسبيل المعوجة.

^١ سورة الفاتحة الآية (٦)

^٢ سورة المائدة الآيتان (١٥-١٦)

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾^١: "صِرَاطٌ": بدل من "الصراط المستقيم"، ومن فوائد إبدال "صِرَاطَ الَّذِينَ..." من "الصراط المستقيم": زيادة بيان بذكر السائرين على الصراط المستقيم وإعلان الولاء لهم، ففي موالاتهم طاعة يتوسَّل بها إلى المقصود.

"الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ" "الَّذِينَ": اسم موصول للعموم، "أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ" الفعل في سياق الإثبات للإطلاق يصدق على أيِّ إنعام، وهو هنا إنعام تام بالهداية وصلاح الحال والمآل والتوفيق إلى الإخلاص والتوحيد وحسن المتابعة لمنهاج النبوة، والمنعم عليهم هم المذكورون في قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾^٢. وقد قيَّد الفعل بالجار والمجرور: "عَلَيْهِمْ"، والإنعام لا يكون إلا للعقلاء كما ذكر ذلك السمين الحلبي، وفي ذلك تعريض بغيرهم، فالمغضوب عليهم والضالون لا عقول لهم.

"غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ" لفظ "غير" بدل كل من كل من "الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ" ويجوز أن يعرب وصفاً للذين، ويكون الوصف للمدح، "المغضوب عليهم": "المغضوب" اسم مفعول و"الضالين" اسم فاعل، فهما: صفتان صريحتان، والصفة الصريحة: هي كل اسم فاعل أو اسم مفعول أو صفة مشبهة، فإذا دخلت عليها "أل" صارت من صيغ العموم، وللصفة الصريحة دلالة على العلة بالإيماء والتنبيه، فهي تومئ إلى العلة وتنبه عليها،

^١ سورة الفاتحة الآية (٧)

^٢ سورة النساء الآية (٦٩)

فالذين أنعم الله عليهم هم "غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ"، وفي وصفهم بذلك زيادة

مدح للمنعّم عليهم، وتحذير من اتباع المغضوب عليهم والضالّين، فيجب على كلّ مسلم:

- التبرؤ ممّن يُغضب الله من اليهود ومن شاكرهم، وعليه اجتنابُ سَنَنِهِم.

- والتبرؤ من الضالّين من النصارى ومن اتبعهم، وعليه اجتنابُ سَنَنِهِم ومُضَلَّاتِهِم.

سورة البقرة:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

أودّ قبل الشروع في التفاصيل أن أبين ما بدا لي من نظام هذه السورة المباركة؛ حتى يظهر للقارئ جمالُ بنائها وكمال تناسقها، وقد وجدت أن سورة البقرة مؤتلفة من: مقدمة، وثلاثة مقاطع عظيمة، وخاتمة.

المقدمة: فيها بيان أن القرآن هو الكتاب الهادي للتي هي أقوم، فمن آمن واطقى فقد اهتدى وأفلح وسعد، ومن أعرض عنه ضلّ وشقي، وقد وصف الله تعالى كتابه بوصفين يستوعبان كل ما في القرآن الكريم من الأخبار والأحكام:

الوصف الأول: نفى الرّيب كلّهُ عن هذا الكتاب المبارك، فلا ريب في صدق أخباره، ولا ريب في عدل أحكامه.

الوصف الثاني: هداية المتقين، فالمتقون مهديّون للتصديق والإيمان بأخبار هذا الكتاب، والتسليم والامتثال لأحكامه، أما التصديق فقد بيّنه تعالى بقوله: "الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ"، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ وأما الامتثال لأحكام الشرع فقد ذكر شعيرتين من أعظم الشعائر، فالصلاة أعظم الشعائر البدنية، والإنفاق شعيرة مالية، قال الله تعالى: "وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ" [٢-١].

وصلة المقدمة: وفيها: بيان صفات أكمل العباد هدى وهم المتقون، وأخبت الناس ضلالاً وهم الكفار المصرون على الكفر والمنافقون، وبيان عاقبة كل صنف [٣-٢٠].

المقطع الأول: الدعوة إلى عبادة الله وحده، وإقامة الحجة، وضرب الأمثال وقصّ

القصص، وبناء الأمة الوسط وتحقيق شرط الاستخلاف الرشيد في الأرض، [البقرة: ٢١ -

١٦٢]. وفيه أربعة محاور:

المحور الأول: النداء الأول: دعوة الناس إلى عبادة الله تعالى وحده، وعبادة الله تعالى

وحده شرط الله تعالى للاستخلاف والتمكين والتأمين ﴿يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾،

(وهو أول نداء في المصحف)؛ لتحقيق التقوى سبب الفلاح في الدارين. وعرض البراهين على

التوحيد وصدق الرسالة لنفي الرّيب [البقرة: ٢١-٢٩].

المحور الثاني: خلق آدم عليه السلام الخليفة الأول، وبدء الاستخلاف في الأرض،

وقد ورد فيها سرّ الابتلاء، وحقيقة التدافع بين الحقّ والباطل، وهي أول القصص ذكرًا في

المصحف، وهي أصول جامعة للعبّر والعظات [البقرة: ٣٠-٣٩].

المحور الثالث: دعوة بني إسرائيل إلى اتباع ما أنزل الله، والوفاء بالعهد، وتفنيد

شبهاتهم، ودحضها، وقد ضرب الله لهم الأمثال بما قصّه من قصص آبائهم وما أخذه عليهم

من المواثيق؛ لعلهم يعقلون! فقد كان بعضهم أهل ذمّة في دولة المدينة، فأقام عليهم الحجة

البالغة. وفي ذكر قصّة آدم تهيئة للناس أجمعين لاتباع نبيّنا محمد عليه الصلاة والسلام المبعوث

رحمة للعالمين!

فأتبع القصة المؤسّسة بنداء خاصّ لبني إسرائيل، وذكرهم بما أنعم به على آبائهم،

وكيف كان حال أجدادهم، ولهذا الاختصاص والعناية والابتداء بدعوتهم مسوغاته، يظهر لي

منها:

- أن لديهم الدلائل الشاهدة على صدق نبوة خاتم المرسلين عليه الصلاة والسلام، فهم مؤمنون على تلك البينات، وفي إيمانهم شهادة على غيرهم.

- كونهم ورثة الهدى وأتباع آخر الرسالات السماوية: تورا موسى، وزبور داوود، وإنجيل عيسى (عليهم الصلاة والسلام) ... فهم أقرب الناس دينًا إلى أهل الإسلام.

-أخذ الميثاق عليهم باتباع خاتم المرسلين ونصرته

- وجودهم في المدينة ودخولهم في ذمة الله ورسوله، فهم جزء من المجتمع المدني (أقلية محترمة).

- سمعتهم ومكانتهم الدينية في جزيرة العرب، فإسلامهم مؤثر في بقية أهل الجزيرة. وهم يعتقدون أنهم على هدى مما بقي لديهم من ميراث رسلهم عليهم السلام، فجاءهم الخطاب داعيًا إلى اتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم، ومصدقًا لما معهم ومهيمنًا عليه؛ لينتقل بهم إلى الاصطفاف مع عموم الناس في صفٍ واحد، وإطار جامع، وليعتبر العالمون بسنن الله تعالى التي مضت في بني إسرائيل، وما وقع منهم ولهم، ولِيُظهر نعمة الله تعالى على البشرية عامة ببيان فضل الرسالة الخاتمة وكما لها وجمالها. [البقرة: ٤٠-١٠٣].

المحور الرابع: دعوة المؤمنين إلى حسن تلقي الكتاب، وتحذيرهم من سنن الناكثين وتبصيرهم بكيد أعدائهم، وتذكيرهم بصلتهم بإبراهيم الذي وُفِّي، وبنيه أئمة الهدى عليهم الصلاة والسلام أجمعين، وقد أوضح لهم وظائف الأمة المسلمة الوارثة؛ ليستحقوا الوعد الحق، وبَيَّن لهم المنهج الأمثل لمعالجة المصائب الكونية، ودرء الذنوب والفتن بالتوبة والإصلاح والبيان. [البقرة: ١٠٤-١٦٢].

المقطع الثاني: التمكين التشريعي والتنظيمي للأمة: بناء دولة العدل والإحسان

والعزة، دولة القانون والقوة والرحمة [البقرة: ١٦٣-٢٥٤]، وفيه ثلاثة محاور:

المحور الأول: تقرير حق التشريع لله الرحمن الرحيم وحده، وبيان نواقض التشريع الرباني

وموانعه (منهج موجز لتقرير حق التشريع وبيان نواقضه). [البقرة ١٦٣-١٧٧].

والآية "وَالْهَيْكُلُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ" (١٦٣) لها صدر المقطع

الثاني؛ لجلال معناها ووفائه بأصل الأصول العقديّة والتشريعية.

وأما النواقض (الموانع والفتن المانعة) فكلها تالية لهذا الأصل في السياق، وهي سبعة

موانع، أربعة منها عامة يستوي فيها الناس، ثم أردفها بثلاثة موانع خاصة بالذين أوتوا كتاب

الله، وإليك تفاصيلها:

الفتنة الأولى: فتنة اتخاذ الأنداد: والأنداد يشرعون ويطبقون القوانين الباطلة، وهذه

أخبث فتنة؛ لقوة تأثير الأسباب والمصالح المادية والمعنوية المتبادلة بين أكابر المجرمين الذين

يحكمون بأهوائهم، وبين أتباعهم. وفي التنصيص عليها تذكير بقوله تعالى: "فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ

أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (٢٢)

الفتنة الثانية: فتنة ضغط الشهوات والغرائز الحاملة على مخالفة شرع الله تعالى مجده،

ومن أخطرها شهوة الأكل، وفي التنصيص عليها في الآية تذكير بفتنة آدم وزوجه في الاستجابة

لداعي الغواية.

الفتنة الثالثة: فتنة اتباع الشيطان. وفيها تحذير من اتباع خطوات الشيطان وكيده،

وتذكير بفتنته المخرجة لآدم وزوجه من الجنة.

الفتنة الرابعة: فتنة تقليد الآباء وترك شريعة الله بسبب تعطيل العقول.

الفتنة الخامسة: فتنة كتمان ما أنزل الله والمتاجرة بالدين "إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤)".

الفتنة السادسة: فتنة الاختلاف في الكتاب "وَأِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦)"، اختلاف ومشاقّة في العقائد وفي التشريعات الفقهية وفي الطرق التزكوية، والمدارس الحركية، والسياسية، وغيرها؛ حتى صارت الأمة مفرقة وممزقة...

الفتنة السابعة: فتنة الاختلال في ميزان التدبّر، واختزال الدين في شعبة من شعبه، وهو فرع عن السادس مثاله: حصر البرّ في استقبال المشرق والمغرب ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ (١٧٧)﴾ ومن هذه الفتنة تنشأ فتن الغلو والجفاء، ولو تتبعنا نشوء الفرق والطوائف في بلاد الإسلام لوجدنا أن منشأ الانحراف هو الغلو والجفاء، ولا استقامة للأمة إلا بإقامة ميزان الحقّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فإذا أقيم الوزن بالحقّ تهاوى الباطل!

والمحور الثاني: وضع الشرائع الحافظة لكيان الأمة في الآيات [البقرة: ١٧٨-٢٤٢]

المحور الثالث: بيان سنن الخروج من حالة الاستضعاف وصناعة النموذج الرشيد، فذكر الله نماذج تبين كيفية الخروج من أزمة الاستضعاف، وقصّ قصّة التمكين لبني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام، فقد كانت لديهم سلطة تشريعية، ولم تكن لديهم سلطة تنفيذية

موحدة، فعين الله لهم ملكاً، فلا دولة إلا باجتماع المرجعية الشرعية والسلطة التنفيذية [البقرة: ٢٤٣-٢٥٤].

المقطع الثالث: استدامة التأمين الروحي والمالي: [البقرة ٢٥٥-٢٨٣]:

المحور الأول: استدامة التأمين الروحي

بعد الجولة العظيمة في بناء دولة العدل والعزة، دولة القانون والقوة بوضع التشريعات الحكيمة، وبيان سنن التمكين، انتقل الخطاب إلى مرحلة استدامة التأمين الرباني، وافتتح هذا المحور بآية الكرسي التي يتجلى فيها الله بجلاله وعظمته وحفظه ورحمته، فيغشى القلوب بكلمات الجلال والكمال، والتوحيد والتمجيد، والتعظيم والتكريم، والتطمين والتأمين؛ فيثبت جناحها، ويزودها بالنور واليقين، ويفيض عليها من فيوض الأمن، والإيمان، والطمأنينة، والسكينة؛ فتزداد القلوب تعظيماً لشعائر الله، وطلباً لمرضاته، وشكراً لآلائه، فتمضي راضية مرضية؛ حتى تبلغ غاية هذا المقطع المبارك الذي تكتنفه من الجهة الأخرى آية المحاسبة والمراقبة الآية الرابعة والثمانون بعد المئتين، فتنبؤ القلوب عندها من مقام الإحسان مكاناً علياً.

إن من أعظم المقاصد تأمين التدن وسد الافتقار الروحي بالإيمان والإحسان، والدعوة بالتي هي أحسن، واجتناب الغلو والتفريط، ونبذ الإكراه في الدين. وإن لورود آية الكرسي في هذا الموضع الرفيع لشأناً عظيماً! ففي هذا المقام الرفيع من سياق السورة تستقبل آية الكرسي القلوب، فتبين كيفية تدبير الله تعالى للكون، وتديره للحياة؛ لنطلق في عمارة الحياة عابدين له، مستعينين به متوكلين عليه وحده [البقرة ٢٥٥-٢٦٠]

المحور الثاني: استدامة التأمين المالي

ثم مضت هذه السورة العظيمة في تأمين التنمية الاقتصادية، وهي من أهم أسباب القوة والاستقلال والسيادة: [البقرة ٢٦١-٢٨٣].

توطئة بين يدي الخاتمة: آية المحاسبة والمراقبة الداعية للإحسان الآية [البقرة: ٢٨٤]
تستقبل القلوب، وقد رأت من آيات الله البينات، وتحملت من شرائعه المحكمات، وارتوت من عيون العبر والعظات، وعلمت من سنن الله تعالى ما ينفعها ويرفعها، وتهيأت لتحمل أمانة الخلافة، والتمكين؛ لتنبؤ القلوب عندها من مقام الإحسان مكاناً علياً.

الخاتمة: امتثال وابتهاال

امتثال الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين ما أمروا به من الإيمان، والسمع والطاعة، ووفائهم بشرط الاستخلاف والتمكين والتأمين.

وابتهاالهم بالدعاء الجامع، وقد استجاب الله تعالى لهم كما ورد في صحيح مسلم،

[البقرة: ٢٨٥-٢٨٦].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ:

البسملة وصيلة ووسيلة وفضيلة كما يَبْنَتْ ذلك في مطلع الفاتحة.

قال الله تعالى: ﴿الم﴾^١: افتتاح مدهش واستهلال مثير للانتباه جاذب للسمع؛ إذ لم يعهد العرب استهلال الكلام المنظوم ولا المنثور بحروف المباني، ومن الحكمة في ذكر هذه الحروف أن كتاب الله الحكيم الذي تحدّاهم بالإتيان بمثله مكوّن من هذه الحروف التي تنطقون بها.

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾^٢: يعرّفنا الله عزّ وجلّ في مطلع السورة بحقيقة هذا الكتاب الكريم الهادي إلى الصراط المستقيم.

"ذَلِكَ الْكِتَابُ": "ذلك: اسم للإشارة إلى شيء بعيد الموضع أو رفيع المكانة، والرفعة هي المناسبة في هذه الآية، والكتاب: خبر لاسم الإشارة، و"أل": للكمال، فمنطوق الجملة: ذلك الكتاب الكامل من كلّ وجه، الكامل في مبانيه ومعانيه، ومفهومه أن غير القرآن الكريم ليس كذلك، بل هو دونه.

"لَا رَيْبَ فِيهِ": "لا": نافية للجنس، وفائدتها: الجزم والتنصيص على عموم اسمها، و"ريب": نكرة في سياق "لا": النافية للجنس، فهي نصّ في العموم فلا ريب في هذا الكتاب ألبتة.

^١ سورة البقرة الآية (١)

^٢ سورة البقرة الآية (٢)

فكأن القرآن يستفزّ القارئ المرتاب ويهيّجه؛ ليجمع قدراته العقلية؛ لمواجهة هذا التحدي، بل وبمهله؛ ليسترسل في استجماع قواه من غير إزعاج؛ حتى يشارف الآية الثالثة والعشرين، فيدهمه التحدي الجازم، ويتلقاه البرهان القاطع بنفي الريب، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾^١.

"هُدَىٰ لِلْمُتَّقِينَ"، الهدى في هذا الموضع حقيقة شرعية، يشمل هداية الإرشاد والتوفيق؛ لاختصاصه بالمتقين، و"المتقين": صفة صريحة مقترنة بـ "أل" من صيغ العموم، وعلة الاختصاص بهذه الهداية هي ما أشارت إليه الصفة الصريحة من معنى، وهو التقوى؛ لأن كل صفة صريحة فيها إيماء وتنبيه على العلة، وأصل التقوى: الواو والقاف والياء: كلمة واحدة تدلُّ على دَفْع شيء عن شيء بغيره^٢، يقال: وقاه أي: صانه وستره وحفظه^٣، والتقوى حقيقة شرعية، وهي درجات، فمن كان أكمل تقى، كان أحسن هدى، ومفهوم المخالفة لهذه العلة أن هذا الكتاب ليس بهدى لغير المتقين؛ لأنهم استحبوا العمى على الهدى^٤. وقد وصف الله تعالى الكتاب بوصفين كريمين:

الوصف الأول: نفي كل ريب عن هذا الكتاب المبارك، وأصل الريب الاضطراب وعدم الاستقرار، فلا ريب في صدق أخبار الكتاب، ولا ريب في عدل أحكامه، بل هو الشافي من كل ريب وشكّ، قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ

^١ سورة البقرة الآية (٢٣-٢٤)

^٢ انظر: ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ط ١٩٧٩، ج ٦ / ١٣١،

^٣ انظر: الزبيدي، محمد بن محمد، تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية، بلا تاريخ، ج ٤٠ / ٢٢٦

^٤ انظر: الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مرجع سابق، ج ١٠ / ١

وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا^١، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى^٢﴾، فهو "شفاء لما في الصدور من الشكوك والريب"^٣.

الوصف الثاني: هداية المتقين، فالمتقون مهتدون للتصديق والإيمان بأخبار هذا الكتاب، والتسليم والامتثال لأحكامه.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ^٤﴾: "الذين": الاسم الموصول إذا أعربناه نعتاً للمتقين، فهو صفة كاشفة لا مفهوم لها بل سيقى لمدح المتقين بأهم ما هم عليه من الخصال الدينيّة: القلبية (الإيمان) والبدنية (الصلاة) والمالية (النفقة).

قاعدة: الصفات نوعان: صفات كاشفة تطابق الموصوف في العموم والخصوص، وصفات مؤسسة تخصص العام، وتقيّد المطلق.

وأما إن قطعنا الاسم الموصول عمّا سبقه واستأنفنا الكلام به، فأعربناه مبتدأ أو مفعولاً به لفعل تقديره: أمدح أو أعني، فالاسم الموصول حينئذٍ من صيغ العموم، والفعل "يؤمنون" في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "بالغيب"، والإيمان في هذا السياق هو الإيمان الجازم، وصيغة المضارع تدلّ على تجدد الإيمان في قلوبهم، و"الغيب": "في كلام العرب:

^١ سورة الإسراء الآية (٨٢)

^٢ سورة فصلت الآية (٤٤)

^٣ ابن كثير، إسماعيل بن عمر، المتوفى: ٧٧٤ هـ، تفسير القرآن العظيم، المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢،

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، ج ٧ / ١٨٤

^٤ سورة البقرة الآية (٣)

كُلُّ مَا غَابَ عَنْكَ"¹، وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل أي: الغائب، و"أل" فيه للعموم العرفي، فيعم كل شيء غائب أمرنا الله تعالى بالإيمان به.

قال الله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، الفعل "يقيمون" في سياق الإثبات مقيّد بالصلاة، والإقامة حقيقة شرعية، بفعل الصلاة على الوجه الذي ورد به الشرع، و"الصلاة": حقيقة شرعية معروفة، و"أل" في الصلاة: لاستغراق كل صلاة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾² "من": للتبويض، و"ما": اسم موصول من صيغ العموم، "رَزَقْنَاهُمْ" فعل في سياق الإثبات يصدق على أي رزق، فالمال رزق، والعلم رزق، والوجاهة رزق، وقد قيّد بالمفعول الأول الضمير "هم"، والمفعول الثاني، ونقده: رزقناهموه أو رزقناهم إياه، والجارّ والمجرور: "مَا" متعلقان بالفعل "ينفقون"، وتقديمهما على الفعل للحصر والاهتمام، و"ينفقون": الإنفاق هنا حقيقة شرعية، فلا يصدق إلا على الإنفاق الممدوح شرعاً من واجب أو مندوب، وهو فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور، فلا ينفقون ما ليس لهم، ولا ينفقون أموال غيرهم.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾³: "الواو": عاطفة، و"الذين": اسم موصول عامّ إذا أعربناه مبتدأ أو مفعولاً به لفعل مقدّر أو عطفناه على عامّ، أما إذا عطفناه على صفة فهو صفة تابعة للموصوف. "يُؤْمِنُونَ" فعل في سياق الإثبات مراد به الإيمان المقبول شرعاً، وقد قيّد الفعل بالجارّ والمجرور: "بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ"، و"ما": موصول يعم كل ما أنزل على الرسول محمد عليه الصلاة

¹ الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ، ج ١/٤٠

² سورة البقرة الآية (٤)

والسلام من الآيات والصور والملائكة وغيرها، و"أُنْزِلَ إِلَيْكَ" فعل في سياق الإثبات قد قُيِّد بالجارّ والمجرور: "إِلَيْكَ"، "وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ": "ما": موصول يعمّ كلّ ما أنزله الله تعالى من الكتب السابقة وغيرها، و"أُنْزِلَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور "مِنْ قَبْلِكَ"، و"قَبْلَ": نكرة مضافة تعمّ كل الأزمنة التي سبقت بعثة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام.

"وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ" أي: بالدار الآخرة، و"بِالْآخِرَةِ" والجارّ والمجرور متعلّقان بالفعل "يوقنون"، وقدّم للاهتمام، "يُوقِنُونَ" الفعل مشتق من اليقين: وهو العلم الراسخ الثابت المستقرّ والاستقرار ضدّه الارتباب والاضطراب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور الذي قبله، الجملة الاسمية التي خبرها فعل مضارع تدلّ على تجدد اليقين في قلوبهم، فهم يوقنون يقيناً متجدّدا لا ريب فيه، وقد وصفهم الله تعالى باليقين بالآخرة تعريضاً بأهل الريب المنكرين للبعث.

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأَوَلَيْكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^١: "أولئك علىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ": هذه الجملة خبر للاسم الموصول الأول أو الثاني ويجوز أن تكون مستأنفة، "أولئك": اسم الإشارة إذا أشير به إلى عامّ فهو عامّ، أي: أولئك الموصوفون بتلك الصفات الحميدة، "علىٰ هدى": حرف للاستعلاء، "ومعنى الاستعلاء في قوله: (علىٰ هُدًى) مثلٌ لتمكّنهم من الهدى، واستقرارهم عليه، وتمسكهم به"^٢، "هدى": نكرة في سياق الإثبات وُصِفَتْ وقُيِّدَتْ بالجارّ والمجرور: "من ربهم"، وفي هذا الوصف الجليل تعظيم للهدى الرباني، ومدح وتكريم للمهتدين به.

^١ سورة البقرة الآية (٥)

^٢ الزمخشري، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، مرجع سابق، ج ١/ ٤٤

قاعدة: اسم الإشارة إذا أشير به إلى عامّ فهو عامّ.

ولما فرغ من وصف حال المتقين وتمسكهم بالهدى ذكر جزاءهم: "وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ": "أُولَئِكَ" اسم أشير به إلى عامّ، فيفيد العموم، و"هم": ضمير فصل، "وفائدته: الدلالة على أن الوارد بعده خبر لا صفة، والتوكيد، وإيجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره"^١، والظاهر أن الحصر مستفاد من تعريف المبتدأ والخبر، والضمير "هم" لتوكيد الحصر لا لتأسيسه، "الْمُفْلِحُونَ": أصل الفلاح الشقّ والفتح، واستعمل في الفوز بالمطلوبات، وإدراك الحوائج، و"الْمُفْلِحُونَ": درجات، فمن كان أحسن تقى وهدى كان أرفع درجة، ومفهوم المخالفة: أن غير المشار إليهم ليسوا كذلك، فالظالمون لأنفسهم من المسلمين أدنى درجة في الفلاح من السابقين والمقتصدين، وأما الكافرون فلا فلاح لهم البتة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^٢: "الذين كفروا": الموصول: عامّ، وعمومه عرقي؛ لأنه يراد به بعض أفرادهم، وهم الذين كفروا وكتب الله عليهم الشقاء أبداً، "كفروا": والكفر: لغة السّتر، وهو هنا حقيقة شرعية، وتعني الإعراض عن الإسلام، "سَوَاءٌ": اسمٌ بمعنى الاستواء فهو اسمٌ مصدرٌ مقيّد بالجارّ والمجرور (عَلَيْهِمْ)؛ لأنهما متعلقان به. "أأنذرتهم": المصدر المنسبك من همزة التسوية والفعل من صيغ العموم تقديره: إنذارك لهم، "أم لم تنذرهم": الفعل في سياق النفي يعمّ فينفي كلّ إنذار، فهذا الفريق من الكافرين يستوي عندهم إنذار النبي عليه الصلاة والسلام لهم وعدم إنذاره لهم، "لَا يُؤْمِنُونَ": الفعل في سياق النفي يعمّ، فلا يؤمنون إي إيمان، "وفائدة الإنذار — مع العلم بأن

^١ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، مرجع سابق، ج ١/٤٦

^٢ سورة البقرة الآية (٦)

الإنذار لا يفيدهم- إلزام الحجة وإحراز الرسول صلى الله عليه وسلم فضل الإبلاغ، ولذلك قال: سواء عليهم، ولم يقل: عليك"^١.

قال الله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^٢:

"خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ": "خَتَمَ": فعل في سياق الإثبات مقيد بالجار والمجرور: "عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ"، الختم: الطبع على شيء؛ حتى لا يصله شيء، لا علم ولا هدى و"قلوبهم، وسمعهم": نكرتان مضافتان لمعرفة، فهما من صيغ العموم، "وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ" "أَبْصَارِهِمْ" نكرة مضافة لمعرفة، فهي من صيغ العموم، "غِشَاوَةٌ" نكرة في سياق الإثبات مطلقة، ويحتمل أن يراد بها التغليف، أي غشاوة غليظة، "وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" "لَهُمْ": تقديم الخبر يفيد الحصر، والقاعدة: أن المبتدأ الذي يجوز تقدمه (لوجود المسوغ لتقدمه) إذا أُخِّرَ عن شبه الجملة (عن الخبر) فإن التقديم يفيد الحصر، فالمبتدأ: "عَذَابٌ" هو نكرة قيدت بصفة "عَظِيمٌ"، ومفهوم الجملة: لهم عذاب عظيم لا لغيرهم.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾^٣:
"مِنَ": للتبويض، "الناس": للعموم، و"مِنَ": اسم موصول: عام، "يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمَ الْآخِرِ" "يَقُولُ": استعمال الفعل المضارع يدلّ على تجدد هذا القول منهم وتكرره، وهو فعل في سياق الإثبات مقيد بمفعوله (مقول القول): "آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمَ الْآخِرِ"، وأما

^١ أبا السعود، الإرشاد، مرجع سابق، ج ١/٤٠.

^٢ سورة البقرة الآية (٧)

^٣ سورة البقرة الآية (٨)

الفعل "أَمَّنَا" فهو في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ"، "وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ" "ما" نافية تنفي عنهم صفة الإيمان.

قال الله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾^١: "يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا": "يصحّ أن تُحمل هذه الجملة على الاستئناف البياني، فتكون مسوقة لذكر سبب سلوكهم مسلك النفاق، كما يصحّ حملها على الاتصال بما قبلها وإعرابها على الحاليّة من الضمير المستكنّ في "يَقُولُ"، بمعنى: يقولون آمنا بأفواههم مخادعين الله والذين آمنوا، والجملة على كلا الإعرابين تفيد التعليل، فهم يفعلون ذلك؛ ليخادعوا الله عزّ وجلّ والمؤمنين!

و"يُخَادِعُونَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به وما عطف عليه، "الذين": عام، "آمَنُوا" فعل في سياق الإثبات يراد به الإيمان الصادق، و"ما يخدعون": "ما" نافية، "يخدعون": الفعل في سياق النفي يعم، أنفسهم: نكرة مضافة لمعرفة تعمّ، "وما يشعرون": "ما" نافية، والفعل في سياق النفي عام.

قال الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾^٢: "قلوبهم": نكرة مضافة لمعرفة تعمّ، "مرض": نكرة في سياق الإثبات للإطلاق، ولعلّ التنكير للتهويل، أي مرض خبيث مهول، "فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول الأول والثاني (الضمير ومرضًا)، "مَرَضًا" نكرة في سياق الإثبات للإطلاق، وَهُمْ

^١ سورة البقرة الآية (٩)

^٢ سورة البقرة الآية (١٠)

عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ^١: "وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"، "عذاب" نكرة وهي تدلّ على الإطلاق ولكنها قيّدت بالصفة، وتقديم الجار والمجرور للحصر؛ لأن المبتدأ أخر مع جواز تقدمه؛ لأن لفظ "عذاب" قيّد بالصفة "أليم"، و"بما كانوا يَكْذِبُونَ": الباء للسببية، وما موصولة للعموم، والفعل "يَكْذِبُونَ": في سياق الإثبات مقيّد بمفعوله المقدّر، وهو مطلق إذا قلنا "ما" مصدرية، والمصدر المنسبك عام أي: بكذبهم، قال السمين الحلبي: "بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ" متعلّق بالاستقرار المقدّر في «لهم» أي: عذاب أليم استقرّ لهم بسبب تكذيبهم. و"ما" يجوز أن تكون مصدرية أي بكونهم يكذبون وهذا على القول بأنّ ل «كان» مصدرًا، وهو الصحيح عند بعضهم، ويجوز أن تكون «ما» بمعنى الذي^٢.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾^٣.

"إذا": اسم شرط من صيغ العموم، "قِيلَ لَهُمْ": فعل في سياق الشرط يعم، وقد حُصص بالجار والمجرور: "لَهُمْ"، ومقول القول: "لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ"، و"لَا تفسدوا": "لا": ناهية، والنهي للتحريم، والفعل في سياق النهي يعمّ، والفعل ليس مخصصًا بالجار والمجرور: "في الأرض"؛ لأنهما خرجا مخرج الغالب، فغالب الحياة في الأرض، والفساد منهى عنه في الأرض وفوق القمر وفي الفضاء، و"الأرض": "أل" للعموم، إذا قصدنا قِطْع الأرض المقطعة، فأرض الجزيرة قِطْع كثيرة، وأراضي قارتي آسيا وأفريقيا قِطْع لا تحصى، "قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ": "إنما": للحصر، ومفهومه أنهم غير مفسدين.

^١ سورة البقرة الآية (١٠)

^٢ السمين، شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون المؤلف: المحقق: الدكتور أحمد محمد

الخراط، دار القلم، دمشق ج ١/ ١٣٠-١٣١

^٣ سورة البقرة الآية (١١)

قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^١.

ألا: حرف تنبيه واستفتاح، هم: ضمير فصل، "المفسدون"، "الكاملو الإفساد البالغون من العراقة فيه ما يجعل إفساد غيرهم بالنسبة إلى إفسادهم عدماً"^٢، ومفهومه: أن غيرهم ليسوا كذلك في سوء الحال، "وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ" لا يشعرون: الفعل في سياق النفي يعم، أي لا شعور لهم بالفساد الذي ينجونه على أنفسهم، ولا بالفساد الذي يجرونه إلى غيرهم.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^٣

"وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ" "إذا": ظرفية شرطية من صيغ العموم، "قِيلَ لَهُمْ": فعل في سياق الشرط يعم، وقد حُصص بالجار والمجرور: "لَهُمْ"، ومقول القول: "آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ"، "آمِنُوا": فعل أمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيد بما بعده، "كَمَا آمَنَ" ما مصدرية، والمصدر المنسبك "إيمان" للعموم؛ لأنه بتقدير نكرة مضافة إلى معرفة: كإيمان الناس، و"الناس": عام مراد به خصوص المؤمنين لا عموم الناس.

"أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ": استفهام إنكاري "كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ" "ما" مصدرية، والمصدر المؤول مضاف إلى معرفة يعم، و"السفهاء": عام مراد به خصوص المؤمنين لا عموم السفهاء، وسلوك المنافقين يتجدد باستعمال وسائل الإعلام المتنوعة؛ لقلب الحقائق، واتهام

^١ سورة البقرة الآية (١٢)

^٢ البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ج ١/ ١١١

^٣ سورة البقرة الآية (١٣)

المؤمنين بالسَّفه. "أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ" ألا: حرف تنبيه واستفتاح، "إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ" أسلوب حصر، وهم: ضمير فصل، و"السفهاء": "أل" لكمال الاتصاف بالسفه، ومفهومه أنهم هم السفهاء لا غيرهم، "لا يعلمون": الفعل في سياق النفي يعم، فلا علم لهم، ولكنه مخصّص بالسياق أي لا يعلمون أنهم سفهاء لشدة سفههم وبلادتهم.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾^١.

"إذا": شرطية ظرفية تعم، "لَقُوا" فعل في سياق الشرط يعمّ كلّ لقاء، "الذين": موصول عام، "آمَنُوا" فعل في سياق الإثبات مطلق، "قَالُوا آمَنَّا"، "قَالُوا" فعل في سياق الإثبات مقيد بمقول القول: "آمَنَّا"، و"آمَنَّا": فعل في سياق الإثبات مطلق، "وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ" "إذا": شرطية ظرفية تعم، "خَلَوْا" الفعل في سياق الشرط يعمّ كلّ خلوة، مخصص بالجارّ والمجرور: "إِلَى شَيَاطِينِهِمْ"، وقد فرّق القرآن بين العبارتين: فجعل اللقاء للمؤمنين، والخلوة لخاصّتهم، واللقاء أعمّ ويكون علناً وسراً قصداً وبغير قصد، وأما الخلوة فتكون خفية مع زيادة اهتمام وخصوصية. "شياطينهم": نكرة مضافة لمعرفة تعم، والمضاف إليه ضمير يدل على الاختصاص، "إنما": أداة حصر.

تبين هذه الآية شدة القلق والاضطراب والمعاناة التي يتقلّب فيها المنافقون لتدمير خداعهم، والحفاظ على مصالحهم العاجلة في بقائهم بين المسلمين، وفي زمرة الشياطين. فهم يريدون بهذا التلّون أن يرتعوا سالمين غانمين مع الفريقين بصفتين متضادتين: الإيمان والكفر، وهم خائفون أن ينكشف أمرهم.

^١ سورة البقرة الآية (١٤)

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^١.

الله جلّ جلاله وتعالى مجده يفتح هذه الآية باسمه الأعظم، وهذه أول آية في ترتيب المصحف تفتح بهذا الاسم المجيد، فما أعظم سنة الله تعالى في استدراج الطغاة بإمدادهم بأسباب الطغيان؛ ليزدادوا تخبطاً وعمهاً، ويستحقوا أشدّ العذاب.

"يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ" الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "بِهِمْ"، "وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ": "وَيَمُدُّهُمْ" الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به، وبالجارّ والمجرور: "فِي طُغْيَانِهِمْ"، والطغيان حقيقة شرعية، وهو مجاوزة حدود الله، وبالجمله المؤولة بالحال، وهي جملة: "يَعْمَهُونَ"، والتقدير: وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ عامهين، والعمه: التردد والتحير والتخبط في الضلال، فالعمه داء يطمس البصائر، فلا تبصر قلوبهم نور الحق ولا تفقه الوحي، بل تتخبط في ظلمات الباطل والجهالة، كما يتخبط الأعمى الذي ضلّ في الصحراء.

قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾^٢

"أُولَئِكَ": القوم المنافقون المخادعون الذين يظهرون الإيمان إذا لقوا المؤمنين، ويظهرون كفرهم لإخوانهم الكافرين هم المتاجرون بالدين. هذه حقيقتهم، وهذه صورتهم! "أُولَئِكَ": (مبتدأ)، و"الذين اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ": (خبر المبتدأ) وتعريف المبتدأ والخبر يفيد حصر المتاجرة بالدين في هذا الفريق. "الذين": موصول: عامّ، و"اشْتَرَوُا": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به وبالجارّ والمجرور، و"أل" في الضلالة والهدى للاستغراق والعموم، فاستغرقوا كنوز الهدى ثمنًا للضلالة.

^١ سورة البقرة الآية (١٥)

^٢ سورة البقرة الآية (١٦)

"فَمَا رَحَّتْ" الفعل في سياق النفي يعمّ، "تَجَارَهُمْ": نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، ولكنّ السياق يخصّها باشتراء الضلالة بالهدى، فقد استبدلوا الضلالة بالهدى، فخسروا خساراً مبيّناً. "وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ": هو في المعنى بمثابة تسلّط النفي على المصدر الذي اشتق منه في اسم الفاعل "مُهْتَدِينَ": فيفيد العموم، أي: لا اعتداء لهم البتّة.

وهذا التصوير البديع (بالاستعارة المرشحة) يلخص حال هؤلاء السفهاء في أسواق الحياة، وهم يتاجرون بدينهم، يبيعون دينهم وآخرتهم بعرض من الدنيا قليل، فيخسرون. وأعداء الأمة يبدلون جهوداً عظيمة؛ لإنتاج مثل هذا التدنّ الخبيث الذي يزيد الأمة خبالاً، ويروجون له، ويسمون أهله بأسماء خلافة كالمستنيرين، والعصرانيين، والمفتحين، وأنصار التجديد والتحديث، وقد لبسوا ثياب الدين زوراً، فبعضهم ارتدى ثياب الفكر الإسلامي؛ ليُلبس الحقّ بالباطل، وبعضهم يحمل مناهج الغرباء، لتغريب المسلمين عن دينهم...

ثمّ ضرب الله عزّ وجلّ لأهل الشقاق والنفاق مثلين بليغين، يصوّر فيهما ارتكاسهم وانحطاطهم وخسارتهم، قال الله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾^١.

ها هنا تتراءى للقارئ أشباح القوم تتخبّط في ظلمات الجهالة والجاهلية، قد فقدوا كلّ مسالك العلم، والتواصل، والاتصال بنور الحقّ والهدى، فما أبأسهم! وما أشدّ ضنكهم! ومع ذلك فقد أفسح لهم الإسلام في مجتمعاته؛ ليضرب للعالمين أجلاً صور الرحمة، والسماحة، والحرية، وقد أمهلهم، فتركهم وما اختاروه، ولم يصدر فيهم أحكام الخيانة العظمى! أوْبَعَدَ هذا يزيّد على رحمة الإسلام، وسعته، وسماحته مزياد!

^١ سورة البقرة الآية (١٧)

"مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا": الإضافة في الموضعين للتعريف وليست للتعميم،
 "الَّذِي": اسم موصول عام، "اسْتَوْقَدَ نَارًا": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "نَارًا"،
 و"نَارًا" نكرة في سياق الإثبات للإطلاق تصدق على أية نار.

"فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَّهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ": "فَلَمَّا":
 "الفاء عاطفة أو استئنافية، ولما اسمية ظرفية حينية أو رابطة حرفية، وهي متضمنة معنى الشرط
 على كل حال"^١، بسبب وبلا سبب لمجرد الافتتان، وقال السمين الحلبي: "لَمَّا: حرفٌ وجوب
 لوجوب هذا مذهب سيبويه"^٢، "أَضَاءَتْ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "مَا
 حَوْلَهُ"، و"مَا": موصول عام، و"حَوْلَهُ": ظرف مضاف يعمّ، و"نورهم": نكرة مضافة تعمّ،
 وَتَرَكَّهُمْ فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول الأول: الضمير، والمفعول الثاني: الجارّ والمجرور
 "في ظلمات"، وبالحال: جملة "لَا يُبْصِرُونَ"، و"ظلمات": نكرة في سياق الإثبات للإطلاق،
 ويحتمل أن يكون التنكير للتهويل والتفخيم، و"لَا يُبْصِرُونَ" الفعل في سياق النفي يعمّ، فلا
 إِبصار لهم.

قال الله تعالى: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾^٣.

"صُمُّ بُكْمٌ عُمَيٌّ": كلها أخبارٌ مبتدأ محذوف، أي: هم صُمُّ بُكْمٌ عُمَيٌّ، أي: لا
 يسمعون ولا ينطقون ولا يبصرون، "فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ" "لا": نافية، والفعل بعدها للعموم، فلا
 رجوع إلى الهدى عن غيِّهم وباطل. وهذا تمثيل لحال صنفٍ ممن مردوا على النفاق، وأوغلوا في
 الكفر والشقاق، وأوصدوا قلوبهم وكل منافذ الاعتبار، فقد شاهدوا أنوار الحق، ولكنهم لم

^١ درويش، محيي الدين بن أحمد، إعراب القرآن وبيانه، دار ابن كثير - دمشق - بيروت، ط٤، ١٤١٥ هـ، ج ١/ ٣٧٢

^٢ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ١/ ١٦٠-١٦١

^٣ سورة البقرة الآية (١٨)

ينتفعوا بها، فسلبهم الله البصر والبصيرة، وختم على سمعهم، وأفواههم، وقلوبهم، وتركهم في ظلمات محجوبين لا ينفذ إليهم ضياء، ولا يصلهم صوت هدى.

قال الله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ* يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^١

هذه صورة جامعة لحياة مَنْ استحوذ عليهم النفاق، فأَيَّ حياة لمن أُحصِر في العراء ماشياً وقائماً لا يجد فسحة؛ ليضع جنبه، بل يسوقه صيب مستمر لا يُكِنُّ منه شيء، صيب فيه ظلمات موحشة، ورعد مجلجل، وبرق يكاد يخطف الأبصار، وصواعق مرسلة تزلزل الأفعدة. هكذا يقضي المنافقون حياتهم البئيسة!

ولقد ذُكر المتقون في أربع آيات في مطلع السورة، والكافرون في آيتين، وتلا ذلك ذكر المنافقين في ثلاث عشرة آية، وذلك أن النفاق من أشدّ الشرور ضرراً على الأمة، وقد بيّنت الآيات حقائق المنافقين باطناً وظاهراً، وبيّنت السنة النبوية منهج التعامل معهم، والناظر في فقه التعامل مع المنافقين في ضوء مقاصد الشريعة والسنن الإلهية يجد أن الإسلام قد سلك أقوم السبل في الحفاظ على نقاء الاعتقاد، وسلامة البلاد والعباد، فحافظ على السلام المجتمعي (الداخلي المحلي)، وخفف أذى المنافقين وضررهم وفسادهم على الأمة إلى قدرٍ يُغتفر فيه السوء رعاية للأصلح، ولم ينقل الإسلام الصراع والتنازع إلى أعماق الأمة؛ فتذهب ريجها وقوتها، وتصبح قصّة مستباحة لكلّ معتد!

^١ سورة البقرة الآية (١٩-٢٠)

"أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ" والصَّيِّبُ: الْفَيْعِلُ مِنْ قَوْلِكَ: صَابَ الْمَطَرُ يَصُوبُ صَوْبًا، إِذَا انْحَدَرَ وَنَزَلَ، الطَّبْرِيُّ "صَيِّبٌ": لَفْظٌ مُّطْلَقٌ، "مِنَ السَّمَاءِ" ذَكَرَ بَعْضُ الْمَفْسَرِينَ أَنَّهَا صِفَةٌ كَاشِفَةٌ، وَلَيْسَتْ بِقَيْدٍ؛ لِأَنَّ الصَّيِّبَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَ السَّمَاءِ، وَفَائِدَةُ ذِكْرِ هَذَا الْوَصْفِ كَمَا قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: "جِيءَ بِهِ لِيَزِيدَ اسْتِحْضَارَ صُورَةِ الصَّيِّبِ فِي هَذَا التَّمَثِيلِ إِذِ الْمَقَامُ مَقَامُ إِنْطَابٍ"^١، وَيَبْدُو لِي أَنَّهُ وَصَفَ لِلتَّعْظِيمِ فِي ذِكْرِ السَّمَاءِ هَيْبَةً وَتَرْهيبًا وَ"السَّمَاءِ": كُلِّ مَا عَلَا عَلَيْنَا كَالسَّحَابِ، وَأَصْلُهَا سَمَا يَسْمُو سَمَوًّا مِثْلَ عَلَا يَعْلُو عَلَوًّا وَزَنًّا وَمَعْنَى، وَ"أَل" يَجُوزُ أَنْ يَرَادَ بِهَا الْعُمُومُ كُلِّ مَا عَلَا أَوْ الْعَهْدُ.

"فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ"، وَ"ظُلُمَاتٌ، وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ": نَكَرَاتٌ لِلْإِطْلَاقِ، وَيُظْهِرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّ التَّنْكِيرَ لِلتَّهْوِيلِ، "أَصَابِعُهُمْ": ظَاهِرُهُ الْعُمُومُ؛ لَكُونُهُ نَكْرَةٌ مُضَافَةٌ إِلَى مَعْرِفَةٍ، وَلَكِنْ الْحَسَّ يَصْرِفُهُ عَنِ الْعُمُومِ إِلَى بَعْضِ الْأَصَابِعِ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ *يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ "الصَّوَاعِقُ": عَامٌّ مُرَادُ بِهِ الْخُصُوصُ وَ"الْمَوْتُ": أَلٌ لِّلْعَهْدِ، "الْكَافِرِينَ": صِفَةٌ صَرِيحَةٌ، وَ"أَل" لِلْعُمُومِ، "الْبَرْقُ": "أَلٌ" لِّلْعَهْدِ الذِّكْرِيِّ فَقَدْ سَبَقَ ذِكْرُهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: "فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ"، وَ"أَبْصَارَهُمْ": نَكْرَةٌ مُضَافَةٌ تَعَمُّ، "كُلَّمَا": ظَرْفِيَّةٌ تَعَمُّ، قَالَ السَّمِينُ: "كُلٌّ نَصَبٌ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ، لِأَنَّهَا أُضِيفَتْ إِلَى "مَا" الظَّرْفِيَّةِ، وَالْعَامِلُ فِيهَا جَوَائِهَا، وَهُوَ "مَشَوْا". وَقِيلَ: "مَا" نَكْرَةٌ مُوصُوفَةٌ، وَمَعْنَاهَا الْوَقْتُ أَيْضًا، وَالْعَائِدُ مُحذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: كُلَّ وَقْتٍ أَضَاءَ لَهُمْ فِيهِ، فَأَضَاءَ عَلَى الْأَوَّلِ لَا

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/٣١٧

محلّ له لكونه صلةً، ومحلّه الجرُّ على الثاني^١. و"إذا" شرطية ظرفية تعمّ، "سمعهم": نكرة مضافة للعموم، "كلّ": من صيغ العموم.

وفي هذا المثل تتجلى بعض طبائع المنافقين، فنرى حُجب التردد والتذبذب مخيِّمة عليهم، ولكن النور لم يذهب بالكلية، وشمسه تشرق وتغرب، والفرص تبدو وتعزب، وكأن القوم في إمهال وإملاء؛ لعلّهم يرجعون، فالفرق الذي يبدو لي بين المثليين ملخصه: أن المثل الأول اختفت فيه وسائل العلم والاتصال، فجاء عقبه قولُ الله تعالى: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾^٢، وفي المثل الثاني يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾^٣ أي: أن الله تعالى لم يذهب بسمعهم وأبصارهم ...

ولا أعرف أوصافاً نفسيةً أخبث من أوصاف المنافقين، ومع ذلك فإنّ القرآن الكريم ييسّط لهم بُسْط الإنابة، ويفتح أبواب التوبة لمن شاء منهم أن يستقيم. إنه دين الرحمة! و"أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ"^٤.

^١ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ١/ ٨٢.

^٢ سورة البقرة آية (١٨)

^٣ سورة البقرة آية (٢٠)

^٤ رواه أحمد وحسنه ابن حجر.

قال الله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾^١.

وإني حينما أقرأ هذا المثل أكاد أرى أشباح القوم تتخبط في ظلمات بحر الجهالة والجاهلية، يغشاها موج الشبهات، من فوقه موج الشهوات، فسدت عليهم كل مسالك العلم، والتواصل، والاتصال بنور الحق والهدى؛ حتى إن القارئ يكاد يَحْتَنقُ إن حاول أن يتمثل حالهم!

فما أبأس أهل الضلالة! وما أشدَّ ضنَّكهم! ومع ذلك فقد استوعبهم الإسلام في مجتمعاته؛ ليضرب للعالمين أجلَّ صور الرحمة، والسماحة، والحرية، وقد أمهلهم، فتركهم وما اختاروه، ولم يصدر فيهم أحكام الخيانة العظمى! أبعد هذا يزايد على رحمة الإسلام، وسعته، وسماحته مزاييد!

"الذي": اسم موصول عام، "نارًا" نكرة في سياق الإثبات للإطلاق، "مَا حَوْلَهُ" "ما": موصول عام، نورهم: نكرة مضافة تعم، "ظلمات": نكرة للتهويل والتفخيم، "لَا يُبْصِرُونَ"، "لا": نافية، والفعل بعدها للعموم.

"صُمُّ بُكْمٌ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ" (١٨): "لا": نافية، والفعل "يَرْجِعُونَ" بعد النفي للعموم. وهذا تمثيل لحال صنفٍ ممن مردوا على النفاق، وأوغلوا في الكفر والشقاق، وأوصدوا قلوبهم وكل منافذ الاعتبار، فقد شاهدوا أنوار الحق، ولكنهم لم ينتفعوا بها، فسلبهم الله البصر

^١ سورة البقرة الآية (١٧)

والبصيرة، وختم على سمعهم، وأفواههم، وتركهم في ظلمات محجوبين لا ينفذ إليهم ضياء، ولا يصلهم صوت هدى، ولا تسمع لهم ركزًا.

قال الله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^١

هذه صورة جامعة لحياة مَنْ استحوذ عليهم النفاق، فأَيَّ حياة لمن أُحصِر في العراء ماشيًا وقائمًا لا يجد فسحة؛ ليضع جنبه، بل يسوقه صيب مستمر لا يُكِنُّ منه شيء، صيب فيه ظلمات موحشة، ورعد مجلجل، وبرق يكاد يخطف الأبصار، وصواعق مرسلة تزلزل الأفعدة. هكذا يقضي المنافقون حياتهم البئسة! أيودّ أحد أن تكون له حياة كهذه؟ ويكأنه لا يفلح المنافقون!

"أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ": معطوفٌ على "كَمَثَلِ"، فهو في محلِّ رفع، و"الصَّيْبُ": "الْقَيْلُ من قولك: صَابَ المطرُ يَصُوبُ صَوْبًا، إذا انْحَدَرَ وَنَزَلَ"^٢، و"الصَّيْبُ" نكرة في سياق الإثبات مطلق، و"من السماء" صفة كاشفة، وليست ب قيد، قال ابن عاشور^٣: وَالظَّاهِرُ أَنَّ قَوْلَهُ: مِنَ السَّمَاءِ لَيْسَ بِقَيْدٍ لِلصَّيْبِ وَإِنَّمَا هُوَ وَصْفٌ كَاشِفٌ جِيءَ بِهِ لِيَزِيدَ اسْتِحْضَارَ صُورَةِ

^١ سورة البقرة الآية (١٩-٢٠)

^٢ الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، ج ١/٥٤٦

^٣ التحرير ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/٣١٧

الصَّبِّ فِي هَذَا التَّمَثِيلِ إِذِ الْمَقَامُ مَقَامُ إِطْنَابٍ^١، وإرهاب، فهو وصف للتعظيم والتهويل ففي ذكر السماء هيبّة وترهيب؛ لما تقذفه السماء في القلوب من الهول والرهبة إذا أظلمت واكتظت بالسحب.

و"السماء": "أل" للعهد أو للعموم، وكلّ ما علاك فأظلك فهو سماء، و"ظلمات، ورعد وبرق": نكرات في سياق الإثبات للإطلاق، ويظهر من السياق أن التنكير للتهويل، "يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ" الفعل "يَجْعَلُونَ" في سياق الإثبات مقيّد بمفعوله الأول: "أصابعهم"، ومفعوله الثاني: "فِي آذَانِهِمْ"، والجارّ والمجرور: "مِنَ الصَّوَاعِقِ"، والمفعول لأجله: "حَذَرَ الْمَوْتِ".

و"أصابعهم"، و"آذَانِهِمْ"، نكرتان مضافتان للعموم، و"أصابعهم": ظاهره العموم؛ لكونه نكرة مضافة إلى معرفة، لكنّ الحسّ والواقع يصرفه عن العموم إلى بعض أجزاء أصابعهم، فهو من إطلاق الكلّ وإرادة الجزء، و"الصَّوَاعِقِ": "أل"، للعموم، و"حَذَرَ الْمَوْتِ" تعليل لفعلهم، و"الموت": أل للعهد، "وَاللَّهُ مُخِيطٌ بِالْكَافِرِينَ"، هذه الجملة للتهديد والتحذير، والجارّ والمجرور: "الْكَافِرِينَ" قيّد للفظ "مُخِيطٌ" متعلق به، و"الكافرين": "أل" الموصولة للعموم، والكافرين: صفة صريحة تومئ وتنبيه على علّة الإحاطة بهم، وهي علّة الكفر.

"يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ هُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"، "البرق": "أل" للعهد الدّكري فقد سبق ذكره في قوله تعالى: "فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ"، و"يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ"

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/٣١٧

"يَخْطَفُ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بمفعوله "أبصارهم"، و"أبصارهم": نكرة مضافة تعمّ،
 "كُلَّمَا أَضَاءَ هُكُّمَ مَشَوْا فِيهِ" "كلما": ظرفية فيها معنى الشرط تعمّ، "أضَاءَ هُكُّمَ" فعل في سياق
 الشرط مخصص بالجارّ والمجرور "هُكُّمَ"، "مَشَوْا فِيهِ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور
 "فِيهِ".

"وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَائِمُوا"، "إذا" شرطية ظرفية تعمّ، "وَأَظْلَمَ عَلَيْهِمْ"، فعل في سياق
 الشرط يعمّ، وقد خصّص بالجارّ والمجرور "عَلَيْهِمْ"، و"قَائِمُوا"، فعل في سياق الإثبات مطلق.

"وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"، "سمعهم":
 نكرة مضافة للعموم، و"أبصارهم": نكرة مضافة تعمّ، "إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"، "كل":
 من صيغ العموم، وهذه العبارات للتهديد والتحذير.

وفي هذا المثل تتجلى بعض طبائع المنافقين، فنرى حُجُب التردد والتذبذب مخيمة
 عليهم، ولكن النور لم يذهب بالكلية، وشمسه تشرق وتغرب، والفرص تبدو وتعزب، وكأن
 القوم في إمهال وإملاء؛ لعلهم يرجعون.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ^١.

هذا أول لنداء في القرآن الكريم، وقد جاء بصيغة العموم "يَا أَيُّهَا النَّاسُ"، وجواب النداء: "اعْبُدُوا رَبَّكُمُ"، وهو أمر بالعبادة التي هي أصل الفلاح والسعادة في الدارين.

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ" أي: اسم منادى في محل نصب، ولكنه بُني على الضم؛ لأنه مفرد معرفة، و"ها" زائدة للتنبيه لازمة لها، و"الناس" صفة لأيّ يلزم رفعه، ولا يجوز نصبه على المحل، وهو عام، "اعبدوا": أمر للوجوب، والفعل مقيّد بمفعوله "رَبَّكُمُ"، وهذا الأمر معلن بجملة: "لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ". الإضافة في: "رَبَّكُمُ" للتعيين والتشريف والتأليف، وفي "الْإِثْنَانِ بِلَفْظِ الرَّبِّ إِثْنَانٌ بِأَحَقِّيَّةِ الْأَمْرِ بِعِبَادَتِهِ فَإِنَّ الْمُدَبِّرَ لِلْأُمُورِ الْخَلْقِ هُوَ جَدِيرٌ بِالْعِبَادَةِ لِأَنَّ فِيهَا مَعْنَى الشُّكْرِ وَإِظْهَارَ الْإِحْتِيَاجِ"^٢.

"الَّذِي خَلَقَكُمْ" الموصول صفة الربّ سبحانه؛ للتذكير بنعمة الخلق، والفعل "خَلَقَكُمْ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به، والمعطوف عليه: "وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ"، و"الذين" موصول عام، وهو معطوف على المفعول به، ولفظ "قَبْلِكُمْ": نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، وفي صلة الموصول "الَّذِي خَلَقَكُمْ" تعليل بالخلق لاستحقاق ربنا سبحانه وتعالى العبادة وحده لا شريك له.

^١ سورة البقرة آية (٢٢-٢١).

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/ ٣٢٦

"لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" لعلّ: للتعليل وإثارة طمع القلوب، والفعل "تَتَّقُونَ" في سياق الإثبات نُزِّل منزلة الفعل اللازم أي: لتحصل لكم التقوى وتكونوا متقين؛ فتفلقوا؛ والتقوى حقيقة شرعية.

"الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً" "الَّذِي" بدل من "الذي" الأولى، أو صفة ثانية لربّ في قول الله تعالى: "اعْبُدُوا رَبَّكُمْ"، ولفظ "جَعَلَ": فعل في سياق الإثبات مقيد بالجار والمجرور "لَكُمْ"، وبالمفعول الأول "الأرض"، وبالمفعول الثاني "فِرَاشًا"، وبما عطف على ما سبق، "أل" في "الأرض"، و"السماء" للعهد، وأما "فِرَاشًا" وكذا "بِنَاءً" فنكرتان مطلقتان أو مقيدتان بصفات مقدّرة: فرشًا ممهدًا وبناءً محكمًا محفوظًا.

"وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ": الفعل "أَنْزَلَ" معطوف على "جعل"، وهو فعل في سياق الإثبات مقيد بالجار والمجرور "مِنَ السَّمَاءِ" وبالمفعول به: "ماءً"، "ماءً" نكرة في سياق الامتنان للعموم. والفعل "أَخْرَجَ" في سياق الإثبات مقيد بالجار والمجرور: ("بِهِ"، "مِنَ الثَّمَرَاتِ")، وبالمفعول به: "رِزْقًا لَكُمْ": و"أل" في "الثمار": للعموم، قال: ابن عاشور: "و(مِنَ) الَّتِي فِي قَوْلِهِ: "مِنَ الثَّمَرَاتِ" لَيْسَتْ لِلتَّبْعِيضِ إِذْ لَيْسَ التَّبْعِيضُ مُنَاسِبًا لِمَقَامِ الْإِمْتِنَانِ بَلْ إِنَّمَا لِيَبَيِّنَ الرِّزْقَ الْمُخْرَجَ، وَتَقْدِيمُ الْبَيَانِ عَلَى الْمُبَيِّنِ شَائِعٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، وَإِنَّمَا زَائِدَةٌ لِتَأْكِيدِ تَعْلُقِ الْإِخْرَاجِ بِالثَّمَرَاتِ"¹، و"رزق" نكرة في سياق الامتنان للعموم، و"لَكُمْ": مخصّص لرزق؛ لأن النكرة في سياق الامتنان للتعميم، ويجوز أن يحمل التنكير على التعظيم، والتفخيم، والتكريم، فنقول: "ماء مباركًا طهورًا"، و"رِزْقًا طَيِّبًا كريمًا"، و"لكم" حينئذ قيد لرزق.

¹ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/ ٣٣٤

"فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ" و"لا تجعلوا"، لا: ناهية، والنهي للتحريم، والفعل بعدها للعموم، وهو مخصص بالمفعول به: "أنندادًا"، و"أنندادًا": نكرة في سياق النهي تعم كل أنواع الأنداد، "وأنتم تعلمون": الواو حالية، والفعل في سياق الإثبات مقيد بمفعول مقدر دلّ عليه السياق: وأنتم تعلمون أنه وحده سبحانه خالقكم ورازقكم.

وقد اجتمع في هاتين الآيتين أصلان جليان، هما الأمر بعبادة الربّ، والتعريف بالربّ سبحانه بصفة الخلق، والأمر والخلق لله تعالى وحده، لا يشاركه فيهما أحد، "أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ"^١، "فكما أنه لا يخلق غيره، فكذلك لا يأمر غيره، بل الدين كلّ له، هو المعبود المطاع الذي لا يستحقّ العبادة إلا هو، ولا طاعة لأحد إلا طاعته"^٢، والخلق دليل قاطع على وحدانية الربّ عزّ وجلّ واستحقاقه للعبادة وحده لا شريك له، ولا يوجد شيء من المخلوقات إلا ووجوده معزّز لهذا الأصل، فلا يوجد مخلوق في الكون يساعد المشرك على الشرك، ولا الملحد على الإلحاد.

ثمّ عطف على صفة الخلق صفة ثانية، وهي صفة التسخير والرزق وحسن التدبير، وقد اقتصر الله تعالى في هاتين الآيتين على الاستدلال بالخلق على وجوب عبادته وحده، والانتقاد لأمره ونهيّه، ولو كان هذا الدليل ناقصًا لكان التعليل به معيًّا مردودًا تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، وقد صرّحت الآية الثانية بأكبر النواهي، وهو النهي عن جعل الأنداد لله عزّ وجلّ، "وأنتم تعلمون" أي: تعلمون بالبراهين القاطعة أنه لا ندّ له.

^١ سورة الأعراف: (٥٤)

^٢ انظر: ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، علي بن حسن - عبد العزيز بن إبراهيم - حمدان بن محمد، دار العاصمة، السعودية، ١٩٩٩م، ج ٣/١٠٢

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^١.

جاء الشرط بحرف "إِنْ" الذي يستعمل فيما يُستبعد وقوعه تنزيلاً للموجود (الريب) منزلة المعدوم؛ لأن ريبهم لا دليل عليه، ومع ذلك يدعواهم الله تعالى ويحاجهم بالآيات البينات؛ حتى يميزوا الحق من الباطل ببصائرهم.

"في ريب": "في" ظرفية وهي تصور إحاطة الريب بهم وتمكّنه منهم، "ريب" نكرة في سياق الشرط تعميم، و"مِمَّا نَزَّلْنَا": "من" سببية، و"ما" موصولة تعميم، الفعل "نَزَّلَ" فعل في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: الضمير العائد المقدّر: "نزلناه" وبالجارّ والمجرور: "عَلَىٰ عَبْدِنَا"، و"عبدنا": الإضافة للتعين والتعريف والتشريف، "فأتوا": الأمر للتعجيز والتحدي، و"بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ": "سُورَةٍ": نكرة للإطلاق، والمطلق يعمم على جهة البدلية، وقد قيّد لفظ "سورة" بشبه الجملة بعده: "مِنْ مِثْلِهِ" أي من جنسه في الفصاحة والبيان والصدق والعدل.

و"ادعوا": الأمر لتهييجهم استخفافاً بهم وبمن يركنون إليهم، والفعل في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: "شهداءكم"، وبالجارّ والمجرور: "مِنْ دُونِ اللَّهِ"، و"شهداءكم": نكرة مضافة إلى معرفة تعميم كلّ شهيد مِنْ دُونِ اللَّهِ، "إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" إن كنتم صادقين في ارتيابكم وادّعاءكم أن القرآن الكريم كلام بشر يمكن الإتيان بمثله.

^١ سورة البقرة آية (٢٣)

لقد أقام الله تعالى الحجة على العباد بأثبت وألطف برهان، وجاء به على غير ما يتوقعه من في قلبه ريب؛ إذ إنه لم يقل للمرتابين جيئوا بريبكم، فإني أدحضه، وأفّده، بل جاءهم بدليل جامع يقطع دابر الادّعاءات والمكابرات.

وفي ورود القرآن الكريم بهذا الجلال والجمال والإحكام نعم لا تحصى، ولطف عظيم من الله تعالى، ورحمة بالعباد؛ ليستيقن أهل الارتياب، ويزداد الذين آمنوا إيماناً، أو ما تفكرت والمصحف بين يديك أنك تحمل -أيها العبد الضعيف- مائة وأربع عشرة سورة بيّنة، كلّ واحدة منها معجزة تامّة تامّة تامّة، تقف الخلائق حيالها خاشعة لجلالها وجمالها! ويحك ألا تتدبّر!

قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾^١.

العلان "لم تفعلوا" الفعل في سياق النفي للعموم، وهو مخصّص بمفعول مقدر: الإتيان بسورة من مثله، و"لن تفعلوا": فعل في سياق النفي للعموم، وهو مخصّص بمفعول مقدر كالسابق، ولم يذكر معمول الفعلين، موافقة للواقع؛ فإنهم لم يفعلوا شيئاً يؤبه به يستحقّ تطويل الوقوف عليه، فجاء الكلام في غاية الإيجاز مبالغة في التجاوز والسماحة مع أن الموطن موطن تحدّ، والتحدّي مظنة كسر المتعدّي، فقد كفّ القرآن الكريم عن ملاحقتهم، وأعرض عن التشنيع عليهم والتوبيخ لهم، وطوى الحديث طيّ المحسن الكريم؛ لأن المقصد من التحدي إصلاحهم وتأليف قلوبهم وكسبها لا كسرها.

^١ سورة البقرة آية (٢٤)

ولذا بادروهم بعدها بما فيه نجاتهم رحمة بهم ولطفًا، فبدأ بدرء المفسدة، وأكبر المفسد المتقاة "النار"، فقال: "فَاتَّقُوا النَّارَ": والأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "النار"، و"النار": "أل" فيها للعهد، ووصفت بالموصول وصلته للتهويل والتخويف، "وقودها" نكرة مضافة تعمّ، و"الناس والحجارة" من العامّ المراد به الخصوص، أي: الناس الكافرين وليس جميع الناس، والحجارة هي المعبودة، وهي الأصنام أو حجارة الكبريت كما ذهب إليه كثير من المفسرين، "أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ"، والفعل الماضي يدلّ على أنها قد خلقت، وهو فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: "لِلْكَافِرِينَ"، و"أل" في "الكافرين" للعموم، تعمّ كلّ من مات كافراً، والصفة الصريحة تومئ إلى علّة الوعيد وهي الكفر.

قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ هُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^١.

"وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ" "بَشِّرِ": هذا هو أول أمر صريح للنبيّ عليه الصلاة والسلام بصيغة الأفراد في السورة، وفيه دلالة على عظمة منزلة "فريضة التبشير"، ففي هذه الآية أصول جامعة، وهي:

الأول: الفعل "بَشِّرِ" مشتقّ من التبشير، وحقيقته في اللغة: السبق بإعلام غيرك بما يُسرّ به، "والبشارة أصلها الخبر بما يُسرّ به المخبر، إذا كان سابقاً به كلّ مخبرٍ سواه"^٢.

^١ سورة البقرة آية (٢٥)

^٢ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ١/ ٣٨٣

الثاني: صيغة "افعل" "وَبَشِّرِ"، وهي للوجوب؛ لأنه لا صارف لها، وهو فعل في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: "الذين".

الثالث: مقاصد التبشير: للتبشير مقاصد كثيرة منها "إرادة التنشيط؛ لاكتساب ما يُزلف، والتشبيط عن اقتراف ما يُتلف"^١، ومنها إدخال السرور والأنس في قلوب المؤمنين؛ ليسعدوا بها، ويلتذّوا بما تفيض به من الفرح والبهجة على قلوبهم.

الرابع: أنواع التبشير: ورد التبشير على وجوه متنوعة، منها التبشير العام للأمة، ومنها التبشير لأناس بأسمائهم، ومنها التبشير لمن فعل أفعالاً معيّنة، وقد ورث الرسول عليه الصلاة والسلام أمته منهاجاً قويمًا كريمًا في التبشير.

الخامس: البشير: المأمور بالتبشير في هذه الآية هو البشير النذير والسراج المنير محمد عليه الصلاة والسلام، وقد بشر المؤمنين كما أمره الله تعالى، والبشير وصف من أعظم وأخصّ أوصافه عليه الصلاة والسلام.

السادس: الفعل "بَشِّرَ" في سياق الإثبات مقيد بقيدين:

القيد الأول: المفعول به، وهم المبشّرون: "الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ"، "الذين" موصول عامّ، "آمَنُوا" فعل في سياق الإثبات مطلق، و"عَمِلُوا" فعل في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: "الصالحات"، وأل للعموم. فيجب تعميم البشري لكل الذين "آمَنُوا وعملوا الصالحات"، وعليه فالتبشير أصل، ولا يستثنى أحد من المؤمنين إلا بدليل.

^١ الرمخشري، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، مرجع سابق، ج ١/ ١٠٤

القيد الثاني: "أَنَّ هُمْ جَنَاتٍ"، ومحلّه النصب بنزع الخافض "الباء": بأن لهم جنات، وتقديم الجارّ والمجرور يفيد الحصر، ومفهومه: لهم جنات لا غيرهم، والأمور المبشّر بها: "أَنَّ هُمْ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ..."، وقد صرحت الآية ببعض ما أعدّه الله تعالى لعباده المؤمنين:

أحدها: الجنّات: "جنات": مطلق مقيّد بالوصف بالجملة بعده: "تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ".

ثانيها: الأنهار: "تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ"، الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور "مِنْ تَحْتِهَا" تحت أفنانها وثمارها، "الأنهار": "أل" للعموم، فتعمّ كلّ أنهار الجنة، وهي أنواع: "فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى".

ثالثها: الثمر والرّزق: "كُلُّمَا رَزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا": و"كُلُّمَا": "ظُرِفُ زَمَانٍ لِأَن كَلًّا أَضِيفَتْ إِلَى "مَا" الظَّرْفِيَّةِ الْمُصَدَّرِيَّةِ فَصَارَتْ لِاسْتِعْرَاقِ الْأَزْمَانِ الْمُقَيَّدَةِ بِصِلَةِ مَا الْمُصَدَّرِيَّةِ، وَقَدْ أُشْرِبَتْ مَعْنَى الشَّرْطِ لِذَلِكَ فَإِنَّ الشَّرْطَ لَيْسَ إِلَّا تَعْلِيْقًا عَلَى الْأَزْمَانِ الْمُقَيَّدَةِ بِمَذْلُولِ فِعْلِ الشَّرْطِ وَلِذَلِكَ خَرَجَتْ كَثِيرٌ مِنْ كَلِمَاتِ الْعُمُومِ إِلَى مَعْنَى الشَّرْطِ عِنْدَ اقْتِرَائِهَا بِمَا الظَّرْفِيَّةِ نَحْوِ كَيْفَمَا وَحَيْثُمَا وَأَيْنَمَا وَمَهْمَا^١، "رَزِقُوا مِنْهَا" الفعل في سياق الشرط مخصص وبالجارّ والمجرور: "منها"، وبالمفعول الثاني: "رِزْقًا"، و"منها": مِنْ: لابتداء الغاية وكذلك "مِنْ ثَمَرَةٍ"؛ لأنها بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ: "منها" بَدَلٌ اشْتِمَالٍ بِإِعَادَةِ الْعَامِلِ^٢، وفائدة البدلية التخصيص،

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/ ٣٥٦

^٢ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ١/ ٢١٥

و("ثمرة" و"رُزْقًا") بمعنى مَرْزُوقٍ نكرتان في سياق الشرط والامتنان تعمّان، "رُزْقًا": بمعنى الشيء المرزوق، "قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ": "قَالُوا": فعل في سياق الإثبات مقيد بمقول القول، و"الَّذِي" موصول من صيغ العموم، "رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ" الفعل في سياق الإثبات مقيد بالضمير المقدر العائد على الموصول، وبالجارّ والمجرور: "مِنْ قَبْلُ" أي: في الدنيا، ورجحه الطبري، وذهب بعض المفسرين إلى أن التشابه بين ثمار الجنة، قال ابن عاشور، "وإِذْ كَانَتْ كُلَّمَا نَضًا فِي عُمُومِ الْأَزْمَانِ تَعَيَّنَ أَنَّ قَوْلَهُ: "مِنْ قَبْلُ" الْمَبْنِي عَلَى الضَّمِّ هُوَ عَلَى تَقْدِيرِ مُضَافٍ ظَاهِرِ التَّقْدِيرِ أَيِ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْمَرَّةِ، فَيَقْتَضِي أَنَّ ذَلِكَ دَيْدُنُ صِفَاتِ ثَمَرَاتِهِمْ أَنَّ تَأْتِيهِمْ فِي صُورِ مَا قُدِّمَ إِلَيْهِمْ فِي الْمَرَّةِ السَّابِقَةِ. وَقَوْلُهُ: وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ظَاهِرٌ فِي أَنَّ التَّشَابُهَ بَيْنَ الْمَائِي بِهِ لَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ثَمَارِ الدُّنْيَا"؛^١ لأن كل شيء في الجنة يزداد حسنًا وفضلًا، فهم في مزيد دائم "وأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا" الفعل في سياق الإثبات مقيد بما بعده من المتعلقات.

رابعها: الأزواج: "وَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ" تقديم الخب يفيد الحصر، ومفهومه لهم لا لغيرهم و"أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ": نكرة في سياق الإثبات مقيدة بصفة "مُطَهَّرَةٌ": الطهارة من كل عيب حسي ومعنوي.

خامسها: الخلود في الجنّات: "وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"، "فِيهَا" متعلق ب"خالدون" وتقديم المعمول يفيد الحصر، ومفهومه: فيها خالدون لا في غيرها، وفي هذا التبشير غاية التشويق والتزغيب للمؤمنين، وفيه تعريض بمن يتبعون الشيطان الذي أخرج أبويننا من الجنة! وتحذير من خطواته؛ حتى لا يفوتنا هذا النعيم.

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/ ٣٥٦-٣٥٧

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا
الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنََّّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ
بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ
وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^١.

تصدير الآية باسم "الله" المسبوق بأداة التوكيد ينبئ عن أمر عظيم، وذلك أن المرتابين
لما عجزوا عن الإتيان بسورة مختلقة من عند أنفسهم، وهتوا، أمرهم الله تعالى باتقاء النار،
فمنهم من استجاب لله تعالى ولرسوله عليه الصلاة والسلام، وحق بالذين آمنوا وعملوا
الصالحات، فأمر الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام بتبشير الذين آمنوا وعملوا الصالحات
بنعيم الجنة تأليفاً وتشريفاً، فاستبشروا وسعدوا.

وأما الذين شقوا فعرفوا الحق وانصرفوا مكرين ومكابرين، فسلخوا سبل التشويه
والتشكيك، فانتقل الخطاب القرآني إلى مساق الحماية؛ ليبطل كيدهم ومكرهم وشبهاتهم،
ليحفظ الدين من الشكوك والطعون التي يختلقها الفاسقون؛ وهذا مقصد عظيم جامع، ومجال
خطير وواسع، وما نراه اليوم من حرب إعلامية وثقافية على الإسلام وأهله، وما أنتجته من
عداوة للإسلام وتخويف منه (إسلام-فويا) ما هو إلا امتداد لتلك الحملات الضارية على
الإسلام في عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام.

^١ سورة البقرة آية (٢٦-٢٧)

قال الله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا"؛ لأنه لا

يقول إلا الحق، ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾^١.

والجملة اسمية مؤكدة بـ"إِنَّ" مبالغية في الإثبات، ودرء التشكيك والتردد. "لَا يَسْتَحْيِي" فعل في سياق النفي يعمّ، وخصّص بمفعوله "أَنْ يَضْرِبَ"؛ لأن "استحي" يتعدّى بنفسه وبحرف جرّ، تقول: اسْتَحْيَيْتُهُ، واسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ كِلَاهُمَا فصيح، و"أَنْ يَضْرِبَ" مؤولان بمصدر مضاف إلى نكرة والتقدير: "لَا يَسْتَحْيِي ضَرْبَ مِثْلِ مَا".

و"مَثَلًا" نكرة مطلقة، و"مَا" حرف صلة للإبهام ولتأكيد التنكير والشيوع (وقيل: اسم نكرة يُوصف بها، فتزيد موصوفها إبهامًا وشیوعًا، وكلمة "بعوضة" نكرة مطلقة، بدل من لفظ "مَثَلًا"؛ فهي قِيْدٌ له، بعوضة وكذا ما عطف على بعوضة: "فَمَا فَوْقَهَا" قيد لـ "مَثَلًا"، "فَمَا فَوْقَهَا": الفاء عاطفة على بعوضة، و"مَا" اسم موصول يعمّ كلّ ما هو فوق البعوضة أي: أكبر منها، وهو الظاهر، ويجوز ما هو دون البعوضة في الصغر انصرافًا عن الظاهر بما يوحيه السياق من المبالغة في ضرب الأمثال بالمستصغرات.

"فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا"، ثمّ قسم الله تعالى الناس حيال ما ضربه مثالًا إلى فريقين:

الأول: فريق المؤمنين: "فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ"، "الَّذِينَ": موصول يعمّ كلّ مَنْ آمَنَ، "آمَنُوا" الفعل في سياق الإثبات مطلق؛ لأنه نَزَلَ منزلة اللازم فلا متعلق به، وأخبر عن حالهم بالفعل المضارع "يَعْلَمُونَ"، وصيغة المضارع تدلّ على تحدّد علمهم

^١ سورة الأحزاب آية (٥٣)

واستمرارهم في العلم بأن ما يقوله الله تعالى هو "الحَقُّ"، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بما سدّ مسدّد مفعوليه: فقد سدّت "أَنَّ" وما بعدها مسدّد المفعولين، "أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ": "الحَقُّ": "أل" في الحق للعهد، وهو مقيّد بالحال التي تعلّق بها الجارّ والمجرور: "مِنْ رَبِّهِمْ"، فإن "مِنْ رَبِّهِمْ": في محلّ نصبٍ على الحال أي: الحق كائنًا من ربهم.

الثاني: فريق الكافرين: "وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا"، "الَّذِينَ كَفَرُوا" "الَّذِينَ" موصول يعمّ كلّ مَنْ كفر، "كَفَرُوا" الفعل في سياق الإثبات مطلق؛ لأنه نزل منزلة اللازم فلا متعلق به، وأخبر عن حالهم بالفعل المضارع "يَقُولُونَ"؛ ليدلّ على تحدّد قولهم واستمرارهم في الحرب الإعلامية الثقافية الباطلة، والفعل "يَقُولُونَ" في سياق الإثبات مقيّد بمقولتهم الخبيثة في هذا النصّ، وهي: "مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا"، "مَاذَا": الاستفهام إنكاريّ أي: لإنكار الحكمة من ضرب المثل بهذه الأشياء المحترقة، "مَاذَا": اسم استفهام من صيغ العموم. والفعل "أَرَادَ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به وهو اسم الاستفهام "مَاذَا"، وبالجارّ والمجرور "بِهَذَا"، فاسم الإشارة للتحقير مقيّد بـ "مَثَلًا"؛ "لِأَنَّ" اسم الإشارة مُبْهَمٌ فَحَقُّ لَهُ التَّمْيِيزُ، وَهُوَ نَظِيرُ التَّمْيِيزِ لِلضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِمْ: رَبُّهُ رَجُلًا^١، قال السمين في "مثلاً": "منصوبٌ على التمييز، على معنى التوكيد؛ لأنه من حيث أُشير إليه "بهذا" عُلم أنه مثل، فجاء التمييز بعده مؤكّداً للاسم الذي أُشير إليه"^٢، والمعنى: مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بهذا المثل مثلاً.

ثمّ قال ربّنا عزّ وجلّ: "يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا": الفعلان "يُضِلُّ، وَيَهْدِي": في سياق الإثبات، وقد قيّدا بالجارّ والمجرور والمفعول به، والإضلال والهداية حقيقتان شرعيتان،

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/ ٣٦٥

^٢ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ١/ ٢٣١

وفي هاتين الجملتين تصريح بالحكمة من ضرب المثل المعترض عليه، فالحكمة الابتلاء بالمثل؛

فمن اهتدى فعلى علم، ومن ضلّ فعن فسقٍ عن الحقّ لا عن التباس!

وقد بيّن الله تعالى سبب إضلالهم، فقال: "وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ"، و"مَا يُضِلُّ":

ما: نافية، والفعل في سياق النفي للعموم، و"إِلَّا": حاصرة، "الْفَاسِقِينَ": صفة صريحة تعمّ،

وكلّ صفة صريحة تومئ إلى العلة، ولفظ "فسق" يدلّ على الخروج من الشيء بعد الدخول

فيه، وهو هنا حقيقة شرعية: خروج عن الحقّ، فعلمَ بذلك أنهم عرفوا الحقّ ثمّ انصرفوا عنه،

ولذا سمّاهم "فاسقين"؛ ليناسب حالهم، ومفهوم المخالفة أنه لا يضلّ غير الفاسقين.

ثمّ وصفهم بما هم عليه من الطباع الخبيثة الحاملة لهم على سلوك هذا المسلك الماكر،

فقال الله تعالى: "الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ

وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ" "الَّذِينَ": الموصول صفة لذمّ الفاسقين وفضحهم ولبیان أخبث صفاتهم؛

ليحذرها الناس، "يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ" الفعل "يَنْقُضُونَ": في سياق الإثبات

مقيّد بالمفعول به: "عَهْدَ اللَّهِ"، بالجارّ والمجرور "مِنْ بَعْدِ"، و"عَهْدَ اللَّهِ" نكرة مضافة تعمّ كلّ

عهد، وهما صنفان:

الصنف الأول: العهد العامّ كما في قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ

لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ

جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾^١، تضمّنت الآية عهد الله لبني آدم عليه السلام بالنهاي

الصريح عن عبادة الشيطان والأمر بعبادة الله تعالى واحده، والوازع الحسّي الواقعي عن عبادة

^١ سورة يس الآيتان (٦٠-٦٢)

الشيطان فالتجارب المتتابة شاهدة على عداوة الشيطان وإضلاله لبني آدم عليه السلام، وفي تجاربهم عبرة وعظة، والوازع الفطريّ: العقل.

الصنف الثاني: العهود الخاصّة التي أخذها على أهل الكتاب بالإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام، و"مِيثَاقِهِ" نكرة مضافة تعمّ كل أنواع التوثيق لعهد الله.

"وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ" الفعل "يَقْطَعُونَ": في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ"، و"مَا": اسم موصول يعمّ، و"أَمَرَ اللَّهُ": "أَمَرَ": فعل ماضٍ يدلّ على طلب الفعل بمادته، ويشمل الواجب والمندوب، وهو مقيّد بالجارّ والمجرور "بِهِ"، والمصدر المؤول: "أَنْ يُوصَلَ": بدل من الضمير المجرور، والتقدير "ما أَمَرَ اللَّهُ بوصله"، فهو يعمّ كل صلة واجبة ومندوبة، "وَيُقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ": الفعل "يُقْسِدُونَ": في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "فِي الْأَرْضِ" و"الْأَرْضِ": "أَل" للعهد أو للعموم إن أريد قطع الأرض المختلفة.

ظاهر النصّ العموم؛ فيشمل أصحاب هذه الأوصاف في كلّ عصر ومصر، فقد جمعوا أصول الشرور كلّها: نقض عهد الله، وقطع ما أمر الله بوصله، والفساد في الأرض، وهذه الخصال مجتمعة في كلّ طائفة تعادي الإسلام من المنافقين، وأهل الكتاب، والمشركين، وإن كانت بعض هذه الخصال ألصق ببعض هذه الطوائف؛ ليُشير تبعاً لا أصالة إلى الطوائف الثلاث التي كانت تشكّك في الإسلام زمن نزول القرآن الكريم، قال الإمام الطبري: "ويحتمل أن يشار بنقض عهد الله إلى اليهود؛ لأنهم نقضوا العهد الذي أخذ الله عليهم في الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، ويشار بقطع "مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ" إلى قريش؛ لأنهم قطعوا

الأرحام التي بينهم وبين المؤمنين، ويشار بالفساد في الأرض إلى المنافقين؛ لأن الفساد من أفعالهم"¹.

"أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ": "الخاسرون": تعريف المبتدأ والخبر للحصر، وضمير الفصل لتوكيد الحصر، ومفهومه: أن غير أولئك على خلاف ذلك أي: أنهم غير خاسرين.

قال الله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْْوَآتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾* هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ². في هاتين الآيتين عودة إلى التذكير بنعم الخلق والرزق والتسخير كدليل دامغ لعقول من يكفر بالخالق المستحق للعبادة، فبدأ بالأنفس ثم ذكر ما خلق في الأرض والسموات.

"كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ" "كَيْفَ": اسم استفهام يُسأل به عن الأحوال، وهو عام، والاستفهام للإنكار، وفيه تشنيع على من يفعل ذلك، وهو بمعنى النهي عن الوقوع في الكفر، وقد ذكّرهم في هذه الآية بحقائق جليلة وهي من المسلمات التي لا يرتاب فيها إلا المبطلون.

"كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ" الفعل "تَكْفُرُونَ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "بِاللَّهِ"، وبجملة الحال الواقعة بعد الواو: "وَكُنْتُمْ أََمْْوَآتًا"، سلاله من ماء مهيّن، "فَأَحْيَاكُمْ" نفخ فيكم الروح وأنتم في بطون أمهاتكم، "ثُمَّ يُمِيتُكُمْ" بقبض أرواحكم في أجل مسمّى، "ثُمَّ يُحْيِيكُمْ" يوم النشور، "ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" أي تردون إليه؛ ليحاسبكم، ويجزيكم بأعمالكم، فالأفعال: ("فَأَحْيَاكُمْ"، "ثُمَّ يُمِيتُكُمْ"، "ثُمَّ يُحْيِيكُمْ") كلها في سياق الإثبات مقيّدة

¹ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ١ / ٢٧

² سورة البقرة الآيتان (٢٨-٢٩)

بمفعولاتها، والفعل: "تَرْجَعُونَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "ثُمَّ إِلَيْهِ تَرْجَعُونَ"، وتقدّم الجارّ والمجرور على الفعل للحصر، ومفهومه: إليه ترجعون أي إلى الله تعالى لا إلى غيره.

وقال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^١.

"هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا": "فعل" "خَلَقَ لَكُمْ" في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور "لَكُمْ"، أي: لأجلكم ولمصلحتكم، وكذلك مقيّد بالمفعول به: "ما" الموصولة، والموصول عامّ، و"الأرض" المعروفة المعهودة، "جميعا": لتوكيد العموم.

"ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"، "اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "إِلَى السَّمَاءِ"، "السَّمَاءِ": "أل" للجنس تعمّ كلّ السماوات، وقد كانت السماء دخانًا، وكانت السموات والأرض رتقًا أي كتلة متصلة، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾^٢، وقال الله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾^٣، "فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ" الفعل "فَسَوَّاهُنَّ" في سياق الإثبات، وهو بمعنى صيرّ مقيّد بمفعولين، المفعول به الأول: الضمير "هنّ"، وبالمفعول به الثاني: "سَبْعَ سَمَوَاتٍ"، "سَمَوَاتٍ" نكرة مطلقة بينها آيات أخرى، والسنة النبويّة، "وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ": "كلّ": من صيغ العموم، وهذا النصّ من أدلة الإباحة الأصلية فيما خلق الله تعالى في الأرض، فكلّ ما في الأرض خلقه الله تعالى من أجل مصلحتنا.

^١ سورة البقرة آية (٢٩)

^٢ سورة فصلت آية (١١)

^٣ سورة الأنبياء آية (٣٠)

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^١.

أودّ أن أبثّكم بعض ما يدور في قلبي من المعاني قبل الشروع في تفسير الآية، ومن

ذلك:

- أن الله تعالى عليم حكيم لا يخلق شيئاً عبثاً، ومن حكمته في جعل الخليفة في الأرض الابتلاء وما يترتب على الابتلاء من الجزاء.

- أن إنشاء أمة جديدة تعبد الله تعالى اختياراً مصلحة راجحة.

- أن هذه الحفاوة الربّانية بهذا الخليفة ترفع الإنسان مقاماً عليّاً؛ مقام الإمامة والهداية، وهو مقام لا يمكن أن يسلبه منّا أحدٌ إلا إن فرطنا فيه وتخلينا عن وظائفه! وثمة حرب ضروس؛ لتنفير الناس عن المصلحين في الأرض، وطمس معالم هذا المقام العليّ بنبرأ أهله بأقبح النعوت؛ لنبذهم! ولكن هيهات هيهات لما يمكرون! ومن ذا يحجب أو يهّمّش الوارث الشرعيّ ورثة الرسل عليهم السلام؟ ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^٢.

- أن الملائكة قد قدّرت الأمر بميزان المصالح والمفاسد، وهو ميزان معتبر شرعاً وعقلاً، ومبناه على رعاية الحكمة، ولكنّ صحة الوزن بهذا الميزان ترجع إلى ما نضعه في كِفّتيه! وكان مبلغ علم الملائكة ما ذكرته من المصالح (التسبيح والحمد والتقديس)، والمفاسد (الفساد

^١ سورة البقرة آية (٣٠)

^٢ سورة الأنبياء آية (١٠٥)

في الأرض وسفك الدماء)، ولكنهم قابلوا بهذا الرأي النصّ الصريح من ربّ العالمين، وهذا الاجتهاد فاسد الاعتبار؛ لأن الله تعالى هو أعلم بمصلحة الخلق.

- أن استمرار الملائكة في التسبيح والحمد والتقديس مصلحة لا تعارض بينها وبين جعل الخليفة في الأرض.

- أن كشف ما كان يبطنه إبليس ويكنّنه من الكبر والفساد مصلحة عظيمة، وقد جعل الله تعالى وجود آدم فتنة وابتلاء لإبليس الذي كان يظهر الصلاح، ولم يكن الملائكة يتوقعون أن رأس الفساد (إبليس) محبوب بينهم.

- أن وجود شيء من الشرّ في صحبة الخير مغتفر، إذا كان وجود ذلك الشرّ سبباً لحصول مصلحة أعظم.

"وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً": "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ" "إِذْ": ظرف لما مضى من الزمن، "قال": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: لِلْمَلَائِكَةِ، و"لِلْمَلَائِكَةِ": "أل" للاستغراق والعموم، ومقيّد أيضاً بمقول القول: "إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً"، وإضافة الاسم العزيز "رَبُّكَ" إلى ضمير المخاطب فيه تشريف وأيّ تشريف من ذي الجلال والإكرام لعبده ورسوله عليه الصلاة والسلام.

"إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً": "جَاعِلٌ" اسم الفاعل بمعنى خالق، وهو هنا يعمل عمل الفعل، فهو مقيّد بالجاء والمجرور: "فِي الْأَرْضِ" وبالمفعول به: "خَلِيفَةً"، و"الْأَرْضِ" "أل" للعهد، و"خَلِيفَةً": نكرة في سياق الإثبات للإطلاق، وهو في الأصل صفة بمعنى اسم الفاعل أي: خالف يخلّف غيره، أو بمعنى اسم المفعول أي: مخلوف يخلفه غيره، ويجوز أن يُجرى مجرى

الجوامد^١، ويقصد به آدم عليه السلام، فالبشر جميعاً متساوون في أصل الخلقة والخلافة في الأرض، ليس لأحد أن يبغى على أحد!

"قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ"،
"قالوا": فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ..."، "تَجْعَلُ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "فيها" وبالمفعول به: "مَنْ"، وبالجمله الحالية: "وَنَحْنُ نُسَبِّحُ...". و"مَنْ": اسم موصول يعمّ، "يُفْسِدُ فِيهَا" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "فيها"، "وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "الدِّمَاءَ"، و"الدِّمَاءَ": "أل" للعموم، وعمومه عرفيّ أي التي حرّم الله تعالى سفكها.

"وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ": الواو للحال، والجمله الحالية قيد ثالث للفعل "تَجْعَلُ"، "نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالحال التي تعلّق بها الجارّ والمجرور: متلبسين "بحمدك" أو بالجارّ والمجرور؛ لأن التسييح قول وعمل فيه تعظيم وتنزيه لله تعالى، فيتعلّق به الحمد بلا تكلف كما اختاره ابن عاشور^٢، و"بِحَمْدِكَ" نكرة مضافة تعمّ، "وَنُقَدِّسُ لَكَ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "لَكَ"، والفعل قدّس متعلّج بنفسه، واللام للتقوية أي ننزهك ونعظمك، ويحتمل: نقدّس أنفسنا، ونظهرها لك، فقال الله تعالى: "إِنِّي أَغْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ"، أَغْلَمُ: الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "مَا لَا تَعْلَمُونَ": و"مَا" موصولة تعمّ، و"تَعْلَمُونَ": فعل في سياق النفي يعمّ، مخصّص بضمير عائد على الموصول، فبيّن لهم أنه يعلم من الحكمة في جعل هذا الخليفة في الأرض ما لا يعلمونه.

^١ انظر: السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ١/٢٥٣

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/٤٠٥

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾^١.

في هذه الآيات بيان الفضل الرباني العظيم بتعليم آدم الأسماء كلها، وهو مسبوق بكرامة خلق الله تعالى آدم بيديه، ونفخه فيه من روحه، وقال ابن كثير: "هذا كان بعد سجودهم له، وإنما قدّم هذا الفضل على ذلك، لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة"^٢.

وفي قول الله تعالى "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا" عَلَّمَ "الفعل في سياق الإثبات مقيّد بمفعوليّه الأول والثاني، وهنا أمور:

الأول: المعلّم، وهو الله تعالى، وتعليمه أحسن التعليم وأنفعه، وأرفعه بمنّه وكرمه وفضله من غير معالجة من آدم ولا معاناة، فهو عَلِّمٌ من لدن العليم الحكيم.

الثاني: المعلّم، وهو "آدم" عليه السلام، والله أعلم حيث يجعل فضله، وقد ادّخر الله لآدم هذا العلم الجليل دون سائر خلقه من الملائكة وغيرهم؛ لأنه الخليفة الذي يحتاج إلى مِيز الخبيث من الطيب، والضارّ من النافع؛ حتى ينتفع بما وضع له في الأرض، ويجلب مصالحه بيسر من غير حرج، فآدم مخلوق ذو احتياجات كثيرة: ضرورية، وحاجية، وتحسينية، فلا بدّ له من أن يستهلك وأن ينتج؛ ليحيا حياة طيبة.

^١ سورة البقرة آية (٣٣-٣١)

^٢ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ١/٢٢٢

الثالث: العلوم: "الْأَسْمَاءُ كُلُّهَا": "أل" للاستغراق فهو عامّ مؤكّد بلفظ: كُلُّهَا"،
والتوكيد ينفي المجاز، فعلمه أسماء الأشياء المخلوقة في الأرض وغيرها؛ حتى إذا هبط من الجنة
كان قادراً على سدّ حاجاته. وقد بدأ الله الحكيم الخبير تعليم آدم علم أسماء الأشياء؛ لأنه آلة
فهم العلوم الكونية والشرعية، وأصل علوم الخلافة في الأرض.

ولذا نجد الأمم الناهضة تترجم العلوم إلى لسانها؛ حتى تستقل بقرارها ومسارها.
وعليه فالحفاظ على لسان العرب، واستيعاب العلوم الشرعية والكونية به من أسس حفظ
السيادة، واستئناف الريادة. ونار الحرب على لسان العرب تلظى في كلّ بلاد العرب ناهيك
عن غيرها، والحديث عنها ذو شجون!

"ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" الفعل
"عَرَضَهُمْ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، والضمير إذا عاد على عامّ
فالضمير يعمّ الأشياء كلّها التي عرضها الله؛ لتعيّن الملائكة أسماءها، والقيّد الثاني: الجارّ
والمجرور: "على الملائكة"، و"الْمَلَائِكَةُ": "أل" للاستغراق فهو عامّ، "فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ
هَؤُلَاءِ" الفعل "فَقَالَ": في سياق الإثبات مقيّد بمقوله: "أَنْبِئُونِي..." وفعل الأمر للتعجيز، وكلّ
فعل الأمر يدلّ على الإطلاق، وكلّ متعلقاته قيد له، فهو مقيّد بالمفعول به: ضمير المتكلم
سبحانه وتعالى، وبالجارّ والمجرور: "بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ"، وبالشرط: "إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"، و"أَسْمَاءِ
هَؤُلَاءِ": أسماء: نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، "إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" الشرط للتعجب واللوم
والتأديب، والصادقين مقيّد بمقدّر: فيما زعمتموه وتوقعتموه من تفريط وفساد الخليفة الذي
أستخلفه في الأرض.

"قَالُوا سُبْحَانَكَ" ! ما أجلّها من كلمة تقديس وتنزيه! وما أحسن هذه الاستكانة والإنابة بين يديّ العليّ العظيم! "قَالُوا": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "سُبْحَانَكَ" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ كلّ تنزيه، وسبحان مفعول مطلق ومعناه: التنزيه لله تعالى، "لَا عَلِمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا" "علم": اسم لا النافية للجنس، فهو نصّ في العموم، "إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا" الاستثناء مخصّص متصل، و"ما" موصول يعمّ، وفي هذا القول إظهار للافتقار، واعتراف بالنعمة، ونسبة الفضل إلى الله وحده، "إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ"، وتعريف ما كان أصله المبتدأ والخبر للحصر، ومفهومه: لا عليم ولا حكيم على وجه الكمال إلا الله سبحانه وتعالى، و"أَنْتَ" ضمير فصل مؤكّد للحصر، قال السمين: "والحكم لغة: الإتيان والمنع من الخروج عن الإرادة"^١.

"قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ" قَالَ: الفعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ"، وفعل الأمر "أَنْبِئْهُمْ" للتشريف وبيان فضله وللتكليف وظاهره الوجوب، وهو مقيّد بالمفعول به (الضمير المتصل: هُمْ) وبالجارّ والمجرور: "بِأَسْمَائِهِمْ"، وأسماء: نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، "فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ"، "فَلَمَّا": الفاء عاطفة أو استئنافية، ولما اسمية ظرفية حينية وهي متضمنة معنى الشرط على كل حال^٢، "أَنْبَأَهُمْ" فعل مقيّد بالمفعول به (الضمير المتصل: هُمْ) وبالجارّ والمجرور: "بِأَسْمَائِهِمْ".

^١ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ١/ ٢٦٧

^٢ انظر: درويش، إعراب القرآن وبيانه، مرجع سابق، ج ١/ ٣٧٢

"قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"، قَالَ: فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ..."، "الهمزة للتقرير، إِذَا دَخَلَتْ عَلَى نَفْيٍ قَرَّرَتْهُ فَيَصِيرُ إِثْبَاتًا"^١: "لَمْ أَقُلْ": فعل في سياق النفي، ولكن النفي سُبِقَ بالهمزة التي للتقرير فانتفى أثر النفي بـ"لم"، فصار مثبتًا، وعليه فالفعل مقيّد بالجَارِّ والمجرور: "لَكُمْ"، ومقول القول: "إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ".

"إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ": الفعل "أَعْلَمُ" مقيّد بالمفعول به: "غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"، "غَيْبَ" نكرة مضافة تعمّ كل غائب في السماوات والأرض، و"أَلْ" في السماوات للاستغراق، و"أَلْ" في الأرض للعهد أي الأرض المعهودة، "وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ" الفعل "أَعْلَمُ" مقيّد بالمفعول به: "مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ" "ما" في الموضعين: موصولة تعمّ كل شيء: يبدونه أو يكتُمونه، والفعالان: "تُبْدُونَ" و"تَكْتُمُونَ" مقيّدان بالمفعول به الضمير العائد على الوصل.

وهنا يثور سؤال: لماذا توسّع القرآن الكريم في ذكر هذه الحادثة، والملائكة إنما قالوا:

ما قالوا تعظيمًا لله تعالى وتنزيهًا له؟ والجواب أن في ذلك فوائد، منها:

الأول: إظهار حكمة الله تعالى في اختصاص آدم عليه السلام بالخلافة.

والثاني: إبانة شرف آدم عليه السلام، وقدرته على تحمّل العلم الذي اختصّه الله

تعالى به؛ ليكون أهلاً للقيام بأمر الخلافة في الأرض.

^١ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ١/ ٢٧٠

والثالث: تذكير ذرية آدم عليه السلام بعظيم فضل الله تعالى عليهم؛ لشكره، ونثني عليه بما هو أهله.

والرابع: تعليم الناس أدب تلقي كلام الله تعالى العليم الحكيم بالتسليم والتعظيم، والحذر من التقدم بين يديه بمعارضة ما فيه نص صريح بالعقل القاصر.

الخامس: لطف الله تعالى ورفقه بالمخطئ الناصح و"اعتناؤه بشأن الملائكة، وإحسانه بهم بتعليمهم ما جهلوا، وتنبيههم على ما لم يعلموه".^١

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^٢.

لقد ضيق هذا الابتلاء الخناق على نفس إبليس، وأفقده القدرة على استدامة الاستقامة، وبدا ما كان يخفيه إبليس، وانقلب على عقبيه، ويا لهول المنقلب! فقد أثر إبليس اتباع هواه، وسنّ سنة سيئة لمن كان على شاكلته، وإنها لفاجعة وأيّ فاجعة تحلّ بالملائكة حين ينقلب رفيقهم وصديقهم (إبليس) عدوًّا لله ربّ العالمين! إن وجود آدم عليه السلام كان سببًا في كشف إمام المفسدين والمجرمين إبليس، وهذه مصلحة عظيمة لم تخطر على بال الملائكة، فإن من أعظم مصالح الابتلاء مَيِّزُ الخبيث من الطيب.

وقد قُدِّم ذكرُ التعليم؛ لأنه مناسب للسَّباق (السَّباق: ما سبق ذكره قبل آية الأمر بالسجود)، وأُخِّرت آية السجود عن آية التعليم؛ لأن تأخيرها موافق للحاق (اللَّحاق: ما جاء

^١ السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ص ٤٨.

^٢ سورة البقرة آية (٣٤)

ذكره بعد آية السجود)، وبهذا يتضح أن كلاً من التعليم والسجود أصل مستقل، له مقاصده، وليس السجود مترتباً على فضيلة العلم، بل هو سابق الوقوع.

- زمن القول: هو الزمن الماضي حين أخبر الله تعالى الملائكة أنه "خَالِقٌ بَشَرًا": وقد بيّن الله تعالى ذلك في موضعين:

الموضع الأول: في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^١.

الموضع الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^٢، وقد تبين من ظاهر هذين النصين أن الأمر بالسجود كان قبل تعليم آدم الأسماء كلها، وفائدة ذكره قبل خلق آدم بزمن طويل الابتلاء والتمحيص بالإملاء، فإن إبليس كان في صف الملائكة باذلاً نفسه للطاعة، وقد علم هذا النبأ نبأ السجود لآدم، فابتلي به وأملى الله تعالى له؛ ليختار ما شاء على مهل وروية؛ ولم يؤخذ ضغطة، ولم يظهر منه ما يؤخذ به طوال تلك الفترة.

"وَإِذْ:" "الواو": عاطفة لقوله تعالى: "وَإِذْ قُلْنَا" على قوله تعالى: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً"^٣، وعليه فلا ترتيب بين الأمر بالسجود وتعليم آدم. "قلنا": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "لِلْمَلَائِكَةِ"، و"لِلْمَلَائِكَةِ": "أل" للاستغراق والعموم، ومقول القول: "اسْجُدُوا لِأَدَمَ"، وفعل الأمر للوجوب، وهو في سياق

^١ سورة الحجر الآيتان (٢٨-٢٩)

^٢ . سورة ص الآيتان (٧١-٧٢)

^٣ انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ١ / ٥٠١

الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "لآدم": وقد اختار الله تعالى "السّجود"؛ ليكون تحية وتوقيراً لآدم عليه السلام؛ لما يترتّب عليه من حكمة، والسجود: "أصلٌ واحدٌ مطّرد يدلّ على تطامنٍ وذلٍّ"^١ وقال بعضهم: "حقيقته طأطأة الجسد أو إيقاعه على الأرض بقصد التعظيم لمشاهدٍ بالعيان"^٢، وفي قصره على المشاهد بالعيان إخراج لأعظم من سجد له العباد على الحقيقة!

قوله تعالى: " فَسَجَدُوا":

"فَسَجَدُوا": الفاء للترتيب والتعقيب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالاستثناء، وزمن السجود: بينه الله تعالى في قوله: "فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ"، الفاء في قوله تعالى: "فَقَعُوا" واقعة في جواب الشرط "إذا"، وتفيد التعقيب، فكان سجودهم فور تسوية آدم ونفخ الروح فيه، وهذا ظاهر، وقد ذهب إلى هذا القول جمع من المفسرين، قال الإمام الطبري: "سجد الملائكة لآدم كان بعد أن نُفخ فيه الروح"^٣.

قوله تعالى: "إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ":

"إِلَّا": أداة استثناء، فإن قلنا: إن الاستثناء متصل فهو للتخصيص من عموم الملائكة، وإن قلنا هو منقطع، فليس بمخصّص، فسجد الملائكة الكرام، وظلّ إبليس واقفاً شاخصاً مستكبراً! وقد بيّنت الآيات في مواطن أخرى كيف أبى، واستكبر، وكفر، ورفع لواء الباطل، وأعلن الحرب على آدم وذريّته، وشقّ عصا الطاعة إلى قيام الساعة، فأهلك نفسه ومن اتبعه من الجنّة والناس.

^١ انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج ٣/١٣٣

^٢ انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/٤٢١

^٣ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ١/٥١٢، وانظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٢/٤٢٧

"أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ": والفعالان: "أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ" في سياق الإثبات للإطلاق، و"الْكَافِرِينَ": صفة صريحة تعمّ، والصفة الصريحة توحي إلى العلة، وفي ذكر عموم الكافرين تعريض وذمّ لكل من كفر من بني آدم.

قال الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^١.

توالت النعم على آدم عليه السلام: فقد اصطفاه الله لخلافة الأرض، وخلق به يديه، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وكشف عدوه، وعلمه الأسماء كلها، وخلق له زوجاً؛ ليسكن إليها، وفي هذه الآية يذكر الله تعالى نعماً جميلة من نعمه الجليلة على آدم عليه السلام.

قال الله تعالى: "وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ":

"وَقُلْنَا": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول بعده، والقائل ربّ العزّة العليّ العظيم، والمخاطب آدم العبد المجتبي، ومقول القول: بقيّة الآية الكريمة، والمقاصد كثيرة، منها: التكريم والتنعيم في الجنّة إلى حين؛ حتى يتهيأ ويستعدّ لتحمل أعباء الخلافة في الأرض.

"اسْكُنْ" استقرّ، والأمر: هو الله تعالى مالك الملك، والمأمور آدم وزوجه، والأمر بالسكن للامتنان والتكريم، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "الْجَنَّةَ"، "أَل" للعهد، أي الجنّة التي وصفها لنا، وهي دار الخلد، ويجوز أن تكون "أَل" للعموم؛ لأنّ الجنّة تشتمل

^١ سورة البقرة آية (٣٥)

على جنات كثيرة، وإطلاق الإذن بالسكنى فيه دلالة على انفرادهما بنعيم الجنة في ذاك العهد، وأنه لا شريك لهما فيها ولا مزاحم.

"وَكُلًّا مِنْهَا رَعَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا": الأمر للإباحة والامتنان، والفعل في سياق الإثبات مقيد بالجارّ والمجرور: "مِنْهَا" وبالنائب عن المفعول المطلق: "رَعَدًا"، وبالظرف: "حيث" (أكلاً رَعَدًا، أو المؤول بحال أي: راغدين) والرَّعَد: العيش الواسع الهنيء الذي لا نصب فيه ولا عناء، و"حَيْثُ شِئْتُمَا": ظرف مكان، وإضافته إلى فعل المشيئة فيه تعميم وتوسيع وزيادة في الامتنان.

قوله تعالى: "وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ"، "لَا تَقْرَبَا": النهي لتحريم القربان، والملابسة من باب أولى، والفعل في سياق النهي يعمّ كل أنواع القرب، وهو مخصّص بالمفعول به: "هَذِهِ الشَّجَرَةَ"، يفيد قصر النهي على قرب الشجرة المعينة المشار إليها، وفي قصر النهي على قرب شجرة واحدة من بين ما لا يحصى من الشجر تيسير وتخفيف. وللاقتصاد في التكليف مقاصد، منها:

الأول: التخفيف: فلم يأمره الله بفعل شيء من الطاعات وهو في الجنة، بل قصر التكليف على "الترك"، وهو أخفّ وأيسر من الفعل؛ حتى لا يبقى بآله مشغولاً بأداء الواجبات والحذر من المحظورات، وليتمكّن آدم وزوجه من التمتع، والتنعم بلا حرج.

الثاني: قطع سبل الغواية؛ حتى يكاد يقول القائل: أنى لإبليس أن يجد إلى آدم

سبيلاً؟

^١ انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ١/ ٥١٥.

الثالث: إعنات الشيطان: فيشقى في محاولات الإضلال والإشقاء.

"فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ": فاء السببية واقعة في جواب الطلب؛ للإيماء والتنبيه على علة النهي وهي الصيرورة من الظالمين، والصفة الصريحة: "الظَّالِمِينَ" تعمّ، وهذا تحذير شديد ووعيد؛ لأن الالتحاق بزمرة الظالمين يوقع فيما يستحقونه من العقوبات.

ومع أن التخفيف كاد يُخفي التكليف! فقد استدرج الشيطان آدم وزوجه؛ حتى ظلما أنفسهما. وعليه فلا تجوز الغفلة عن كيد الشيطان، بل يجب الحذر الدائم من خطواته!

قال الله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾^١.

"فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا" "فَأَزَلَّهُمَا": الفعل في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: الضمير المتصل، والقيد الثاني: الجارّ والمجرور: "عَنْهَا"، والضمير "ها" عائد على الشجرة، أي: أوقعهما في الزلل والخطيئة بسبب الشجرة^٢، الشيطان، و"أل": للعهد، أي: إبليس، وأسند الفعل للشيطان؛ لأنه تسبّب فيه، وإن كان المباشر للزلل آدم وزوجه، وظاهر النصّ يدلّ على أن الزلل لم يكن ليحصل لولا إبليس. والإزلال: الإيقاع في الزلل وهو الخطيئة، وفي المحسوسات يقال: زلّت القدم إذا زلقت، وزالت عن مكان ثبوتها، قال الله تعالى: ﴿فَتَزَلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾^٣.

^١ سورة البقرة آية (٣٦)

^٢ انظر: أبا حيان، محمد بن يوسف، البحر المحيط، ت: صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ ج ١/ ٢٦٢

^٣ سورة البقرة آية (٣٦)

"فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ" الفاء للسببية، "أَخْرَجَهُمَا" الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، والقيد الثاني: الجارّ والمجرور: "مِمَّا كَانَا فِيهِ"، "مِنْ" لابتداء الغاية، و"ما": موصول يعمّ كلّ نَعَم الجنة.

"وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ" "وَقُلْنَا": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول بعده: "اهْبِطُوا..." : الأمر كويّ، والهبوط بضمّ الهاء: النزول، والفاعل واو الجماعة تعمّ: آدم، وزوجه، وإبليس، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بجملة حالّية: "بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ"، "بَعْضُكُمْ" بعض: نكرة مضافة إلى معرفة تشمل كلّ واحد منهم ومن ذريتهم، "لِبَعْضٍ" مطلق، والجملة مؤولة بالحال أي: متعادين، وفيها دلالة على أن العداوة مستمرة غير منقطعة.

"وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ"، "وَلَكُمْ" تقديمه يفيد الحصر، ومفهومه: لكم لا لغيركم، "فِي الْأَرْضِ": "أَل": للعهد، أي: الأرض المعروفة، وعليه فلا مستقرّ للإنسان إلا في الأرض وليس لهم في غيرها من الكواكب مستقرّ ولا متاع! و"مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ": التنكير فيهما للتقليل، "إِلَىٰ حِينٍ" متعلق بمتاع، وتنكير "حين" للإيهام والتقليل.

قال الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^١.

إنها آية التوبة الأولى التي تبين فضل الله تعالى على آدم عليه السلام بتوفيقه إلى التوبة؛ لينزل إلى الأرض وقد تزود بآلة محو الذنوب: التوبة، ولا صلاح ولا نجاة لأهل الأرض إلا بالتوبة!

"فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ"، الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "مِنْ رَبِّهِ"، وبالمفعول به: كَلِمَاتٍ"، والتلقي: يدلّ على الاعتناء والحفاوة بما يُتلقى، والمتلقى منه: رَبِّهِ سبحانه وتعالى، لأن الله تعالى وحده التَّوَّابُ الرحيم، والمتلقى: "كَلِمَاتٍ": ولفظها مطلق مراد به معيّن، ويجوز أن يكون التنكير للتعظيم والتفخيم، والكلمات التي تلقاهنّ آدَمُ من رَبِّهِ ما دلّ عليها القرآن^٢ بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^٣.

"فَتَابَ عَلَيْهِ": الفاء للترتيب والتعقيب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "عَلَيْهِ"، فما أسرع الإنابة! وما أجلّ الإجابة! وباب التوبة من أنفع وأوسع وألطف أبواب رحمة الله تعالى! "إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" للتعليل! لأنه ثواب كثير التوبة على العباد، رحيمٌ وسعت رحمته كلّ شيء، لقد اختار آدم وزوجه التوبة، فنجّا، وسعدا، واختار إبليس طريق الكفر والفسوق والعصيان، فشقيّ وأشقى من اتبعه!

^١ سورة البقرة آية (٣٧)

^٢ انظر: الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ١/ ٥٤٦

^٣ سورة الأعراف آية (٢٣)

قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ﴾^١.

"الهدى" هو منهج الخلافة الراشدة في الأرض، وزاد العودة إلى جنة الخلد! والانتفاع
به قائم على أصل واحد هو "الاتباع"، واتباع الهدى لا يتم إلا بأن نتخذه إمامًا، فلا نقدم
عليه عقلًا، ولا عرفًا، ولا ثقافة موروثية أو مستوردة أو مختلقة.

"قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا" "قُلْنَا" فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقوله: "اهْبِطُوا مِنْهَا
جَمِيعًا"، والفعل "اهْبِطُوا" في سياق الإثبات مقيّد بالجار والمجرور "مِنْهَا"، وبالحال: "جَمِيعًا"،
والأمر كونيّ قدرى لا شرعى تكليفى، والضمير عام يشمل آدم وزوجه، وإبليس، وتدخل
الذرية تبعًا، وعليه فالخطاب الوارد في الآية يتناولهم جميعًا، وقد أكّد هذا العموم بلفظ "جَمِيعًا".
"مِنْهَا": من لا ابتداء الغاية، والضمير عائد على الجنة.

"فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ". "فَإِمَّا
يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى" "فَإِمَّا" الفاء للترتيب والتعقيب، و"إِمَّا": "أصلها: إن الشرطية زيدت عليها
ما تأكيدًا"^٢، فإن زيادة "ما" وتوكيد الفعل بنون التوكيد الثقيلة لا يقلّ في إفادة القطع عن
"إذا"^٣. و"يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالضمير المفعول به، وبالجار

^١ سورة البقرة آية (٣٨-٣٩)

^٢ السمين، الدر المنصور في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ١/٢٩٨

^٣ انظر: الألوسي، محمود بن عبد الله، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: على عبد الباري عطية، دار الكتب
العلمية - بيروت، ١٤١٥ هـ، ج ١/ ٢٤٠.

والجرور: "مَيّ"، "هُدَى": نكرة في سياق الشرط تعمّ كلّ هدى آتٍ من الله تعالى إلا ما تُسخّ وُبدّل.

"فَمَنْ": من: اسم شرط يعمّ كلّ مكلف من الإنس والجنّ، و"اتبع" فعل في سياق الشرط يعمّ، وقد خصّص بالمفعول به: "هُدَايَ"، وهداي: نكرة مضافة تعمّ كلّ هدى آتٍ من الله تعالى، والإضافة إلى ضمير المتكلّم -جلّ جلاله- فيها من التعظيم والتكريم ما الله به عليم!

وفي هذا بيان أن الوحي كافٍ للنجاة، وأنّ العقل أداة لفهم الهدى والواقع، وليس مصدرًا مستقلًّا للتشريع، واتباع الهدى اتباع علم وعمل، فمن كان أكمل عقلاً، كان أحسن اتباعًا، ومن ضعف عقله ساء اتباعه، وقد زلّ من قدّم العقل على الهدى المنزل، أو هوّن من شأن العقل في فهم النصّ والواقع؛ ونقل بعض المفسرين أن في الآية دلالة على إبطال التقليد^١.

"فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ" "خوف": نكرة في سياق النفي تعمّ كلّ خوف، و"لَا هُمْ يَخْزُونُ": فعل في سياق النفي يعمّ، ومفهوم المخالفة أن من لم يتبع الهدى حلّ عليه الخوف والحزن. وفي ربط الجزاء بهذا الشرط رحمة سابعة وحكمة بالغة، ومفهومه: إن لم يأتكم مَيّ هدى، فلستم بمطالبين باتباع شيء، فلا تكليف إلا بعد بعث رسول.

"وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"، الواو عاطفة هذه الجملة على الشرطية، و"الَّذِينَ" موصول عامّ، والفعالان: "كَفَرُوا وَكَذَّبُوا" في سياق الإثبات مقيّدان بالجارّ والجرور: "بِآيَاتِنَا"، "آيَاتِنَا": نكرة مضافة تعمّ، "أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ":

^١ الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٣/٤٧٣

"أصحاب": نكرة مضافة تعمّ، "النار": "أل" للعهد، "هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"، تقديم "فِيهَا" على

"خَالِدُونَ" للحصر، مفهومه: خَالِدُونَ في النار لا في غيرها، وبئس المصير.

دعوة الأمة الناكثة بني إسرائيل إلى اتباع ما أنزل الله:

وقد أفرد هذا المحور لقصة بني إسرائيل، وبيان مواطن الخلل في سيرتهم، وكيف نقضوا العهد والميثاق؛ فانتزع الله تعالى منهم ميراث النبوة والإمامة، وأورثها خير الأمم. وقد افتتح الله الخطاب بدعوة بني إسرائيل إلى ذكر نعمة الله والوفاء بالعهد، وأقام عليهم الحجة، وضرب لهم الأمثال بما قصّه من قصص آبائهم وما أخذه عليهم من الموائيق؛ لعلهم يعقلون! فقد كان بعضهم أهل ذمة في دولة المدينة. [البقرة: ٤٠-١٠٣].

وقد ورد خطابهم عقب قصّة آدم عليه السلام، وهي قصّة يلتقي عندها بنو آدم جميعاً في صعيد واحد: الأب واحد، والوظيفة واحدة: الخلافة في الأرض، والعدوّ واحد، ومنهج النجاة والفلاح واحد: اتباع الهدى، وفي ذكر قصّة آدم تهيئة للناس أجمعين لاتباع نبيّنا محمد عليه الصلاة والسلام المبعوث رحمة للعالمين! ثمّ أتبع القصة المؤسّسة بنداء خاصّ لبني إسرائيل، وذكرهم بما أنعم به على آبائهم، وكيف كان حال أجدادهم، ولهذا الاختصاص والعناية والابتداء بدعوتهم مسوغاته، يظهر لي منها:

- أن لديهم الدلائل الشاهدة على صدق نبوة خاتم المرسلين عليه الصلاة والسلام، فهم مؤتمنون على تلك البينات، وفي إيمانهم شهادة على غيرهم.

- كونهم ورثة الهدى وأتباع آخر الرسالات السماوية: تورا موسى، وزبور داوود، وإنجيل عيسى (عليهم الصلاة والسلام) ... فهم أقرب الناس ديناً إلى أهل الإسلام.

- وجودهم في المدينة ودخولهم في ذمة الله ورسوله، فهم جزء من المجتمع المدني (أقليّة محترمة). وقد أخذ الله تعالى الميثاق عليهم باتباع خاتم المرسلين ونصرته.

قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ* وَأَمِنُوا بِمَا أُنْزِلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾^١.

"يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ" هذا هو أول نداء لبني إسرائيل في المصحف، وهو نداء تقريب وتأليف وترغيب، "بني": نكرة مضافة تعم جميع أبناء إسرائيل، وإسرائيل هو يعقوب عليه السلام، "اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ": الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "نِعْمَتِي"، و"نِعْمَتِي": نكرة مضافة إلى معرفة تعم كل النعم الكونية والشرعية، الظاهرة والباطنة، ووصفها بوصف مخصّص: "الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ"، وقد أمرهم الله تعالى بذكر ما أنعم به عليهم؛ ليذكروا أن: ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنْ نَّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾^٢، فيشكروه.

وإذا استغرق العبد في تذكّر النعم وتعدادها، حمله ذلك على الاعتراف بجميل فضل الله تعالى عليه؛ فيستكين لربّه، وينبعث شاكرًا لله تعالى حقّ شكره، ويسارع في طلب مرضاته، والتعاون مع العباد على البرّ والتقوى، وينبذ الاستنكاف، والكفران، ومن ذكر نِعَمَ التّشريف ذاق حلاوة التكليف.

"وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ": ما أعظمه من ترغيب! وما أكرمه من وعد، "وَأَوْفُوا": أمر للوجوب، والوفاء الإتيان بالشيء تأمًا من غير نقص، والفعل "وَأَوْفُوا": في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "بِعَهْدِي"، "بِعَهْدِي": نكرة مضافة تعم جميع ما أمرهم الله به، وما أخذه عليهم من المواثيق، ومنها الإيمان بالنبّي الأميّ عليه الصلاة والسلام، والدخول مع

^١ سورة البقرة آية (٤١-٤٠)

^٢ سورة النحل آية (٥٣)

العالمين في كنف المنهج الجديد تحت لواء خاتم المرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام. "أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ": والفعل "أَوْفِ": في جواب الطلب، وهو في سياق الإثبات مقيّد بالجَزّ والمَجْرور: "بِعَهْدِكُمْ"، و"بِعَهْدِكُمْ": نكرة مضافة تعمّ كلّ ما وعدهم الله تعالى به من الولاية والرعاية والإكرام في الدنيا والآخرة.

"وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ": "إِيَّايَ" منصوب على الاشتغال، يُقدر له جمهورُ النحاة فعلاً يجانس الفعل المذكور، والذي اختاره في باب الاشتغال هو أن ينصب الاسم المتقدّم بالفعل المذكور المتأخر المشغول بالضمير المتصل العائد على الاسم المتقدم، تأسيساً بجتهاد أبي حيان في قول الله تعالى: "وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ": في الضمير المتقدّم بأنه: "لَا يَكُونُ "إِيَّايَ" مَعْمُولًا لِفِعْلِ مَحْذُوفٍ، بَلْ مَعْمُولًا هَذَا الْفِعْلِ الْمَلْفُوظِ بِهِ، وَلَا يَبْعُدُ تَأْكِيدُ الضَّمِيرِ الْمُنْفَصِلِ بِالضَّمِيرِ الْمُتَّصِلِ، كَمَا أُكِّدَ الْمُتَّصِلُ بِالْمُنْفَصِلِ فِي نَحْوِ: ضَرَبْتُكَ إِيَّاكَ"^١، وتقديم الضمير المنفصل يفيد الحصر والقصر، ومفهوم المخالفة: لا ترهبوا أحداً غيري. والفعل "فَارْهَبُونِ": في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: ياء المتكلم على رأي الجمهور، أو بالضمير المنفصل "إِيَّايَ" المتقدّم والياء لتوكيد الضمير المنفصل المتقدّم على رأي أبي حيان، قال ابن عاشور: "فَتَحَصَّلَ أَنَّ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ مِثْلِ هَذَا الإِخْتِصَاصِ فِي كَلَامِ الْبَلْغَاءِ مَرَاتِبَ أَرْبَعٍ: مُجَرَّدُ التَّقْدِيمِ لِلْمَفْعُولِ نَحْوَ "إِيَّاكَ نَعْبُدُ". وَتَقْدِيمُهُ عَلَى فِعْلِهِ الْعَامِلِ فِي ضَمِيرِهِ نَحْوَ زَيْدًا رَهْبْتُهُ، وَتَقْدِيمُهُ عَلَى فِعْلِهِ مَعَ اقْتِرَانِ الْفِعْلِ بِالْقَاءِ نَحْوَ "وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ" وَتَقْدِيمُهُ عَلَى فِعْلِهِ الْعَامِلِ فِي ضَمِيرِهِ مَعَ اقْتِرَانِ الْفِعْلِ بِالْقَاءِ نَحْوَ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ"^٢، فَالثَّانِيَةُ أَوْكَدُ مِنَ الْأُولَى، وَالثَّالِثَةُ أَوْكَدُ مِنْهُمَا، وَالرَّابِعَةُ أَوْكَدُ مِنَ الثَّلَاثِ.

^١ أبو حيان، محمد بن يوسف، البحر المحيط، ت: صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ ج ٢٨٥/١

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/٥٧٧

في الآية أسس لمنهج الخطاب الدعوي:

الأول: التذكير بنعم الله تعالى فإنه من أيسر وألطف السبل إلى القلوب.

والثاني: التبشير: بسنة الله تعالى في المجازاة على الإحسان بالإحسان، وذلك بالأمر

بالوفاء بعهد الله مقرونًا بالتبشير بالفوز بما وعد الله تعالى.

والثالث: التحذير من غضب الله وسخطه وأخذه الأليم الشديد.

قال الله تعالى: ﴿وَأْمِنُوا بِمَا أُنزِلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا

تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾^١.

"وَأْمِنُوا بِمَا أُنزِلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ"، فقد ورد الأمر بالإيمان بأصرح صيغ الأمر:

"أْمِنُوا"، فلم يترك فسحة للتأويل، فالأمر للوجوب، والفعل مقيّد بالجارّ والمجرور: "بِمَا أُنزِلْتُ".

قوله تعالى: "بِمَا أُنزِلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ"، "ما" اسم موصول يعمّ كلّ ما أنزل الله

تعالى، و"أُنزِلْتُ": أسند الفعل: إلى ضمير المتكلم المفرد؛ فجاء الكلام عظيمًا مهيبًا تخضع له

القلوب، وتخضع، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير العائد: أنزلته، وبالحال:

"مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ" فتصديقه لما معهم علامة صدقه، وحجة بالغة لا يزيغ عنها إلا جاحد،

فلفظ: "مُصَدِّقًا" قيدٌ للفعل ووصف للهدى المنزل، فقد وُضِعَتْ كالجسر؛ لتعبر عليه قلوب

بني إسرائيل، و"لِمَا مَعَكُمْ" الجارّ والمجرور قيد للحال، "ما": اسم موصول يعمّ كلّ ما معهم من

بقايا علم الكتاب الذي لم يبدل.

^١ سورة البقرة آية (٤٢-٤١)

"وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ": النهي للتحريم، وهذا النهي كالمؤكد للأمر بالإيمان، قال ابن جزّي: "هذا نهي عن المسابقة إلى الكفر به، ولا يقتضي إباحة الكفر في ثاني حال؛ لأن هذا مفهوم معطل؛ بل يقتضي الأمر بمبادرتهم إلى الإيمان به؛ لما يجدون من ذكره، ولما يعرفون من علامته"^١، وفي النهي عن الأوليّة في الكفر تحذير لبني إسرائيل من تزعم الناس وإمامتهم في الكفر؛ فإن كفرهم فتنة لغيرهم.

"وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ": "وَلَا تَشْتَرُوا" النهي للتحريم، والفعل في سياق النهي يعمّ كل أنواع الاشتراء والاستبدال، وهو مخصّص بمخصّصين: الأول: بالجارّ والمجرور: "بِآيَاتِي"، و"بِآيَاتِي": نكرة مضافة تعمّ كل آية، والثاني: المفعول به: "ثَمَنًا"، و"ثَمَنًا": نكرة في سياق النهي تعمّ كل ثمن، و"قَلِيلًا": صفة كاشفة للتحقير^٢ والذمّ لا مفهوم لها، "وَقَدْ وَقَعَ ثَمَنًا نَكْرَةً فِي سِيَاقِ النَّهْيِ وَهُوَ كَالنَّفْيِ فَشَمِلَ كُلَّ عِوَضٍ، كَمَا وَقَعَتِ الْآيَاتُ جَمْعًا مُضَافًا فَشَمِلَتْ كُلَّ آيَةٍ، كَمَا وَقَعَ الْفِعْلُ فِي سِيَاقِ النَّهْيِ فَشَمِلَ كُلَّ اشْتِرَاءٍ إِذِ الْفِعْلُ كَالنَّكْرَةِ، وَالْخُطَابُ وَإِنْ كَانَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ غَيْرَ أَنَّ خُطَابَاتِ الْقُرْآنِ وَقَصَصَهُ الْمُتَعَلِّقَةَ بِالْأُمَمِ الْأُخْرَى إِمَّا يُقْصَدُ مِنْهَا الْإِعْتِبَارُ وَالِاتِّعَازُ فَنَحْنُ مُحَذِّرُونَ مِنْ مِثْلِ مَا وَقَعُوا فِيهِ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى لِأَنَّنَا أَوْلَى بِالْكَمَالَاتِ النَّفْسِيَّةِ"^٣.

"وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ": "إِيَّايَ": تقديم الضمير المنفصل يفيد الحصر والقصر، ومفهوم المخالفة: لا تتقوا أحدًا غيري. والفعل "فَاتَّقُونِ": للوجوب، وهو في سياق الإثبات مقيد

^١ ابن جزّي، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، الكلبي الغرناطي، التسهيل لعلوم التنزيل، المحقق: الدكتور عبد الله الخالد، دار

الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ ج ١/٨٠

^٢ انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/٤٦٥-٤٦٦

^٣ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/٤٦٦

بالمفعول به: ياء المتكلم على رأي الجمهور، أو بالضمير المنفصل "إياي" المتقدم، والياء لتوكيد الضمير المنفصل المتقدم على رأي أبي حيان، وفعل الأمر والفعل مقيد بمفعوله وتقديم المفعول للحصر، ومفهوم المخالفة: لا تتقوا غيري. وكما ختم الله تعالى الآية السابقة بالأمر برهبه أمرهم هنا باتقائه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^١.

يقول الله تعالى: "وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ": "وَلَا تَلْبِسُوا" النهي للتحريم، والفعل في سياق النهي يعم كل صور لبس الحق بالباطل؛ لأنه مخصص بمخصصين: الأول: المفعول به: "الْحَقُّ"، و"الْحَقُّ": "أل" لاستغراق الهدى المنزل، والثاني: "بِالْبَاطِلِ"، و"الْبَاطِلِ": "أل" لاستغراق فهو عام يدخل فيه كل أنواع الباطل.

وقوله تعالى: "وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ": "وَتَكْتُمُوا": معطوف على "تلبسوا"، والنهي للتحريم، والفعل في سياق النهي للعموم، أي: يحرم كل كتمان للحق، وهو أنواع كثيرة، منها:

الأول: كتمان الحق بحجبه وإخفائه عن الناس.

الثاني: الكتمان بشغل حملة الحق بما يصرفهم عن بيان الحق.

الثالث: الكتمان بصد حملة الحق وتغييبهم: كعزل العلماء الناصحين عن المنابر

ووسائل البلاغ، وتغييب الدعاة ومنعهم من الصدع بالحق.

والنهي عن لبس الحق بالباطل وكتمان الحق يفضي إلى أمرين:

^١ سورة البقرة آية (٤٢)

الأول: صيانة الوحي وعلوم الشريعة الخاتمة من اللبس والتغيير.

الثاني: عزل الباطل ونبذه. ويترتب على هذين الأمرين حفظ مقاصد الشريعة كلّها.

"وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ": الواو حالية، وهذه الحال لا مفهوم لها، فليست بمخصصة لعموم النهي، "تَعْلَمُونَ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به مقدّر دلّ عليه السياق: تعلمون حرمة لبس الحقّ بالباطل وكتمان الحقّ وضرر اللبس والكتمان، وسوء عاقبتهم في الدنيا والآخرة.

وهذه الآية وإن كانت تنهى بني إسرائيل من المضي في سبل الأئمة المضلّين الذين يلبسون الحقّ بالباطل، ويكتمون الحق وهم يعلمون، قال العلامة الرازي: "فصار الخطاب وإن كان خاصاً في الصورة لكنه عام في المعنى"^١. فإنها تنذر المسلمين وغيرهم من اتباع سنن المغضوب عليهم والضالّين.

^١ الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٣/٤٨٥

قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾^١.

ها هو يأمرهم بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والركوع مع الراكعين؛ ليستوفوا شروط الانتساب إلى خير أمة أخرجت للناس، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^٢، وبإله من تشریف وتكريم أن يكونوا أصحاباً لمحمد عليه الصلاة والسلام، وإخوة لأتباعه الغر المحجلين!

قال الله تعالى: "وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ": الأمر بإقامة الصلاة للوجوب، وإقامتها أداؤها على الوجه الأتم، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "الصَّلَاةَ"، و"أل" للعموم، والصلاة هي الحقيقة الشرعية التي يَبْتَنِيها السّنة أكمل بيان.

وقال الله تعالى: "وَأَتُوا الزَّكَاةَ" الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الزكاة، و"أل" للعموم، هي الحقيقة الشرعية التي يَبْتَنِيها السّنة أكمل بيان، "وأصل الزَّكَاةُ، نماء المال وثمرته وزيادته"^٣.

وقال الله تعالى: "ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ": الأمر بالركوع ظاهره الوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: "مَعَ الرَّاكِعِينَ"، و"أل" في "الرَّاكِعِينَ" للعموم، فيعمّ كل راعٍ من غير تمييز بينهم، ولا تفاضل بين الشعوب ولا القبائل ولا الأقوام إلا بالتقوى. والركوع لغة: الخضوع كما نقله ابن سيده عن ثعلب^٤، وعليه اقتصر الإمام الطبري في تفسير الآية،

^١ سورة البقرة آية (٤٣)

^٢ سورة المائدة آية (٥٥)

^٣ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٣/٥٧٣

^٤ ابن سيده، علي بن إسماعيل، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هندواوي، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ٢٠٠٠م،

فقال: "وأما تأويل الرُّكُوع، فهو الخضوع لله بالطاعة"^١، وقال: "وهذا أمرٌ من الله جل ثناؤه بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والدخول مع المسلمين في الإسلام، والخضوع له بالطاعة"^٢.

قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^٣.

أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم، وأنتم تتلون الكتاب الذي فيه ذكركم؟ أفلا تعقلون؟ أفلا تعقلون ما تتلون؟

لقد أوهنتنا القسوة والغفلة التي أصابت بني إسرائيل، فنحن نأمر الناس بالتعاون على البرّ والتقوى، ولا نتعاون إلا قليلاً! ونرفع شعار العدل، والإحسان، وندعو إلى الشورى، وحفظ حقوق الإنسان، ونخالف ما نأمر به كثيراً، فما أشدّ الجفوة بين القول والعمل، وما أعظم الفجوة بين ما نحن عليه وما يجب أن نكون عليه.

إن هذه الآية تصوّر أزمة القول بلا فعل، والتلاوة بلا عقل! وهي ظاهرة من أخطّ الظواهر التي تمرّ بها الأمم المفرّطة في عقل كتابها والاهتداء به؛ إذ يصبح دعاها آمريّن للناس بالبرّ، تاركين أنفسهم تعمّة في هواها.

قال الله تعالى: "أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ"، "أَتَأْمُرُونَ": الاستفهام للتوبيخ والاستنكار، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بثلاثة قيود: الأول: المفعول به: "النّاس"، "أل" للعموم، وهو عامّ مراد به الخصوص، والثاني: الجارّ والمجرور:

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٣/٤٨٧

^٢ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٣/٤٨٨ بتصرف

^٣ سورة البقرة آية (٤٤)

"بِالْبَرِّ": "أَل" للعموم، وهو يعمّ كل طاعة لله تعالى^١، والثالث: الحال: "وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ".
 "وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ"، "وَتَنْسَوْنَ" معطوف على "اتأمرون"، والفعل
 "وَتَنْسَوْنَ" في سياق الإثبات مقيّد بقيدين: الأول: المفعول به: "أَنْفُسَكُمْ": وهو نكرة مضافة
 إلى معرفة تعمّ كل نفس من هذه الطائفة، والثاني: الحال: "وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ". والنسيان
 الترك^٢.

"وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ" الواو حالّية، الفعل المضارع "تَتْلُونَ" يدلّ على تحدّد التلاوة،
 واستمرارها، فالحجة عليهم قائمة، ولا عذر، وهو في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به:
 "الْكِتَابَ"، و"الْكِتَابَ": "أَل" للعهد أي: الكتاب المعهود الذي يأمرهم بالبرّ.

قال الله تعالى: "أَفَلَا تَعْقِلُونَ"، الاستفهام للإنكار والتوبيخ، والفعل في سياق النفي
 يدلّ على العموم، وهذه العبارة تنادي عليهم بالسّفه، أفلا تعقلون ما تتلونه من الكتاب، وما
 تأتونه من الفساد.

قال الله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^٣.

ختم الله تعالى دعوته بني إسرائيل إلى الإسلام بالأمر بالاستعانة بما يثبت أقدامهم
 على الصراط المستقيم؛ لأن الاستجابة للدعوة الجديدة وما يترتب عليها من المعارف
 والوظائف والمواقف ثقيلة شاقّة، فأرشدهم الله تعالى إلى خير ما يستعان به. وما أشدّ حاجة

^١ انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢/ ١٠-٧.

^٢ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢/ ٩.

^٣ سورة البقرة آية (٤٦-٤٥)

من اتبع الحقّ إلى العون للمضيّ قُدُماً على الصراط المستقيم، ودفع الباطل وأخطاره، وقد دهم الله تعالى على الزاد والعتاد.

قال الله تعالى: "وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ"، صيغة الأمر "افعل" للوجوب، فالاستعانة وهي طلب العون، فريضة من فرائض الله تعالى، والتفريط فيها معصية يؤاخذ عليها العبد. الفعل "استعينوا" في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: "بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ"، "الصَّبْرُ": "أل" للعموم، يعمّ كلّ أنواع الصبر، والصبر المشروع هو ركون القلب إلى العليّ العظيم، وتثبيت القَدَم على الصراط المستقيم. وأنواع الصبر ثلاثة، أعلاها رتبة الصبر على الطاعات؛ لأنه صبر على فعل ما يحبه الله ويرضاه، وأوسطها الصبر عن المعاصي، وهو صبرٌ على ترك ما يغيضه الله تعالى وما يغيضه، وأدناها الصبر على الأقدار الكونيّة، وهو صبر على ما نزل بالعبد من الأقدار، فمن رضي بالقدر فله الرضا، ومن سخط فعليه السخط.

و"الصَّلَاةِ" "أل" للعموم، و"الصَّلَاةِ": حقيقة شرعية، وهي فرائض ونوافل، وهي من أعظم ما يُتقَرَّب به إلى الله تعالى، ونفعها في جلب المصالح ودفع المفاسد عظيم، وقد جعل الله تعالى أسباباً يُتوسَّل بها إليه؛ لتحصيل عونه، فمن استعان بما يحبه الله تعالى ويرضاه، هُديّ وكُفِّي وأفلح، ومن توسَّل بما يُسخط الله تعالى أثمَ وخسر. ولم يذكر في الآية القيد الثاني لفعل الأمر، وهو المستعان عليه؛ للدلالة على العموم، فتدخل في ذلك أمور الدين والدنيا (جلب النفع والخير ودفع الضرّ والشرّ). فلا يُجَلَب نفعٌ ولا يُدفع ضرٌّ إلا بعون من الله تعالى!

وقال الله تعالى: "وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ"، الضميرُ في "وَإِنَّهَا" قال الزمخشري: إن "الضمير للصلاة أو للاستعانة. ويجوز أن يكون لجميع الأمور التي أمر بها بنو إسرائيل ونحوها

عنها من قوله: (اذْكُرُوا نِعْمَتِي) إلى (وَاسْتَعِينُوا)^١، والأخذ بالأعم أرجح؛ لزيادة المعنى من غير إخلال، فتكون كلّها كبيرة، وفي المعنى الأعم فائدة أخرى وهي الحفاظ على نظم المعاني في سلك خطاب بني إسرائيل، فهي تمنع من صرف بعض ما ورد في الآيات إلى غير بني إسرائيل بلا دليل.

"وَأَمَّا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ"، لكبيرة: "كبرت: عظمت وشقت، فهي ثقيلة شاقّة" "إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ"، الاستثناء مفرّغ، وجاز ذلك وإن كان الكلام مُثَبِّتًا؛ لأنه في قوة المنفي، أي: لا تسهل ولا تخفّ إلا على هؤلاء، فـ "على الخاشعين" متعلّق بـ "كبيرة"^٢.

ولذا نجد كثيرًا من الناس يُهرعون إلى ما يُسخط الله تعالى، ويستنكفون ممن يدعوهم إلى اتباع الحق، وها هم اليهود والنصارى والكفار ينأون عن الإسلام وينهون عنه! وليس في الإسلام إلا ما يصلح دنياهم وأخراهم، ويضع عنهم الإصر والأغلال، ويحلّ لهم الطيبات، ويطهّر شرّ الخبائث!

و"الْخَاشِعِينَ": صفة صريحة و"أَل" للعموم، تعمّ كلّ خاشع، وفيها إيماء وتنبيه على العلة وهي الخشوع. قال الإمام الطبري: "وأصل 'الخشوع': التواضع والتذلل والاستكانة"^٣.

وقال الله تعالى: "الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ".

"الَّذِينَ...": صفة كاشفة للمدح والثناء على الخاشعين، ولا مفهوم لها، و"يَظُنُّونَ"

الظنّ: مشترك بين اليقين وبين الشكّ كما اختاره الطبري^١، والسياق يرجّح كونه هنا للجرم؛

^١ الرمخشري، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، مرجع سابق، ج ١/ ١٣٤

^٢ انظر: السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ١/ ٣٣١

^٣ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢/ ١٧

ولما كانت هذه الصفات الجليلة ظاهرة في محمدٍ -عليه الصلاة والسلام- وصحبه الكرام دون غيرهم، دلّ هذا الثناء الكريم من الربّ الرحيم بدلالة الإشارة على استحاث بني إسرائيل على متابعة الرسول -عليه الصلاة والسلام- وصحبه الكرام، والتأسي بهم، وفيه تعريض بخصومهم من أهل الكتاب والمشركين!

إنه لخطاب كريم من ربّ رحيم، يأمر الله تعالى بني إسرائيل بذكر نعم الله تعالى وفضله عليهم، خطاب يث في قلوبهم الرجاء الجميل، ويصل ماضي صالحهم أرباب المكارم والفضائل بالحاضر المتوّج بسيد المرسلين المبعوث بأكرم رسالة، وأطيب منحة، وإنها لفرصة لبني إسرائيل وأيّ فرصة للالتحاق بركب الأسلاف الكرام، ثمّ يتنقل الخطاب؛ ليفتح باب التحذير والتخويف، ويصلّ الحاضر باليوم الآخر... بالمستقبل البعيد بأهواله وشدائده.

٢ سورة البقرة آية (٤٧-٤٨)

ولما كان الخطاب في الآية للامتنان أُسند الفعل إلى الله تعالى جدّه، وأما الآية الثانية فللتخويف والتهويل، وقد بُنيت الأفعال فيها لما لم يسمَّ فاعله؛ ليجمع في قلوبهم الرجاء والخوف؛ ليستقيموا في مقام الاختصاص على صراط الخلاص؛ فيُسبغ الله تعالى عليهم نعمه ظاهرة وباطنة -إن استجابوا- كما أتمّها على أسلافهم الكرام.

- "يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ" تكرر النداء بهذا النسب الكريم إلى إسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، فيه جمعٌ بين التعريف والتشريف، "بَنِي": نكرة مضافة تعمّم جميعًا.

- "اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ": الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "نِعْمَتِي..."، وبما عطف عليها: "وَأَيُّ فَضْلَتُكُمْ"، وبالظرف: "إِذَا" في قوله تعالى: "وَإِذَا نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ".

- "نِعْمَتِي": نكرة مضافة إلى "يَاء" المتكلّم ذي الجلال والإكرام تعمّ كلّ نِعَم الله تعالى على بني إسرائيل وغيرهم، وقد حُصّصت بالصفة: "الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ": وقد أُسند الفعل إلى "تاء" المتكلّم للتوحيد والتعظيم والامتنان. "أَنْعَمْتُ": والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير العائد على الموصول، وبالجارّ والمجرور: "عَلَيْكُمْ".

- "وَأَيُّ فَضْلَتُكُمْ"، المصدر المؤوّل بمعنى: "تفضيلي لكم" يعمّ كلّ تفضيل، والتفضيل بعض نعمة الله تعالى عليهم، فهو من باب عطف الخاصّ "التفضيل" على العامّ "نعمتي"؛ لبيان عظمة نعمة التفضيل، "فَضْلَتُكُمْ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير العائد على الموصول، وبالجارّ والمجرور: "عَلَى الْعَالَمِينَ"، و"الْعَالَمِينَ": عامّ مراد به الخصوص أي: أهل زمانهم، فلم يبعث الله نبيًّا من بعد يعقوب (إسرائيل) عليه الصلاة والسلام حتى بعثه

محمّد عليه الصلاة والسلام إلا من بني إسرائيل، ومحمّد من ذريّة أبيهم إبراهيم عليهم الصلاة والسلام جميعاً، وإنه لشرف لهم لو كانوا يعقلون!

"وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا": الواو عاطفة للأمر: "وَأَتَّقُوا يَوْمًا" على "ادْكُرُوا نِعْمَتِي"، والأمر للوجوب، فهو تكليف بفعل ما يقيهم أهوال ذلك اليوم، وفيه تخويف من تقطّع الأسباب يوم الحساب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "يومًا": مفعول به وليس ظرفاً للتقوى، وهو نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بأوصاف:

الأول: "لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا": والفعل: "تجزّي" في سياق النفي للعموم، وهو مخصّص بالجارّ والمجرور: "عَنْ نَفْسٍ"، وبالمفعول به: "شَيْئًا": والنكرات الثلاث: "نفسٌ، عن نفسٍ، شيئاً" كلّها في سياق النفي فهي عامّة، والمعنى "لا تقضي نفس عن نفس حقاً لزمها لله جلّ ثناؤه ولا لغيره"^١، ولا أحد يحمل من وزر غيره شيئاً.

الثاني: "وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ" الفعل: "يُقْبَلُ" في سياق النفي للعموم، وهو مخصّص بالجارّ والمجرور: "مِنْهَا"، و"شَفَاعَةٌ": نكرة في سياق النفي عامّة، والشفاعة المنفية هي الشفاعة للكافرين، وفي هذا أبلغ التهديد والوعيد، فلا شافع يشفع لهم؛ لِيُسْقَطَ بوجاهته عنهم ما عليهم.

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢/٣٢

الثالث: "وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ" الفعل: "يُؤْخَذُ" في سياق النفي يعمّ، وهو مخصّص بالجارّ والمجرور: "مِنْهَا". "عَدْلٌ" نكرة: في سياق النفي للعموم، والعَدْل بفتح العين الفدية^١، فلا يقبل منهم فدية! وأنى لهم الفدية؟

الرابع: "وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ": الفعل في سياق النفي يعمّ. فلا ناصر لهم يدفع عنهم ما عليهم بالمغالبة.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ* وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾^٢.

واقعة من أعظم وقائع الإنقاذ والإنجاء في التاريخ، تمدّ قلوب المستضعفين بحسن الظنّ بالله تعالى، وتبثّ فيها الرجاء الجميل والأمل الطويل، لقد انتزعت القوم المستضعفين من بين يدي أعتى الطغاة، ونبذته مهاناً في اليمّ هو وجنوده.

واقعة فيها تحذير عظيم من مخالفة شرع الله تعالى، فقد سلّط على أفضل الأمم أخبث المجرمين، وها نحن نشهد أخبث المجرمين يسومون طائفة من خير البريّة سوء العذاب! فاعتبروا يا أولي الألباب!

قال الله تعالى: "وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ":

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢/ ٣٤

^٢ سورة البقرة آية (٤٩-٥٠)

- "إِذْ" ظرف زمان في محل نصب عطفاً على "نعمتي"، فهو قيد للفعل: "ادْكُرُوا نِعْمَتِي". والفعل "نَجَّيْنَاكُمْ" في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: ضمير المخاطبين، وبالجارّ والمجرور: "من آلِ فِرْعَوْنَ"، وبجملته الحال: "يَسْؤُمُونَكُمْ"، وأصل الإنجاء والنجاة الإلقاء على نَجْوَةٍ من الأرض، وهي المرتفع منها؛ لِيَسْلَمَ من الآفات، ثم أُطلق الإنجاء على كل فائزٍ وخارجٍ من ضيقٍ إلى سَعَةٍ، وإن لم يُلقَ على نَجْوَةٍ^١.

- "آلِ فِرْعَوْنَ": أهله وأتباعه ووكلاؤه، "آل": نكرة مضافة تعمّ وعموها هنا عرقيّ، فقد كان بعض آلِ فرعون مؤمنين، فهي من العامّ المراد به الخاصّ.

- "يَسْؤُمُونَكُمْ" الجملة الفعلية حال، وهي قيد للفعل: "نَجَّيْنَاكُمْ"، والفعل "يَسْؤُمُونَكُمْ" في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به الأول: ضمير المخاطبين المتصل، بالمفعول به الثاني: "سُوءَ الْعَذَابِ": و"الْعَذَابِ" "آل" للعموم العرقي. والسوم: من سام السلعة إذا طلبها، وهي هنا بمعنى الإذاقة، يَسْؤُمُونَكُمْ: يذيقونكم^٢.

- "يُذَيِّجُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ": "يُذَيِّجُونَ": في موضع البدل من "يَسْؤُمُونَكُمْ"، وفيه زيادة بيان وصيغة الفعل "يُذَيِّجُونَ": للمبالغة، وهو في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: "أَبْنَاءَكُمْ": و"أَبْنَاء" نكرة مضافة تعمّ الصغار والكبار، فاللفظ عامّ مراد به خصوص المواليد لا الكبار، "وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ": الفعل في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: "نِسَاءَكُمْ"، و"نِسَاءكم" نكرة مضافة تعمّ، فهي عامّ مراد به خصوص المولودات، واستعمل اسم النساء باعتبار المال؛ لأنهن محلّ الانتفاع والامتهان والإذلال من قبل آلِ فرعون.

^١ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ١/٣٤١

^٢ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢/٤٠

- "وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ"، "وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ"، نقل القرطبي عن جمهور المفسرين أن "ذلكم" إشارة إلى العذاب، ونقل عن بعضهم أنه إشارة إلى التنجية والعذاب معاً؛ ليمتحن شكرهم للنعمة، وصبرهم على الأذى^١، والحمل على المعنى الأتمّ أولى؛ لما فيه من الجمع بين التذكير بالنعم، والتحذير من النقم والعقوبات تصريحاً.

"بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ": "بَلَاءٌ": نكرة في سياق الإثبات مقيدة بصفتين:

الأولى: "مِّن رَّبِّكُمْ"، قال أبو البقاء: "في موضع رفع صفة لبلاء"^٢، والفائدة البلاغية تقديم هذه الصفة المؤولة على الصريحة (عظيم)، هي أن تقديم الاسم العظيم المضاف: "رَبِّكُمْ"؛ يدلّ على عظمة ما جاء من البلاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾^٣. قال أبو حيان: "وتقدّم الوصف بالإنزال وكان الوصف بالفعل المسند إلى نون العظمة أولى من الوصف بالاسم؛ لما يدلّ عليه الإسناد إلى الله تعالى من التعظيم والتشريف"^٤.

وتقديم الوصف بشبه الجملة أو الجملة على الوصف بالاسم المفرد أجاز به بعض النحاة، وفي التقديم إشارة إلى الاهتمام والعناية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، ولما كان الوصف الذي يتعلق بالمؤمن أوكد لموصوفه، قدم على الوصف المتعلق بالكافر، ولشرف المؤمن

^١ القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، ط ٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م، ج ١ / ٣٨٧

^٢ العكبري، عبد الله بن الحسين، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: عيسى البابي الحلبي وشركاه، ج ١ / ٦١

^٣ سورة الأنعام آية (٩٢)

^٤ أبو حيان، محمد بن يوسف، البحر المحیط، ت: صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ، ج ٤ / ٦٩٥

أيضاً. ولما كان الوصف الذي بين المؤمن وربّه أشرف من الوصف الذي بين المؤمن والمؤمن، قدّم قوله: يحبهم ويحبونه على قوله: أدلة على المؤمنين.

وفي هذه الآية دليل على بطلان قول من ذهب إلى أن الوصف إذا كان بالاسم وبالفعل لا يتقدم الوصف بالفعل على الوصف بالاسم إلا في ضرورة الشعر^١.

الثانية: "عَظِيمٌ": عظيم في مقداره ونوعه.

وقال الله تعالى: "وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ"

- وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ: "إِذْ" ظرف زمان في محل نصب عطفاً على "نعمتي"، فهو قيد للفعل: "ادْكُرُوا نِعْمَتِي". والفعل "فَرَقْنَا" في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "بِكُم"، وبالمفعول به: "الْبَحْرَ"، وهو المعروف والمعهود، وبجملة الحال: وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ، "فَرَقْنَا": فَصَلْنَا، قال السمين: "وَالْفَرْقُ وَالْفَلْقُ واحدٌ، وهو الفصل والتمييز"^٢.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ * ثُمَّ عَقَوْنَا عَنْكُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ^٣.

"وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً"، "إِذْ" ظرف زمان في محل نصب عطفاً على "نعمتي"، فهو قيد للفعل: "ادْكُرُوا نِعْمَتِي". والفعل "وَعَدْنَا" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به الأول: "مُوسَى"، وبالمفعول به الثاني: "أَرْبَعِينَ لَيْلَةً"، و"ليلة" قيد للعدد.

^١ أبو حيان، البحر المحيط، مرجع سابق، ج ٤/ ٢٩٩

^٢ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ١/ ٣٥٠

^٣ سورة البقرة آية (٥٣-٥١)

"ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ"، والفعل "اتَّخَذْتُمْ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به الأول: "العجل"، "أل" للعهد الذهني، وبالمفعول الثاني المحذوف أي: ثم اتخذتم العجل إلهاً. بالجارّ والمجرور: "مِنْ بَعْدِهِ"؛ لأنه متعلّق بالفعل: اتَّخَذْتُمْ. "بَعْدِهِ"؛ نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، والضمير عائد على موسى، أي: مِنْ بَعْدِ انْطِلَاقِ موسى لموافاة ربّه حيث وعده، وبجمله الحال: "وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ".

"ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"، الفعل "عَفَوْنَا" في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور الأول والثاني: "عَنْكُمْ"، "مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ"، وهذا العفو معلل بجمله التعليل: "لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"، "لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ": "لعلّ" للتعليل، الفعل "تَشْكُرُونَ": في سياق الإثبات منزّل منزلة اللازم، فهو مطلق، وفي هذه العبارة تهيج لبني إسرائيل؛ لبيادروا إلى شكر الله تعالى وتلقّي رسالته الخاتمة بالقبول والتسليم.

"وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ"، "إِذْ" ظرف زمان في محل نصب عطفاً على "نعمتي"، فهو قيد للفعل: "اذْكُرُوا نِعْمَتِي". والفعل "آتَيْنَا" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به الأول: "مُوسَى"، وبالمفعول به الثاني: "الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ"، وهذا الإيتاء معلل بجمله التعليل: "لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ"، "الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ": "أل": للعهد، والكتاب المكتوب، والفرقان ما يفرّق بين الحقّ والباطل؛ وقد نزّل تغاير الصفات منزلة تغاير الذوات، فالكتابة وسيلة حفظ العلم المنزل واستدامة نفعه، والفرقان أثر ذلك العلم في قلوب العباد، "لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ": "لعلّ" للتعليل، وفي هذا التعقيب تحضيض وتعريض، تحضيض على الاهتداء والوفاء بالعهد بالاستجابة لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام المذكور في التوراة باسمه وصفاته، وتعريض بالمعرضين.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^١.

"وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ...": "إِذْ" ظرف لما مضى من الزمان في محل نصب عطفاً على "نعمتي"، فهو قيد للفعل: "ادْكُرُوا نِعْمَتِي". والفعل "قَالَ" في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "لِقَوْمِهِ"، ومقول القول: يَا قَوْمِ...، "إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ"، والفعل "ظَلَمْتُمْ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "أَنْفُسَكُمْ"، "أَنْفُسَكُمْ": نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، ومقيّد بالجارّ والمجرور: "بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ"، "قوم" في الموضعين نكرة مضافة: والإضافة للتلطّف، وهي من العامّ المراد به خصوص الذين أشركوا؛ لأنّ فريقاً منهم بقي ثابتاً على الحق مع هارون عليه السلام، و"العجل": المعروف.

"فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ"

- "فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ" "فَتُوبُوا": الأمر للإلزام والإيجاب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "إِلَى بَارِئِكُمْ"، و"البارئ": الخالق، "الباء والراء والهمزة أصلان إليهما ترجع فروع الباب: أحدهما الخلق، يقال: بَرَأَ اللهُ الْخَلْقَ يَبْرِئُهُمْ بَرَاءً. والبارئ الله جلّ ثناؤه. قال الله تعالى: "فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ". والأصل الآخر: التباعد من الشيء ومُزَايَلَتُهُ"^٢.

^١ سورة البقرة آية (٥٤)

^٢ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج ١/٢٣٦ بتصرف

"فَاقْتُلُوا": الأمر للإلزام والإيجاب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به:
"أَنْفُسَكُمْ"، "أَنْفُسَكُمْ": نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، وقد أمروا بأن يقتل بعضهم بعضاً؛
ليطهّهم الله تعالى من جريمتهم.

"ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارئِكُمْ" تصريح بعلة الأمر بالتوبة بقتل أنفسهم.

وقد تكرّر الاسم العظيم "بارئ" في القرآن الكريم ثلاث مرات، منها ورودها مضافاً إلى
"كاف" المخاطبين في هذه الآية مرتين، وفي ذلك تذكير بنعمة برئه إياهم، وتأنيب على
انصرافهم عن طاعته، وفيه استئناس لهم وترغيب في الاستجابة لأمره بقتل أنفسهم.

"فَتَابَ عَلَيْكُمْ" والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "عَلَيْكُمْ" تعجيل
بالبشرى بحصول التوبة عليهم جميعاً (مَنْ قُتِلَ وَمَنْ سَلِمَ)، "إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" تعليل
للإنعام بالتوبة العظيمة بذكر صفتين بالغتين الغاية في كثرة التوبة عن العباد وكمال الرحمة
"التَّوَّابُ الرَّحِيمُ"، هكذا كانت شرعتهم، فالحمد لله على نعمة الإسلام، فما أيسر التوبة فيه!
قَالَ رَسُولُنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "النَّدَمُ تَوْبَةٌ، وَالتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ"^١.

^١ الألباني، صحيح الجامع الصغير، ح (6803).

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^١.

"وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً": "إِذْ" ظرف لما مضى من الزمان في محل نصب عطفاً على "نعمتي"، فهو قيد للفعل: "اذْكُرُوا نِعْمَتِي". والفعل "قُلْتُمْ" في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "يَا مُوسَى..."، وهذه محاذة ونكران صارخ يقال بعد تلك المنن العظام! "لَنْ نُؤْمِنَ" الفعل في سياق النفي للعموم، وهو مخصّص بمخصّصين: الأول: الجارّ والمجرور: "لَكَ" ومعناه: لن نقرّ لك، ولن نصدّقك، والمخصّص الثاني: الغاية "حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً": "حتى" حرف غاية، فعموم نفي الإيمان مخصّص بالغاية.

"فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ" الفاء للتعقيب والترتيب، فلم يمهلهم الله تعالى لشناعة قولهم بل عجل لهم العقوبة، الفعل "أَخَذَتْكُمُ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجملّة الحالية: "وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ"، "الصَّاعِقَةُ" "أل": للعهد، قال الإمام الطبري: "وأصل "الصاعقة" كل أمر هائل رآه المرء أو عاينه أو أصابه؛ حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب، وإلى ذهاب عقل وغمور فهم، أو فقد بعض آلات الجسم صوتاً كان ذلك أو ناراً، أو زلزلة، أو رجفاً"^٢. فأهلكهم الله تعالى بالصاعقة جهرة وهم ينظرون أهوالها، وفي ذلك عذاب فوق العذاب! والجزاء من جنس العمل.

"ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ"، الفعل "بَعَثْنَاكُمْ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجارّ والمجرور: "مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ"، وفي الأجل المستفاد من "ثم" التي للتراخي

^١ سورة البقرة آية (٥٥-٥٦)

^٢ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٢/٨٣

والمهلة العاطفة لفعل (البعث) شيء عظيم تنفّر من تحيّله القلوب؛ لأن العطف بحرف التراخي والمهلة "ثُمَّ" يفيد بُعد ما بين الأخذ وبين البعث! وقد ذاقوا في ذلك الزمن من الأهوال ما ذاقوا، وشاهدوا ما شاهدوا، فقد أخذهم الله تعالى بالصاعقة، إن أخذه أليم شديد، ونحن نشاهد في الرؤيا القصيرة من الأهوال ما لا يوصف، فكيف بمن أذاقه الله تعالى الموت عقوبة! وأدخل عالم البرزخ حيناً من الدهر!

وفي بعث الله تعالى لهم بعد الإمامة مِنَّن: منّة العفو، ومنّة العبرة والموعظة وفسحة العمل.

"أَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" للتعليل، الفعل "تَشْكُرُونَ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به المقدّر: تشكرون الله تعالى. واستعمل صيغة المضارعة؛ ليدلّ على التجدد والاستمرار؛ ليظلوا في شكرٍ متجدّد.

وفي هذه الحادثة موعظة بليغة للمتنبّعين والمتعنّتين الذين يشاققون الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، فلا يقفون عند حدود الله تعالى، ولا يكتفون بدلائل النبوة، ولا يتأسّون بسلف الأمة في العلم والعمل، وهم طوائف شتّى منهم من حرّف العقيدة؛ اتباعاً لعقله القاصر، ومنهم من شطح، فاتخذ طريقاً إلى الله تعالى بمقاييس لم يأذن بها الله تعالى، ومنهم من أنكر السنة، ومنهم من كفر أئمة الصحابة، ومنهم الداعي إلى مواكبة العصر وتنحية النصّ.

ولا تزال الأهواء تلد كلّ فاجر أثيم! ألا "فَلْيُحَذِّرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ".

قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا عَلَىٰكُمْ الْعَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^١.

إن الله تعالى يرزق من يشاء كيف يشاء، فلم يك تظليل الغمام ولا إنزال المن والسلوى بالرزق الذي يدركه بنو إسرائيل بالأسباب المادية المتاحة، وإنما هو رزق خالص ساقه الله تعالى؛ ليلوهم أيهم أحسن عملاً.

وقصة بني إسرائيل مليئة بالعبء والعظمت العظام، تتجلى فيها سنن الله تعالى في الإنعام والمواخذه، "إِذْ كَانَتْ شَكِيمَتُهُمْ لَمْ تُلَيِّنْهَا الرَّوَاجِرُ وَلَا الْمَكَارِمُ"^٢.

"وَوَهَبْنَا عَلَىٰكُمْ الْعَمَامَ" الفعل "وَهَبْنَا" في سياق الإثبات مقيّد وبالجارّ والمجرور: "عَلَيْكُمْ"، وبالمفعول به: "الْعَمَامَ"، والتظليل بالغمام وقاية من القَيْظ والحرّ وأشعة الشمس المحرقة؛ لتسكن الأنفس، ويطيب المقام في ظلّ ظليل، وبرد لطيف، وإنها لنعمة من النعم الجليلة التي اختصّ الله تعالى بها بني إسرائيل، "أل": في "الْعَمَامَ" للعهد، أي: الغمام الذي تعرفونه، وأصل الغمام هو ما غمّ السماء فألبسها من سحب وقتام، وغير ذلك مما يسترها عن أعين الناظرين^٣.

"أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى" الفعل "أَنْزَلْنَا" في سياق الإثبات مقيّد وبالجارّ والمجرور: "عَلَيْكُمْ"، وبالمفعول به: "الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى"، و"أل": في "الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى": للعهد، أو للعموم

^١ سورة البقرة آية (٥٧)

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/ ٥١٢

^٣ انظر: الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٢/ ٩٠

العربي، والمنّ، "هو اسم جامع لكل رزق حسن يحصل بلا تعب، ومنه الزنجبيل والكمأة والخبز وغير ذلك"^١. و"السلوى" اسم طائر يشبه الشّمائي، واحده وجماعه بلفظ واحد، كذلك الشّمائي لفظ جماعها وواحدتها سواء"^٢.

"كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ": "كُلُوا": الأمر للامتنان، والفعل "كُلُوا" في سياق الإثبات مقيّد وبالجارّ والمجرور: "مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ"، "طيبات": نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، "ما": موصول يعمّ، والفعل "رَزَقْنَاكُمْ" في سياق الإثبات مقيّد والمفعول به: الضمير المتصل.

"وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ": "وَمَا ظَلَمُونَا": الفعل في سياق النفي يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: الضمير المتصل، الظلم لغة: النقص، "ظلم فلان فلانا حقّه: إذا بخسه ونقصه"^٣، "وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ" الفعل "يَظْلِمُونَ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "أَنْفُسَهُمْ"، وتقديم المفعول به على الفعل للاختصاص والقصر، ومفهومه: ما يظلمون غيرهم، بل ظلمهم عائد بالضرر على أنفسهم. "أَنْفُسَهُمْ": نكرة مضافة تعمّ.

وسنة الله تعالى الجارية أن النعم تحفظ بالشكر، وبه تزداد، ويمحقها النكران والكفران. وما تشهده جزيرة العرب من فتح البركات المودعة في باطن الأرض بلاء عظيم، لو أن المسلمين أحسنوا إدارة هذه الموارد، لكان لهم شأن في قيادة العالمين!

^١ السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ج ١/٥٢

^٢ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٢/٩٦

^٣ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ١٨/١٩

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا
الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا
غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^١.

إن الفتوحات العظام يختص بها الله تعالى من يستحقها بعد تمحيصٍ وابتلاء، فما فُتح
بيت المقدس ليوشع عليه السلام، ثم لطالوت، ولا مكة لمحمد عليه الصلاة والسلام إلا بعد
بلاء وتمحيص.

ولقد بذل موسى عليه السلام ما في وسعه؛ ليفتح الأرض المقدسة، لكن الوهن أخلد
بقومه إلى الأرض، فقالوا مقولة الشقاق الشنيعة المليئة بالجبن والخور، وقلة الأدب، وقبيح
التطاول على رسولهم عليه السلام، ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ
أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾^٢، فحرم الله تعالى عليهم الأرض المقدسة أربعين سنة
يتيهون في الأرض، فكانت فترة كافية؛ للتمحيص وإعادة التأهيل؛ حتى ذهب كثير من أبناء
ذلك الجيل الذي ضرب عليه سرادق الذلّة والمسكنة في مصر، ثم نشأ جيلٌ مؤمن حرّ، تربّى
على قيم الإسلام في الفضاء الطلق، وترعرع في ظلال الغمام، وتنعم بالمنّ والسلوى، فلما
انتصروا على عدوهم، كان فيهم ظلّمة فسقة لا يستحقون شرف الفتح، ففرض الله عليهم ما
يميزهم، وينفي خبثهم، فأعلنوا فسقهم، ولم يكتفوا بالمخالفة بل تعدّوا، فبدّلوا ما أمروا به
استخفافاً. فكان فسوق هؤلاء أقبح؛ لأنه ناشئ عن عنادٍ، وغرور بعد جريان فيوض النعم
والمنن، ولذا كانت عقوبتهم أشدّ وأنكى.

^١ سورة البقرة آية (٥٩-٥٨)

^٢ سورة البقرة آية (٢٤)

"وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ": "إِذْ" ظرف لما مضى من الزمان في محل نصب عطفاً على "نعمتي"، فهو قيد للفعل: "ادْكُرُوا نِعْمَتِي". والفعل "قُلْنَا" في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ"، وما عطف عليه، والفعل "ادْخُلُوا": أمر للوجوب، وهو في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "هَذِهِ الْقَرْيَةَ"، "الْقَرْيَةَ": المعهودة المعروفة، قال ابن كثير: "أصح القولين أن هذه البلدة هي بيت المقدس. وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون عليه السلام، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب -باب البلد- "سُجَّدًا" أي: شكرًا لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، وردّ بلدهم إليهم، وإنقاذهم من التيه والضلال"^١.

"فَكُلُّوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا": "فَكُلُّوا": الأمر للإباحة والامتنان، والفعل "فَكُلُّوا": في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: "مِنْهَا"، وبالظرف: "حيث"، وبالنائب عن المفعول المطلق: "رَغَدًا".

"حَيْثُ شِئْتُمْ": ظرف مكان، وإضافته إلى فعل المشيئة فيه تعميم وتوسيع وزيادة في الامتنان. "رَغَدًا" قيد للأكل زيادة في الامتنان والتكريم، والرغد: الواسع الهنيء.

"وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا": الأمر للوجوب، والفعل "ادْخُلُوا": في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "الباب"، وبالحال: "سُجَّدًا"، وهو قيد لهيئة الدخول. "الباب": "أل" للعهد، وهو باب المدينة المعهودة.

^١ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ١/٢٧٤

"وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ": "وَقُولُوا": الأمر للإيجاب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بمقوله: "حِطَّةً"، وحِطَّة: مصدر، والأسلوب خبري بمعنى الإنشاء للدعاء، أي: حُطَّ عنا خطايانا، يقال: "حَطَّ الله عنك خطاياك فهو يحطها حِطَّةً"، "نَغْفِرْ لَكُمْ" الفعل في جواب الطلب، وهو في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: "لَكُمْ"، وبالمفعول به: "خَطَايَاكُمْ"، "خَطَايَاكُمْ": نكرة مضافة تعمّ كلّ خطاياهم.

"وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ"، الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "الْمُحْسِنِينَ"، والْمُحْسِنِينَ: صفة صريحة تعمّ كلّ محسن، وتوميء وتنبّه على أن الإحسان علّة الزيادة، فمن أراد المزيد، فعليه بإحسان العمل "وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ".

"فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ": الفعل "فَبَدَّلَ" "يتعدّى لمفعول واحدٍ بنفسه وإلى آخر الباء، والمجرور بالباء هو المتروك في هذه الآية^٢، والتقدير: بدّل الَّذِينَ ظَلَمُوا بالقول الذي أمروا أن يقولوه عند دخول الباب قولاً غيره، وعليه فالفعل "فَبَدَّلَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "قَوْلًا"، وبالجاء والمجرور المقدر: بالقول الذي أمروا أن يقولوه عند دخول الباب، "الَّذِينَ ظَلَمُوا": الاسم الموصول يعمّ، "ظَلَمُوا": فعل في سياق الإثبات يجوز تنزيله منزلة اللازم فيفيد الإطلاق، ويجوز تعديته إلى مقدر، فهو مقيّد بالمفعول به المقدر: أنفسهم، "قَوْلًا": نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالصفة: "غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ"، "قِيلَ لَهُمْ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: "لَهُمْ"، وكونهم بدّلوا القول المأمورين به بقول غيره كاف لنزول العقاب بهم، ثمّ بيّنت السنّة القول الذي قالوه، "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

^١ انظر: الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٢ / ١٠٥

^٢ انظر: السمين، الدر المنصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ١ / ٣٧٩

وسلم: قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا، وَقُولُوا: حِطَّةٌ، فَبَدَّلُوا، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْنَانِهِمْ، وَقَالُوا حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ^(١)؛ ليدلّ على مبلغ السّفه والغرور الذي أصاب هذا الفريق.

"فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ": "فَأَنْزَلْنَا" الفاء للتعقيب والترتيب، فلم يمهّلهم الله تعالى بل عاجلهم بالعقوبة. والفعل "أَنْزَلْنَا" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: "عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا"، وبالمفعول به: "رِجْزًا"، و"الَّذِينَ ظَلَمُوا" الموصول يعمّ كلّ ظالم منهم، "ظَلَمُوا": فعل في سياق الإثبات منزل منزلة اللازم فهو مطلق، وصلة الموصول بقوة الصفة الصريحة: "الظالمون"، ومفهومه سلامة مَنْ لم يظلم، وصلة الموصول تومئ إلى أن الظلم سبب إنزال الرجز، "رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ" الرجز: العذاب، "رِجْزًا" نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالصفة، وفي التقييد بالصفة بكونه من السماء زيادة تهويل وتفحيم، "بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ"، الباء للسببية، وما مصدرية، بسبب فسقهم، والمصدر المؤول يعم. ولا تزال العقوبات تتوالى على المستحقين بحدود الله تعالى في مشارق الأرض ومغاربها، وكثير منهم لا يشعرون أنّها واقعة بهم جزاء تفريطهم في جنب الله تعالى!

قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^٢.

يعرض القرآن الكريم الأزمات الجسام والمشكلات العظام التي حلّت ببني إسرائيل، ويبيّن المخارج الحسنى التي أنعم الله تعالى بها عليهم أحسن بيان؛ لتكون لمن خلفهم آية؛

^١ رواه البخاري، رقم (٣٤٠٣)، ومسلم، رقم (٧٧٠٨).

^٢ سورة البقرة آية (٦٠).

وليزداد المؤمنون إيماناً بأن اتباع الهدى لا ريب في حسن عاقبته، ولا بديل عنه! وأن اتباع الأهواء مهلكة.

إن وقائع قصّة بني إسرائيل لتدلّ دلالة قاطعة على أن الله تعالى يتولّى الصالحين برعايته، وأن الإسلام دينه الحقّ، وجبله المتين الذي ينجّي به المستضعفين، ويرفع به الأزمات والمشكلات، وهو نوره المبين الذي يحو به الظلمات، وروح منه يحيي بها القلوب، وهدى يُخرج به العباد من الضنك إلى السعة والسعادة. ومهما عظمت الأزمات، وتطاولت الشدائد، فعند الله تعالى الفرج القريب، والمخرج الواسع، ففضله أعظم، وأجمل، وأكمل، ورحمته أوسع، وأنفع، وأجمع، فلا يتعاضمه شيء أعطاه.

ومع ذلك فأعداء الإسلام ومن أعمى الله تعالى بصائرهم يزعمون أن الإسلام سبب الأزمات التي تعصف بالمسلمين، وأنه مشروع شاق لا يطاق!

وما فتى العلمانيون ومن شاكلهم من المغفلين يتخذون صلاة الاستسقاء هزواً، ويسخرون ممّن ينادي إليها؛ لأن السحاب محكومة بقوانين الطبيعة لا الشريعة، ناسين أن الله تعالى يقضي بمشيئته ما يشاء كيف يشاء، فالاستسقاء في ديننا سنة نبويّة وكرامة من الله تعالى، وقد جعل الله تعالى للأسباب الشرعية أثراً في الكون وهو أمر مجرّب مشاهد محسوس يدركه العقلاء، ولا ينكره إلا جحود، وما أصدق قول الله تعالى فيهم: "وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ"، أي أن مشكلتهم عقلية!

"وَإِذَا اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ": "إِذْ" ظرف لما مضى من الزمان في محل نصب عطفاً على "نعمتي"، فهو قيد للفعل: "ادْكُرُوا نِعْمَتِي". والفعل "اسْتَسْقَى" في سياق الإثبات مقيّد

بالجارّ والمجرور: "لِقَوْمِهِ"، الاستسقاء دعاء بطلب الماء للشُّقيا أي للشرب، ولا يكون إلا عن حاجة إلى الماء، "لِقَوْمِهِ": النكرة المضافة تعمّ، والإضافة هنا للعهد أي لقومه المعروفين.

"فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا" يحيب الله تعالى دعوة عبده ورسوله موسى عليه السلام، والفعل "قُلْنَا" في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ"، والفعل "اضْرِبْ": الأمر للوجوب، ويحتمل أن يكون للإرشاد، وهو في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "بِعَصَاكَ"، وإضافة العصا للتعين، وبالمفعول به: "الْحَجَرَ"، و"الحجر": "أل" في الحجر إما للعهد أي: اضرب حجراً معلوماً، وإما للجنس لأي حجر، "فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا"، الفاء للترتيب والتعقيب، فكان انفجار العيون عقب الضرب مباشرة إكراماً وإنعاماً. والفعل "انْفَجَرَتْ" في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "مِنْهُ"، وحرف الجرّ "من": لابتداء الغاية، أي: من الحجر نفسه لا مما حوله من الأرض، فهذه آيةٌ بيّنة أخرى تدلّ على قدرة الله تعالى، وصدق رسوله عليه السلام، "اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا" تكثير العيون فضل من الله تعالى ورحمة، وفيه تيسير للوصول إلى الماء من غير صدام ولا ازدحام.

"قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَهُمْ" والفعل "عَلِمَ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "مَشْرَهُمْ"، و"كُلُّ أُنَاسٍ": كل من صيغ العموم. "أُنَاسٍ" نكرة مطلقة، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه مثل: قوم، ورهط، وفريق، والمقصود به كلّ سبط من الأسباط، "مَشْرَهُمْ" الإضافة للتعين، وفي تمييز المشارب منع من التنازع وحفظ لصلاح ذات البين.

"كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ": "كُلُوا وَاشْرَبُوا": الأمر: للامتنان، والفعлан "كُلُوا وَاشْرَبُوا" في سياق الإثبات مقيّدان بالجارّ والمجرور: "مِنْ رِزْقِ اللَّهِ"، "من" لابتداء الغاية أو

التبعض، "رزق": نكرة مضافة لمعرفة تعم. وبهذا يتبين أن سنة الله تعالى في العطاء والإنعام التوسيع والبسط؛ لأن الله تعالى غني كريم وهاب.

"وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ"

- "وَلَا تَعْتَوْا" لا ناهية، والنهي للتحريم، والفعل في سياق النهي يعم كل أنواع العثي، وهو مخصص بالجار والمجرور: "فِي الْأَرْضِ"، "أل" للعهد أي: الأرض التي يتيهون فيها، ويجوز أن تكون للجنس، فتعم، قال أبو حيان: "الجمهور على أنها أرض التيه، ويجوز أن يريدوها وغيرها مما قدر أن يوصلوا إليها فينالها فسادهم، ويجوز أن يريد الأرضين كلها، و"أل": لاستغراق الجنس. ويكون فسادهم فيها من جهة أن كثرة العصيان والإصرار على المخالفات والبطر يؤذن بانقطاع الغيث، وقحط البلاد، ونزع البركات، وذلك انتقام يعم الأرض بالفساد"^١. وأما الحال "مُفْسِدِينَ" فمؤكدة وليست مقيدة؛ لأن "العِثِّيَّ والعِثَّ: أشدُّ الفساد، وهما متقاربان. وقال بعضهم: إِلَّا أَنَّ الْعِثَّ أَكْثَرُ مَا يُقَالُ فِيهِمَا يُدْرِكُ حِسًّا، وَالْعِثِّيُّ فِيهِمَا يُدْرِكُ حُكْمًا، يقال: عَثَى يَعْثِي عِثًّا وهي لغة القرآن"^٢.

- "فِي الْأَرْضِ"

فائدة: "مفسدين" حال مؤكدة للفعل، "ويُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ حَالًا مَبِينَةً، لِأَنَّ الْفَسَادَ أَعْمُ وَالْعِثِّيَّ أَحْصُ"^٣، والتأسيس أولى من التأكيد، وقال أبو السعود: "وقيل: إنما قيد به؛ لأن العِثِّيَّ في الأصل مطلق التعدي وإن غلب في الفساد وقد يكون في غير الفساد كما في مقابلة

^١ أبو حيان، البحر المحيط، مرجع سابق، ج ١/ ٣٧٣

^٢ السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج ١/ ٣٨٨

^٣ السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج ١/ ٣٨٩

الظالم المعتدي بفعله"^١. والمعنى: مفسدين الدين والدنيا وما منّ به عليكم من النعم؛ وقد ورد هذا النهي في هذا الموطن من سياق قصّة بني إسرائيل بعد تأمين الغذاء، والماء، وتحسين سبل المعيشة في مشهد جميل، وظلّ ظليل، ومنّ وسلوى، وعيون جارية بعد اكتمال منظومة المنن التسع بتعداد الرازي^٢؛ لأن شرط دوام النعم وبقاء الأمم الإصلاح في الأرض وترك الفساد! وإن سنة الله لقائمة بالمرصاد.

^١ انظر: أبا السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، مرجع سابق، ج ١ / ١٠٦

^٢ انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٣ / ٥٢٧

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَنْتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ وَالْمَسْكَنةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ^١﴾.

يتجلى في الآية الكريمة قانون الاستبدال بشقيه الدنيوي والديني في كلمات معدودات لو اجتمع علماء الأرض؛ لتفصيلها وتنزيلها على أحوال العباد، وما يجري، وما سيقع أو يتوقع، لما استطاعوا. فتفضيل الأدنى على الذي هو خير يفضي إلى التخلف والانحطاط في كل المجالات؛ لأن التنمية والتمكين لا يتأتيان إلا بتحصيل الأعلى وترك الأدنى عند التزاحم في المجال الاقتصادي، والاجتماعي، والثقافي، والسياسي، والإعلامي، والتربوي، والدعوي، والتعليمي، والصناعي، والبيئي، وغيرها.

إن أحوال الأفراد والشعوب في تبدل دائم، فمنهم من يتقدم؛ لحسن تصرفه وأخذه الذي هو خير عوضاً عن الأدنى، ومنهم من يتأخر؛ لتفريطه واختياره الذي هو أدنى بدلاً عن الذي هو خير. فالاستبدال إما بترك الأدنى وأخذ الأحسن، فذاك تقدم وعلو وصلاح، وإما استبدال الشيء بمثله، فهذا عبث لا يفعله عاقل؛ لأنه مضيعة للوقت والجهد، وإما استبدال بترك الأعلى والأحسن وأخذ الأدنى، فهذا تفريط وتأخر وانحطاط.

وقد تضمنت الآية نموذجين من نماذج الاستبدال في حياة بني إسرائيل.

^١ سورة البقرة آية (٦١)

النموذج الأول: يلخصه طلب بني إسرائيل: "فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا". وهذا طلب استبدالٍ غير مرضي؛ لأنه يفضي إلى التراجع، والتأخر، وفق سنن الله تعالى الكونية؛ فالأسباب الكونية في المزروعات، والمصنوعات، والوظائف، وغيرها، منها الشريف، الطيب، الرفيع، ومنها الديني، الخبيث، الوضع، فمن أخذ بأشراف الأسباب ومعاليها، علا وارتفع وساد وتقدم، ومن أخذ بالسفاسف الأدنى من الأسباب فاتته المعالي والمكارم، وسبقه أهل العزائم، وربما انحطّ، وتخلّف، واستخفّ به غيره، واتخذة سخرية.

النموذج الثاني: استبدالٌ يكون بترك الطاعة والإحسان وفعل العصيان والعدوان، وقد نشأ عن هذا الاستبدال ضرب الذلّة والمسكنة وحلول غضب الله تعالى على بني إسرائيل وفق سنة شرعية: هي سنة الأخذ بالذنب.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ: "إِذْ" ظرف لما مضى من الزمان في محل نصب عطفاً على "نعمتي"، فهو قيد للفعل: "اذْكُرُوا نِعْمَتِي". والفعل "قُلْتُمْ" في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ..."، وهذا إعلان جافٍ للتضجّر والتذمّر، واختلاق أزمة بسبب انحطاط الهمة.

"لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ": نفي الفعل المضارع بـ"لن" أشدّ من نفيه بـ"لا"، والفعل "نَصْبِرَ" في سياق النفي يعمّ كلّ أنواع الصبر، وهو مخصّص بالجارّ والمجرور: "على طعام"، "طعام": نكرة في سياق النفي تعمّ، و"واحد": صفة مخصصة، نزلوا المنّ والسلوى منزلة الطعام الواحد؛ لأنها متكررة، ومفهوم الصفة: سنصبر على أطعمة متعدّد.

"فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا":

"فَادْعُ": صيغة افعل للالتماس والتوسل بدعائه، والفعل "فَادْعُ" في سياق الإثبات مقيد بالجار والمجرور: "لَنَا" وبالمفعول به: "رَبَّكَ"، "يُخْرِجُ" مقيد بالجار والمجرور: "لَنَا" و"مِمَّا تُنْبِئُ الْأَرْضُ"، و"ما": موصول يعم، وهو مخصص بالبدل (بدل بإعادة حرف الجر "مِنْ"): "مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا"، والفعل "تُنْبِئُ" في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: الضمير العائد "تنبئه"، "الْأَرْضُ" "أَل" للعموم. و"بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا": نكرات مضافات تعم، قال الزمخشري: "البقل ما أنبتته الأرض من الخضر. والمراد به أطايب البقول التي يأكلها الناس كالنعناع والكرفس والكراث وأشباهاها. وقرئ (وقثائها) بالضم. والفوم: الحنطة. ومنه فوموا لنا، أي: اخبزوا. وقيل الثوم".^١

"قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ" والفعل "قَالَ" في سياق الإثبات مقيد بمقول القول: "أَتَسْتَبْدِلُونَ..."، والفعل "أَتَسْتَبْدِلُونَ" في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: "الَّذِي هُوَ أَدْنَى"، وبالجار والمجرور: "بِالَّذِي". و"الَّذِي" وهو في الموضعين: موصول يعم، والاستفهام للتقريع والتوبيخ، وهذا الاستفهام الجليل النافع صالح للتوجيه إلى عامة الناس؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقد أُعْمِلَ فقه الموازنات في أمور هي من المباحات وترتب على الإخلال به توبيخ وتقريع، فكيف بإعماله في الموازنة بين العظام، لترك الأدنى واقتناء المعالي!

^١ الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ج ١/٤٥١

"اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ" "اهْبِطُوا مِصْرًا": أمر للإرشاد والإباحة، أو للتهديد والتهكّم بتذكيرهم بما حاق بهم في مصر، والفعل "اهْبِطُوا" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "مِصْرًا": وهو بالتنوين نكرة مطلقة، ويجوز أن يكون التنكير للتحقير، ويجوز أن يراد به مصر يوسف، ولم تمنع من الصرف؛ لسكون الحرف الأوسط، وفي استعمال لفظ الهبوط الذي يعني الانتقال من الأعلى إلى الأدنى، وفي التذكير بلفظ مصر دار العذاب تقييد وتنفير، ويؤكد ذلك ما تلاهما من ذكر الذلة والمسكنة، فانتظم السياق على مقصد التحذير والترهيب، و"مَا سَأَلْتُمْ": ما موصول عامّ، "سَأَلْتُمْ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير العائد على الموصول.

لقد كفى الله تعالى بني إسرائيل مؤنة الاشتغال بطلب الطعام والشراب؛ ليتفرغوا لعبادته ويستعدّوا؛ لمقاتلة عدوّهم، وفتح الأرض المقدّسة الموعودة، فهم أشبه بالجند في معسكرات التدريب، فلما كان ما طلبوه فيه تفضيل للأدنى على الذي هو خير، ينبئ عن إخلاد إلى الأرض، جعل تحصيله في هبوط مصر، وفي هبوط الأمصار أخطار كبار!

"وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ":

"وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ" الفعل "ضُرِبَتْ" في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: "عَلَيْهِمْ" "الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ": "أل": لتعريف الجنس، "وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: "بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ" غضب مطلق، مقيّد بالصفة للتهويل والتعظيم. "وَالذِّلَّةُ: الصِّغَارُ، والدُّل بالضم ما كان عن قَهْرٍ، وبالكسر ما كان بعد شماس من

غير قهر، قاله الرغب. والمسكنة: مفعلة من السكون، لأن المسكين قليل الحركة والنهوض، لما به من الفقر، والمسكين مفعيل منه^١.

"ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ" "ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ": الباء للسببية، "يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: "بِآيَاتِ اللَّهِ": وآيات: نكرة مضافة تعم، "وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "النَّبِيِّنَ"، "أَلْ": للعموم العرقي، ومقيّد بالجاء والمجرور: "بِغَيْرِ الْحَقِّ"، "بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ": "مَا": مصدرية والمصدر المنسبك منها ومن الفعل يعمّ والتقدير: بعضيائهم وعدوانهم، والفعالان: "عصوا ويعتدون" في سياق الإثبات نزلاً منزلة اللازم فهما مطلقان، ويجوز تقييدهما بمقدر.

وقد خاطب الله تعالى بهذه الآية الخلف من بني إسرائيل في عهد محمد عليه الصلاة والسلام، فلم يعتبروا، بل اتبعوا سنن المجرمين من أسلافهم، فكفروا بآيات الله تعالى، وباشروا الأسباب؛ لقتل خاتم رسل الله تعالى محمد عليه الصلاة والسلام، فعاقبهم الله تعالى كما عاقب آباءهم، وضرب عليهم الذلة والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله تعالى بسبب عصيائهم واعتدائهم؛ ليعتبر أولو الأبصار.

إن التحوّلات الضخمة والعلاقة في حياة الأمم راجعة إلى حسن استثمار الموارد؛ باختيار الواقع الأعلى على الأدنى (للاتّقال من الواقع المتخلف إلى مستقبل متقدّم). كما أن انخراط الأمم القويّة وسقوطها وتخلفها يحصل باستعمالها أسباب الانخراط بدلاً من أسباب

^١ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ١/٣٩٧

القوة والتقدم. وما يفعله المسارعون في اتباع المغضوب عليهم والضالين، وفتح الديار والخزائن لمن يترىص بالأمة الدوائر خطيئة ماحقة، وذلة ساحقة! وإن سنة الاستبدال بهم لاحقة.

نبراً إلى الله تعالى من كل ما لا يرضيه، ونجدد ولاءنا لله تعالى، ولرسوله عليه الصلاة والسلام، ولأئمة المسلمين وعامتهم.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^١.

إني لأجد لقول الله تعالى: "فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ" روحاً وأنساً يملأ الجوانح لا تتسع كلماتي لبيانها؛ إنها تقيم العبد الفقير مقام العامل الأثير لدى العلي الكبير! كرامة وأيّ كرامة ورفعة أي رفعة أن يرضى بك رب العالمين بأن تعمل عنده أجيراً، فيكون لك جاراً ومجيراً! يوجب لك أجراً، وهو ربك ومولاك، فيجعله لك ذخراً، ويرفعك به ذكراً في الأولى والأخرى! اللهم اجعلنا ممن اجتبتهم واصطنعتهم لنفسك.

إن فضل الله وحسن جزائه غير مقصور على سلاله، ولا محصور في شعب، بل هو مبسوط لكل من آمن وعمل صالحاً من أي أمة انحدر أصله، فسنة الهداية والجزاء جارية من غير تفريق بين العباد، فمن اتبع الهدى فاز وأفلح، ومن لم يؤمن ويعمل صالحاً خاب وخسر.

إن هذه الآية تهدم عبيات الجاهلية كلها (عبية الجاهلية: قَالَ الْخَطَّابِيُّ: "الْعَبِيَّةُ الْكَبِيرُ وَالنَّحْوَةُ وَأَصْلُهُ مِنَ الْعَبِّ وَهُوَ الثَّقَلُ يُقَالُ: عُبِيَّةٌ وَعَبِيَّةٌ بِضَمِّ الْعَيْنِ وَكُسْرِهَا"^٢). وتحرر القلوب

^١ سورة البقرة آية (٦٢)

^٢ الخطابي، أحمد بن محمد، معالم السنن، المطبعة العلمية - حلب، ط ١، ١٩٣٢م، ج ٤ / ١٤٨

والشعوب من الأزمت الناجمة عن التمييز العنصري، والطبقي، والتفاضل والتفاخر بالأنساب والأجناس وغيرها من وشائج الجاهلية في مشارق الأرض ومغاربها.

"إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ"

- "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا" الاسم الموصول للعموم، وهو معرّف بالصلة "آمَنُوا"، والفعل في سياق الإثبات مطلق، فالإيمان هو الوصف الجامع المانع المستقل بالتعريف بهذا الفريق فهو أشرف الأوصاف المذكورة في هذه الآية وأرفعها، وأشملها وأوسعها، وأفضلها وأجملها، فهذه التسمية الشريفة تجمع البشرية في صعيد واحد تحت سقف واحد، وتدحض أوهام المتعاليين على العباد الزاعمين أنهم أبناء الله تعالى، وأحباؤه، والمستعلين بأنسابهم وأجناسهم.

- "وَالَّذِينَ هَادُوا": الاسم الموصول للعموم، و"هَادُوا" والفعل في سياق الإثبات مطلق، ومعناه: تابوا^١. وللتنقيص على الذين هادوا بعد أن وصف بني إسرائيل بما وصفهم مقاصد، منها: فتح باب البشرى، وتحديد الصلة بالله تعالى، والترغيب في التحلي بوصف الإيمان والعمل الصالح، والتخلي عن عبية جاهليتهم.

- "وَالنَّصَارَى" "أل": للاستغراق والعموم. "وَالصَّابِئِينَ": "أل" للعموم، والصابئون جمع صابئ، وهو اتخذ ديناً غير دينه، كالمرتد من أهل الإسلام عن دينه، وكل خارج من دين كان عليه إلى دين غيره، يسمّى صابئاً، يقال منه: صبأ فلان يصبأ صبأ^٢.

^١ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٢/ ١٤٣

^٢ انظر: الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٢/ ١٤٥

- "مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"، "مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا" "مَنْ" اسم شرط يعمّ، واسم الشرط وخبره خبر "إن"، ويجوز أن يكون لفظ "مَنْ" اسمًا موصولًا، وهو بدل بعض من اسم إن: "الذين"، فهو مخصّص لما سبق ذكره من العمومات. "آمَنَ" فعل في سياق الشرط يعمّ، وقد خصّص بالجارّ والمجرور: "بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ"، "وَعَمِلَ": فعل في سياق الشرط يعمّ، وقد خصّص بالمفعول به: "صَالِحًا"، "صَالِحًا": صفة لاسم مقدّر: "عملاً"، "عملاً": نكرة في سياق الشرط يعمّ، ويجوز جعله مصدرًا مبنيًا.

"فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ"، "أَجْرُهُمْ": نكرة مضافة يعمّ، و"عِنْدَ رَبِّهِمْ" شبه الجملة حال؛ لتفخيم الأجر وتعظيمه، "وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ": "خَوْفٌ" النكرة في سياق النفي يعمّ، والفعل "يَحْزَنُونَ" في سياق النفي يعمّ، فلا خوف ممّا هو آت، ولا حزن على ما فات، يبرز منطوق الآية سنّة الجزاء الحسن تبشيراً وترغيباً، وأما مفهوم المخالفة: فيتضمّن سنّة الأخذ تحذيراً وترهيباً، وتقديره: من لم يؤمن بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا فلا أجر لهم عند ربهم وَعَلَيْهِمْ خَوْفٌ وَهُمْ يَحْزَنُونَ. ومن لطف الله تعالى أن يجعل العباد بين دفعتي الرجاء والخوف بالترغيب والترهيب، والتبشير والتحذير.

وقد "نبّه الله تعالى على أن مَنْ أحسن من الأمم السالفة وأطاع، فإن له جزاء الحسن، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة؛ كُُلٌّ من اتبع الرسول النّبّي الأميّ فله السعادة الأبدية، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا هُمْ يحزنون على ما يتركونه ويُخلفونه".^١

^١ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ١/ ٢٨٤

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ
وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ
الْخَاسِرِينَ﴾^١

إن هذه الآية تُقدِّمُ العلاجَ الشافي، والحلَّ الكافي لأزمة البشرية عامّة والمسلمين
خاصّة! "خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون" خذوا الرسالة بقوة، وبلغوا ما
فيها؛ لكي تتقوا سخط الرب، وعقوبته، وتتقوا شرور أنفسكم، وضنك المعيشة وسوء العاقبة.
فإن زللتهم، فتوبوا، ففضل الله أعظم ورحمته أوسع، ويده سحّاء (دائمة العطاء) الليل
والنهار لا يغيضها (ينقصها) شيء، مبسوطة للتائبين، والطالبيين، والراغبين، والراهبين.

"وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ" "إِذْ" ظرف زمان في محل نصب عطفاً على
"نعمتي"، فهو قيد للفعل: "اذْكُرُوا نِعْمَتِي". والفعل "أَخَذْنَا" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول
به: "مِيثَاقَكُمْ"، "مِيثَاقَكُمْ": نكرة مضافة من صيغ العموم، والمراد به ميثاق مخصوص، وقد نصّ
عليه في الآيات (٨٥-٨٣) من سورة البقرة، والفعل "رَفَعْنَا" في سياق الإثبات مقيّد بالظرف:
"فَوْقَكُم"، وبالمفعول به: "الطُّورَ"، والطُّور: "اسمٌ لكلِّ جبل، وقيل لما أُنْبِتَ منها خاصّةً دونَ
ما لم يُنْبِتْ"^٢، و"أل" للعهد والمراد به جبل مخصوص، وقد "رُفِعَ الجبلُ على رؤوسهم؛ ليذكروا بما
عاهدوا عليه، ويأخذوه بقوة وحزم وهمة وامتنال"^٣.

^١ سورة البقرة آية (٦٣-٦٤)

^٢ السمين، الدر المصون مرجع سابق، ج ١/٤٠٨

^٣ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ١/٢٨٧

"خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ"، "خُذُوا": الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الاسم موصول "ما"، وبشبه الجملة: "بِقُوَّةٍ"، وقوة نكرة في سياق الإثبات للإطلاق، ومعناها: بعزم وحزم، و"ما": اسم موصول يعمّ كلّ ما آتاهم من الأشياء الحسيّة المعنويّة، والسياق يخصّصه بما آتاهم الله من التوراة^١، و"آتَيْنَاكُمْ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بضمير المخاطب وبالضمير المقدّر العائد على الموصول، والتقدير: ما آتَيْنَاكُمْوه.

"وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ": الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الاسم موصول "ما"، والموصول للعموم، اذكروه ولا تنسوه، وبلغوه ولا تكتموا، "لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" "لعل" للتعليل، "تَتَّقُونَ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بمفعول محذوف؛ للدلالة على العموم، فيدخل فيه كلّ ما يتقّى من ضرّ وشرّ وفساد وعذاب عاجل وآجل.

"ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ"، "ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ"، الفعل "تَوَلَّيْتُمْ" في سياق الإثبات مقيّد بشبه الجملة: "مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ"، وهذا توبيخ وتثريب تتصدّع منه القلوب الحافظة للجميل حياء من الله تعالى!

"فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ"، "فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ"، والفضل والرحمة: نكرتان مضافتان للعموم، فتح لباب الرجاء الجميل وحسن الظن بالله تعالى، ولو ترك الله العباد وشأنهم هلكوا وخسروا خسراناً مبيّناً، "الْخَاسِرِينَ": صفة صريحة تعمّ كلّ خاسر، فأبشروا أيها التائبون، وأملوا ما يسرّكم.

^١ انظر: الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٢ / ١٦٠

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً

خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾^١.

في هذه الواقعة: تذكير، وتحذير، والقصة قد وردت في سورة الأعراف مفصلة، قال

الله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ

حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَإِذْ

قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ

وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا

بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾^٢.

"وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ": الفعل "عَلِمْتُمُ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول

به: "الَّذِينَ"، والموصول يعمّ، والفعل "اعْتَدَوْا" في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "مِنْكُمْ"

وبالجارّ والمجرور: "فِي السَّبْتِ": و"أَل" في السبت للعموم العربيّ، "وأصلُّ السَّبْتِ الهدوءُ

والسكون في راحة ودعة، ولذلك قيل للنائم "مسبوت"؛ لهدوئه وسكون جسده واستراحته،

كما قال جل ثناؤه: (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا) أي راحة لأجسادكم. وهو مصدر من قول

القال: سَبَتَ فلان يَسِبْتُ سَبْتًا"^٣.

كما بيّنت الآية نوع العقاب والنكال، وفيها درس عظيم في فقه الموازنات بتقديم

حفظ الدين على غيره، فقد أوجب الله تعالى على بني إسرائيل تعظيم يوم السبت، وابتلاهم

بإتيان الحيتان إليهم شُرَّعًا يوم سبتهم المعظم، ولا تأتيتهم في غير يوم السبت، كما بيّن ذلك الله

^١ سورة البقرة آية (٦٥=٦٦)

^٢ سورة الأعراف الآيات (١٦٣=١٦٦)

^٣ انظر: الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٢/ ١٧٤

تعالى بقوله: ﴿وَأَسَاءَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا تَأْتِيهِمْ إِلَّا تَابِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^١. فلم يثبتوا على الطاعة، بل استحلّ فريق منهم ما حرم الله عليهم يوم سبتهم، وظاهر القرآن أنهم باشروا الاعتداء يوم السبت وحده.

"فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ"، الفعل "قُلْنَا" في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: "هُم" وبمقول القول: "كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ"، "كُونُوا" فعل الأمر للتكوين والتصيير، فصاروا قردة صاغرين كما أراد الله تعالى، "خَاسِئِينَ": مبعدين صاغرين، وخَسَأَ: صَغُرَ صَغَارًا، وَبَعُدَ ذَلِيلًا. فلما استهانوا بأمر الله تعالى، أهاهم الله تعالى بسلب الصورة المكرمة الحسنة، ومسخهم قردة؛ لأنها الخلقة التي تناسب خبث باطنهم!

"فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ" الفعل "جَعَلْنَا" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به الأول: الضمير المتصل "ها" أي: عقوبة المسخ، وبالمفعول به الثاني: "نَكَالًا"، والنَّكَالُ: العقاب الشديد المانع من تكرار الاعتداء والزاجر الرادع، وأصله: "الْمَنْعُ؛ لأنه يُمنَعُ به غيرُ المعاقب أن يفعلَ فِعْلَهُ، وَيَمْتَنِعُ المعاقبُ أن يعودَ إلى فِعْلِهِ الأولِ"^٢، ونكل عن كذا امتنع وتراجع.

"نَكَالًا" مقيّد بالجاء والمجرور: "لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا": "ما" موصول يعمّ، "وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ": "وَمَوْعِظَةً": نكرة مقيّدة بالصفة: لِّلْمُتَّقِينَ: والصفة الصريحة تعمّ كل متقٍ.

^١ سورة الأعراف آية (١٦٣)

^٢ السمين، الدر المصون مرجع سابق، ج ١/٤١٥

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾^١.

تتوالى الآيات مذكّرة بني إسرائيل بأنباء ما قد سلف من آبائهم من الشقاق، والاعتداء، وسيء الأخلاق، وبما أنعم الله تعالى به عليهم، وما أنزل بهم من العقوبات. وقد ورد في هذه القصة حلٌّ فصلٌ لأزمة اجتماعية شديدة الوطأة؛ بسبب جريمة قتلٍ عمدٍ.

هذه القصة أنموذج فريد رشيد في حلّ المشكلات بالتدرُّج والتلطُّف بأصحاب الجفاء والغلو والعناد؛ حتى أنجزوا ما أمروا به، فذبّحوا البقرة، وأحيا الله تعالى الميّت بقدرته، وكُشِفَ الستّر عن القتلة، وأُطْفِئَت الفتنة، فكانت آيةً بينةً وعبرةً للعالمين.

إنها قصّة مليئة بالآيات البينات، والعبّر والوعظّات للمخاطبين بالرسالة الخاتمة كافة، ومن ذلك جملة من الأصول الجامعة:

الأصل الأول: الحكمة في اتخاذ الوسائل والتدابير الممكنة؛ لمعالجة الأزمة من جذورها بإحقاق الحقّ وإبطال الباطل، ولا يجوز تعليق المشكلات وإهمالها؛ لأنه يفضي إلى تكثير مفسدها، وتفويت المصالح.

الأصل الثاني: الرفق والصبر في بيان الحقّ وتبليغ الشرع.

^١ سورة البقرة آية (٦٧=٦٨)

الأصل الثالث: وجوب الاستجابة لأمر الله تعالى بحسن السمع والطاعة، والمسايرة إلى العمل، وإن لم تظهر لنا حكمة التشريع ابتداءً. وقد عاجلت الآيات ظاهرتين متضادتين تقدحان في حسن الاستجابة:

الظاهرة الأولى: ظاهرة الغلو والتكلف في طلب تقييد الأحكام المطلقة، فقد جعل الله تعالى في إطلاق الأحكام توسيعًا وتخفيفًا وتيسيرًا للعباد، فلا يجوز تقييد الأحكام بما لم يأذن به الله تعالى؛ لأنه ظلم وعدوان، وفيه ضرر، وحرَج، وقبح، ويجب الاختصار على ما ورد في شريعة الله تعالى من القيود.

الظاهرة الثانية: ظاهرة التمرد والاحتياَل للانسلاخ من الشرع، وهي ظاهرة أخبت من الظاهرة السابقة، وتوافقها في المآل والعاقبة؛ إذ تُفضيان إلى نتيجة واحدة هي تعطيل الشريعة.

وقد كثرت في هذا العصر الذرائع؛ لتعطيل نصوص القرآن والسنة بالأهواء، ومنها ذريعتان شائعتان:

الأولى: ذريعة التمسك بنصوص القرآن والسنة كما يفعل بعض الغلاة؛ إذ يتمسكون ببعض الكتاب، وينزلونه في غير مواضعه، ويحرفون الأدلة المتواترة عن مواضعها؛ حتى أفضت بهم مخالفة القواطع إلى مناصرة المجرمين في هدم الدين.

الثانية: ذريعة التطوير والتحديث، ومواكبة العصر! وقد تفتن كثير من حملة الفكر السياسي، والاقتصادي، والإعلامي، والاجتماعي وغيرها، في تعطيل كثير من أحكام الشريعة واستبدالها بما يخالف شرع الله تعالى من أهواء البشر، وقد نُسب بعض ذلك جهلاً وظلمًا إلى

الفقه المقاصديّ والفكر الإسلاميّ المستنير، فعطلّوا أحكام الشريعة السمحة، واستباحوا ما حرّم الله تعالى الذي لا تخفى عليه خافية.

"وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً" "إِذْ" ظرف لما مضى من الزمان في محل نصب عطفاً على "نعمتي"، فهو قيد للفعل: "ادْكُرُوا نِعْمَتِي". والفعل "قَالَ" في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "لِقَوْمِهِ"، ومقول القول: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً": "يَأْمُرُكُمْ" الفعل بصيغة الخبر يدلّ على الطلب بمادته الأصلية: أمر، والأمر للوجوب، وهو فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ المقدّر: "الباء" والمصدر المنسبك من الحرف المصدرى والفعل: "أَنْ تَذْبَحُوا"، والتقدير: يأمركم بذبح بقرة، والمصدر -بهذا التقدير- نكرة مضافة إلى نكرة فلا يعمّ، والفعل "تَذْبَحُوا" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "بَقَرَةً"، وبقرة: نكرة في سياق الإثبات للإطلاق تصدق على كل ما يسمّى "بقرة"، وفي هذا الإطلاق تخفيف وتيسير.

"قَالُوا اتَّخَذْنَا هُزُؤًا"، "قَالُوا" فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "اتَّخَذْنَا هُزُؤًا"، والاستفهام فيه معنى الاستنكار، فوقعوا في منكر عظيم؛ إذ لا يجوز أن يُظنّ بموسى عليه السلام مثل هذا الظنّ، "اتَّخَذْنَا هُزُؤًا": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به الأول: الضمير المتصل، والمفعول الثاني: "هُزُؤًا".

"قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ": "قَالَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "أَعُوذُ بِاللَّهِ..."، "أَعُوذُ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "بِاللَّهِ" وبالجارّ المقدّر: "من" والمصدر المنسبك من الحرف المصدرى: "أَنْ" والفعل: "أَكُونَ"، ولفظ

"الْجَاهِلِينَ": صفة صريحة مقرونة بـ"أل" تَعَمُّ. وبهذا يُعلم أن الجهل داء عظيم يورد أصحابه المهالك، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

"قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافعلوا مَا تُمَرُونُ".

"قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ": "قَالُوا" فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "ادْعُ لَنَا... وفعل الأمر "ادْعُ": للتوسل بدعائه، وهو مقيّد بالجارّ والمجرور: "لنا"، وبالمفعول به: "رَبَّكَ"، وجواب الطلب: "يُبَيِّنْ" مقيّد بالجارّ والمجرور: "لنا"، وبالمفعول به: الجملة الاسمية: "مَا هِيَ"، "مَا": اسم استفهام من صيغ العموم، يُسأل بها عن الأجناس أو الصفات، والسؤال هنا عن الصفات.

"قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ": "قَالَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "إِنَّهُ يَقُولُ...و" يَقُولُ": مقيّد بمقوله: "إِنَّهَا بَقَرَةٌ.."، و"بَقَرَةٌ": نكرة مقيّدة بالصفات: "لَا فَارِضٌ"، "وَلَا بِكْرٌ"، "عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ".

قال الزمخشري: "كأنها سميت فارضاً؛ لأنها فرضت سنّها أي قطعتها، وبلغت آخرها. والبكر: الفتية، والعوان النَّصَف "١. عَوَان صفة مشبّهة من عانت تَعُون عَوْنَا، صارت عَوَانًا، وهي النَّصَفُ بَيْنَ الْمُسِنَّةِ وَالشَّابَّةِ ٢.

١ الزمخشري، الكشف مرجع سابق، ج ١/١٤٨-١٤٩

٢ انظر: الزبيدي، محمد بن محمد، تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية، بلا تاريخ ج ٣٥/٤٣٢

"فَافْعَلُوا مَا تُؤْمُرُونَ": الأمر للوجوب، مقيّد بالمفعول به: "ما"، وهو موصول صلتة معهودة، والمقصود بالمأمور به ذبح البقرة. "تُؤْمُرُونَ": مقيّد بالجارّ والمجرور المقدر: به، ومع ذلك تمادوا في التشديد. فشدد الله عليهم، جزاء وفاقاً.

قال الله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوُهَا تَسُرُّ النََّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهُ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ * وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^١. "قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْهَا": "قَالُوا" فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "ادْعُ لَنَا..." وفعل الأمر "ادْعُ": للتوسل، والفعل مقيّد بالجارّ والمجرور: "لنا"، وبالمفعول به: "رَبَّكَ"، وجواب الطلب: "يُبَيِّنْ" مقيّد بالجارّ والمجرور: "لنا"، وبالمفعول به: الجملة الاسمية: "مَا لَوْهَا"، "ما": اسم استفهام من صيغ العموم، "لَوْهَا"، نكرة مضافة تعمّ.

"قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوُهَا تَسُرُّ النََّاظِرِينَ": "قَالَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "إِنَّهُ يَقُولُ..." "يَقُولُ": مقيّد بمقوله: "إِنَّهَا بَقَرَةٌ.."، "بَقَرَةٌ": نكرة مقيّدة بالصفات التالية: "صَفْرَاءُ" القيد الأول، و"فَاقِعٌ لَوُهَا" القيد الثاني، و"تَسُرُّ النََّاظِرِينَ" القيد الثالث، "النََّاظِرِينَ": صفة صريحة مقرونة ب"أَل" تعمّ كلّ ناظر.

"قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهُ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ": "قَالُوا" فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "ادْعُ لَنَا..." وفعل الأمر "ادْعُ": للتوسل،

^١ سورة البقرة آية (٦٩=٧٣)

وهو مقيّد بالجارّ والمجرور: "لنا"، وبالمفعول به: "رَبِّكَ"، وجواب الطلب: "يُبَيِّنُ" مقيّد بالجارّ والمجرور: "لنا"، وبالمفعول به: الجملة الاسمية: "مَا هِيَ"، "مَا": اسم استفهام من صيغ العموم.

"إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا": "الْبَقَرُ": "أَل": للاستغراق والعموم، "تَشَابَهَ عَلَيْنَا" الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: عَلَيْنَا". "وَأِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ": الجملة فيها تلطف وتأدب وإظهار حسن القصد والرغبة في الامتثال.

"قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ".

"قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ..." "قَالَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "إِنَّهُ يَقُولُ..." "يَقُولُ": مقيّد بمقوله: "إِنَّهَا بَقَرَةٌ..."، "بَقَرَةٌ": نكرة مقيدة بالصفات التالية: "لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ"، "ذَلُولٌ": مذلة، ولا تثير الأرض بالحراثة، "وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ"، والحَرْث: يعم الحروثات، "مُسَلَّمَةٌ" من العيوب، "لَا شِيَةَ فِيهَا" نكرة في سياق "لَا" النافية للجنس نصّ في العموم فلا اختلاط في لونها، وشية: صدرٌ وَشَيْتُ الثوبَ أَشْيَاهُ وَشَيْئاً وَشِيَةً، "وأصله من "وشى الثوب"، وهو تحسين عيوبه التي تكون فيه، بضروب مختلفة من ألوان"^١

"وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ"

"إِذْ" ظرف لما مضى من الزمان في محل نصب عطفاً على "نعمتي"، فهو قيد للفعل: "ادْكُرُوا نِعْمَتِي". والفعل "قَتَلْتُمْ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "نَفْسًا"، نكرة مطلقة

^١ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٢ / ٢١٥

من القيود، مراد بها نفس معينة، فالتنكير للوحدة، وهي موصوفة بوصف مقدر^١ "نفساً محرمة"، "فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا"، الفعل مقيّد بالجَارّ والمجرور، "فتدافعتم فيها". من قول القائل: درأت هذا الأمر عني^٢، فتركوا ما يجب عليهم من التعاون في البحث عن المجرم، وتدافعوا التهمة؛ لتضيق الحقوق وتُسجّل الجريمة باسم مجهول! أو يُرمى بها بريء، فيتضاعف الفساد.

"وَاللّٰهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ" مُخْرِجٌ مقيّد بالمفعول به: "مَا..". الاسم الموصول يعمّ كلّ ما كتموه من شأن القتل، والفعل "تَكْتُمُونَ" مقيّد بالمفعول به: الضمير العائد على الموصول.

"قُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا": الفعل "قُلْنَا" في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "اضْرِبُوهُ"، وفعل الأمر "اضْرِبُوهُ" للوجوب، وهو مقيّد بضمير المفعول به لمذكر غائب، ومقيّد بالجَارّ والمجرور: "بِبَعْضِهَا"، "بعضها" نكرة مضافة تعمّ كلّ أبعاض البقرة المذبوحة.

"كَذٰلِكَ يُخَيِّمُ اللّٰهُ الْمَوْتَىٰ": الفعل "يُخَيِّمُ" مقيّد بالمفعول به: "الْمَوْتَىٰ"، "أل" للاستغراق والعموم، وفيها بيان قدرة الله تعالى على إحياء الموتى بضرب جثة قتيل ببعض بقرة ميتة! "وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ": الفعل "يُرِيكُمْ" مقيّد بالمفعول به: "آيَاتِهِ"، نكرة مضافة تعمّ (وعمومها عربي)، "لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" الجملة للتعليل، "تَعْقِلُونَ" الفعل مقيّد بما دلّ عليه السياق، وهو عقل آيات الله تعالى الدالة على قدرته على كلّ شيء وآياته المنزلة على رسل الله تعالى. لكلّ مشكلة حلّ عند من يعقلون، فإذا أسأت، فأحسن، وإذا أذنبت فتنّب، وإذا أخطأت، فصحّح، وإذا أفسدت، فأصلح.

^١ أبو السعود، الإرشاد، مرجع سابق، ج ١/ ١٤٥

^٢ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٢/ ٢٢٤

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^١.

هذه الآية تعالج ظاهرة من ظواهر الفساد في الأرض، وأزمة من أزمات الانحراف وتبديل نعمة الله كفرًا، فتشقق لنا صدور القوم؛ لترينا صورة موحشة لما ران على تلك القلوب من أدران الذنوب! ثم تستأنف فتضرب لها مثلًا بالحجارة! ثم تكرر مرة أخرى؛ فتغوص في أعماق الحقائق؛ لتعرض علينا بعض وظائف الحجارة في مشهد بديع خلاب يأسر الألباب: حجارة تتفجر منها الأنهار، وحجارة تشقق، فيخرج منها الماء، وحجارة تهبط من خشية الله تعالى. فتبدأ بذكر الصنف الأظهر أثرًا ونفعًا، وتختتم بالصنف الأخفى سلوكًا والأرفع وظيفة وعبرة. فما أروع صورة تلك الحجارة، وما أبشع وأشنع القلوب القاسية الخاوية شُعبها من لطائف الإيمان، ومعارف الوحي!

"ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً".

"ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ" العطف بحرف التراخي والمهلة: "ثم" يدل على أن ثمة تراخٍ وتطاول في الأمد الممتد من بدء ظهور الآيات على يد موسى عليه السلام؛ حتى إحياء القتيل، ويجوز أن تكون (ثم) لتفاوت مرتبة ما بعدها عما قبلها، قال البقاعي: "ولما كان حصول المعصية منهم بعد رؤية هذه الخارقة مستبعد التصور فضلاً عن الوقوع أشار إليه بقوله ثُمَّ قَسَتْ"^٢. وقد قال الله تعالى مخاطبًا بني إسرائيل: "وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"، فقد أراهم

^١ سورة البقرة آية (٧٤)

^٢ انظر: البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ج ١/٤٧٩

الله تعالى آيات كثيرة، ورؤية الآيات تمحو ران الغفلة عن القلوب، وتذهب أدران الريب عن العقول، وتجلب الطمأنينة واليقين واللين والخشوع، وتوجب الشكر، لكن بني إسرائيل أعرضوا، فلم ينتفعوا!

الفعل "قَسَتْ": لازم في سياق الإثبات فهو مطلق، "قسا": جفا وغلظ وصلب. ومنه: قسا قلبه يقسو قسوا وقسوة وقساوة وقساء^١، "وصفة القلوب بالقسوة والغلظ مثل لنبؤها عن الاعتبار وأنّ المواعظ لا تؤثر فيها"^٢، فالآية تدلّ على أن حال قلوبهم بعد رؤية الآيات ازداد سوء وفسادًا، ولفظ: "قُلُوبُكُمْ": نكرة مضافة تعمّ، "كَالْحِجَارَةِ" "أل" لتعريف الجنس.

"وَأَنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ": "مِنَ الْحِجَارَةِ"، "من" للتبعيض، و"أل" في الحجارة للاستغراق، و"ما": موصول يعمّ، والفعل "يَتَفَجَّرُ" في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "مِنْهُ"، و"الأنهار": "أل": للعهد أو للحقيقة، وقد بدأ بذكر هذا الصنف الذي هو أظهر أثرًا، وقد رأوه بأعينهم، ونفعه في الحياة لا يخفى عليهم. هذا من حيث الظهور والخفاء، وأما من حيث المعالجة والعمل فإن هذا الصنف أقلّ معالجة؛ لأنّ الأنهار تتفجّر بنفسها من الحجارة، فالحجارة تشبه الوعاء والخزان الذي يتدفق منه الماء بلا معالجة ولا جهد.

"وَأَنَّ مِنْهَا لَمَّا يَشَقُّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ" "لَمَّا" ما اسم موصول للعموم، الفعل "يَشَقُّقُ": لازم في سياق الإثبات فهو مطلق، والفعل "فَيَخْرُجُ" في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "مِنْهُ"، "الْمَاءُ" "أل" للحقيقة (لتعريف الجنس)، وهذا الصنف من الحجارة أقلّ أثرًا

^١ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٢/٢٦٢ بتصرف.

^٢ الزمخشري، الكشاف مرجع سابق، ج ١/ ١٥٥ بتصرف.

وظهورًا من السابق، ولكنّه من حيث العمل والمعالجة أكثر وأشدّ، فقد نُسب إلى هذا الصنف التشقُّق بخلاف الصنف الأول، فإن الماء يتفجّر منه تفجُّرًا! والحجارة في الحالين قارّة في مكانها لا تغادره، وهي أوعية خازنة للماء.

"وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَلْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ" "لَمَّا": ما اسم موصول للعموم، والفعل "يَلْبِطُ" في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ"، "مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ": مِنْ للسببية، أي بسبب خشيتها الله تعالى، وهذا الصنف الثالث من الحجارة اختصّه الله تعالى بالمعرفة الكريمة بالله تعالى، والعبادة العظيمة وهي الهبوط من خشية الله تعالى، وهذه الوظيفة أخفى مما سبق ذكره، ولولا ورودها عن الله تعالى، ما علمناها، ولكنّها مع خفائها أعظم وأشرف قدرًا، فهي تخشى الله تعالى، وتلبط من خشيتها، فتحنط وتهوي إلى الأسفل كما يختر الساجد! بخلاف الصنفين الأولين اللذين لا يبرحان مكانهما! وفي ذكر خشية الحجارة لله تعالى تعريض بجهلهم وجفائهم وقسوة قلوبهم. وقد حاول بعض المعاصرين ربط الآية بالعلوم الحديثة؛ لإثبات سبق علمي، وهذا الأمر يحتاج إلى تثبّت. وفيما أنبأنا به الله من أحوال الحجارة موعظة بليغة وحكمة بالغة وعلم عزيز.

"وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ"، "وَمَا اللَّهُ": ما نافية، "عَمَّا تَعْمَلُونَ" متعلّق باسم الفاعل: "غَافِلٍ"، "ما": موصولة تعمّ، ويجوز أن تكون مصدرية: عن عملكم، والمصدر المنسبك يعمّ. وفي قوله تعالى: "وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ" تخويف ووعيد، "تَعْمَلُونَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بمفعول به ضمير عائد على الموصول. وها هو داء القسوة يغزو قلوب المسلمين، نراه في هجر القرآن، وترك السنة، وغيرها من الأعراض، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ

تَخْشَعُ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١﴾

قال الله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^١.

لقد حذرنا الله تعالى من اليهود وقرن بينهم وبين المنافقين كثيراً؛ للوقاية من شرورهم وخبثهم، فهم أشد الناس عداوة للمسلمين، وأقلهم تسامحاً مع الإسلام، وما زالوا يحملون لواء تحريف كلام الله تعالى، وفي حركة الاستشراق الغربي والإسرائيلي دليل قاطع على هذا الأمر.

وهذا إعلان قاطع للطمع في مشاركة بني إسرائيل في حمل الرسالة الخاتمة وتبليغها إلا من رحم الله منهم، وقليل ما هم. وأما دعوتهم وإقامة الحجة عليهم فباقية، وهي من فروض الكفايات.

وهنا يعرض تساؤل: إن كان القوم بهذا السوء، فلم قصّ الله تعالى علينا كل تلك الأنبياء؟ الجواب: ثمة مقاصد كثيرة، منها: الدلالة على صحة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، وبسط الحجة على بني إسرائيل، وتعيد نعم الله تعالى عليهم، وبيان قلة شكرهم، وكثرة كفرهم؛ لتحذير الناس مما حلّ ببني إسرائيل من العقوبات، فسنن الله تعالى لا تبديل لها. كما أنها كشفت عن طبيعة بني إسرائيل في العناد والشقاق بسبب قسوة قلوبهم وضعف عقولهم^٢.

^١ سورة البقرة آية (٧٥)

^٢ انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٣/ ٥٥٩

"أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ" الخطاب في هذا الموضع لأمة محمد صلى الله عليه وسلم
 "أَفَتَطْمَعُونَ" الهمزة للاستفهام الإنكاري، فالاستفهام بمعنى النهي، تقديره: لا تطمعوا أن يؤمنوا
 لكم... والفعل "تَطْمَعُونَ" في سياق الإثبات مقيّد بالجاء المقدّر: "في" والمصدر المنسبك من
 الحرف المصدرى والفعل: "أَنْ يُؤْمِنُوا"، وبالحال: "وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ..."، والفعل "يُؤْمِنُوا"، في
 سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: "لَكُمْ".

"وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ" الواو للحال، "فريق": نكرة مطلقة، وهو
 "جمع، كالتائفة، لا واحد له من لفظه. وهو فعيل من التفرّق"¹، والفعل: "يَسْمَعُونَ" في
 سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "كَلَامَ اللَّهِ"، ولفظ كلام: نكرة مضافة تعمّ كلام الله المنزل
 على الرسل عليهم السلام، فهي من العامّ المراد به الخصوص أي: خصوص القرآن الكريم.

"ثُمَّ يُخْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ" والفعل "يُخْرِفُونَهُ" في سياق الإثبات مقيّد
 بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجاء والمجرور: "مِنْ بَعْدِ"، وبالحال: "وَهُمْ يَعْلَمُونَ" والتحريف:
 الإمالة والتحويل، و"ثم" للتراخي: إمّا في الزمان أو الرتبة²، "مَا عَقَلُوهُ" ما مصدرية أي: من
 بعد عقلهم ما يسمعون من القرآن الكريم، والمصدر المنسبك يعمّ، وتقديره: من بعد عقلهم
 "كَلَامَ اللَّهِ" الذي يسمعون، "وَهُمْ يَعْلَمُونَ" الفعل "يَعْلَمُونَ" في سياق الإثبات مقيّد بمفعول
 به يناسب السياق: يعلمون صدق القرآن الكريم وكذب تحريفهم.

¹ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٢/٢٤٤

² السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ١/٤٤١

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغُضُوبِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَنُحَدِّثُوكُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾^١.

يقدم لنا القرآن الكريم وسائل الوقاية من المشكلات الجسام قبل الحصول، ويهدينا بعد وقوعها إلى أحسن العلاجات والحلول، ولو ذهبت تحصى مقادير ما يخسره الناس بتركهم هدى الله تعالى واتباعهم سنن المغضوب عليهم والضالين، لتعسر ذلك عليك أو تعذر!

وهذه الآية المباركة تكشف لنا سبباً آخر من الأسباب الحائلة دون إيمان اليهود ذوي الفطرة الملوثة ألا وهو النفاق، وهاتان الظاهرتان: النفاق وتحريفهم كلام الله تعالى لا مطمع معهما في صلاح يهود!

ومن تتبع ما ورد في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، وشيئاً مما كتبت عن مسالك اليهود في الصد عن الإسلام، لوجد أن اليهود هم حملة لواء الشيطان في تحريف كلام الله تعالى حتى عصرنا هذا، ودورهم في حركة الاستشراق الغربي المعادي للإسلام دليل قاطع على هذا الأمر، وتحريفهم لحقائق الإسلام، وتزوير تاريخه، وتشويه ترجمات القرآن الكريم، وتوظيفهم لوسائل الإعلام؛ لبث براجمهم في الحرب على الإسلام وتأجيج الخوف من الإسلام (إسلام- فوبيا) كثير لا يخفى.

وأما مسلك النفاق، فاليهود أئمتهم وشياطينه، إليهم تهوي أفئدة المنافقين في كل عصر، ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾^١. وقد برز دورهم منذ

^١ سورة البقرة آية (٧٧-٧٦)

ظهور حركة عبد الله بن أبي؛ أفتطمعون أن يغيّر اليهود طبيعتهم، فيصالحوكم ويناصحوكم! هيهات هيهات!

تبين هذه الآية شدة القلق والاضطراب والمعاناة التي يتقلب فيها المنافقون لتمرير خداعهم، والحفاظ على مصالحهم العاجلة في بقائهم بين المسلمين، وفي زمرة الشياطين. فهم يريدون بهذا التلويح أن يرتعوا سالمين غانمين مع الفريقين بصفتين متضادتين: الإيمان والكفر، وهم خائفون أن ينكشف أمرهم.

"وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا"، "إذا": شرطية ظرفية تعم، ويكون لما يقع عادة ولا يتخلف، ففيه دلالة على أن هذا النفاق ديدنهم، "وَإِذَا لَقُوا": "لَقُوا" فعل في سياق الشرط يعمّ كل لقاء، "الذين": موصول عام، "آمَنُوا" فعل في سياق الإثبات مطلق، "قَالُوا آمَنَّا"، "قَالُوا" فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "آمَنَّا"، و"آمَنَّا": فعل في سياق الإثبات مطلق، "وَإِذَا خَلَا بِغُضُوبِهِمْ إِلَى بَعْضٍ": "إذا": شرطية ظرفية تعم، "خَلَوْا" الفعل في سياق الشرط يعمّ كل خلوة، وهو مخصص بالجوار والمجرور: "إِلَى بَعْضٍ"، "بعضهم": نكرة مضافة تعم، "إِلَى بَعْضٍ": "بعض": نكرة في سياق الشرط من صيغ العموم، "فأخبر الله عز وجل أنهم تخلّقوا بأخلاق المنافقين، وسلّكوا منهاجهم"^٢. وقد فرّق القرآن بين العبارتين: فجعل اللقاء للمؤمنين، والخلوة لخاصّتهم، واللقاء أعمّ ويكون علناً وسراً قصداً وبغير قصد، وأما الخلوة

فتكون خفية مع زيادة اهتمام وخصوصية.

^١ سورة البقرة آية (١٤)

^٢ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٢ / ٢٤٩

"قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ"، "قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ" "قَالُوا"
 فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "أَتُحَدِّثُونَهُمْ"، والاستفهام للإنكار والتوبيخ،
 "تُحَدِّثُونَهُمْ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجارّ والمجرور المتعلق:
 "بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ"، وبالجارّ والمجرور الثاني للتعليل: "لِيُحَاجُّوكُمْ" اللام للتعليل.

"بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ": ما: موصول يعمّ كلّ ما فتح الله به عليهم، "فَتَحَ" فعل في
 سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور المتعلق: عَلَيْكُمْ".

"لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ"، الفعل "يُحَاجُّوكُمْ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به:
 الضمير المتصل، وبالجارّ والمجرور: "بِهِ"، وبالظرف: "عِنْدَ رَبِّكُمْ"، والمراد "بما فتح الله عليكم":
 خصوص العلم بصدق رسالة محمد عليه الصلاة والسلام، وما في معناه، أي: أتحدثون المؤمنين
 بأن دينهم حقّ، ورسولهم صادق، وأنه مذكور في كتبكم، وأنكم مؤمنون به؟ والفتح: النصر
 والحكم والقضاء، والمعنى: أتحدثونهم بما حكم الله به عليكم، وقضاه فيكم؟ ومن حُكّمه عليهم
 ما أخذ به ميثاقهم من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به في التوراة. ومن قضائه
 فيهم أن جعل منهم القردة والخنازير، وغير ذلك من أحكامه وقضائه فيهم. وكل ذلك كان
 لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين به حجة على المكذبين من اليهود^١.

"عِنْدَ رَبِّكُمْ": يحتمل أن يكون: ليقيموا الحجة عليكم وفق كتاب ربكم (التوراة)،
 ويجوز أن يكون: ليقيموا الحجة عليكم عند لقاء الله تعالى في الدار الآخرة على ظاهره، "أَفَلَا
 تَعْقِلُونَ": الاستفهام للتوبيخ والفعل في سياق النفي للعموم. وهذا التوبيخ عجيب! إنه توبيخ
 أشدّ سفهاً؛ لأنّ مبناه على الجهالة بعلم الله تعالى!

^١ انظر: الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٢ / ٢٥٤

وقد عَقَّبَ الله تعالى على سَفَهِهِم هذا بقوله: **أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ**، **"أَوَلَا يَعْلَمُونَ"**: الاستفهام للتقرير والتوبيخ، والفعل في سياق النفي للعموم مَخَصَّص بـ **"أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ.."** التي سَدَّت مسدَّ المفعولين، **"يَعْلَمُ مَا.."** الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به وما عُطِفَ عليه: **"مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ"**، **"ما"** في الموضعين: اسم موصول يعمّ، **الفعْلان: "يُسِرُّونَ وَيُعْلِنُونَ"**، في سياق الإثبات مقيّدان بالمفعول به العائد على الموصول والتقدير: **مَا يُسِرُّونَهُ وَمَا يُعْلِنُونَهُ**. وفي هذا التعقيب وعيد وتهديد لكلّ مستخفٍّ في لباس النفاق، ولكلّ مستخفٍّ بحدود الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾^١.

ظاهرة تتجدد صورها في كل عصر، فما أكثر الأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانِيَّ أي: إلا تلاوة وقراءة من غير فهم! إنهم أدعياء يتقوّلون على الله تعالى، ويتبعون الظنّ وما تهوى الأنفس!

والمبدلون المجرمون الذين يغيرون الألفاظ ذاتها هم أسوأ المحرفين، وما أكثر أدعياء الفكر والفتوى الذين يحترفون الافتراء وتحريف كلام الله تعالى، وهم يعلمون؛ ليشترخوا به ثمنًا قليلًا! إنها السنن!

"وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ"، "وَمِنْهُمْ": "أي: ومن أهل الكتاب، و"أُمِّيُونَ": نكرة في سياق الإثبات مقيدة بالجملة الواقعة صفة: "لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ"، "يَعْلَمُونَ": فعل في سياق النفي للعموم مخصّص بالمفعول به: "الْكِتَابَ"، وبالاستثناء: "إِلَّا أَمَانِيَّ"، والأميون جمع أمي، وهو: الذي لا يحسن الكتابة، وهو ظاهر في قوله تعالى: "لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ" أي: لا يدرون ما فيه"^٢. والأماني جمع أمانة، "والاشتقاق من مئى إذا قدر؛ لأن المئميّ يقدر في نفسه، ويحزر ما يتمناه، وكذلك المختلق والقارئ يقدر أن كلمة كذا بمعنى كذا"^٣.

^١ سورة البقرة آية (٧٨)

^٢ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ١/٣١٠ بتصرّف.

^٣ الزمخشري، الكشاف مرجع سابق، ج ١/١٥٧

ولفظ "أماي" جامع للدلالة على استحالة ما يطلبونه من المغفرة والقبول بتخرفهم وقراءتهم التي لا تتجاوز حناجرهم. "وإن هُم إِلَّا يَظُنُّونَ"، "يَظُنُّونَ": الفعل في سياق الإثبات نُزِّل منزلة اللازم، فهو مطلق، أو متعدّيًا، فهو مقيد بمفعولين مقدّرين.

﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ هُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾^١.

"قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ": "قَوْلٌ": الفاء استئنافية، وويل سوغ الابتداء به كونه للدعاء ومعناه: الهلاك، وهو نكرة في سياق الإثبات مطلق، والجارّ والمجرور: "لِلَّذِينَ" متعلقان بالخبر المقدّر، والاسم الموصول عامّ، "يَكْتُبُونَ": فعل في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: "الْكِتَابَ"، ومؤكّد بالجارّ والمجرور: "بِأَيْدِيهِمْ"، ولا مفهوم له حينئذ؛ لأن الكتب معلوم أنه بالأيدي، وفائدة التأكيد تصوير الإصرار والحرص على اقتراف هذا الذنب، وأل في "الْكِتَابَ": للعهد، و"بِأَيْدِيهِمْ" نكرة مضافة تعمّ.

"ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا": "يَقُولُونَ" فعل في سياق الإثبات مقيد بمقول القول: "هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ"، وبلاد التعليل ومجرورها: "لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا"، "يَشْتَرُوا" فعل في سياق الإثبات مقيد بقيدين: الأول: بالجارّ والمجرور: "به"، والثاني: المفعول به: "ثَمَنًا"، و"ثَمَنًا": نكرة في سياق الإثبات للإطلاق، و"قَلِيلًا": صفة كاشفة للتحقير^٢ والذمّ لا مفهوم لها. "قَوْلٌ هُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ": "قَوْلٌ": الفاء استئنافية، "وَيْلٌ": دعاء عليهم بالهلاك، وهو نكرة في سياق الإثبات مقيد بالجارّ والمجرور: "مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ"، و"ما":

^١ سورة البقرة آية (٧٩)

^٢ انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/٤٦٥-٤٦٦

موصول يعم، "كَتَبْتُ أَيْدِيَهُمْ": "كَتَبْتُ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به الضمير
المقدّر: كتبتهم، و"أَيْدِيَهُمْ": "نكرة مضافة تعمّ". "وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ" "وَيْلٌ": دعاء عليهم
بالهلاك، وهو نكرة في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "مِّمَّا يَكْسِبُونَ" والجارّ والمجرور:
"لَهُمْ" متعلقان بالخبر المقدّر. "ما" اسم موصول يعمّ. "يَكْسِبُونَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد
بالمفعول به الضمير المقدّر: يكسبونهم.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّ النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خُطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^١.

هذه فرية عظيمة تهدم مقاصد الجزاء بالثواب والعقاب، فتُضِلُّ أهلها، وتهوّن عليهم عقاب الله تعالى، وتغريهم بمقارفة الذنوب. ويتربّس على هذه الفرية فساد عظيم في الدنيا، وعذاب أليم في الآخرة.

فانظر أيّ مبلغ بلغ سفههم؛ حتى غرّوا أنفسهم، وأغروها باجتراح ما يورد النار! وما أكثر الأمانيّ الكاذبة التي يختلقها المغضوب عليهم والضالّون ومن شابههم من المضلّين؛ ليُزلقوا بها المغفلين. ولقد تسبّبت هذه الفرية وأمثالها في مشكلات لا حصر لها، وأزمات فكرية، ونفسية، وسلوكية في بقاع الأرض كلّها.

وقد نقض القرآن الكريم هذه الفرية الخبيثة وأقام الميزان الحقّ بما أورده في الآيات الثلاث، فأبان أن سنّة الجزاء جارية وفق موازين القسط، والعدل، فمن أساء وأحاطت به خطيئته، هوى في نار جهنّم خالدًا فيها، ومن أحسن وأصلح أدخله الله تعالى جنّات النعيم المقيم.

^١ سورة البقرة الآيات (٨٢-٨٠)

ولم يَسْلَمْ الإسلام من مثل هذا الافتراء، فما أكثر دعاة الضلال والزَّيغ الصادِّين عن الهدى اتكالا على ما يحتلقه المبطلون من مثل هذا الأُمَائيّ! كالاتكال على النسب أو شفاعة الشافعين.

"وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً": "قَالُوا" فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: قالوا هذا افتراء على الله تعالى، "لَنْ نَمَسَّنَا..." الفعل في سياق النفي يعمّ كلّ مَسٍّ، وهو مخصّص بالظرف: "أَيَّامًا"، وأيام نكرة في سياق الإثبات؛ لأنها واقعة بعد "إِلَّا" الحاصرة، وعليه فإن "أَيَّامًا" مقيّدة بالصفة "معدودة" لقلّتها.

"قُلْ أَتُحَدِّثُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ"، "قُلْ": الأمر للوجوب، والفعل "قُلْ" في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "أَتُحَدِّثُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا" والاستفهام للإنكار والتوبيخ، فهو ينكر عليهم ما ادّعوه، ويوبخهم عليه، والفعل "أَتُحَدِّثُكُمْ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به الأول: "عِنْدَ اللَّهِ"، وبالمفعول الثاني: "عَهْدًا"، و"عَهْدًا" نكرة مقيّدة بمقدّر دلّ عليه السياق أي عهدًا بالأّ تمسكم النار إلا أيّامًا...، "فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ": الفعل "يُخْلِفَ" في سياق النفي يعمّ، مخصّص بالمفعول به: "عَهْدَهُ" الذي عقده لكم، "أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ": الفعل "تَقُولُونَ" في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "عَلَى اللَّهِ" وبمقول القول: "ما لَا تَعْلَمُونَ"، واسم الموصول يعمّ، والفعل في سياق النفي يعمّ، وهو مخصّص بالضمير العائد.

ثمَّ بيّن الله تعالى قانون العقاب العامّ، وسنة من سنّنه المطردة التي لا تبدّل في مجازاة من أساء وأحاطت به خطيئته، فقال: "بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ".

"بَلَى" حرف جواب ينقض دعوى اليهود الباطلة، ويثبت خلافها، والتقدير: بلى ستمسّكم النار، وتخلدون فيها، ثمّ أوضح الله تعالى سنّته في عقاب المجرمين: "مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً": "مَنْ": اسم شرط يعمّ، "كَسَبَ" فعل في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصص بالمفعول به: "سيئة"، "سيئة": نكرة في سياق الشرط يعمّ، "وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ" "أَحَاطَ" فعل في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصص بالجائر والمجرور: "بِهِ"، "خطيئته": نكرة مضافة تعمّ كلّ الخطايا، "أصحاب النار": النكرة مضافة تعمّ، والنار هي المعهودة. هذا هو منطوق الآية، ومفهوم المخالفة أن من لم يكن كذلك لم يصبه ما يصيب الكافرين من العذاب.

ثمّ ذكر الله تعالى سنّة الجزاء الحسن لمن آمن وأصلح، فقال ربُّنا عزّ وجلّ ترغيباً وتشويقاً: "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" الذين: موصول يعمّ، "آمَنُوا" فعل في سياق الإثبات مطلق، و"عَمِلُوا" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "الصالحات"، "أل" للعموم العرفي، و"أصحاب": نكرة مضافة تعمّ، "الجنة": هي الجنة المعهودة وهي دار الخلود، وفي ذكر هذا الجزاء الكريم العظيم ترغيبٌ في دخول الإسلام، وتبشير للمسلمين، وتعجيل لهم بالمسرّة.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾^١.

في هذه الآية بيان الداء والداء، وذكر القلة المهتدية، والكثرة المعرضة، وفيها تشخيص للأزمة الممتدة التي يعاني منها بنو إسرائيل أزمة نقض الميثاق والإعراض عن الحق مع أن فيه صلاحهم.

وكان حوادث الماضي تتجدد في هذا العصر، فها هم اليهود المخاطبون بالقرآن الكريم يقتفون شرار أسلافهم الذين تولّوا عن هذه الشعائر الكريمة وهم معرضون، وهي شعائر موافقة للحق الذي جاءهم به محمد عليه الصلاة والسلام، وقد تولّوا عن الإسلام إلا قليلاً منهم، فوقعوا فيما وقع فيه من ظلم نفسه من آبائهم الأولين.

"وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ": "إذ": "معطوفٌ على الظروفِ التي قبله"^٢.
"أَخَذْنَا": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "ميثاق"، و("ميثاق"، و"بني"): نكرتان مضافتان لمعرفة تعمّان، "لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ": الجملة مفسّرة لأخذ الميثاق، والفعل في سياق النفي يعمّ، وهو مخصص بالمفعول به: لفظ الجلالة، والنفي بمعنى النهي أي لا تعبدوا أحداً غير الله، والأسلوب الخبري هنا "أبلغ من صريح الأمر والنهي"^٣؛ لأن طلب الفعل نُزِّل منزلة ما تُلقَى بالامتنال، فهو واقع حاضر يخبر عنه. والفعل "تعبدون" في سياق "لا" النافية يعمّ كل أنواع العبادات.

^١ سورة البقرة آية (٨٣)

^٢ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ١/٤٥٨

^٣ الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ج ١/١٥٩

"وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ".

وردت هذه الأصناف مرتبة حسب الأولوية، فأحقّ الناس بالإحسان الوالدان، "وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا" الوالدان يعمّ كلّ أب وأمّ، وغلب لفظ الوالد؛ لتعظيم حقهما، "والباء" ترادفُ إلى "١"، وتقديم ذكرهما على "إحسانا" لزيادة الاعتناء والاهتمام، "وأصله وإحسانًا بالوالدين، قال ابن عاشور: "المصدر بدلٌ من فعله، والتقدير: وأحسنوا بالوالدين إحسانًا. ولا يريكم أنه معمول مصدر، وهو لا يتقدم على عامله على مذهب البصريين؛ لأن تلك دعوى واهية دعاهم إليها أن المصدر في معنى أن والفعل، فهو في قوة الصلة، ومعمول الصلة لا يتقدم عليها مع أن "أن والفعل" هي التي تكون في معنى المصدر لا العكس"٢. ويدخل في هذا الطلب كلّ إحسان واجب ومندوب.

- "ذي القربى": القربى تعمّ كلّ ذي قربي، والقربى مصدر، كالرجعى بمعنى القرابة، وهم من يصلون إليك من جهة والديك، وهم درجات متفاوتة، فيقدّم الأقرب فالأقرب عند تراحم الحقوق والعجز عن الجمع.

"وَالْيَتَامَى": "أل" للاستغراق، واليتيم من فقد أباه وهو دون الاحتلام، فلا يُتّم بعد احتلام كما ورد عن عليّ رضي الله عنه أنه قال: حَفِظْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- "لَا يُتّم بَعْدَ احْتِلَامٍ"٣. وقدّم اليتامى على المساكين؛ لأنهم أضعف، وحاجتهم إلى الرعاية أعظم.

١ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ١ / ٤٦١

٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١ / ٥٨٣

٣ رواه أبو داود، ح ٢٨٧٥، وقال الشيخ الألباني في صحيح الجامع: (صحيح) انظر حديث رقم: ٧٦٠٩

"وَالْمَسَاكِينَ" "أَل" للاستغراق، والمسكين مفعيل من الشُّكون كأن الفاقة أسكنته^١،
وسلبته القدرة على الحركة والسعي في قضاء حاجاته.

"وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا" "وَقُولُوا": الأمر للإيجاب، ويدخل في هذا الطلب قول
الواجبات والمندوبات، فيشمل كل ما فيه خيرٌ ونفع وصلاح عاجل وآجل، أو بعبارة أخرى:
كل قول جالب للخير والنفع، دافع للشر والضرر، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجاء
والمجرور: "لِلنَّاسِ" وكذلك فُيِّد بلفظ: "حُسْنًا"، وهو مصدرٌ وَقَعَ صفةً لمحدوفٍ تقديره: وقولوا
للناس قولاً حُسْنًا أي: ذا حُسْن، و"الناس": عامٌ.

"وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ" الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به:
"الصلاة"، وهي حقيقة شرعية وفق شرعتهم، و"أَل" للعموم. "وَأَتُوا الزَّكَاةَ" الأمر للوجوب،
والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "الزكاة": وهي حقيقة شرعية وفق شرعتهم، و"أَل"
للعوم، ولا يقصد بها فريضة الإسلام^٢. وقد نصّ على هاتين العبادتين؛ لعظيم أثرهما في
صلاح العباد عاجلاً وآجلاً.

"ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ"، "تَوَلَّيْتُمْ" التولي هنا حقيقة شرعية بمعنى
نكثتم الميثاق وعصيتهم، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالاستثناء: "إِلَّا قَلِيلًا"، وأما جملة الحال
فمؤكّدة للفعل تَوَلَّيْتُمْ؛ لأن الإعراض يقوي معنى التولي ويعضده، وتاء المخاطب الفاعل
للعوم؛ لأنه يعمّ كل المخاطبين منهم، ثم خصّص بالاستثناء فقد استثنى "قَلِيلًا"، "مِنْكُمْ"
صفة مقيّدة للمستثنى: "قَلِيلًا".

^١ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج ٢ / ١٥

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١ / ٥٨٣

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾^١.

ما المشكلة التي تعالجها الآية؟

هذه الآية للوقاية، فهي تقي العباد من مفسد عظيمة، وأزمة إنسانية أليمة، إنها تمنع من الوقوع في فتنة القتل وإخراج الناس من ديارهم بغير حق (التهجير القسري)، وهما سببان لأزمة عالمية، والمسلمون في هذا العصر أكثر الناس اصطلاء بهذا العذاب، وما زال اليهود قادة المخططين والمنفذين لهذه الجريمة؛ لأنهم مَرَدُوا على هذا الصنف من الفساد.

"وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ"

"وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ": "إذ": معطوفٌ على الظروفِ التي قبله. "أَخَذْنَا": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "ميثاق"، و"ميثَاقُكُمْ": نكرة مضافة لمعرفة تعمّ، وقد بيّنه بقوله: "لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ"، فهذه الجملة مفسّرة لأخذ الميثاق، "لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ" النفي بمعنى النهي، وهو للتحريم، والفعل في سياق النفي يعمّ، فلا سفك دم البتة، ومعنى سفك الدم: "صَبُّهُ وإِراقته"^٢. وهو مخصص بالمفعول به: "دِمَاءُكُمْ". والمقصد منه حفظُ الأنفس، وهو من الضروريات التي لا تستقيم الحياة بفواتها، و"دِمَاءُكُمْ"، نكرة مضافة تعمّ.

^١ سورة البقرة آية (٨٤)

^٢ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢/٣٠٠

"وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ": "وَلَا تُخْرِجُونَ": النفي بمعنى النهي، وهو للتحريم، والمقصد منه الاستقرار بمصالحه من حفظ الضروريات والحاجيات والتحسينات، ودرء التهجير والتشريد الذي يطال فسادُه كلَّ جوانب الحياة، والفعل في سياق النفي للعموم، وهو مخصص بالمفعول به: "أَنْفُسَكُمْ"، وبالجارّ والمجرور: "مِنْ دِيَارِكُمْ". "أَنْفُسَكُمْ وَدِيَارِكُمْ": نكرتان مضافتان تعمّان.

"ثُمَّ أَفْرَزْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ"، "أَفْرَزْتُمْ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقدّر: بذلك، وبالحال: "وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ"، "تَشْهَدُونَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقدّر: على ذلك، وأتى بصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار، فقد أقرُّوا جميعًا بقبول الميثاق، وحملوه على بصيرة، وشهدوا على أنفسهم، فجمعوا بين الإقرار والشهادة، فما أبلغ الحجة وما أوضح الحجة.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾^١.

تعرض هذه الآية أزمة من أبحث أزمت الانحطاط عن القيم الربانية والإنسانية، فتبين أسبابها (نقض الميثاق وتظاهر بعضنا على بعض بالإثم والعدوان)، وتحلّي عاقبة هذه الجريمة من الخزي في الدنيا والعذاب الشديد في الآخرة.

^١ سورة البقرة آية (٨٦-٨٤)

ثمّ تحيى الآية الثانية فتكشف حقيقة الأسباب الخفيّة، إنهم قوم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة!

وما أشدّ الغفلة التي حلّت بكثير من المسلمين؛ حتى تشبّهوا بالذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة! فوقعوا فيما وقعوا فيه، لقد أحاطت بكثير منا الخطيئة التي أفضت إلى تفرّق الكلمة، والفشل، وذهاب القوة، وتسلب الأعداء، وسلب خيراتنا.

وأما العلاج فهو ظاهر، وهو: الوفاء بالميثاق، والكفّ عن التظاهر بالإثم والعدوان، ولا يتأتى ذلك إلا لمن آثر نعيم الآخرة، وخاف الوعيد.

"ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ": "وأنتى بحرف "ثم" للتراخي الرتبي لبيان القاع السحيق الذي هوت فيه هذه الفئة الظالمة لنفسها، فانخطوا من رتبة الإقرار بالميثاق إلى قاع السحيق بالنقض والارتداد على الأعقاب! "أنتم" مبتدأ، واسم إشارة "هؤلاء" خبره، والجملة بعده حالية.

"تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "أَنْفُسَكُمْ"، و"أَنْفُسَكُمْ": نكرة مضافة تعمّ، "وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "فَرِيقًا" وبالجارّ والمجرور: "مِنْ دِيَارِهِمْ"، بجملة الحال: "تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ"، فأما "فَرِيقًا" فنكرة في سياق الإثبات تدلّ على الإطلاق، وقُيِّدَتْ بشبه الجملة "منكم"، أي من المؤمنين، وهو في غاية القبح، وأما "دِيَارِهِمْ": فنكرة مضافة تعمّ.

"تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "عَلَيْهِمْ"، و"بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ"، و"التظاهر" هو والتعاون؛ لتقوية بعضهم ظهراً بعض. فهو

"تفاعل" من "الظهر"، وذلك بإسناد بعضهم ظهره إلى ظهر بعض^١. "بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ": "أل":

فيهما للعموم العرفي. والتظاهر بالإثم والعدوان هو سبب هذه الفتنة العظيمة.

"وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ"، والفعل "يَأْتُوكُمْ" في سياق الشرط للعموم، وهو

مخصص بالحال "أسارى"، وأسارى جمع أسير، "تفادوهم": فعل في سياق الإثبات مقيّد

بالمفعول به الضمير المتصل: "هم"، ومعناه: تدفعون الفدية لتحريرهم، وقد ونّجهم على الإيمان

ببعض الكتاب والكفر ببعضه.

"وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ" الواو حالية،

مِنْ ضَمِيرِ تُفَادُوهُمْ. "هو" ضمير الشأن والقصة في محلّ رفع بالابتداء، و "مُحَرَّمٌ" خبرٌ مقدّمٌ و

"إِخْرَاجُهُمْ" مبتدأ، والجملة من هذا المبتدأ والخبر في محلّ رفع خبراً لضمير الشأن، "وَصُدِّرَتْ

بِضَمِيرِ الشَّانِ لِلإِهْتِمَامِ بِهَا وَإِظْهَارِ أَنَّ هَذَا التَّحْرِيمَ أَمْرٌ مُقَرَّرٌ مَشْهُورٌ لَدَيْهِمْ، وَفِي قَوْلِهِ: وَهُوَ

مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ تَشْنِيعٌ وَتَبْلِيدٌ لَهُمْ إِذْ تَوَهَّمُوا الْقُرْبَةَ فِيمَا هُوَ مِنْ آثَارِ الْمَعْصِيَةِ أَيْ كَيْفَ

تَرْتَكِبُونَ الْجَنَابَةَ وَتَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ تَتَقَرَّبُونَ بِالْفِدَاءِ وَإِنَّمَا الْفِدَاءُ الْمَشْرُوعُ هُوَ فِدَاءُ الْأَسْرَى مِنْ

أَيْدِي الْأَعْدَاءِ لَا مِنْ أَيْدِيكُمْ فَهَلَّا تَرَكْتُمْ مُوجِبَ الْفِدَاءِ"^٢. "إِخْرَاجُهُمْ" نكرة مضافة تعمّ كل

أنواع الإخراج.

"أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ" استفهام استنكاري، الفعلان: "تُؤْمِنُونَ،

وَتَكْفُرُونَ": في سياق الإثبات مقيّدان بالجاء والمجرور الأول والثاني: "بِبَعْضٍ"، "بِبَعْضِ الْكِتَابِ"

نكرة مضافة تعمّ، "بِبَعْضٍ": نكرة مضافة إلى مقدّر.

^١ انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢/ ٣٠٠

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/ ٥٩٠

"فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ": "ما": اسم استفهام يعمّ، وهو متضمن معنى النفي "جزاء": نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، "من": موصول يعمّ، "يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "ذلك"، و بالحال الذي تعلّق به الجارّ والمجرور "مِنْكُمْ"، "خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا" "خِزْيٌ" بدلٌ من "جزاء"، وهو نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالصفة: "فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا"، والخزي بالكسر ذلّ.

"وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ"، الفعل "يُرَدُّونَ" في سياق الإثبات مقيّد بالظرف المتقدّم، وبالجارّ والمجرور: "إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ"، و"الْعَذَابِ": عام.

"وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ" الوصف: "بِغَافِلٍ": في سياق النفي يعمّ، وهو مخصّص بالجارّ والمجرور: "بِمَا"، والتخصيص للتخويف والتحذير، "ما": موصول يعمّ، "تَعْمَلُونَ" الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالضمير العائد.

"أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ"، هذا هو التعريف الحقيقي لهؤلاء المجرمين، إنهم قوم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فبئس ما يشترّون.

"أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ": الموصول يعمّ، "اشْتَرَوْا" الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "الْحَيَاةَ الدُّنْيَا"، وبالجارّ والمجرور: "بِالْآخِرَةِ": وتعريف المبتدأ: "أُولَئِكَ" والخبر: "الَّذِينَ" للحصر، مفهومه: لا غيرهم، "فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ": "يُخَفَّفُ وَيُنصَرُونَ": الفعلان في سياق النفي يعمّان والتقدير: فلا تخفيف عنهم من

العذاب، ولا نصرَ لهم، و"العَذَابِ": عامّ، وعمومه عرّفِي. وقد لحق باليهود ما حدّهم الله تعالى منه، وهذا العقاب واقع لا محالة بمن سلك مسلكهم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ^١﴾.

إن هذه الآية تكشف حقيقة الأزمة التي يعيشها المجرمون، وتفضح مسالكهم في محاربة الحق والدعاة إلى الله تعالى.

إن تهمة التطرّف، والإرهاب، والحرب على المتطرفين والإرهابيين إنما هي ذرائع؛ للصدّ عن دين الله تعالى. ولن يرضوا عن الدعاة؛ حتى يقارفوا محارم الله تعالى، ويبدّلوا دينهم الحق، ويتبعوا أهواء الظالمين.

إن الرسل عليهم السلام هم أرحم الناس بالناس، وأكثرهم بركة ونفعاً للخلق، وألطفهم قِيلاً، وأقومهم سبيلاً، يقبّلون الخير ابتغاء مرضاة الله تعالى، ومع ذلك يُقتلون ويكذبون. وملة الكفر واحدة، وعداوتهم للحق وأهله ممتدة لا تنقطع.

وإن كثيراً من الأزمات التي تعيشها البشرية عامّة والمسلمون خاصّة تخرج من جحور اليهود المظلمة، ومن شاكلهم.

"وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ": الفعل "آتَيْنَا" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به الأول: موسى والثاني: الكتاب، المعهود وهو التوراة، "وَفَقَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ": "وَفَقَّيْنَا":

^١ سورة البقرة آية (٨٨-٨٧)

فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجَارّ والمجرور الأول: "مِنْ بَعْدِهِ"، و"بعده": نكرة مضافة تعمّ والثاني: "بِالرُّسُلِ"، "أَل": للاستغراق العرقيّ، "وَقَفَّيْنَا" معناه: "وأردفنا وأتبعنا بعضهم خلف بعض، كما يقفو الرجل الرجل، إذا سار في أثره من ورائه. وأصله من "القفا"، يقال منه: "قفوت فلانا: إذا صرت خلف قفاه"^١.

"وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَنَاتِ" الفعل "آتَيْنَا" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به الأول: عيسى والثاني: الْبَنَاتِ، البنات المعروفة المعهودة، من إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير، وغيرها، فهو عامّ مراد به الخصوص، "وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ"، الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجَارّ والمجرور "بِرُوحِ الْقُدُسِ"، والأَيْدُ: القوة، والتأييد: التقوية، والمعنى: قوّيناه بجبريل، أي: "بالروح المقدّسة، كما تقول: حاتم الجود، ورجل صدق"^٢. "أَفْكَلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ": الاستفهام للتوبيخ والتقريع "كُلَّمَا": ظرفية فيها معنى الشرط تعمّ الأزمنة، "جَاءَكُمْ": الفعل في سياق ما فيه معنى الشرط فهو عامّ مخصص بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجَارّ والمجرور: "بِمَا لَا.."، "رسول": نكرة في سياق ما يشبه الشرط تعمّ، "بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ": "ما": موصول يعمّ، والفعل "لَا تَهْوَى" في سياق النفي يعمّ، و"أنفسكم" نكرة مضافة تعمّ، "اسْتَكْبَرْتُمْ": فعل في سياق الإثبات مطلق.

"فَقَرِيفًا كَذَّبْتُمْ وَقَرِيفًا تَقْتُلُونَ": هذا تفصيل وتقسيم بعد التعميم والإجمال في "رسول"، "فَقَرِيفًا كَذَّبْتُمْ" الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به المقدم: "قَرِيفًا"، و"قَرِيفًا": مطلق مقيّد بوصف مقدّر: قَرِيفًا من الرسل، "وَقَرِيفًا تَقْتُلُونَ": الفعل "تَقْتُلُونَ": في سياق

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢/ ٣١٨

^٢ الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ج ١/ ١٦٢

الإثبات مقيّد بالمفعول به المقدم: "فريقًا"، و"فريقًا": مطلق مقيّد بوصف مقدّر: فريقًا من الرسل.

"وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ": "قَالُوا" فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "قُلُوبُنَا غُلْفٌ"، "قُلُوبُنَا": نكرة مضافة تعمّ، والغلف بضمّ فسكون جمع أغلف مثل حُر جمع أحمر، مشتق من غلّفه إذا جعل له غلافًا وهو الوعاء الحافظ للشيء والساتر له من وصول ما يكره له. وهذا كلام كانوا يقولونه للنبي صلى الله عليه وسلم حين يدعوهم للإسلام، قصدوا به التهمك وقطع طمعه في إسلامهم^١.

"بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ" هذه سنة الله في العقاب: بل حرف إضراب، "لَعَنَهُمُ": طردهم من رحمته، وهو فعل في سياق الإثبات مقيّد بالضمير المتصل المفعول به: "هم"، وبالجارّ والمجرور: "بِكُفْرِهِمْ"، و"كفر" نكرة مضافة تعمّ، والمعنى: أن الكفر هو سبب اللعنة والطرده من رحمة الله تعالى. "فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ": "فَقَلِيلًا": الأظهر: أنه نعت لمصدر محذوف أي: فإيمانًا قليلًا يؤمنون، وما مزيده للتأكيد^٢، "يُؤْمِنُونَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمصدر السابق، والإيمان القليل إيمان لا اعتبار له مثل إيمان المنافقين، ويجوز أن يكون التقليل للنفي المحض أي فلا يؤمنون لا قليلًا ولا كثيرًا.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ

يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^٣.

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/٥٩٩

^٢ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ١/٥٠٢

^٣ سورة البقرة آية (٨٩)

ما المشكلة التي تعالجها هذه الآية؟ وما الذي يمكننا استخلاصه من هذه الآية لتحسين أحوالنا وحلّ مشكلاتنا؟

إنّهُ تصف داء الخُلْف، والنقض، والإعراض، وما بلغه اليهود من الشقاوة والبغي والسّفَه! ترى كيف فوّتوا بركة السّبق إلى الحقّ، وهم يعلمون أنّها الفرصة الأخيرة، والرسالة الخاتمة؟ ولا تزال آثار هذا الخُلْف والإعراض شاخصة في حياة يهود، وأما في الآخرة فعاقبة أمرهم حُسْرٌ وخزيٌّ وعذاب مقيم.

لقد بلغ هؤلاء اليهود ذروة الضلال والبغي والسّفَه! انظر أيّ طغيانٍ وبغيٍّ وعتوٍّ يقابل به هؤلاء اليهود فضل الله تعالى عليهم!

"وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ": "وَلَمَّا" حرف وجود لوجود بسبب وبغير سبب، "جَاءَهُمْ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل "هم"، "كِتَابٌ" نكرة قيّدت بالصفتين بعدها، الصفة الأولى: كونه "مِنْ عِنْدِ اللَّهِ"، وقد قُدِّم الوصف بشبه الجملة على الوصف بالمفرد "مصدقٌ"؛ لأن كونه من عند الله تعالى أعظم الوصفين، فإن الإضافة إلى لفظ الجلالة ترفع الوصف مقامًا عليًّا، والوصف الثاني: "مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ"، "ما" موصول يعمّ، أي مصدق لكلّ ما معهم.

"وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا" "يَسْتَفْتِحُونَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا"، "عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا": "الذين": موصول يعمّ الكفار الذين يعيشون قريهم (عمومه عرقيّ)، كَفَرُوا": فعل في سياق الإثبات مطلق، "فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ": "جَاءَهُمْ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل "هم"،

"ما": موصول يعمّ كلّ ما عرفوه: من صفات الرسالة والرسول، ويجوز أن يحمل على ظاهر السياق، وهو الكتاب (القرآن الكريم). "كَفَرُوا بِهِ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: بِهِ"، قال الطبريّ: "وكان هؤلاء اليهود - الذين لما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم من الكتب التي أنزلها الله قبل الفرقان، كفروا به - يستفتحون بمحمد صلى الله عليه وسلم، ومعنى الاستفتاح: الاستنصار، يستنصرون الله به على مشركي العرب من قبل مبعثه، أي من قبل أن يبعث"^١.

وسلوك اليهود لا يفعله عاقل، فقد كفروا على علم وبصيرة، فاستحقوا اللعنة والطرّد من رحمة الله تعالى، "فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ": "لعنة": نكرة مضافة تعمّ كلّ لعنة، "الكافرين": صفة صريحة محلاة بـ "أل": تعمّ، وفيها إيماء وتنبيه على علة اللعن، وهي الكفر.

إنّ النقض والنكث شينشنة يهود، فلا وفاء لهم، ولا عزم، إنما يلهثون خلف أهوائهم، إذ لم يكن تشوّفهم وحرصهم على الرسالة الخاتمة؛ لتحقيق مراد الله تعالى في إصلاح أحوال العباد، ونيل مرضاة الله تعالى، كلّاً، بل كانوا حريصين على الاستئثار بالرسالة الخاتمة؛ للتمتع بالعلو في الأرض والفساد. لقد انتزع الله تعالى من يهود ميراث النبوة، وأورثها قومًا المسلمين من أمة محمد عليه الصلاة والسلام؛ لأنّ أمتنا أصلح للعمل بها وتبليغها. والله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، ومن يشاقق الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام على علم وبصيرة يصيبه الله تعالى بالخزيّ كما أصاب يهود.

^١ الطبريّ، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢/ ٣٣٢

قال الله تعالى: ﴿يَسْمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾^١.

ترى لم صرّحت الآية بهذا السبب المتواري خلف تلك الضلوع الخيشة؟ ألم يك كافيًا للاعتبار ما بدا من شرور أعمالهم، وما آل إليه حالهم من الفساد؟ لقد حصر أسباب تلك الشرور والمفاسد في شيء واحد، ألا وهو البغي، والبغي هو التّعدي والحسد.

فالبغي هو الذي حملهم على اقرار كل تلك الجرائم، والبغي هو السبب الكامن وراء أكثر الأزمات التي تعاني منها البشرية في هذا العصر! ومن تتبّع ما خلّفه البغي من فساد ودمار في الأرض، أدرك عظمة هذا التنصيص على هذا الداء العضال الذي يعيث في القلوب فسادًا؛ لبيادر عقلاء الناس إلى علاجه، واتخاذ التدابير القويّة للحيلولة دون انتشاره، وما نراه من تفرّق وتنازع وتدابير وتقاتل بين المسلمين أنفسهم سببه الأكبر هو البغي.

"يَسْمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ": يئس أصله يئس من البؤس^٢، وهو اشتداد الحاجة، كما أن نعم منقول من قولك نعيم فلان إذا أصاب نعمة، فنقلنا إلى المدح والذم، فشابه الحروف، فلم يتصرفا^٣.

فائدة: قال ابن عاشور: "وفي (ما) المتصلة بهما (بيئس ونعم) مذهب: أحدها: أنّها معرفة تامّة أي تُفسّر باسم معرف بلام التعريف وعبر محتاجة إلى صلة احترازًا عن (ما) الموصولة فقوله: يئسما يُفسّر بئس الشيء قاله سيبويه والكسائي. والآخر: أنّها موصولة قاله

^١ سورة البقرة آية (٩٠)

^٢ انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢ / ٣٣٨

^٣ انظر: الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، طبعة ١٩٩٥م، ص ٧٣

الْفَرَاءُ وَالْفَارِسِيُّ وَهَذَانِ هُمَا أَوْضَحُ الْوُجُوهِ فَإِذَا وَقَعَتْ بَعْدَهَا (مَا) وَخَدَهَا كَانَتْ (مَا) مَعْرِفَةً تَامَةً نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ [البقرة: ٢٧١] أَيْ نِعَمَ الشَّيْءِ هِيَ وَإِنْ وَقَعَتْ بَعْدَ مَا جُمِلَتْ تَصْلُحُ لِأَنْ تَكُونَ صِلَةً كَانَتْ (مَا) مَعْرِفَةً نَاقِصَةً أَيْ مَوْصُولَةً نَحْوَ قَوْلِهِ هُنَا: بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَ (مَا) فَاعِلٌ (بِئْسَ).

وَقَدْ يُذَكَّرُ بَعْدَ بِئْسَ وَنِعَمَ اسْمٌ يُفِيدُ تَعْيِينَ الْمَقْصُودِ بِالذَّمِّ أَوْ الْمَدْحِ، وَيُسَمَّى فِي عِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَخْصُوصِ وَقَدْ لَا يُذَكَّرُ لِظُهُورِهِ مِنَ الْمَقَامِ أَوْ لِتَقَدُّمِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ فَقَوْلُهُ: أَنْ يَكْفُرُوا هُوَ الْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ وَالتَّقْدِيرُ كُفْرُهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَهُ مُبْتَدَأً مَحذُوفَ الْخَبَرِ أَوْ خَبِرًا مَحذُوفَ الْمُبْتَدَأِ أَوْ بَدَلًا أَوْ بَيَانًا مِنْ (مَا) وَعَلَيْهِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: اشْتَرَوْا إِمَّا صِفَةً لِلْمَعْرِفَةِ أَوْ صِلَةً لِلْمَوْصُولَةِ وَأَنْ يَكْفُرُوا هُوَ الْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ وَذَلِكَ عَلَى وَزَانِ قَوْلِكَ نِعَمَ الرَّجُلُ فَلَانٌ^١.

"بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ": "بِئْسَ" فعل لازم في سياق الإثبات يفيد الإطلاق، و"ما": فاعل بئس، وهو اسم موصول من صيغ العموم، اشْتَرَوْا: فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "بِهِ"، وبالمفعول به: "أَنْفُسَهُمْ"، و"أَنْفُسَهُمْ": نكرة مضافة تعمّ، "أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ": المصدر المؤول يعمّ، وتقديره: شراؤهم ويجوز أن نعربه بدلاً من "ما"، والفعل "يَكْفُرُوا" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ"، وبالمفعول لأجله: "بُعِيًّا..".

و"بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ": "ما": موصول يعمّ، والفعل "أَنْزَلَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المقدّر "أنزله"، و"بُعِيًّا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ":

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/ ٦٠٣-٦٠٤

"بُعْيًا": وهذا المصدر هو العلة، أي كفروا بغيا وحسداً على "أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ..."، والمصدر المؤول "تنزيل الله" يعم، والبغى هو التعدي والحسد^١، والفعل "يُنَزَّلُ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بثلاثة قيود: الأول: الجارّ والمجرور: "مِنْ فَضْلِهِ"، والثاني: "عَلَى مَنْ يَشَاءُ" و"فضله": نكرة مضافة عامّة، "مَنْ يَشَاءُ": من: موصول عامّ، والفعل "يَشَاءُ": في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المقدّر العائد على الموصول، والقيّد الثالث: "مِنْ عِبَادِهِ" حال من الاسم الموصول، "عِبَادِهِ": نكرة مضافة تعم. "فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ": "فَبَاءُوا" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "بِغَضَبٍ" وغضب: نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالصفة: "عَلَى غَضَبٍ"، وغضب الثانية: نكرة في سياق الإثبات تفيد الإطلاق، والمقصود غضب "مترادف متكاثّر"^٢.

"وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ": "الكافرين: لفظ عام يوميء إلى العلة، "عَذَابٌ" نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالصفة: "مُهِينٌ"، تقديم الخبر يفيد الحصر ومفهومه: لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ لا غيره. "والإهانة: الإذلال والخزي"^٣.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^٤.

^١ انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢ / ٣٤٢

^٢ أبو حيان، البحر المحيط، مرجع سابق، ج ١ / ٤٩١

^٣ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ١ / ٥١٣

^٤ سورة البقرة آية (٩٢)

من خصال اليهود الزَّيْعَان عن المنهج، والزَّوْعَان عن الحق الأبلج، والاعتداء على الأنبياء والمصلحين، وكلما سمعوا دعوة الحق رُدُّوها بحجج داحضة! فهم شرّ البرية، ولا يركن إليهم، ولا يتابعهم إلا شَرير هالك.

"وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُنُومُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ": إذا شرطية تدلُّ على وقوع فعل الشرط أو كثرة وقوعه، وهذا يعني أن الرسول عليه الصلاة والسلام قائل لهم ذلك، ومقيم عليهم الحجة، وأنهم مجيبون بهذا الجواب؛ لأنهم قد مردوا على سلوك مسلك الفسقة من أجدادهم، فهم على آثارهم يهرعون، "قِيلَ لَهُمْ": فعل في سياق الشرط يعم، وقد خُصص بالجار والمجرور: "هُم"، "بِمَا وَرَاءَهُ": أي: لليهود في عهد محمد عليه الصلاة والسلام، "آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ": فعل الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجار والمجرور: "بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ": "ما" موصول: يعمّ كل ما أنزله الله على رسوله عليه الصلاة والسلام، "أَنْزَلَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالضمير العائد على الموصول، والمقصود القرآن الكريم والسنة، فجاء جوابهم الزائغ: "قَالُوا نُنُومُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا": "قالوا" فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "نُؤْمِنُ.."، أي نصدّق، "نُؤْمِنُ..": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجار والمجرور: "بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا"، "ما" موصول: يعمّ كل ما أنزله الله عليهم، "أَنْزَلَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجار والمجرور: "علينا"، يعني بالتوراة التي أنزلها الله على موسى. "وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجار والمجرور: "بِمَا وَرَاءَهُ"، "ما" موصول: يعمّ كل ما وَرَاءَهُ، "وَرَاءَهُ": نكرة مضافة تعمّ، "وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ"، ويجحدون، "بما وراه"، "ما": موصول عامّ، يعني: بما وراء التوراة "وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ"، والقرآن هو "الحقُّ" "أل" للكمال، فهو الكامل التام، "مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ"، الموافق لما

معهم من الأخبار الصادقة، "لِمَا مَعَهُمْ": "ما": موصول عام، "قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" "قُلْ": الأمر للوجوب، وهذا أمر للرسول عليه الصلاة والسلام أصالة، وللمؤمنين تبعاً؛ لتفنيد دعواهم، والفعل "قُلْ" في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ"، "فَلِمَ": ما اسم استفهام عام، والاستفهام للتقريع والتشنيع وإبطال الدعوى، "تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "أَنْبِيَاءَ اللَّهِ" وبالجارّ والمجرور: "مِنْ قَبْلُ"، وأنبياء: نكرة مضافة تعمّ عمومًا عرفيًا؛ لقوله تعالى: "فَقَرِيفًا كَذَّبْتُمْ وَقَرِيفًا تَقْتُلُونَ". "إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ": جواب هذا الشرط دلّ عليه ما سبق: فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ؟ وفي هذا الشرط زيادة تشنيع وتقريع لدحض زعمهم، "وَأَجْرَى هَذَا الْقَوْلَ مُجْرَى التَّهْكُمِ بِهِمُ وَالْإِسْتِهْزَاءِ"^١.

فائدة: قال محمد رشيد رضا: "قال: إنهم يكفرون بما وراء المنزل إليهم" وهو الحق أي والحال أنه الحقّ الثابت في نفسه بالدليل حال كونه "مصدقًا لما معهم"، فهو مؤيد عندهم بالعقل والنقل، وقوله: "مصدقًا لما معهم" حال مفردة مؤكدة والأصل فيها المقارنة لما هي قيد له، وهو يتضمن إثبات كفرهم بالتوراة بالتبع لكفرهم بالقرآن المصدق لها، ولو فيما صدقها فيه، والكفر ببعضه كالكفر به كله كما تقدم بيانه قريباً. ومن مباحث اللفظ أيضاً: وضع المضارع "تقتلون" موضع الماضي "قتلتم" لما سبق بيانه في مثل هذا التعبير من إرادة استحضر صورة هذا الجرم الفظيع مبالغة في التقريع، وإغراقاً في التشنيع. ولما كانت هذه الصيغة تدلّ على الحال، فتؤهم أن الذين في زمن التنزيل كانوا لا يزالون يقتفون هذه الجريمة"^٢.

^١ أبو حيان، البحر المحيط، مرجع سابق، ج ١ / ٤٩٣

^٢ رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، مرجع سابق، ج ١ / ٣١٧ بتصرف يسير.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ

ظَالِمُونَ﴾^١.

ما الذي يمكننا استخلاصه من هذه الآية لجلب المصالح ودرء المفاسد؟

إن هذه الآية تعرض خطيئة جسيمة، وجريمة عظيمة اقترفها اليهود، ألا وهي عبادة اليهود العجل بعد رؤيتهم الآيات البينات التي جاء بها موسى صلى الله عليه وسلم، وقد بينت الآية السبب الذي أوردتهم تلك المهالك ألا وهو الظلم.

ولا يزال اليهود يتوارثون هذا الإرث الخبيث، قال رضا صاحب المنار رحمه الله تعالى: "فما جرى من بني إسرائيل من المنكرات لم يكن من قذافات المصادفة، وإنما كان عن أخلاق راسخة في الشعب، تبع الآخرون فيها الأولين، إما بالعمل وإما بالإقرار وترك الإنكار. وفاعل الكفر ومجيزه واحد"^٢. فيا معاشر المسلمين، لقد جاءكم محمد صلى الله عليه وسلم بالبينات، فلا تتخذوا من دون الله أولياء، ولا تجعلوا لله أندادًا، فتكونوا مع القوم الظالمين.

"وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ" تبدأ الآية بحرفي التوكيد: "اللام وقد" للتوكيد دفعًا لجحود اليهود وإنكارهم، "جَاءَكُمْ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجارّ والمجرور: "الْبَيِّنَاتِ"، "الْبَيِّنَاتِ": عامّ عمومه عرفيّ، يراد به البينات والآيات الواردة قبل عبادتهم العجل كالعصا واليد وغيرهما، "ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ": الفعل "اتَّخَذْتُمُ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "العجل": "أل" للعهد، وبالجارّ والمجرور: "مِن بَعْدِهِ"، وبالحال: "وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ"، فقد اقترفوا هذا المنكر العظيم وهم ظالمون.

^١ سورة البقرة آية (٩٢)

^٢ رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، مرجع سابق، ج ١/٣١٨

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِنَسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^١.

إنها لآية عظيمة أن ترى جبلاً فوق رأسك مرفوعاً، فتؤمر؛ لتأخذ كتاب الله بقوة! لكن القلوب المشربة بالفتن لا تؤمن بالآيات مهما عظمت وكثرت، ولا تخضع للحق، بل تسلك سبيل المعاندة، والمحادّة لله تعالى.

"وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ" "إِذْ" ظرف زمان في محل نصب فهو قيد لفعل: "ادْكُرُوا". والفعل "أَخَذْنَا" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "مِيثَاقَكُمْ"، "مِيثَاقَكُمْ": نكرة مضافة من صيغ العموم، والمراد به ميثاق مخصوص، والفعل "رَفَعْنَا" في سياق الإثبات مقيّد بالظرف: "فَوْقَكُم"، وبالمفعول به: "الطُّورَ"، والظرف: "اسمٌ لكلِّ جبل، وقيل لما أُنْبِتَ منها خاصةً دونَ ما لم يُنْبِتْ"^٢، و"أل" للعهد والمراد به جبل مخصوص.

"خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا"، "خُذُوا": الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الاسم موصول "ما"، وبشبه الجملة: "بِقُوَّةٍ"، وقوة نكرة في سياق الإثبات للإطلاق، ومعناها: بعزم وحزم، و"ما": اسم موصول يعمّ كلّ ما آتاهم من الأشياء الحسيّة المعنويّة، والسياق يخصّصه بما آتاهم الله من التوراة^٣، و"آتَيْنَاكُمْ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به الأول: ضمير المخاطب والثاني: بالضمير المقدّر العائد على

^١ سورة البقرة آية (٩٣)

^٢ السمين، الدر المصون مرجع سابق، ج ١/٤٠٨

^٣ انظر: الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٢/ ١٦٠

الموصول، والتقدير: ما أَتَيْنَاكُمْوه. "وَأَسْمَعُوا": أمر إيجاب، والفعل في سياق الإثبات للإطلاق، استجيبوا وامثلوا.

"قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا": "قالوا" فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا"، الفعلان "سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا" في سياق الإثبات ظاهرهما الإطلاق، وقد دلّ السياق على أنهما مقيّدان: سمعنا قولك، وعصينا أمرك، وهذا القول من أقبح القبائح والموبقات؛ لأنه محادّة لله.

"وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ": الفعل "وَأَشْرِبُوا" في سياق الإثبات مقيّد وبالجارّ والمجرور: "فِي قُلُوبِهِمُ"، وبالمفعول به: "العجل"، وبشبه الجملة: "بِكُفْرِهِمْ"، والقلوب نكرة مضافة تعمّ، والعجل المعروف، "بِكُفْرِهِمْ": بسبب كفرهم، قال السمين: "شَرِبَ يَتَعَدَّى بنفسه فَأَكْسَبَتْهُ الهمزة مفعولاً آخر، ولا بد من حَذْفِ مضافين قبل "العجل" والتقدير: وَأَشْرِبُوا حُبَّ عِبَادَةِ الْعِجْلِ. وَحَسَّنَ حَذْفَ هَذَيْنِ الْمُضَافَيْنِ الْمُبَالَغَةُ فِي ذَلِكَ، حَتَّى كَأَنَّهُ تُصَوِّرُ إِشْرَابَ ذَاتِ الْعِجْلِ. وَالْإِشْرَابُ: مَخَالِطَةُ الْمَائِعِ بِالْجَامِدِ، ثُمَّ اتَّسَعَ فِيهِ حَتَّى قِيلَ فِي الْأَلْوَانِ نَحْوُ: أَشْرَبَ بَيَاضُهُ حُمْرَةً. وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ دَاخَلَهُمْ حُبُّ عِبَادَتِهِ، كَمَا دَاخَلَ الصَّبْغُ الثَوْبَ"^١.

"قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ": الأمر للوجوب، الفعل "قُلْ" في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ": "بِئْسَ" فعل لازم في سياق الإثبات يفيد الإطلاق، و"ما": فاعل بئس، وهو اسم موصول من صيغ العموم، "يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ": الفعل يَأْمُرُكُمْ في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "بِهِ"، "إِيمَانُكُمْ": نكرة مضافة تعمّ، "إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" جواب هذا الشرط دلّ عليه ما سبق: وفي هذا التذييل تفرّيع وتوبيخ أليم.

^١ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢/٥

فائدة في التحذير من الفتنة:

عَنْ حَدِيثِ قَالٍ: كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ فَقَالَ: أَيُّكُمْ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ الْفِتْنَ؟ فَقَالَ: قَوْمٌ نَحْنُ سَمِعْنَاهُ. فَقَالَ: لَعَلَّكُمْ تَعْنُونَ فِتْنَةَ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَجَارِهِ، قَالُوا: أَجَلٌ، قَالَ، وَلَكِنْ أَيُّكُمْ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ الْفِتْنَ الَّتِي تَمُوجُ مَوْجَ الْبَحْرِ، قَالَ: حَدِيثُهُ فَأَسَكَتَ الْقَوْمُ، فَقُلْتُ: أَنَا. قَالَ: أَنْتَ لِلَّهِ أَبُوكَ، قَالَ حَدِيثُهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْخَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا، نُكِبَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِبَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءٌ؛ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْأَخَرُ أَسْوَدَ مُرْبَادًا كَالْكُوزِ مُجَحِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ.

قَالَ أَبُو خَالِدٍ فَقُلْتُ لِسَعْدٍ يَا أَبَا مَالِكٍ مَا أَسْوَدُ مُرْبَادًا قَالَ شِدَّةُ الْبَيَاضِ فِي سَوَادٍ

قَالَ قُلْتُ فَمَا الْكُوزُ مُجَحِّيًا قَالَ مَنْكُوسًا^١.

^١ رواه مسلم ح ٢٠٧.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ

فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾^١

في هذه الآية معجزة ظاهرة، وحجة بالغة على صدق الرسالة الخاتمة، فقد أمر اليهود بأن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين، وهو أمر سهل لا يحتاج إلى جهدٍ، وقطع القرآن الكريم بأن اليهود لن يتمنوا الموت أبداً، فلم يثبت أن اليهود أجابوا رسول الله إلى ما دعاهم إليه مع أنهم لو فعلوا ذلك، لقالوا لقد زعمت أننا لن نتمنى الموت أبداً، وها نحن قد فعلنا!

لكنهم لم يفعلوا؛ لأنهم يعلمون أنهم كاذبون معاندون، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم صادق، فآثروا التولي والوقوع في الفضيحة على المغامرة بأنفسهم في هذه المهلكة.

"قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ":

"قُلْ" الأمر للوجوب، والفعل "قُلْ" في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ.."، أداة الشرط "إِنْ" لما يستبعد وقوعه، "الناس": "أَل" للاستغراق والعموم، "فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ": الأمر للتحدي لدحض زعمهم وفضحهم، والفعل "تَمَنَّوْا" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "الْمَوْتَ"، "أَل" للعهد، وبالشرط: "إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"، ومفهوم المخالفة: إن لم تكونوا صادقين فلن تتمنوه.

قال الله تعالى: "وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ":

^١ سورة البقرة آية (٩٥-٩٤)

"وَلَنْ يَتِمَّنُوهُ أَبَدًا": ورد النفي بحرف "الن"، لنفي ما يستقبل من الأفعال، والفعل "يَتِمَّنُوهُ" في سياق النفي يعمّ كل أنواع التمنيّات، وهو مخصص بالمفعول به: "الضمير المتصل"، وبالظرف: "أَبَدًا" الدالّ على التأييد، وبالجارّ والمجرور: "بِمَا قَدَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ": الباء لسببية، و"ما" موصول يعمّ كل ما قدموه لأنفسهم من الذنوب، "قَدَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ": الفعل "قَدَّمْتُ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المقدّر العائد على الموصول، وأما "أَيْدِيَهُمْ" فنكرة مضافة تعمّ، وعبر بالجزء عن الكلّ، "وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ" "بِالظَّالِمِينَ" صفة صريحة تعم كل ظالم، والجارّ والمجرور متعلّق بالخبر: "عَلِيمٌ"، والتنصيص على الظالمين ليس للتخصيص، وإنما للترهيب والتحذير.

قال الله تعالى: ﴿وَلْتَجِدْهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ
لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍهُ مِنَ الْعَذَابِ إِنَّ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾^١.

تعرض الآية أزمة نفسية خطيرة، ومرضاً من أمراض القلوب، وهو الحرص على طول
الحياة كيفما كانت تلك الحياة، والحرص القبيح يورد أهله الذل والمسكنة، ويورثهم غضب الله
تعالى.

إن الحياة الدنيا محمودة ممدوحة بمقدار ما تقدّمه للإنسان من فرص جلب المصالح
ودفع المفاسد، فمن جعل صلاح الحياة وطيبها ونفعها محلاً للحرص، فهو العاقل الرشيد، ومن
حرص على الحياة من غير مراعاة لموازين الشرع في الاعتبار والإلغاء، والتقديم والتأخير،
والقبول والرفض ضلّ، وزلّ، وذلّ، واقترب القبائح، الرذائل، وترك المعالي والفضائل.

واليهود بسب طمعهم وضعف عقولهم أحرص الناس على طول حياة، سواء أكانت
حياة دنيئة خسيسة أم غير ذلك، ولذا ضُربت عليهم الذلّة والمسكنة وبأوا بغضب من الله
تعالى. ومن تبعهم فهو منهم.

"وَلْتَجِدْهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ" والفعل "لَتَجِدْهُمْ" في سياق الإثبات مقيّد
بالمفعول به الأول: الضمير المتصل، وبالمفعول به الثاني: أَحْرَصَ النَّاسِ، و"الناس": للاستغراق
والعموم، "حياة": نكرة تدلّ على الإطلاق أي: حياة كيفما كانت، وقيل: النكرة موصوفة
بصفة مقدرة يدلّ عليها السياق، والتقدير: حياة مديدة، قال الزمخشري: "لم قال: على حَيَاةٍ

^١ سورة البقرة آية (٩٦)

بالتكثير؟ قلت: لأنه أراد حياة مخصوصة وهي الحياة المتطاولة^١، وقال السمين: "وقيل: إنَّ ذلك على حَذَفٍ مضافٍ تقديره: على طول حياةٍ، والظاهر أنه لا يحتاج إلى تقدير صفةٍ ولا مضافٍ، بل يكونُ المعنى: أهتمُّ أحرصُ الناسِ على مطلقِ حياةٍ"^٢.

"وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ": "ومن الذين أشركوا" شبه الجملة: خبر مقدَّم، والمبتدأ مقدَّر: قومٌ أو فريقٌ^٣، وهو نكرة في سياق الإثبات مقيدة بجملة الصفة: "يَوَدُّ أَحَدُهُمْ" صفة للمبتدأ المقدَّر. "الذين": موصول عام، والفعل: "أَشْرَكُوا" في سياق الإثبات منزَّل منزلة اللازم يفيد الإطلاق، والفعل: "يَوَدُّ" في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: وهو المصدر المؤول من "لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ" أي: يودّ تعميره ألف سنة، والفعل: "يُعَمَّرُ" في سياق الإثبات مقيد بالظرف: أَلْفَ سَنَةٍ، و"ألف" نكرة في سياق الإثبات مقيدة بالإضافة إلى نكرة "سَنَةٍ"، و"أحدهم": نكرة مضافة إلى معرفة تعم أي: كل واحد منهم.

"وَمَا هُوَ بِمُزْجِرِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ": "ما" الحجازية، والضمير "هو" اسمها وهو عائدٌ على "أحدهم"، والمصدر المؤول "أَنْ يُعَمَّرَ" فاعل لاسم الفاعل: بِمُزْجِرِهِ، والتقدير: وَمَا هُوَ بِمُزْجِرِهِ تعميره، و"العذاب" يعمّ العذاب الذي يفرّون منه، أَنْ يُعَمَّرَ "وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ" بصير مقيد بالجارّ والمجرور: "بِمَا"، والتقيد للتخويف والتحذير، و"ما": موصول يعم، و"يَعْمَلُونَ": الفعل في سياق الإثبات مقيد بالضمير العائد.

^١ الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ج ١/١٦٨

^٢ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ١١/٢

^٣ انظر: السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ١١/٢

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾^١.

القرآن الكريم أساليبه محكمة موجزة في إحقاق الحق، وإزهاق الباطل، ومعالجة المشكلات، ودحض الشبهات، وإطفاء نار الفتن. والآيات تُردّ على افتراء اختلقه اليهود، واتخذوه حجة؛ للامتناع عن الاستجابة لدعوة الإسلام، قال ابن عاشور: "ومن عجيب تحافت اعتقادهم أنهم يثبتون أنه مَلَكٌ مرسل من الله، ويبغضونه، وهذا من أخطأ دركات الانحطاط في العقل والعقيدة، ولا شك أن اضطراب العقيدة من أكبر مظاهر انحطاط الأمة؛ لأنه ينبئ عن تظافر آرائهم على الخطأ والأوهام"^٢. وقد دحض القرآن الكريم ادعاءهم بأسلوب رفيع جليل، وأرسل على المفترين من اليهود وعلى من سلك مسلكهم من الكافرين ما يستحقونه من الوعيد الشديد.

وقد جاء الحديث رفيعاً كريماً، فزكّى جبريل عليه السلام ورفع شأنه، ورفع شأن الرسالة والرسول محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبان الخير العظيم الذي ينزل به جبريل عليه السلام من عند الله تعالى من أجل تحقيق مصالح المؤمنين في العاجل والآجل، ثم أعلن عداوته على الكافرين أجمعين. فالله تعالى يغار على كتابه، وأوليائه، وينصرهم، ويدافع عنهم، فطوبى للمؤمنين، وويلٌ للكافرين!

^١ سورة البقرة آية (٩٧-٩٨)

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/٥٩٩،

"قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ" "قُلْ" الأمر للوجوب، والفعل "قُلْ" في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "مَنْ كَانَ.." وسبب النزول كما قال الإمام الطبري: "أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً على أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم".^١

"مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ" "من": اسم شرط يعمّ، وجواب الشرط مقدّر يستدلّ عليه بجواب الشرط في الآية الثانية، عدوّاً: نكرة في سياق الشرط تعمّ، وهو مخصّص بالصفة: وهي الجار والمجرور "لجبريل" فإنهما متعلقان بمحذوف صفة للفظ "عدو".

فائدة: قال السمين الحلبي: "وجوابه محذوف تقديره: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَلَا وَجْهَ لِعِدَاوَتِهِ، أَوْ فَلَيُمُتْ غَيْظاً وَنَحْوَهُ. وَلَا جَائِزُ أَنْ يَكُونَ "فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ" جَوَاباً لِلشَّرْطِ لَوْجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى، وَالثَّانِي مِنْ جِهَةِ الصَّنَاعَةِ، أَمَّا الْأَوَّلُ: فَلِأَنَّ فِعْلَ التَّنْزِيلِ مُتَحَقِّقُ الْمَضِيِّ، وَالْجَزَاءُ لَا يَكُونُ إِلَّا مُسْتَقْبَلاً، وَلِقَائِلِ أَنْ يَقُولَ: هَذَا مُحْمُولٌ عَلَى التَّبْيِينِ، وَالْمَعْنَى: فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّهُ نَزَّلَهُ، كَمَا قَالُوا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ﴾^٢. وَنَحْوَهُ. وَأَمَّا الثَّانِي: فَلِأَنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ فِي جُمْلَةِ الْجَزَاءِ مِنْ ضَمِيرٍ يَعُودُ عَلَى اسْمِ الشَّرْطِ، فَلَا يَجُوزُ: مَنْ يَقُمْ فَرِيدٌ مُنْطَلِقٌ، وَلَا ضَمِيرٌ فِي قَوْلِهِ: "فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ" يَعُودُ عَلَى "مَنْ"، فَلَا يَكُونُ جَوَاباً لِلشَّرْطِ"^٣.

"فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ" الفاء عاطفة على جواب الشرط المقدّر، "والفعل "نَزَّلَهُ" في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور الأول: "عَلَى قَلْبِكَ" والثاني: "بِإِذْنِ اللَّهِ" وبالحال: "مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ"، "مُصَدِّقًا": مقيّد بالمفعول به "ما"،

^١ انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢ / ٣٧٧-٣٨٧

^٢ سورة يوسف آية (٢٦)

^٣ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢ / ١٦-١٧

وحرف الجرّ اللام للتقوية، "ما": موصول يعمّ، "بَيْنَ يَدَيْهِ": الظرف "بين" ولفظ: "يدي":
نكرتان مضافتان تعمّان، "وَهْدَىٰ وَبُشِّرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ": "وَهْدَىٰ وَبُشِّرَىٰ" حالان معطوفان على
"مصدقًا"، وهما مقصدان من مقاصد تنزيل الرسالة، و"لِلْمُؤْمِنِينَ" اللام لبيان أن المصلحة
للعباد، والمؤمنين: وصف صريح مقترن ب"أل" يشمل جميع المؤمنين، وفيه إيماء إلى علة
استحقاقهم هذا الخير، ألا وهي الإيمان.

"مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ" "من": اسم شرط عامّ،
"وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ" نكرتان مضافتان تعمّان، "وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ" نصّ عليهما للتقديم والتكريم
وهو من ذكر الخاصّ بعد العامّ. "فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ" "أل" للعموم، يعمّ الكافرين، والصفة
الصريحة تومئ إلى علة العداوة، وهي الكفر. والفاء واقعة في جواب الشرط، ورابط جملة جواب
الشرط باسم الشرط هو الاسم الظاهر "الكافرين" القائم مقام المضمّر، وكان الأصل: فَإِنَّ اللَّهَ
عَدُوٌّ لَهُمْ، فأتى بالظاهر تنبيهاً على العلة، ويجوز أن يُراد بالكافرين العموم، والعموم من
الروابط، لاندراج الأول تحته^١.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾^٢.

في الآية تمجيد وتكريم للقرآن، وذمّ لمن يكفر بآيات الله تعالى. "وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ
آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ"، الفعل "أَنْزَلْنَا" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "إِلَيْكَ"، وبالمفعول
به: "آيَاتٍ"، وهي نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالصفة: "بَيِّنَاتٍ".

^١ انظر: السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢٢/٢

^٢ سورة البقرة آية (٩٩)

"وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ" "ما" نافية، والفعل "يَكْفُرُ" في سياق النفي يعمّ كل أنواع الكفر، وهو مخصّص بالجارّ والمجرور: "به"، "إلا" حاصرة، و"الفاسيقون" صفة صريحة تعمّ، وفيها إيماء وتنبيه على علة الكفر بالآيات البينات ألا وهو الفسق: وهو خروج الإنسان عما حدود الشرع، ومفهوم الحصر بالنفي وإلا، ومفهوم العلة المشار إليها بالصفة الصريحة: أن غير الفاسقين لا يكفرون بالآيات البينات، قال ابن عاشور: "وفي الانتقال إلى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم إقبال عليه وتسلية له عمّا لقي منهم، وأن ما أنزل إليه لا يكذب به إلا من لا يؤبه بتكذيبه؛ لكون هذا المنزل دلائل واضحة لا تقصر عن إقناعهم بأحقيتها ولكنهم يظهرون أنفسهم أنهم لم يوقفوا بحقيتها"^١.

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/٦٢٤

قال الله تعالى: ﴿أَوْكَلْنَا غَاهِدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^١.

معاملة المجرمين بنقيض قصدهم دارئ لفسادهم. فقد أراد اليهود التطاول والتعالي بتلك الدعاوى، فكذب الله تعالى وجوههم في الخزي، وجاءت هذه الآية تؤكد ما قد سلف ذكره من خبث اليهود المتخذين الدين وسيلة للفساد في الأرض، وكشفت عما استقر في طباعهم من نقض العهود، فلا إيمان لهم ولا إيمان.

والآية ترشد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإعراض عنهم بدلالة الإشارة، فكأنها تقول: إن هؤلاء القوم لا عهد لهم، ولا إيمان لهم، فلا اعتبار للمجرمين ولا ثقة بهم.

"أَوْكَلْنَا غَاهِدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ"، قال الرازي: المقصود من هذا الاستفهام الإنكار وإعظام ما يقدمون عليه؛ لأن مثل ذلك إذا قيل بهذا اللفظ كان أبلغ في التنكير والتبكيث. فكأنه تعالى أراد تسليية الرسول عند كفرهم بما أنزل عليه من الآيات بأن ذلك ليس ببدع منهم، بل هو سجيتهم وعاداتهم وعادة سلفهم على ما بيّنه في الآيات المتقدمة من نقضهم العهود والمواثيق حالاً بعد حال^٢.

"كُلَّمَا": ظرفية فيها معنى الشرط تعميم الأزمنة، "عَاهِدُوا": الفعل في سياق ما فيه معنى الشرط فهو عامٌ مخصص بالمفعول به (أو النائب عن المفعول المطلق): "عَهْدًا"، و"عَهْدًا": نكرة في سياق ما يشبه الشرط تعميم، "نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ": فعل في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: الضمير المتصل. "فَرِيقٌ" نكرة مقيدة بالصفة: "منهم".

^١ سورة البقرة آية (١٠٠)

^٢ انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٣/٦١٥

"بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ" "أَكْثَرُهُمْ": نكرة مضافة تعمّ، والفعل "لَا يُؤْمِنُونَ" في سياق النفي يعمّ، أي: لا إيمانَ لهم. وفي هذا العطف قولان، أحدهما: أنه من بابِ عطفِ الجملِ وهو الظاهرُ، وتكونُ "بل" لإضرابِ الانتقالِ لا الإبطالِ، والثاني: أنه يكونُ من عطفِ المفرداتِ ويكونُ "أكثرهم" معطوفاً على "فريقٍ"، وفائدةُ هذا الإضرابِ على هذا القولِ أنه لما كان الفريقُ ينطلقُ على القليلِ والكثيرِ وأسندَ التَّبَذَ إليه، وكان فيما يتبادرُ إليه الذهنُ أنه يُجْتَمَلُ أَنَّ النابذينَ للعَهْدِ قليلٌ بَيِّنٌ أَنَّ النابذينَ هم الأكثرُ دَفْعاً للاحتمالِ المذكورِ، والتَّبَذُ: الطَّرْحُ وهو حقيقةٌ في الأجرامِ وإسنادُهُ إلى العَهْدِ مجازٌ^١.

^١ انظر: السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢/٢٦

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^١.

استحوذ على قلوبهم الشيطان، فملأها غرورًا وشرورًا، وصرف أصحابها عن المكارم والفضائل، وساقهم إلى الخزي والباطل وهم يعلمون.

"وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَمَّا": حرف وجود لوجود، "جَاءَهُمْ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل "هم"، "رَسُولٌ" مقيّد بالصفات بعده، فبدأ بوصفه بـ "مِنْ عِنْدِ اللَّهِ" وهو شبه جملة لعظمة الإضافة إلى لفظ الجلالة، ثمّ وصفه باللفظ المفرد: "مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ"، فقدّم أعظم الوصفين، "لِمَا مَعَهُمْ": اللام للتقوية، "ما" موصول يعمّ.

"نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ": "نَبَذَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "كِتَابَ اللَّهِ"، وبالظرف: "وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ"، والنبد طرح الشيء بعد إمساكه، "فَرِيقٌ" نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بصفة: "مِنَ الَّذِينَ" أي: كونهم من الذين أوتوا الكتاب، وفي هذا توبيخ وتقريع عظيم، "الذين" موصول يعمّ، "الكتاب": "أل" للعهد، أي: الكتاب المعهود، وهو التوراة، "وَرَاءَ" و "ظُهُورِهِمْ": نكرتان مضافتان لمعرفة تعمّان، وهو كما قال الزمخشري: "مَثَل لتركهم وإعراضهم عنه، مَثَل بما يرمى به وراء الظهر استغناء عنه وقلة التفات إليه"^٢، "كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ": الفعل في سياق النفي عامّ، أي: كأنهم لا علم لهم.

^١ سورة البقرة آية (١٠١)

^٢ الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ج ١/١٧١

قال الله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لِمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^١.

من سنن الله تعالى أن مَنْ أَعْرَضَ عَنِ الْحَقِّ، ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِالِاشْتِغَالِ بِالْبَاطِلِ، قَالَ السَّعْدِيُّ: "مَنْ تَرَكَ مَا يَنْفَعُهُ، وَأَمَكَنَهُ الْإِنْتِفَاعَ بِهِ فَلَمْ يَنْتَفِعْ، ابْتَلَى بِالِاشْتِغَالِ بِمَا يَضُرُّهُ، وَمَنْ لَمْ يَنْفِقْ مَالَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، أَنْفَقَهُ فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ، وَمَنْ تَرَكَ الذَّلَّ لِرَبِّهِ، ابْتَلَى بِالذَّلِّ لِلْعَبِيدِ، وَمَنْ تَرَكَ الْحَقَّ ابْتَلَى بِالْبَاطِلِ. كَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ لَمَّا نَبَذُوا كِتَابَ اللَّهِ اتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ وَتَخْتَلِقُ مِنَ السِّحْرِ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ حَيْثُ أَخْرَجْتَ الشَّيَاطِينَ لِلنَّاسِ السِّحْرَ، وَزَعَمُوا أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَسْتَعْمِلُهُ وَبِهِ حَصَلَ لَهُ الْمُلْكُ الْعَظِيمُ"^٢.

"وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ": اتَّبَعَ الْيَهُودُ الْمَعْرُضُونَ عَنِ الْإِسْلَامِ مَا وَرَثُوهُ مِنَ السِّحْرِ الَّذِي كَانَتْ تَتْلُوهُ الشَّيَاطِينُ فِي عَهْدِ سُلَيْمَانَ، وَالتَّلَاوَةُ الدِّرَاسَةُ وَالْمُتَابَعَةُ، "اتَّبَعُوا": فَعَلَ فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ مَقِيدٌ بِالْمَفْعُولِ بِهِ: "مَا تَتْلُو"، "مَا" مُوَصُولٌ يَعْمُ، "تَتْلُو": فَعَلَ فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ مَقِيدٌ بِالْمَفْعُولِ بِهِ: الضَّمِيرُ الْعَائِدُ عَلَى الْمَوْصُولِ، وَبِالْجَارِ وَالْمَجْرُورِ: "عَلَىٰ مُلْكِ"، "الشَّيَاطِينِ": "أَلْ": لِلْإِسْتِغْرَاقِ وَالْعُمُومِ الْعَرَفِيِّ، "عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ": فِي عَهْدِ مُلْكِ سُلَيْمَانَ.

^١ سورة البقرة آية (١٠٢)

^٢ السَّعْدِيُّ، تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَنَانِ، مَرْجِعٌ سَابِقٌ، ج ٦٠/١

"وَمَا كَفَرَ سُليْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا"، تبرئة لسليمان عليه السلام مما افتراه السحرة، "ما" نافية، "كَفَرَ" فعل في سياق النفي عام، "الشياطين": عموم عرقي، "كَفَرُوا": فعل في سياق الإثبات للإطلاق، والكفر: حقيقة شرعية، قال الطبري: "فنفى الله عن سليمان عليه السلام أن يكون كان ساحرًا أو كافرًا"^١. "يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ": قال الطبري: "وكيف يجوز لملائكة الله أن تعلم الناس التفريق بين المرء وزوجه؟ أم كيف يجوز أن يضاف إلى الله تبارك وتعالى إنزال ذلك على الملائكة؟

قيل له: إن الله جل ثناؤه عرف عباده جميع ما أمرهم به وجميع ما نهاهم عنه، ثم أمرهم ونهاهم بعد العلم منهم بما يؤمرون به وينهون عنه. ولو كان الأمر على غير ذلك، لما كان للأمر والنهي معنى مفهوم. فالسحر مما قد نهي عباده من بني آدم عنه، فغير منكر أن يكون جل ثناؤه علمه الملكين اللذين سماهما في تنزيله، وجعلهما فتنة لعباده من بني آدم - كما أخبر عنهما أنهما يقولان لمن يتعلم ذلك منهما: "إنما نحن فتنة فلا تكفر"؛ ليختبر بهما عباده الذين نهاهم عن التفريق بين المرء وزوجه، وعن السحر، فيمحص المؤمن بتركه التعلم منهما، ويخزي الكافر بتعلمه السحر والكفر منهما. ويكون الملكان في تعليمهما من علما ذلك لله مطيعين، إذ كانا عن إذن الله لهما بتعليم ذلك من علماهما"^٢.

"يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ": "يُعَلِّمُونَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به الأول: "الناس"، والثاني: "السحر" وبما عطف عليه،

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢ / ٤١٣

^٢ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢ / ٤١٣

"الناس": عمومهم عرفي، "السحر": "أل": للعهد ويجوز للعموم، "وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ": "ما": موصول يعمّ، "أُنْزِلَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور الأول: "عَلَى الْمَلَائِكَةِ" والثاني: "بِبَابِلَ" هَارُوتَ وَمَارُوتَ" اسما الملكين بدّل من الملكين لزيادة البيان والتعيين.

"وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ": "ما": نافية، الفعل "يعلمون": في سياق النفي عام "من أحد": نكرة في سياق النفي مسبقة بـ "من" نصّ في العموم، "حَتَّى يَقُولَا": تخصيص بالغاية لعموم الفعل المنفي: "يعلمان"، و"يقولان": فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ": "إنما" حاصرة، "فِتْنَةٌ": نكرة في سياق الإثبات للإطلاق، والفتنة حقيقة شرعية اختبار مخصوص، ومفهوم الحصر: فتنة لا غيرها، "لا": ناهية والنهي للنصح، "تكفر": فعل في سياق النهي يعمّ، "فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "مِنْهُمَا"، بالمفعول به: "مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ"، "ما" موصول يعمّ، "يُفَرِّقُونَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "بِهِ"، وبالظرف: "بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ"، "المرء": "أل": للاستغراق والعموم العرفي، "وَزَوْجِهِ": نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ عموما عرفيا.

"وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ": هذا تخصيص لعموم: "مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ.."، "وَمَا هُمْ بِضَارِينَ" نفي كل ضرر؛ لأن نفي الصفة الصريحة نفي للمصدر الذي اشتقت منه، وقد خصص هذا العموم بثلاثة مخصّصات، الأول: بالجارّ والمجرور: "بِهِ"، والثاني: بالمفعول به: "أحد"، وقد زيدَ قبله حرفُ الجرّ: "مِنْ أَحَدٍ"؛ للتخصيص على عموم أحد، والثالث: الحال

الواقعة بعد إلا الحاصرة: "إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ" الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال من الضمير المستتر الفاعل لضايرين أو من المفعول به الذي هو أحد.

"وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ": "وَيَتَعَلَّمُونَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "مَا يَضُرُّهُمْ"، "ما": موصول يعم، يَضُرُّهُمْ: فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، "وَلَا يَنْفَعُهُمْ": فعل في سياق النفي يعم.

"وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ": "عَلِمُوا" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به، وقد عُلق عن العمل بلام الابتداء، والجملة بعده في محل نصب: سادة مسدّد مفعولين أو مفعول واحد؛ لأن علم تنصب مفعولين ومفعول واحد إن كانت بمعنى عرف، "لَمَنِ اشْتَرَاهُ": لام الابتداء علّقت فعل "علموا" عن العمل، "من": اسم موصول يعم، وهو مبتدأ، "اشْتَرَاهُ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، "مِنْ خَلَاقٍ" "خلاق": نكرة في سياق النفي مسبوقة بحرف الجر: "مِنْ" للتنصيص على العموم، أي: ما له في خير الآخرة من حظّ ولا نصيب من الخير؛ لأنهم باعوا دينهم بعرض قليل يكسبونه من السحر وإتياع الشياطين، فخسروا أرواحهم.

"وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ": "لَيْسَ" فعل لازم في سياق الإثبات يفيد الإطلاق، "ما": فاعل ليس، وهو اسم موصول من صيغ العموم، "شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجار والمجرور: "بِهِ"، وبالمفعول به: "أَنْفُسَهُمْ"، وهو نكرة مضافة تعم،

"لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ": الفعل "يَعْلَمُونَ" منزل منزلة اللازم في سياق الإثبات يفيد الإطلاق، ويجوز تقييده بمقدّر: لو كانوا يعلمون علمًا نافعًا^١.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^٢.

الآية تفتح باب الرحمة، والبشرى، وتهدي إلى سنة كريمة من سنن الله تعالى ترغيبًا وتقريبًا لمن كانوا يعقلون. إن الآية تهدينا إلى سنة العطاء الجميل، والفضل الجزيل، فثمَّ مَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لا يدرك القلب لها حدًّا، ولا يُحصي لمكارمها عددًا.

وهذه الآية الخاتمة في سَجَلِ دعوة بني إسرائيل تدعوهم إلى حسن الخاتمة، بعد أن كشف الله تعالى كيدهم ومكرهم وفسادهم، وفنّد شبهاتهم، ودمغ باطلهم، فلم يُبقِ لهم من باقية، بل ترك باطلهم كأعجاز نخلٍ خاوية. ومع ذلك فهذه الآية تفتح باب الرجاء الجميل على مصراعيه لمن أراد الإنابة والتوبة والفلاح.

"وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ"، "وَلَوْ" حرف يدلّ على امتناع الجزاء "المثوبة" لفقد شرطها "الإيمان والتقوى"، ويحتمل أن تكون "لو" للتمييز، الفعلان: "آمَنُوا وَاتَّقَوْا" في سياق الإثبات ظاهرهما الإطلاق، والإيمان والتقوى حقيقتان شرعيتان، "مثوبة": نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالصفة: "مِنْ عِنْدِ اللَّهِ"، وفي هذا الوصف تفخيم وتكريم وتحبيب، وقد جيء بلفظ المثوبة؛ ليعلم العامل أن كلّ ما يقدمه راجع إليه، ومثاب عليه، فيحرص على هذه التجارة الربحية، قال الإمام الطبري: "المثوبة في كلام العرب، مصدر من قول القائل: أثبتك إثابة وثوابًا ومثوبة. فأصل ذلك من: "ثاب إليك الشيء"

^١ انظر: رضا، تفسير المنار، مرجع سابق، ج ١/ ٣٣٥

^٢ سورة البقرة آية (١٠٣)

بمعنى: رجع. ومنه "ثواب" الله عز وجل عباده على أعمالهم، بمعنى إعطائه إياهم العوض والجزاء عليه، حتى يرجع إليهم بدل من عملهم الذي عملوا له"^١.

وفائدة جواب لو الشرطية بالجملة الاسميّة هي الدلالة على الثبوت والدوام^٢. وفي قوله تعالى "لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" تهيج على التوبة وتوبيخ لمن أعرض عن دين الله تعالى.

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٤٥٨/٢، بتصرف يسير.

^٢ انظر: الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ج ١٧٤/١

تنصيب الأمة الوارثة إمامة للبشرية، وتنحية الأمم الناكثة:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ

عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^١.

لقد فتحت الآية السابقة باب الرجاء الجميل لمن أراد الإنابة والمثوبة من أهل الكتاب، فلما أعرض القوم، أعرض الله تعالى عنهم، وأتى بقوم يحبهم ويحبونه، وافتتح خطابهم في هذه الآية بالإقبال الدالّ على الاستبدال، وبدأ بنهي المؤمنين عن مشابهة اليهود المتمردين على رسل الله تعالى، وكان النهي عن الأدنى بالمنطوق، وعن الأعلى بمفهوم الموافقة (من باب أولى)، وأمرهم بالسّمع الذي هو أصل أصول التلقّي والاتباع، وأما ختم الآية بالوعيد الشديد للكافرين، وفيه إشارة إلى أن عدم الامتثال لما طلبه الشارع في هذه الآية يفضي إلى اللحاق بزمرة الكافرين، والوقوع في الخسران المبين.

هذا أول نداء اختصّ الله تعالى به المؤمنين، ورثة الدين القيم، وحملة الرسالة الخاتمة، فأنعم به نداءً! وأكرم به إقبالاً لا إعراض بعده! وما أجلّ هذه التزكية! وما أجملها! فالمنادي ربُّنا القريب المحيب الغفور الودود، والمنادون المؤمنون، فأئنيّ تشريفٍ هذا وأئنيّ تكليف!

يقف خلف هذا النداء صفٌّ مديد مجيد من النداءات الربّانية، هذا النداءُ إمامها، ومُقَدِّمُها، فقد تكرر هذا النداء في القرآن الكريم تسعين مرّة^٢، وآخر نداءين في هذا الصفّ

^١ سورة البقرة آية (١٠٤)

^٢ انظر: الجزائري، جابر بن موسى، نداءات الرحمن لأهل الإيمان، المكتبة العصرية، بيروت، ط٣، ١٤٢٣هـ، ص٧، وقد عدّها الرازي في تفسيره ثمانية وثمانين، وتبعه في الخطأ الهرري في حقائق الروح والريحان ولم يشر إلى المصدر.

المديد المجيد قد وردا في سورة التحريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾^١،
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾^٢، فهل أدركت كيف
انسقت البداية والنهاية.

إن صلاح جهاز التلقي (السمع والطاعة) هو الأصل؛ لإقامة الدين وعمارة الحياة
به، ولما فسد جهاز التلقي عند اليهود والنصارى سلبهم الله تعالى نعمة الخيرية؛ لأنهم غير
صالحين للاستخلاف ووراثه منهاج الأنبياء، فكان التغيير والاستبدال وفق سنة الله تعالى:
﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾^٣، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^٤.

إن هذا الإقبال الكريم من رب العالمين بهذا النداء المبارك في هذا الموطن ينشر بين
أيدينا سجلاً طويلاً عامراً بالحكم والمقاصد والأسرار التي لا يتأتى إدراكها إلا بإمعان النظر في
الآية نفسها، وفيما سبقها وما تلاها من الآيات في سياقها القريب والبعيد؛ لأن لكل سورة
وحدتها الموضوعية، ونظامها الخاص، كما أن للقرآن كله وحدته الموضوعية، ونظامه المحكم،
وإن المتدبر ليجد الحكمة البالغة إذا تأمل في مناسبة ورود (البسملة) في أول القرآن الكريم، وفي
استفتاح القرآن بسورة (الفاتحة)، وختمه بالمعوذتين، وفي ورود أول قصة تذكر في المصحف
(قصة آدم وزوجه عليهما السلام والرضوان)، وآخر قصة (قصة أبي لهب وزوجه)، وفي تسلسل
الأخبار والأحكام وامتدادها، ومن نظر في الأشباه والنظائر، والأصول، والفروع رأى آيات

^١ سورة التحريم آية (٦)

^٢ سورة التحريم آية (٨)

^٣ سورة محمد آية (٣٨)

^٤ سورة الرعد آية (١١)

يَبَيِّنَاتٍ بِاللُّغَاتِ الْمُنتَهَى جَلَالًا وَجَمَالًا وَكَمَالًا، فَسَبِّحَانَ اللَّهَ الْقَائِلُ: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾^١.

والناظر في كتب التفاسير يجد تفاوتًا في التوسُّع والتعمُّق في أسرار هذه الآية، وقد أعمل المفسرون أنظارهم، فمنهم من اكتفى بالآية دون نظر إلى سَبَاقِهَا (ما سبقها) أو لِحَاقِهَا (ما لحقها)، ومنهم من اقتصر على السِّيَاق القريب، ومنهم من مدَّ بصره في السِّبَاق، ولم يتأمل في اللِّحَاق؛ حتى ربط النداءات الواردة في أول السورة بهذا النداء، ومن هؤلاء العلامة أبو حيان إذ يقول: "هذا أول خطاب خوطب به المؤمنون في هذه السورة بالنداء الدال على الإقبال عليهم، وذلك أن أول نداء ورد في السورة أتى عامًا: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُم"، وثاني نداء أتى خاصًا: "يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا"، وهي الطائفة العظيمة التي اشتملت على الملتين: اليهودية والنصرانية، وثالث نداء لأمة محمد - صلى الله عليه وسلم - المؤمنين، فكان أول نداء عامًا أمروا فيه بأصل الإسلام، وهو عبادة الله، وثاني نداء دُكِّرُوا فيه بالنعم الجزيلة، وَتُعَبِّدُوا بالتكاليف الجليلة، وَخُوفُوا من حلول النقم الوبيلة، وثالث نداء عَلِّمُوا فيه أدبًا من آداب الشريعة مع نبيهم، إذ قد حصلت لهم عبادة الله، والتذكير بالنعم، والتخويف من النقم، والاتعاظ بمن سبق من الأمم، فلم يبق إلَّا ما أمروا به على سبيل التكميل، من تعظيم من كانت هدايتهم على يديه"^٢. والذي يظهر لي أن المعاني الواردة في منطوق الآية ومفهومها وتعليلها أوسع مما اقتصر عليه العلامة أبو حيان بقوله: "فلم يبق إلَّا ما أمروا به على سبيل التكميل"، بل الآية جاءت على سبيل التأصيل والتكميل معًا؛ لأنها جمعت بين أسباب

^١ سورة هود آية (١)

^٢ أبو حيان، محمد بن يوسف، البحر المحيط، ت: صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ ج ١/ ٣٧٣

الاثبات على الإيمان، والازدياد منه بمنطوقها ومفهومها، وبين الوقاية من الكفر والخسران بمنطوقها وتعليلها، فهي أصل لكل نداء خاصٍّ بالمؤمنين يجيء بعدها في القرآن كله.

قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا": "آمَنُوا" فعل في سياق الإثبات مطلق، "الَّذِينَ" الموصول يعمّ المؤمنين الذين كانوا في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، "لَا تَقُولُوا رَاعِنَا" النهي عن قول: "راعنا" للتحريم، والفعل "تَقُولُوا" في سياق النهي مخصّص بمقول القول: "راعنا"، والنهي عن الأدنى بالمنطوق نهي عن الأشدّ والأغلظ من باب أولى (بمفهوم الموافقة)، والأمر في قوله تعالى: "وَقُولُوا انظُرْنَا" للوجوب، والفعل "قُولُوا" في سياق الإثبات مقيد بمقول القول: "انظُرْنَا"، "انظُرْنَا": الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: الضمير المتصل، قال ابن جرير: "نهى الله عز وجل المؤمنين أن يقولوا: "راعنا"، لما كان قول القائل: "راعنا" محتملاً أن يكون بمعنى احفظنا ونحفظك، وارقبنا ونرقبك. من قول العرب بعضهم لبعض: "رعاك الله": بمعنى حفظك الله وكلاك - ومحتملاً أن يكون بمعنى: أرعنا سمعك، من قولهم: "أرعت سمعي إرعاء - أو راعيته - سمعي رعاء أو مراعاة"، بمعنى: فرغته لسماع كلامه"^١. وقال ابن عطية: "كانت اليهود تصرفها إلى الرعونة، يظهرون أنهم يريدون المراعاة ويبطنون أنهم يريدون الرعونة التي هي الجهل"^٢. وقال ابن جزي: "فالنهي سدّ للذريعة، وأمروا أن يقولوا: انظُرنا، لخلوّه عن ذلك الاحتمال المذموم"^٣، ولما كان مبنى سدّ الذرائع على التضييق؛ لدور المفاسد الراجعة، جاء التشريع بالبدل: "انظُرنا" تعويضاً وتوسيعاً.

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢/٤٦٤

^٢ ابن عطية، عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ، ج ١/١٨٩

^٣ ابن جزي، محمد بن أحمد، التسهيل لعلوم التنزيل، المحقق: الدكتور عبد الله الخالد، دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت الطبعة: الأولى -

"وَأَسْمَعُوا": الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات للإطلاق، ويحتمل أن يكون مقيّدًا بمفعول به مقدّر لم يذكر؛ للدلالة على العموم أي: اسمعوا كلّ ما يقوله لكم الرسول عليه الصلاة والسلام، وهذا الأمر عظيم الشأن، وفي روده في أول نداء ينادي الله تعالى به المؤمنين تحيئة الأسماع والقلوب لتلقّي ما يُلقَى عليها من الهدى، والسمع المأمور به هو سمع فهم وتعقل وانقياد وطاعة، قال ابن عطية: "ولما نهي الله تعالى في هذه الآية وأمر، حضّ بعدُ على السمع الذي في ضمنه الطاعة"^١. وقد ذكره القرطبي بنصّه، ولم يعزّه إلى أحد^٢، "وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ": "لِلْكَافِرِينَ": صفة صريحة تعمّ؛ لافترانها ب "أل"، وفيها إيماء إلى أن الكفر بما جاءنا به رسول الله عليه الصلاة والسلام هو علّة العذاب الأليم، ومفهومه: غير الكافرين ليس لهم عذاب أليم، والتذييل بهذه الجملة فيه تحذير وتهديد شديد؛ فلا يغترّ المؤمنون فيكفروا كما اغترّ من سبقهم.

وقد اجتمع في هذه الآية التبشير والتحذير، والترغيب والترهيب، والرعاية والوقاية! ولو أن المؤمنين في هذا العصر امثلوا ما أمروا به، فسمعوا ما جاءهم به الرسول عليه الصلاة والسلام وأطاعوا، ما لبثوا في الاستضعاف والعذاب المهين.

١٤١٦ هـ ج ١/٩٣

^١ ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، مرجع سابق، ج ١/١٨٩

^٢ القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، ط ٢، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م، ج ٢/٦٠

قال الله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^١.

إنه الصراع الدائم بين الحق والباطل! فللحق أبطاله ورجاله، وللباطل طواغيته وجُهّاله. إن سنة التدافع توجب علينا أن نطوّر وسائلنا؛ لنتقي شرور أهل الأهواء، وننشر الحق الذي أنزله الله تعالى علينا، وجعله أمانة في أعناقنا.

تسهم هذه الآية في درء مفسد ضخمة سببها حسد الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ للأمة الوارثة، فإنها تكشف للمؤمنين ما تخفيه صدور أهل الكتاب والمشركين من العداوة؛ ليأخذوا حذرهم، ويستمسكوا بما يُنَزَّلُ عليهم من ربهم، وحتى لا يوجس المؤمنون في نفوسهم خيفة، فقد جاء التعقيب شافياً كافياً بأسلوب الالتفات، والالتفات في هذا الموطن يشعّ فخامة وجلالاً ومهابة، إنه التفات من عالم الشهادة حيث العباد الضعفاء في صراع وتدافع وتنازع إلى عالم الغيب حيث الحي القيوم عالم الغيب والشهادة، القوي القهار، فيعلمنا الله تعالى ويعلم الناس أجمعين أن تنزيل الخير والرحمة إنما هو اختصاص من الله تبارك جده.

وللقرآن الكريم منهج بديع في وصل المواضيع وفصلها، فتجده يصل ويفصل بأسلوب يملأ القلوب دهشة وتشويقاً، وجلالاً، وجمالاً.

لقد افتتح الله تعالى قصص القرآن الكريم بقصة آدم عليه السلام صاحب التجربة الأولى في الاجتباء، وتلقّي الهدى، والوقوع في الزلل، وإحداث التوبة، وما صاحب تلك التجربة من تنحية إبليس وفصله عن صفوف الملائكة، وإخراجه مما كان فيه من التقديم

^١ سورة البقرة آية (١٠٥)

والتمكين؛ لما أظهره من العداوة والاستكبار والكفر، والكيد، ثم انتقل إلى دعوة بني إسرائيل أصحاب التجربة المديدة الفريدة بخيرها، وشرها، وعبرها، وهي التجربة الأخيرة الأكثر تشعباً وتفصيلاً، وفي ذكر قصصهم إثر قصّة أول متلقٍ للهدى وصلّ لمسار الدعوة المديد بالعهد الجديد، وهيئة لفصل الدعيّ من الوارث، وتمييز الخبيث من الطيّب.

إن الأمة التي أوتيت الكتاب، فطال عليها الأمد، فقسّت قلوبها لا تزال تزكّي نفسها، وتدّعي لنفسها حقّ الوراثة والاصطفاء والخيريّة على العالمين، وتعمل على تعزيز مكانتها وهيمنتها الدينية في جزيرة العرب، وفي المدينة على وجه الخصوص، وهم أخبث الناس أخلاقاً، وأشدّهم كفرًا ونفاقًا، وإفسادًا في الأرض، وعداوة للحقّ وأهله، فلهم مثل السوء. وقد شاركهم في دعوى ميراث النبوة النصارى والمشركون من أهل الحرم خاصّة، فكان ضروريًا أن يطاح بنصب هذه النماذج الخبيثة، وأن تقام الحجة عليهم جميعًا وأن يُبيّن حالهم، ويُطاط أذاهم عن طريق الدعوة الجديدة، وإن القارئ لنذهمه الوحشة عند الوقوف على قبائح اليهود، وخبائث تلك النفوس الشاردة التي تمقتها القلوب المؤمنة وتنفر منها، فيتساءل لم فصل القرآن الكريم قصص هؤلاء القوم دون غيرهم؟ فإذا شاهد ما يجري على الأرض، وسمع أنباء أحفاد هؤلاء المجرمين، وهم يوظّفون السامية والإبراهيمية والموسوية، والاختصاص الربانيّ كذبًا وزورًا؛ لنهب الأمم، وإيقاد الحروب بين الشعوب، واستنزاف خيرات الأمم، شكر الله تعالى على أن بيّن لنا هذا البيان؛ ليأخذ بحجزنا؛ حتى لا نقع فيما وقعوا فيه، ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^١. ومع ذلك نرى فريقًا من المغفلين يتهافتون على أبوابهم استرضاء وموالة. وسوف تمضي الآيات اللاحقة في تثبيت أقدام الأمة على الصراط المستقيم وتحسينها

^١ سورة الأنعام آية (٥٥)

من سنن الهالكين، وتبين للعالمين شعائر الملة الخاتمة، وترشدتهم إلى اتباع إمام الأئمة ورائد الأئمة حفيد إبراهيم عليه السلام، وخاتم المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين، وتلاحق الطوائف الثلاث التي تدّعي حقّ الوراثة والإمامة، فتتهلك أستارهم، وتدحض حججهم، وتنبذهم بالعراء وهم صاغرون.

"مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ" "مَا يَوَدُّ" الفعل في سياق النفي للعموم مخصّص بالمفعول به: المصدر المؤول "أَنْ يُنَزَّلَ..."، وصيغة المضارع تدلّ على الحدوث المتجدّد غير المنقطع، "الذين": للعموم، "كَفَرُوا": والكفر: حقيقة شرعية، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالحال: "من أهل" الجار والمجرور في محل نصب على الحال، "أهل الكتاب": نكرة مضافة لمعرفة تعم، "الْمُشْرِكِينَ": صفة صريحة معرفة ب"أل" الموصولية تعم.

"أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ" "يُنَزَّلَ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بنائب الفاعل "خير"؛ لأنه مفعول به في الأصل، "مِنْ خَيْرٍ": "خير" نكرة في سياق النفي مسبوق بحرف الجرّ "من" للتنصيص على العموم، (النفي وإن لم يباشر الفعل السابق للنكرة فهو بقوة المباشر)، "وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ": يَخْتَصُّ: فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "بِرَحْمَتِهِ"، وبالمفعول به: "مَنْ يَشَاءُ"، "رحمة" نكرة مضافة تعم، "من": موصول يعم، "وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ": "الْفَضْل" عامّ، مخصّص بالصفة: "الْعَظِيمِ" ففضل الله عظيم، فليستبشر المؤمنون بالفضل العظيم وليطمئنّوا، واختصاص الله لبعض عباده دون بعض ليس عن قلة، بل لحكمة بالغة عدلاً وفضلاً، ووصف فضل الله تعالى بالعظمة يفيض ترغيباً وتحبيباً وتقريباً على قلوب المؤمنين، وفيه إغازة للحاسدين، وليمت الكافرون بغیظهم كمداً وحسداً.

قال الله تعالى: ﴿مَا نُنسخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^١.

تحدّث الإمام الطبري عن حقيقة النسخ قائلًا: "يعني جل ثناؤه بقوله: (مَا نُنسخُ مِنْ آيَةٍ): ما ننقل من حكم آية، إلى غيره فنبدله ونغيره، ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي، والحظر والإطلاق، والمنع والإباحة. فأما الأخبار، فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ"^٢، فهذه الآية من الفضل العظيم الذي اختصّ الله تعالى به هذه الأمة الأُمِّيَّة، فقد جعل الله تعالى النسخ مسلكًا للاستبدال، فنسخ الشرائع السابقة باللاحقة، فالنسخ بركة وخيرٌ للآخرين، وأسعدُ الناس بهذا المسلك المبارك محمد صلى الله عليه وسلم وأُمَّته، فنسخت شريعته الشرائع السابقة وما فيها من الآصار والأغلال، وقد أنزل القرآن منجمًا؛ ليواكب الحوادث، ويصلح نفوس الناس بالتدريج، ويعالج أزماتهم ومشكلاتهم ومستجداتهم بالتي هي أقوم وأصلح، وقد شرع الله تعالى لنا كثيرًا من الأحكام بالتدرُّج، وكان النسخ مسلكًا من مسالك التدرُّج والتجديد.

ويدهشني حقًا أنّ سورًا كثيرة من القرآن الكريم لم تكن قد اكتملت بعد آياتها؛ لأنها تنزل منجمّة شيئًا فشيئًا، وسورًا يجري فيها النسخ، فلا يختلُ شيء من جلالها، وكمالها، وجمالها وإعجازها، وظلّ التحديّ بسورة من مثله سواء اكتملت آياتها أم لم تكتمل. ونسخ آية أو آيات من القرآن الكريم والإتيان بخيرٍ منها أو مثلها مع بقاء القرآن الكريم آية معجزة دون أن يختل شيء منه، إن هذا الأمر لشيءٌ عظيم، عظيم من حيث هو فعل لا قدرة لأحدٍ من

^١ سورة البقرة آية (١٠٦)

^٢ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢/٤٧١-٤٧٢

العباد عليه، ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيرًا، وعظيم من حيث الأثر على المؤمنين، لما للقرآن المجيد في قلوب المؤمنين من منزلة رفيعة، فإن صلة القلوب بكلام عَلام الغيوب صلة حبٍّ وتكريم وتعظيم، وقبل النسخ وانتزاع ما لتلك الآيات المنسوخة من التقديم والتكريم والتقديس يحتاج إلى عونٍ ربّانيّ.

ولذا وردت هذه الآية بهذا الوعد العظيم بالإتيان بخير من الآية المنسوخة أو مثلها، وقد قرأ الصحابة آيات من السور التي عجز العاملون على الإتيان بمثلها، ثم أصبحوا وقد نسخها الله تعالى، وغدت غير معدودة من القرآن الكريم، فتلقّوا الأمر بالتسليم، ولم ينقلب أحدٌ منهم على عقبيه، فإذا عرفت هذا المعنى أدركت جانبًا من الحكمة البالغة في نسخ الحكم وبقاء النظم في بعض المواطن. وقد وقفْتُ متدبرًا بين يدي هذه الآية؛ لأنها أول آية تصرّح بالنسخ في ترتيب المصحف، والنسخ من جلائل الأصول، فورودها في هذا السياق وبهذا النظم له شأن عظيم، وظهر لي بعض الفوائد بفضل الله تعالى ومَنِّه، وإليك شيئًا منها:

الأولى: أن ورود الخبر بالإتيان بخيرٍ من الآية المنسوخة أو المنسأة أو مثلها بصيغة الشرط فيه وعدٌ بالتعويض من الله تعالى الذي لا يخلف الميعاد، وفي هذا لطف من الله تعالى، ورحمة، وإيناس، وتطمين لقلوب المؤمنين بالتعويض عما يفقدونه من ذلك الخير.

الثانية: توجيه ظاهر الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فيه تأكيد على أن النسخ من أمر الله تعالى وحده لا يشاركه فيه أحدٌ غيره، فلا يظنُّ أحدٌ أنه من فعل الرسول صلى الله عليه وسلم.

الثالثة: ختم الآية بوصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء يناسب عظمة هذا

النبأ.

الرابعة: تعليم الأمة أصول تشريعها المبارك كالنسخ عاصم من الفتن والقواصم.

الخامسة: ومن وجوه المناسبة في سياق هذه الآية أنها وردت بعد أن كشف الله تعالى

للمؤمنين ما يُكنُّه لهم أهل الكتاب والمشركين من كراهة نزول الخير عليهم، فكشف الغطاء عن

قلوب أعدائهم؛ ليستمسكوا بما يُنزل عليهم، وليأخذوا حذرهم من كيد أهل الكتاب وتزويرهم

الحقائق وإثارة الشبهات والشكوك.

"مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا": "ما" اسم شرط يعم، مخصص

بالصفة المقدرة التي تعلق بها الجار والمجرور: "مِنْ آيَةٍ"، "نَنْسَخُ" فعل في سياق الشرط مخصص

بالمفعول به: اسم الشرط "ما" المتقدم على الفعل؛ لأن له صدر الجملة، و"مِنْ آيَةٍ": الجار

والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لاسم الشرط، واسم الشرط ليس معرفة فلا يجوز أن يكون

الجار والمجرور حالاً منه، والمعنى: أي شيء ننسخ من الآيات فآية اسم مفرد وقع موقع الجمع،

وهذا مطرد بعد الشرط لما فيه من معنى العموم^١، وهذه عبارات نقل درويش معناها من البحر

المحيط لأبي حيان، "آيَةٍ": نكرة في سياق الشرط تعم، "أَوْ نُنسِهَا" الفعل في سياق الشرط

مخصص بالمفعول به: الضمير المتصل، قال ابن جزي: "أَوْ نُنسِهَا من النسيان، وهو ضدّ

الذكر: أي ينساها النبي صلى الله عليه واله وسلم بإذن الله كقوله ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا

^١ درويش، إعراب القرآن وبيانه، مرجع سابق، ج ١/١٦٤

شاءَ الله^١، أو بمعنى الترك: أي نتركها غير منسوخة، وقرئ بالهمز بمعنى التأخير: أن نؤخر إنزالها أو نسخها^٢.

"نَأَتْ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا" "نَأَتْ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجار والمجرور: "بِخَيْرٍ" وما عطف عليه: "أَوْ مِثْلَهَا"، "بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا" صفة مقيّدة لمقدّر: "آيات"، والمعنى: نأت بآيات خير منها أو مِثْلَهَا، أي: بأفصح منها وأصلح للمكلفين^٣، قد ذكر الله تعالى شيئين: الإتيان بما هو خيرٌ من المنسوخ، أو الإتيان بمثله، والمماثلة إما أن تكون من كلّ وجه أو من وجهٍ دون وجهٍ، فإن حملناه على المماثلة من كلّ وجه أفضى إلى الإتيان بالشيء نفسه، وهذا مفضّل إلى انتفاء النسخ من أصله، وعليه فلا بد من حمله على أقرب ما يصحّ معه القول: بالمماثلة كالقول بالمماثلة في الأصل، والاختلاف في المتعلقات، وأما فوائد ذكر المماثلة بعد المفاضلة، فكثيرة، منها:

- بيان قدرة الله تعالى على الإتيان بما هو خير من المنسوخ وبمثله دون أن يتغيّر إعجاز السور وإحكامها.

- سدّ باب المجادلة، فلو اقتصر على ذكر ما هو خير، لنفى بعض المجادلين الفروق بين الناسخ والمنسوخ، فيزعمون أن الله تعالى قد قال: إنه سيأتي بخيرٍ من المنسوخ، وإنما أتى بمثله.

^١ سورة الأعلى آية (٦-٧)

^٢ ابن جزى، التسهيل لعلوم التنزيل، مرجع سابق، ج ١/٩٣

^٣ انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ١/٢٨٨ بتصرف يسير.

"أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" الاستفهام للتقرير، "الهمزة للتقرير، إذا دَخَلَتْ على نفي قَرَرْتُهُ فَيَصِيرُ إثباتاً"^١: "لم تَعْلَمْ": فعل في سياق النفي، ولكن النفي سبق بالهمزة التي للتقرير فانتفى أثر النفي بـ"لم"، فصار مثبتاً، وعليه فالفعل مقيّد بما سدّ مسدّ مفعوليه: "أَنَّ اللَّهَ.."، والخطاب في "تَعْلَمْ" للرسول صلى الله عليه وسلم والمراد عموم أمّته؛ لأن رسول الله تعالى مقرّ قطعاً بهذا الأمر، وفي إفراد الخطاب إشارة إلى أن النسخ من أمر الله تعالى، والرسول عليه الصلاة والسلام مبلّغ عن ربه.

"أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" "كلّ": عام، أي: قدير على كلّ شيء شرعيّ وكوّنِيّ، وهذه الخاتمة موافقة لمضمون الآية، فالله تعالى قدير على النسخ والإنشاء، والإتيان بالخير والمثل مع الحفاظ على جلال القرآن وكماله وجماله وإعجازه، ولا يقدر على ذلك إلا الله تعالى، كما أن هذا التعقيب متصل بمطلع الآية التي تليها: "أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ؛" لأن من له الملك كلّّه فله حقّ التصرف والتدبير والتشريع كلّّه.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾^٢.

في هذه الآية تعظيم الله تعالى وبيان ملكه وسلطانه، وتوثيق لصلة المؤمنين برّبهم مالك الملك الذي له الخلق والأمر، القدير، الوليّ النصير، ففيها إحاطة لهم بالعناية من كلّ وجه؛ ليسلم المؤمنون وجوههم لله تعالى وحده محسنين راضين بحكمه وتقديره، فلا يلتفتون إلى مضلّ

^١ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ١/ ٢٧٠

^٢ سورة البقرة آية (١٠٧)

أو مبطل. وفيها قطع لكل ذرائع الزيغ، وسدٌ لمداخل شياطين الإنس والجن؛ وتهديد ووعيد لكل من تسوّل له نفسه بتخطّي حدود ما أنزل الله تعالى.

ومطلع الآية "أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ"، متصل بخاتمة الآية السابقة، والذي يبدو لي أنها ليست مؤكّدة، بل مؤسّسة مسوقة لتقرير حقيقة التفرد بالملك والسلطان وما يتبعه من استحقاق في التصرف والتشريع إحصاءً ونسخاً وتبديلاً.

"أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" أَلَمْ تَعْلَمْ: الاستفهام للتقرير، "لم تَعْلَمْ": فعل في سياق النفي، وقد سبق النفي بالهمزة التي للتقرير فانتفى أثر النفي فصار الفعل مثبتاً، وعليه فالفعل مقيّد بما سدّ مسدّ مفعوليه: "أَنَّ اللَّهَ.."، "ملك": نكرة مضافة تعمّ، "السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ": "أل" للعموم أو العهد، "وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ" "ما" نافية، "مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ": وليّ ونصير؛ لأهما نكرتان في سياق النفي تعمّان، وهما مسبوقتان بحرف الجرّ "من" لإفادة التنصيص على العموم.

قال الله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾^١.

إنّ للتمكين سنناً، وللأخذ والمؤاخذه وانتزاع الملك والإمامة والسيادة سنناً، وقد بيّنا من قبل سنة الله تعالى فيما يترتب على الإيمان والتقوى من المثوبة وفتح البركات، فكانت تلك السنة للترغيب والتبشير وفتح باب الرجاء على مصراعيه لمن أراد الهدى والفلاح، وفي هذه الآية بيّن الله تعالى سنة جليّة للوقاية والترهيب والتحذير، يخوّف الله تعالى بها عباده، "وَمَنْ

^١ سورة البقرة آية (١٠٨)

يَبْدَلُ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ"، فهذه السنة تبين عاقبة الردّة والانقلاب على الأعقاب.

وقد اتخذ بعض بني إسرائيل الأسئلة ذرائع للتمرد والشقاق، ولا يزال اليهود يتوارثون هذه الوسائل والأساليب؛ ليصدوا عن سبيل الله تعالى. والأسئلة من أنفع وسائل التعلم، وإنما يحرم منها ما اتخذ ذرائع إلى التمرد والكفر؛ لأن الوسائل بمقاصدها، ولذا حذر الله تعالى في هذه الآية من السؤال المتعنت بقوله: كما سئل موسى عليه الصلاة والسلام.

وما تزال الآيات تتوالى في سياق واحد؛ لترسيخ منهج التلقي واتباع الرسول عليه الصلاة والسلام تعليمًا للمؤمنين وتكريمًا، وتمكينًا لهم وتحصينًا، وإفساحًا لمن يريد الهداية والدخول في جماعتهم، فظاهر الآية تحذير المؤمنين ووقايتهم من الضلال واتباع سنن المغضوب عليهم الذين اتخذوا الوسائل الراشدة مسالكًا إلى المقاصد الفاسدة، وفي الآية تعريض باليهود الذين تمردوا على موسى عليه السلام، ومردوا على مشاقّة المرسلين عليهم الصلاة والسلام، وقد حققت الآية بهذا الأسلوب مقاصد منها:

- تثبيت أقدام المؤمنين على الصراط المستقيم، ووقايتهم شرّ الضلال والانقلاب على الأعقاب، ورفع مكانتهم، وتقديمهم لإمامة العالمين فهم ورثة الأنبياء عليهم السلام.

- توطئة السبيل للراغبين في الإسلام، وتبصيرهم بالمسالك المشروعة والممنوعة في سؤال الرسول عليه الصلاة والسلام والتلقي منه.

- كشف خبائث اليهود أدعياء ميراث النبوة؛ لوضعهم في الدرك الذي يستحقونه، وتنحيته عن طريق الهداية والإمامة؛ لأن تنحية المجرمين وإزاحتهم مقصد شرعي في كل عصر،

وإن انتسبوا إلى الدين زورًا وغرورًا. فإن الدين مبني على حسن الاتباع لا على التشهي والابتداع، وكما جرت هذه السنة على اليهود فإنها جارية على المسلمين وغيرهم، وما أكثر الضالين المضلين الذين يصدّون عن سبيل الله تعالى، ويغونها عوجًا في بلاد الإسلام ممّن اتبعوا خطوات اليهود، فابتدعوا، وأدّعوا حقّ الولاية والوصاية بالباطل، ومّمّن تمرّدوا على الهدى فطعنوا في حقائق القرآن الكريم والسنة، ونبذوا الدين وراء ظهورهم، وسجلّ أسئلتهم وطعنهم وأهوائهم طويل عريض.

قال الله تعالى: "أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِدَلِ الْكُفَرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ"، وأمّ "منقطعة وهو الظاهر، فتقدّر بيل والهمز، ويكون إضراب انتقال من قصة إلى قصة"¹، "تُرِيدُونَ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: المصدر المؤول "أَنْ تَسْأَلُوا..."، والخطاب للمؤمنين، "تَسْأَلُوا": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "رَسُولَكُمْ"، وبالجارّ والمجرور: "كَمَا سُئِلَ مُوسَى.." الإضافة في "رَسُولَكُمْ": للتشريف والتكليف والمقصود محمّد صلى الله عليه وسلّم، "سُئِلَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بنائب الفاعل (أصله المفعول به)، وبالجارّ والمجرور: مِنْ قَبْلُ، والمصدر المنسبك من "ما" مصدرية، والفعل: "سُئِلَ" من صيغ العموم، والمراد به خصوص أسئلة التعنّت والشقاق.

"وَمَنْ يَتَّبِدَلِ الْكُفَرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ" "مَنْ": اسم شرط يعمّ، "يَتَّبِدَلِ": الفعل في سياق الشرط مخصّص بالمفعول به: "الْكُفَرَ"، وبالجارّ والمجرور: "بِالْإِيمَانِ": "أَل" فيهما للعهد الشرعي، وهما حقيقتان شرعيتان.

¹ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢/ ٦٤

"فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ" "ضَلَّ": الفعل في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: "سَوَاءَ السَّبِيلِ"، أو يكون بنزع الخافض: ضلَّ عن سواء "السَّبِيلِ" عن الصراط المستقيم، "ومن يستبدل بالإيمان بالله وبرسوله الكفر، فيرتد عن دينه، فقد حاد عن منهج الطريق ووسطه الواضح المسبول"^١، وهذه سنّة ثابتة.

قال الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^٢.

هذه الآية عامرة بتركية المؤمنين، وتطمينهم على سلامة دينهم ومنهجهم، وتبشيرهم بالتمكين.

قال الإمام الطبري: "وقد صرح هذا القول من قول الله جل ثناؤه، بأن خطابه بجميع هذه الآيات من قوله: "يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا" وإن صرف في نفسه الكلام إلى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم، إنما هو خطاب منه للمؤمنين من أصحابه، وعتاب منه لهم، ونهي عن انتصاح اليهود ونظرائهم من أهل الشرك وقبول آرائهم في شيء من أمور دينهم - ودليل على أنهم كانوا استعملوا أو من استعمل منهم في خطابه ومسالته رسول الله صلى الله عليه وسلم الجفاء، وما لم يكن له استعماله معه، تأسيساً باليهود في ذلك أو ببعضهم. فقال لهم ربحهم ناهياً عن استعمال ذلك: لا تقولوا لنبيكم صلى الله عليه وسلم كما تقول له اليهود: "راعنا"، تأسيساً منكم بهم، ولكن قولوا: "انظرنا واسمعوا"، فإن أذى رسول الله صلى الله عليه

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢/٤٩٧

^٢ سورة البقرة آية (١٠٩)

وسلم كفر بي، وجحود لحقي الواجب لي عليكم في تعظيمه وتوقيره، ولمن كفر بي عذاب أليم، فإن اليهود والمشركين ما يودون أن ينزل عليكم من خير من ربكم، ولكن كثيراً منهم ودوا أنهم يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً، حسداً من عند أنفسهم لكم ولنبيكم محمد صلى الله عليه وسلم، من بعد ما تبين لهم الحق في أمر محمد، وأنه نبي إليهم وإلى خلقي كافة"^١.

أقول: فيما ذهب إليه الإمام لفتات مهمّة، منها أن الآيات ينتظمها سلك واحد، فهي تخاطب المؤمنين، وكذلك يظهر فيها تحذير المؤمنين من اتباع سنن أعدائهم، وأما كونها وردت عتاباً على مكروه سلف من المؤمنين، وحصر السبب والباعث في هذا العتاب فليس بظاهر، وإن صحّ سبب النزول، فلا تعارض بين خصوص السبب وبين عموم الآيات، فإن في عموم الآيات ودلالة السياق تأسيساً ظاهراً لمنهج الأمة الوارثة؛ لتحقيق جملة من المقاصد، منها:

الأول: بيان أصل التلقّي والاتباع؛ لتمكين المؤمنين، وتثبيت أقدامهم على الصراط المستقيم، وإعلاء لوائهم، ورفع مكانتهم، وتحصينهم من مسالك الزيغ والضلال؛ ليتصدروا ركب الحضارة، ويقودوا العالمين إلى الخير والرشاد، فهم ورثة ملّة إبراهيم عليه السلام.

الثاني: كشف ضلال اليهود والنصارى والمشركين أدعياء ميراث إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام وإسقاط هيمنتهم، وتنحيتهم عن مواقع الصدارة التي ورثوها، واستغلوها في تحقيق أهوائهم وأطماعهم وشهواتهم باسم الدين والحق الموروث.

الثالث: التحذير من الانقلاب على الأعقاب، وتبدّل الكفر بالإيمان.

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢ / ٤٩٩

الرابع: إفساح سبيل الهداية للعالمين، وإمالة أذى المبطلين عن طريق الحق.

"وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ" "وَدَّ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: المصدر المؤول "لَوْ يَرُدُّونَكُمْ"، فهو مؤول بنكرة مضافة إلى معرفة (رَدَّكُمْ) تعمّ، "كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ" "كَثِيرٌ" نكرة مقيّد بالصفة التي تعلّق بها الجارّ والمجرور: "مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ"، "أهل": نكرة مضافة تعمّ، "الكتاب" يعمّ التوراة والإنجيل، "لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ": "يَرُدُّونَكُمْ" الفعل يَرُدّ بمعنى يُصَيِّرُ، وهو في سياق الإثبات مقيّد بأربعة قيود: بالمفعول الأول: الضمير المتصل، والمفعول الثاني: "كُفَّارًا"، والقيّد الثالث الجارّ والمجرور: "مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ"، و"إِيمَانِكُمْ" مخصّص بمقدّر: بدين محمد صلى الله عليه وسلم، والقيّد الرابع المفعول لأجله: "حَسَدًا"، وحسدًا مقيّد بالصفة التي تعلّق بها شبه الجملة: "مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ"، "أَنْفُسِهِمْ": نكرة مضافة تعمّ، والقيّد الخامس: الجار والمجرور: "مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ"، "ما تَبَيَّنَ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد الجار والمجرور: "لَهُمْ".

"فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ"، "فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا" أمران للوجوب، والفعّلان في سياق الإثبات مقيّدان بالغاية: "حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ" "حتى" حرف غاية، والأمر في قَوْلِهِ: "بِأَمْرِهِ" أمر نكرة مضافة تعمّ كلّ أمر شرعيّ وكوّنِيّ، ولكن السياق يرجّح أنه من العامّ المراد به الخاصّ، فالمقصود بأمره الناسخ للفعو والصفح، والله تعالى أعلم، ولا مانع من حمله على المعنيين إن لم يتعارضوا.

"إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" "كُلٌّ" للعموم. وثمّ تناسب ظاهر بين خاتمة آية النسخ

وهذه الآية.

قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ بِحَدِّهِ
عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^١.

لقد أمر الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بالاستمرار والدوام على إقامة الصلاة وإيتاء
الزكاة، وهاتان الشعيرتان هما جناحا الاستخلاف والتعمير، فالصلاة عمود الدين، ومن ثمارها
ومنافعها المتعدّية العاجلة النهي عن الفحشاء والمنكر، وأما الزكاة فثمرة التنمية الاقتصادية التي
هي عمود المعيشة، فكلّما زاد النشاط الماليّ زادت مصادر الزكاة، فالأمر بالزكاة يستلزم
التغيب في الاستثمار والإنتاج وتكثير مصادر الزكاة، ومن آثارها العاجلة سدّ الحاجات،
وتفريج الكربات، وتقوية أواصر الائتلاف بين أبناء الأمة المسلمة، وغيرها من المصالح، ولما
كان ثواب الآخرة هو غاية الغايات، ومقصد المقاصد، فقد جاء الوعد الصادق بحفظ كلّ ما
يقدمه المؤمنون لأخراهم؛ لأن الدنيا مهما ازيّنت، وطابت، وطالت، واتسعت، فلا تفني
خيراتها بمجازاة عبدٍ واحد من عباد الله الصالحين.

وما أبلغ التوافق بين قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ
كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^٢، وهي الآية التي ختم بها مجادلة الأمة الناكثة للعهد الناقضة للميثاق
(اليهود)، الآية التي ورد بعدها مباشرة أول نداء للمؤمنين بوصفهم الخاصّ، وبين هذه الآية
التي ختم بها التشريعات المؤسسة لبناء الأمة الوارثة المستخلفة أمة محمّد عليه الصلاة والسلام،
"وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ بِحَدِّهِ عِنْدَ اللَّهِ". إن سنّة الله تعالى في العباد واحدة، ومنهج

^١ سورة البقرة آية (١١٠)

^٢ سورة البقرة آية (١٠٣)

واحد، والمثوبة مدخرة عند الله تعالى الكريم الوهاب، فمثوبة الله وحدها هي التي تتسع لتكريم كل من آمن واتقى.

"وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ": "وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ": الأمر بإقامة الصلاة للوجوب، وإقامتها أداؤها على الوجه الأتم، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "الصَّلَاةَ"، و"أل" للعموم، "وَأَتُوا الزَّكَاةَ" الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الزكاة، و"أل" للعموم، والصلاة والزكاة حقيقتان شرعيتان يبينتهما السنة أكمل بيان، "وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ" "مَا" شرطية عامة مخصصة بالصفة التي تعلق بها الجار والمجرور: "من خير"، والفعل "تُقَدِّمُوا": فعل في سياق الشرط مخصّص بالمفعول به: اسم الشرط المقدم "ما"، وبالجارّ والمجرور: "لِأَنفُسِكُمْ"، وأنفس نكرة مضافة تعمّ، والجار والمجرور "خَيْرٍ" نكرة في سياق الشرط تعمّ كل خير، والخير حقيقة شرعية قال الإمام الطبري: "الخير هو العمل الذي يرضاه الله"^١.

"إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ": "بَصِيرٌ": مقيّد بالجارّ والمجرور: "بِمَا"، والتقيد للترغيب والترهيب، "ما": موصول يعمّ، "تَعْمَلُونَ" الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالضمير العائد على الموصول، ويجوز أن تكون "ما" مصدرية، والمصدر المؤول يعمّ، تقديره: والله بصير بعملكم كلّ، وكفى به حسيباً.

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢ / ٤٩٩

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^١.

ما أشنع فرية أهل الكتاب! وما أبشع سفههم! أيقولون ما يقولون وقد تبينَ هُـمُ الحُـقُّ؟ إن العقيدة الصحيحة لا تبنى إلا على أصول وبراهين راسخة، ولا تقبل الدعاوى الباطلة، وفي هذه الآية أصول علمية جامعة، منها:

- الأول: المطالبة بالبرهان والحجة على الدعاوى، قال تعالى: "قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ"، وهذا أصل عام يتكرَّر ذكره في القرآن الكريم؛ لأن البراهين هي الركن الركين والأصل المتين لبناء العقل الصحيح، والقلب السليم الذي ينهض بالأتم وقيمتها على الصراط المستقيم، وحين تتخلَّى الأمة عن إذكاء جذوة المطالبة بالبرهان، وتنمية خُلق التَّبَيُّت والتَّبَيُّن، والعناية بالدليل والحجة يتكاثر في مفاصلها المفترون، والخرَّاصون، فتتبدَّل العقول، وتتفطَّر الفطَرُ، ويموت الإحساس بالارتكاس، فتغرق في بحار الظلمات، وَيَذْهَبُ اللهُ بِهَا، ويستخلف من بعدها قومًا آخرين.

ومن الظواهر الخبيثة ظاهرة تمجيد التقليد والاستخفاف بالبراهين؛ حتى افتخر أقوام بأنهم لا يسألون سادتهم وكبراءهم على ما قالوا برهانًا! وترتَّب على سلوك هذه الأنفاق تكاثر الكبراء المستبدين واتساع أوكار النفاق، فضاعت الطاقات والأوقات في خدمة هؤلاء الأكابر الذين يزعمون أنهم يمتلكون صكوك الغفران ومفاتيح الجنان، وعقاب مَنْ يعصيهـم ولم يبذل نفسه وماله في مرضاتهم ومراضاة حواشيهم.

^١ سورة البقرة آية (١١٢-١١١)

- الثاني: نقض دعوى أهل الكتاب في المثوبة والجزاء، فقد ادَّعوا أن الجنة حجر لا يدخلها إلا من تبع ملتهم، وهي دعوى خاوية لا تسندها حجة، فأمر الله تعالى رسوله بمطالبتهم بالبرهان على دعواهم، إن كانوا صادقين؛ ليعلم الناس أجمعون أن اليهود والنصارى كاذبون وضالون مضلون.

الثالث: بيان سنة الله تعالى الثابتة في المثوبة والجزاء الحسن، في قوله تعالى: "بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ". ألا فليعلم الأذعياء والمتقون على الله تعالى أن الجنة إنما أعدت لمن أسلم وجهه لله وهو محسن، ولقد كثر المبطلون وتكاثر الفرق المتنازعة المنتسبة إلى الإسلام.

تبدأ الآية بعرض دعوى اليهود والنصارى: "وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى": "قالوا" فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ.." "لن" لنفي الحدث في المستقبل، والفعل "يَدْخُلُ" في سياق النفي للعموم مخصّص بالمفعول به: "الجنة" وهي المعهودة، "إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى" إلا للحصر، "من" هو الفاعل، وهو موصول يعم، "والهؤود جمع هائد أي متبع اليهودية"^١، والمعنى كما بيّنه الإمام الطبري: "وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا النصارى. ولكن معنى الكلام لما كان مفهوماً عند المخاطبين به، جُمع الفريقان في الخبر عنهما"^٢.

"تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ" النكرة المضافة تعم، والمراد بها خصوص الأمانيّ المفتراة على الله تعالى، "قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ": "قُلْ": أمر للرسول صلى الله عليه وسلم، والفعل في

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/٦٧٣

^٢ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢/٥٠٧

سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"، "هَاتُوا" فعل الأمر للتحدي، وهو في سياق الإثبات مقيّد بقيدتين: الأول: المفعول به: "بُرْهَانَكُمْ"، وبرهان: نكرة مضافة تعمّ، والثاني: الشرط: "إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ".

ثمّ مال على دعواهم وأمانيتهم بالإبطال، وأظهر الحقّ للخلق فقال: "بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"، "بَلَى" حرف جواب لنقض دعواهم وإثبات ما نفوه من دخول غيرهم الجنة. "مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"، هذه هي سنّة الله تعالى الدائمة في التكريم والتنعيم وحسن العاقبة، "من": شرطية من صيغ العموم، "أَسْلَمَ" فعل في سياق الشرط مخصّص بالمفعول به: "وَجْهَهُ": وهو نكرة مضافة تعمّ، وبالجارّ والمجرور: "لِلَّهِ"، وبالحال: "وَهُوَ مُحْسِنٌ"، "أَجْرُهُ": نكرة مضافة تعمّ، له أجره كلّ غير منقوص، "وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ" "خوف" نكرة في سياق النفي تعمّ، "وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" "يحزنون": فعل في سياق النفي يعمّ، فلا حزنَ عليهم أبداً، بل هم في سعادة دائمة ونعيم مقيم.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾^١.

أنى لمن يقضي بلا برهان، ويحكم بلا ميزان أن يقيم ديناً، أو يُصلح دنياً؟ لقد وردت الآية في سياق تثبيت المؤمنين، وبيان سبيلهم، ورفع لوائهم، ودحض ادّعاءات اليهود والنصارى والمشرّكين، وتنكيس رايّتهم، وبيان بغيهم وسفهمهم؛ حتى تستبين سبيل المجرمين للعالمين، وكشفت الآية الغطاء عمّا يجري بين اليهود والنصارى والمشرّكين من التعديّ، والنكران، والتضليل، والجحود، والتكفير، والتسفيه، فكلّ فرقة منهم تدّعي التفرد بالحقّ، وتجرّد غيرها من كلّ صواب. "وانظر كيف ألحق التقليد أهل الكتاب الذين كانوا على علم بالدين الإلهي بالمشرّكين الذين لا يعلمون منه شيئاً؟ هذا ما فعله التقليد بهم، ومن بعدهم؛ لأنه عدوّ للعلم في كل زمان وكل مكان"^٢.

ثمّ أخبرنا الله تعالى بأنه جامعهم يوم القيامة فيحكم بينهم، وفي هذا وعيد شديد، وتهديد لمن يظلم غيره من أيّ ملّة أو أمة كان، فالحقّ أحقّ أن يحترم ويتبع، ولو كان صاحبه عدوّاً كافراً.

"وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ": الفعل "قَالَتِ" في الموضعين: فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: المقول الأول قول اليهود: "لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ"، والمقول الثاني قول النصارى: "وَقَالَتِ

^١ سورة البقرة آية (١١٣)

^٢ رضا، تفسير المنار، مرجع سابق، ج ١/ ٣٥٤

النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ" واليهود والنصارى: لفظان عامّان، "شَيْءٌ": نكرة في سياق النفي تعمّ، "وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ": هذه الجملة الحالية قيد لفعل "قالت.."، وهذه الحال لتوبيخ اليهود والنصارى واستقبح قولهم الفاسد، "يَتْلُونَ الْكِتَابَ" الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "الْكِتَابَ" للعموم العرفي أو المعهود: التوراة والإنجيل.

"كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ": "كَذَلِكَ": الكاف اسم بمعنى مثل، وهو صفة لمفعول مطلق محذوف فُدِمَ على عامله تقديره: قولاً مثل ذلك القول قال الذين لا يعلمون. "قَالَ الَّذِينَ.."، "قال": فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "مِثْلَ قَوْلِهِمْ"، "قولهم": نكرة مضافة تعمّ، "مِثْلَ": منصوبٌ على البدل من موضع الكاف، ويحتمل أن تكون مفعولاً للفعل المضارع: "لَا يَعْلَمُونَ" مِثْلَ قَوْلِهِمْ، فقالوا ما قالوا من عند أنفسهم لا عن تقليد لأهل الكتاب.

"الذين" للعموم، "لَا يَعْلَمُونَ": الفعل في سياق النفي يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول المقدر: لا يعلمون الكتاب من مشرقي قريش وغيرهم، دلّ على ذلك السياق، والكذب على الله تعالى مع العلم وقيام الحجة شيء عظيم، قال الإمام الطبريّ: "وإنما قصد الله جل ثناؤه بقوله: "كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ"، إعلام المؤمنين أن اليهود والنصارى قد أتوا من قيل الباطل، وافتراء الكذب على الله، وجحود نبوة الأنبياء والرسل، وهم أهل كتاب يعلمون أنهم فيما يقولون مبطلون، وبجحودهم ما يجحدون من ملتهم خارجون، وعلى الله مفترون، مثل الذي قاله أهل الجهل بالله وكتبه ورسله، الذين لم يبعث الله لهم رسولا ولا أوحى إليهم كتاباً.

وهذه الآية تنبئ عن أن من أتى شيئاً من معاصي الله على علم منه بنهي الله عنها، فمصيبتة في دينه أعظم من مصيبة من أتى ذلك جاهلاً به؛ لأن الله تعالى ذكره عظم توبيخ اليهود والنصارى بما وبخهم به من أجل أنهم أهل كتاب قالوا ما قالوا من ذلك على علم منهم أنهم مبطلون"^١.

"قَالَ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ": "يَحْكُمُ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بظرف المكان: "بَيْنَهُمْ"، بظرف الزمان: "يَوْمَ الْقِيَامَةِ"، وبالجارّ والمجرور: "فِيمَا" "ما" موصول يعمّ كلّ ما اختلفوا فيه، "فِيهِ يَخْتَلِفُونَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد وبالجارّ بالمجرور المقدّم: "فِيهِ".

قال أبو جعفر: "وأما" القيامة" فهي مصدر من قول القائل: "قمت قياماً وقيامه"، كما يقال: "عدت فلاناً عيادة" و"صنت هذا الأمر صيانة". وإنما عني "بالقيامة" قيام الخلق من قبورهم لربهم. فمعنى "يوم القيامة"، يوم قيام الخلائق من قبورهم لمحشرهم"^٢.

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢ / ٥١٧-٥١٨ بتصرف يسير.

^٢ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢ / ٥١٨ بتصرف يسير.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^١.

من أعظم الشرور التي يمارسها الظالمون الإكراه في الدين والتعدي على شعائر الله تعالى وعلى حرماته، إنها أزمة إنسانية جسيمة، وخطيئة من أخبث الخطايا التي يجب على الأمة الوارثة تخلص الشرية منها وفق سنة دفع الله الناس بعضهم ببعض.

ولقد قضى الله الحكيم القدير أن العاقبة للمتقين، وأن الأرض يرثها عباد الله الصالحون، ومنطوق هذه الآية ذمٌ، ونذيرٌ من نُذر الاستبدال، ووعد للظالمين الذين يمعنون إقامة شعائر الله تعالى في مساجد الله تعالى، ويسعون في خرابها، وفي الآية حثٌ على دفع الظالمين، وتبشير بظهور المؤمنين وتمكينهم في الأرض، ووعد للظالمين بالخزي في الدنيا، والعذاب العظيم في الآخرة.

وأما مفهوم الآية فمدح ووعدٌ وتكريم؛ إذ يدلُّ على أن خيار الناس هم الذين يعمرّون مساجد الله تعالى ويكرّمون عُمارها، وأن الله تعالى مكرمهم وناصرهم في الدنيا، ولا يلحقهم سوء في الآخرة، بل يحسن الله تعالى إليهم، ولم يك أحدٌ حينئذٍ قائماً بهذه المحاسن إلا محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه رضي الله عنهم. وقد علم المسلمون ومن جاورهم في جزيرة العرب كيف منعت قريش رسولنا عليه الصلاة والسلام وأصحابه من ذكر الله تعالى في البيت الحرام، وكيف دّست البيت الحرام بالأصنام والشرك، ومع ذلك يزعم مشركو قريش أنهم ورثة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وأنهم عُمار البيت الحرام! وقد تحقّق وعدُّ الله تعالى للمؤمنين،

^١ سورة البقرة آية (١١٤)

ووعيده للظالمين في العهد الأول. والمدح وحسن العاقبة غير مقصورين على زمن معيّن، وكذلك الذمّ وسوء العاقبة؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص الواقع والوقائع.

وظاهرة المنع من عمارة المساجد، والسعي في خرابها ظاهرة متجدّدة، فاليهود، والنصارى، والوثنيّون، والمجرمون يحاربون مساجد الله تعالى في مشارق الأرض ومغاربها، فالواجب على المؤمنين الصبر والمصابرة والمراطة في مساجد الله تعالى لدفع الظلم وكسر شوكة الظالمين.

وقد انتظمت الآية من أربعة أجزاء محكمة متسقة:

الجزء الأول: قوله تعالى: "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا"، "وَمَنْ": اسم الاستفهام عامّ، والاستفهام للتهويل والاستنكار، "أَظْلَمُ" مقيّد بالجاء والمجرور: "مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ"، "مَنْ": موصول يعمّ، "مَنَعَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به الأول: "مَسَاجِدَ اللَّهِ"، ومساجد نكرة مضافة تعمّ، والمفعول الثاني: وهو المصدر المؤول: "أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ"، وهو مؤول بنكرة مضافة إلى معرفة أي: ذكر الله، فهو يعمّ، ويجوز أن يكون المصدر المؤول بدلاً من مساجد، فيكون مخصّصاً لعموم المساجد، ومفهومه أنه يجوز منع غير ذكر الله كالبيع والشراء واللهو والرقص، "يُذْكَرُ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به (نائب الفاعل) بالجاء والمجرور "فِيهَا"، "وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا": الفعل معطوف على منع، فهو جزء الصلة، فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور في خرابها: وخراب نكرة مضافة تعمّ كل أنواع الخراب الحسّي كالنفجير والتدمير، والخراب المعنوي كاتخاذها لغير ما بُنيت له، والمعنى: لا أحد أظلم ممّن فعل ذلك، وهذه الصيغة قد تكرّرت في

القرآن: "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى"^١، "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ"^٢، "فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ"^٣، وكلّ واحدةٍ منها تقتضي أنّ المذكورَ فيها لا يكونُ أحدُ أظلمَ منه، فكيف يُوصفُ غيرهُ بذلك؟ ومن أقرب الإجابات على هذا: "أَنَّ يُحْصَى كُلُّ وَاحِدٍ بِمَعْنَى صَلَتهُ كَأَنَّهُ قَالَ: لاَ أَحَدَ مِنَ الْمَانِعِينَ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ، وَلاَ أَحَدَ مِنَ الْمَفْتَرِينَ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ، وَلاَ أَحَدَ مِنَ الْكَذَّابِينَ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ، وَكَذَلِكَ مَا جَاءَ مِنْهُ"^٤.

الجزء الثاني: قوله تعالى: "أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ"، "أُولَئِكَ" الظالمون المانعون ذكر الله تعالى في مساجد الله الساعون في خرابها ما يكون لهم أن "يَدْخُلُوهَا" إلا وهم خائفون أن تحل بهم عقوبة أهل الإسلام، الفعل "يَدْخُلُوهَا" في سياق النفي يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالحال: "إِلَّا خَائِفِينَ"، وفيه دلالة على حكم الله تعالى في هؤلاء الظالمين بوجوب دفعهم وإخافتهم، وفيه تبشير بتمكن المؤمنين، قال العلامة ابن كثير: "هذا خبر معناه الطلب، أي لا تُمكنوا هؤلاء -إذا قدّرتم عليهم- من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية.

وقيل: إن هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيُظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد، وأنه يذلّ المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم إلا خائفًا، يخاف أن

^١ سورة الأنعام آية (٢١)

^٢ سورة السجدة آية (٢٢)

^٣ سورة الزمر آية (٣٢)

^٤ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢/١٦-١٧ بتصرف يسير.

يؤخذ فيعاقب أو يقتل إن لم يسلم. وقد أنجز الله هذا الوعد"^١، ولا تعارض بين الطلب والتبشير.

الجزء الثالث: قوله تعالى: "هَمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ"، وهذا يحتمل أن يكون حكمًا شرعيًا مؤكّدًا للجزء السابق، ويحتمل أن يكون وعيدًا وجزاءً قدرًا وسنةً كوتية عاجلة. والتنكير في لفظ "خِزْيٌ" للتهميل. "هَمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ" يؤكّد طلب دفع الظالمين أخزاهم الله تعالى، وعجل بسقوطهم وإذلالهم، ويبشّر بعلوّ المؤمنين، وخزي أعدائهم.

الجزء الرابع: قوله تعالى: "وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ"، "عَذَابٌ" نكرة مقيّدة بالصفة، وهذا وعيدٌ وتهديد.

^١ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ١/٣٨٩ بتصرف يسير.

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ

عَلِيمٌ^١﴾.

من خصائص نصوص القرآن الكريم أنها تكشف الحقائق وتسوق الألفاظ وتزفّ البشريات بألف عبارات، فتفتح أبواب السّعة بعد الضّيق، واليسر بعد العسر، والفرج بعد الشدّة، ومن عادة القرآن ألا يترك المسائل معلّقة ناقصة، بل يوفّيها ما تستحقّه بما يناسب سياقها، وهذه الآية تبين سعة رحمة الله تعالى وعظيم فضله على العباد، وتقدّم العلاج الشافي لما تبقى من المشكلة السابقة: مشكلة منع ذكر الله تعالى في المساجد والسعي في خرابها، فقد عاجلت الآية السابقة جانباً من المشكلة، وبقي جانب آخر يستدعي معالجة عاجلة، وذلك أن المؤمنين المستضعفين الممنوعين من ذكر الله تعالى في المساجد، والمهجّرين من ديارهم بغير حقّ يحزنهم ذلك المنع والحرمان، فعوضهم الله تعالى بأن جعل لهم الأرض كلّها مسجداً.

إن هذه الآية تخبرنا بمنطوقها الصريح بالتوسعة الربّانية على المؤمنين الوارثين في كل عصرٍ ومصرٍ، فإن التهجير والتضييق الذي قد يتعرض له المؤمنون في مساجد الله تعالى مدفوع بهذه التوسعة؛ فأينما تولّوا أيها المؤمنون فثمّ وجه الله تعالى، فأسلموا وجوهكم له واعبدوه مخلصين له الدين. فما أطيب وقع هذه البشارة على قلوب الصالحين، فإن الصلاة قُرة أعين المؤمنين، وما أشدّ إيلامها لقلوب الظالمين. وما أبعد ما بين الفريقين: فريق يعمر الأرض كلّها بذكر الله تعالى، ويسعى في صلاحها، وفريق يمنع مساجد الله تعالى أن يذكر فيها اسمه ويسعى في خرابها، فأَيُّ الفريقين أحقُّ بالأمن والتمكين وحسن العاقبة؟

^١ سورة البقرة آية (١١٥)

"وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ": تقديم شبه الجملة "وَلِلَّهِ" على المبتدأ الذي له حقّ الصدارة يفيد الحصر، ومفهومه أنه ليس لأحدٍ من خلق الله تعالى فيهما نصيب البتة. "الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ" "أل" للاستغراق، "فَأَيُّنَمَا تَوَلَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" "أيّما" ظرفية شرطية تعمّ كلّ المشارق والمغارب ومنها مشارق الأرض ومغاربها، "تَوَلَّوْا": فعل في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بمفعول به مقدّر: وجوهكم، قال الطبري: "فولوا وجوهكم - أيها المؤمنون - نحو وجهي، فإنكم أيّما تولوا وجوهكم فهناك وجهي"^١.

ثمّ ختم الآية بالثناء على الله تعالى بصفتي السعة والعلم؛ ليركن المؤمنون إلى الواسع العليم، "واسع يسع خلقه كلّهم بالكفاية والإفضال والجود والتدبير، عليمٌ بأفعالهم لا يغيب عنه منها شيء ولا يعزب عن علمه"^٢.

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢/٥٣٣.

^٢ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢/٥٣٧ بتصرّف يسير.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ

لَهُ قَانُتُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^١.

تتوالى الآيات في بيان الموبقات التي يقتربها المشركون والمشركات من أهل الكتاب وعبيد الأوثان، فتكشف القناع عن وجوههم المظلمة؛ لتستبين للناس شرورهم، وليعلموا أن هذه الطوائف تتخذ الدين ذريعة للبغي والفساد في الأرض، فهم لا يصلحون لإمامة الناس، وهدايتهم، بل يستحقون الإذلال والاستبدال. ويمضي القرآن الكريم كعادته في عرض الفري ونقضها بأحكام أسلوب، فيبطلها بالبراهين الدامغة، والحجج البالغة، فلا يترك لها أثرًا.

ولما كان معلومًا أن ولد كل والد من جنسه، اكتفى الله -عز وجل- بما وصف؛ لتنزيه نفسه، فإن الله تعالى ليس كمثله شيء، فأئى يكون له ولد؟ وليس في الوجود شيء يدعو إلى القول باتخاذ الله تعالى ولدًا، بل الكون كله، والفطرة، والعقل على نقض هذه الفرية، ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾^٢، فالولد دليل الافتقار المنافي للغنى، والله هو الغني. وسوف أوجز شرح الآيتين في العبارات الآتية:

- "وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا": "قالوا" فعل في سياق الإثبات مقيد بمقول القول: اتَّخَذَ اللَّهُ

وَلَدًا، "اتَّخَذَ": فعل في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: "وَلَدًا"، و"مع كثرة دور هذا التركيب

^١ سورة البقرة آية (١١٧-١١٦)

^٢ سورة يونس آية (٦٩-٦٨)

في القرآن الكريم لم يُذكر معه إلا مفعولٌ واحدٌ: "وَلَدًا"، والوَلَدُ: فَعَلَ بمعنى مَفْعُول كَالْقَبْضِ والنَّقْصِ، وهو غيرُ مقيسٍ^١. والولد نكرة في سياق الإثبات تدلّ على الإطلاق.

وقد اختلف المفسرون في تعيين المفتريين، والسياق يدلّ على أن ضمير الفاعل: "قالوا" عائد على الطوائف الثلاث السابقة؛ لأنهم جميعًا يقولون: "اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا"، فاليهود والنصارى ومشركو العرب متفقون على القول بهذه الفرية.

- "سُبْحَانَهُ": هذه الكلمة الطيبة تفيض بالتقديس والتسبيح والإكرام، فتَوَجَّل من جلالها القلوب، وتقشعر من هيبتها الجلود، ولو لم يذكر ربنا عزَّ وجلَّ غيرها لكانت كافية، ولكن السياق سياق مجادلة ودفع للشبهات، "سُبْحَانَهُ": "سُبْحَانَ": مفعول مطلق ومعناه: التنزيه والإبعاد عن كلِّ عيب ونقص، وهذه الكلمة نكرة مضافة إلى معرفة، فهي تعمّ كلَّ تنزيه فما أجّلها من كلمة تنزيهٍ لله تعالى، وتسفيهٍ للمفتريين.

- "بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ"، "بَلْ": حرف إضراب وانتقال، والجملة الاسمية وصف لله تعالى، فكلّ ما في السماوات والأرض ملك لله تعالى، خاضع له، فعزير، وعيسى كانا عبيدين لله تعالى قانتين له، يأكلان الطعام ويمشيان على الأرض كغيرهم من البشر، فكيف يجعلان إلهين من جنس الأحد الصمد، وأما الملائكة فحقيقتهم أبعد عن علم الناس؛ لأنهم من عالم الغيب الذي لا برهان لهم به، فالقول فيهم محض افتراء واختلاق، "ما": موصول يعمّ ما في "السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"، "أل" للعهد، "كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ": "كلّ" من

^١ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢/١٦-١٧

صيغ العموم، والتنوين تنوين عوض عن محذوف تقديره، أي: كلُّ مَنْ في السموات والأرض،
والقنوت أصله الدوام، ثم استعمل بمعنى الطاعة، وطول القيام، وبمعنى السكوت^١.

- "بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"، وهذا وصف ثانٍ لله تعالى يمنع من نسبة الولد إلى الله تعالى، والبديع والمبدع بمعنى واحد، وهو الإنشاء على غير مثال سابق "أل" للعهد، فقد خلق الله تعالى السموات والأرض قبل وجود من ادّعى لله تعالى ولداً.

- "وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" "إِذَا": الشرط يعمّ، "قَضَى": القضاء هنا هو الكونيّ، والفعل في سياق الشرط يعمّ، وقد خصّص بالمفعول به: "أمرًا": نكرة في سياق الشرط تعمّ، "إنما": للحصر، "يَقُولُ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: "لَهُ"، وبمقوله: "كُنْ فَيَكُونُ"، "كن": الأمر للتكوين. هذا وصف خالص لله تعالى لا يشاركه فيه أحدٌ، فإن كلَّ ما يحار فيه الناظر من عجائب المخلوقات إنما وجودها بأمرٍ من الله تعالى بقوله: "كُنْ". فالبديع الذي يخلق الأشياء على غير مثال سابق، وإذا أراد شيئاً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ لا يمكن أن يكون له ولدٌ.

^١ انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٤/٢٣

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^١.

لقد هوى الجهل والظلم والاستكبار بالذين لا يعلمون إلى الدرك الأسفل من السّفه؛ حتى حملهم على أن يُثْلُوا على الرسل عليهم الصلاة والسلام نوع الآيات؛ ليؤمنوا بالله تعالى! وقد جاء الردّ حاسماً قاطعاً لتطاولهم وعدوانهم، فقال الله تعالى: "قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ"، فلا مبدّل لآيات الله تعالى، ولا اعتبار بالمعرضين الذين لا يوقنون، فلما أعرضوا عن آيات الله تعالى، أعرض الله تعالى عنهم، والجزاء من جنس العمل.

"وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ": "وَقَالَ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بمقوله: "لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ"، "الذين" اسم موصول يعمّ، "لَا يَعْلَمُونَ": الفعل في سياق النفي يعمّ، ونزّل الفعل منزلة اللازم، ويحتمل أن يراد به خصوص مشركي العرب كما رجحه ابن كثير^٢، ونقله أبو السعود عن أكثر المفسرين^٣، وهو أشبه بما ورد في الآية السابقة: "كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِمْ".

"لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ" "لولا": للتحضيض، "يُكَلِّمُنَا": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بمفعوله: "نا" المتكلمين، "أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ": والفعل "تَأْتِينَا" سياق الإثبات مقيّد بمفعوله: "نا" المتكلمين، "آية": نكرة في سياق الإثبات تدلّ على الإطلاق.

^١ سورة البقرة آية (١١٨)

^٢ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ١/ ٤٠٠

^٣ أبو السعود، الإرشاد، مرجع سابق، ج ١/ ١٥٢

"كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ": "كَذَلِكَ": الكاف اسم بمعنى مثل، وهو صفة لمفعول مطلق محذوف قُدِّم على عامله تقديره: قولاً مثل ذلك القول "قَالَ الَّذِينَ.."، "قال": فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "مِثْلَ قَوْلِهِمْ"، "الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ": "الذين" اسم موصول يعمّ الأمم الماضية من اليهود والنصارى وغيرهم، "قولههم": نكرة مضافة تعمّ، "تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ": "تَشَابَهَتْ": فعل لازم في سياق الإثبات يفيد الإطلاق، قلوب نكرة مضافة لمعرفة تعمّ.

"قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُؤْفِكُونَ" "بَيَّنَّا": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "الآيَاتِ": "أل" للعموم، وبالجارّ والمجرور: "لقوم"، "قوم": نكرة في سياق الإثبات مقيدة بالصفة الجملة: "يُؤْفِكُونَ"، "يُؤْفِكُونَ": فعل لازم في سياق الإثبات يفيد الإطلاق، ومنطوق النصّ كما قال العلامة ابن كثير: "قد وضّحنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى، لمن أيقن وصدق واتبع الرسل، وفهم ما جاؤوا به عن الله تبارك وتعالى"^١، وأما مفهومه فالذين لا يوقنون لا ينتفعون بالآيات البينات ولا يهتدون بها.

^١ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ١/ ٤٠٠

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾^١.

ما أسعد من اتبعك يا رسول الله وما أشقى من تولّى عن هداك.

الله ربّ العالمين هو المتفرّد بالخلق والأمر العليم الحكيم يرسل من يشاء بما يشاء،
وليس لأحد أن يشترط أو يقترح على الله تعالى ما ينزل ومن يرسل.

لقد خاطب الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام، وبيّن له حقيقة العمل الموكل إليه،
فقد أرسله الله تعالى بالحقّ الذي لا يأتيه الباطل من يديه ولا من خلفه، فمن اهتدى به فله
البشرى، ولا يضلّ ولا يشقى، ومن أعرض عنه، فإن له معيشة ضنكاً في الدنيا، وعذاباً أليماً
في الآخرة. ثمّ ختم الآية بالإهانة والتهديد والوعيد للجاحدين المستكبرين.

"إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا"، أداة التوكيد المتصلة بضمير المعظم نفسه تدفع
إنكار المنكرين المستكبرين، والفعل "أرسل" في سياق الإثبات للإطلاق، وقد قيّد بالمفعول به
"كاف المخاطب"، وبالجارّ والمجرور "بالحقّ"، والحقّ هو الكامل المبين، وبالحال: "بشيراً
ونذيراً"، فاللفظان قيدان للفعل، ويتضمنان علة الإرسال.

"وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ" الفعل "تُسأل" في سياق النفي يعمّ كلّ سؤال، وهو
مخصّص بالجارّ والمجرور: "عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ"، فلا عتب عليك بضالّهم؛ لأنك قد أقمت
الحجة البالغة عليهم بما تدعو إليه، و"أصحاب": نكرة مضافة تعمّ كلّ الجاحدين والمستكبرين
من المشركين وأهل الكتاب وغيرهم.

^١ سورة البقرة آية (١١٩)

قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾^١.

في هذه الآية هدى عظيم النفع في العاجل والآجل، وأصل من أصول السياسة الشرعية للتعامل مع اليهود والنصارى، والناظر في أحوال المسلمين في هذا العصر يجد شر اليهود والنصارى في الأمة كثيراً مستطيراً، ولو أن المسلمين انتفعوا بما أرشدت إليه هذه الآية وأمثالها، لحافظوا على كثير من مصالحهم، واتقوا شراً كثيراً، فاليهود والنصارى هم اليوم أشرس الناس حرباً على الإسلام والمسلمين، ومن أشدّهم عداوة وإيذاء وخداعاً ومكرّاً، وقد فرّقوا جموع المسلمين، فانتهكوا سيادة كثير من أوطاننا، ونهبوا ثرواتها، واتخذوا كثيراً من المسلمين سِخْرِيّاً، ولا يزال المنافقون والمغفلون يلهثون وراءهم، ويسعون في جلب رضاهم، فلا يزيّدونهم إلا خبلاً.

"وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ" يخاطب الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام أن ليس في صدور اليهود والنصارى محلاً للرضا عنك؛ فلا تنتظر منهم رضا أو مودة، والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام أصالةً ولأتمته تبعاً. وفي هذا البيان قطع للطمع في استئلاف قلوب الجاحدين المعرضين من اليهود والنصارى، وتحذير من اتباعهم والركون إليهم، فلا ينبغي أن نتوقع رضاهم عنا أبداً، فلنحتفظ بجهودنا، ولنأخذ حذرنا منهم؛ لأن أيّ مبادرة منهم ظاهرها الرضا، فإن باطنها الخديعة.

^١ سورة البقرة آية (١٢٠)

"وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ" "لَنْ تَرْضَى": الفعل في سياق "لن" النافية يدلّ على عموم انتفاء جميع أنواع الرضا مستقبلاً، و"الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى" "أَل" فيهما للعموم، وخصّص عموم الفعل "تَرْضَى" بالجارّ والمجرور: "عنك"، وبالغاية: "حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ"، "حَتَّى": حرف غاية، "تَتَّبِعَ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "مِلَّتَهُمْ"، ومِلّة: نكرة مضافة للعموم، ومعنى الغاية في هذا الموضع ما ذكره ابن عاشور: "الكناية عن اليأس من اتباع اليهود والنصارى لشريعة الإسلام يومئذ؛ لأنهم إذا كانوا لا يرضون إلا باتباعه ملتهم، فهم لا يتبعون ملته، ولما كان اتباع النبيء ملتهم مستحيلاً، كان رضاهم عنه كذلك"^١.

"قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُودَ الْهُدَى" "قُلْ" الأمر للوجوب، والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "إِنْ هَدَى اللَّهُ هُودَ الْهُدَى" "هُدَى اللَّهُ" نكرة مضافة للعموم، "الهدى" "أَل" للاستغراق^٢ فهدى الله هو كلّ الهدى، والجملة تفيد الحصر، ومفهوم المخالفة: أن هدى غير الله ليس بهدى.

"وَلَمَّا اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ": "اتَّبَعَتْ" فعل في سياق الشرط يعمّ كلّ أنواع الاتباع، مخصّص بشيئين: الأول: المفعول به: "أَهْوَاءَهُمْ"، أهواء نكرة مضافة تعمّ أهواءهم كلّها، والثاني: الظرف: "بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ" وفيه دلالة على أن الحجة لا تقوم على العباد إلا بعد ورود الرسالة، "الذي" موصول يعمّ جميع ما جاءه من العلم، ويحتمل أن يراد علم خاصّ كما قال الإمام الطبري: "العلم بضلالتهم وكفرهم برهم، ومن بعد الذي اقتضت

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/٦٩٣

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/٦٩٣

عليك من نبئهم في هذه السورة" ^١، "جَاءَكَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: كاف الخطاب، وبالحال التي تعلق به الجارّ والمجرور: "مِنَ الْعِلْمِ"، "العلم" "أل" للعموم.

"مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ" "مِنَ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ": نكرتان مسبوقتان بحرف الجرّ للتنصيص على العموم، فلا ولي لهم مِنَ اللَّهِ ولا نصير البتة، وفي هذا تحذيرٌ شديد من الركون إليهم، وفيه حثٌّ على لزوم البراءة منهم.

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢/٥٦٤

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^١.

جاءت هذه الآية الجامعة؛ لتضم أطراف الحديث في أمرين عظيمين: الشاء على المؤمنين بوصفهم بصفة جامعة للخيرات، وهي تلاوة كتاب الله حق تلاوته، وذم الكافرين بكتاب الله تعالى وهدا، وإنذارهم بالخسران المبين.

وإذا تدبرت سورة البقرة من أولها إلى آخرها فستجدها مقسمة إلى مقاطع متناسقة متماسكة تتصل معانيها، وتمتد بإحكام بديع. وقد ظهر لي توافق عجيب بين قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^٢ وهي الآية الواقعة في مطلع هذا المقطع، وبين قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^٣، وذلك من وجوه:

الأول: صُدِّرت الآيتان بالحديث عن المؤمنين، وخُتمتا بالحديث عن الكافرين.

الثاني: الآية الأولى تنادي الذين آمنوا صراحة، والثانية تتحدث عن الذين آتاهم الله الكتاب، وهم المؤمنون به، والظاهر أنهم كل من آمن بالقرآن الكريم من العرب، واليهود، والنصارى، وغيرهم، وهم صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام، وبهذا يلتئم السياق.

^١ سورة البقرة آية (١٢١)

^٢ سورة البقرة آية (١٠٤)

^٣ سورة البقرة آية (١٢١)

الثالث: الآية الأولى تدعو الذين آمنوا إلى حسن السمع والطاعة، والثانية تُثني على الذين آتاهم الله الكتاب بأنهم قد وقَّوا بما أُمروا به من حسن السماع وحسن الاتباع، فهم يتلون الكتاب حقَّ تلاوته، فيستحقون الإمامة في الدين دون غيرهم.

الرابع: الآية الأولى تبين أن الكافرين لهم عذاب أليم، وتقرّر بأسلوب الإيماء والتنبيه أن علّة ذلك العذاب هو الكفر، والثانية تبين أن الذي يكفر بالكتاب خاسر، وقد دلّ منطوق النصّ على أن من اختار الكفر فهو من الخاسرين.

ولا يزال كثيرٌ من الناس يظنّ أن التلاوة حقّ التلاوة مقصود بها حسن الأداء وتجويد التلاوة، وقد أفضى بهم ذلك إلى التفريط في فهم القرآن الكريم واتباع هدايته، وفاتهم ما لا يحصى من منافع القرآن الكريم وبركاته. وقد فرط كثير من المسلمين في العناية بهذه الطاعة، فهجروا القرآن الكريم إلا قليلاً، وصرفوا جُلَّ عنايتهم إلى ما يُنسي، ويُلهي، ويُطغي. وفي تفسير المنار تكلم العلامة محمد رشيد رضا كلاماً نفيساً في تفسيره الآية، ونقل عن شيخه محمد عبده وأفاد.

"الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ": "الَّذِينَ" موصول يعمّ جميع الذين آتاهم الله تعالى كتابه الكريم القرآن، وهم الذين آمنوا به من العرب، واليهود، والنصارى، وغيرهم، وهم صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام، "آتَيْنَاهُمْ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به الأول: الضمير المتصل، والثاني: "الْكِتَابَ" المعهود، وهو القرآن الكريم.

"يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ" "يَتْلُونَهُ": الفعل في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: الضمير المتصل العائد على الكتاب، وبالنائب عن المفعول المطلق: "حَقَّ"، قال الرازي: "التلاوة لها معنيان: أحدهما: القراءة. والثاني: الاتباع فعلاً؛ لأن من اتبع غيره يقال: تلاه فعلاً، قال الله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا تَلَاهَا﴾^١، فالظاهر أنه يقع عليهما جميعاً، ويصحّ فيهما جميعاً المبالغة؛ لأن التابع لغيره قد يستوفي حق الاتباع فلا يخلّ بشيء منه، وكذلك التالي يستوفي حقّ قراءته فلا يخلّ بما يلزم فيه"^٢. فما أحوجنا إلى أن نتلو القرآن الكريم "حقّ التلاوة"! فما أكثر الذين يتلونهم بالسنتهم! وما أقلّ الذين يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ! "أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ": اسم الإشارة عائد على عام فيعمّ، والفعل في سياق الإثبات مقيد بالجارّ والمجرور: "بِهِ".

"وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ" مَنْ شرطية تعمّ كلّ كافر بكتاب الله تعالى، "فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ" "الْخَاسِرُونَ" "أُل" لكمال الخسران، وتعريف المبتدأ والخبر يفيد الحصر، وضمير الفصل يؤكّد الحصر، والمفهوم: مَنْ لم يكفر بالقرآن الكريم فليس بخاسر.

والله تعالى لا ينظر إلى الصور والأموال، فعن أبي هريرة قال: "قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ" رواه مسلم ح ٤٦٥١.

^١ سورة الشمس آية (٢)

^٢ انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٤/ ٣٠

قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ * وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١﴾.

ينادي الله تبارك وتعالى بني إسرائيل نداء ترغيب وتحذير، وفي الآيتين تأكيد لما سلف التذكير به، وهيئة لهم لاستقبال ما يرد من الهدايا والعبر في قصة إبراهيم عليه السلام، القصة التي تتوالى وقائعها بالحجج البالغة على بني إسرائيل ومن وافقهم من المشركين؛ لعلهم يذكرون. وإبراهيم عليه السلام هو الإمام الذي يلتقي عنده بنو إسرائيل، والنصارى، ومشركو قريش خاصة، وكلهم يدعي اتباع إبراهيم عليه السلام، وفي قصته عليه السلام دفع لافتراءاتهم جميعاً.

وقد اختصهم الله تعالى بندائه بين يدي قصة أبيهم الأكبر؛ لعلهم يقتدون به، ويوفون بالعهد باتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم، ومصدقاً لما معهم؛ ليصطفوا مع الذين يتلون الكتاب حق تلاوته؛ لأنه "لا يليق بمن كرمه ربه، وفضله على غيره من الشعوب بإيتائه الكتاب أن يكون حظُّه منه كحظ الحمار يحمل أسفارا"^٢.

- "يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ" تكرر النداء بهذه الكنية الكريمة فيه جمع بين الترغيب والتقريب، "بَنِي": نكرة مضافة تعمهم جميعاً.

- "اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ": الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "نِعْمَتِي..."، وبما عطف عليها: "وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ"، وبالظرف: "إِذَا" في قوله تعالى: "وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ".

^١ سورة البقرة آية (١٢٢=١٢٣)

^٢ رضا، تفسير المنار، مرجع سابق، ج ١/ ٣٧٠

- "نِعْمَتِي": نكرة مضافة إلى "ياء" المتكلم ذي الجلال والإكرام تعمّ كلّ نعم الله تعالى على بني إسرائيل وغيرهم، وقد حُصّصت بالصفة: "الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ": وقد أسند الفعل إلى "تاء" المتكلم للتوحيد والتعظيم والامتنان، "أَنْعَمْتُ": والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير العائد على الموصول، وبالجارّ والمجرور: "عَلَيْكُمْ".

- "وَأَيُّ فَضَّلْتُكُمْ"، المصدر المؤوّل بمعنى: "تفضيلي لكم" يعمّ كلّ تفضيل، والتفضيل بعض نعمة الله تعالى عليهم، فهو من باب عطف الخاصّ "التفضيل" على العامّ "نعمتي"؛ لبيان عظمة نعمة التفضيل، "فَضَّلْتُكُمْ: الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير العائد على الموصول، وبالجارّ والمجرور: "عَلَى الْعَالَمِينَ"، و"الْعَالَمِينَ": عامّ مراد به الخصوص أي: أهل زمانهم، فلم يبعث الله نبيّاً من بعد يعقوب (إسرائيل) عليه الصلاة والسلام حتى بعثه محمّد عليه الصلاة والسلام إلا من بني إسرائيل، ومحمّد من ذريّة أبيهم إبراهيم عليهم الصلاة والسلام جميعاً، وإنه لشرف لهم لو كانوا يعقلون!

"وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا": الواو عاطفة للأمر: "وَأَتَّقُوا يَوْمًا" على "اذْكُرُوا نِعْمَتِي"، والأمر للوجوب، فهو تكليف بفعلٍ ما يقيهم أهوال ذلك اليوم، وفيه تخويف من تقطّع الأسباب يوم الحساب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "يَوْمًا": مفعول به وليس ظرفاً للتقوى، وهو نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بأوصاف:

الأول: "لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا": والفعل: "تجزّي" في سياق النفي للعموم، وهو مخصّص بالجارّ والمجرور: "عَنْ نَفْسٍ"، وبالمفعول به: "شَيْئًا": والنكرات الثلاث: "نفسٌ،

عن نفسٍ، شيئاً" كلّها في سياق النفي فهي عامّة، والمعنى "لا تقضي نفس عن نفس حقاً لزمها لله جلّ ثناؤه ولا لغيره"^١، ولا أحد يحمل من وزر غيره شيئاً.

الثاني: "وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ" الفعل: "يُقْبَلُ" في سياق النفي للعموم، وهو مخصّص بالجارّ والمجرور: "مِنْهَا"، وأما "عَدْلٌ" فنكرة: في سياق النفي للعموم، والعَدْل بفتح العين الفدية^٢، فلا يقبل منهم فدية!

الثالث: "وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ" الفعل: "تَنْفَعُهَا" في سياق النفي يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: الضمير العائد على "نفس"، "شَفَاعَةٌ": نكرة في سياق النفي عامّة، والشفاعة المنفية هي الشفاعة للكافرين، وفي هذا أبلغ التهديد والوعيد، فلا شافع يشفع لهم؛ لِيُسْقِطَ بوجاهته عنهم ما عليهم.

الرابع: "وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ": الفعل في سياق النفي يعمّ. فلا ناصر لهم يدفع عنهم ما عليهم بالمغالبة.

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢/٣٢

^٢ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢/٣٤

المشروع الإبراهيمي في جزيرة العرب

قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۚ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^١.

يخلق الله تعالى ما يشاء ويختار، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، فيختص بالإمامة من يشاء، وينزعها ممن يشاء، وكل شيء عنده بمقدار.

وقد وردت هذه القصّة في هذا الموطن؛ لتظهر صلة الدعوة الخاتمة بملة أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ لتصل الفرع بالأصل، وتعالج ما تبقى من الدعاوى الباطلة التي اختلقها أهل الكتاب والمشركون من قريش وغيرها. وتثبت أركان الإمامة الخاتمة الهادية للبشريّة كلّها.

إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي وفيّ هو الإمام المجمع على إمامته عند أهل الكتاب، وعند العرب كافّة، وقد امتدّت إمامته وإمامة ذريّته إلى مشارق الأرض ومغاربها، فسكن هو وابنه إسحاق عليهما الصلاة والسلام في الأرض المباركة حيث بنى المسجد الأقصى، ومن هذا الفرع الطيّب جاء جمع من أئمّة الهدى: يعقوب، ويوسف، والأسباط، وموسى، وداوود، وسليمان، وعيسى، عليهم الصلاة والسلام. كما أسكن من ذريّته عليه الصلاة والسلام في أمّ القرى (مكة المكرمة) ابنه الأكبر إسماعيل عليه الصلاة والسلام الذي رفع قواعد المسجد الحرام مع أبيه، وقد قام إسماعيل عليه الصلاة والسلام هو وذريّته بعمارة بيت الله الحرام، ومن هذا الفرع المبارك جاء الإمام الأعظم خاتم المرسلين محمد صلّى الله عليه

^١ سورة البقرة آية (١٢٤)

وسلم، وقد اختار الله تعالى من قصّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ما يتوافق مع مقاصد السّورة؛ ليثبت المؤمنين، ويُقيم الحجة على المبطلين من أهل الكتاب والمشرّكين.

وهذه الآية المباركة تبين أن الإمامة مقام عظيم؛ لما تجلبه من المصالح، وما تدفعه من المفاسد، ولا تنال الإمامة إلا بتوفيق الله تعالى إلى القيام بما شرعه، وطلب الإمامة من الله تعالى للنفس والذرية سنة نبويّة، وقد دلّت الآية بدلالة الإشارة على أنها لا تنال بالوراثة ولا بالنسب المجرد؛ لأنها لو كانت تنال بذلك لما طلبها إبراهيم الصلاة والسلام لذريّته، ولحصل عليها الصالح منهم والظالم، ودلّت الآية بالإيماء والتنبيه على أن الظلم سبب شرعيّ للحرمان من الإمامة. وفي هذا حجة بالغة على أن محمّداً عليه الصلاة والسلام وأصحابه أولى بإبراهيم عليه الصلاة والسلام وأحقّ بالإمامة من جميع الطوائف: اليهود، والنصارى، والمشرّكين؛ لأن هذه الطوائف غارقة في الظلم والظلمات.

قال العلامة ابن عاشور: "وفي الآية تنبيه على أن أهل الكتاب والمشرّكين يومئذ ليسوا جديرين بالإمامة؛ لاتصافهم بأنواع من الظلم كالشرك وتحريف الكتاب وتأويله على حسب شهواتهم والانهماك في المعاصي حتى إذا عرضوا أنفسهم على هذا الوصف علموا انطباقه عليهم. وتعليق الحكم بوصف الظالمين إيماء إلى علة نفى أن ينالهم عهد الله فيفهم من العلة أنه إذا زال وصف الظلم نالهم العهد".^١

"وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا": "وَإِذِ ابْتَلَىٰ" فعل مضارع، والفاعل فيه فعل مقدر: اذكر، "ابْتَلَى": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: إِبْرَاهِيمَ، وبالجارّ والمجرور: "بِكَلِمَاتٍ" النكرة في سياق الإثبات، فهي للإطلاق

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/٧٠٧

مقيّدة بوصف مقدّر بكلمات مخصوصة، أو يقال من المطلق المراد به المقيّد كما يقال في العامّ المراد به الخاصّ، وهو أولى من تقدير وصف، "ابْتَلَاهُ اختبره، وقد فسّر الإمام الطبريّ الكلمات بقوله: "وكان اختبار الله تعالى ذكره إبراهيم، اختباراً بفرائض فرضها عليه، وأمر أمره به"^١.

"فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا": "فَأَتَمَّهُنَّ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، قَالَ: فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا"، جَاعِلُكَ: اسم الفاعل في سياق الإثبات مقيّد بالضمير المضاف إلى عامله، ومحلّه محل المفعول به الأول، وبالجارّ والمجرور: "لِلنَّاسِ" و"أَل" للعموم، وبالمفعول الثاني: إِمَامًا، "قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي" قَالَ: فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "وَمِنْ ذُرِّيَّتِي"، وهو متعلق بفعل مقدّر: "واجعل" و"من" للتبعيض، وذرية: نكرة مضافة تعمّ، "وَالذُّرِّيَّةُ: النَّسْلُ يقع على الذكور والإناث والجمع الذراري"^٢.

"قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ" قَالَ: فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "لَا يَنَالُ..." والفعل في سياق النفي تعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: "الظَّالِمِينَ" صفة صريحة مقترنة ب"أَل" تعمّ، وفيها إيماء وتنبيه على أن الظلم مانع شرعيّ من نيل الإمامة، و"عَهْدِي" نكرة مضافة تعمّ، ولكنّه أريد به الخصوص، ومفهوم المخالفة يدلّ على أن غير الظالمين ينالهم العهد، فيكونون أهلاً للإمامة.

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٣/٧

^٢ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢/١٠٣

وأما إذا استولى الظالم على الحكم فالواجب درء فسادِه بما لا يفضي إلى فسادٍ مثله
أو أكبر، قال القرطبي: "والذي عليه الأكثر من العلماء أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أولى
من الخروج عليه؛ لأن في منازعته والخروج عليه استبدال الأمن بالخوف، وإراقة الدماء،
وانطلاق أيدي السفهاء، وشنّ الغارات على المسلمين، والفساد في الأرض"^١.

أقول: وهذا الأمر ظاهرٌ في الأزمنة التي تكون فيها القوى الظالمة أشدّ قوة، وأكثر
جمعًا، فيتقوى الظالم المحلي، بالظلمة الإقليميين والدوليين، فيفضي الخروج عليهم إلى فساد
عريض.

^١ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج ٢ / ١٠٩

ذكر الله تعالى في الخمس الآيات الآتية أصول المشروع الإبراهيمي في جزيرة العرب، المشروع الذي اختاره الله تعالى؛ ليكون القلب النابض، ومركز الإشعاع، والنواة الصلبة لمشروع قيادة البشرية كافة، فمبنى هذه النواة وهذا المركز على تلك الأصول، وهي:

الأول: بناء المسجد الحرام، وجعله مثابة للناس وأمنًا.

الثاني: تهيئة البلد الأمين لساكنيها وزائريها.

الثالث: وجود الذرية الصالحة التي اجتمعت عليها الأمة المسلمة.

الرابع: الدين القيم وهو الإسلام.

الخامس: بعث الإمام الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة الخاتمة التي أحدثت تغييرًا جمليًا شرعيًا وكونيًا في الحياة كلّها، فقد نال محمدٌ صلى الله عليه وسلم الإمامة العظمى للناس كافة، وفازت أمته باتباعه، ونالت شرف حمل الرسالة من بعده، وخاب كلّ جبارٍ عنيد، وقد ثار الأدعياء الظالمون من اليهود والنصارى، والمشركين، فبادروا لمنازعة الرسول صلى الله عليه وسلم، فمكروا مكربهم، وكادوا كيدهم، وافترؤا على الله تعالى الكذب، وباؤوا بالخسران المبين.

وقد ذكر الله تعالى له أربع وظائف جامعة، وهي:

الأولى: تلاوة الآيات على الناس؛ لوصل الأسماع والقلوب بكلام الله تعالى علام الغيوب.

الثانية: تزكية الأمة: بتطهير النفوس من الخبائث، وتنمية المكارم، وبناء شعب الإيمان والإحسان فيها.

الثالثة: تعليم الكتاب: فقه النصّ أحكامًا وأخبارًا.

الرابع: تعليم الناس الحكمة: تعليم الأمة كيفية تنزيل الأمور منازلها، ويدخل فيه فقه التنزيل على الواقع والاستعداد الحكيم لحوادث المستقبل، ومبناه على فقه سنن الله تعالى الشرعيّة والكونيّة، وفقه الواقع والمتوقع.

وما اختلّ أصلٌ ممّا سبق ذكره إلا اختلّ شيء من هذا النظام والمشروع العالمي الإسلامي وأخلّ بمساره.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى
وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^١.

لقد شرف الله تعالى مكة بما اختصها به من المكارم، وزادها شرفاً بما يقام فيها من الطاعات، وبمن أقام فيها من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، والأوعية الشريفة تزداد شرفاً بما يحل فيها أو يتصل بها من الفضائل. وقد جعل الله تعالى البيت الحرام مثابة للناس في حجهم وعمرتهم وللصلاة فيه، ثم زاده شرفاً بجعله قبلة يصلون إليه.

في الآية إظهار لشرف البيت الحرام في ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام التي وردت الرسالة الخاتمة موافقة لها، وفيها بيان لشيء من مناقب إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بما اختصهما الله تعالى به من عمارة البيت الحرام وتطهيره، وتهيئة للطواف، والاعتكاف، والصلاة.

وفي الآية تركية لدعوة المسلمين، وقطع لما يدعيه المشركون من استقامة على ملة إبراهيم عليه السلام، وإبطال لمحدثاتهم وما يقترفونه من صنائع الجاهلية.

"وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا" عَطْفٌ عَلَى "إِذْ" قَبْلَهَا، جَعَلْنَا: فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به الأول: إِبْرَاهِيمَ، والثاني: "مَثَابَةً" وما عطف عليها: "وَأَمْنًا". "مَثَابَةً" نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالجارّ والمجرور: "لِلنَّاسِ" وأل في الناس للاستغراق والعموم.

فائدة: قال السمين الحلبي: "الأصل في 'مَثَابَةً' مَثَوْبَةٌ، وهل هو مصدرٌ أو اسمٌ مكانٍ قولان؟ وهل الهاء فيه للمبالغة كعَلَامَةٍ ونَسَابَةٍ لكثرة مَنْ يَثُوبُ إليه أي يرجع أو لتأنيث

^١ سورة البقرة آية (١٢٥)

المصدر كمقامة أو لتأنيث البقعة؟ ثلاثة أقوال، وهل معناه من تاب يثوب أي: رجع، أو من الثواب الذي هو الجزاء؟ قولان أظهرهما أولهما، "وَأَمَّا" فيه وجهان، أحدهما: أنه عطف على "مُتَابَةً"، وفيه التأويلات المشهورة: إمّا المبالغة في جعله نفس المصدر، وإمّا على حذف مضاف أي: ذا أمن، وإمّا على وقوع المصدر موقع اسم الفاعل أي: آمناً، على سبيل المجاز كقوله: "حَرَمًا آمِنًا". والثاني: أنه معمولٌ لفعلٍ محذوفٍ تقديره: وإذ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً فاجْعَلُوهُ آمِنًا لا يعتدي فيه أحدٌ على أحد"^١.

"وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى": "وَاتَّخِذُوا": الأمر للنذب إن قلنا إن "مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ" المقام المخصوص، قال ابن كثير: "المراد بالمقام إنما هو الحَجَرُ الذي كان إبراهيم عليه السلام، يقوم عليه"^٢، وعليه جمهور المفسرين^٣، والفعل "وَاتَّخِذُوا" في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ، وبالمفعول به: "مُصَلًّى"، وجملة اتخذوا مقول قول مقدّر.

"وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ"، وَعَهْدُنَا: عهد: أَمْرٌ، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، وَأَنَّ: تفسيرية؛ لأن شرطها أن تسبق بفعل فيه معنى القول لا حروفه، أي: "طَهَّرَا بَيْتِي"، "طَهَّرَا": الأمر ظاهره الوجوب، الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: بَيْتِي، وبالجاء والمجرور: لِلطَّائِفِينَ...، ولم يذكر من أي شيء للدلالة على العموم، فيكون الأمر بالتطهير من كل شيء حسّي ومعنوي يخل بالطهارة، قال العلامة ابن عاشور: "المراد من تطهير البيت ما يدل عليه

^١ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢/١٠٤-١٠٥، بتصرف يسير.

^٢ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ١/٤١٦.

^٣ السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ج ١/٦٥.

^٤ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٣/٣٨.

لفظ التطهير من محسوس بأن يحفظ من القاذورات والأوساخ؛ ليكون المتعبد فيه مقبلا على العبادة دون تكدير، ومن تطهير معنوي، وهو أن يبعد عنه ما لا يليق بالقصد من بنائه من الأصنام والأفعال المنافية للحق كالعدوان والفسوق، والمنافية للمروءة كالطواف عريا دون ثياب الرجال والنساء. وفي هذا تعريض بأن المشركين ليسوا أهلا لعمارة المسجد الحرام؛ لأنهم لم يطهروه مما يجب تطهيره منه"^١. "الطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعَ السُّجُودَ"، "أل" في الصفات الصريحة للعموم، والطواف والعكوف والركوع والسجود حقائق شرعية معروفة.

فائدة: قال السمين الحلبي: "والعُكُوفُ لغة: اللزومُ واللَّبْتُ، يقال: عَكَفَ يَعْكُفُ ويعكِفُ، بالفتح في الماضي والضم والكسر في المضارع، والسجودُ جمع ساجد، وعَطَفَ أحد الوصفين على الآخر في قوله: الطائفين والعاكفين لتباين ما بينهما، ولم يَعْطِفْ إحدى الصفتين على الأخرى في قوله: الرُّكَّعَ السُّجُودَ، لأنَّ المرادَ بهما شيء واحد، وهو الصلاة إذ لو عَطَفَ لَتَوَهَّم أَنَّ كُلَّ واحدٍ منهما عبادة على حياها، وجمَعَ صفتين جمَعَ سلامة وأُخْرَيْنِ جمع تكسيرٍ لأجل المقابلة، وهو نوعٌ من الفصاحة"^٢.

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/٧١٢

^٢ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢/١٠٧-١٠٨، بتصرف يسير.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾^١.

فقه الإمامة والاستدامة ظاهرٌ في قصّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ولقد تأملت مليًا في هذا الفقه الشريف، واطّلت على كثيرٍ ممّا يكتب في الفكر المعاصر في هذا المجال، وقارنتُ، فأدهشني كمال فقه الاستدامة في الإسلام وشموله لمراتب المقاصد الثلاث الضرورية والحاجية والتحسينية، كما أحزنني ما يعاني منه المسلمون من تبعيّة للفكر الوافد المشحون بالضلال المبين. قال ابن عاشور: "ومقصد إبراهيم من دعوته هذه أن تتوفر لأهل مكة أسباب الإقامة فيها فلا تضطّروهم الحاجة إلى سكنى بلد آخر؛ لأنه رجا أن يكونوا دعاة لما بنيت الكعبة لأجله من إقامة التوحيد وخصال الحنيفيّة وهي خصال الكمال"^٢.

والاستدامة من أوسع الكلمات شيوعًا في قاموس التنمية المعاصر، وقد أضحت التنمية المستدامة شعار المرحلة في جميع دول العالم، وكثير من برامجها غدا مفروضًا على الدول المستضعفة فرضًا. وهذا المصطلح من مبتكرات الأمم المتحدة، وقد أفرغ فيه حملته وحماؤه معاني تناقض أصل مفهوم الاستدامة الذي بُني على الموازنة بين سدّ حاجات الناس أجمعين بالعدل والتعاون، والحفاظ على فطرة الأرض (البيئة) بما فيها؛ لتظل قادرة على تلبية

^١ سورة البقرة آية (١٢٦)

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/٧١٦

احتياجات الأجيال القادمة (الذريّة)؛ لأن فلسفة الصراع والتنافس السائدة منذ قرون قد أضرتّ بالبيئة، وأهلك الحرت والنّسل.

ولقد اصطدمت نظرية التنمية المستدامة بواقع الأنظمة المهيمنة التي تعمل على استدامة تفوّق الأقوياء على الشعوب المستضعفة والمستنزفة، وذلك بمضاعفة فرص الأقوياء في استدامة تحلّف الضعفاء؛ لنهب ثرواتهم واتخاذهم سخرىً. وأضحى فؤاد التنمية المستدامة فارغاً.

أما منهج أيننا إبراهيم عليه الصلاة والسلام في العمل بأسباب الاستدامة؛ فإنه يحقّق الاستقامة، ويحفظ الكرامة، ويضمن السلامة، وطيب الإقامة، فانظر كيف استشرف -عليه الصلاة والسلام- المستقبل واعتنى بالاستقرار الاقتصاديّ، والسّياسيّ للبلد الحرام، فلجأ عليه الصلاة والسلام إلى ربّه عزّ وجلّ؛ ليُهيّئ لساكني مكّة أسباب الدوام على الطاعات؛ فلا تتأتّى الاستدامة على كمال الطاعة إلا بطيب الإقامة وسلامة الجماعة. قال العلامة الرازيّ: "المطلوب من الله تعالى هو أن يجعل البلد آمناً كثير الخصب، وهذا مما يتعلق بمنافع الدنيا، فكيف يليق بالرسول المعظم طلبها؟

والجواب عنه من وجوه، أحدها: أن الدنيا إذا طلبت؛ ليتقوى بها على الدين، كان ذلك من أعظم أركان الدين، فإذا كان البلد آمناً وحصل فيه الخصب تفرّغ أهله لطاعة الله تعالى، وإذا كان البلد على ضدّ ذلك كانوا على ضدّ ذلك. وثانيها: أنه تعالى جعله مثابة للناس، والناس إنما يمكنهم الذهاب إليه إذا كانت الطرق آمنة والأقوات هناك رخيصة. وثالثها: لا يبعد أن يكون الأمن والخصب مما يدعو الإنسان إلى الذهاب إلى تلك البلدة،

فحينئذ يشاهد المشاعر المعظمة والمواقف المكرمة، فيكون الأمن والخصب سبب اتصاله في تلك الطاعة"^١.

ولقد أذاق المغامرون شعوبهم لباس الخوف، والجوع، والفقر، والمرض، والدمار؛ لقلّة فقهم بوظائف الإمامة، وسوء إدارتهم لأسباب الاستدامة.

إن الله جلّ جلاله هو مالك الملك، والخير كلّه بيده، يختصّ بفضله ورحمته من يشاء. ومن كان أعلم بالله تعالى كان أحسن رجاء، وأعظم دعاء والتجاء. وها هو الإمام الحكيم عليه أفضل الصلاة والتسليم يدعو ربّه أن يرزق أهل البلد الحرام رزقاً حسناً وسلاماً وأمناً، فما أرشده من فقه استدامة؛ لعمارة الأرض.

وفي الآية تذكير للعرب بمننه ونعمه كما ذكر الله تعالى من قبل بني إسرائيل بنعمه ومننه؛ لعلهم يتذكرون فضله فيشكروه.

"وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ": إذّ ظرف لما مضى من الزمان في محل نصب عطفاً على ما سبق فهو قيد للفعل المقدّر: "ادّكر". "قَالَ" الفعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا" صيغة افعل للدعاء، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بمفعوليه: الأول: هَذَا، والثاني: بَلَدًا، وبلد نكرة مقيّدة بالصفة "آمِنًا".

"وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ" معطوف على اجعل، وصيغة افعل للدعاء، والفعل "ارْزُقْ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: أَهْلَهُ، وأهل نكرة مضافة تعمّ، وبالجارّ والمجرور: "مِنْ"

^١ انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٤/ ٤٨

الثَّمَرَاتِ"، من للتبعيض، والثمرات: "أل" للعموم الاستغراق. "مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ": "مَنْ" اسم موصول عام، وهو بدل من "أهل" بدل بعض من كل، وبدل البعض
مخصص لعموم المبدل منه "أهل". آمَنَ: الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجَزَّ والمجرور الأول:
مِنْهُمْ، والثاني: بِاللَّهِ..

"قَالَ وَمَنْ كَفَرَ": الواو استئنافية، والفعل "قَالَ" في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول:
"وَمَنْ كَفَرَ.."، والاسم الموصول مَنْ يعمّ وهو مبتدأ، كَفَرَ: الفعل في سياق الإثبات منزّل منزلة
اللازم يفيد الإطلاق، والكفر حقيقة شرعية، ويجوز أن يقدر له قيد دلّ عليه السياق أي: كفر
بالله واليوم الآخر، "فَأُمْتِئُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ": الجملة الفعلية
"أُمْتِئُهُ" خبر المبتدأ "مَنْ"، والفاء واقعة في صدر الجملة؛ لأن الاسم الموصول يشبه الشرط في
العموم والإبهام وترتّب ما بعده عليه.

"أُمْتِئُهُ" فعل مضارع في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، ولفظ
"قَلِيلًا"، وقليل: نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ: متاعًا، أو زمانًا قليلًا.

"ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ": "ثُمَّ: للتراخي، والفعل "أَضْطَرُّهُ" في
سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجارّ والمجرور: إِلَى عَذَابِ النَّارِ، وعذاب
نكرة مضافة تعمّ، النَّارِ: المعهود. ومن مقاصد الجملة "اخْتِرَاسٌ مِنْ أَنْ يَغْتَرَّ الْكَافِرُ بِأَنْ تَحْوِيلَهُ
النِّعَمَ فِي الدُّنْيَا يُؤْذِنُ بِرِضَى اللَّهِ فَلِذَلِكَ ذَكَرَ الْعَذَابَ هُنَا"^١. "وَبِئْسَ الْمَصِيرُ": "بِئْسَ" فعل
لازم في سياق الإثبات يفيد الإطلاق، "المصير": فاعل بئس، والمخصوص بالذمّ تقديره: النار.

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/٧١٧

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^١.

"وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"

"وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ": إِذْ "ظرف لما مضى من الزمان في محل نصب عطفاً على ما سبق فهو قيد للفعل المقدّر: "اذْكُرْ". "يَرْفَعُ" الفعل في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: "الْقَوَاعِدَ" "أل" للعموم، وبالحال التي تعلق به الجار والمجرور: "مِنَ الْبَيْتِ"؛ لأن الحال قيد لعاملها وصف لصاحبها، فهي مقيدة للفعل "يَرْفَعُ" ومخصصة للقواعد، والبيت هو البيت العتيق المعهود، والمسجد هو عمود الحياة في الإسلام، ففيه تقام الصلاة عمود الدين.

"رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" "تَقَبَّلْ" صيغة افعّل للدعاء، والفعل في سياق الإثبات مقيد بالجار والمجرور: "مِنَّا"، وبالمفعول المقدّر: أعمالنا (رفع القواعد وغيره). وما أنفع العمل الصالح حين يكون مشفوعاً بالدعاء والتضرّع والاستكانة لربّ العالمين، ومهما عظمت الأعمال الطيبة، فإنها لا تغني شيئاً إن لم يتقبلها الله السميع العليم.

^١ سورة البقرة آية (١٢٩-١٢٧)

"رَبَّنَا، وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَتَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ"، في الآية بيان بأن دين إبراهيم وذريته الإسلام، فقد دعا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالثبات على الإسلام، وفيها الآية بشارة بدخول أهل مكة في الإسلام، وإشارة إلى شرف هذه الذرية الكريمة الوارثة التي يبعث فيها الرسول الخاتم عليه الصلاة والسلام، ويكون لها فضل اتباعه ونصرته، وتنشأ منها خير أمة أخرجت للناس. إن تهئية الوسائل المعينة على استدامة الطاعة واستمرارها، والوقاية من أسباب الانقطاع، سنة من سنن الأنبياء، ومن أعظم هذه الوسائل والأسباب إصلاح الذرية، فهي وسيلة جليلة لإنشاء الأمم المسلمة.

وإذا أراد الدعاة إصلاح الأمة فينبغي عليهم الاجتهاد وإفراغ الوسع في إصلاح ذرياتهم، فإن استجابوا فبفضل الله تعالى ورحمته، وإن أبوا، فقد نصحوا، وأدّوا ما يجب، والله يختص برحمته من يشاء. إنما اللوم على من فرط.

"رَبَّنَا، وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ" "اجْعَلْنَا": صيغة افعل للدعاء، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به الأول: الضمير المتصل، وبالمفعول به الثاني: "مسلمين" ولك متعلق بمسلمين وتقيدته. "وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً": الواو عاطفة لفعل مقدر: "اجعل" وهذا الفعل مقيّد بالمفعول به الثاني الجار والمجرور: "مِنْ ذُرِّيَّتِنَا"، وبالمفعول الأول: "أُمَّةً"، وأمة نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالصفة: مُسْلِمَةً. "مِنْ ذُرِّيَّتِنَا": ذرية نكرة مضافة تعمّ، ومن: بيانية؛ لأن الدعاء بصلاح جميع الذرية هو الأصل، ولا يتعارض مع العلم بوقوع بعضهم في الكفر والظلم، ويجوز أن تكون "من" للتبويض، وذرية نكرة مضافة تعمّ.

"وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا" : أَرِنَا: صيغة افعل للدعاء، والفعل في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به الأول: الضمير المتصل، وبالمفعول به الثاني: "مَنَاسِكَنَا"، ومناسك: نكرة مضافة تعمّ، "وأصل المنسك في كلام العرب: الموضع المعتاد الذي يعتاده الرجل ويألفه، يقال: "فلان منسك"، وذلك إذا كان له موضع يعتاده لخير أو شر. ولذلك سميت "المناسك" "مناسك"؛ لأنها تعتاد، ويتردد إليها بالحج والعمرة، وبالأعمال التي يتقرب بها إلى الله"، "وتُبْ": صيغة افعل للدعاء، والفعل في سياق الإثبات مقيد بالجار والمجرور: عَلَيْنَا".

"إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ": وها أسلوب حصر، مفهومه لا تَوَّاب ولا رحيم غيره، وفي هذا مدح وثناء لله تعالى وحسن توسل بالأسماء الحسنى.

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٣/ ٨٠

"رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" حين تصطبغ القلوب بالربانيّة تفيض إيمانًا وأمنًا على العالمين، لقد عمل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام على تهيئة الأسباب الروحيّة والمادّيّة للتمكين للإسلام، وعَلَّتْ همتُهُما وامتدت؛ لتبلغ الأجيال اللاحقة على مدى القرون المديدة، وقد أجاب الله دعوتَهُما بعد آلاف السنين! وفي ذلك عبرة لكلِّ عَجُول! فقد بعث الله تعالى محمّدًا صَلَّى الله عليه وسلّم؛ لهداية الأُمّة التي أرادها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وغيرها من الأمم إلى قيام الساعة.

"رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ": "ابْعَثْ": صيغة افعل للدعاء، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "فِيهِمْ": وحرف الظرفيّة "في" يدلّ على شدّة المداخلّة والمخالطة والمعاشية، وبالمفعول به "رَسُولًا": هذا للفظ الكريم مقيّد بما بعده من الصفات، وهي:

- الصفة الأولى: أن يكون "منهم" أي: من تلك الذرّيّة الطيبة والأُمّة المسلمة، ومفهومه ألا يكون من غيرهم؛ لأنه أدعى لاستجابتهم، فلسانه لسانهم، ونسبه معلوم، وسيرته معهودة، وخصاله محمودة، وشرفه شرف لهم، فلا تحملهم الحميّة والعصبيّة على معاداته.

- الصفة الثانية: قوله تعالى: "يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ" جملة "يتلو" وما عطف عليها صفة للرسول: رسولًا تاليًا ومعلّمًا ومزكّيًا.

"يَتْلُو": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "عليهم"، وبالمفعول به "آيَاتِكَ"، وآيات نكرة مضافة تعمّ الآيات المنزلة عليه، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ: الفعل في

سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به "الْكِتَابَ"، "أَل" للعهد وهو القرآن الكريم، "وَالْحِكْمَةَ" السُّنَّةُ، فإن سنته عليه الصلاة والسلام هي البيان الأولى للكتاب، "وَيُزَكِّيهِمْ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، فاستجاب الله تعالى دعوتهما ببعث محمد صلى الله عليه وسلم فقام بهذه الوظائف خير قيام، وأنشأ بدعوته خير أمة أخرجت للناس، "إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"، فهو الغالب على أمره، الحكيم في خلقه وأمره، يجعل رسالته في مواضعها.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ^١.

لقد بيّن الله تعالى في هذه القصة المباركة بالحجج البالغة أن الإسلام هو ملّة إبراهيم صَلَّى الله عليه وسلّم، وأن الإسلام هو الدين الذي وصّى به إبراهيمُ بنيه، ويعقوبُ عليهم الصلاة والسلام جميعاً.

فلم تُبقِ الآيات البيّنات ملجأ ولا مغارات ولا مُدخلاً لأحدٍ من اليهود ولا النصارى ولا مشركي العرب الذين يزعمون اتباع إبراهيم عليه السلام، فقد أقامت عليهم الحجّة! ويّسّنت الحجّة، ولم يبقَ على عقول المكابرين والمعاندين إلا غشاوة السّفه! ومن يرغب عن الإسلام إلا السفهاء! فالسّفهاء هم الراغبون عن هذه المِلّة الكريمة، والسّفه هو سبب إعراض مَنْ أعرض عن الإسلام. والسّفه وحده هو الحامل لهم على بثّ الشبهات؛ حتى يقولوا: ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟

"وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ": "مَنْ": اسم استفهام، والاستفهام للإنكار، وهو من صيغ العموم، مبتدأ خبره الجملة الفعلية، والفعل "يَرْغَبْ" في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ"، "إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ" إلا حاصرة؛ لأن الاستفهام فيه معنى النفي، و"من" اسم موصول يعمّ، وهو بدل من الضمير الفاعل في "يرغب"، والفعل "سفه" مقيّد بالمفعول به "نَفْسَهُ"، قال السمين: "استفهام بمعنى الإنكار فهو نفي في المعنى،

^١ سورة البقرة آية (١٣١-١٣٠)

ولذلك جاءت بعده "إلا" التي للإيجاب، "نفسه" المختار أن يكون مفعولاً به؛ لأنَّ ثعلبا والمبرد حكيا أنَّ سَفِه بكسر "الفاء" يتعدَّى بنفسه كما يتعدَّى سَفَّه بفتح الفاء والتشديد، وحكي عن أبي الخطاب أنها لغة^١.

وقال الزمخشري: "سَفِهَ نَفْسَهُ امتهنها واستخفَّ بها وأصل السفه: الخفة"^٢. ونظر الإمام الطبري في لفظ السّفه نظراً مقصدياً بديعاً، فقال: "معنى "السفه"، الجهل فمعنى الكلام: وما يرغب عن ملة إبراهيم الحنيفيّة إلا سفيه جاهل بموضع حظ نفسه فيما ينفعها، ويضرها في معادها"^٣.

"وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ": "اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا" والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، ومقيّد بالجارّ والمجرور: "في الدُّنْيَا"، "الصَّالِحِينَ" صفة محلاة بـ "أل" تعمّ.

"إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ": "إِذْ" ظرف لما مضى من الزمان في محل نصب قيد للفعل المقدّر: "ادّكر". "قَالَ" الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "له"، وبمقول القول: "أَسْلِمَ"، وأَسْلِمَ: فعل أمر للوجوب، وهو فعل منزل منزلة اللازم في سياق الإثبات يفيد الإطلاق ويجوز تقييده بمفعول مقدّر "وجهك"، وجارّ مجرور: لله، "قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ" "قَالَ" الفعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: أَسْلَمْتُ، والفعل "أسلمت" في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "لِرَبِّ الْعَالَمِينَ"، و"أل" للاستغراق، يعم كلّ العوالم.

^١ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢/ ١٢٠

^٢ انظر: الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ج ١/ ١٨٩

^٣ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٣/ ٩٠

"وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ" وَصَّى " الوصية:
 أمرٌ؛ لأن وصية الرسل عليهم السلام تشريع، والفعل في سياق الإثبات مقيد بالجار والمجرور:
 "بِهَا"، وبالمفعول به: "بَنِيهِ"، "بني": نكرة مضافة تعم، "إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ":
 "اصْطَفَى": الفعل في سياق الإثبات مقيد بالجار والمجرور: "لَكُم"، وبالمفعول به: "الدِّينَ"
 الإسلام، "فِي الدُّنْيَا"، وقد أكد هذا الأمر، بما بعده، "فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ"، لا ناهية
 "تَمُوتُنَّ": النهي للتحريم، والفعل في سياق النهي يعم جميع صور الموت، والمقصود النهي عن
 ارتكاب نواقض الإسلام؛ حتى يأتيهم اليقين وهم مسلمون، وإلا حاصرة، وهو استثناء مفرغ
 من عموم الأحوال^١، والواو حالية وما بعدها مخصص لذلك العموم المقدر، والمعنى لا تموتن في
 حال من الأحوال إلا في حال كونكم مسلمين.

^١ انظر الدر المنصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢/ ١٢٧

قال الله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ^١.

يُطْلَعُنَا اللَّهُ عَلَى مَشْهَدٍ جَلِيلٍ، أَلَا وَهُوَ مَشْهَدُ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سَاعَةَ احْتِضَارِهِ، لَقَدْ كَانَتْ السَّاعَةُ الْآخِرَةُ مِنْ حَيَاةِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَامِرَةً بِالدَّعْوَةِ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَتَثْبِيتِ بَنِيهِ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَمَا أَحْسَنَهَا مِنْ خَاتَمَةٍ!

"أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي"، "أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ" أَمْ تَقُولُ بـ بِلْ وَالْهَمْزَةُ، فَهِيَ لِلْإِضْرَابِ الْإِنْتِقَالِي وَتَتَضَمَّنُ الِاسْتِفْهَامَ الْإِنْكَارِيَّ عَلَى الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ كَانَ عَلَى غَيْرِ الْإِسْلَامِ (يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا)، فَاللَّهُ تَعَالَى يَصَوِّرُ لَنَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَشْهَدًا عَظِيمًا مَهِيًّا حِينَ حُضُورِ مَلِكِ الْمَوْتِ لِقَبْضِ رُوحِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لِيُثَبِّتَ لَنَا خَاتَمَةَ أَعْمَالِ يَعْقُوبَ الَّتِي مَاتَ عَلَيْهَا، وَفِي هَذَا أَبْلَغُ الرَّدِّ عَلَى افْتِرَاءَاتِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى^٢.

"إِذْ حَضَرَ": "إِذْ" ظَرْفٌ لِمَا مَضَى مِنَ الزَّمَانِ فِي مَحَلِّ نَصَبِ بِشَهَادَةٍ عَلَى أَنَّهُ ظَرْفٌ، وَالْفِعْلُ "حَضَرَ": فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ مَقِيدٌ بِالْمَفْعُولِ بِهِ: "يَعْقُوبُ"، وَبِالظَّرْفِ: "إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي"، "قَالَ" الْفِعْلُ فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ مَقِيدٌ بِالْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ: "لِبَنِيهِ"، وَبَنِيهِ نَكْرَةٌ مُضَافَةٌ تَعَمُّ جَمِيعَ بَنِيهِ، وَبِمَقُولِ الْقَوْلِ: "مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي"، وَالِاسْتِفْهَامُ لِلْإِثْبَاتِ وَالتَّثْبِيتِ، وَ"مَا" اسْمُ اسْتِفْهَامٍ يَعَمُّ، تَعْبُدُونَ: الْفِعْلُ فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ مَقِيدٌ بِالْمَفْعُولِ بِهِ: مَا

^١ سورة البقرة آية (١٣٤-١٣٣)

^٢ انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٣ / ٩٨

الاستفهامية (مفعول به له صدر الكلام)، وبالجارّ والمجرور: "مَنْ بَعْدِي"، "بَعْدِي": نكرة مضافة تعمّ جميع الأزمنة التي بعده.

"قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ": "قالوا" فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ"، "نَعْبُدُ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "إِلَهَكَ" وردت الإجابة بأسلوب الإطناب ليناسب مقام التطمين والتثبيت، "آبَائِكَ" نكرة مضافة تعمّ جميع الآباء، وخُصّص العموم بالبدل للتفصيل: "إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ"، وَإِنَّمَا أُعِيدَ الْمُضَافُ فِي قَوْلِهِ: وَإِلَهَ آبَائِكَ لِأَنَّ إِعَادَةَ الْمُضَافِ مَعَ الْمَعْطُوفِ عَلَى الْمُضَافِ إِلَيْهِ أَفْصَحُ فِي الْكَلَامِ وَلَيْسَتْ بِوَاجِبَةٍ، وَإِطْلَاقُ الْأَبَاءِ عَلَى مَا شَبَّهَ إِسْمَاعِيلَ وَهُوَ عَمٌّ لِيَعْقُوبَ إِطْلَاقٌ مِنْ بَابِ التَّغْلِيْبِ وَلِأَنَّ الْعَمَّ يَمْتَزِلُ الْأَبَ¹.

وفي هذا التفصيل في التعريف بالله تعالى تطمين لقلب أبيهم بحسن قبولهم لوصيّته ووصيّة آبائه إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق.

وقد أكّدوا حديثهم بالتصريح بالتوحيد "إِلَهًا وَاحِدًا": "إِلَهًا": بدل من إلهك أو حال موطئة أو على الاختصاص والمدح، ثمّ ختموا إقرارهم بالجملة الاسميّة الدّالة على الثبوت، والديموم، والاستقرار: "وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ"، وقد قدّم الجارّ والمجرور: لَهُ على عامله: مُسْلِمُونَ "للحصر، والمفهوم: مسلمون له لا لغيره، وفي هذا الإقرار إرضاء لربّ العالمين، وتطبيب لبال أبيهم؛ لأن هذا الأمر من أعظم ما يُدخل السّرور على قلب أبيهم في تلك الساعة؛ ليفدّ على

¹ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/٧٣٣

ربّه، وهو يحمل شهادة التوحيد التي ربّاهم عليها، وفارقهم عليها، فهذا من أعظم البرّ بالأب المودّع. وفي هذا تعريض باليهود والنصارى العاقين والعاصين بمخالفتهم وصيّة آبائهم وأئمّتهم.

"تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ": "أُمَّةٌ": نكرة مقيّدة بالجملة الواقعة صفة: جملة "قَدْ خَلَتْ" صفة لأمة، أي: صارت إلى الخلاء وهي الأرض التي لا أنيس بها، والمراد به ماتت، "لَهَا مَا كَسَبَتْ": الجملة مستأنفة، وجملة "وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ" معطوفة على سابقتها: "ما" في الجملتين موصول يعمّ، والفعل "كسب" في الموضعين مقيّد بالضمير العائد على الموصول، "وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ" "لا" نافية والفعل تُسْأَلُونَ في سياق النفي يعمّ، "ما" الموصول يعمّ، وهو مخصّص بالجارّ والمجرور: "عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ"، "ما" الموصول يعمّ، "يَعْمَلُونَ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالضمير العائد.

وفي الآية قطع لأمايّي أهل الكتاب ومن شابههم في شفاعة هؤلاء الأسلاف الكرام لمن خالف ملّتهم، نقل العلامة محمّد رشيد عن شيخه محمد عبده "جاءت هذه الآية الكريمة بعد الكلام عن وصية إبراهيم لبنيه وإسماعيل وإسحاق ويعقوب لبنيهم؛ استدراكاً على ما عساه يقع في أذهان ذراري هؤلاء الأنبياء الكرام - عليهم الصلاة والسلام - من أن هذا السلف الذي له عند الله هذه المكانة يشفع لهم، فينجون ويسعدون يوم القيامة بمجرد الانتساب إليهم"^١.

^١ رضا، تفسير المنار، مرجع سابق، ج ١/ ٣٩٤

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^١.

ما أشدَّ كفر اليهود والنصارى وما أخبثَ مكرهم! فلم يكتفوا بمخالفة دين الله تعالى، ومعاداة رسله، بل يأمرّون المسلمين باتباعهم على الكفر والضلال المبين؛ ليهتدوا!

وما زالت تلك دعواهم لنا! الدعوة إلى "اتباع" مناهجهم وأفكارهم وفلسفاتهم؛ لتتقدّم، وتتمدّن، وتحرّر حسب زعمهم الخبيث! بل وجدناهم يفرضونها فرضًا على أمتنا، وقد صغت إليهم أفئدة الذين لا يؤمنون، واقتدت بهم كثيرٌ من النخب المستغربة، فصار بعض أبناء جلدتنا يحاربون دين الله تعالى، ويعملون على إطفاء نوره كاليهود والذين أشركوا.

"وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا": "قالوا" فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "كونوا هُودًا أَوْ نَصَارَى"، ولفظ "كونوا" الأمر للإرشاد والنصح وهو مقيّد بخبره، "تهتدوا": جواب الطلب، والمعنى: قالت اليهود لمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المؤمنين: كونوا هودا تهتدوا؛ وقالت النصارى لهم: كونوا نصارى تهتدوا.

وقد هدانا الله بفضلِهِ ورحمته: "قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا" فأمر الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام بقول هذه الحجة؛ لإبطال دعوى الفريقين: "قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا": "قُلْ" الأمر للوجوب، والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول

^١ سورة البقرة آية (١٣٦-١٣٥)

القول: "بَلْ مَلَّةٌ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا"، ملّة منصوب بفعل مقدّر: بل نتبع ملّة إبراهيم عليه السلام، وهي ملّة الإسلام، حنيفًا: حال، قيد للفعل المقدّر، والحنيف المائل عن كلّ باطل، "وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" فيها تعريض باليهود والنصارى بأنهم مشركون، فأنى لهم هداية غيرهم؟ و"الْمُشْرِكِينَ" صفة صريحة محلاة بـ "أل" تعم.

"قُولُوا آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ": الأمر في قوله تعالى: "قُولُوا آمَنَّا بِاللّهِ..." للوجوب، والفعل "قُولُوا" في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ"، "آمَنَّا": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: بِاللّهِ وَمَا عطف عليه، فأمر الله تعالى محمّدًا عليه الصلاة والسلام وأصحابه بالإيمان بالله تعالى وبما جاءت به جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، فكّلهم على الإسلام.

"وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ...": "ما" في المواطن الأربعة اسم موصول يعمّ، والفعالان: "أُنْزِلَ" مقيدان بالجارّ والمجرور: "إِلَيْنَا" و"إِلَى إِبْرَاهِيمَ..." والأَسْبَاطِ: النَّبِيُّونَ من أبناء يعقوب عليهم السلام، "أل" للاستغراق، قال ابن عاشور: "وَوَاحِدُ الْأَسْبَاطِ سِبْطٌ - بِكَسْرِ السِّينِ وَسُكُونِ الْبَاءِ - وَهُوَ ابْنُ الْإِنِّ أَيْ الْخَفِيدُ"^١، وقيل: وأولاد البنات أيضًا^٢.

"وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ": الفعالان: "أُوتِيَ" مقيدان بنائب الفاعل؛ لأن أصله مفعول به، وبالجارّ والمجرور: "مِنْ رَبِّهِمْ". "لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" "لَا تُفَرِّقُ": لا نافية الفعل في سياق النفي يعمّ، وهو مخصّص بالظرف: "بَيْنَ أَحَدٍ

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/٧٣٢

^٢ الجزري، المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر، المكتبة العلمية - بيروت، ١٩٧٩م، ج ٢/ ٨٤٠

مِنْهُمْ"، و"أَحَدٍ" نكرة في سياق النفي تعمّ وهو مخصص بالجارّ والمجرور: "مِنْهُمْ"، والمعنى نؤمن بالرسول جميعاً بلا تفریق بينهم، "وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" الجملة الاسميّة تدلّ على الثبوت، والدوام، والاستقرار، وقدّم الجارّ والمجرور: "لَهُ" على "مُسْلِمُونَ" للحصر، والمفهوم: مسلمون لله تعالى لا لغيره، وفيها تعريض باليهود والنصارى.

قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾^١.

في الآية الأولى تكريم وتشريف من الله العليّ العظيم لعباده المؤمنين، فقد رفع الله تعالى قدرهم؛ إذ أنزلهم منزلة أئمة الهدى، فمن اقتدى بهداهم فقد اهتدى، ومن تولى عن سبيلهم، فهو في شقاق، والله القويّ العزيز متكفل بدفعه، قال العلامة السعدي: "وقد أنجز الله لرسوله وعده، وسلطه عليهم حتى قتل بعضهم، وسبى بعضهم، وأجلى بعضهم، وشردهم كل مُشرد. ففيه معجزة من معجزات القرآن، وهو الإخبار بالشيء قبل وقوعه، فوقع طبق ما أخبر"^٢. ثمّ دعا الله تعالى المؤمنين إلى لزوم صبغة الله تعالى والثبات على دينه وفطرته.

"فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا"، "فَإِنْ آمَنُوا" إن الشرطية للشكّ وللنادر الوقوع، والفعل "آمَنُوا" في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بالجارّ والمجرور: "بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ"، قال العلامة ابن عاشور: "أعلنوا دينكم، واجهروا بالدعوة إليه، فإن اتبعكم الذين قالوا: "كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى"، فإيمانهم اهتداءً، وجاء الشرط هنا بحرف إن المفيدة للشكّ في حصول شرطها إيذاناً بأن إيمانهم غير مرجو"^٣.

ومعنى لفظ "مثل": نفس الشيء وذاته، كأنه قال: فإن آمنوا بنفس ما آمنتم به، "مَا آمَنْتُمْ بِهِ": الموصول يعمّ، والفعل "آمَنْتُمْ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: بِهِ. "فَقَدِ اهْتَدَوْا": الفعل في سياق الإثبات للإطلاق.

^١ سورة البقرة آية (١٣٨-١٣٧)

^٢ السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ج ١/٦٨

^٣ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١/٧٤٠

"وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ": الفعل "تَوَلَّوْا" في سياق الشرط يعمّ، فَإِنَّمَا: حاصرة، ومفهوم إِنَّمَا: أَنَّهُمْ فِي شِقَاقٍ ومحادّة وتمرّد لا في غير، ومفهوم الشرط: إن لم يتولّوا فليسوا في شِقَاقٍ، وهم منكم لهم ما لكم.

"فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ": الفعل مقيّد بالمفعولين: وهما الضميران المتصلان، "وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"، هذا وعدّ من الله بتمكين نبيه صلى الله عليه وسلم منهم، وقد سلطه عليهم ونصره.

"صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ" انتصاب "صِبْغَةَ اللَّهِ" عَلَى الْإِغْرَاءِ أَي: الزُّمُّوا ذَلِكَ^١، والإغراء أمرٌ، وهو يدلّ على وجوب لزوم صبغة الله تعالى، "صِبْغَةَ اللَّهِ": والإضافة للتعريف والتشريف، ومعناها: ملّة الإسلام. "وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً": مَنْ الاستفهامية تعمّ، والاستفهام يتضمن معنى النفي، فلا أحد أحسن من الله صبغة، "وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ"، مستمرون ثابتون على عبادته، وقدّم الجارّ والمجرور: "لَهُ" على "عَابِدُونَ"؛ للحصر، والمفهوم: عَابِدُونََ لَهِ تَعَالَى لا لغيره، وفيها تعريض باليهود والنصارى.

^١ انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ١/٤٥٠

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ * أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^١.

يُعَلِّمُ الله تعالى عباده المؤمنين الحاجة التي هي أحسن، ومنهج الحاجة في القرآن الكريم مبني على الحق والعدل في التعامل مع الخصوم، والمطالبة بالحجج والبراهين، ونبد الظلم والدعوى الباطلة، قال العلامة السعدي: "الحاجة هي: المجادلة بين اثنين فأكثر، تتعلق بالمسائل الخلافية؛ حتى يكون كلٌّ من الخصمين يريد نصرة قوله، وإبطال قول خصمه، فكل واحد منهما، يجتهد في إقامة الحجة على ذلك، والمطلوب منها أن تكون بالتي هي أحسن، بأقرب طريق يردُّ الضالَّ إلى الحق، ويقيم الحجة على المعاند، فكان أهل الكتاب، يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين، وهذا مجرد دعوى، تفتقر إلى برهان ودليل.

وإنما يحصل التفضيل بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده، وهذه الحالة وصف المؤمنين وحدهم، فتعيّن أنهم أولى بالله من غيرهم؛ لأن الإخلاص هو الطريق إلى الخلاص، فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بالأوصاف الحقيقية التي يسلمها أهل العقول، ولا ينازع فيها إلا كلُّ مكابر جهول، ففي هذه الآية إرشاد لطيف لطريق الحاجة، وأن الأمور مبنية على الجمع بين المتماثلين، والفرق بين المختلفين"^٢.

^١ سورة البقرة آية (١٤١-١٣٩)

^٢ السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ج ١/ ٦٩ بتصرف

"قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ": "قُلْ" الأمر للوجوب، والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أصالة، ولأتمته تبعًا، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ" والاستفهام للإنكار والتوبيخ، "تُحَاجُّونَنَا": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: ضمير المتكلمين، وبالجارّ والمجرور: "فِي اللَّهِ"، والمُحَاجَّةُ فِي اللَّهِ "الجِدَالُ فِي شَأْنِهِ بِدَلَالَةِ الْإِقْتِضَاءِ" أي: نقدر ما لا بدّ منه؛ ليتضح المعنى؛ لأن أهل الكتاب يزعمون أنهم أولى بمرضاة الله وحبّه وقربه، وكذلك هو مقيّد بالجملة الحالية: "وَهُوَ رُبُّنَا وَرَبُّكُمْ" وما عطف عليها، وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ"، ولفظ "أعمال" في الموضعين نكرة مضافة تعمّ، وتقديم الخير: "لنا" على المبتدأ "أعمالنا" يفيد الاختصاص والاهتمام.

"وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ": الواو عاطفة على الجملة الحالية، وقد قدّم الجارّ والمجرور: "لَهُ" على "عَابِدُونَ"؛ للحصر، مفهومه مخلصون له لا لغيره، وفيه دليل على جواز قول: أنا مخلص لله ديني، بريء من كل شرك؛ لأنّ المقام مقام محاجة، ومجادلة، ودعوة إلى التوحيد، ونبذ للشرك، فقوله تعالى: "وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ" مخصّص للنهي عن تزكية النفس في قوله تعالى: "فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى" فالفعل في سياق النهي للعموم، ويمكن القول: إن المنهي عنه التزكية على سبيل المدح والتفاخر أو على سبيل ادعاء العصمة وتبرئة النفس من كلّ ذنب، فلما اختلف المقامان، اختلف الحكم. والله تعالى أعلم.

"أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى"، "أَمْ تَقُولُونَ": "أَمْ" يجوز أن تكون المتصلة والمعادلة بين قوله تعالى: "أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ"، "أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ"، قال السمين: "فالاستفهام عن وقوع أحدٍ

هذين الأمرين: المِحَاجَّةُ في الله أو ادِّعَاءِ على إبراهيمَ وَمَنْ ذُكِرَ معه اليهودية والنصرانية، وهو استفهامٌ إنكارٍ وتوبيخٍ كما تقدّم فإنَّ كِلَا الأمرين باطل^١.

ويجوز أن تكون "أم" منقطعة، والكلام مستأنف، "أم" بمعنى بل والهمزة، وقد حسن العلامة أبو حيان أن تكون أم منقطعة، فقال: "والأحسن أن تكون "أم" في القراءتين معاً: (أم تقولون بالتاء، وأم يقولون بالياء) منقطعة، وكأنه أنكر عليهم مُحَاجَّتَهُم في الله، ونسبة أنبيائه لليهودية والنصرانية، وقد وَقَعَ منهم ما أنكَرَ عليهم، ألا ترى إلى قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾^٢ الآيات، وإذا جعلناها متصلةً كان ذلك غير متضمّن وقوع الجملتين، بل إحداهما، وصار السؤال عن تعيين إحداهما، وليس الأمر كذلك إذ وقعاً معاً^٣.

الفعل "تَقُولُونَ" في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ..." "وَالْأَسْبَاطَ" هم اثنا عشر رجلاً من ولد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام^٤، وسموا بذلك؛ لأنهم أحفاد إسحاق وإبراهيم عليهم السلام أجمعين، و"أل" للعموم، "قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ؟" "قُلْ" فعل الأمر للوجوب؛ لإقامة الحجة عليهم، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ؟"، والاستفهام للإنكار والتوبيخ.

"وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ" "مَنْ" للاستفهام وهو لفظ عام، والاستفهام متضمن معنى النفي، واسم التفضيل مقيّد بالجار والمجرور: "مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ"، وَمَنْ كَتَمَ: مَنْ اسم موصول يعم، "كَتَمَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به:

^١ انظر: السمين، الدر المكنون، مرجع سابق، ج ١٤٦/٢

^٢ سورة آل عمران آية (٦٥)

^٣ أبو حيان، البحر المحيط، مرجع سابق، ج ٦٦٠/١

^٤ انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ١١١/٣

"شَهَادَةٌ"، وشهادة نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالصفة التي تعلق بها الظرف: "عنده"، وبالجارّ والمجرور: مِنْ اللَّهِ، فالظرف والجارّ والمجرور صفتان للشهادة.

"وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ" ما: نافية، وغافل مخصّص بالجارّ والمجرور: "عَمَّا"، وما موصول عامّ، ويصحّ حملها على المصدرية، الفعل "تَعْمَلُونَ" في سياق الإثبات مقيّد بالضمير العائد على الموصول، وفي الآية إبطال لدعاوى اليهود والنصارى وتفنيدها، وفيها وعيد وتهديد.

"تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ"

"تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ": "أُمَّةٌ": نكرة مقيّدة بالجملة الواقعة صفة:

جملة "قَدْ خَلَتْ" صفة لأمة، أي: صارت إلى الخلاء وهي الأرض التي لا أنيس بها، والمرادُ به ماتت، "لَهَا مَا كَسَبَتْ": الجملة مستأنفة، وجملة "وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ" معطوفة على سابقتها:

"ما" في الجملتين موصول يعمّ، والفعل "كسب" في الموضعين مقيّد بالضمير العائد على الموصول، "وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ" "لا" نافية والفعل تُسْأَلُونَ في سياق النفي يعمّ، "ما" الموصول يعمّ، وهو مخصّص بالجارّ والمجرور: "عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ"، "ما" الموصول يعمّ، "يَعْمَلُونَ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالضمير العائد.

وقد أتممت هذا الجزء بفضل الله تعالى في آخر يوم من رمضان (١٤٤٢هـ)، بعد صلاة العصر، في مدينة كوالالمبور حرسها الله تعالى. وقد أتممت تعديله ومراجعته بفضل الله تعالى في آخر يوم من رمضان (١٤٤٦هـ)، بعد صلاة العصر يوم الخميس، في بلاد الحرمين الشريفين في مدينة الرياض حرسها الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين، "رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" رَبَّنَا آتِنَا فِي
الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ"، صلى الله وسلم على محمد وآله
وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

الجزء الثاني

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين، ربّي اشرح لي صدري
ويسّر لي أمري، اللهم علّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علّمتنا وزدنا علماً، وبعد: فقد وقعت الواقعة،
ودارت سنة الاستبدال دورتها؛ لاستكمال تنحية الأئمة الناكثة (اليهود) وإتمام تنصيب الأئمة
الوسط إمامة وشاهدة على الناس أجمعين، ولا بديل لهذه الأئمة، فهي حافظة هذا الدين،
ومحفوظة به إلى يوم الدين، وها هي مؤشرات النصر والتمكين ومبشراتة تتوالى، وتتعالى في
مشارك الأرض ومغارها. وما يجري اليوم في فلسطين من تدافع بين الحقّ والباطل مبشّر بفتح
قريب بإذن الله تعالى.

وكما كان الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فتحاً ووصلاً، فقد كان
تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام فرقاناً بين الوارثين والناكثين، وقد دارت
رحى الواقعة بين جنات المدينة النبوية الشريفة في أخطر ميادين الصراع الحضاري: العقيدة
والتشريع، وخرج المؤمنون من تلك المعركة ظاهرين على عدوّهم، فائزين بما أكرمهم الله تعالى
من الأجر، والعلم، والرفعة، مبشّرين بإتمام النعمة والهدى.

وقد فضّل الله تعالى حادثة تحويل القبلة في إحدى عشرة آية من سورة البقرة؛ لتكون
لنا عبرة، وأسوة في التثبيت، والتمكين، والتحسين، ودفع مكر الماكرين، وكيد الكائدين،
ودحض الشبهات التي ييثرها الأعداء في كلّ عصرٍ ومصرٍ؛ لأن الحرب بين الحقّ والباطل
مستمرة والصراع غير منقطع، ولا تزال الجولات تتجدّد في ميادين التدافع بين أهل الحقّ وأهل
الباطل.

والقصّة عامرة بالمعاني والعظات لمن أراد أن يذكّر أو يدبّر، وسأبيّن بإيجاز -إن شاء الله تعالى- سبب نشوء النزاع (الفتنة، والأزمة، والمشكلة)، وأطرافه، وزمنه، وميدانه، وأدواته، وعاقبته، وسأذكر ما تيسّر من العبر، وكيف يمكن استعمالها في صراعنا مع المغضوب عليهم والضالين.

ولقد أرتني الآيات فصول الصراع وجولاته رأي العين! رأيتها وهي آخذة بمجامع قلوب المؤمنين، فترقى بهم، وتزودهم بأحسن زاد وأقوى عتاد، وعشت متأملًا في تلك الأصول الثابتة والفروع الممدودة، رأيتها تتعقب اليهود الماكرين وأنصارهم، فتلقف ما يافكون. وقد تتبعته السياق ونظرت في ظواهر الآيات ومقاصدها ما استطعت؛ لأصوّر الحادثة من أطرافها؛ لتكون أنموذجًا في منهاج التمكين للحق، وإزهاق الباطل.

وأبشركم أيها المؤمنون الكرام بأن سنّة الله تعالى في الاستبدال والتمكين لا تتخلف، وقد أخذت الحوادث في هذا العصر تترى باسم الله مجراها، وتوالت المؤشرات المبشرة، وخاصة ما نشهده من تحولات في بيت المقدس، وأكناف بيت المقدس، وأقولها موقنًا: إن موعدكم مع النصر قد اقترب، قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^١.

^١ سورة التوبة آية (٥٥)

مباغطة الأعداء وردّ كيد السفهاء قبل وقوعه:

قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^١.

لقد أثار انتزاع الإمامة من الذرية الناكثة (اليهود) وجعلها في الذرية المسلمة الوارثة
حقّد اليهود والنصارى ومن والاهم من المنافقين والمشركين.

وفي هذه الآية إظهار كرامةٍ ونعمةٍ من نعم الكفاية التي وعد الله تعالى بها رسوله عليه
الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^٢، فقد كفى الله تعالى
رسوله عليه الصلاة والسلام شرَّ أولئك السفهاء، فأخبره بشبهة خبيثة سيثيرها السفهاء،
وبصّره بوسيلة درئها، وهذه الشبهة من جنس الشبهات الدائرة في فلك المنازعة والمشاقّة لله
تعالى ولرسوله عليه الصلاة والسلام؛ لأن الطعن في شعيرة من شعائر الإسلام طعنٌ في التشريع
كلّه.

لقد بادروا إلى الكيد وإثارة الفتن، فردّ الله العزيز العليم كيدهم في نحورهم بهذا البيان
الاستباقي. والقرآن الكريم كلام الله العليم الخبير، وهو يعلمنا كيف نستبق الأحداث؛ لننتهياً
لاقتناص الفرص قبل ورودها، وحلّ المشكلات ومعالجة الأخطار قبل وقوعها، ففي هذه الآية
وأمثالها تظهر أصول من علم الاستشراف جليّة:

الأول: تصوير ما سيقع بكشف الحجاب عن حقيقة الحوادث المستقبلّة بتفاصيلها.

^١ سورة البقرة آية (١٤٢)

^٢ سورة البقرة آية (١٣٧-١٣٨)

الثاني: تحديد المشكلة.

الثالث: واختيار الحلّ الأمثل للمشكلة.

زمن تحويل القبلة:

قال العلامة ابن كثير: "وقد جاء في هذا الباب أحاديث كثيرة، وحاصل الأمر أنه قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أُمِرَ باستقبال الصخرة من بيت المقدس، فكان بمكة يُصَلِّي بين الركنين، فتكون بين يديه الكعبة، وهو مستقبل صخرة بيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة تَعَدَّرَ الجمعُ بينهما، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس، قاله ابن عباس والجمهور، والمقصود أن التوجّه إلى بيت المقدس بعد مقدمه صلى الله عليه وسلم المدينة، فاستمرَّ الأمرُ على ذلك بضعة عشرَ شهراً، وكان يكثر الدعاء والابتهال أن يُوجَّه إلى الكعبة، التي هي قبلة إبراهيم عليه السلام، فأجيب إلى ذلك، وأمر بالتوجّه إلى البيت العتيق، فخطب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الناس، وأعلمهم بذلك. وكان أول صلاة صلاها إليها صلاة العصر، كما ورد في الصحيحين"^١.

زمن الإنباء بما سيقوله السفهاء عند تحويل القبلة:

قال الإمام الطبري: "فأعلم الله جل ثناؤه نبيّه صلى الله عليه وسلم، ما اليهود والمنافقون قائلون من القول عند تحويل قبلته وقبلة أصحابه عن الشام إلى المسجد الحرام،

^١ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ١/٤٥٣ بتصرف يسير.

وعلمه ما ينبغي أن يكون من رده عليهم من الجواب. فقال له: إذا قالوا ذلك لك يا محمد، فقل لهم: "الله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم"^١.

"سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا": "سَيَقُولُ" السين للاستقبال، أي: أنهم قائلون ذلك في المستقبل بعد تحويل القبلة، وقد ردّ الله العزيز العليم كيدهم في نحورهم بهذا البيان الاستباقي الصادق، والفعل "سَيَقُولُ" في سياق الإثبات مقيّد بمقوله: "مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا"، ولفظ "السُّفَهَاءُ" عامّ مرادّ به خصوص اليهود والمنافقين^٢ ومن شابههم، وقد سمّاهم بهذا الاسم؛ لأنه يدلّ بدلالة الإيماء والتنبيه على أن علّة قولهم وتساؤلهم هو السُّفَهَاءُ نفسه، وخفة العقل، ولما فيه من توهين وإهانة، "مِنَ النَّاسِ" في محلّ نصبٍ على الحال، وصاحب الحال: "السُّفَهَاءُ"، والعاملُ فيها: "سَيَقُولُ" وهي حالٌ مبيّنة فإنّ السُّفَهَاءَ كما يوصف به الناس يُوصَفُ به غيرهم من الجمادِ والحيوان^٣، ويجوز أن يكون الوصف لنزع ما يدّعون من صفات الاختصاص والتمييز، فهم سفهاء وهم من عامة الناس، و"من" للتبعيض، و"الناس" للعموم.

"مَا وَلَّاهُمْ" اسم الاستفهام يعمّ، ومعنى ولّاهم: صرفهم، والفعل "وَلَّاهُمْ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجارّ والمجرور: "عَنْ قِبَلَتِهِمُ"، ووصفت القبلة بالموصول "الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا"؛ لتمييزها، وهي بيت المقدس، والقبلة: "كُلُّ شَيْءٍ قَابِلٌ لِوَجْهِهِ".

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٣/١٣١

^٢ انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٣/١٢٩

^٣ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢/١٥٠

وإنما هي "فَعْلَة" بمنزلة "الجلسة والقعدة"، من قول القائل: "قابلت فلاناً"، إذا صرْتُ قبَّالته أقابله، فهو لي قبلة وأنا له قبلة"^١.

"قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ": "قُلْ" الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بمقوله: "لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ" "لِلَّهِ" خبر مقدّم لإفادة الحصر، "الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ": هو المبتدأ، "أَل" فيهما للاستغراق، فيشملان: كلّ مشرق ومغرب، ومفهوم الحصر: الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ لله وحده لا لغيره، فهو المتصرّف كيف يشاء، لا معقب لحكمه، والواجب على العباد تلقّي أمر الله تعالى بالتسليم والتعظيم، "يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ": "يَهْدِي" الفعل في سياق الإثبات مقيّد بقيدين، الأول: المفعول به: "مَنْ"، والقيد الثاني: الجارّ والمجرور: "إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ".

"مَنْ يَشَاءُ": اسم موصول يعمّ، والفعل "يَشَاءُ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير العائد على الموصول، "صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" صِرَاطٍ: نكرة مقيّد بالصفة، والصراط هو الحقّ، وبهذا نعلم أن التوجّه شطر المسجد الحرام من التشريع الربّاني الخالص والهداية إلى الصراط المستقيم.

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٣/١٣١ بتصرّف يسير.

تكریم المؤمنین وتبشیرهم وتبصیرهم:

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾^١.

وقد اجتمعت في هذه الآية وسطية المكانة، ووسطية المكان (القبلة)، ووسطية السياق (الورود في وسط سورة البقرة). وفي الوصف بالوسطية تشريف عظيم وتكليف جسيم، فوسطية الأمة وسطية رفعة، وإمامة، وشهادة، وليست بوسطية الوهن والهون التي روج لها في هذا العصر المبطلون والمدهنون الذين بدّلوا مفهوم الوسطية؛ ليتوافق مع مشاريع التبعية، فقد عملوا على تطويع الأمة للاستضعاف، والاستخفاف، والاستنزاف، وزيّنوا لها وسطية القصعة التي لا تردّ يد آكلٍ أثيم أو لئيم، وألغوا مبدأ الولاء والبراء، فسوّوا بين المسلمين والمجرمين، وفتحوا بيوتهم للمغضوب عليهم والضالّين.

والواجب على الأمة الوسط أن تعتصم بحبل الله المتين، وتقيم الدين، وتعمل بأسباب القوة والتمكين، وأن تسعى لتوحيد صفّها وجمع كلمتها؛ لتكون قيّمةً على العالمين، ويكون قولها هو القول الفصل، ورايتها هي العليا كما أراد الله تعالى لها.

وسوف أقسّم تفسير الآية إلى أجزاء:

^١ سورة البقرة آية (١٤٣)

القسم الأول: قول الله تعالى: "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا"، في هذه المطلع المبارك تكريم وتركيب من الله تعالى للأمة يجعلها أمة وسطاً، فقد شرف الله تعالى هذه الأمة وأكرمها بفضيلة الوسطية وما ترتب على هذا الوصف الكريم من تنصيب المسلمين شهداء على الناس أجمعين، قال الإمام الطبري: "كما هديناكم أيها المؤمنون بمحمد عليه الصلاة والسلام وبما جاءكم به من عند الله، كذلك خصصناكم ففضّلناكم على غيركم من أهل الأديان، بأن جعلناكم أمة وسطاً"؛ لتكون أمتكم شاهدة قيّمة على غيرها؛ لأنها خير أمة، وكل الأمم سواها مشهودٌ عليه؛ لأنها الأمة الوحيدة المؤهلة؛ لتعطي كل ذي حق حقه، وتنزل كل شيء منزلته المقدرة شرعاً بلا غلو ولا جفاء، ولا إفراط ولا تفريط، فشريعته شريعة الوسطية.

الفعل "جَعَلَ" بمعنى صَيَّرَ وهو تصيير شرعي أي: وضعناكم في هذا الوضع الشرعي الملازم لكم والمقدّر كالتقدير والتصيير الكوني، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بقيود: بمفعوليه: الأول: كاف المخاطبين، والثاني: "أمة"، ووسط نعت، فهو قيدٌ لأمة، والقيد الثالث: التعليل: "لِتَكُونُوا": اللام للتعليل، شهداء مقيّد بالجاء والمجرور: على الناس، "الناس": "أل" للاستغراق، فهو عامّ، وشهادة أمتنا على الناس أجمعين السابقين واللاحقين، فهم شهداء الله تعالى في الأرض، وشهادته يوم العرض.

ومعنى لفظ: "الْوَسَط" العدل والخيار، قال العلامة الرازي: "أعدل بقاع الشيء وسطه؛ لأن حكمه مع سائر أطرافه على سواء، وعلى اعتدال، والأطراف يتسارع إليها الخلل

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٣/١٣١ بتصرف يسير.

والفساد، والأوسط محمية محوطة، فلما صحّ ذلك في الوسط، صار كأنه عبارة عن المعتدل الذي لا يميل إلى جهة دون جهة"^١.

"وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا": معطوف على التعليل السابق، وفي جعل "الرَّسُولُ": محمد صلى الله عليه وسلم شاهداً علينا تشريف وتكريم للأمة؛ لأنه منها وإمامها الذي هو أرحم بها من نفسها.

القسم الثاني: قول الله تعالى: "وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ": "ما": نافية، الفعل "جَعَلْنَا": قال ابن عاشور: "الْجَعْلُ هُنَا جَعْلُ التَّشْرِيعِ بِدَلِيلٍ أَنَّ مَفْعُولَهُ مِنْ شُؤْنِ التَّعَبُّدِ لَا مِنْ شُؤْنِ الْخَلْقِ وَهُوَ لَفْظُ الْقِبْلَةِ، وَلِذَلِكَ فَفِعْلُ جَعَلَ هُنَا مُتَعَدٍّ إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ؛ لِأَنَّهُ بِمَعْنَى شَرَعْنَا"^٢، وجعل: فعل في سياق النفي مخصّص بالمفعول به القبلة، وأل في "الْقِبْلَةَ" للعهد، وبالتعليل الواقع بعد الحصر: "إِلَّا لِنَعْلَمَ": "إِلَّا" حاصرة، واللام للتعليل، فالنفي والإثبات لحصر العلة فيما ذكر لا في شيء غيره، والفعل "نَعْلَمَ" مقيّد بالمفعول به: "مَنْ يَتَّبِعُ"، والموصول "مَنْ يعمّ"، والفعل "يتبع" مقيّد بالمفعول به: الرَّسُولَ، والرَّسُولُ: "أل" للعهد، وبالجارّ والمجرور: "مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ"، ومَنْ موصول يعمّ، هذا بيان لحكمة تحويل القبلة، وما تعلّق بها من إتمام درء شبهة السفهاء والممترين. "وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا ليعلم رسولي وحزبي وأوليائي مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى

^١ انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٤/٨٤

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/٢٢

عقبيه، فقال جلّ ثناؤه: "إلا لنعلم"، ومعناه: ليعلم رسولي وأوليائي^١. أي: أن التحويل كان وسيلة ليميز الله الخبيث من الطيب، ويستبين للرسول والمؤمنين الأدعياء والمنافقون.

القسم الثالث: "وإن كانت لكبيرةً إلا على الذين هدى الله": "وإن" مخففة من الثقيلة للتوكيد، والمعنى: وإن كانت التحويلة تجاه الكعبة "لكبيرةً" شاقّة ثقيلة شديدة، "إلا على الذين هدى الله": هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مِنَ الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ الْمَحْذُوفِ، إِذِ التَّقْدِيرُ: وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً عَلَى النَّاسِ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ، وَلَا يُقَالُ فِي هَذَا إِنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ مُفَرَّغٌ، لِأَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْهُ نَفْيٌ أَوْ شُبْهَةٌ، إِنَّمَا سَبَقَهُ إِجَابٌ^٢، وأجاز السمين الحلبي أن يكون الاستثناء مفرّغاً، وجاز ذلك وإن كان الكلام مُثَبَّتًا؛ لأنه في قوة المنفي، أي: لا تسهل ولا تحفّ على أحد إلا على الذين هدى الله، فالجارّ والمجرور متعلّق بكبيرة^٣، "الذين" موصول يعمّ، الفعل هدى في سياق الإثبات مقيّد بالعائد على الموصول.

قال العلامة ابن كثير: "وهو صرف التوجّه عن بيت المقدس إلى الكعبة، أي: وإن كان هذا الأمر عظيمًا في النفوس، إلا على الذين هدى الله قلوبهم"^٤.

القسم الرابع: قول الله تعالى: "وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ" خطاب تبشير للمؤمنين، وإغاظة للسفهاء، "مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ": هذا الأسلوب أبلغ في النفي؛ لأنّ السامع المسبوق بكون منفي وتسمى لام الجحود لا تنفي الفعل والحدث فقط بل

^١ انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٣/ ١٥٨

^٢ أبو حيان، البحر المحيط، مرجع سابق، ج ٢/ ٩٨

^٣ انظر: السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ١/ ٣٣١

^٤ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ١/ ٤٥٣ بتصرّف يسير.

تنفي إرادة الفعل، والإرادة هي الباعث على الفعل، "ونفي التهيئة والإرادة للفعل أبلغ من نفي الفعل، إذ لا يلزم من نفي الفعل نفي إرادته"^١.

"وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ" ليُضَيِّعَ: فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "إِيمَانَكُمْ"، وإيمان نكرة مضافة تعمّ الإيمان قولاً وفعلًا وتصديقًا، ويحتمل أن يراد بالإيمان في هذا الموضع خصوص الصلاة^٢؛ لأن الآية وردت في سياق الحديث عن القبلة "وَلَا سَيِّئًا عَلَى الْقَوْلِ بِاعْتِبَارِ دَلَالَةِ الْإِفْتِرَافِ، وَالْخِلَافِ فِيهَا مَعْرُوفٌ فِي الْأُصُولِ"^٣.

"إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ" تقديم الجارّ والمجرور "بالناس" على عامله يفيد الاختصاص، والناس: الصيغة ظاهرها العموم والاستغراق، والسياق يقوي أن يراد بالناس خصوص المؤمنين المصلين، "الرأفة: أعلى معاني الرحمة، وهي عامّة لجميع الخلق في الدنيا، ولبعضهم في الآخرة"^٤.. وهذا التذييل كالتعليل، فكلّ النعم السالفة الذكر ناشئة عن رأفة خاصّة ورحمة خالصة من الله تعالى الرؤوف الرحيم.

فائدة: قال العلامة ابن عاشور: "والوسط اسم للمكان الواقع بين أمكنة تحيط به أو للشيء الواقع بين أشياء محيطة به وليس هو إلى بعضها أقرب منه إلى بعض عرفًا ولما كان الوصول إليه لا يقع إلا بعد اختراق ما يحيط به أخذ فيه معنى الصيانة والعزة، فمن أجل ذلك صار معنى النفاسة والعزة والخيار من لوازم معنى الوسط عرفًا فأطلقوه على الخيار النفيس"^٥.

^١ انظر: السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢/ ١٥٨

^٢ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٣/ ١٧١

^٣ الشنقيطي، الأضواء، مرجع سابق، ج ١/ ٤٦

^٤ انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٣/ ١٥٨

^٥ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/ ١٧

القبلة الناسخة واستقلال الأمة الوارثة عن الأمم الناكثة:

قال الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾^١.

هذه أول آية ناسخة ترد في القرآن الكريم، والنسخ مسلك من مسالك التدرج في بناء الأمة الوسط، وهذه الآية كشقيقتها السابقة تثبت أركان الأمة الوسط، فالقبلة عروة جامعة، ومركز توحيد تهوي إليه قلوب خير البرية، عندها تلتقي الوجوه التي أسلمت أمرها لله رب العالمين، وهي وسيلة فصل تميز الأمم الخبيثة من الطيبة. ولو أنك أرسلت طرفك في تلك المشاهد المهيبة؛ لترى تلك الألوف المؤلفة من المساجد المرفوعة في مشارق الأرض ومغاربها، وقد ولت وجهها شطر المسجد الحرام، ثم أقيت سمعك بقلب شهيد؛ لتسمع تلك المآذن تنادي عباد الرحمن؛ فتهوي إليها أفئدة المؤمنين؛ ليصطفوا تلقاء البيت الحرام صفوفًا لا أحصي لها عددًا، ويقوموا لله قانتين! لو أنك فعلت ذلك، لأدركت منزلة القبلة وأثرها في حياة الأمة الوسط!

^١ سورة البقرة آية (١٤٤)

يُرِينَا اللَّهُ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ فِي مَطْلَعِ هَذِهِ الْآيَةِ الْمُبَارَكَةِ مَقَامَ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُسْتَطَفِّينَ
الْأَخْيَارِ، وَهُوَ يَقْلِبُ وَجْهَهُ الشَّرِيفَ فِي السَّمَاءِ مُفْتَقِرًا إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مُنْتَظِرًا حُكْمَهُ وَأَمْرَهُ
فِي تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ، إِنَّهُ مَقَامُ الْعَبْدِ الَّذِي أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ تَعَالَى مُحْسِنًا، وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا،
وَاتَّخَذَهُ اللَّهُ خَلِيلًا، إِنَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلِهَذَا الْمَطْلَعُ الْجَلِيلُ مَقَاصِدُ،
مِنْهَا:

الأول: أَنْ يَعْلَمَ النَّاسُ أَجْمَعُونَ أَنَّ الرُّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِنَّمَا هُوَ مُبَلِّغٌ عَنْ رَبِّهِ،
وَأَنَّ الَّذِي يَحْكُمُ، فَيَأْمُرُ، وَيَنْهَى، وَيَنْسَخُ وَيُبَدِّلُ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

الثاني: بَيَانُ أَنَّ لِلْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ مَقَاصِدَهَا، وَعِلْلَهَا، وَأَنَّ الْأَحْكَامَ تَتَغَيَّرُ بِتَغْيِيرِ
الْمَقَاصِدِ وَالْعِلَلِ تَغْيِيرًا كَلِّيًّا أَوْ جَزْئِيًّا، وَالْمُتَدَبِّرُ الْفَقِيهَ يَدْرِكُ أَنَّ اسْتِقْبَالَ بَيْتِ الْمَقْدَسِ فِي الصَّلَاةِ
إِنَّمَا شُرِعَ لِتَحْقِيقِ مَقَاصِدٍ مُعْتَبَرَةٍ، مِنْهَا الْإِمْتِثَالُ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادَتِهِ بِمَا شَرَعَ، وَمِنْهَا تَوْحِيدُ
وَجْهَةِ الْمُصَلِّينَ؛ لِيَتَحَقَّقَ رِصٌّ صَفُوفُهُمْ وَانْتِظَامُهَا وَاسْتِقَامَتُهَا وَيُتَّقَى اخْتِلَالُهَا وَاخْتِلَافُهَا الْمَفْضِي
إِلَى اخْتِلَافِ الْقُلُوبِ "لَا تَخْتَلَفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ"، وَمِنْهَا اسْتِثْلَافُ أَهْلِ الْكِتَابِ بِتَقْلِيلِ
الْإِخْتِلَافِ، فَالْتَّشَابَهُ فِي الظَّاهِرِ يَزِيلُ الْوَحْشَةَ، وَيَقْرَّبُ النُّفُوسَ. وَيَدْرِكُ أَنَّ تَوَجُّهَ الرُّسُولِ عَلَيْهِ
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى رَبِّهِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ؛ لِئُولِيهِ قِبْلَةً يَرْضَاهَا مَا كَانَ لِيَكُونَ إِلَّا إِذَا اسْتَجَدَّ مَا
يَرْجَحُ طَلَبَ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ عَنْ بَيْتِ الْمَقْدَسِ، وَصَارَ التَّحْوِيلُ أَكْثَرُ مَصْلَحَةً وَأَدْرَأَ لِلْمَفَاسِدِ.

الثالث: بَيَانُ أَنَّ التَّوْقِيتَ الْأَمْثَلُ لِتَبْدِيلِ الْقِبْلَةِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى؛ لِأَنَّ ثَمَّةَ
مَقَاصِدٍ قَدْ تَخْفَى عَلَى الْبَشَرِ. وَهُوَ مَا ظَهَرَ فِي نَسْخِ الْقِبْلَةِ، فَقَدْ أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَتْلِيَ الْعِبَادَ
بِتَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ؛ لِيَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرُّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ، وَالتَّوْقِيتَ الْأَمْثَلُ لِحَصُولِ هَذَا

المقصد بتمامه لا يعلمه إلا الله تعالى. وقد أظهرت الآية أن الرسول مكث يقلّب وجهه ما شاء الله تعالى منتظرًا ورود الأمر من السماء، ولم يقدم بين يدي ربه؛ لأنه أعلم الناس بحق ربّ السماء والأرض جلّ في علاه.

فما أبرّ ذاك التلّهُف والتشوّف، وما أزكى ذاك الترقّب لما يفيض به الكريم الودود من جميل فضله ورحمته! ثمّ جاء الأمر بالتوجّه شطر المسجد الحرام، وقدم ربّنا سبحانه وتعالى بين يدي هذا الأمر بشارة عامرة بالتكريم والتشريف والاختصاص بما يرضي به رسوله وخليله عليه الصلاة والسلام، ويثلج صدره، ويقرّ عينه، فقال الله تعالى: "فَلَنُؤَلِّينَكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا"، إنّها القبلة المصطفاة للأمة الوسط؛ لما للمسجد الحرام من منزلة عند الله تعالى، ولما فيها من كمال متابعة ملّة أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وكمال الاستقلال عن أهل الكتاب، فلا مشابهة ولا التقاء معهم، ولما لها من قدر عظيم، وأثر كريم في نفوس العرب الذين هم مادّة الإسلام وحملته وحماته، فقد جعله الله تعالى قيامًا لهم، قال العلامة ابن عاشور: "ولما كان الرضى مشعرًا بالمحبة الناشئة عن تعقّل اختيار في هذا المقام لفظ (تَرْضَاهَا) دون "تحبها أو تهواها أو نحوها"؛ فإن مقام النبي صلى الله عليه وسلم يربو عن أن يتعلّق ميله بما ليس بمصلحة راجحة بعد انتهاء المصلحة العارضة لمشروعية استقبال بيت المقدس، ألا ترى أنه لما جاء في جانب قبلتهم بعد أن نسخت جاء بقوله: "وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ" الآية^١.

- "قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ": قدّ للتحقيق، والفعل "نَرَى" مقيّد بالمفعول به: "تَقَلُّبَ وَجْهِكَ" تقلّب نكرة مضافة تعمّ، والتفعّل يدلّ على التكثير؛ لأنّ "التَقَلُّبِ الَّذِي

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢٧/٢ بتصرف يسير

هُوَ مُطَاوِعُ التَّقْلِيْبِ، نَحْوُ: قَطَعْتُهُ فَتَقَطَّعَ، وَمَا طَاوَعَ التَّكْثِيرَ فَفِيهِ التَّكْثِيرُ^١. والمصدر "تَقْلَبَ":
مقيّد بالجارّ والمجرور: "فِي السَّمَاءِ" وفيها بيان لضراعة النبي صلى الله عليه وسلم وشدة التجاءه
إلى ربه عزّ وجلّ؛ ليولّيه قبله يرضاها، وفيه دلالة على جواز تقليب الوجه خارج الصلاة نحو
السماء رَغَبًا وطَمَعًا.

"فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا": في هذا الإطناب تشويق وإسعاد، "فَلَنُوَلِّيَنَّكَ": الفعل في
سياق الإثبات مقيّد بالمفعول الأول: كاف الخطاب، والثاني: قبله، وقبله نكرة في سياق
الإثبات مقيّدة بالصفة: "تَرْضَاهَا"، والفعل ترضى في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به:
بالضمير "ها"، قال العلامة أبو حيان: "جاء الوعد قبل الأمر لفرح النفس بالإجابة، ثم بإنجاز
الوعد، فيتوالى السرور مرتين. ونكر القبلة؛ لأنه لم يجر قبلها ما يقتضي أن تكون معهودة،
فتعرف بالألف واللام. وليس في اللفظ ما يدلّ على أنه كان يطلب باللفظ قبله معينة،
ووصفها بأنها مرضية له لثُقَرَّبَها من التعيين"^٢.

"قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ": ولّ: الأمر للوجوب، واستقبال القبلة شرط
لصحة الصلاة، وهذا الأمر هو الناسخ للحكم السابق بالتوجّه إلى بيت المقدس، وفي سنن
النسائي عن ابن عباس، في قَوْلِهِ تَعَالَى: "مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ
مِثْلَهَا"، وَقَالَ تَعَالَى: "وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ" الْآيَةُ، وَقَالَ تَعَالَى: "يَمْحُو
اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ"، فَأَوَّلُ مَا نُسَخَ مِنَ الْقُرْآنِ الْقِبْلَةُ، قال العلامة الألباني
حسن صحيح. وفعل الأمر "ولّ" يدلّ على الإطلاق، الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول

^١ أبو حيان، البحر المحيط، مرجع سابق، ج ٩٨/٢

^٢ أبو حيان، البحر المحيط، مرجع سابق، ج ٢٢/٢

به: وَجْهَك، من إطلاق الجزء وإرادة الكل، والمفعول الثاني: شَطَرَ (وأجاز السمين إعراب "شَطَرَ" ظرفًا، ورجح كونه مفعولًا^١ وأما ابن عاشور فلا يرى الظرفية)، "شطر" نكرة مضافة تعمّ. والفعل أيضًا مقيّد بحال الصلاة بدلالة الاقتضاء، ويخصّ عموم الصلاة بالسنة صلاة النافلة على الراحلة حيثما اتجهت، وبالقرآن والسنة الصلاة حال الخوف على النفس في القتال.

ومعنى وَلَّى: وَجَّهَ، ومن معاني التولية: التوجيه، والاستقبال، وتكون بمعنى التحويل والصرف: ثم وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ^٢، "شَطَرَ المسجد الحرام"، يعني: ب"الشطر"، النحو والقصد والتلقاء^٣، وشَطَرَ نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ جميع جهات المسجد الحرام، وهل يشمل من كان داخل البيت؟ الظاهر أن من كان داخل البيت أنه متوجّه لشطر منها. ومفهوم المخالفة غير شطر المسجد الحرام لا تولّه وجهك، والمسجد: أل للعهد، والحرام صفة كاشفة للتفحيم، ويجوز أن تكون "أل" للعموم، فتكون الصفة للتخصيص.

"وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ": "وَحَيْثُ مَا" الأظهر كونها شرطية، وشرط كونها كذلك زيادة ماء، و"حيثما" من صيغ العموم عند الأصوليين، "كنتم" فعل في سياق الشرط يعمّ، "فَوَلُّوا" الأمر للوجوب، الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به الأول: وُجُوهَكُمْ، ووجوه نكرة مضافة تعمّ، من إطلاق الجزء وإرادة الكل، والمفعول الثاني: شَطْرَهُ

^١ انظر: السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢ / ١٦١

^٢ انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، مادة: خير، دار صادر - بيروت، ط ١، ج ١٥ / ٤٠٥

^٣ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٣ / ١٧٥

^٤ انظر: السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢ / ١٦٢

(وأجاز السمين إعراب "شَطَرَ" ظرفاً، ورجح كونه مفعولاً^١ وأما ابن عاشور فلا يرى الظرفية)،
"شطره" نكرة مضافة تعمّ.

"وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ": "الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ": الاسم
الموصول "الَّذِينَ" عامّ مراد به الخصوص، وهم "أخبار اليهود وعلماء النصارى، يعلمون أن
التوجّه نحو المسجد الحرام هو الحقُّ"^٢، ولكنهم يكتُمونه حسداً، "أُوتُوا": الفعل في سياق
الإثبات مقيّد بالمفعول به الأول (نائب الفاعل) والثاني: "الْكِتَابَ"، وأل للعهد، "لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ
الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ": "يَعْمَلُونَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بما سدّ مسدّ المفعولين: أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّهِمْ، "وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ" ما: نافية، وغافل مخصّص بالجارّ والمجرور: "عَمَّا"، وما
موصول عامّ، ويصحّ حملها على المصدرية، الفعل "يَعْمَلُونَ" في سياق الإثبات مقيّد بالضمير
العائد على الموصول، وفي هذا التعقيب وعيد وترهيب.

^١ انظر: السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢ / ١٦١

^٢ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٣ / ١٨٣

تثبيت المؤمنين على الحق، والتحذير من أهل الأهواء:

قال الله تعالى: ﴿وَلَعِنَّا آتَيْنَا الَّذِينَ أَوْثَرُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَعِنَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾^١.

إن الله تعالى الذي لا تخفى عليه خافية قد وعد رسوله عليه الصلاة والسلام بكفائته شر أعدائه من أهل الكتاب وغيرهم كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^٢، وهذه الآية مقاصد وثيقة الصلة بمقاصد السياق، فهي آية تحصين وصيانة للأمة، تكشف أهواء الأمم الناكثة، وتدعُ شرورها دُعًا عن سبيل المؤمنين، وتُثبت أقدام الأمة الوارثة، وتحذرها من اتباع سبيل المغضوب عليهم والضالين.

وإني ليحزنني أن تتصور علينا أهواؤهم المحراب! وأن يتبع كثير من أبنا الأمة الوسط أهواء أهل الكتاب؛ فنسام سوء العذاب. ألا ترى ما تفعله أهواء اليهود والنصارى في بلاد المسلمين عاقمة، وما يفعله أهل الأهواء من المنتسبين إلى الإسلام، وإن فيما يجري في اليمن والعراق وسوريا عظام بالغات، وعبرة لأولي الألباب.

وماذا عسى أن يقول المفسر بين يدي هذه الآية، وهو يرى ما يرى؟ أنسألني ما ثم؟ ثم شيء عظيم لا يطاق أن يُروى ولا أن يُطوى! تكاد تخنق العبرات العبارات، لقد كان الانتقال شديد الوطأة على قلبي، فقد عشت بين يدي آية الوسطية وتنصيب الأمة شاهدة على الناس، ثم آية التوجيه تلقاء المسجد الحرام، فقد اكتفتني الأحداث ببهجتها من كل

^١ سورة البقرة آية (١٤٥)

^٢ سورة البقرة آية (١٣٨-١٣٧)

جانب، وكأني مع الصحابة الكرام تغمرني الفرحة بفضل الله وبرحمته! ثم ها أنا ذا أغادر تلك البقعة المباركة.

وإن حال المؤمن وهو يغادر ذلك العهد الكريم والزمن الجميل عائداً إلى واقعنا الأليم أشبه بحال من يصعد في السماء أو تهوي به الريح في مكان سحيق، ها أنا ذا أشاهد كرة الأرض تدور بين يديّ، تحمل فوق ظهرها أمماً تعصف بها أهواء أهل الكتاب، وحُلُفاً منّا ورثوا هذا الكتاب يأخذون عرضَ هذا الأدنى، ويقولون سيغفر لنا!

لقد مزّقت الأهواء أمتنا شرّ ممزّق، وبسطت عليها الأمم أيديها بالسوء من كلّ حذب وصوب، فسيادتنا مسلوبة، وثرواتنا منهوبة.

أرى الأرض بين يديّ ساجدة في فلکها، فيمرّ بي المسجد الحرام ذهاباً وإياباً بجلاله وحوله الطائفون، والركع السجود، قد اتسعت أركانه وارتفع بنيانه -زاده الله شرفاً وعزّاً- تقصده وجوه لا تحصى في نزعها ضعفٌ قد أوْهنتها الأهواء إلا ما رحم ربّي، وأرى المسجد النبويّ بجماله، وفي كنفه الروضة، وبجوارها صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام الشهيد علينا! تُرى بم يشهد علينا! ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾^١، فتدافع الحسرات وتجري العبرات، وإني لأستحيي من الله تعالى أن يرانا على ما نحن عليه، وقد أكرمنا، ومنّ علينا بميراث كتابه وسنة خليله عليه الصلاة والسلام. اللهم توبة نصوحاً، وعزماً لا يحور.

وسوف أجزئ تفسير النصّ إلى أقسام:

^١ سورة النساء آية (٤١)

القسم الأول: قوله تعالى: "وَلَعِنُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ"، إن الله تعالى يُبَيِّنُ رسوله عليه الصلاة والسلام نبأً عظيم؛ فيطلعه على شيء من غيبه المكنون وهذا النبأ مندرج في تلك الكفاية العامة، وله مقاصد، منها:

الأول: الشهادة بكمال آيات الرسالة الخاتمة، وأنه لا مزيد على ما جاء به رسول الله من الآيات البَيِّنَات؛ فقد بلغت آياتها المنتهى في الهداية، وإبطال الباطل، وما يحدد بها إلا كل ختارٍ كفور.

الثاني: الشهادة بأن الرسول عليه الصلاة والسلام قد أقام الحجّة على أهل الكتاب، وقد بلّغهم البلاغ المبين؛ حتى لا يظنّ أحدٌ أن أهل الكتاب إنما أعرضوا عن الإسلام؛ لخلل في بيان الرسول عليه الصلاة والسلام، أو لقصورٍ فيما أنى به من الآيات.

الثالث: ذمّ أهل الكتاب بقساوة القلوب، وبلادة العقول. وإنّك لو أطلقت بصيرتك؛ لتصفح أحوال تلك القلوب التي لو سِقت إليها كل آية بينة ما انتفعت بها، لوجدتها قد أغشيت قِطْعًا من ظلمات الجحود والعناد، والجمود؛ فلا ينفذ إليها نور، ولا تصلها هداية.

الرابع: وقاية الرسول عليه الصلاة والسلام وصحبه الكرام من أسى تأنيب النفس، واتّهامها بالتفريط في بيان الحقّ، فما أكثر ما يُلام الدعاة المصلحون، ويُعذّر المجرمون والظالمون من أهل الكتاب وغيرهم في إعراضهم عن الإسلام، وحرهم عليه. ولا يزال كثير من أبناء جلدتنا وغيرهم يزعمون أن دعاة الإسلام لم يفلحوا في دعوتهم؛ لأنهم بحاجة إلى ترسيخ ثقافة

التسامح لديهم، والاقتراب من أهل الكتاب؛ حتى نستميلهم؛ لأن أهل الكتاب لو عرفوا حقيقة الإسلام، لاتبعوه!

الخامس: صيانة جهود الأمة الوسط من أن تبذل في دعوة من لا تنفعه الذكرى بعد إقامة الحجة، فالواجب على الأمة الحازمة العازمة على التمكين أن تسعى بالتي هي أحسن وأتقن، وأن تمضي قُدُماً في العمل بما شرع لها الله تعالى بلا التفات ولا تردد بعد ورود النص؛ فإن مهامَّ الأمة عظام، فيجب التوجّه فوراً إلى عمارة الأرض بمنهج الله تعالى.

"وَلَمَّا أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ": اجتمع قسم وشرط، والفعل "أَتَيْتَ" في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: "الَّذِينَ"، وبالجارّ والمجرور: "بِكُلِّ آيَةٍ"، "الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ"، "الَّذِينَ": موصول يعمّ، أُوتُوا: الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الْكِتَابَ، وكلّ آية: من صيغ العموم، "مَّا تَبِعُوا" "ما" نافية، والفعل في سياق النفي يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: "قِبْلَتَكَ"، وإضافة "قبلة" إلى الكاف للتعريف والتشريف.

القسم الثاني: قوله تعالى: "وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ"، "وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ": الواو عاطفة للجملة الاسمية على جملة الشرط وجوابه لا على الجواب وحده، "وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ" ما نافية، "بِتَابِعٍ": صفة في سياق النفي تعمّ كل تبعية، وهي مخصصة بالمفعول به: "قِبْلَتَهُمْ"، والجملة الاسمية تدلّ على ثبات الرسول عليه الصلاة والسلام ومن معه واستمراره على قبلته وملّته، ودينه الحقّ، "قبلتهم": نكرة مضافة تعمّ قبله اليهود وقبله النصارى.

وأما قوله تعالى "وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ"، الجملة عطف على سابقتها، ما: "نافية"، "بَعْضُهُمْ" نكرة مضافة تعم، "بِتَابِعٍ": صفة في سياق النفي تعم كل تبعية، وهي مخصصة بالمفعول به: قِبْلَةَ بَعْضٍ"، فيدلّ على استمرار كلّ فريق من اليهود والنصارى على الباطل الذي ورثه مع منابذة غيره؛ لأنّ العداوة والبغضاء بين اليهود والنصارى لا تنقطع، والعداوة والبغضاء بين طوائفهم وفرقهم المختلفة شديدة.

القسم الثالث: قوله تعالى: "وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءُهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ" وأما هذه الخاتمة المباركة، فظاهرها تحذير ووعيد شديد، والخطاب للرسول المعصوم عليه الصلاة والسلام والمراد تحذير أتباعه في كلّ عصرٍ ومصرٍ، قال العلامة ابن عطية: "فإنما المراد من يمكن أن يقع ذلك منه، وخوطف النبي صلى الله عليه وسلم تعظيمًا للأمر"^١. فلما أعلم الله رسوله عليه الصلاة والسلام أن أهل الكتاب لن يتبعوا الحقّ وقبله المسلمين، بقي ثمّ احتمال أن يتبع بعض المسلمين أهواء أهل الكتاب؛ فلذلك ورد التحذير الشديد سدًّا لهذه الثغرة، ومنعًا من حدوث هذه المفسدة.

والعلم الذي جاءنا هو الوحي، وهو الروح والنور، والأهواء ظلمات بعضها فوق بعض، ومن يتبدّل الظلمات بالنور، فهو في ثبور، وإنّه ليتراءى لي هذا التحذير كأنه سور أو حجاب، باطنه فيه الهداية والرحمة، وظاهره من قبله أهواء أهل الكتاب، وما أدراك ما أهواؤهم؟ إنّها أهواء فتاكة مهلكة، ولو نظرت في أحوال أهل الأرض؛ لعلمت أيّ متقلب تتقلب فيه البشريّة؟ وإلى أيّ مكان سحيق تحوي بهم تلك الأهواء؟ ألسنت ترى اليهود، وهم

^١ ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، مرجع سابق، ج ١/ ٢٢٣

شرذمة قليلون، تكاد أهواؤهم تعصف بأهل الأرض، وتحوي بهم إلى الدرك الأسفل من النار إلا من رحم الله تعالى من المؤمنين الثابتين القائمين بأمر الله تعالى.

"وَلَكِنْ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ": اجتمع قسم وشرط، والفعل "اتَّبَعَتْ" فعل في سياق الشرط يعمّ كل أنواع الاتباع، وهو مخصّص بشيئين: الأول: المفعول به: "أَهْوَاءُهُمْ"، "أَهْوَاءُ"، نكرة مضافة تعم، وصيغة الجمع فيه دلالة على اختلاف الأهواء^١، والثاني: الجارّ والمجرور: "مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ"، ولفظ "بعد" نكرة مضافة تعم، وفي هذا المخصّص دلالة على أن الحجة لا تقوم على العباد إلا بعد ورود الرسالة، و"ما" اسم موصول يعمّ، "جَاءَكَ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: كاف الخطاب، وبالجارّ والمجرور: "من العلم" ومن للتبعيض، والعلم: "أل" للعموم، ويجوز أن يكون "من" بيانية، والعلم مراداً به علم خاصّ، قال الإمام الطبري: "العلم بضالّاتهم وكفرهم برهم"^٢.

"الظَّالِمِينَ" صفة صريحة مقترنة ب"أل" تعمّ، ودخول العبد في زمرة الظالمين يرفع عنه عناية الله ويورده المهالك، وفي هذا تحذير شديد من الركون إليهم، وفيه حثٌّ على البراءة منهم.

ومفهوم العلة المستفادة من الإيماء والتنبيه: إذا لم تتبع أهواءهم، بل اتبعت ما جاءك من العلم، فلست من الظالمين.

^١ انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج ٢/ ٩٤

^٢ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢/ ٥٦٤

قيام الحجة على أهل الكتاب واستغناؤنا عن شهادتهم:

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ

لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾^١.

حذرنا الآية السابقة من اتباع أهواء أهل الكتاب، وهذه الآية تكشف لنا الأسلوب الثاني لأهل الكتاب في حريمهم على الإسلام وأهله ألا وهو كتمان الحق؛ لأن إعلان الحق وبيان العلم وأداء الشهادة إلى أهلها فيه قوة ونصرة لصاحب الحق، كما أن كتمان العلم ونشر الأهواء فيه توهين وتضييع للحق وفق السنة الإلهية، فكلما زادت الأهواء وقلّ الحق انحطت الأمة وضعفت، وتمزقت أواصرها، وتفرقت كلمتها، وبسط إليها أعداؤها أيديهم وألستهم بالسوء، فسلبوها ثرواتها، وهتكوا حرمتها، وعاثوا فيها فسادًا. وكلما ظهر الحق وأزهقت الأهواء علّت الأمة وتقدّمت وقويت شوكتها.

ولقد بيّن الله الذي لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء في هذه الآية حال الذين استحفظهم من معرفة كتابه ما تقوم به الحجة على الناس، وجعلهم عليه شهداء، فأنبأنا أنهم يعرفون القبلة، ويعرفون الرسول عليه الصلاة والسلام، وهذه المعرفة نعمة عظيمة تستوجب الشكر، وأمانة جسيمة واجبة الرعاية، لكن أهل الكتاب شاقوا الله ورسوله وكتموا الحق، فقابلوا النعمة بالكفران، والأمانة بالخيانة!

ولقد تفكّرت في جنايتهم على أنفسهم وعلى الناس، وتراءت لي شخوصهم الخبيثة، والشياطين تؤرّهم أژا في مساكنهم، وكنائسهم، وصوامعهم، وبيعهم، وأسواقهم، وهم يصدّون

^١ سورة البقرة آية (١٤٧-١٤٦)

عن الرسالة الخاتمة، ويسوقون أفواج الأمم إلى سواء الجحيم، لقد وقف هؤلاء الفُجَّار من أهل الكتاب حاجزًا يحول بين الناس وبين الحقّ، فأخذوا يتخطّفونهم بكلايب أهوائهم، فأثاروا الشبهات والشبهات منذ عهد النبوة، ولم يقتصروا على إضلال أهل ملّتهم، كلاً، بل أوقدوا نار الحرب على المسلمين بنشر الأهواء، وطَيّ الحقّ وكتمانه، وكلُّها جرائم جسيمة؛ لأنّها تفضي إلى تكثير الفسوق، والخبث، والفساد العريض في الأرض.

إنّ جنابة علماء اليهود والنصارى على أقوامهم خاصّة، وعلى البشريّة عامّة أعظم من أن أصفها في هذا السياق!

قرأت القصّة فما وجدت فيها إلا كلاماً حكيماً وأسلوباً رفيعاً بديعاً، جمع بين قوّة الحجة، ورقّة الموعظة، وحسن المجادلة، فتساءلت لماذا خلت الآيات من الوعيد الشديد والتهديد؟

إنّه منهج التدرّج ومراعاة الواقع، فقد كانت الدعوة في المدينة في بدايتها، والمقصود إبطال الباطل في ذلك الوقت بأقل الخسائر، والخروج بأكبر المصالح، ومنها جمع القلوب على الحقّ، والتأليف والتقريب. ولا يتأتى هذا إلا بمثل هذا الخطاب الحكيم!

أمّا إعادة تنزيل هدايات هذه الآيات على واقعنا، فيستوجب ما يستوجب، ولا تجوز التسوية بين واقعين مختلفين في الحكم.

إنّ الآيات الواردة في "تحويل القبلة" آيات مفصّلة على حادثة معيّنة حديثة عهدٍ بالهجرة؛ إذ كانت الهجرة يومئذ ابنة ستة عشر شهراً (سنة وأربعة أشهر)، وكانت الأُمّة الوسط في بداية انطلاقها، وقد استعمل اليهود وأعوانهم كلّ ما لديهم من أسباب الكيد والمكر

الكُبار؛ للطعن في الإسلام، فبُثُّوا الشبهات والأهواء، وكنتموا الحق؛ ليصدّوا النَّاس عن سبيل الله تعالى. فجاء المقال مناسباً للمقام، أما واقعنا فبينه وبين الهجرة أكثر من: ١٤٤٢ عامًا، فإذا أراد الفقيه المتدبّر إعادة تنزيل الآيات التي يفسّرها، تراحت عليه نصوص القرآن والسنة مطالبة بحققها في إعطاء النازلة ما تستحقّه من الأحكام.

والذي يتدبّر القرآن الكريم، ويريد إعادة تنزيل هداية الآيات على وقائع عصره يجب عليه أن يكون بصيرًا بفقه التنزيل، فلا يحفو ولا يغلو.

وفي هذا العصر اشتدّ سُعارُ الأعداء ففرضوا علينا اتباع أهوائهم، وكنتموا الحقّ بكلّ وسيلة خسنة وناعمة، وكاد طوفان الأهواء يبتلع الأرض، وأضحت برامج نشر الأهواء وكنتمان الحقّ مدجّجة بالأسلحة الفتاكة، عابرة للقارات بأحدث الوسائل، ترعاها الدول الظالمة والمنظمات الدوليّة التابعة لمعسكر الباطل من أهل الكتاب والمشرّكين ومن تابعهم. وقد تذرّعوا بذرائع كثيرة كمحاربة التطرّف وحفظ حقوق الإنسان؛ ليأكلوا حقوق المستضعفين، وهذه موازينهم الجائرة تنحاز في كلّ حادثة ضدّ المسلمين. وفي نظام الفيتو شاهد ودليل!

وقد تنوّعت الذرائع المتوسّلة بها إلى كنتمان للحقّ إلى أنواع كثيرة، منها:

الأول: كنتمان الحقّ بحجبه وإخفائه عن الناس كما يفعل علماء اليهود والنصارى. والترويج لأباطيل قديمة أو حديثة. فيمنع تدريس العلوم الإسلاميّة، ويستعاض عنها بفنون أخرى.

الثاني: الكتمان بشغل حَمَلَة الحقّ عن بيان الحقّ بصرفهم إلى معارك ضررها أكثر من نفعها كاختلاق النزاعات، وإيقاد نار الخلافات القديمة، ودعم من يخوض فيها، والتحريش بين الدعاة وإشغال بعضهم ببعض؛ حتى لا يجدوا وقتاً لبيان الحقّ.

الثالث: الكتمان بالصدّ عن بيان الحقّ بالقوّة: كعزل العلماء والدعاة الناصحين عن المنابر ووسائل البلاغ، ومنعهم من الصدع بالحقّ أو تغييبهم في ظلمات السجون.

وهاتان الآيتان متكاملتان، الآية الأولى تبين أن أهل الكتاب كتموا الحقّ، وهم يعلمون، والآية الثانية تبين أن الحقّ الذي أنزله الله تعالى على رسوله كاملٌ ظاهر بنفسه، لا مرية في ذلك، ولن يضرّ المسلمين كتمان أهل الكتاب، وهاك بعض أدلة للآيتين:

القسم الأول: "الَّذِينَ اتَّيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ": "الَّذِينَ" اسم موصول عامّ، الفعل "اتَّيْنَاهُمْ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به الأول: ضمير الغائبين، وبالمفعول الثاني: "الْكِتَابَ"، و"أَل" للعهد والمقصود التوراة والإنجيل، "يَعْرِفُونَهُ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بقيدين: الأول: المفعول به: ضمير الغائب، ويحتمل أن يعود على وعلى القبلّة^١، الحق المفهوم من السياق^٢، وعلى الرسول صلى الله عليه وسلم، والقيد الثاني: الجارّ والمجرور: "كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ"، "كَمَا": الكاف حرف جرّ، و"ما" مصدرية، والمصدر المنسبك يعمّ، أي: كمعرفتهم، "يَعْرِفُونَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "أَبْنَاءَهُمْ"، وأبْنَاء نكرة مضافة تعمّ.

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٣/ ١٨٧

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/ ٣٩-٤٠

القسم الثاني: "وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ"، "فَرِيقًا مِنْهُمْ": فَرِيقًا نكرة في سياق الإثبات تدلّ على الإطلاق، وقد قُيدت بالجَار والمجرور، والمراد علماؤهم، قال السعدي: "فالعلم عليه إظهار الحق، وتبيينه وتزيينه، بكل ما يقدر عليه من عبارة وبرهان ومثال، وغير ذلك، وإبطال الباطل وتمييزه عن الحق، وتشيينه، وتقبيحه للنفوس، بكل طريق مؤد لذلك، فهؤلاء الكاتمون، عكسوا الأمر، فانعكست أحوالهم".^١

لَيَكْتُمُونَ: فعل في سياق الإثبات مقيّد بقيدين: الأول: المفعول به: الْحَقَّ، والفعل المضارع يدلّ على التجدد والاستمرار في الكتمان، و"الْحَقَّ" "أل" للعهد، وهو يحتمل أن يراد به: القبلية، والرسول، والملة، والقيّد الثاني: الجملة الحالية: "وَهُمْ يَعْلَمُونَ"، الواو الحالية، "يَعْلَمُونَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: والكتمان مع العلم أشدّ قُبْحًا وإثماً وظلماً.

القسم الثالث: "الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُكْتَئِبِينَ": "الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ"، يحتمل أن يكون خبر لمبتدأ مقدّر: هذا الحق من ربك، و"أل" للكمال، فهو الحق الكامل الظاهر، فلا يضركم كتمان أهل الكتاب، أو "أنه مبتدأ وخبره الجار والمجرور بعده، وفي الألف واللام حينئذ وجهان، أحدهما: أن تكون للعهد، والإشارة إلى الحق الذي عليه الرسول عليه السلام أو إلى الحق الذي في قوله: "يكتُمون الحق" أي: هذا الذي يكتُمونه هو الحق من ربك، وأن تكون للجنس على معنى الحق من الله لا من غيره".^٢ "فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُكْتَئِبِينَ" النهي للتحريم، والفعل في سياق النهي للعموم، وهو مخصص بخبره، "الْمُكْتَئِبِينَ": صفة صريحة محلاة

^١ السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ج ١ / ٧٢

^٢ انظر: السمين، الدر المكنون، مرجع سابق، ج ٢ / ١٧٠

ب"أل" تعم؛ لأن الحق الذي جاءك من ربك تام كامل لا مربة في ذلك، وفي هذا تحذير شديد من الوقوع في شرك أعدائهم من أهل الكتاب، لكننا فرطنا، فاتبع كثير من أبناء جلدتنا أهل الكتاب، فضلوا وأضلوا.

استباق الخيرات أحسن المسالك لارتقاء المعالي واتقاء المهالك

قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^١.

لقد وجه الله تعالى هذه الأمة شطر المسجد الحرام برحمته وحكمته، وأراد السفهاء أن يجعلوا من هذه المنّة فتنّة، ولقد كفى الله تعالى عباده الصالحين، فإذا نظرت في سياق الآيات؛ تبين لك كيف اجتث الله تعالى شجرة مكر السفهاء من فوق الأرض، فأنبأ رسوله عليه الصلاة والسلام بما هم قائلون، فقال الله تعالى: "سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ"، وجعل هذا الإنباء آية وبرهاناً يدفع به المؤمنون كيد الكائدين، فسلب اليهود وأشياعهم عنصر المباغنة والمفاجأة، فمن ركب بعد منهم مراكب الحماقة، فقال مقالة السفهاء: "مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ"، وقع في المذمة، ودمغه الردّ الناجز: "قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"، فيؤولي مذووماً مدحوراً.

ثمّ زاد الله تعالى المسلمين تكريماً وتشريفاً، فوصفهم بالأئمة الوسط، وأقامهم مقام الإمامة والشهادة، وأنبأهم بحكمة تحويل القبلة.

- ولما أمر الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام وأمرته بالتوجه تلقاء المسجد الحرام، أنبأهم أن علماء أهل الكتاب يعرفون أن هذا هو الحق، ولكن لا مطمع في هدايتهم، ولا نفع في مجادلتهم؛ لأنهم حاسدون جاحدون، فقال: "وَلَعِنُ أَلْبَنُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبَلَتَكَ"، وهكذا حسم أمر المجادلة في تحويل القبلة، فإذا ثبت أنه: مهما نأثم به من آية

^١ سورة البقرة آية (١٤٨)

فما هم لنا بمؤمنين، ولا متبعين، لم يبق للمجادلة إلا إحدى سيئتين، إما إضاعة الطاقات فيما لا نفع فيه، وإما أن يستدرجوننا بأهوائهم، فنتبعهم؛ لذلك حذّرنا الله تعالى أشدّ التحذير من الاقتراب منهم بعد ما جاءنا من العلم؛ حتى لا تصيبنا أهواء المجرمين بسوء.

ثمّ أنبأنا الله تعالى بأنهم يعرفون الحقّ الذي جاء به رسولنا عليه الصلاة والسلام كما يعرفون أبناءهم، وبينّ لنا أنهم يكتُمون الحقّ، وهم يعلمون، وفي هذا الكتمان بلاء عظيم ووبالٌ جسيم على أهل الكتاب، ولا يضرّنا ذلك الكتمان شيئاً؛ لأن الله تعالى قد اختصّنا بالحقّ المهيمن الذي لا مزية فيه، ولا مزيد عليه.

وها نحن تستوقفنا آية مباركة مهيبة تملأ البصائر بعجائبها وأنوارها، لقد تدبّرت هذه الآية مليّاً، وكنت قد درست منها قوله تعالى: "فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ" قبل سنين، وبدأ لي أنها أصلٌ وقاعدة للتحوّل الرشيد والتغيير السديد في حياة من اتبع هداها، وقد وردت هذه العبارة في موضعين من القرآن الكريم، أولهما: في هذه الآية (١٤٨)، والثاني: في سورة المائدة الآية (٤٨)، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ^١﴾.

وقد وجدت بين الآيتين صلات تؤكّد أن استباق الخيرات هو وسيلة الأفراد والأمم إلى التقدّم، والتفوّق، وهو سبب متين لخروج الأمم المستضعفة من أزماتها؛ لأن الاستباق يدفع

^١ سورة المائدة آية (٤٨)

الناس إلى مغادرة مواطن الوهن والهُن؛ ليستفرغوا الوسع، ويتجهوا تلقاء ميادين التفوق، للفوز بالمواقع المتقدمة الرفيعة الفسيحة.

وها أنا ذا أعيد قراءة الآية مرارًا وتكرارًا ناظرًا في محاسنها التي لا تحدد ولا تعدّ، وقد بان لي من محاسن ورودها في هذا السياق ما يُذهب ظمأ القلب، لقد جمعت هذه الآية معاهد الكرامة والإمامة من أطرافها، وقدّمت لنا أسباب الوقاية والعلاج من الفتن، ففيها ذكرى جليلة وبشرى جميلة، فقد ذكرتنا بالأصلح والأنفع، وذلك بالأمر باستباق الخيرات، وبشّرتنا بأن الله تعالى القدير على كلّ شيء جامعنا بين يديه يوم الفصل؛ ليسعد السابق بقربه، ويأخذ المعرض بذنبه.

إن استباق الخيرات صفة ظاهرة في جيل الصحابة رضي الله عنهم، فقد كانت حياتهم عامرة باستباق الخيرات، فكانوا في سباق دائم فيما ظهر من الأعمال الصالحة وما بطن من الصلوات، والنفقات، والعلم، والدعوة، والجهاد، كما سيأتي تعداد كثير من تلك الخيرات في آية البرّ، فقد فتحت لهم هذه الآية وشقيقتها أبواب السباق، رفعت درجاتهم إلى أشرف المراتب، وعلت بهم فوق شرور الفتن المضلّة؛ لأن الفتن إنما تطال أهل البطالة، والتأخّر، والتخلف المنشغلين بسفساف الأمور، وبُنيّات الطريق (والترهات والأباطيل: هي في الأصل الطرق الصّغار المتشعبة عن الجادة)، أما أهل الاستباق المسارعون في الخيرات، فهم المقربون من صاحب العزّة والقوّة، فهم في مأمن ومنعة؛ لأن الطاعات قد استغرقت طاقتهم وأوقاتهم، واجتازت بهم المفاوز، وأكسبتهم، يقينًا، وفقهًا رشيدًا، وقوة.

ومن هدي القرآن الكريم أنه يصف المؤمنين والمحسنين بالمتقين بأحسن الأوصاف؛ ليتخذهم الناس أسوة ومثالاً كما في سورة المؤمنون، وسورة الفرقان، وغيرهما من السور، فالواجب على المسلم أن يُعيّن لنفسه منازل ودرجات عالية من أعمال القلوب، واللسان، والجوارح؛ ليسابق بها وينافس! وأن يقتدي بألي العزم، فينظر إلى السابقين المحسنين، وأن يصرف نظره عنّ هو أدنى منه في الطاعات؛ حتى لا يتخلّف.

فاتخذ لك -رعاك الله تعالى- قائمة من الخيرات تستبقها وتسابق بها، وليكن التوحيد رأسها، والصلاة عمودها، والجهاد ذروة سنامها.

والبون شاسع بين أهل الجدّ السابقين ابتغاء مرضاة الله تعالى، وبين أهل الأهواء الذين يبيعون دينهم بعرض من الدنيا قليل، وبنجاحات زائفة زائلة. ولقد عرفتُ من الفريقين مَنْ عرفت، وزوّدتني الأخبار الصادقة ما زوّدتني، فما رأيت أهل الاستباق إلا في علوّ ورفعة، وما كبا منهم أحد فذكر الله تعالى، إلا استفاق، فأبصر، واستغفر، واستأنف السباق، وأما أهل الأهواء والبطالة، فما أكثر جنوحهم للفتن، فتسلبهم نور بصائرهم، وتستاقهم إلى المهالك، وأتّى للآبق أن يسابق!

إن موارد الأمة الوسط لا تحصى كثرة، ولكن أهلها لم يحسنوا الاستباق بها، فاتخذهم أعداؤهم سخرى، فهم ينهبون ديارنا وأموالنا منذ عقود طويلة، وقد آن لنا أن نسدّ ونقارب، فنبني مشاريع سبّاقة تملأ حياتنا بالخيرات، وتدفع عنا الويلات والمضرات، ونأخذ على أيدي أهل الأهواء.

لقد دفعنا ثمن التفريط والإعراض عن الاستباق كرائم النفوس، والأموال، والديار، فأحال الوهن كثيراً منا غشاء كغشاء السيل، والمخرج قريب ألا وهو مراجعة ديننا بتوبة نصوح، فنوسع من برامج استباق الخيرات وفق تأصيل يستبق بنا، وإدارة رشيدة للموارد تميز الخبيث من الطيب، والمتخلف من المتقدم، والقاعدين من السابقين.

"وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا": "كل" من صيغ العموم تعم أهل كل ملة، "وِجْهَةٌ" نكرة مقيدة بالجملة بعدها، ومعناها الجهة، "ومعنى التولية هاهنا الإقبال، يقال: "ولّيت إليه"، بمعنى أقبلت إليه مولياً عن غيره"^١.

"فَاسْتَبَقُوا الْخَيْرَاتِ": "فَاسْتَبَقُوا": الأمر هنا لمطلق الطلب أي للقدر المشترك بين الوجوب والندب؛ لأن الخيرات تشمل الواجبات والمندوبات، ويجوز حمل الأمر على الحقيقة والمجاز معاً، فنقول: إن الأمر حقيقة في الوجوب، ومجاز في الندب؛ لجواز حمله عليهما بلا إخلال على مذهب بعض الأصوليين كالإمام الشافعي وغيره، وهو اختيار ابن عاشور، وهو فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الْخَيْرَاتِ، وأصله من السَّبق، وهو الوصول إلى الشيء أولاً، وأصله التقدّم في السير، ثم استعمل مجازاً في كل تقدّم^٢. والاستباق: المسارعة^٣، والمبادرة^٤، والابتدار والتسابق^٥، وحقه التعديّة باللام إلا أنه توسّع فيه، فعدي بنفسه، أو على

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٣/ ١٩٤ بتصرف.

^٢ انظر: السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢/ ١٧٦

^٣ انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج ٦/ ٢١١

^٤ ابن منظور، لسان العرب، مادة: سبق، مرجع سابق، ج ١٠/ ١٥١

^٥ انظر: الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ج ١/ ٦٤٠، والرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ١٢/ ٣٧٣

تضمنين استبقوا معنى اغتتموا، وهو الحرص على مصادفة الخير والإكثار منه، والمراد عموم الخيرات كلها فإن المبادرة إلى الخير محمودة^١.

"الخيرات" "أل" للاستغراق، وأصل اشتقاقها الخاء والياء والراء، وأصله العطف والميل، ثم حمل عليه ما تفرّق من المعاني. فالخير: خلاف الشر؛ لأنّ كلّ أحد يميل إليه ويعطف على صاحبه^٢، فالخيرات عند أهل اللغة جمع خيرة وهي الفاضلة من كل شيء^٣. واجتهد العلامة ابن عاشور فذهب إلى أن الخيرات جمع خير على غير قياس كما قالوا حمّامات وسرادقات^٤. وهذا القول مخالف لما اشترطه علماء اللغة في أن اللفظ المذكور لا يجمع بزيادة الألف والتاء إلا إذا كان ممّا لا يجمع جمع تكسير مثل حمّامات وسرادقات^٥، وأما لفظ "خير" فيجمع جمع تكسير على خيور^٦. وعليه فالخيرات هي كلّ خصلة فاضلة فيها نفع في الدنيا أو الآخرة. قال العلامة السعدي: "ويستدل بهذه الآية الشريفة على الإتيان بكل فضيلة يتصف بها العمل،

^١ انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/٤٣

^٢ انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج ٢/٢٣٢

^٣ انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، مادة: خير، دار صادر - بيروت، ط ١، ج ٤/٢٦٤، والجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، ط ٤، ١٩٨٧م، ج ٢/٦٥١، والرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، طبعة ١٩٩٥م، ص ١٩٦، الزبيدي، محمد بن محمد، تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية، بلا تاريخ ج ١١/٢٤٣

^٤ انظر: ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسية للنشر - تونس طبعة ١٩٨٤ هـ ج ٢/٤٣

^٥ انظر: سيبويه، عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٣، ١٩٨٨ م ج ٣/٦١٥، وابن سيده، علي بن إسماعيل، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م، ج ٦/٦١١، والزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، مرجع سابق، ج ٢/٤٤١.

^٦ انظر: ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج ٤/٢٦٤، والجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، مرجع سابق، ج ٢/٦٥١، الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، مرجع سابق، ج ١١/٢٣٨

كالصلاة في أول وقتها، والمبادرة إلى إبراء الذمة، من الصيام، والحج، والعمرة، وإخراج الزكاة، والإتيان بسنن العبادات وآدابها، فله ما أجمعها وأنفعها من آية^١.

"أَيُّنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا": "أيّما": شرطية ظرفية تعمّ، "تَكُونُوا": فعل في سياق الشرط يعمّ، "يَأْتِ": الفعل في سياق الإثبات مقيد بالجارّ والمجرور: "بكم"، وبالحال: "جميعًا"، وجميع من صيغ العموم، "إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ": "كلّ" تعمّ الإتيان بهم وبغيرهم، فلا يعجز الله شيء في الأرض ولا في السماء.

^١ السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ج ١/٧٢

تثبيت المؤمنين وتبشيرهم بتمام النعمة والهداية:

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِيَّمْ نَعْمِيَ عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^١.

إن الله تعالى لطيف بالعباد، ينزل عليهم برحمته وفضله ما يصلح أحوالهم في الدنيا والآخرة، وكلّ شيء شرعيّ وكوّنِيّ عنده بمقدار، والله تعالى يحكم لا معقب لحكمه. ولقد فصل الله تعالى حادثة تحويل القبلة في كتابه المجيد؛ لتكون لنا عبرة، وأسوة في دفع مكر الماكرين، وكيد الكائدين، ودحض الشبهات التي يبيثها الأعداء في كلّ عصرٍ ومصرٍ.

وسأستخلص ما تيسر لي من الأصول الواردة في هاتين الآيتين؛ لتنزيلها على واقعنا والانتفاع بها.

الأصل الأول: تبين الحق؛ حتى تقوم به الحجّة على الناس، ويُطَلَّ به ما يعارضه من الدعاوى والشبهات الواقعة والمتوقّعة. وقد ظهر هذا المنهج في هذه الحادثة، فبين الله تعالى للمؤمنين الحقّ في أمر القبلة أبلغ بيان، وأنبأهم بما سيقع من السفهاء، وما هو واقع من أهل الكتاب من كتمانهم الحقّ الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وبموقفهم المتعنّت من القبلة والملة. وهذا هو الأصل في الدعوة إلى الله تعالى، فلا بدّ من بيان الحقّ أبلغ بيان، ودفع الأهواء والشبهات الموجهة إليه، ولا يجوز الاستهانة بالشبهات؛ لأنها خطّافة للعقول، ولأداة للفتن.

^١ سورة البقرة آية (١٥٠-١٤٩)

الأصل الثاني: تثبت المؤمنين على الحقّ، فإن من مقاصد تكرر الأمر باستقبال القبلة الوارد في الآيتين هو التأكيد والتثبيت؛ حتى يستقرّ التشريع في نفوسهم، فلا يتزعزع؛ لأن كثرة المجادلة العارضة قد تُحدث في القلوب ندوبًا ونُكتًا سوداء، وقد تُزعزع وتُزلزل، والتأكيد والتّكرار خلاف الأصل، فينبغي أن يقدر على وفق الحاجة، والحاجة إليه في أزمنة الفتن أكبر.

الأصل الثالث: الاستعلاء والظهور بفعل المأمور وترك المحذور، فإن من أعظم الأسباب لدحض حجج الخصوم وإبطال أثرها اتباع أمر الله تعالى وحسن السمع والطاعة؛ لأنّ أمرنا الناس بالمعروف دون أن نفعله حجة علينا، وفتنة لغيرنا. والواجب على المسلمين اتباع شرع الله تعالى ما استطاعوا؛ فإن ذلك أنفع لهم ولدعوتهم، وأقطع لألسنة أعدائهم. ولما عطلت الشريعة في كثير من بلاد الإسلام، وهجر كثير من المسلمين ما هجروا من شعائر الله تعالى؛ تناول المجرمون والمضللون على حرّمة الله تعالى؛ حتى عاد الإسلام في عقر داره غريبًا.

الأصل الرابع: عدوان الظالمين على الحقّ والكيد لأهله قدر محتوم؛ لأن رأس الشرّ إبليس الرجيم قد أنظره الله تعالى إلى يوم الوقت المعلوم؛ ليزداد إبليس إثماً، وليبتلي الله تعالى به العباد؛ فيميز الخبيث من الطيب. ولا يزال أهل الكتاب من اليهود والنصارى، والمنافقون، والكفار يرموننا بما ظهر من الأسباب الخبيثة وما بطن؛ ليصدّونا عن سبيل الله تعالى، وقد أئخّونا في المؤمنين قتلاً وتهجيرًا، وآذوا العلماء والدعاة ونبزوهم بأقبح الألقاب؛ حتى يستنكف الناس عن الدعوة إلى الله تعالى. وقد زاد بغيتهم؛ حتى عدّوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إثماً وعدوانًا، وزعموا أنّهما يكرّسان الإرهاب والتخلف، وينتقصان من حرّية الآخر، وأما الباطل ففتنّوا في ترويجه، فنشروا دعوات الضّرار وصوّروا اتباع الشهوات، وبثّ

الأهواء حقًا ومكرمة لا تمسّ بإنكارٍ أو نصيحة، وفتحوا الأبواب للمبطلين، وكثّروا الأبواق لأهل النفاق والشقاق. لقد فعلوا ما فعلوا؛ لينشأ جيلٌ لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكراً، جيلٌ منزوع الحميّة والغيرة لدين الله وحرماته.

الأصل الخامس: مراعاة واقع المؤمنين في المدينة: فقد دفع الله تعالى شرّ السفهاء المفترين بالبيّنات، وأملّى لهم، واقتصر على إزهاق باطلهم بالحجج البالغة والبراهين الدامغة؛ حتى أتى بنيانهم من القواعد. ولم يأمر بقتالهم ولا أقام عليهم حدًّا؛ لأن الله تعالى لم يكن قد أوجب على الأمة الوسط قتال المعتدين، ولا بيّن لها حكم المرتدين.

الأصل السادس: النهي عن خشية الناس والأمر بخشية الله تعالى وحده، وهذا الأصل ضروريّ لإقامة الدين القَيِّم، والتمكين لأهله، فلا يتأتّى ظهور الحقّ وخوض معارك التدافع، والسباق الحضاريّ إلا لمن يخشى الله تعالى، ولا تأخذه في الله لومة لائم، أمّا خشية الناس، فتفضي إلى كتمان الحقّ، وظهور الباطل، وسوف نفرّع هذا الأصل إلى فرعين:

الفرع الأول: النهي عن خشية الناس: لقد نحانا الله تعالى عن خشية الناس؛ لكي نبين الحقّ، فعلى المؤمنين أن يجاهدوا أنفسهم؛ لتفريغ القلوب من خشية الناس، وإنزال العبيد منازلهم، والتهوين من سلطان المخلوقين الفقراء إلى الله تعالى. وقد أضرتّ خشيةُ الناس بالمسلمين ضررًا عظيمًا، فصيّرت جموعنا غثاء، وذهبت بسلطاننا جفاء، وزادتنا خيالًا ووبالًا، فتركنا كثيرًا من الحقّ إرضاء للخلق.

الفرع الثاني: الأمر بخشية الله تعالى وحده، فأوجب الله تعالى علينا خشيته، وهي أعظم الأسباب الحاملة على التقدّم والاحتحام والتضحية والإمساك عن المنهيات، وهي عُدة

الداعي إلى الله تعالى والمجاهد في سبيله بيده ولسانه؛ ليحسن الخطاب ويُطابق المقال المقام، فنسمي الأشياء بأسمائها الشرعية، ونفرّق بين المسلم والمجرم، والعالم والضالّ الزائع. وقد سمى الله تعالى الظالمين سفهاء، فلا ينبغي تبجيل أهل الأهواء ووصفهم بالأوصاف الشريفة؛ حتى لا نشارك في تضليل الناس ونشر الإثم والعدوان.

الأصل السابع: المنطوق تبشير بحسن العاقبة وتمام النعمة والهداية، والتبشير واجب؛ لأنه هو الحق، والواجب أن يستنفر المسلمون كلّ طاقاتهم؛ لتبليغ دين الله تعالى مستبشرين بوعد الله تعالى.

وقد ختم الله تعالى الآيات المتعلقة بحادثة تحويل القبلة بهذا البيان الكريم، فقد بلغ تأكيد الأمر باستقبال القبلة منتهاه، وبَيَّنَّ الله تعالى مقاصد هذه الشعيرة بياناً جامعاً للخير والبرّ، مانعاً من الشرّ والمكر، وما ذاك إلا لتثبيت حقائق لا يحصل مقصودها إلا بهذا التكرار الجليل الجميل، والتعليل الأصيل، وسوف أبين ما تيسر من وجوه الدلالات في السطور الآتية:

- قال الله تعالى: "وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ" "وَمِنْ حَيْثُ" الجارّ والمجرور متعلقان بالفعل: "فَوَلِّ" فهما قيدٌ له، "مِنْ" لابتداء الغاية المكانية، "حَيْثُ" من صيغ العموم، والمعنى: "من أيّ مكان وثقعة شخّصت"¹، وبرزت، والفعل "خَرَجْتَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقدّر: مريدًا الصلاة (يستدلّ عليه بدلالة الاقتضاء)، فيجب استقبال القبلة في الصلاة، وحُصِّصَ من ذلك صلاة النافلة على الراحلة وصلاة الفريضة أثناء القتال بأدلة منفصلة، "فَوَلِّ" الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور المتقدمان: "وَمِنْ حَيْثُ"، وبالمفعول به الأول: وَجْهَكَ، وبالمفعول به الثاني:

¹ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٣/١٩٩

شَطْرَ (ويجوز إعراب "شطر" ظرف مكان)، "شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ" "شطر" نكرة مضافة تعم جميع جهاته، "الْمَسْجِدِ" "أل" للعهد و"الحرام" صفة للمدح.

- قال الله تعالى: "وَأِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ": "لَلْحَقُّ" الكامل وهو مخصص بالحال التي تعلّق بها الجارّ والمجرور: كائناً "مِنْ رَبِّكَ".

"وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ": ما: نافية، وغافل مخصص بالجارّ والمجرور: "عَمَّا"، وما موصول عامّ، ويصحّ حملها على المصدرية، الفعل "يَعْمَلُونَ" في سياق الإثبات مقيّد بالضمير العائد على الموصول، وفيه ترهيب من ترك ما أمر الله تعالى بفعله، ومن فعل ما نهى الله تعالى عنه.

فائدة في قول الله تعالى: "وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ" قال العلامة أبو حيان: "ظاهر هذه الجملة أنها كرّرت تأكيداً لما في الآية السابقة، وحكمة هذا التأكيد تثبيت هذا الحكم، وتقرير نسخ استقبال بيت المقدس؛ لأن النسخ هو من مظانّ الفتنة والشبهة وتزيين الشيطان للطعن في تبديل قبة بقبلة، إذ كان ذلك صعباً عليهم، فأكد بذلك أمر النسخ وثبت. وكان التأكيد على ما قررناه بتكرير هذه الجمل مرتين؛ لأن ذلك هو الأكثر المعهود في لسان العرب، وهو أن تعاد الجملة مرة واحدة"^١. وقال الرازي "هذه الواقعة أول الوقائع التي ظهر النسخ فيها في شرعنا فدعت الحاجة إلى التكرار؛ لأجل التأكيد والتقرير وإزالة الشبهة وإيضاح البينات"^٢.

^١ أبو حيان، البحر المحيط، مرجع سابق، ج ٢/ ٣٩ بتصرف يسير.

^٢ انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٤/ ١١٩

"وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ": "وَحَيْثُ مَا" اسم شرط عامّ، "وَلُّوا" الأمر للوجوب، الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به الأول: وُجُوهَكُمْ، ووجه نكرة مضافة تعمّ، من إطلاق الجزء وإرادة الكل، والمفعول الثاني: شَطْرَهُ (وأجاز السمين إعراب "شَطْرَ" ظرفاً، ورجح كونه مفعولاً^١ وأما ابن عاشور فلا يرى الظرفية)، "شطره" نكرة مضافة تعمّ. ولفظ "شطر" نكرة مضافة تعمّ، والأمر لعموم الأمة؛ لأن الضمير إذا خوطب به العامة أو كان راجعاً إلى عامّ فإنه يفيد العموم. والأمة كلّها مأمورة باستقبال القبلة في الصلاة.

- "لِيَأْثَرُ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ": "لِيَأْثَرُ" اللام للتعليل، وأن مصدرية، ولا نافية، يَكُونَ: فعل في سياق النفي يعمّ، "الناس" عامّ، "حجة" نكرة في سياق النفي تعمّ، "إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ" "إِلَّا" أداة استثناء، والاستثناء منقطع، وإلا بمعنى: لكن، أي: لكن "الذين ظَلَمُوا" يختلفون الشبهات ويجادلون بها، الَّذِينَ: اسم الموصول يعمّ كلّ ظالم، وإن حملناه على الاستثناء المتصل فهو مخصّص لعموم الناس، "فَلَا تَخْشَوْهُمْ" "لا" للنهي، والنهي للتحريم، والفعل في سياق النهي يعمّ كلّ خشية، "وَاحْشَوْني" الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير: ياء المتكلّم عزّ وجلّ.

- قال الله تعالى: "وَلَا تُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ" معطوف على قوله: "لِيَأْثَرُ يَكُونَ لِلنَّاسِ.."، واللام للتعليل، "أُتِمَّ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: نعمتي، ونعمة نكرة مضافة تعمّ كلّ نعمة أنعم بها على المخاطبين، وأعظم تلك النعم الهداية إلى الحقّ، وإبطال الباطل ودفع المبطلين.

^١ انظر: السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢ / ١٦١

- قال الله تعالى: "وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ": "لعل" للتعليل، وَهْتَدُونَ: فعل في سياق الإثبات لم يذكر له متعلِّقاً للدلالة على العموم، والتقدير: تهتدون إلى ما فيه صلاح أموركم كلّها، قال العلامة ابن عاشور: "استقباهم الكعبة مؤذّن بأنهم يكونون مهتدين في سائر أمورهم؛ لأن المبادئ تدلّ على الغايات"^١.

التذكير بأصول المنن، وأجمع السنن لاتقاء الفتن: قال الله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ واشْكُرُوا لي وَلَا تَكْفُرُون﴾^٢.

لقد أسبغ الله تعالى على عباده المؤمنين نعمه ظاهرة وباطنة، فها هم يستقبلون قبلة أبيهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام مُبَشِّرِينَ بتمام النعمة، وحصول الهداية. وقد خاطب الله تعالى بهاتين الآيتين الصحابة رضي الله عنهم أصالة، ومن تبعهم تبعاً، فذكرهم في الآية الأولى بأصول النعم والمنن، وهداهم في الثانية إلى اتباع أصول السنن الشرعيّة؛ ليستبقوا الخيرات، ويزدادوا من النعم، ويتقوا أسباب النقصان والنقم. وسوف أبين ما تيسر من دلالات هاتين الآيتين فيما يأتي:

أولاً: من دلالات الآية الأولى: التذكير بأصول النعم والمنن، قال الله تعالى: "كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ"، وهذه الآية متصلة بالسابقة، فأداة التشبيه (الكاف) في "كما أرسلنا" متعلّقة بقوله تعالى: "ولأتم نعمتي عليكم"، والمعنى: ولأتم نعمتي عليكم كما أرسلنا فيكم رسولاً

^١ انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/٤٧-٤٨

^٢ سورة البقرة آية (١٥٢-١٥١)

مِنْكُمْ، قال الإمام الطبري: "كما" صلة لقول الله عز وجل: "وَلَا تَمْنَعِي عَيْكُمْ" ^١، فكما سبقت لكم منّا نعم ومننّ عظام تكثرُما وفضلاً، فإننا نبشركم بإتمامها. و"ما" مصدرية، والفعل "أَرْسَلْنَا" في سياق الإثبات مقيّد بقيّدين: بالجارّ والمجرور: "فِيكُمْ"، وبالمفعول به: "رَسُولًا"، وقد وُصف "رسولاً" بصفات عظام: بشبه الجملة: "مِنْكُمْ"، وبجملة "يَنْلُوكُمْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا" وما عطف عليها من الجمل.. وإليكم بيان هذه النعم:

النعمة الأولى: نعمة إرسال الرسول عليه الصلاة والسلام، قال الله تعالى: "كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ"، ونعمة بعث الرسول عليه الصلاة والسلام أعظم النعم على الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم، أمّا الصحابة فكانوا أسعد الناس بهذه البعثة المباركة وأكثرهم انتفاعاً بها، فقد وصلتْهم برّهم، فتلقوا الوحي من فم الرسول عليه الصلاة والسلام غصّاً طريّاً نقيّاً، وفازوا بصحبته، وقد كانت صلة محمّد عليه الصلاة والسلام بالسماء وسيلة التسديد والعصمة والفلاح للأمة الوسط، ولما مات الرسول عليه الصلاة والسلام أحسن الصحابة بفقد تلك الصلة العاصمة، ولقد انقطعت بموته عليه الصلاة والسلام نِعَمٌ كثيرة: كالوحي، والإمامة المعصومة، والرعاية، ومشاهدة الأسوة الحسنة، وبركاتٌ آخر لا تحصى.

النعمة الثانية: إرسال الرسول عليه الصلاة والسلام "فيكم" - معاشر العرب - لا في غيركم، قال الله تعالى: "كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا"، فقد بعثه الله تعالى في أمّ القرى، وهي مهوى أفئدة العرب، وفيها بيت الله تعالى، ومناسك حجّكم، والأمن العامّ، فيسّر الله تعالى عليكم الاجتماع برسوله، ولما أخرجه قومه، جعل الله تعالى مدينة طيبة مُهاجرَ رسوله عليه الصلاة والسلام؛ ليكثر المؤمنون، وتزدادوا قوة إلى قوتكم، فكفاكم الله تعالى مؤنة الرحيل إلى

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢/٢٠٩، وانظر: السمين، الدر المكنون، مرجع سابق، ج ١/١٨١-١٨٣، وال

ديار البُعْداء البُغْضاء من بلاد العجم أو أتباعهم، والغربة عذاب. ففترم بنعمة السَّبْق إلى اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام، ونعمة صحبته ومجاورته ونصرته، ونعمة وراثته والتبليغ عنه، وكفى بذلك شرفاً ورفعة.

النعمة الثالثة: كون الرسول -عليه الصلاة والسلام- "منكم" لا من غيركم، فطابت دنياكم وأخراكم باتباع رسالته المنزلة بلسانكم، وعظمت مكانتكم بقدمه؛ إذ أنتم قومه، فاجتباكم؛ لتكونوا أصحابه، وحملة رسالته من بعده، وأئمة للبشرية؛ حتى قيام الساعة.

ولا يتأتى تقدير هذه النعم إلا بمعرفة الفرق بين حال الأمة الأممية قبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام وبين حالها بعد نزول الوحي. وإنه لفارق لا يقدر قدره إلا رب العالمين. ولقد شعرت ببعض ما حلّ بالأمم غير المؤمنة يوم نزلت أرض قوم لا يعلمون شيئاً عن نعمة الرسالة الخاتمة، يوم رحلت إلى بولندا للدراسة عام ١٩٨٦م، وأدركت الفارق بين ما عليه قومي في هذا العصر من نعم ميراث النبوة: نعمة الصلة بالله تعالى، وبكتابه، وبرسوله عليه الصلاة والسلام، وبين ما عليه هؤلاء البُعْداء من افتقارٍ إلى نعم الإسلام! لقد فاتهم خيرُ هذه الرسالة وفضلها العاجل والآجل، وهم عنها غافلون، لقد رأيت قوماً لا صلة لهم بالقرآن الكريم الذي أنزل إليهم، ولا برسولهم الذي بُعث إليهم! ولم يذوقوا قط طعم شعائر الإسلام، ولا حلاوة الإيمان، ولا طرقت سمعهم آيات الكتاب الكريم بلسان عربي مبين إلا قليلاً منهم! لقد حال بينهم وبينها نأي الدار، واختلاف اللسان، وظلمات الجاهلية.

إن هؤلاء الأقوام -وأمثالهم كثير- هم من أمة الدعوة والبلاغ، وهم شركاؤنا في هذه الرسالة (النعمة) التي يجهلونها، إنه لمحرومون، وإننا في دعوتهم لمفرطون!

النعمة الرابعة: نعمة تلاوة آيات الله تعالى على الصحابة، قال الله تعالى: "يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا": الفعل "يَتْلُو" في سياق الإثبات مقيّد بقيّدين: بالجارّ والمجرور: "عَلَيْكُمْ"، وبالمفعول به: "آيَاتِنَا"، وآيات نكرة مضافة تعمّ، والتلاوة التي تلقّاها الصحابة كانت تلاوة فهم وتدبر وتركيب؛ لأن لسان القوم عربيّ مبين. فكانت التلاوة وصيلة ووسيلة وفضيلة، وصيلة تصل الأسماع والقلوب بكلام الله تعالى علّام الغيوب لفظاً ومعنى! وتلاوة محمّد عليه الصلاة والسلام أطيب تلاوة وأزكاها، لها أثرها، وهي وسيلة للتركية والتعليم، وفضيلة لما ينالونه من الأجر العظيم والشرف والتكريم. ولقد رأيت في شرق آسيا قوماً يقرءون الكتاب كثيراً، يحبّونه، ويعظّمونه، ويسمعون آيات الله تتلى عليهم آناء الليل وآناء النهار، تكاد قلوبهم تتفطر حسرة على ما يفوتهم من فهم معاني الكتاب.

النعمة الخامسة: التركية: قال الله تعالى: "وَيُزَكِّيكُمْ": الفعل "يُزَكِّي" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: ضمير المخاطبين المتصل، ومعناه: يطهر نفوسكم من الشرك والذنوب، ويربيها على المكارم، ويبيّن فيها شعب الإيمان والإحسان وفق أعدل نظام، وقد تركّوا، وزكّوا من بعدهم، قال العلامة محمد رشيد رضا: "إنهم بركة أنفسهم هذه فتحوا العالم وكانوا أئمة أُمم المدنية التي كانت تحتقر جنسهم كله، فإن الأعاجم إنما عرفوا فضل الإسلام بعدلهم وفضلهم في فتوحهم، وما فهموا القرآن إلا بعد إسلامهم وتعلمهم العربية"^١. ولا نخضة للأمة الوسط إلا بالقلوب الزكية الذكية؛ لأن حضارتنا تنطلق من القلوب.

النعمة السادسة: تعليمكم الكتاب والحكمة، قال الله تعالى: "وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ": الفعل "يُعَلِّمُ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به الأول: ضمير المخاطبين المتصل،

^١ رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، مرجع سابق، ج ٢/٢٤

وبالمفعول الثاني: "الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ"، فقد علّمهم القرآن والسُنّة، وعلمهم كيف يستنبطون، وكيف يقدّرون الوقائع والنوازل ويحكمون فيها بما يناسبها، وينزلون الأشياء منازلها. فسادوا العالم، وقادوا الأمم بفقههم وعدلهم وإحسانهم، ولما تناقص الخير قرناً بعد قرن، وخَلَفَ خَلْفٌ اتبعوا الشبهات، والشهوات، وعطلّوا الشريعة، وانقادوا لليهود والنصارى، فَشَلْنَا، وزهبت رِيحُنَا، وصرنا غشاء كغشاء السيل. ولا مخرج إلا بتجديد العزائم والتوبة النصوح، والاستقامة على منهاج النبوة.

النعمة السابعة: تعليمكم ما لم تكونوا تعلمون: قال الله تعالى: "وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ": الفعل "يعلم" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به الأول: ضمير المخاطبين المتصل، وبالمفعول الثاني: الاسم الموصول "ما"، والموصول يعمّ العلم بسنن الله تعالى وجريان أقداره في العباد إنعاماً وانتقاماً، وفي ذلك عبرٌ وعظات، قال الإمام الطبري: "قال الله ويعلمكم من أخبار الأنبياء، وقصص الأمم الخالية، والخبر عمّا هو حادثٌ وكائن من الأمور التي لم تكن العرب تعلمها"^١. "ما لم تكونوا تعلمون": "تعلمون" فعل في سياق النفي يعمّ، وهو مخصّص بالضمير العائد على الموصول.

ثانياً: من دلالات الآية الثانية: الهداية إلى السنن الشرعية الجامعة ترغيباً في استباق الخيرات، ورفع الدرجات، وترهيباً من النسيان والكفران، قال الله تعالى: "فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ": قال ابن عاشور: "الْقَاءُ لِلتَّفْرِيعِ عَاطِفُهُ جُمْلَةُ الْأَمْرِ بِذِكْرِ اللَّهِ وَشُكْرِهِ عَلَى جَمَلِ النِّعَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ أَيَّ إِذْ قَدْ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ بِهَا تِهِ النِّعَمِ فَأَنَا أَمُرْكُمْ بِذِكْرِي"^٢:

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٣/٢١٢

^٢ انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/٥٠

"فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ": فعل الأمر "اذْكُرُونِي" للوجوب حقيقة وللندب مجازاً، وهو في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: بالضمير: ياء المتكلم، الفعل "أَذْكُرْكُمْ" واقع في جواب الطلب، وهو في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: بضمير المخاطبين، وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ: فعل الأمر "وَاشْكُرُوا لِي" للوجوب حقيقة وللندب مجازاً، وهو في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: لي، "وَلَا تَكْفُرُونِ": النهي للتحريم، والفعل في سياق النهي مخصص بالمفعول به: بالضمير: ياء المتكلم، وعليه ففي هذه الآية وفق موازين السياق أربع من أصول السنن الشرعية.

قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾^١.

لبيك ربنا وسعديك، والخير كلّه بيدك، لا نخصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، ها هو ربنا عز وجلّ يفتح لنا باباً عظيماً كريماً من أبواب فضله، يدعونا لندخل عليه من غير واسطة ولا حجاب؛ لننال من جلال قربه، وكمال حبّه، وجزيل لطفه، وجميل أنسه بغير حساب، وإني كلما أمعنت النظر في هذه الآية أدهشتني كرائم الكنوز المعروضة، وهالتي غفلة قلوبنا المعروضة! فما أعظم العَرَض! وما أشقى المعرضين! وإنّ أكثر الناس إذا ذُكِرُوا لا يذكرون، ولا يشكرون، وإذا بُصِرُوا لا يبصرون، وإذا صُبِرُوا لا يصبرون.

وهاك أيها القارئ الكريم حديثاً عظيماً توطئة بين يدي التفسير، فعن معاذ بن جبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَخَذَ بِيَدِهِ يَوْمًا فَقَالَ: "يَا مُعَاذُ إِنِّي وَاللَّهِ لَأُحِبُّكَ"، فَقَالَ مُعَاذٌ: بِأَيِّ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَنَا وَاللَّهِ أُحِبُّكَ فَقَالَ: "أَوْصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدْعُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعِزِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ"، وَأَوْصَى بِذَلِكَ مُعَاذُ

^١ سورة البقرة آية (١٥٢-١٥١)

بْنُ جَبَلِ الصُّنَابِجِيِّ، وَأَوْصَى بِذَلِكَ الصُّنَابِجِيُّ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَأَوْصَى بِهِ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَقْبَةَ
بن مسلم^١.

وهذا الدعاء من جوامع الدعاء، وقد تسلسل نقل هذا الحديث بالمحبة حتى عصرنا
هذا؛ ليعلم الناس مكانة السنة، وقدر عناية العلماء بها، وفضلها في إصلاح العباد. ومن
لطائف الأقدار أني لما تدبرّت هذا الحديث، وعشت الحادثة بحذفها، ووضعت الحديث في
هذا السياق، أرسل إليّ أحد الأحبة رسالة حديثة عهد بطيبة -زادها الله شرفاً وعزاً- فقال
صاحبي: طرأت لي سفرة إلى المملكة، وأنا الآن في المدينة شرفها الله تعالى، فترأت لي طيبة
رأي العين -صلى الله وسلم على صاحبها وأصحابه، وطيب الله ساكنيها- ففاضت عيناى،
وأشرقت جنبات الروح بذكر الله تعالى، والصلاة والتسليم على خليله ومصطفاه.

والآية هادية إلى السنن الشرعية الجامعة ترغيباً في استباق الخيرات، وتحصيل
الدرجات، وتكثير النعم، وترهيباً من النسيان والكفران، ونزول النقم، ففي هذه الآية وفق ميزان
السياق أربع من أصول السنن الشرعية، وهي:

السنة الأولى: سنة ذكر الله تعالى، قال الله تعالى: "فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ".

وهي ظاهرة في **منطوق النص**: قال الله تعالى: "فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ"، وذكر الله تعالى
منه الواجب، ومنه المندوب، فالله تعالى يأمر عباده بذكره؛ ليجازيهم بذكرهم ذكراً منه، وذكره
إياهم أكبر وأنفع لهم وأصلح في الدنيا والآخرة، وذكر الله روح تحيي القلوب، ونور يضيء
السُّبُل، وروح يزِيل الضَّنك، ونعيم يذهب الشقاء، وأحسن الأُمّة ذكراً لله، وأسعدهم به هو

^١ رواه أحمد، ح ٢٢١٧٢، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح غير عقبة بن مسلم، وأبو داود ح ١٥٢٤، وصححه الألباني.

الرسول محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه، فجزاهم الله أحسن الجزاء، فأكرمهم، ونعمهم، ورفع ذكرهم، واستخلفهم في الأرض، ومكّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وأبدلهم من بعد خوفهم أمناً.

ولما غفلنا عن ذكر الله تعالى إلا قليلاً، وأعرض فريق عريض عن ذكر الله تعالى، وذكره فريق بخلاف ما شرع، فاتنا الجزاء الحسن، ونزل بنا ما نزل، وحلّ بنا ما حلّ، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾^١.

سَفَرُ الْقُلُوبِ فِي ذِكْرِ عِلَامِ الْغُيُوبِ:

وما ينطلق قلب المؤمن سائحاً في حدائق ذكر الله ويستبقي إلا سقطت عن عينه الغشاوة، فيرى ما يُخَيِّرُ الأبصار من الآيات والأسرار، وينكشف الوقر عن سمعه، فيسمع ما لم يكن يسمع، فتظهر له الأشياء على حقيقتها، ويبصر ما في بطون الحوادث من الآيات والعبر، فيذوق من حلاوة ذكر الله ما لا سبيل إلى وصفه، ويريه الله تعالى من أقداره النازلة من السماء، وما يعرج فيها، وما يخرج من الأرض، وما يلج فيها.

وإذا رَقَّ القلب وصفاً، علا وارتفع؛ "فتفتح له أبواب السماء، فيجول في اقطارها وملكوها وبين ملائكتها، ثم يفتح له باب بعد باب؛ حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن، فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجده ورفعته، ويرى السموات السبع والارضين السبع بالنسبة إليه كحلقه ملقاة بأرض فلاة، ويرى الملائكة حافين من حوله، لهم زجل بالتسبيح

^١ سورة طه آية (١٢٤)

والتحميد والتقديس والتكبير، والأمر ينزل من فوقه بتدبير الممالك والجنود التي لا يعلمها إلا ربها ومليكها.

فينزل الأمر بإحياء قوم وإماتة آخرين، وإعزاز قوم وإذلال آخرين، وإسعاد قوم وشقاوة آخرين، وإنشاء ملك وسلب ملك، وتحويل نعمة من محلّ إلى محلّ، وقضاء الحاجات على اختلافها وتباينها وكثرتها من جبر كسير، وإغناء فقير، وشفاء مريض، وتفريج كرب، ومغفرة ذنب، وكشف ضرّ، ونصر مظلوم، وهداية حيران، وتعليم جاهل، ورد آبق، وأمان خائف، وإجارة مستجير، ومدد لضعيف، وإغاثة الملهوف، وإعانة عاجز، وانتقام من ظالم، وكفّ العدوان، فهي مراسيم دائرة بين العدل والفضل، والحكمة والرحمة، تنفذ في أقطار العوالم.

لا يشغله سمع شيء منها عن سمع غيره، ولا تغلظه كثرة المسائل والحوادث على اختلافها وتباينها واتحاد وقتها، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ولا تنقص ذرة من خزائنه، لا إله إلا هو العزيز الحكيم، فحينئذ يقوم القلب بين يدي الرحمن مطرقاً لهيبته خاشعاً لعظمته، عانيًا لعزته، فيسجد بين يدي الملك الحق المبين سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد، فهذا سَفَرُ القلب، وهو في وطنه وداره ومحلّ ملكه، وهذا من أعظم آيات الله وعجائب صنعته، فيا له من سفر! ما أبركه وأروحه! وأعظم ثمرته وربحه! وأجل منفعته وأحسن عاقبته! سفر هو حياة الأرواح، ومفتاح السعادة، وغنيمة العقول والألباب، لا كالسفر الذي هو قطعة من العذاب"^١.

^١ ابن القيم، محمد بن أبي بكر، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، دار الكتب العلمية- بيروت، ج ١/ ٢٠٢

وكم من قائم آناء الليل يرجو رحمة ربّه، ويخشى عذابه، يُصْرِفُ القرآنَ قلبه، فهو
سابع في السماء، سائح في جنّات عدن حينًا، فيرى ويسمع، وينعم، ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ
تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^١.

إن للحياة مع الله تعالى لحلاوة، وإن عليها لطلاوة، وإن أعلاها لمثمر، وإن أسفلها
لمغدق! والحياة مع الله تعالى لا تعزلك عن واقعك؛ لتهم في الوديان، أو تنقطع في جنّة ربوة،
أو تجمع إلى المغارات، والمدخلات، أو تتيه في الفلوات، كلاً! بل تسير بصاحبها تقيًا نقيًا،
ناصحًا مصلحًا، منكراً للمنكرات، مسارعًا في الخيرات، مجاهدًا في سبيل الله تعالى، لا يخاف
في الله لومة لائم؛ لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

وقد وَقَرَ في قلبي أن أخصّها بما فتح الله لي فيها، وأنشرها للمؤمنين، لتروي غليلاً،
وتشفي غليلاً، فإني ما تدبّرت هذه الآية، إلا أحسست بروحها تسري في بصيرتي، فإذا قلبي
طائر يتغنى بمعاني الآيات، فلا تسلّ كيف يتغنى القلب بمعاني الكتاب، فما لوصف احتفائه
بجمال المعاني وجلالها من سبيل! وما إن ينزل القلب نُزْلَهُ من آية في ظلّ ممدود، وعيون جارية،
وقطوف دانية؛ حتى تستلّمه أخرى، ولكلّ آية جلالها، وجمالها، وطيبها، وحلاوتها، وأنسها،
فيظل القلب ناعماً في جنّات لا يبغى عنها حولاً، وما من عبد يلزم ذكر الله تعالى إلا وجد
الله تعالى عنده، ففتح له بركات من السماء والأرض، وتساقطت الهموم من فوق قلبه، وذابت
مخاوفه كما يذوب الملح في الماء، وانقشعت عنه ظلمات الأحزان، واتسعت له السُّبل، فطابت

^١ سورة الأعراف آية (٤٧)

نفسه، وحسن خلقه، وانشرح صدره، وكساه الله ثوب العافية، فقوي بدنه، واستغنى عن زيارة الأطباء، وأخذ الدواء، ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^١.

ومن كثر دكره لله، كثر برّه، وغزُر علمه، واتسع حلمه، وغفرت آثامه، ورفعت أعلامه، وحسن كلامه، وقلّ ملامه، وطابت أيامه، واستغنى بصحبة القرآن والسُّنة، وجعلت قرّة عينه في الصلاة، ودنت منه الجنة، وتدلتّ إليه قطوفها، فتتلقاه بحورها، وجبورها، وثمارها، وأنهارها، وظلها الممدود، فنعم الورد المورد، ونعم النعيم المقيم، ويطلع منها في أصل الجحيم فيرى قرينه الأبق عن ذكر ربّه، فيستعيز من الفتن والخطايا، ويترك السفساف، وينشغل بالأشرف، ويفرّ إلى الله تعالى، فيتقي، ويرتقي، فتبارك الله ربّ العلمين.

أثر الذكر في الآخرة: ذكر الله تعالى سبب من أعظم أسباب الفلاح، والفوز بالجنة، والنجاة من النار، قال الله تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾^٢. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم؟ وأرفعها في درجاتكم؟ وخير لكم من إنفاق الذهب والورق؟ وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ " قالوا: بلى، قال: "ذكر الله"، فقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: ما شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله^٣.

السُّنة الثانية: سُنّة نسيان ذكر الله، وهي مستفادة ومستنبطة من مفهوم المخالفة في

قوله تعالى: "فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ"، فإن مفهومها: إن لم تذكروني، فلن أذكركم. وقد ذكر الله تعالى

^١ سورة الرعد آية (٢٨)

^٢ سورة الأحزاب آية (٣٥)

^٣ سنن الترمذي ح ٣٣٧٧، وصححه الألباني.

هذه السنة في مواطن من كتابه، كقول الله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾^١، وعاقبة نسيان الله تعالى وخيمة أليمة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾^٢.

ولما غفلنا عن ذكر الله تعالى إلا قليلاً، ونسينا، وأعرض فريق عريض منا عن ذكر الله تعالى، وذكره فريق بخلاف ما شرع، وأخلد من أخلد إلى الأرض، فاتنا الجزء الحسن، ونزل بنا ما نزل، وحلّ بنا ما حلّ، وما نسي عبد ذكر ربّه، فأعرض إلا احتوشته الفتن، وأحاطت به المخاوف والأحزان، وكثرت أسقامه، وتعاضمت آلامه، واجتالت الشياطين، فاستحوذت عليه، فخبثت نفسه، وضاعت عليه الأرض بما رحبت، وأذاقه الله مرارة الحياة وعذابها أضعافاً مضاعفة، والعبء يُتلى ويصيبه الضنك على قدر إعراضه، فمن عظمت غفلته عظم ضنكه، وله في الآخرة عذاب أليم، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾^٣. ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾^٤.

السنة الثالثة، والرابعة: سنة الشكر، وسنة الكفران، قال الله تعالى: "وَأَشْكُرُوا لِي، وَلَا تَكْفُرُونِ"، الأمر للوجوب، والنهي للتحريم، وقد بان لي من ميزان السياق أنهما سنتان؛ لأن الله تعالى قد أورد سنة الذكر بصيغة الطلب والجزاء في قوله تعالى: "فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ"، ودلنا بالمفهوم على السنة المقابلة لها (سنة جزاء النسيان)، وأما سنة الشكر فقد نصّ على الطلب، ولم يذكر فيها الجزاء، وصرّح بالطلب كذلك في السنة المضادة لها (سنة جزاء

^١ سورة التوبة آية (٦٧)

^٢ سورة الأنعام آية (٤٤)

^٣ سورة طه آية (١٢٤)

^٤ سورة الجن آية (١٧)

الكفران)، فترجّح لي أن الغاية من الآية بيان هذه السُنن طلبًا وجزاءً، واستدللت على هذا البيان بقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾^١، وأستأنس بقول الإمام الطبري: "ولكن اشكروا لي عليها، وأزيدكم فأتم نعمتي عليكم، وأهديكم لما هديت له من رَضيت عنه من عبادي، فإني وعدت خلقي أن من شكر لي زده، ومن كفرني حرمته وسلبته ما أعطيته"^٢.

كثرة النعم توجب الشكر الكثير:

ذات ليلة -قبل بضع سنين- أخذت أتدبر قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^٣، فقلت لنفسي: يا ابن أمّ، ألا جرّبت أن تعدّ نِعَمَ الله التي تنزل في ساعة واحدة عليك، أتدري ما النعم التي تحتاج إليها؛ لتبقى معافي في بدنك، آمنًا في سربك لمدة ساعة فقط؟ قسّمت النعم الكلية التي أفنقر إليها إلى أقسام:

القسم الأول: النعم الحاضرة، وهي كلّ ما أحتاج إليه ممّا يحيط بي، ووجدت أن من

أهمها:

-استقرار السماوات والأرض؛ حتى لا تزولا، فتמיד بي الأرض، أو تقع السماء عليها، فنظرت في الأسباب التي أحتاج إليها؛ لتستقرّ السماوات فلا تقع على الأرض، ولا تמיד بي الأرض، فإذا هي كثيرة لا تحصى؛ فأعدت النظر كرّتين، فانقلب إلي خاشعًا وهو حسير، فلئن اجتمع الخلق كلّهم ما استطاعوا على ذلك، فتذكّرت قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمِصُّكَ

^١ سورة إبراهيم آية (٧)

^٢ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٣/٢١٢

^٣ سورة إبراهيم آية (٣٤)

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أُمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا^١، والفعل المضارع: "يُمْسِكُ" يدلّ على تحدّد افتقار السماوات والأرض إلى من يمسكهما، ولو تركتا لزالتا في طرفة عين! وكذلك حال الشمس في فلکها، فلو اقتربت لأحرقتنا، ولو ابتعدت لتجمّدا من شدة البرد، وها أنا أقف على جلد الأرض، وهو قشرة رقيقة تحتها نار تَلْطِئُ، من يمسكها فلا تفور براكينها، ولا تنزل؟ إنه الله تعالى!

ثمّ الشرور والأخطار التي تنتشر حولي بسبب بشريّ أو حيواني، ممّا لا يعلمه إلا الله تعالى، وما كورونا - حفظنا الله وإياكم - عنّا ببعيد! من يدفعها عني؟

القسم الثاني: هي النعم الواقعة في نفسي، قلت: وأول النعم الكبرى لإبقاء الجسد حيًّا هو استقرار الروح في الجسد، ثمّ قلت: كيف؟ والله يتوفّاها كلّ ليلة ثمّ يرسلها، ويردّها عليّ، ترى من يرجعها "إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ"؟ وأما حاجة البدن إلى الماء، والغذاء، وعمل الأجهزة، وغيرها فلا تحصى!

القسم الثالث: النعم الروحيّة -صليّ بالله- التي تجعلني سعيدًا مطمئنًا، ولا أُلقي بنفسي في المهالك، فلما فرغت من هذا التفكّر والتدبّر أيقنت أنني لو جمعت كلّ حاسوب، وكلّ آلة حاسبة في الأرض لما أحصيت نعم الله عليّ. ربّاه! عفوك ومغفرتك! لك الحمد؛ حتى ترضى.

فقلت لنفسي: أيها العبد الضعيف، ما أشدّ افتقارك إلى رحمة ربّك! هلّا أحسنت ذكر ربّك جلّ ثناؤه وتقدّست أسماؤه، وأحسنت شكره، وعبادته... "وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ

^١ سورة فاطر آية (٤١)

إِلَيْكَ". وانظر سيئات أعمالك، فتخلص منها بالتي هي أحسن، وأبشر، فإن الله يعطي،
ويضاعف أضعافاً كثيرة، ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

عاقبة الكفران: قال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾^١، وسوف أسوق
لكم في جزاء كفران النعم قصة من بلدي الطيب أرض سبأ، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ
فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ
* فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ
سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي
بَارَكْنَا فِيهَا قُورًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ
أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ
شَكُورٍ﴾^٢.

لقد ذهب سيل العرم بالجننتين، وتفرق الناس في البلاد، واليوم تتجدد الآية في اليمن
كله، فقد مزقنا الحرب كل ممزق، ومسّ تلك الديار طائف من عذاب الخوف والجوع، فهل
من مدكر؟ والحديث ذو شجون! والمخرج قريب منّا كجبل الوريد، ألا وهو التوبة من خطيئة
الإعراض، وذلك بالاستجابة والإقبال على ما دعانا الله تعالى إليه. وبركات القرآن الكريم كوثر
غير ممنون. أرايت كيف تنفذ كلماته إلى القلوب فتصبغها بصبغة الرحمة والحكمة، وتؤلف
بينها، وتذهب عنها رجز الشيطان، وفتنته، فتستقر القلوب على أريكة المحبة وبين يديها يمتد
أفق الرجاء الواسع!

^١ سورة إبراهيم آية (٧)

^٢ سورة سبأ آية (١٥-١٩)

اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ

الصَّابِرِينَ﴾^١.

من لطف الله تعالى بالمؤمنين تنزيل القرآن الكريم منجّماً؛ ليهديهم إلى أقوم السبل، ويصبرهم بما يحتاجون إليه بالتدريج، ومن عادة القرآن الكريم أنّه إذا ذكر شراً أو سوءاً، أو فتنة أو مصيبة أو مشكلة أتبعها بذكر العلاج الأحسن، وبيان المخرج منها، ولم يتركها معلقة أو كالمعلقة، فعندما ذكر الله تعالى المؤمنين بالنعم، بيّن الله تعالى لهم أهمّ سنّة لحفظ النعم وزيادتها، وهي سنّة الشُّكر، ولما أراد أن يصبرهم بما سيجدون من الابتلاء، والشدائد، والمصائب، أعلمهم بالسنّة المعينة على اجتياز أهوال الابتلاء، ومعالجة تلك الشدائد، وتمكّنهم من الفوز والفلاح في الدارين ألا وهي سنّة الصبر. وهي سنّة معادلة لسنّة الشكر.

وبعد تطوافٍ مبارك في جنّات آية الذكر والشكر، ها هي تسلمي بلطف إلى التي تليها؛ فيبادرنى نداء ربّي -تقدّست أسماؤه- آخذاً بجناح قلبي إلى حدائق أنس ذات بهجة فيها فرح ونعيم، فيزودني بعمّة وزاد، ويكسوني بلباس الحفظ والعناية والقوّة، ويأخذ بيدي على صراط الصحبة، والاقتراب "إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ"! فتغمر القلب ألوان من نعيم الرضوان، والروح، والسكينة، والريحان.

^١ سورة البقرة آية (١٥٣)

والأمر بالاستعانة بالصبر والصَّلاة ينبئ عن استقبال مرحلة جديدة عامرة بالطاعات
العظام الجسام كالجهاد، والحجّ، مرحلة محفوفة بالشدائد، وقد اقتصر على ذكر الصبر
والصلاة؛ لأنهما أصل العُدّة؛ لإحسان التلقّي، وإتقان الترقّي في سُلّم العبوديّة في جميع
الأحوال اللّينة والخشنة. إن ارتقاء الأُمّة وتقدّمها يوجب توطين الأنفس وتهيئتها لركوب
الأخطار، وخوض البحار؛ فإنّه لا يقوى على أداء المهمات الجسام، وحمل الأثقال، وخوض
الشدائد، واقتحام العقاب إلا من تزوّد من الصبر والصلاة. وهنا توثبت إليّ أسئلة من كلّ
حدب! فأخذت بتلايب قلبي: ما المراد بالصبر؟ وما الصلاة التي تحقّق المقصود؟ أصلاتنا هذه
التي نؤدّيها ونحن فيها غافلون؟ ألا يبيّن! أقول: إن هذا يطول شرحه، ولكن ما من بيانه بُدّ،
وإني مجيب إن شاء الله تعالى وموجزٌ ما استطعت. أقول: في هذه الآية أصول جامعة، منها:

الأصل الأول: المنادي: هو ربّنا الرحيم العليم بكلّ شيء، فهو يعلم قدراتنا،
وافتقارنا، وحاجاتنا، وما يضرّنا، وما ينفعنا.

الأصل الثاني: المنادّون: وهم المؤمنون، وقد اختصّ ربُّنا عزّ وجلّ المؤمنين بهذا النداء
الكريم: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا"، وهذا هو النداء الثاني في سورة البقرة، وقد تكرّر في القرآن
الكريم تسعين مرّة^١، وفي هذه التسمية تزكيةٌ وأيّ تزكية، وتسوية تمحو عُيَّة الجاهليّة، "يا"
حرف نداء للقريب والبعيد، وأيّ نكرة مقصودة، وهما للتنبيه، والاسم الموصول "الذين" من
صيغ العموم، والفعل: "آمنوا" في سياق الإثبات مطلق يمتدّ بشعبه وحقيقته الشرعيّة؛ ليشمل
جميع شرائع الإسلام: فهو اعتقاد بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالأركان، وقد عمّ هذا النداء

^١ انظر: الجزائري، جابر بن موسى، نداءات الرحمن لأهل الإيمان، المكتبة العصريّة، بيروت، ط ٣، ١٤٢٣هـ، ص ٧، وقد عدّها الرازي في تفسيره ثمانية وثمانين، وتبعه في الخطأ الهرري في حقائق الروح والريحان ولم يشر إلى المصدر.

كلّ من اتصف بهذا الوصف الكريم من الرجال والنساء بقطع النظر عن ماله، وجماله، وجاهه، ولونه، ونسبه، ووطنه، فقد جمع شملهم تحت لواء واحد، فهم يدّ على من سواهم، يسير بذمتهم أدناهم.

الأصل الثالث: جواب النداء: وسندّكر من جواب النداء ما ورد في الآية فقط.

الأصل الرابع: الأمر بالاستعانة: "اسْتَعِينُوا" الأمر بالاستعانة للوجوب، والاستعانة تدلّ على افتقار المستعين إلى الإعانة، وافتقار العباد إلى عون الله تعالى فقرّ عامّ مطلق، فهم ذوو حاجة وافتقار، ونقص وعجز، ولا قيام لحياهم إلا بعون الله تعالى. الفعل "اسْتَعِينُوا" في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ"، فالاستعانة بالصبر والصلاة فريضة، والتفريط فيها معصية يؤاخذ عليها العبد. وهي طلب العون، والعون إمداد بالقوة والقدرة؛ لجلب المنافع والمصالح، ودفع الأضرار والمفاسد.

الأصل الخامس: المأمورون بالاستعانة: فالضمير "واو الفاعل" في الفعل "اسْتَعِينُوا" يعمّ لأنه عائد على عامّ وهم المذكورون في صدر الآية: الذين آمنوا، والمؤمنون كالعالمين أجمعين فقراء إلى الحيّ القيوم، بل هم أعلم الناس بالافتقار إلى الله تعالى، وبسبل الاستعانة بالله تعالى.

الأصل السادس: المستعان به: الصبر والصلاة قال الله تعالى: "اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ". فقد أمرهم بما يثبت أقدامهم على الصراط المستقيم؛ لأن المرحلة الجديدة وما يترتب عليها من الوظائف والمواقف ثقيلة شاقّة، فأرشدهم الله تعالى إلى خير ما يستعان به. وما أشدّ حاجة من اتبع الحقّ إلى العون للمضيّ قُدماً على الصراط المستقيم، ودفع الباطل وأخطاره، وقد دهم الله تعالى على الزاد والعتاد.

الأول: الصبر: "الصَّبْرُ": والصبر المشروع هو ركون القلب إلى العليّ العظيم، وتثبيت القدم على الصراط المستقيم. "أل" في "الصَّبْرُ": للعموم، فهو يعمّ جميع أنواع الصبر: الصبر على الطاعات، والصبر عن المعاصي والسيئات، والصبر على ما وقع من الأقدار الكونية، والصبر على دفع الأقدار الواقعة، والصبر على إعداد ما تُتقى به الأقدار المتوقعة. وأعلىها رتبة الصبر على الطاعات؛ لأنه صبر على فعل ما يحبّه الله ويرضاه، وأوسطها الصبر عن المعاصي، وهو صبرٌ على ترك ما ييغضه الله تعالى وما ييغضبه، وأدناها الصبر على الأقدار الكونية، وهو صبر على ما نزل بالعبد من الأقدار، فمن رضي بالقدر فله الرضا، ومن سخط فعليه السخط. قال العلامة ابن القيم: "والصَّبْرُ من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وهو ثلاثة أنواع: صَبْرٌ على فرائض الله، فلا يُضَيِّعُهَا، وصَبْرٌ عن محارمه، فلا يرتكبُهَا، وصَبْرٌ على أقضيته وأقداره، فلا يتسخطُهَا، ومن استكمل هذه المراتب الثلاث، استكمل الصبر. ولذّة الدنيا والآخرة ونعيمها، والفوز والظفرُ فيهما، لا يصل إليه أحدٌ إلا على جسر الصبر، كما لا يصل أحدٌ إلى الجنّة إلا على الصِّراط، قال عمرُ ابن الخطاب رضي الله عنه: خيرُ عيشٍ أدركناه بالصَّبْر. وإذا تأملتَ مراتبَ الكمال المكتسب في العالم، رأيتها كلها منوطةً بالصَّبْر، وإذا تأملتَ النقصان الذي يُدْمُ صاحبه عليه، ويدخل تحت قدرته، رأيتَه كله من عدم الصبر، فالشجاعة، والعفة، والجود، والإيثار، كله صبرٌ ساعة"^١. وقد تتبع رحمه الله تعالى ما للصّابرين

^١ ابن القيم، محمد بن أبي بكر، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ٢٧، ١٤١٥ هـ، ج ٤/ ٣٣٣

من كنوز موضوعة لا مقطوعة ولا ممنوعة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَفِّقُ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ

حِسَابٍ﴾^١

- "الصَّلَاةُ": "أل" للعموم، و"الصَّلَاةُ": حقيقة شرعية، وهي فرائض ونوافل، وهي من أعظم ما يُتَقَرَّبُ به إلى الله تعالى، وأنفعها في جلب المصالح ودرء المفاسد عظيم، وقد جعل الله تعالى أسبابًا يُتَوَسَّلُ بها إليه؛ لتحصيل عونه، فمن استعان بما يحبّه الله تعالى ورضاه، هُدي وكُفي وأفلح، ومن توَسَّلَ بما يُسَخِّطُ الله تعالى أثِمَ وغرِمَ وخسر. ولكن ما الصلاة التي يستعان بها؟ ما الصلاة التي يظهر أثرها على العباد؛ فتنهاهم عن الفحشاء والمنكر، وتجلب لهم الصلاح والفلاح، وتفتح لهم خزائن رحمة الله تعالى؟ ما أحوجنا إلى من يذكّرنا قبل كلّ صلاة بإحسان الصلاة؛ لنصلي صلاة مودّع، وكم من مصلٍّ حقيق بأن يقال له عقب صلاته: "ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ"، أقول: إننا كثيرًا ما نخرج من الصلاة، ونحن لا ندري كيف صلينا، فيذهب علينا جلّ الأجر، فعن عمار عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن العبد لينصرف من صلاته ولم يكتب له منها إلا نصفها إلا ثلثها حتى قال: إلا عشرها"^٢، فإذا أراد العبد أن يصلي الصلاة النافعة، فليُتِمَّها كما علّمنا رسول الله، وفي صلاته عليه الصلاة والسلام أسوة.

قال العلامة ابن القيم: "والصلاة مجلبة للرزق، حافظة للصحة، دافعة للأذى، مطردة للأدواء، مقوية للقلب، مبيضة للوجه، مُفْرِحةٌ للنفس، مُذهبةٌ للكسل، منشّطةٌ للجوارح، ممّدة

^١ سورة الزمر آية (١٠)

^٢ الطحاوي، أحمد بن محمد، شرح مشكل الآثار، ت: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ١٤١٥هـ، ح ١١٠٥، وهذا الحديث حسنه الألباني، والأرنؤوط.

للقوى، شارحة للصّدر، مغذية للروح، مُنوّرة للقلب، حافظة للنعمة، دافعة للنقمة، جالبة للبركة، مُبعدة من الشيطان، مُقرّية من الرحمن.

وللصلاة تأثيرٌ عجيب في دفع شُرور الدنيا، ولا سيّما إذا أُعطيت حقها من التكميل ظاهراً وباطناً، فما استُدفعتْ شُرورُ الدُّنيا والآخرة، ولا استُجلبتْ مصالحُهما بمثل الصلاة، وسِرُّ ذلك أنّ الصلاة صِلَةٌ بالله عَزَّ وَجَلَّ، وعلى قدر صِلَةِ العبد بربه عَزَّ وَجَلَّ تُفتح عليه من الخيرات أبوابها، وتُقطع عنه من الشرور أسبابها، وتُفيضُ عليه موادّ التوفيق من ربه عَزَّ وَجَلَّ، والعافية والصحة، والغنيمة والغنى، والراحة والنعيم، والأفراح والمسرات، كلها محضرةٌ لديه، ومسارعةٌ إليه^١.

وكأين من عابدٍ بكى أسفاً على تفريطه في الصلاة بعد أن علم حقيقة الصلاة وأسرارها، وقد تأملت حيناً من الدهر في الصلاة، فأدهشني التوافق بين أفعالها، وأقوالها، وكيف يتعاقد فيها الجنان (القلب) واللسان والأركان (الجوارح)، فقسّمتُ الصلاة إلى مقامات ومنازل، وأعطيت كلّ منزلة حقّها من النظر والتدبُّر فيما يخصّها من الأفعال والأقوال المشروعة، فوجدتها مليئة بالأسرار والعجائب، وتيقنت أن نزول العبد ضيفاً على ربّه في "الصلاة" شيءٌ عظيم، وبدأت أجاهد نفسي في شهود هذه المنازل، وأحاسيسها، وسعدت بالصلاة وأحسست بأثرها، وكلما زاد الإيمان كان أثرها أعظم، ثمّ وقع في يدي بعد أمدي كتاب "الصلاة وحكم تاركها" للعلامة ابن القيم، فزادني يقيناً، وأسفت أننا لم ندرّس مثل هذا الكتاب، وخاصّة مبحث: "أسرار الصلاة"، وقد نصحت به ذات يوم بعض الدعاة، فدلّني أحدهم على كتاب: "أول مرة أصلي، وكان للصلاة طعمٌ آخر" للدكتور خالد أبو شادي،

^١ ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، مرجع سابق، ج ٤ / ٣٣٢ بتصرف يسير.

فوجدت أنه قد وقع له من الدهشة ما وقع لي؛ حتى إنه بالغ فقال: "أحسست أني لم أكن أصلي قبل هذه الرسالة، وصرت واقفاً أصلي أمام الكعبة، وكأني أصلي لأول مرة"، وقد استخلص كتابه من كتاب ابن القيم، ورتبه وقرّبه.

وأنا أظنّ أنه ما قرأ أحد كتاب ابن القيم إلا استفاد من غفلة، وندم على ما فاته، فتاب، وأصلح صلاته، وتغيّرت أحواله. وسوف أختصر مقصود ابن القيم، وأذكر ما تيسر من أسرار الصلاة ومقاصدها وفق الأركان التي بيّنها السنّة أحسن بيان، ومن ذلك ما ورد في حديث المسيء صلاته، فعن أبي هريرة: "أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فدخل رجلٌ فصلى فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم فردّ وقال ارجع فصل فإنك لم تصل فرجع يصلي كما صلى ثم جاء فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال ارجع فصل فإنك لم تصل ثلاثاً فقال والذي بعثك بالحق ما أحسن غيرهُ فعلمني فقال إذا قُمتَ إلى الصلّة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئنّ راکعاً ثم ارفع حتى تعتدل قائماً ثم اسجد حتى تطمئنّ ساجداً ثم ارفع حتى تطمئنّ جالساً وافعل ذلك في صلاتك كلّها".^١

وإليك ما تيسر من أسرار شُهود المعاني والمباني في أقوال الصلاة وأفعالها:

المشهد الأول: هو قيام العبد بين يدي ربّ العالمين مقبلاً على الله تعالى بقلبه ووجهه، معرضاً عمّا سواه، فكمال اتصال القلب بالخالق يكون على قدر كمال انفصاله عن الخلق، وقد أمرنا الله بالمحافظة على الصلاة والقيام إليها بما تستحقّه من القنوت والإخبات، فقال الله تعالى: "حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ"، قوله تعالى:

^١ أبو شادي، خالد، أول مرة أصلي وكان للصلاة طعم آخر، دار الراجية، ط٤، ٢٠١٠م، ص ١٢.

^٢ رواه البخاري ح ٧٥٧، ومسلم ح ٩١١.

"وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ"، يدلّ على وجوب إخلاص القيام لله تعالى وحده، فإذا قام العبد قانتًا لله تعالى أكرمه الله تعالى برحمته، وفضله، وإحسانه، وإكرامه، وإنعامه، وقربه، وأنسه على قدر حضور قلبه وخشوعه؛ حتى يفيض قلب العبد المحسن حبًّا، وخشية، ورجاء، وسكينة، وهدى، ورضا. فمن تهيأ للقاء الله تعالى، وأحبّ لقاء الله تعالى أحبّ الله لقاءه، فإن من أعظم الجفاء أن تقوم إليه، وأنت مشغول عنه غافل! فما قدر الله تعالى حقّ قدره من قام للقاء ربّه، وقلبه معلقٌ بغيره.

المشهد الثاني: مقام التحريم، "إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ": فإذا قام العبد بين يدي الربّ تبارك وتعالى، فقال الله تعالى أكبر، فقد أسلم وجهه لله، وقد امتلأ قلبه بالتكبير والتعظيم والإجلال والتوحيد، ونزل ضيقًا على الله تعالى، فما أعظم المكرم! وما أسعد الضيف! فمن أحسن هذا الركن تيسّر له ما بعده، وكان شهود قلبه لأركان الصلاة جليلاً، ووجد الله تعالى عنده، فأكرمه ونعمه. ومن فاته شهود هذا الركن بما يستحقّه من الخشوع والتعظيم، فاتته خير كثير، وأصيب صلاته مصاباً عظيماً.

المشهد الثالث: مقام قراءة القرآن: ويبدأ بالاستعاذة، "فإذا قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فقد عاذ بمعاذ، فلم يضرّه شيء. ثمّ يقرأ الفاتحة: مبتدئاً بالبسملة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^١، والاستفتاح بتسمية الله تعالى مفتاح للخير والبركات، مغلاقاً للشرور والسيئات.

^١ سورة الفاتحة الآية (١)

وهي وصيلة تصل المنقطع، وتقوّي صلة المتصل بالله تعالى، فتصل الضعيف بالقوي، والفقير بالغنيّ الكريم، والمحتاج بالصمد الوهاب، والعاجز بالقادر، والجاهل بالعليم الحكيم، والمريض بالشافي، والملهوف بالمغيث الكافي.

وهي توثيق متجدّد للصلة بين العبد وربّه، ولهج بالثناء على الغنيّ الحميد، قال الإمام الطبريّ: "إن الله تعالى ذكره وتقدّست أسماؤه أدّب نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بتعليمه تقديم ذكر أسمائه الحسنی أمام جميع أفعاله"^١.

والبسملة فضيلة ترفع الدرجات، فهي آية من أعظم سورة، لا تعلم نفس ما أخفي لها من أجرٍ في ذكرها هذه الآية، والاستفتاح بها. إنها تجرّد العزم من كلّ شائبة شرك، والبدء بها فيه اعتصام بالله تعالى وحده، وإطراح لكل ما يُتوسّل به من دون الله تعالى، وإقرار بالافتقار المطلق إلى معونة الله تعالى. فهي أصل من أصول العبّاد.

والبسملة وسيلة، وهي أعظم مفتاح تستفتح به خزائن الرحمات والبركات والمصالح، وتتقى به الشرور والمفاسد، إنها المفتاح الأعظم للبرّ والتقوى، والعاصم من الإثم والعدوان. وهي سرّ كريم، لا يوفق إلى النطق به إلا ذو حظ عظيم، من نطق بها فقد استمسك بالعروة الوثقى، فهدي ووقّي وكفي، وهي ذكر شريف، من تركه، محقت بركة نعمه بتركه، وكان عرضة لأسباب هُلكه، وانقطاع سلّكه.

ولقد تضمّنت البسملة سرّ الخلق والأمر، ففي مطلعها ورد الاسم الكريم: "الله" ذو الجلال المطلق المستحقّ لتوحيد العبادة، وقد بيّن الله تعالى هذا الاستحقاق في قوله تعالى:

^١ الطبريّ، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ١/١٤١

"إياك نعبد". وقد بين الرسول عليه الصلاة والسلام ما للعبد إذا قرأ الفاتحة في الصلاة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَتَرَفَّ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ ثَلَاثًا غَيْرُ تَمَامٍ، فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الْإِمَامِ، فَقَالَ اقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "قَالَ اللَّهُ تَعَالَى قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى حَمْدِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قَالَ مَجْدِي عَبْدِي، وَقَالَ مَرَّةً فَوُضَّ إِلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قَالَ هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ"^١. قال ابن القيم: "فيا لذة قلبه، وقرة عينه، وسرور نفسه بقول ربه: "عبدني ثلاث مرات، فوالله، لولا ما على القلوب من دخان الشهوات، وغيم النفوس، لاستطيرت فرحًا وسرورًا بقول ربها وفاطرها ومعبودها: حمدي عبدني، واثنى علي عبدني، ومجدي عبدني، ثم يكون لقلبه مجال من شهود هذه الأسماء الثلاثة التي هي أصول الأسماء الحسنى، وهي الله، والرب، والرحمن، فشاهد قلبه من ذكر اسم الله تبارك وتعالى إلهًا معبودًا موجودًا مخوفًا لا يستحق العبادة غيره، ولا تنبغي إلا له، قد عنت له الوجوه، وخضعت له الموجودات، وخشعت له الأصوات، تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن.

وشاهد من ذكر اسمه رب العلمين قيومًا قام بنفسه، وقام به كل شيء، فهو قائم على كل نفس بخيرها وشرها، قد استوى على عرشه، وتفرد بتدبير ملكه، فالتدبير كله بيديه،

^١ رواه مسلم ح ٥٩٤

ومصير الأمور كلّها إليه، فمراسيم التدبيرات نازلة من عنده على أيدي ملائكته بالعطاء، والمنع، والخفض، والرفع، والإحياء، والإماتة، والتوبة، والعزل، والقبض، والبسط، وكشف الكروب، وإغاثة الملهوفين، وإجابة المضطرين.

ويشهد عند ذكر اسم الرحمن جلّ جلاله ربًّا محسنًا إلى خلقه بأنواع الإحسان، متحيّين إليهم بصنوف النعم، وسع كلّ شيء رحمة وعلماً، فوسعت رحمته كلّ شيء، ووسعت نعمته كلّ حيٍّ، فبلغت رحمته حيث بلغ علمه، فاستوى على عرشه برحمته، وخلق خلقه برحمته، وأنزل كتبه برحمته، وأرسل رسله برحمته، وشرع شرائعه برحمته، وخلق الجنة برحمته، والنار أيضاً برحمته؛ فإنها سوطه الذي يسوق به عباده المؤمنين إلى جنته، ويظهر بها أدران الموحدين من أهل معصيته، وسجنه الذي يسجن فيه أعداءه من خليقته.

فإذا قال "مالك يوم الدين" شهد المجد الذي لا يليق بسوى الملك الحقّ المبين، فيشهد ملكاً قاهراً قد دانت له الخليقة، وعنت له الوجوه، وذلت لعظمته الجبابرة، وخضع لعزته كلّ عزيز، فيشهد بقلبه ملكاً على عرش السماء مهيمناً، لعزته تعنو الوجوه، وتسجد.

فإذا قال: "إياك نعبد وإياك نستعين" ففيها سرُّ الخلق والأمر، والدنيا والآخرة، وهي متضمنة لأجل الغايات، وأفضل الوسائل، فأجل الغايات عبوديته، وأفضل الوسائل إعانته، فلا معبود يستحق العبادة إلا هو، ولا معين على عبادته غيره، فعبادته أعلى الغايات، وإعانته أجل الوسائل، وقد اشتملت هذه الكلمة على نوعي التوحيد، وهما توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية، وتضمنت التعبد باسم الربّ، واسم الله، فهو يعبد بالوحيته، ويستعان بربوبيته، ويهدي إلى الصراط المستقيم برحمته.

ثم يشهد الداعي بقوله "اهدنا الصراط المستقيم" شدة فاقته وضرورته إلى هذه المسألة التي ليس هو إلى شيء أشد فاقة، وحاجة منه إليها البتة، فإنه محتاج إليه في كل نفس وطرفة عين، وهذا المطلوب من هذا الدعاء لا يتم إلا بالهدية إلى الطريق الموصل إليه سبحانه، والهداية فيه.

ولما كان العبد مفتقرًا في كل حال إلى هذه الهداية في جميع ما يأتيه ويذره، فرض الله سبحانه عليه أن يسأله هذه الهداية في أفضل أحواله مرات متعددة في اليوم والليلة.

ثم بيّن أن أهل هذه الهداية هم المختصون بنعمته دون المغضوب عليهم، وهم الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه، ودون الضالّين وهم الذين عبدوا الله بغير علم، فالطائفتان اشتركتا في القول في خلقه وأمره وأسمائه وصفاته بغير علم، فسيل المنعم عليه مغايرة لسبيل أهل الباطل كلّها علمًا وعملاً.

فإذا فرغ من هذا الثناء والدعاء والتوحيد، شرع له أن يطبع على ذلك بطابع من التأمين.

وأفضل أذكار الصلاة ذكر القيام، وأحسن هيئة المصلي هيئة القيام، فخصت بالحمد، والثناء، والمجد، وتلاوة كلام الربّ جلّ جلاله، ولهذا ورد النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود؛ لأنهما حالتا ذلّ وخضوع، وتطامن، وانخفاض؛ ولهذا شرع فيهما من الذكر ما يناسب هيئتهما^١.

^١ ابن القيم، محمد بن أبي بكر، الصلاة وحكم تاركها، ت: بسام الجابي، دار ابن حزم - قبرص - بيروت، ط ١، ١٤١٦ هـ، ص ٢٠٢ - ٢٠٦ بتصرف.

المشهد الرابع: مقام الركوع: عن ابن عباس قال: كشف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الستارة، والناس صفوف خلف أبي بكر، فقال: "أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له، ألا وإني نهيته أن أقرأ القرآن راكعًا أو ساجدًا، فأما الركوع فعظموا فيه الربَّ عزَّ وجلَّ، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقمن أن يستجاب لكم".^١

المشهد الخامس: الرفع من الركوع:

عن أبي سعيد الخدري قال كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا رفع رأسه من الركوع قال: "رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُنَّا لَكَ عَبْدًا، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجُدُّ".^٢

المشهد السادس: السجود

وفي هذا المنزل يكون العبد أخضع ما يكون، فجازاه الله تعالى بقربه؛ لأن عبادة الله تعالى كرامة وعزة للعبد، ومن تواضع لله تعالى رفعه، فعن أبي هريرة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال "أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثرُوا الدعاء"^٣، "وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمن أن يستجاب لكم"^٤. وعن حذيفة قال صليت مع النبي -صلى الله عليه وسلم- ذات ليلة فافتتح البقرة فقلت يركع عند المائة. ثم مضى فقلت: يصلي بها في

^١ رواه مسلم ح ١١٠٢

^٢ رواه مسلم ح ١٠٩٩

^٣ رواه مسلم ح ١١١١

^٤ رواه مسلم ح ١١٠٢

ركعة، فمضى فقلت: يركع بها. ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها، يقرأ مترسلاً إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ، ثم ركع فجعل يقول: "سبحان ربّي العظيم". فكان ركوعه نحواً من قيامه ثم قال "سمع الله لمن حمده". ثم قام طويلاً قريباً مما ركع، ثم سجد فقال: "سبحان ربّي الأعلى". فكان سجوده قريباً من قيامه^١.

المشهد السابع: الفصل بين السجدين عن ابن عباس: أن النبي صلى الله عليه

وسلم كان يقول بين السجدين "اللهم اغفر لي وارحمني واجبرني واهدني وارزقني"^٢.

المشهد الثامن: جلسة التشهد، فيجلس العبد بين يدي ربّه جاثياً على ركبتيه

خاشعاً، متوركّكاً أو مفترشاً قدميه، فيقدّم التحيات لله تعالى، ثمّ يُلقِي السلام رسول الله وعلى عباد الله الصالحين، ثمّ يتشهد، فعن عبد الله بن مسعود، قال: "كُنَّا إِذَا صَلَّيْنَا خَلْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْنَا السَّلَامُ عَلَى جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ فَالْتَفَتَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ فَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيُقِلِّ التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ السَّلَامُ عَلَيْنَا، وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ فَإِنَّكُمْ إِذَا قُلْتُمُوهَا أَصَابَتْ كُلَّ عَبْدٍ لِلَّهِ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ"^٣. قال ابن القيم: "فالتحية تتضمن الحياة والبقاء والدوام، ولا يستحقّ أحد هذه التحيات إلا الحي الباقي الذي لا يموت ولا يزول ملكه، وكذلك قوله: والصلوات، فإنه لا يستحقّ أحد الصلاة إلا الله عزّ وجلّ، والصلاة لغيره من

^١ رواه مسلم ح ١٨٥٠

^٢ سنن الترمذي ح ٢٨٤

^٣ رواه البخاري ح ٨٣١، ومسلم ح ٩٢٤.

أعظم الكفر والشرك به، وكذلك قوله: والطيبات، هي صفة الموصوف المحذوف أي الطيبات من الكلمات، والأفعال، والصفات، والأسماء لله وحده.

وجعلت كلمات التحيات في آخر الصلاة بمنزلة خطبة الحاجة أمامها، فإن المصلي إذا فرغ من صلاته جلس جلسة الراغب الراهب يستعطي من ربه ما لا غنى به عنه، فشرع له أمام استعطائه كلمات التحيات مقدمة بين يدي سؤاله، ثم يتبعها بالصلاة على من نالت أمتة هذه النعمة على يده، فكأن المصلي توسل إلى الله سبحانه بعبوديته، ثم بالثناء عليه، والشهادة له بالوحدانية، ولرسوله بالرسالة، ثم الصلاة على رسوله، ثم قيل له تخير من الدعاء أحبه إليك، فذاك الحق الذي عليك، وهذا الحق الذي لك. فإذا أتى بها المصلي، أمر أن يستعيز بالله من مجامع الشر كله^١.

المشهد التاسع: التسليم، وبه يخرج العبد من الصلاة، والعبد الخارج من الصلاة عائد من زيارة من في السماء محملاً بأعظم الخلل والعطايا! فحق أن يتلقانا ونتلقاه بالسلام! وقد شرع من الأذكار بعد السلام: اللهم أنت السلام، اللهم أعني على ذكرك وشكرك، والتسبيح والتحميد والتكبير شكرًا ورضا.

^١ ابن القيم، الصلاة وحكم تاركها، مرجع سابق، ص ٢١٥-٢١٦ بتصرف يسير.

الأصل السابع: المستعان عليه: لم يصرّح في الآية على أي شيء نستعين؛ لدلالة على العموم، ويمكننا تقديره وتقريبه بقولنا: على أمور الدين والدنيا (جلب النفع والخير ودفع الضرر والشر). فلا يُجَلَّب نفع ولا يُدفع ضرر إلا بعون من الله تعالى!

الأصل الثامن: الصبر وسيلة لحصول معية الله تعالى، قال الله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ"، قال الله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ"، "الصَّابِرِينَ" صفة صريحة تعم كل صابر، والآية تتضمن سنة إلهية لا تتبدل: من تحلّى بصفة الصبر، كان الله تعالى معه، ومن كانوا مع الله تعالى، هان عليهم التقدّم واستباق الخيرات، وكانوا في حفظ تام، ورعاية مطلقة، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ.

وأول موضع ذُكر فيه اسم الله تعالى مع وصف من أوصاف العباد في هذه الآية؛ لأن الصابرين أفقر الناس إلى معية قويّ قادر ينصرهم على من عاداهم، ويسّر لهم سبل الخروج من المصائب والشدائد، وقد تكرر اسم الله تعالى مع لفظ "الصابرين" أربع مرات.

قصة وعبرة: الصبر على البلاء من غير تسخط، وحسن العاقبة.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: "إِنَّ أَيُّوبَ نَبِيَّ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- لَبِثَ فِي بَلَائِهِ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً، فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ، إِلَّا رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيُزَوِّحَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: تَعْلَمُ وَاللَّهِ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: مُنْذُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمَهُ اللَّهُ فَيَكْشِفْ مَا بِهِ. فَلَمَّا رَاحَا إِلَيْهِ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ أَيُّوبُ: لَا أَذْرِي مَا تَقُولُ، غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَيُّيَ كُنْتُ أَمُرُّ عَلَى الرَّجُلَيْنِ يَتَنَارَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللَّهَ وَأَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي

فَأَكْفَرَ عَنْهُمَا كَرَاهِيَةً أَنْ يُذَكَّرَ اللَّهُ إِلَّا فِي حَقٍّ، قَالَ: وَكَانَ يَخْرُجُ إِلَى حَاجَتِهِ، فَإِذَا قَضَى حَاجَتَهُ
 أَمْسَكَتِ امْرَأَتُهُ يَدَيْهِ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَ عَلَيْهَا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى أَيُّوبَ فِي مَكَانِهِ {ارْكُضْ
 بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ}، فَاسْتَبْطَأَتْهُ، فَبَلَعَتْهُ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ مَا بِهِ مِنْ
 الْبَلَاءِ، فَهُوَ أَحْسَنُ مَا كَانَ، فَلَمَّا رَأَتْهُ، قَالَتْ: أَيُّ بَارِكِ اللَّهُ فِيكَ، هَلْ رَأَيْتِ نَبِيَّ اللَّهِ. هَذَا
 الْمُبْتَلَى؟ وَاللَّهُ عَلَى ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إِذْ كَانَ صَحِيحًا. قَالَ: إِنِّي أَنَا هُوَ.
 وَكَانَ لَهُ أَنْدَرَانِ: أَنْدَرُ الْقَمْحِ وَأَنْدَرُ الشَّعِيرِ، فَبَعَثَ اللَّهُ سَحَابَتَيْنِ، فَلَمَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى
 أَنْدَرِ الْقَمْحِ، أَفْرَعَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حَتَّى فَاضَتْ، وَأَفْرَعَتْ الْأُخْرَى عَلَى أَنْدَرِ الشَّعِيرِ الْوَرِقَ حَتَّى
 فَاضَتْ^١. ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَيُّ مَسْنِي الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكُضْ
 بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي
 الْأَلْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^٢.
 قال ابن الأثير: "الأندر: البندر هو الموضع الذي يُداسُ فيه الطَّعام بلغة الشام"^٣.

^١ ابن حبان، محمد بن حبان، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، ت: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ١٤١٤هـ، ح ٢٨٩٨، وهذا الحديث صححه: الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه من المعاصرين الألباني، والأرنؤوط، وورد في صحيح البخاري قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بَيْنَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ غُرْبَانًا فَخَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَخْتَبِي فِي ثَوْبِهِ فَنَادَاهُ رَبُّهُ يَا أَيُّوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنِيْكَ عَمَّا تَرَى قَالَ بَلَى وَعِزَّتِكَ وَلَكِنْ لَا غِنَى لِي عَنْ بَرَكِكَ". ولا أقول: انتظروا أن تمطر السماء عليكم ذهبًا وفضة خرقًا للسنن، بل اعملوا بالأسباب، وأبشروا.

^٢ سورة المؤمنون آية (٤٤-٤١)

^٣ ابن الأثير، المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ، ج ١/ ١٧٦

ولكم في القتال حياة ونصر وتمكين!

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^١.

أما تسمع قعقة السلاح، وحشرجات الأنفس على أسنة الرماح! أما يخفق قلبك لصير أبواب السماء تُفَتَّح لتلك الأرواح الوافدة على ربِّها الكريم، لقد استحالت ساحة الجهاد في ضوء هذه الآية المباركة منصّة شريفة رفيعة لإطلاق أرواح الشهداء؛ لتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش، وقد استوعبت الآية في سلك الاسم الموصل وصلته المتجددة (مَنْ يُقْتَلُ) ثلّة من قضى نحبّه شهيداً بين يدي الرسول عليه الصلاة والسلام، ومن جاء بعدهم، فدخل في عمومها كلّ شهيدٍ في البرّ والبحر حتى آخر شهيدٍ يفارق الأرض إلى جنّة عرضها السماوات والأرض.

ولقد أثار موضوع الآية وموضعها في السياق تساؤلي، فقلت في نفسي: لأمر ما يسود من يسود! إن لورود هذه الآية ها هنا لشأناً! فذهبت ألتمس الجواب فيما تيسر من التفسير! وأقلب الفكر. فظهر لي أن الآية مسوقة لتقوية العقيدة القتالية (العسكرية) وبناء فقه تحريض واستنفار جديد! ولقد تأملت في بعض ما أبدعه العرب في التحريض على القتال، فكان مبلغ أمرهم تهوين الإقدام على الموت، ونفي الجزع، ولكن ما إن يموت بطلٌ إلا تعالت الحسرات، وتوالت قصائد التفجّع والتوجّع والرتاء! وحال الخنساء من قبل ومن بعد شاهد صدق! أمّا البيان الوارد في الآية فليس له نظير، فهو أسلوب فريد سديد في تثبيت الأقدام، والتحريض على الإقدام، لا عهد للعرب بمثله.

^١ سورة البقرة آية (١٥٤)

قال الله تعالى: "وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ": النهي للتحريم، والفعل "تَقُولُوا" في سياق النهي يعمّ، وقد خصّص بالجارّ والمجرور: "لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"، وبمقول القول: "أَمْوَاتٌ"، والاسم الموصول "من" يعمّ، والفعل "يُقْتَلُ" في سياق الإثبات مقيد بالجارّ والمجرور: "فِي سَبِيلِ اللَّهِ"، سبيل الله مجاز شرعيّ، يدلّ بمنطوقه على تحريم قول: "أَمْوَاتٌ" لمن يقتل في سبيل الله تعالى؛ لأنهم ليسوا كذلك، بل هم أحياء، ولأن هذا القول ينبئ عن اعتقاد فاسد يخالف ما بيّنه الله تعالى، وقد نهي الله تعالى عن اعتقاد موتهم تنصيصاً بقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾^١.

"بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ" "بَلْ" الإضراب للإبطال، قال العلامة ابن عاشور: "إبطالاً لمضمون المنهي عن قوله، والتقدير بل هم أحياء، وليس المعنى بل قولوا: هم أحياء لأن المراد إخبار المخاطبين هذا الخبر العظيم"^٢، "لَا تَشْعُرُونَ" "لا" نافية والفعل بعدها يعمّ، والمراد شعور خاصّ، وأنى لهم!

أثبت الله تعالى لهم حياة خاصّة، ونفى عنّا الشعور بها، وقد بيّن الله تعالى بعضاً من تفاصيل هذه الحياة في قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^٣.

^١ سورة آل عمران آية (١٦٩)

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/٥٢

^٣ سورة آل عمران آية (١٧١-١٦٩)

وسأذكر لك ما ظهر لي من أصول العقيدة القتالية (العسكرية) ومن أصول فقه

التحريض المستفادة من الآية:

الأمر الأول: التبصير بأصول العقيدة القتالية في الإسلام:

الأصل الأول: موافقة الشرع نية ومقصداً هي الأصل في الحكم على القتال، فما كان منه في سبيل الله تعالى فهو المحمود شرعاً، وهو كل قتال أنشئ؛ لتكون كلمة الله هي العليا، وفي الحديث المتفق عليه عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: الرجل يُقاتل للمغنم والرجل يُقاتل للذكر والرجل يُقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله. قال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله^١. فقله تعالى: "وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ" يبين أن هذه الفضيلة والمكرمة محصورة فيمن يقتل في سبيل الله تعالى، وعليه فيكون إصلاح النيات وتصحيح المقاصد عند استنفار المؤمنين وتحريضهم للقتال هو الأصل الأول للعقيدة القتالية في الإسلام.

الأصل الثاني: تقرير أن من يُقتل في سبيل الله تعالى ليس موتاً، وأن القتل حياة، وهذا المفهوم للقتل في العقيدة العسكرية الإسلامية يخالف جميع ما كان عليه الناس، وهو أصل عقدي عظيم، فنقول: أيها المقاتلون في سبيل الله إن لكم في القتال حياة وأيّ حياة! حياة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

^١ رواه البخاري ح ٢٨١٠ ومسلم ح ٥٠٢٨

عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم "قال: ما أحدٌ
يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد يتمنى أن
يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة".^١

الأمر الثاني: من أهم أصول فقه التحريض الواردة في الآية:

الأصل الأول: تحريم القتال في غير سبيل الله تعالى، فكل قتال أنشئ على خلاف
ما شرعه الله تعالى وبينه رسول الله تعالى فهو رد، فللقتال أحكام شرعية مرعية، لا يحل
نقضها، وما أكثر الرايات الجاهلية التي تسخط الله رب البرية، ويحشر الناس تحتها للقتال بل
ويطلق على قتلهم شهداء زيادة في التغير والتضليل؛ فباؤوا بغضب على غضب. وكل قتال
أضرمت ناره إثمًا وعدوانًا فهو مذموم، وعاقبته الخسران المبين، كالقتال غضبًا، وشجاعة، وليرى
مكانه، ورياء، وحمية لقبيلة أو عصابة باغية وما شابه هذه الصور؛ لأن بواعثها جاهلية، وهي
تفسد النية، وتبطل أجر الجهاد.

الأصل الثاني: تحريم قول: "أموات" لمن يقتل في سبيل الله تعالى، قال الله تعالى: "وَلَا
تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ"؛ لأنه قول باطل مخالف لما عليه الشهداء عند الله تعالى
من الحياة الناعمة، وفيه مشاققة ومضادة لمقاصد الاستنفار والتحريض على القتال في سبيل الله
تعالى؛ لأنه يُقْتَلُ في عِصْدِ جَنْدِ اللَّهِ تعالى، ويلحق بهذا القول الممنوع كل ما يفضي إلى هذه
المفاسد: كالتشبيط والإرجاف، وإثارة الفتن، والتحريض بين المؤمنين، والواجب إغاضة الأعداء،
وتمزيقهم، وتعويقهم، وتشبيطهم، وسلقهم بالأسنة الإعلام الحداد، وبث الرعب والرهبة في
قلوبهم.

^١ رواه البخاري ح ٢٨١٧.

وقد تعرّض فقه الاستنفار والتحريض للتبديل والتحريف بسبب الحرب العالميّة المنظّمة على الإسلام، وأهله؛ حتى أحجم كثير من العلماء، والدعاة، والمفكرين عن الصّدع بالحقّ، واستكان من استكان للتبسيط والتعويق والضغط الرامية إلى نزع فتيل الغيرة على حرّيات الله تعالى من قلوب العباد، وأصبح الحديث عن القتال في سبيل الله تعالى غريباً، وكثر الحديث عن وسطية التبعية والذلة والمسكنة.

الأصل الثالث: مشروعية التبشير والاستبشار: هذه الآية فيها تبشير كريم للمؤمنين بحسن عاقبة من يقتل في سبيل الله تعالى، فهي تدعو المقاتلين في سبيل الله إلى الاستبشار بما يقدمون عليه من النعيم المقيم؛ لأن تجارتهم رابحة، قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^١، فاستبشروا أيها المصلحون، وبشّروا المؤمنين بما وعدنا الله تعالى به من الفوز في الدارين. فالاستبشار والتبشير شعيرتان من شعائر الإسلام، وهما من أقوى دوافع الإقدام والافتحام والمسابقة لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، فلننشر بين أيدي الناس سِجَلَات البشائر المبنوثة في كتاب الله تعالى، وهي كثيرة.

قصة وعبرة: عَنْ أَنَسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ لَعِنَ اللَّهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ لَيَرِيَنَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أَحَدٍ وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ قَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ، يَعْنِي أَصْحَابَهُ - وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ، يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ، ثُمَّ تَقَدَّمَ فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ يَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الْجَنَّةَ وَرَبِّ النَّضْرِ إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أَحَدٍ قَالَ سَعْدُ فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَنَعَ قَالَ أَنَسُ فَوَجَدْنَا بِهِ بَضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ، أَوْ طَعْنَةً

^١ سورة التوبة آية (١١١)

بِرُمَحٍ، أَوْ رَمِيَّةٍ بِسَهْمٍ وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَقَدْ مَثَلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُخْتُهِ يَبْنَاهُ
قَالَ أَنَسٌ كُنَّا نَرَى، أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا
مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾^١، إِلَى آخِرِ الْآيَةِ^٢.

الأصل الرابع: تصوير أقارب الشهداء وتبشيرهم عبادة وحسنة عظيمة؛ لأن من
مقاصد النهي عن القول: أموات التبشير والتصبير لأهل الشهيد وترغيب في الإقدام والتضحية
في سبيل الله تعالى؛ لأنه انتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، فلا خوف عليه ولا يحزن.
وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ أُمَّ الرَّبِيعِ بِنْتَ الْبَرَاءِ وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ أَتَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ فَقَالَتْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَلَا تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ، وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرِبَ فَإِنْ كَانَ
فِي الْجَنَّةِ صَبَرْتُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي الْبُكَاءِ، قَالَ: "يَا أُمُّ حَارِثَةَ إِنَّهَا جَنَّانٌ
فِي الْجَنَّةِ وَإِنَّ ابْنَكَ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى"^٣. فقولها: "فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ صَبَرْتُ" احتسبت
وتسلّيت، وقد ورد في بعض الآثار أنها "رجعت، وهي تضحك وتقول: بخ بخ لك يا حارثة".

الأصل الخامس: مشروعية تزيين المكاره وتحويلها بإظهار عواقبها الحسنة الكريمة.
ذلك أن الأصل في الإنسان السَّوي حبّ السلامة، والأمن، وعمارة الأرض، والبر، والخير،
وصلاح البيئة، وأن يكره الفساد، والدمار، وسفك الدماء، وتكاثر الأيتام والأرامل والثكالى،
ويكره الوسائل المفضية إليها من النزاعات والحروب الآثمة.

وحين يتوسّل المجرمون بالحرب والقتل إلى منع الناس من اتباع الحقّ وتبليغه، وإلى
قهرهم واستنزاف خيراتهم، تنتفض الفطرة؛ لتتخذ القتال والدفاع سبيلاً إلى مرضاة الله تعالى،

^١ سورة الأحزاب آية (٢٣)

^٢ رواه البخاريّ ح ٢٨٠٥.

^٣ رواه البخاريّ ح ٢٨١٧.

وسُئِلَما للحياة الطيبة الكريمة، ولقد استوقفني ملياً أسلوب القرآن الكريم والسنة في تزيين المكاره وتحويلها على النفوس المؤمنة فجعل الموت، والنقص من الأموال، والأنفس في سبيل الله تعالى تجارة رابحة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾^١، ورثب عليها مصالح أخرى تحبونها: النصر على العدو، ودفع شره، والفتح، والغنائم، قال تعالى: "وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ".

وفي الحديث المتفق عليه عن جندب رضي الله عنه قال: "بَيْنَمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْشِي إِذْ أَصَابَهُ حَجَرٌ فَعَثَرَ فَدَمِيتُ إِصْبَعُهُ فَقَالَ: "هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتُ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ"^٢.

^١ سورة التوبة آية (١١١)

^٢ رواه البخاري ح ٢٨٠٢ ومسلم ح ٤٧٥٥

ست آيات من كتاب الله تعالى تبين المنهج الأمثل لمواجهة المصائب والمشكلات

المنهج الذي لا يسعك جهله

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وبعد: فإن الحياة كلّها ابتلاء، ولا بدّ للإنسان من مواجهة المشكلات والمصائب الدينيّة والدينيّة. وقد قدّم لنا ربُّنا عزّ وجلّ في القرآن الكريم منهجاً موزوناً لعلاج المشكلات، والأزمات، والمصائب بقسميها: الدينيّ والدينيّ.

والقرآن الكريم كلّهُ يهدي للتي هي أقوم في جلب الخير والنفع، ودرء الفساد والشرّ. لقد بيّن الله تعالى لنا كيف نواجه مصائب الدنيا، في قوله الكريم: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾^١.

ثمّ بيّن لنا بمنّه وكرمه خطر المصائب الدينيّة، وكيف نخرج منها؟ في قوله المجيد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^٢.

^١ سورة البقرة آية (١٥٧-١٥٥)

^٢ سورة البقرة آية (١٦٠-١٥٩)

كما أن المصائب والمشكلات الجسام تستوجب التفكيك والتفتيت، فذلك
الطاقات الكثيرة المبعثرة تستدعي حسن التنظيم واتباع سياسة التخصّص؛ لإتقان توظيف
الطاقات.

المنهج الأمثل لمواجهة المشكلات الدنيوية:

قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾^١.

رُبُّنَا جَلَّ ثَنَاؤُهُ يُطْلِعُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُمَّتَهُ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا هُمْ قَادِمُونَ عَلَيْهِ مِنْ الْابْتِلَاءَاتِ وَالشَّدَائِدِ؛ حَتَّى يَتَلَقَّوْهَا بِمَا يَجِبُهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَهَذِهِ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ، وَفِي ذِكْرِ أَجْنَاسِ الْابْتِلَاءَاتِ قَبْلَ وَقُوعِهَا تَنْبِيْهُ وَإِنْذَارٌ؛ لِنُعَدَّ الْعِدَّةَ وَنَأْخُذَ حِذْرَنَا، وَنَتَأَهَّبَ لِمُوَاجَهَتِهَا وَلِدَرْءِ شُرُورِهَا، وَأَضْرَارِهَا وَفَقِ شَرِّ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنْ دَفَعَ الْأَضْرَارَ وَالْمَشَاقَّ عَنِ الْأَنْفُسِ بِمَا شَرَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَةً يُجِبُّهَا اللَّهُ تَعَالَى، وَالْعَمَلَ بِسُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي دَفْعِ الْأَقْدَارِ الْمَكْرُوهَةِ بِالْأَقْدَارِ الْمَرْغُوبَةِ طَاعَةً، وَتَرْكُهُ مَعْصِيَةً.

ثُمَّ إِنْ اللَّهُ تَعَالَى بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ لَمْ يَكُنْ لَنَا إِلَى أَنْفُسِنَا الضَّعِيفَةِ، بَلْ جَمَعَ لَنَا نِعْمَةَ التَّبْصِيرِ بِمَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَجَهَّزَنَا بِتِلْكَ الْعِدَّةِ، وَزَوَّدَنَا بِذَلِكَ الزَّادِ، وَجَمَعَهُ بَيْنَ أَيْدِينَا فِي كَلِمَاتٍ طَيِّبَاتٍ مُبَارَكَاتٍ، وَوَاللَّهُ إِنَّهَا لَنِعْمَ عِظَامٌ: نِعْمَةُ الْإِعْلَامِ بِمَا سَيَنْزِلُ قَبْلَ نَزُولِهِ، وَنِعْمَةُ التَّبْصِيرِ بِمَا سَنَحْتَاجُ إِلَيْهِ؛ لِمُعَالَجَةِ تِلْكَ النَّوَازِلِ، وَنِعْمَةُ التَّزْوِيدِ بِالْعِلَاجِ نَفْسَهُ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ وَلَا بَحْثٍ، وَنِعْمَةُ الْعِلْمِ بِثَمَرَاتِ الْاسْتِرْجَاعِ، وَالْاسْتِرْجَاعُ هُوَ قَوْلُ: "إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ".

^١ سورة البقرة آية (١٥٧-١٥٥)

وسوف أبيّن أصولاً ممّا تضمّنته هذه الآيات في المطالب الآتية:

الإعلام بما سينزل بنا من ابتلاء ومصائب قبل حصولها: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾: "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ":
الواو استئنافية، واللام واقعة في جواب قسمٍ مقدّر، والفعل المضارع يدلّ على الاستقبال وتحدّد وقوع ذلك الابتلاء الاختبار والامتحان، وقد أكّد بهذا الأسلوب للجزم بوقوع هذا الابتلاء، فهذا نبأ عظيم بما سيحلّ في قابل الأيام (المستقبل) بالمؤمنين من ابتلاءات أو ما نسمّيه بالأزمات والمشكلات، وهو فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: كاف المخاطبين، وبالجارّ والمجرور: "بِشَيْءٍ" وبما عطف عليه: "وَنَقْصٍ"، "شَيْءٍ": نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالصفة: "مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ"، و"من" للتبعية، "أل" في "الخوف" للاستغراق، وكذلك في "الجوع"، "وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ" "نَقْصٍ" نكرة مقيّدة بالصفة: "مِنَ الْأَمْوَالِ.."، "من" للتبعية، "أل" في "الأموال" للاستغراق، وكذلك في "والأنفس"، "والثمرات"، "وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ" الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "الصَّابِرِينَ" والصابرين صفة صريحة تعمّ، ويمكن تخصيصها بمقدّر: على الابتلاء، وتوهم إلى علة التبشير: الصبر، فالصابرون لهم البشرى بسبب صبرهم على الابتلاء، ومفهومه: أن غيرهم محرومون من البشرى.

إن هذه الآية تتحدّث عن سنّة الابتلاء في سياق سنّة الصبر، ولسنّة الابتلاء وجهان: سنّة الابتلاء بالخير، وسنّة الابتلاء بالشرّ، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوَكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً

وَالَّذِينَ تَرْجِعُونَ^١، وقد ذكر ربنا عز وجلَّ وجهًا واحدًا من وجهي الابتلاء ألا وهو الابتلاء بشيء مما تكرهه الأنفس، وهو وارد في سياق سنة الله تعالى في الصبر جزائه.

وقد أعلم الله تعالى بهذه الآيات عباده المؤمنين بـ "أن تمام النعمة ومنزلة الكرامة عند الله لا يحول بينهم وبين لحاق المصائب الدنيوية المرتبطة بأسبابها، وأن تلك المصائب مظهرة لثباتهم على الإيمان ومحبة الله تعالى والتسليم لقضائه"^٢.

إن الإعلام بالابتلاء وبيان أنواعه نعمة، وتخفيف الابتلاء نعمة: ففي جعله بشيء من الخوف والجوع قليلاً وتهويناً نعمة، وفي جعله نقصاً وليس استئصالاً نعمة، وفي ذكره مرتباً بالتدريج من الأخف إلى الأثقل، وفي ختمها بما يوحي بالتخفيف رحمة، ومن رحمته ونعمته أنه لم يفتح علينا أبواب زينة الحياة الدنيا وزخرفها ابتلاء؛ لأنها أشد فتكاً بالقلوب، وكثيراً ما تفضي إلى الاستدراج الذي لا نجاة معه، ولذا خشي علينا منها الرسول عليه الصلاة والسلام، فقال: "قَوْلَ اللَّهِ مَا الْقَوْمُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْتُهُمْ"^٣، وفي الدلالة على علاج الابتلاء وبيان عاقبته نعمة، وفي الإكرام بذلك الجزاء: صلوات من ربهم، ورحمة، وهدى، وأجر، وإخلاف بخير نعمة.

وثمة مقاصد قلَّ التعرُّض لها، ومنها ترسيخ أسس العقيدة الصحيحة الجامعة بين التسليم لله تعالى والرضا بقضائه، والتوكُّل عليه والعمل بالأسباب والسنن الدافعة للبلاء وآثاره، فالآيات تدعو المؤمنين إلى الأخذ بالأسباب والعمل بسنن الله تعالى؛ ليدفعوا الأقدار المرهوبة

^١ سورة الأنبياء آية (٣٥)

^٢ انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/ ٥٤

^٣ رواه البخاري ج ٤٠١٥، ومسلم ج ٧٦١٤

بالأقدار المرغوبة؛ حتى لا يعطّلوا سنن الله تعالى الكونيّة، ويتكلّوا ويتكاسلوا زاعمين أنهم راضون بأقدار الله تعالى، متوكّلون على الله تعالى.

والأدلة الآمرة بجلب النفع ودفع الضرر والشروع، والناهية عن ارتكاب أسباب الفساد وما يضرّ كثيرة جدًّا، فيجب على المؤمنين الاستعداد لدفع المصائب والشدائد المضرة بدنيا الناس، ودينهم، ما أمكن، فالجوع يطرد بالتزوّد، وخوف العدو يزال بحسن إعداد القوة، وتطوير الطبّ والوسائل الصحيّة يدرأ الأمراض، فما أنزل الله من داء إلا وأنزل له دواء، فالواجب العمل بأحسن الأسباب والبرامج المدنيّة والعسكريّة؛ لكي نجلب المصالح، وندفع الشرور، ونخفف الأضرار، "وإنما المؤمن الموفق من يستفيد من مجاري الأقدار، إذ يتربى ويتأدب بمقاومة الشدائد والأخطار، ومن لم تعلمه الحوادث، وتهدبه الكوارث، فهو جاهل بهدي الدين، متبع غير سبيل المؤمنين"^١.

أقسام الابتلاءات وترتيبها: قال الله تعالى: "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ". وسأضعها في قسمين على ظاهر الآية:

القسم الأول: الابتلاء "بشئٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ"، تنكير لفظ "شيء" للتقليل، والتخفيف، والخوف والجوع أثران من آثار المصائب في نفس الإنسان.

وأولهما ذكرًا الخوف ومحله القلب، وهو توقّع المكروه المؤذي، فيضطرب القلب، ويتألم من ذلك، وثانيهما: الجوع، بسبب نقص الطعام، وأثر الخوف أهون من أثر الجوع، ولذا بدأ بذكره، فأذى الخوف يطال القلوب، فيزعجها، ويذهب أمنها، وسكينتها، وأما ألم الجوع وأذاه

^١ رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة طبعة ١٩٩٠ م ج ٢/٣٢

فيوهن الأبدان، ويشوش الأذهان، ويُقعد الناس صغارًا وكبارًا. وأما تقديم ذكره في سياق التذكير بنعم الله تعالى، ففيه زيادة امتنان كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾^١.

إن الجوع والخوف أخفّ المذكورات الخمس في ابتلاء المؤمنين، فبدأ بهما؛ لأن البدء بالأخف فيه تلطفٌ ورفعٌ. فإذا ذهب الجوع والخوف عاد الإنسان سويًا كما كان.

القسم الثاني: الابتلاء بنقص "مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ"، والتكثير للفظ "نقص" يدلّ على التقليل، والتخفيف؛ لأن الانتقاص يدلّ على أخذ القليل، وترك الأكثر، ولم يجعل الله تعالى البلاء أخذًا استتصالًا، بل هو شيء من النقص، وهذه الأجناس هي:

الأول: الأموال: وتشمل جميع الأموال: الدينار، والدرهم، والتجارات، والأنعام، والزروع، والثمار وغيرها، من الأموال.

الثاني: الأنفس: والنقص منها يشمل نوعين:

النوع الأول: نقص الأنفس بالقتل، أو بالمرض، أو غيرهما بلاءً واقع على غير المفقود؛ لأن المفقود من المؤمنين الصالحين قد استراح من عناء الدنيا، وقد يترك أيتامًا، وأرملة، وأمًّا ثكلى، وأبًا شيخًا كبيرًا، فيلحق الضرر بوفاته من يعولهم، وقد يكون ذا نفع عام، وأما إن كان فاجرًا شقيًا، فمستراح منه، كما جاء عَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَيْهِ بِجَنَازَةٍ فَقَالَ: "مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاخٌ مِنْهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ

^١ سورة قريش آية (٤)

اللَّهُ مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاخُ مِنْهُ؟ قَالَ: الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ^١.

النوع الثاني: نقص جزئي، كنقص بعض الأعضاء كالأطراف، وغيرها، ونقص بعض وظائف الأعضاء: كالسمع، والشم، والبصر وأثر هذا الابتلاء واقع على صاحب البلاء نفسه وعلى من حوله، فيكلفهم حمل أعباء العلاج، والرعاية وغير ذلك.

الثالث: نقص الثمرات: وهي أقوات الناس، وفواكههم، والثمرات نوع من الأموال، فَلَمْ أفردت بالذكر؟ ولم فُصل بين الأموال والثمرات بالأنفس؟ والجواب: أن أفرادها بالذكر من بين الأموال للاهتمام والعناية، وأما ذكرها بعد الأنفس، فقد بدت لي احتمالات، واطّلت على توجيهات، وأحسن ما بدا لي حتى الآن -والعلم عند الله تعالى- أمور، منها:

الأول: أن الثمرات هي من حيث حقيقتها نوع خاص من الأموال، وأما من حيث منفعتها، فهي قوت ضروري لحفظ المهج، وإقامة الأبدان، فنقصها يؤدي بنسب صحيح إلى النقص من الأموال باعتبار الحقيقة، وإلى النقص من الأنفس باعتبار الأثر، ولذا حُسِّنَ أفرادها، وذكرها بعدها من قبيل ذكر الخاص بعد عامين.

الثاني: أن سياق الآية فيه تخفيف، ورفق؛ لذا كان الختم بها ألطف وأرفق؛ لأن المتبادر إلى الذهن من نقص الثمرات حصول شيء من الجوع (حاجي)، ونقص من التفكُّه (وهو تحسيني)، وشأنهما أهون من نقص الأنفس.

^١ رواه البخاري ح ٦٥١٢، ومسلم ح ٢٢٤٥

الثالث: أن الآية تدعو بدلالة الإشارة إلى أخذ الحيلة والحذر والاستعداد لدفع ما هو نازل من الابتلاءات في هذه الأشياء؛ لأن الأخذ بالأسباب الممكنة، لدفع ما يتوقع من المصائب والكوارث، والشدائد وتخفيف أضرارها عن المؤمنين فريضة، ولا يجوز إلقاء الأنفس في المهالك والمشاق إلا فيما أذن الله تعالى به من دفع ما هو شر منه، أو تحصيل ما أهو أوجب ولا يتحصّل إلا بالإقدام والجهد في سبيل الله تعالى، ولما كان فقْد الثمرات وقتلها عظيم الأثر في حياة الأمة، وقد تكون مجلوبة من بلاد غير مسلمة، فتحول دون حصولها أسباب كثيرة، كالقحط في تلك البلاد، أو منع المسلمين من استيرادها ظلماً أو غير ذلك، فيكون نقصها عندنا لا من جهة عجزنا عن شرائها وجلبها، بل بسبب إثم الأعداء وعدوانهم، وهذا ظاهر في حال الحروب والحصار، فإذا نقصت الثمار في بلادنا، كان ضررها على الأنفس أشدّ، وقد يرفع الأجانب سعرها، فيكون ضررها على الأموال بالغاً؛ لذا كان ذكرها صراحة حيث ذكرت أبلغ في التنبيه والتحذير؛ لاتخاذ الأهبة عملاً بسنن الله تعالى في دفع الابتلاءات، وردّ الأقدار المرهوبة بالأقدار المرغوبة، والله تعالى أعلم.

أقسام الابتلاءات من حيث درجة الضرر: الابتلاء بشيء من الخوف والجوع يورث الحرج، والعسر، فهو من جنس المشقات أي من رتبة الحرج اللاحق بالحاجيّات. وأما إذا اشتدّ الجوع (والآية وردت بالتخفيف)، فإنه يفسد الحياة، ويضرّ بها، فيندرج حينئذ في نقص الأنفس، أي الأذى اللاحق بالضروريّات.

أما النقص في الأموال والثمرات فله حالان فإن كان النقص قليلاً يسيراً، فإنه يكون من قبيل النقص في الحاجيّات أو التحسينات، وإن كان كثيراً أضرّ بالضروريّات، وأما النقص في الأنفس فهو من الأضرار اللاحقة بالضروريّات.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾:

عرّفنا الآية بالفائزين بالصبر على الابتلاء، والمجتازين الامتحان بنجاح. ولولا فضل الله تعالى علينا ورحمته ما اهتدينا إلى هذا القول المبارك، ولو نقبنا عنه في أقطار السماوات والأرض، وها أنت تجد هذا العلاج بين يديك، وما عليك إلا أن تقول له حين تصيبك المصيبة، ولما كان البلاء شديدًا على الأنفس، خفف الله تعالى وسيلة مواجهته ودفعه، فجعلها قولاً ميسوراً.

"الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ": الاسم الموصول صفة مخصصة للصابرين، "إِذَا" شرطية ظرفية تعم، "أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ" الفعل في سياق الشرط مخصص بالمفعول به: الضمير المتصل، "مُصِيبَةٌ" نكرة في سياق الشرط تعم كل مصيبة يصاب بها العبد، "قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ"، "قَالُوا" الفعل واقع في جواب الشرط، وهو مثبت مقيّد بمقول القول: "إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ"، وتقديم الجارّ والمجرور: "إِلَيْهِ" يفيد الحصر، ومفهوم المخالفة: لسنا راجعين إلى غير الله عزّ وجلّ.

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، أَهَّأ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: "مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ: "إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" اللَّهُمَّ أَجْرِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا"^١.

^١ رواه مسلم ح ٢١٦٥

قال العلامة ابن القيم: "وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصاب، وأنفعه له في عاجلته وآجلته، فإنها تتضمن أصليين عظيمين إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبيته.

أحدهما: أن العبد وأهله وماله ملك لله عز وجل حقيقة، وقد جعله عند العبد عارية، فإذا أخذه منه، فهو كالمعير يأخذ متاعه من المستعير، وأيضا فإنه محفوف بَعْدَمين: عدم قبله، وعدم بعده، وملك العبد له متعة معارة في زمن يسير، وأيضا فإنه ليس هو الذي أوجده من عدمه، حتى يكون ملكه حقيقةً، ولا هو الذي يحفظه من الآفات بعد وجوده، ولا يبقى عليه وجوده، فليس له فيه تأثير، ولا ملك حقيقي، وأيضا فإنه متصرف فيه بالأمر تصرف العبد المأمور المنهي، لا تصرف الملاك، ولهذا لا يباح له من التصرفات فيه إلا ما وافق أمر ماله الحقيقي.

والثاني: أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق، ولا بد أن يخلف الدنيا وراء ظهره، ويحيى ربه فرداً كما خلقه أول مرة بلا أهل ولا مال ولا عشيرة، ولكن بالحسنات والسيئات، فإذا كانت هذه بداية العبد وما حُوله ونهايته، فكيف يفرح بوجوده، أو يأسى على مفقوده، ففكره في مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء، ومن علاجه أن يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه^١، ثم ذكر رحمه الله تعالى قول الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ - لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ

مُحْتَالٍ فَخُورٍ^٢.

^١ ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، مرجع سابق، ج ٤ / ١٧٣

^٢ سورة الحديد آية (٢٣-٢٢)

التبصير بثمرات الصبر وقول: "إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ"، وهذه الثمرات هي ما نحتاج إليه؛ لمعالجة تلك النوازل والمصائب، قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾.

"أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ": اسم الإشارة "أُولَئِكَ" يعمّ تبعاً للمشار إليه، "صَلَوَاتٌ": نكرة موصوفة بما بعدها: "مِنْ رَبِّهِمْ" تعظيماً وترغيباً، الصلاة لغة: الدعاء، وهو طلب الحاجات من الله تعالى، فإذا أضيفت إلى الله تعالى حملت على ما يليق بجلاله وإفضاله، وإحسانه، والصلاة من الله تعالى الثناء، والكرامة، والخير، والبركة، والمغفرة، ومن ثمار صلاة الله على العباد ما بينه بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾^١. وما أشدّ حاجة المبتلى إلى الخروج من ظلمات المصيبة إلى نور التوفيق، والهداية، والعون، والرعاية.

"وَرَحْمَةٌ": من رهم أيضاً، "والرحمة من الله واسعة، وبركاتها جامعة، فلا ممسك لها إذا فتح الله تعالى أبوابها، ولا مرسل لما أمسك، قال الله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^٢.

"وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ" تعريف المبتدأ والخبر يفيد حصر الهداية فيهم، وضمير الفصل يؤكد الحصر، ومفهومه: أن غيرهم غير مهتدين، "الْمُهْتَدُونَ": صفة صريحة تعمّ، ولم يذكر متعلّق الصفة للدلالة على العموم، المهتدون إلى المخرج من المصيبة، واتقاء شرورها، والمهتدون إلى تحصيل ما يصحبها من اليسر والخير. ومن تدبّر أحوال نفسه، وأحوال كثير من

^١ سورة الأحزاب آية (٤٣)

^٢ سورة البقرة آية (٢)

الناس يدرك قدر الافتقار والاضطرار إلى الهداية عند حلول المصائب؛ لأن آثار المصائب من المخاوف والأحزان تحجب العقول والبصائر، فتضطرب الأنفس، وتختل الموازين، وتتخذ القرارات على عجل، وتكثر ردّة الفعل على دَهَشٍ، فيزداد البلاء والخسران.

قال العلامة السّعديّ: "ودلت هذه الآية، على أن من لم يصبر، فله ضد ما لهم، فحصل له الذمّ من الله، والعقوبة، والضلال والخسار، فما أعظم الفرق بين الفريقين وما أقلّ تعب الصابرين، وأعظم عناء الجازعين، فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النفوس على المصائب قبل وقوعها، لتخفّ وتسهل، إذا وقعت، وبيان ما تقابل به، إذا وقعت، وهو الصبر، وبيان ما يعين على الصبر، وما للصابر من الأجر، ويعلم حال غير الصابر، بضد حال الصابر. وأن هذا الابتلاء والامتحان، سنة الله التي قد خلت، ولن تجد لسنة الله تبديلاً وبيان أنواع المصائب^١.

^١ السّعديّ، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة،

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ج ١/٧٥

قبس من أسرار شعائر الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾^١، ما المناسبة بين آيات الصبر السابقة وهذه الآية الكريمة؟ إن ثمة صلات أظهرها فيما يبدو لي أن شعيرة السعي بين الصفا والمروة شرعت عقب قصّة مباركة للصبر والاحتساب، هي قصّة هاجر رضي الله عنها، لقد صوّرت هذه القصّة كثيرًا من المعاني المتعلقة بالسياق في أحسن صورة وأكمل عبرة، فالآية واردة في سياق الصبر والابتلاء والجزاء.

وقد أشار النّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إلى ذلك - كما في حديث ابن عبّاسٍ - بقوله: "قَدْ لِكَ سَعْيِ النَّاسِ بَيْنَهُمَا"، فأبان الحديث ما أجملته الآية، فقد أدركنا بدلالة الإشارة الصلة والمناسبة بين آيات الصبر وذكر شعيرة السعي بين الصفا والمروة.

"إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ": الصَّفَا وَالْمَرْوَةُ: جبلان معروفان جوار بيت الله الحرام، "شَعَائِرِ اللَّهِ": شعائر نكرة مضافة تعمّ، وهي جمع شعيرة وهي العلامة والمقصود بها الحقيقة الشرعية وهي المناسك، وأصل "الصفا جمع صفاة، وهي الصخرة الملساء، وأما المروة، فإنها الحصاة الصغيرة، والصفا والمروة في هذا الموضع: الجبلان المسمّيان بهذين الاسمين اللذين في حرّمه، دون سائر الصفا والمروة، وأما قوله تعالى: "مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ"، فإنه يعني: من معالم الله

^١ سورة البقرة آية (١٥٨)

التي جعلها تعالى ذكره لعباده معلماً ومشعراً يعبدونه عندها، إما بالدعاء، وإما بالذكر، وإما بأداء ما فرض عليهم من العمل عندها"^١.

"فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا" "من" شرطية من صيغ العموم، "حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ" الحج أو العمرة حقيقتان شرعيتان، وأصل الحج العودة إلى الشيء وكثرة التردد عليه لاهتمامه به، والعمرة في اللغة الزيارة والقصد، والفعالان حج أو اعتمر في سياق الشرط يعلمان كحج وعمرة، وقد خصصا بلفظ: "البيت"، وأل في البيت للعهد.

"فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا": جُنَاح نكرة في سياق لا النافية للجنس نص في العموم، والجناح الإثم، "أَنْ يَطَّوَّفَ" يطوَّف أصله يتطوَّف والمقصود به السعي، وهو حقيقة شرعية، والمصدر المؤول يعم كل طواف، والمراد الطواف الذي بيّنته السنة، وظاهر اللفظ يدل على الندب، لا الوجوب، ولكن ورد في السنة قوله عليه الصلاة والسلام: "اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي"، قال العلامة ابن حجر: "أخرجه الشافعي وأحمد وغيرهما وفي إسناد هذا الحديث عبد الله بن المؤمل وفيه ضعف، ومن ثم قال بن المنذر: إن ثبت فهو حجة في الوجوب قلت له طريق أخرى في صحيح بن خزيمة مختصرة وعند الطبراني عن بن عباس كالأولى، وإذا انضمت إلى الأولى قويت، والعمدة في الوجوب قوله صلى الله عليه وسلم: "خذوا عني مناسككم"، واختلف أهل العلم في هذا، فالجمهور قالوا هو ركن لا يتم الحج بدونه وعن أبي حنيفة واجب"^٢.

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٣ / ٢٢٤ - ٢٢٦ بتصرف يسير

^٢ ابن حجر، أحمد العشقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، ج ٣ / ٤٩٨ بتصرف يسير

وقد ورد الأمر بالسعي بهذه الصيغة التي ظاهرها الجواز والترخيص؛ لأن الآية نزلت وكانت مكة بيد المشركين وكان على الصفا صنم وعلى المروة صنم، فتحرج المسلمون من الطواف بهما، قال الإمام الطبري: "فمن حج البيت أو اعتمر" فلا يتخوَّفَنَّ الطواف بهما، من أجل ما كان أهل الجاهلية يطوفون بهما من أجل الصنمين اللذين كانا عليهما، فإن أهل الشرك كانوا يطوفون بهما كفرًا، وأنتم تطوفون بهما إيمانًا، وتصديقًا لرسولي، وطاعةً لأمري، فلا جناح عليكم في الطواف بهما"^١.

"وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ": "من" شرطية عامة، "تَطَوَّعَ": يدل بمادته على طاعة الله تعالى بما شرعه من فرض أو نفل، وقد كثر استعماله في النوافل، والفعل في سياق الشرط يدل على العموم وقد خصص بلفظ: "خيرًا"، وخيرًا: نكرة في سياق الشرط تعم، قال ابن عاشور: "لَيْسَ الْمَقْصُودُ مِنْ "خَيْرًا" خُصُوصَ السَّعْيِ؛ لِأَنَّ خَيْرًا نَكْرَةً فِي سِيَاقِ الشَّرْطِ فَهِيَ عَامَّةٌ وَهَذَا عُطِفَتْ الْجُمْلَةُ بِالْوَاوِ دُونَ الْقَاءِ لِيَلَّا يَكُونَ الْخَيْرُ قَاصِرًا عَلَى الطَّوَافِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ"^٢، فهو يعم جميع شعائر الله من الفرائض والنوافل.

وسأوجز ما بان لي من أضواء الآية في مقامات ثلاثة:

المقام الأول: بين يدي قول الله تعالى: "إِنَّ الصَّفاَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ"، في صحيح مسلم عن ابن عباس أنه قال: "أَوَّلُ مَا اتَّخَذَ النَّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُسَمَّعِيلَ اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لَتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةِ ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبَابِنَهَا إِسْمَاعِيلُ وَهِيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يُؤْمَدُ أَحَدٌ وَلَيْسَ بِهَا

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٣ / ٢٣١

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢ / ٦٤

مَاءٍ فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسِقَاءٌ فِيهِ مَاءٌ ثُمَّ فَقَى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا
فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرَكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ ، وَلَا
شَيْءٌ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا وَجَعَلَ لَا يُلْتَفِتُ إِلَيْهَا فَقَالَتْ لَهُ اللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا قَالَ نَعَمْ
قَالَتْ إِذَا لَا يُضَيِّعُنَا ثُمَّ رَجَعَتْ فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَةِ حَيْثُ لَا يَرُونَهُ اسْتَقْبَلَ
بَوَاجِهِ الْبَيْتَ ثُمَّ دَعَا بِحَوْلَاءِ الْكَلِمَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ : ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُونِ بَوَادِي غَيْرِ
ذِي زَرْعٍ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿يَشْكُرُونَ﴾ ، وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرِبُ مِنْ ذَلِكَ
الْمَاءِ حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى ، أَوْ قَالَ
يَتَلَبَّطُ - فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةً أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ فَوَجَدَتِ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا فَقَامَتْ
عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الْوَادِي تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ
الْوَادِي رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتْ الْوَادِي ثُمَّ أَتَتْ
الْمَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ - قَالَ ابْنُ
عَبَّاسٍ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا - فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ
سَمِعَتْ صَوْتًا فَقَالَتْ صَهٍ تُرِيدُ نَفْسَهَا ثُمَّ تَسَمَّعَتْ فَسَمِعَتْ أَيْضًا فَقَالَتْ قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ
عِنْدَكَ غَوَاثٌ فَإِذَا هِيَ بِالْمَلِكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ ، أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ - حَتَّى ظَهَرَ
الْمَاءُ فَجَعَلَتْ تُخَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا وَجَعَلَتْ تَعْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يُفُورُ بَعْدَ
مَا تَعْرِفُ - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكْتَ زَمْزَمَ
، أَوْ قَالَ لَوْ لَمْ تَعْرِفْ مِنَ الْمَاءِ - لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا - قَالَ فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا

فَقَالَ لَهَا الْمَلِكُ لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ فَإِنَّ هَاهُنَا بَيْتَ اللَّهِ يَبْنِي هَذَا الْعُلَامُ وَأَبُوهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ^١. وقد بيّنت لنا هذه القصة أنواع الصبر:

النوع الأول: الصبر على فعل الطاعات، فقد تلقت هاجر رضي الله عنها أمر الله تعالى بالرضا والامتنال، ولم تخالف أمر رسول الله إبراهيم عليه السلام حين تركها وحدها في أرض لا إنس فيها ولا متاع.

الأمر الثاني: الصبر على الابتلاء: فقد صبرت على ما نزل بها من الخوف والوحشة، وفراق الأنيس، ونقص المؤنة، والجوع، والعطش؛ حتى أشرف ابنها على الهلاك.

الأمر الثالث: الصبر عمّا يغضب الله، فلم تتكلّم بما يدلّ على الندم، ولم تتسخطّ ممّا حلّ بها.

الأمر الرابع: الصبر على دفع البلاء (أقدار الضّر) بأقدار الله تعالى؛ لأن السعي في دفع الابتلاء وأذى الأعداء حتى آخر نفّس من أعظم القربات. وإفراد الصبر على مشقة السعي في دفع البلاء بالذكر نافع، وإن كان مندرجاً في الصبر على فعل الطاعات، فالصبر يدفع أهله إلى اتقاء الأقدار بالأقدار، وإزالة الأضرار بالمصابرة والإصرار. فما أجمل الصبر حين يكون مقروناً بالسّعي في طلب الأسباب المنجية من غير سخطٍ ولا تشكّ. وقد علّمتنا القصّة أنّ معيّة الله تعالى للصّابرين لا تعني الحصانة من الابتلاء، بل أشدّ الناس بلاء الأنبياء، ثمّ الأمثل فالأمثل. والابتلاء يقوّي الضعفاء، فليستبشر الصّابرون، فإن الله مع الصّابرين، "وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ".

^١ رواه مسلم ح ٣٠٠٩

ولقد أجزل الله تعالى عطاءه لهاجر أم إسماعيل وجدة خاتم المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين، وجدة الطيبين الطاهرين من قريش، وفي ذكرها أسوة حسنة للعالمين، لعظيم إسهامها في رعاية إسماعيل، وتهيته لوراثته أبيه عليه السلام، وعمارة البلد الحرام، ولا تزال الذرية المباركة قائمة بالطاعات والمكارم.

المقام الثاني: بين يدي قول الله تعالى: "فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا"، ها هي الآية ترينا بأداة الشرط "من" الدالة على العموم تلك الوفود الكريمة القادمة من مشارق الأرض ومغاربها عبر القرون، وقد ولّت وجهها تلقاء بيت الله تعالى، تهنز جنبات الأرض مُلبية معها: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، وتوالت الوفود من كل فج عميق شاخصة إلى البيت العتيق، يقطعون البراري، والغابات، والقفار، والبحار، والأنهار، ولا يزال رجال مؤمنون ونساء مؤمنات تجري بهم الأقدار حجًا وعُمارًا، وقلوبهم معلقة بالبلد الحرام، أكاد أحسّ بتلك القلوب، والأشواق تحلق بها غير عابئة بما يكتنف طريقها من المكاره والأهوال، فيُنَجِّي الله تعالى من يشاء، ليلغوا حاجة في صدورهم، وليشهدوا منافع لهم، وليطوفوا بالبيت العتيق، ليعودوا كيوم ولدتهم أمهاتهم تطير بهم أجنحة الأمان إلى ديارهم.

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِثْلٍ كُلِّ حَاجَةٍ وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحٌ

وَشُدَّتْ عَلَى حُدُبِ الْمَطَايَا رِحَالُنَا وَلَمْ يَعْرِفِ الْغَادِي الَّذِي هُوَ رَائِحٌ

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ

ومنهم من قضى نحبه صابرًا راضيًا أشعث أغبر لم يقضِ نفثه؛ ليعث على هيئته مُلبيًا، فما أشبه مجيب داعي اليقين في الحجّ بشهيد المعركة! ولو ذهبت تحصي الشدائد

والمهالك التي تعرض لها المسلمون في الحج والعمرة، لأعيانك الأمر، وَلَعَلَّنتَ أن الصبر على أداء الحج والعمرة من أعظم الصبر. والحج جهاد لا شوكة فيه! فكان ورود شعيرة السعي بين الصفا والمروة في سياق آيات الصبر مناسباً ومحققاً لمقاصد الأمر بالحج والعمرة.

المقام الثالث: بين يدي قول الله تعالى: "وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ"، تبسط لكل من تطوَّع وعمل خيراً عطايا الشكور العليم، فتتقلب التكاليف بين يدي هذين الاسمين الكريمين رَوْحًا وريحانًا، وتمتلئ القلوب رضاً وسكينة، فتزداد النفوس عزماً على السباق، والمنافسة ببذل المهج وكرائم الأموال، والمثابرة، وخوض غمار المغامرات في حقول الطاعات العلية؛ لتنال رفيع الدرجات.

وفي تقديم اسم الشاكر على العليم تعجيل بالمسرة للمطيعين، فالشاكر يجزي على القليل كثيراً، ويعفو عن التقصير، وما تنفقوا من شيء فهو يخلفه بخير منه، ويزيدكم من فضله، ثم ألحقه بصفة "العليم"، ولهذا الاسم العظيم في سياق التكريم شأن عظيم، فهو عليم بكل ما بذلتموه، وما تفتقرون إليه ظاهراً وباطناً، وما يصلح شأنكم ويسعدكم عاجلاً وآجلاً، فيكرمكم فيعجل لكم من ألطافه وهباته ما يسعدكم ويدفع عنكم ما تكرهون، ويدخر لكم ما تحبون وخيراً ممَّا ترجون.

المنهج الأمثل لمعالجة المصائب الدينيّة، والخروج منها سالمين غانمين:

لقد بيّن الله تعالى لنا كيف نواجه مصائب الدنيا، وكيف نعالج أزماتها، ونحلّ مشكلاتها في قوله الكريم: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^١.

ثمّ بيّن لنا بمنّه وكرمه خطر المصائب الدينيّة، وكيف نخرج منها سالمين غانمين؟ في قوله المجيد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^٢.

ها هو ربُّنا عزّ وجلّ بفضلِهِ ورحمته يتمّ نعمته علينا، فيبيّن لنا كيف ندفع المصائب إذا وقعت في ديننا؟ وكيف نعالج مشكلاتنا الدينيّة؛ حتى لا تهلكننا الذنوب كما أهلكت من كان قبلنا.

وأول من أصيب بمصيبة في دينه، وأحاطت به خطيئته هو إبليس، فهو السابق فيها، والسائق إليها، فإنه لما أبى واستكبر لعنه الله تعالى وأخزاه، ثمّ أعلن إبليس عداوته وعزمه على إضلال ذرية آدم عليه السلام، وإغراقهم في ظلمات المعاصي والذنوب. وقد بدأ بآدم عليه السلام وزوجه، فأزلهما بما زينه لهما من الباطل الذي اختلقه ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾^٣، فترك آدم عليه السلام وزوجه هدى الله تعالى، فوقعا في شرك إبليس، فأخرجهما ممّا كانا فيه من النعيم، ولكنّهما استفقا من الغفلة

^١ سورة البقرة آية (١٥٧-١٥٥)

^٢ سورة البقرة آية (١٦٠-١٥٩)

^٣ سورة طه آية (١٢٠)

سريعاً، فتأبى وتأبى وأنا، فتأبى الله عليهما، قال الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^١.

والتوبة هي أعظم عُدّة جهّز الله تعالى بها أبانا آدم عليه السلام وزوجه حين أهبّطاً إلى الأرض؛ ليعالجا بها الزلل، ويسدّا بها الخلل، وقد وعد الله تعالى آدم عليه السلام بأن ينزل عليه وعلى ذريته الهدى؛ ليقوموا بأمر الخلافة في الأرض على أحسن وجه، فتطيب حياتهم في الدنيا، ويفوزوا بنعيم الجنّة، قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^٢، وقال الله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾^٣.

وبهذا يتبيّن لنا أن الذين يكتمون ما أنزل الله تعالى من البينات والهدى إنما يُحادّون الله تعالى، ويُشاقُّونه، ويعملون على إبطال مراده، وتعطيل مقاصد شرعه بكتماهم الهدى ودين الحقّ عن الناس، وبحجّهم النور عن العباد، وعاقبة ذلك هو الضلال والشقاء.

إن في هاتين الآيتين تحصيلاً للأمة وتمكيناً، فالآية الأولى بيّنت الداء (كتمان ما أنزل الله تعالى من البينات والهدى) الذي أصاب الأمم الناكثة من أهل الكتاب، ففيها تحصين وتحذير من أخطر أسباب ضلال الأمم، فالعلماء والدعاة ورثة الأنبياء فهم أئمة الهدى، يسيرون السبيل، وبهم يقتدى، فإذا حلة البينات والهدى، فسدت الأمة، وقد سلب الله تعالى الأمم التي كتمت الهدى منصب الإمامة، وقد استخلف من بعدها أمتنا الوارثة، والآية الثانية بصرتنا بالدواء الشافي، والمخرج البين من هذه الفتنة.

^١ سورة البقرة آية (٣٧)

^٢ سورة البقرة آية (٣٨)

^٣ سورة طه آية (١٢٣)

وسوف أوجز القول في هذا الموضوع تأصيلاً وتنزيلاً، وأبين الأخطاء والأخطار،

وأجلّي الفرص، وسأجعل حديثي بإذن الله تعالى في مقدمة وثلاثة مطالب.

المقدمة:

كنت أتساءل: لم أرجأ الله تعالى الحكم على "الذين كتموا الحق وهم يعلمون" حتى هذا الموضع؟ ألم يحرّموا البشريّة منفعة ما استُحفظوا عليه من العلم والشهادة بصدق الرسالة الخاتمة وصدق حاملها وبحقيقة القبلية الناسخة كما بيّن الله تعالى ذلك بقوله المجيد: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾* الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴿^١.

وخطاب الله تعالى حكيم كريم لا يعجل شيئاً قبل أوانه، بل يمهل العباد رحمة منه وحكمة؛ حتى يستوفي كلّ ذي حقّ حقّه، وقد تبدّى لي -والله أعلم بالصواب- أن الله تعالى حين ذكر حال الكاتمين الآثمين وأفعالهم لم يُفلتهم طلقاء، ولم يتركهم سُدى، بل استبقاهم وحبسهم في ريقه السياق؛ ليشهدوا كيف يسط الله تعالى فضله ورحمته للمؤمنين، وكأني بهم ينظرون إلى مواكب نعم الله تعالى وبركاته تنزل من السماء على الأمة الوارثة!

وفي هذا الموطن من السياق يرسل ربّنا عزّ وجلّ أحكامه في الذين كتموا البيّنات والهدى بعد استيفاء العبرة بالإمهال؛ لعلّهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً، وقد امتلأت قلوب المستكبرين حسرة وغيظاً بما شهدوه من إكرام المؤمنين، وبما حاق بالكاتمين من سوء، فقد حقّ عليهم القول، ولزّهم السياق في قرّن مع كلّ الكاتمين البيّنات والهدى من كلّ الأمم؛ ليصبّ عليهم سوط وعيده! ولقد كرم الله تعالى بهذا الأسلوب المؤمنين من جهتين:

^١ سورة البقرة آية (١٤٧-١٤٦)

الجهة الأولى: الإخبار عن استمرار أهل الكتاب ومن شاكلهم في كتمان البينات والهدى، واستدامتهم العداوة لديننا؛ لنأخذ حذرنا وأهبتنا، فندفع فسادهم، ونتقي شرورهم، ونجتنب سُتّهم الخبيثة.

الجهة الثانية: إسعاد المؤمنين بإيصال العبرة إليهم من غير أن يمسّهم طائف وعيد أو ذمّ، فالسعيد من اتّعظ بغيره.

تحديد المصيبة وبيان عاقبتها:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾^١. لقد بين لنا ربنا عز وجل حقيقة المصيبة وعرفنا بالذين وقعوا فيها بأسلوب من أساليب التعليل والسببية^٢، فالسبب هو كتمان ما أنزل الله من البيّنات والهدى، والنتيجة هي اللعنة، فهذا قانون عام وسنة مطردة لمن كان له قلب، وقد ورد الخطاب بأسلوب الاستئناف والاستقلال عمّا سبقه: "إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ": "إِنَّ": يتصدّر حرف التوكيد الآية؛ ليقطع دابر التردد والشك عن السامعين، وأما الاسم الموصول "الذين" فيجمع الكاتمين الآثمين جميعاً في عمومهم لا يُفعلت منهم أحداً، والفعل "يَكْتُمُونَ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الاسم الموصول "مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ"، وبالجارّ والمجرور: "مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ"، وبمحذوف مقدّر: "وَحَذَفُ مُتَعَلِّقٍ يَكْتُمُونَ الدَّالَّ عَلَى الْمَكْتُومِ عَنْهُ لِلتَّعْمِيمِ أَيَّ يَكْتُمُونَ ذَلِكَ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ لِيَتَأَتَى نِسْيَانُهُ وَإِضَاعَتُهُ"^٣.

وصيغة العموم تشمل أهل الكتاب من اليهود والنصارى وغيرهم، قال العلامة الرازي "إنه كلام مستأنف يتناول كلّ من كتم شيئاً من الدين، لوجوه أحدها: أن اللفظ عام، والعارض الموجود وهو نزوله عند سبب معين لا يقتضي الخصوص على ما ثبت في أصول الفقه أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وثانيها: أنه ثبت أيضاً في أصول الفقه أن

^١ سورة البقرة آية (١٥٩)

^٢ والأسماء الموصولة تشبه أسماء الشرط في العموم والإحاطة وترتّب ما بعدها عليها، إذا كانت صلة الموصول دالة على التعليل، والفعل المضارع إذا كان صلة للموصول يكون أبين من الماضي في إرادة التعليل..

^٣ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/٦٤

ترتيب الحكم على الوصف مشعر بكون الوصف علة لذلك الحكم، لا سيما إذا كان الوصف مناسباً للحكم، ولا شك أن كتمان الدين يناسبه استحقاق اللعن من الله تعالى، وإذا كان هذا الوصف علة لهذا الحكم، وجب عموم هذا الحكم عند عموم الوصف^١.

"مَا أُنْزِلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى": الاسم الموصول "ما" من صيغ العموم، والفعل "أُنْزِلْنَا" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير العائد على الاسم الموصول، "مَا أُنْزِلْنَا" وبالجارّ والمجرور: "مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى"، والبيّنات والهدى للعموم.

"مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ": "بعد": نكرة مضافة تعمّ، "ما" مصدرية والمصدر المنسبك منها ومن الفعل يعمّ، وتقديره: تبيننا إياه، والفعل "بَيَّنَّ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجارّ والمجرور الأول: "لِلنَّاسِ"، وبالجارّ والمجرور الثاني: "فِي الْكِتَابِ": الْكِتَابُ: اسْمُ جِنْسٍ، فَالْمُرَادُ جَمِيعُ الْكُتُبِ الْمُنْزَلَةِ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ.

"أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ" "أُولَئِكَ" يعمّ جميع المشار إليهم، والفعل المضارع "يَلْعَنُهُمُ" مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وصيغة المضارع تفيد تجدد اللعنة، "اللَّاعِنُونَ" صيغة مبالغة لاسم الفاعل محلاة بـ"أل" تعمّ، والآية تدلّ على حرمة كتمان ما أنزل الله تعالى من العلم وكونه كبيرة من الكبائر وموبقة من الموبقات.

وقد تضمّنت الآية أصولاً جامعة، منها:

الأصل الأول: بيان المقصودين بالخطاب: لما كان خطاب الله تعالى للمؤمنين عامراً بالتكريم، والرفق، والامتنان، وكانت المصائب في الدين مذمومة، وذكرها ممّا يُزري ويُخزي، فقد

^١ انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٤ / ١٤٠

عدل السياق عن مجابهة المؤمنين ومخاطبتهم بما يُشمت بهم الأعداء، فساق الله تعالى إلينا هذا البيان مساقاً جميلاً مشحوناً بالعبارة والتحذير، حتى إن القارئ حين يقرأ هذه الآية لينصرف ذهنه إلى أهل الكتاب وحدهم؛ لأنهم آخر من وصف بهذه الخسيسة في هذا السياق. فأورد الله الخطاب مورداً يتوافق مع السياق ومع الواقع الذي أنزلت فيه الآيات، فقد كانت أمة الاستجابة (المؤمنون) حين نزول هذه الآيات معافاة، صحيحة الدين، بريئة من موبقات الأمم الناكثة، وكانت أمة الدعوة من أهل الكتاب قد كتم علماؤها، وبدّلوا، فأورد الله تعالى خطابه عاماً مُبهمًا، فجمع الكاتمين الأئمين جميعاً في عموم الاسم الموصول وصلته: "الَّذِينَ يَكْتُمُونَ"، وقد وردت صلة الاسم الموصول بصيغة الفعل المضارع الدالّ على التجدد والامتداد، ليستغرق كلّ الجنّة من أهل الكتاب ومَن كان على شاكلتهم في كلّ عصر؛ لأن قوله تعالى: "الَّذِينَ يَكْتُمُونَ"، يوميّ وينبّه على العلة مثل الصفة الصريحة فكأنه قال: "إن الكاتمين"، فعلة الحكم الكتمان، فحيثما وجدت العلة بتمامها وجد الحكم.

ويدخل في هذا العموم طوائف من أبناء المسلمين الذين كتموا ما يجب عليهم بيّانه، وسكتوا عمّا يجب عليهم قوله وتبليغه بلا عذر، وشرّ من هؤلاء قومٌ بدّلوا شرعة الله تعالى، وأحلّوا قومهم دار البوار، فضاعت طاقاتهم وأوقاتهم في نشر الفتن، وتحريف الدين، ومحاربة منهاج النبوة، فتراهم يتخبّطون هم ومن تبعهم في الظلمات، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

ويأخذ من هذا الشرّ بطرف كلّ من خاض في الفتاوي وتصدّر لبيان ما لا يحسنه من أمور الدين، فتراهم يعيشون فساداً في أدلة الشرع، فيأخذون من النصوص ما يشتهون، وينكرون منها ما هو ثابت معلوم، فضلّوا وأضلّوا بحجّة حرّية الفكر، والاجتهاد، وبعضهم يفعل ذلك بوجهه وزعمه أنه فعل ما فعل اتباعاً للدليل وأداء لواجب البيان واتقاء للعنة

الكتمان، فتركوا ما يجب عليهم فعله، وشغلوا أنفسهم بما لا يجوز لهم الخوض فيه. والجهل المركب يمنع صاحبه من التوبة. عَنْ عُرْوَةَ قَالَ حَجَّ عَلَيْنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْزِعُ الْعِلْمَ بَعْدَ أَنْ أَعْطَاهُمُوهُ انْتِرَاعًا وَلَكِنْ يَنْتَرِعُهُ مِنْهُمْ مَعَ قَبْضِ الْعُلَمَاءِ بِعِلْمِهِمْ فَيَبْقَى نَاسٌ جُهَالٌ يُسْتَفْتَوْنَ فَيُفْتَوْنَ بِرَأْيِهِمْ فَيُضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ فَحَدَّثْتُ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو حَجَّ بَعْدُ فَقَالَتْ يَا ابْنَ أَخِي انْطَلِقْ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ فَاسْتَنْتِ لِي مِنْهُ الَّذِي حَدَّثَنِي عَنْهُ فَجِئْتُهُ فَسَأَلْتُهُ فَحَدَّثَنِي بِهِ كَنَحْوِ مَا حَدَّثَنِي، فَأَتَيْتُ عَائِشَةَ فَأَخْبَرْتُهَا، فَعَجِبَتْ! فَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَقَدْ حَفِظَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو".^١

الأصل الثاني: حقيقة الكتمان المذموم: المقصود بالكتمان في قول الله تعالى: "إِنَّ

الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَى".

الكتمان لغة: خلاف الإعلان، وهو إخفاء المعاني في النفس، أو السكوت عن بيان المعنى، والمكتوم يختص بالمعاني كالأسرار والأخبار؛ لان الكتمان لا يستعمل إلا فيهما^٢. والكتمان المذموم شرعاً هو حجب البيّنات والهدى عن الناس ومنع وصولها إليهم، مع حاجة الناس إليها، "فلما كان ما أنزله الله تعالى من البيّنات والهدى من أشد ما يحتاج إليه في الدين، وصف من علمه، ولم يظهره بالكتمان"^٣.

صور الكتمان: للكتمان صور كثيرة، نذكر منها:

^١ رواه البخاري ج ٧/٧٣٠، ومسلم ج ٩/٤٨٢، واللفظ للبخاري.

^٢ انظر: العسكري أبو هلال الحسن بن عبد الله، معجم الفروق اللغوية، مؤسسة النشر الإسلامي، ط ١، ١٤١٢هـ، ج ١/ ٤٤٨.

^٣ انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٤/ ١٣٩-١٤٠.

الأولى: كتمان العلماء والدعاة أنفسهم ما أمروا ببيانه، وإمسأهم عن الجهر بالحق مع وجود الحاجة إليه، وسكوهم عن الباطل، وهذه الصورة من أسوأ صور الكتمان؛ لأن الذين كتموا هم الذين حُمّلوا أمانة البيان! فأعظم الناس خيانةً اضيعهم لأكبر أمانة، وهي أمانة بيان البينات والهدى والعلم، وذلك بكتماها وحجبها عن أهلها بلا عذر معتبر.

الثانية: منع حملة الهدى والينات من الصدع بالحق ترغيباً في المال والجاه أو ترهيباً، أو بالإبعاد عن منابر الإفتاء، والتعليم، والدعوة، وبتنصيب الجهال في تلك المناصب. وقد بلغ الأمر بالكاتمين الظالمين إلقاء الدعاة في السجون، والتهجير القسري، وفرض الإقامة الجبرية، والمنع من البيان على وسائل الإعلام، والقتل.

الثالثة: شغل حملة الحق عن بيان الحق بصرفهم إلى معارك ضررها أكثر من نفعها كاختلاق النزاعات، وإيقاد نار الخلافات القديمة، ودعم من يخوض فيها، والتحريش بين الدعاة وإشغال بعضهم ببعض؛ حتى لا يجدوا وقتاً لبيان الحق.

الرابعة: إخفاء البينات والهدى وحجبها عن الناس، وطمس مواطن وجودها في التوراة والزبور والإنجيل كما يفعل أحبار اليهود ورهبان النصارى وقساوستهم، وتحريفها في ترجماتهم للقرآن الكريم والكتب التي تشرح وتفسر ما أنزله الله تعالى من الهدى ودين الحق. وكتغيب العلوم الشرعية؛ حتى أضحت كثير من كتب العلوم الشرعية ممنوعة، بحذفها من المقررات أو منع تداولها، أو مؤودة في المكتبات المهجورة والمخازن المهملة.

الخامس: الترويج لأفكار المبطلين والجاهلين ونشر أقوالهم؛ لتحل محل الحق، ومحاربة التعليم الديني القويم والاكتفاء بالمناهج والمدارس المفرطة، أو الاستعاضة عن العلوم الإسلامية بفنون أخرى.

الأصل الثالث: المكتوم: قال تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ"، فالمكتوم هو ما دلّ عليه الاسم الموصول وصلته "مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ".

فالبيّنات: هي الحجج الواضحات كالدلائل الواردة في الكتب السابقة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام.

والهدى: هو كل ما يهدي إلى جلب الخير، ودفع الضرر، والشر، من الأحكام والأخبار، فهذه الآية تدلّ على أن ما يحتاج إليه المكلفون من علوم الدين يجب بيانه، ولا يجوز كتمانها كالشرائع والآداب الإسلامية، قال العلامة القرطبي: "يعمّ المنصوص عليه والمستنبط، لشمول اسم الهدى للجميع. وفيه دليل على وجوب العمل بقول الواحد، لأنه لا يجب عليه البيان إلا وقد وجب قبول قوله"^١، وقال العلامة الرازي: "ثبت أنه تعالى توعد على كتمان الدلائل السمعية والعقلية، وجمع بين الأمرين في الوعيد، فهذه الآية تدلّ على أن من أمكنه بيان أصول الدين بالدلائل العقلية لمن كان محتاجاً إليها ثم تركها أو كتم شيئاً من أحكام الشرع مع شدة الحاجة إليه فقد لحقه الوعيد العظيم"^٢. وقال العلامة السعدي: "البيّنات: الدلائل على الحق المظاهرات له، وأُهدى: هو العلم الذي تحصل به الهداية إلى الصراط

^١ القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، ط ٢، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م، ج ٢/ ١٨٥

^٢ انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٤/ ١٤٠

المستقيم، ويتبين به طريق أهل النعيم، من طريق أهل الجحيم، فإن الله أخذ الميثاق على أهل العلم، بأن يبينوا للناس ما من الله به عليهم من علم الكتاب، ولا يكتمونه^١. والكتاب يشمل التوراة، والزبور، والإنجيل، والقرآن.

وبهذا نعلم أن أنواع المكتومات كثيرة جدًا، ويدخل في عموم ذلك ما ورد في الكتب المنزلة من عند الله تعالى ومنها القرآن الكريم مما يتعلّق بصدق الرسالة الخاتمة وصفات الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، وما يتعلّق بحقيقة العلماء الوارثين وحقوقهم، وما يتعلّق بالضالّين والمضللّين والمبطلين وعقوقهم.

قصة وعبرة:

عَنْ أَنَسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "بَلَغَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ مَقْدَمُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنِّي سَأُثْلِكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ، قَالَ: مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ الْوَلَدُ إِلَى أَبِيهِ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ إِلَى أَحْوَالِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خَبَرَنِي بِحَمْنٍ آتِفًا جَبْرِيلُ، قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَخْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ، وَأَمَّا الشَّبَّهُ فِي الْوَلَدِ فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا عَشِيَ الْمَرْأَةُ فَسَبَقَهَا مَاؤُهُ كَانَ الشَّبَّهَ لَهُ، وَإِذَا سَبَقَ مَاؤُهَا كَانَ الشَّبَّهَ لَهَا، قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهْتٌ، إِنَّ عَلِمُوا بِإِسْلَامِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ، يَهْتَوِي عِنْدَكَ، فَجَاءَتِ الْيَهُودُ، وَدَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ

^١ السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة،

الْبَيْتَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ؟ قَالُوا أَعْلَمْنَا،
وَابْنُ أَعْلَمْنَا وَأَخِيرُنَا، وَابْنُ أَخِيرِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ
اللَّهِ؟ قَالُوا: أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ، فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ
أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالُوا: شَرُّنَا، وَابْنُ شَرِّنَا وَوَقَّعُوا فِيهِ^١. تَبَيَّنَ هَذِهِ الْقِصَّةُ مَبْلَغَ الْيَهُودِ فِي
كُتْمَانِ الْحَقِّ إِذَا تَعَلَّقَ بَبَيَانِ صَدَقِ الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ، وَصَدَقَ رَسُولُنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَقَدْ
حَذَرْنَا الرِّسُولَ مِنْ اتِّبَاعِ سَنَنِهِمْ، وَقَدْ كَشَفَتِ الْأَيَّامُ صَوْرًا لِبَعْضِ فَجَارِ الْمُسْلِمِينَ مِمَّنْ عِلِمُوا
الْهُدَى، فَكُتِمُوا كَمَا فَعَلَ بَعْضُ أَهْلِ الْكِتَابِ.

وَأَمَّا مَا كَانَ ضَرُرُّ بَيَانِهِ وَبَيِّنَةُ أَكْبَرَ مِنْ نَفْعِهِ، فَيَجُوزُ كُتْمَانُهُ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:
"حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَاءَيْنِ فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَيَّنْتُهُ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ
بَيَّنْتُهُ قُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ"^٢. قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ حَجَرٍ: "وَحَمَلَ الْعُلَمَاءُ الْوَعَاءَ الَّذِي لَمْ يَبَيِّنْهُ عَلَى
الْأَحَادِيثِ الَّتِي فِيهَا تَبَيَّنَ أَسَامِي أَمْرَاءِ السُّوءِ وَاحْوَالِهِمْ وَزَمَنِهِمْ، وَقَدْ كَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ يَكْنِي عَنْ
بَعْضِهِ، وَلَا يَصْرَحُ بِهِ خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ مِنْهُمْ كَقَوْلِهِ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ رَأْسِ السِّتِينَ وَإِمَارَةِ الصَّبِيَّانِ
يُشِيرُ إِلَى خِلَافَةِ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ سَنَةً سِتِينَ مِنَ الْهَجْرَةِ وَاسْتَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَ أَبِي
هُرَيْرَةَ فَمَاتَ قَبْلَهَا بِسَنَةٍ"^٣.

الأصل الرابع: أثر كتمان الحق في حياة الناس:

^١ رواه البخاريّ ح ٣٣٢٩

^٢ رواه البخاريّ ح ١٢٠

^٣ ابن حجر، أحمد العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاريّ، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، ج ١/ ٢١٦-٢١٧ بتصرف يسير

إن أزمة كتمان الحقّ، ولَبْسِه بالباطل قد استشرت، ولا يخفى على عاقل مقدار ما يفوت الناس من الخير، وما يحلّ بهم من الفساد والظنك بسبب مخالفتهم هدى الله تعالى ودين الحقّ.

ولو أن أحدنا طاف في بلاد الإسلام؛ ليرى أيّ مبلغ بلغ بنا كتمان البيّنات والهدى (ميراث النبوة)؟ وكيف يحرف فيها الكلم عن مواضعه؟ وكيف غُيب العلماء الصادقون أو أُبعدوا، وكيف اتخذ الناس الرؤوس الجهال أئمةً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فأوردوا الناس المهالك، ترى بم يرجع إلينا مثل هذا الرخالة؟ أما يسرّ ويؤنس أم بما يوحش ويحزن؟

أقول: بل يكفي أن يتتبع فريق من الباحثين القنوات الفضائية الرسمية وغير الرسمية لعدة أيام، ثمّ لننظر بم يرجع الباحثون؟

لقد وقف دعاة السوء حاجزًا يحول بين الناس وبين الحقّ. وإذا حلّت مصيبة كتمان البيّنات والهدى يقوم فقد تودّع منهم.

وكثيراً ما يصحب كتمان الحقّ نشرُ الأهواء، وعلى قدر هذا الكتمان والنشر يكون الفساد في الأرض، والعقاب من السماء. وكلما كثر الكاتمون الحقّ، وزادت الأهواء انحطّت الأئمة وضُعفت، وتمزّقت أواصرها، وتفرّقت كلمتها، وبسط إليها أعداؤها أيديهم وألسنتهم بالسوء، فسلبوها ثرواتها، وهتكوا حرمتها، وعاثوا فيها فسادًا.

ولا يزال أهل الكتاب والمنافقون والكفار يكيّدون كيّدًا عظيمًا للإسلام تنطق بذلك التقارير السريّة والمعلنة للمنظمات والمؤسسات الدوليّة الغربيّة والشرقيّة، وآثار الحرب على الإسلام شاخصة في مشارق الأرض ومغاربها: أشلاء تمزّق، ونفوس تزهق، وأعراض تنتهك،

ودول تغزى، وشعوب تحرق، ومناهج تطوى، ودعاة يساقون إلى الموت وهم ينظرون، وآخرون يساقون إلى السجون، ومنهم من يخرج من دياره، فلا يجد له مأوى.

قصة وعبرة:

فَعَنْ عَنْ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ فَعَضِبَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُطِيعُونِي قَالُوا بَلَى قَالَ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَّا جَمَعْتُمْ حَطَبًا وَأَوْقَدْتُمْ نَارًا ثُمَّ دَخَلْتُمْ فِيهَا فَجَمَعُوا حَطَبًا فَأَوْقَدُوا فَلَمَّا هُمُوا بِالْدُّخُولِ فَقَامَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّمَا تَبِعْنَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِرَارًا مِنَ النَّارِ أَفَنَدْخُلُهَا فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ خَدَتِ النَّارُ وَسَكَنَ غَضَبُهُ فَذَكَرَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ"¹. وعن جَابِرٍ قَالَ خَرَجْنَا فِي سَفَرٍ، فَأَصَابَ رَجُلًا مِنَّا حَجَرٌ، فَشَجَّهَ فِي رَأْسِهِ، ثُمَّ احْتَلَمَ، فَسَأَلَ أَصْحَابَهُ: فَقَالَ هَلْ بَجِدُونَ لِي رُحْصَةً فِي التَّيْمَمِ؟ فَقَالُوا: مَا نَجِدُ لَكَ رُحْصَةً وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ، فَاغْتَسَلَ، فَمَاتَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أُخْبِرَ بِذَلِكَ فَقَالَ: "قَتَلُوهُ فَتَلَّهُمُ اللَّهُ أَلَّا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا، فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ"².

¹ رواه البخاري ح ٤٣٤٠ ومسلم، ح ٤٨٧٢، واللفظ للبخاري.

² رواه أبو داود، ح ٣٣٦، وقال الشيخ الألباني في صحيح الجامع: (صحيح) ح ٤٣٦٢

الأصل الخامس: جزاء الكاتمين الآثمين: اللعن، قال الله تعالى "أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ". واللعن في اللغة: هو الطرد والإبعاد من الخير، وإذا صدر اللعن من العباد فهو السَّبُّ والدُّعَاءُ^١.

أقول: لقد استعمل لفظ "اللاعنون" وهو اسم فاعل محلى بـ "أل" يعم كل لاعن، وفي هذا اللفظ تعميم وإبهام يناسب السياق! وقد اختلف المفسرون في بيان هذا اللفظ، قال الشنقيطي: "لم يبيّن هنا ما اللاعنون؟ ولكنه أشار إلى ذلك في قوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾"^٢، وعلى هذا الرأي يكون الملائكة والناس أجمعون هم المقصودين بلفظ اللاعنين، وهذا المسلك الأصولي واضح، ولكن الإمام الطبري رجّح أنهم الملائكة والمؤمنون من الناس في هذا الموضع، مع أنه استدلل بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^٣، لما كان هذا اللعن في الدنيا، فلعله رأى أن اللعن المؤثر المعبر في هذا الموضع (لعن الذين يكتُمون ما أنزل الله) هو ما كان دعاء مضرًا بالملعون، وهو لعن اللاعنين من الملائكة والمؤمنين، ولذا قال العلامة الرازي: "فيجب أن يحمل على مَنْ للعنه تأثير، وقد اتفقوا على أن الملائكة والأنبياء والصالحين كذلك فهم داخلون تحت هذا العموم لا محالة"^٤.

^١ انظر: الزبيدي، محمد بن محمد، تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية، بلا تاريخ ج ٣٦ / ١١٨، وابن

منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، مادة: خير، دار صادر - بيروت، ط ١، ج ١٣ / ٣٨٧

^٢ سورة البقرة آية (١٦١)

^٣ الشنقيطي، الأضواء، مرجع سابق، ج ١ / ٤٧

^٤ سورة البقرة آية (١٦١)

^٥ انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٤ / ١٤١

المخرج من مصيبة الكتمان، "إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ".

حين أنظر في معاني الآيتين المجيدتين تنبعث في ذاكرتي أممٌ كثيرة جماعاتٍ ووُحْدَانًا مَن آتاهم الله تعالى العلم، والدعوة، ومَن حملوا لواء الكلمة من السابقين واللاحقين فكتموا وظلموا، وهنا يجد الداعية نفسه في وسط القوم فزعًا رافعًا يديه اللهم سلم سلم، فتنهال عليه تلك المواقف التي وقفها خطيبًا، أو محاضرًا، أو محاورًا، وحين كتب ما كتب! لقد كتمتُ، وسكتُ، فينادي ربّه: "رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ"، ثم يأخذ شريط الذكريات طريقه حاملاً تلك الجموع، وهو معهم، فيشقّ حجاب المستقبل، وإذا بتلك الصفوف الطويلة تساق إلى عرصات محكمة الفصل، وقد امتدت تلك الصفوف عن اليمين وعن الشمال مهطعين إلى الداعي بقلوب واجفة، وأبصار خاشعة، لا يدري أحدهم أيؤخذ به ذات اليمين، فيسعد ويرقى، أم يؤخذ به ذات الشمال فيهوي، ويشقى؛ حتى إذا بلغت الصفوفُ المفترقَ، سيق الذين كتموا البينات والهدى ذات الشمال، فعُلت أيديهم، وغشيهم الخزي، واسودّت وجوههم، فيوقفون، ويسألون، فيقال لبعضهم: لقد كتمتم حسداً، ويقال لآخرين كتمتم؛ ليقال، وقد قيل، ويقال: كتمتم حيّة، وكتمتم للجاه، وكتمتم للمال، ويتبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتبعوا، فيؤخذ كلُّ بذنبه، فيُلجم بلجام من نار ملعوناً مقبوحاً، وقضي بينهم بالحق! حتى إذا بلغ الكرب منتهاه، بادرت آية التوبة برفع حجابها، وفتح أبوابها؛ ليدخلها الذين تابوا، وأصلحوا، ويَنبوا بسلام آمنين، فيسلك بهم ذات اليمين، وتتلقاهم الوفود بالتسليم والتكريم، وهكذا تبدو خاتمة هذا المشهد في قلب التائب عند تلاوة آية التوبة بعد آية الوعيد. لقد استقبلتنا آية التوبة بأداة الاستثناء وبسطتها صراطاً؛ ليعبر عليه التائبون إلى جنّات

ونُهر، ويأووا إلى كنف التَّوَابِ الرحيم، "إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا" "إِلَّا" للاستثناء من الضمير المتصل في "يَلْعَنُهُمْ"، فالاستثناء مخصَّص لعموم المحكوم عليهم باللعة، والموصول "الذين تابوا .." عام، والأفعال: "تابوا وأصلحوا وبَيَّنُّوا" في سياق الإثبات مقيدة بمقدرات يدلّ عليها السياق، "فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ": أُولَئِكَ يعمّ جميع المشار إليهم، والفعل المضارع "أَتُوبُ" مقيد بالجارّ والمجرور: "عَلَيْهِمْ"، وصيغة المضارع تفيد تجدد إنزال التوبة على كلّ تائب، "وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" تعريف المبتدأ والخبر يفيد حصر التوبة والرحمة على الله تعالى.

فقد استثنى من كان آتياً بهذه الأشياء الثلاثة: التوبة: وهي ترك معصية (الكتمان) والدخول في الطاعة (البيان) ابتغاء مرضاة الله تعالى، والإصلاح: وهو إزالة ما خلفه الكتمان من الفساد، فلا يُبقي له أثراً ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، والبيان: وهو الإفصاح وإعلان الحق، وقد اشتملت الآية على ما هو عام، وهو التوبة، وما هو خاص، وهو الإصلاح، وما هو أخص، وهو البيان، وعطف الخاص على العام للمبالغة في العناية والاهتمام. وقد تَضَمَّنَتْ الآية خمسة أصول:

الأصل الأول: التوبة جنّة: قال الله تعالى: "إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا"، أي: رجعوا إلى طاعة الله تعالى، والتوبة هي الرجوع والإنابة إلى الله تعالى بترك الذنوب وفعل الطاعة، فهي تخلية: بترك الذنب، وتخلية بفعل الطاعة. قال العلامة ابن القيم: "كثير من الناس إنما يفسر التوبة بالعزم على ألا يعاود الذنب وبالإقلاع عنه في الحال وبالندم عليه في الماضي، وإن كان في حق آدمي: فلا بدّ من أمر رابع، وهو التحلل منه، وهذا الذي ذكره بعض مسمّي التوبة بل شرطها، وإلا فالتوبة في كلام الله ورسوله كما تتضمن ذلك تتضمن العزم على فعل المأمور، والتزامه، فلا يكون بمجرد الإقلاع والعزم والندم تائباً؛ حتى يوجد منه العزم الجازم على فعل

المأمور والإتيان به، هذه حقيقة التوبة، وهي اسم لمجموع الأمرين، لكنها إذا قرنت بفعل المأمور كانت عبارة عما ذكره، فإذا أفردت تضمنت الأمرين، وهي كلفظة التقوى التي تقتضي عند إفرادها فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، وتقتضي عند اقترانها بفعل المأمور الانتهاء عن المحذور، فإن حقيقة التوبة الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحب، وترك ما يكره، فهي رجوع من مكروه إلى محبوب، فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر، ولهذا علّق سبحانه الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحذور بها، قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^١. فكل تائب مفلح ولا يكون مفلحاً إلا من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه^٢.

والتوبة ليست بنار تسوق القلوب إلى عرصات الطاعات، فتحرقها، وتحرمها ذوق اللذات، كلاً، بل هي جنة يطيب فيها العيش، وتخلو فيها الحياة؛ لأنها تكشف الحجاب عن البصيرة؛ لترى من الأسرار المبثوثة في أقدار الله تعالى الشرعية والكونية، ولتبصر من جمال الكون ما يؤنس المستوحش، ويجلو اليأس والبؤس عن القلوب، فهي باب من أعظم الأبواب التي تتدفق منها رحمة الله تعالى وولايته، وشأنها عند الله تعالى عظيم، فقد جعلها الله تعالى علاجاً لكل مصيبة في الدين. وسوف أذكر حديثاً يبيّن فيه رسولنا صلى الله عليه وسلم منزلة التوبة عند الله تعالى، وكيف يستقبل الله تعالى عباده التائبين، وقد بيّن لنا رسول الله هذا الأمر بياناً لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله إلا بالوحي؛ لأنه من علم الغيب الخاص بنفس الله تعالى،

^١ سورة الأعراف آية (١٦٣)

^٢ ابن القيم، محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي -

بيروت، ط٢، ١٩٧٣ ج ١ / ٣٠٥-٣٠٦

﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾^١، فانظر هذا تكريم وهذه الحفاوة التي يتلقاها بها الله العلي العظيم القوي العزيز القهار هذا المذنب المفرط الضعيف الذليل حين يأتي ربه تائباً! فسبحن الله التواب الرحيم، ما أرحمه وأكرمه! فعن عبد الله بن مسعود قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "اللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ ذَوِيَّةٍ مَهْلِكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ، فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَذْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعْ إِلَى مَكَانِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ؛ لِيَمُوتَ فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ، وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ"^٢. وما كان الله تعالى ليفرح بقدمك عليه تائباً، ثم يذكرك في معترك المصائب وحيداً مخذولاً، وما أظن أحداً يسمع بهذا الحديث ثم يعرض عن التوبة مؤثراً صحبة الذنوب؟ اللهم إني أتوب إليك من كل ذنب ظاهر وباطن، فاغفر لي ولوالدي ولجميع المسلمين.

والذنوب نوعان:

النوع الأول من الذنوب: فعل ما نهى الله عنه من المحرمات: كقتل النفس التي حرم الله تعالى، والزنا، وشرب الخمر، وأكل أموال الناس بالباطل (وهذه الأفعال من السيئات والقبائح)، وهذه الذنوب منها ما يكون بين العبد وربّه، وليس فيها عدوان على حقوق العباد، فالتوبة من هذه الذنوب تكون بترك فعلها ابتغاء مرضاة الله تعالى، وأما ما فيها عدوان على

^١ سورة النور آية (٣١)

^٢ رواه البخاري ح ٦٣٠٨، ومسلم ح ٤٩٢٩ واللفظ لمسلم.

حقوق العباد (على أنفسهم، أو أعراضهم، أو أموالهم)، فالتوبة من هذا النوع لا تتم إلا بأمرين: بتركها، وردّ الحقّ إلى أهله ابتغاء مرضاة الله تعالى.

والنوع الثاني من الذنوب: ترك العبد ما أمره الله تعالى بفعله من الواجبات: كترك الصلاة، والصيام، والزكاة أي: ترك الحسنات والطاعات الواجبة. والتوبة من هذا الصنف من الذنوب تكون بفعل تلك الطاعات ابتغاء مرضاة الله تعالى. وعليه، فالذنب الذي اقترفه الذين يكتُمون ما أنزل الله تعالى من البينات والهدى هو من هذا النوع أي: من ترك الواجبات، وقد شرط لاستثنائهم من اللعنة ثلاثة شروط: التوبة إلى الله تعالى، وإصلاح ما أفسدوا، وبيان ما أنزل الله تعالى من البينات والهدى.

الأصل الثاني: الإصلاح: قال الله تعالى: "وَأَصْلَحُوا" والإصلاح هو إزالة الفساد، وبهذا بعلم أن كتمان ما أنزل الله تعالى من البينات والهدى هو إفساد ونشرٌ للفساد؛ لأنه يفضي إلى حجب العلم النافع عن الناس، فيضلّ الناس عن سواء السبيل، فالواجب على من أفسد شيئاً أو تسبّب في إفساده أن يصلحه، وذلك بتتبع الآثار التي خلفها سلوكه الآثم؛ ليزيلها بقدر الاستطاعة. فالتوبة خروج من الفساد، ورجوع إلى الإصلاح، وقد يفهم المفترط أن هذا كافٍ في التوبة من الذنوب التي يتعدّى فسادها فاعلمها، لذلك كان التصريح بذكر الإصلاح أنفع، ولقد رأينا أناساً تابوا من الإلحاد، والكفر، ولكنهم تحوّلوا إلى مسلمين منعزلين مشغولين ببعض العبادات الفرديّة، فأعرضوا عن مدافعة الباطل الذي كانوا ينصرونه، فلم يفتّدوا ما كانوا ينشرونه من الفتن، والشبهات، والدسائس، واكتفوا بهجره، ولم ينصروا الحقّ وأهله، بل إن فريقاً من هؤلاء انقلبوا مفسدين، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، فأبوا أن يتفقهوا في الدين، وعبدوا الله تعالى على جهل مركّب، وصوّروا الإسلام تصويراً مشوّهاً.

الأصل الثالث: البيان: قال الله تعالى: "وَبَيَّنُوا" أي بَلَّغُوا وأعلنوا ما وقعوا في كتمانهم
مما أمروا ببيانه؛ لينتفع ببيانهم الناس، وليكونوا أسوة حسنة لغيرهم بعد أن كانوا أسوة سيئة؛
لأن بيان الهدى والتحلي به يزيل عنهم أثر ما تلبسوا به من صفة الكتمان، ولما كان سبب
اللعنة هو الكتمان، جعل الله تعالى المخرج منها القيام بالبيان تصرُّحاً، وقد رأينا بعض من كان
قوياً جلدًا جبَّاراً في بثِّ سموم الجاهليَّة، وكتمان الحقِّ، فلَمَّا تابوا إلى رشدهم، وظهر لهم بطلان
ما كانوا عليه، أقبلوا على الدين على استحياء من أصدقاء الأُمس، فأرادوا التوفيق بين
النقيضين، فلا انفكَّوا من ريقه الجاهليَّة، ولا أخذوا الكتاب بقوة، فصمتوا حيث يجب البيان،
وتكلَّموا فيما ضرُّه أكبر من نفعه. ورأينا نماذج رائدة في الصدع بالحقِّ، وكشف المؤامرات على
الإسلام، وردِّ كيد الكافرين من أقوامهم الغربيِّين أو الشرقيِّين، ومن هؤلاء المفكِّر محمد أسد
رحمه الله تعالى (أصله من اليهود)، والشيخ يوسف إستس حفظه الله ورعاه (كان قسيساً).

تنبيه:

ينبغي للتائب ألاَّ يحمل من التكاليف إلا ما يطيق إصلاحه وبيانه، وألاَّ يتصدَّى لما
لا يطيق، ولا يتعدَّى؛ لأن الله رفيق يحبُّ الرفق. وأما إذا عجز العبد عن الوفاء بالإصلاح
والبيان بعدرٍ قاطع، كأن يدهمه الموت قبل تمكُّنه من الإصلاح والبيان، فهو معذور مأجور، ما
دامت النية تامَّة.

الأصل الرابع: الجزاء بيَّنت الآية الجزاء بأمرين:

الأول: الإخراج من لعنة الله تعالى ولعن اللاعنين بالاستثناء في قوله تعالى: "إِلَّا الَّذِينَ
تَابُوا..." وهذا فضلٌ عظيم يزحزح صاحبه عن نار اللعنة.

الثاني: "فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ". "فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ" قال ابن عاشور: "جملة مستأنفة، وقرنت الجملة بالفاء للدلالة على شيء زائد على مفاد الاستثناء، وهو أن توبتهم يعقبها رضى الله عنهم. فجاء في الآية نظم تقديره إلا الذين تابوا انقطعت عنهم اللعنة، فأتوب عليهم. أي أرضى".^١ والذي يظهر من هذه الجملة هو التصريح بالتوبة عليهم، وقد وردت بصيغة الفعل المضارع الدال على تجدد التوبة لهم، وعدم انقطاعها وهذه بشارة من أعظم البشارات، ومن تاب الله تعالى عليه، غفر ذنبه، وألحقه بال صالحين، ومن التائبين من يبدل الله سيئاتهم حسنات، وقد وردت السنة ببيان قبول التوبة المتكررة، فعن أبي هريرة قال: سَعَتْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبَ ذَنْبًا - فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ، وَرُبَّمَا قَالَ أَصَبْتُ - فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعْلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا، أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ، أَوْ أَصَبْتُ - آخَرَ، فَاغْفِرْهُ، فَقَالَ: أَعْلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ أَصَابَ ذَنْبًا - قَالَ: قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ، أَوْ أَذْنَبْتُ - آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعْلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي - ثَلَاثًا - فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ".^٢

الأصل الخامس: الشاء على الله وتطمين العباد. "وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ"، في هذين الاسمين الكريمين ثناء على الله تعالى، وتطمين لقلوب العباد، فإن الذنوب مهما عظمت، فإن الله تعالى أعظم رحمة وتوبة، فالله تعالى يتوب على العباد؛ لأنه هو التواب الرحيم، وقد بين العلامة ابن القيم ما تقتضيه أسماء الله الحسنى من الآثار أحسن بيان، فقال: إنها "تقتضي

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/٧٢

^٢ رواه البخاري ٧٥٠٧.

آثارها اقتضاء الأسباب التامة لمسبباتها، فاسم السميع البصير يقتضي مسموعًا ومُبْصَرًا. واسم الرزاق يقتضي مرزوقًا، واسم الرحيم يقتضي مرحومًا، وكذلك اسم الغفور، والعفو، والتواب، والحليم، يقتضي من يغفر له، ويتوب عليه، ويعفو عنه، ويحلم، ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات؛ إذ هي أسماء حسنى، وصفات كمال، ونعوت جلال، وأفعال حكمة، وإحسان وجود، فلا بد من ظهور آثارها في العالم. وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله صلوات الله وسلامه عليه حيث يقول: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ"^١، فإذا فرضت المعصية والخطيئة منتفية من العالم فلمن يغفر؟ وعمّن يعفو؟ وعلى من يتوب ويحلم؟^٢.

^١ رواه مسلم، ح ٤٩٣٦

^٢ ابن القيم، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، مرجع سابق، ج ١/ ٢٠٨

مقدمات وضوابط في معرفة المصيبة (تشخيصها) وعلاجها:

إنَّ جلَّ المصائب التي تعصف بالأمة سببها مخالفة الدين القيم، ولا يمكن علاجها إلا بما شرعه الله تعالى وأذن به، وذلك بتصور حقيقة المصيبة ومعرفة رتبها في سلّم الأولويات في ميزان الشرع، ثمَّ علاجها بأحسن السبل وأصلحها. وسوف أتخذ من مصيبة كتمان البيّنات والهدى نموذجًا في بيان مقدمات لتصور حقيقة هذه المصيبة وذكر ضوابط في علاجها في واقعنا المعاصر.

أولاً: مقدمات في بيان حقيقة المصيبة (كتمان البيّنات والهدى).

المقدمة الأولى: يجب تحديد حقيقة المشكلة (المصيبة المنصوص عليها) كما وردت في النصّ من غير تهوين ولا تهويل، ولا إفراط ولا تفريط، وذلك هو الطريق الصحيح إلى الانتفاع بهداية الآية في واقعنا، وقد حاولت أن أبين ذلك في تفسيري للآية.

المقدمة الثانية: يجب تعيين الصور المعاصرة المندرجة في جنس المصيبة المنصوص عليها (كتمان ما أنزل الله من البيّنات والهدى من بعد ما بينه الله تعالى في الكتاب)؛ لأن ذلك ضروريّ لمعالجة المشكلات والمصائب المتجدّدة المتعلقة بكتمان البيّنات والهدى بالإلذار، والتحذير، والوقاية، والعلاج. وقد رأينا فريقاً عريضاً من المصابين بهذا الداء يجهلون جهلاً مركّباً فهم يكتمون ما أنزل الله من البيّنات والهدى من بعد ما بينه الله تعالى في الكتاب ويجهلون أنهم يكتمون، فمنهم من يكتّم ذلك تقديمًا للعقل وتعطيلًا للنقل، فينفي ما دلّت عليه نصوص القرآن الكريم والسنة الشريفة، ويثبت ما خالفهما، وقد وقع هذا في علم العقيدة بعد أن ترجمت كتب اليونان، وأما في هذا العصر، فقد عمت البلوى، فأصبح المستغربون

والمستشرقون من أبناء جلدتنا ينادون بكلّ طائفة، فمنهم من ينادي بتغيير الشريعة، ومنهم من ينادي بتطويرها، ومنهم من ينادي بتنحيها بالكلية.

المقدمة الثالثة: يجب الوقوف على ما حدّه الله تعالى من العقاب كما ورد في الآية، وما زاده الشرع بياناً في نصوص أخرى، فهو معتبر.

ثانيًا: ضوابط في علاج ظاهرة كتمان البيّنات والهدى في واقعنا المعاصر:

الضابط الأول: الجنوح إلى إنتاج العلاج المناسب للمصائب والمشكلات الواقعة

والمتوقّعة:

إن معالجة ظاهرة كتمان ما أنزل الله من البيّنات والهدى من فروض الكفاية، ولا يتأتى ذلك إلا باستنفار المصلحين الناصحين من الرجال والنساء؛ ليضعوا البرامج المحكمة؛ ليُتمُّوا ما هو قائم -وما أكثر الخير القائم- ويستكملوا مسيرة التمكين لهذا الدين بتقديم البيان الأوفى في جميع المجالات التنمويّة؛ لنحسن توظيف الطاقات في مشرع الأمة العظيم: إقامة الدين.

إن أمنيّة الداعية الصادق أن يمكّنه الله تعالى من النفاذ بالبيّنات والهدى إلى قلوب العباد؛ لينيرها بنور الهداية، وإن من الدعاة من هو باخع نفسه أسفًا على تلك القلوب المقفرة من ذكر الله تعالى، يوّد أحدهم لو أن الله تعالى يكرمه بغرس شجرة التوحيد الطيبة فيها، لما يعلمه من فضل الله العظيم، وحسن عاقبة الداعين والمدعوّين.

ولا ينطوي على الحسد وحبّ كتمان الحقّ عن الخلق إلا قلبٌ طُمست بصيرته، وفسدت سريره، فكانت نار اللعنة أحقّ به!

وما أوسع السبل التي تهدي إليها هاته الآية المجيدة! فالواجب أن نسلك أحسن تلك المسالك؛ لتحقيق أحسن الغايات. وأقول: إن ثمة مؤشرات وصفات للسبيل الأمثل، ومن ذلك: الاعتماد على سياسة التأليف، والترغيب، والتبشير، والتيسير في الإصلاح، والبيان،

وإنتاج الحلول، والابتعاد عن سياسة اختلاق الأزمات، وتكثير المشكلات، وإثارة الفتن،
والمنازعات. فالواجب فتح الأبواب، وتوسيع المسالك، ومن قال: هلك الناس، فهو الهالك.

الضابط الثاني: تفكيك المصائب والأخطاء والأخطار إلى أحجام قابلة للمعالجة:

لقد شَهِدْتُ في الثلاثين السنة الماضية حوادث جساماً أضرت بالأمة المسلمة في
جزيرة العرب وما حولها، وكان كتمان الهدى أشدّ الأسباب فتكاً، وقد أورثنا معيشة ضنكاً.
وما يصيبنا بأسباب من عند أنفسنا كثير، وما منّا من أحد إلا له كِفْلٌ من كتمان ما أنزل الله
من البَيِّنات والهدى، ومن التفريط في بيان الحقّ، ولكن مقلّ ومستكثر، أسأل الله الغفور
الرحيم لي وللمسلمين العفو والمغفرة.

إننا بحاجة إلى بيان وافٍ للمقاصد المترتبة على توحيد المشاريع الجامعة، وبيان
أخطار التفرّق، والتنازع، والمناهج الباطنيّة، ومشاريع التبعية، والمناهج والبرامج الوافدة، وما تجرّه
علينا البرامج الدوليّة والإقليميّة الغازية، فهي تعمل ليل نهار في جميع بلاد المسلمين؛ لإطفاء
نور الله تعالى، وكتمان ما أنزل الله من البَيِّنات والهدى بكلّ وسائلهم الظاهرة والباطنة.

والمصائب الناشئة والسائدة عظام جسام، ولا يتأتى حلّها إلا بتفتيتها وتفكيكها،
وتجزئتها إلى مفردات قابلة للمعالجة والحلّ، فمشاريع التوبة، والإصلاح، والبيان ينبغي أن
تكون ميسورة مقدوراً عليها.

الضابط الثالث: رصّ الصفوف وبناء المؤسسات العملاقة العابرة للقارّات من

الوحدات الصغيرة المتناثرة:

كما أن المصائب والمشكلات الجسم تستوجب التفكيك والتفتيت، فكذلك الطاقات الكثيرة المبعثرة تستدعي حسن التنظيم واتباع سياسة التخصص، والتخصّص وسيلة نافعة لإتقان توظيف الطاقات، وهو سمة من سمات العصر.

والناظر في الساحة الإسلامية يرى أعدادًا كثيرة، ولكن التفرّق، والتنازع أو هونها وأرهمها، فهي بحاجة إلى حسن التعاون، ورض الصفوف، وإحكام التنظيم، وإتقان الأعمال؛ لتسلك سبل ربها دُلًّا على هيئة مؤسسات، ومشاريع متعاونة، متآزرة. لقد انبعث كثير من العلماء والدعاة وعامة المسلمين لدفع الإثم والعدوان، ونصرة دين الله تعالى بتعليم القرآن والسنة، وإعمار الحياة السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، وغيرها وفق منهج الله تعالى، والفرص كثيرة لو أحسنت هذه الجموع المباركة التعاون في تطوير خططها ووسائلها لتوظيف الطاقات، وسد الثغرات، وابتعدت عن مواطن الغفلة، والمغامرات في اقتحام ما يجهل، واجتنبت التنازع، والركون إلى المتربصين بها الدوائر، وتبوأت كل طائفة مواقعها التي تحسنها. فمن بذل جهده في التزكية، فهو في عمل مبارك، ومن اقتصر على التفقيه، والتفهيم، فهو على خير عظيم، ومن جاهد في سبيل التنزيل والتطبيق، فهو محسن، وتعاونهم على البر والتقوى واجب؛ لأن كل فريق يكمل الآخر، والعلم رحم بين أهله، فكيف وهم جميعًا أهل الله تعالى وأوليائه، ولا أعلم جامعًا للقلوب أجل وأكمل وأجمل من كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

ومن يروم الجمع -والجمع ممكن- فقد ازداد فضلًا، وزيادة الفضل تحجز صاحبها عن الإثم والعدوان، والمسلم لا يُسلم أخاه ولا يظلمه، ولا يحقره، بل يشكره، وينصره. فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- "لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا

تَدَابَرُوا وَلَا يَبِيعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَحْذُلُهُ وَلَا يَنْفِرُهُ. التَّقْوَى هَاهُنَا وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَحَاهُ الْمُسْلِمِ. كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعَرْضُهُ^١. والتنافس في الطاعات، والمسارعة في الخيرات لا يُتركان بسبب ما يقع من التحاسد، والتنازع، فإن هوى النفوس يدفع بالتزكية، ونزغ الشيطان يدفع بالذكرى والموعظة الحسنة والسعي في الإصلاح والمجادلة بالتي هي أحسن.

وظيفة الاجتهاد والإفتاء بين الكتمان والعدوان:

أودّ أن أختم هذا الموضوع بالحديث عن وظيفة جليلة ألا وهي وظيفة الاجتهاد والإفتاء والتوجيه والهداية، فإن داء الكتمان يكون أخطر أثرًا، وأشدّ ضررًا حين يصيب هذا الجهاز المركزي في الأمة، فالعلماء والمفتون هم ألو الأمر، وأئمة الركب، ومصاييح الدُّجى، وقد علم الأعداء مكانة هذه الوظيفة وأثرها في هداية الأمة، فهجموا عليها بكلّ ضراوة؛ ليزلوا الأمة عن دينها، وقد أضّر بنا كيدهم ضررًا بالغًا، فقد صنعوا مرجعيّات وقُدوات مزيفة ضالّة مضلّة، وأزاحوا العلماء الصادقين بالقتل أو السجن، أو الإخراج من ديارهم أو غير ذلك، وساعدهم على ذلك المغفلون والجرمون، فما أحوجنا اليوم إلى بيان وجه الحقّ فيما يتعلّق بهذا المنصب العظيم؛ لنحمي مركز التوجيه والهداية، ونسدّد أذنيه، ومن ذلك بيان شروط الاجتهاد؛ لنميز الدّعي الخبيث من المجتهد الصادق، ولُيفتح باب الاجتهاد بضوابطه، ويُعدّ العلماء على بصيرة، فنعالج مشكلات الإفتاء، ونمنع التقدّم بين يديّ الله ورسوله.

^١ رواه مسلم ح ٦٧٠٦

وثمة ضرورة مصاحبة لهذه القضية ألا وهي الدراسات الواقعية السديدة التي تقدم للعلماء وصنّاع القرار الصورة الصحيحة للوقائع والحوادث، فالحكم على الشيء فرع عن تصوّره، فلا تصدر الفتاوي إلا وفق تصور بيّن، ثمّ تبني القرارات والبرامج على فتاوي رشيدة؛ ليحيا من حيي عن بيّنة، ويهلك من هلك عن بيّنة.

ولا بدّ من مسارين متوازيين: مسار التسديد والمقاربة تأهيلاً وتفصيلاً، ومسار الوقاية والحماية بكفّ المعتدين، وجزّ نواصي الرؤوس الجاهلة؛ حتى لا نضلّ أو نُضلّ، فعن عُرْوَةَ بِنِ الرُّبَيْرِ قَالَ: "قَالَتْ لِي عَائِشَةُ يَا ابْنَ أُخْتِي بَلَعْنِي أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو مَارَّ بِنَا إِلَى الْحَجِّ فَأَلْقَاهُ فَسَأَلْتُهُ فَإِنَّهُ قَدْ حَمَلَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِمًا كَثِيرًا قَالَ فَلَقِيْتُهُ فَسَأَلْتُهُ عَنْ أَشْيَاءَ يَذْكُرُهَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ عُرْوَةُ فَكَانَ فِيْمَا ذَكَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْتَزِعُ الْعِلْمَ مِنَ النَّاسِ انْتِزَاعًا وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعُلَمَاءَ فَيَرْفَعُ الْعِلْمَ مَعَهُمْ وَيُبْقِي فِي النَّاسِ رُءُوسًا جُهَّالًا يُفْتَوُهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَيَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ، قَالَ عُرْوَةُ فَلَمَّا حَدَّثْتُ عَائِشَةَ بِذَلِكَ أَعْظَمَتْ ذَلِكَ وَأَنْكَرْتُهُ قَالَتْ أَحَدَّثْتُكَ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ هَذَا قَالَ عُرْوَةُ حَتَّى إِذَا كَانَ قَابِلٌ قَالَتْ لَهُ إِنَّ ابْنَ عَمْرِو قَدْ قَدِمَ فَأَلْقَاهُ ثُمَّ فَاتِحَهُ حَتَّى تَسْأَلَهُ عَنْ الْحَدِيثِ الَّذِي ذَكَرَهُ لَكَ فِي الْعِلْمِ قَالَ فَلَقِيْتُهُ فَسَأَلْتُهُ فَذَكَرَهُ لِي نَحْوَ مَا حَدَّثَنِي بِهِ فِي مَرَّتِهِ الْأُولَى قَالَ عُرْوَةُ فَلَمَّا أَخْبَرْتُهَا بِذَلِكَ قَالَتْ مَا أَحْسَبُهُ إِلَّا قَدْ صَدَقَ أَرَاهُ لَمْ يَزِدْ فِيهِ شَيْئًا وَلَمْ يَنْقُصْ".^١

فما أعظم نفع الحديث الشريف وما أكثر بركاته، وما أحسن ضبط عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وما أحكم تثبّت الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما، ورحم الله تعالى الرواة الأبرار والفقهاء الأخيار، ومن سار على نهجهم.

^١ رواه البخاريّ ح ٧٣٠٧، ومسلم ح ٤٨٢٩، واللفظ لمسلم.

المتمة والمقدمة: الترغيب في البدار بالتوبة والترهيب من الإصرار على الكفر:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ^١، هذه الآيات متممة لآيات السابقة التي بينت المنهج الرباني في معالجة الذنوب والمصائب في الدين، ومقدمة بين يدي الآيات المبينة لأصول التشريع الإسلامي ونواقضه، فإن من مقاصد هذه الآيات التخويف والترهيب من مباغطة الموت؛ لبيادر الغافلون السادرون في الغي إلى التوبة، وفيها تهديد ووعد شديد لمن يصرّ ويتمادى في الكفر. وإليكم التفصيل:

"إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ": الاسم الموصول "الَّذِينَ" من صيغ العموم، وهو مبين ومعين بالصلة المحدودة بفعلين: الفعل الأول: "كَفَرُوا" وهو فعل في سياق الإثبات مطلق؛ لأنه منزل منزلة اللازم، والكفر هنا حقيقة شرعية، ومعناها فارقوا الدين الحق، والفعل الثاني: "وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ": وهذا الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجملة الحالية: "وَهُمْ كُفَّارٌ"، فكل من كفر ومات كافرًا يدخل في عموم الاسم الموصول، وحكم الله تعالى في هؤلاء هو: "أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ".

"أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ": اسم الإشارة: "أُولَئِكَ" يعم بالحكم الغليظ والعقاب الشديد جميع المشار إليهم الذين شملهم الاسم الموصول، "عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ": "لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ": لعنة: نكرة مضافة تعم لعنات الله ولعنات الملائكة ولعنات الناس، "اللجنة": قال الإمام الطبري: "واللجنة: الفعلة، من لعنه الله

^١ سورة البقرة آية (١٦٢-١٦١)

بمعنى أقصاه، وأبعده، وأسحقه. وأصل اللعن: الطرد، فمعنى الآية إذاً: أولئك يُعدهم الله منه ومن رحمته، ولعنة بني آدم وسائر خلق الله ما لعنوا أن يقولوا: "اللهم عنه"؛ إذ كان معنى "اللعن" هو ما وصفنا من الإقصاء والإبعاد^١. "أل" في الملائكة: للاستغراق، وأل في الناس للاستغراق والعموم.

- "خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ": خالدين في عاقبة اللعنة وهي نار جهنم، "لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ": فعل في سياق النفي يعم، فهم في عذاب دائم مقيم لا تخفيف فيه، وقد خصص الفعل بالجار والمجرور: "عنهم"؛ ومفهومه أن العذاب يخفف عن غيرهم من العصاة، فالمؤمنون الذين يدخلون النار حيناً من الدهر يخفف عنهم ويُخرجون منها. الْعَذَابُ: أل للعموم. "وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ": الفعل في سياق النفي يعم كل إنظار، والإنظار الإمهال، وهو مخصص بمقدّر حُذف للتعميم؛ والتقدير: لا ينظرون قبل دخول النار، بل يمسنهم العذاب عند الموت وفي حياة البرزخ وفي عرصات القيامة، وفي النار يتقلبون في أصناف العذاب المقيم لا ينظرون؛ ليعتذروا ولا يستريحوا ولا يخفف عنهم يوماً من العذاب.

هذه الآية دالة على أن باب التوبة مفتوح للتائبين، ولا يغلق في وجه تائب قبل الغرغرة، فمن رحمته أنه وسّع باب التوبة، وتركه مفتوحاً للعبد؛ حتى يأتيه اليقين (الموت)، فعن ابن عمر: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر"^٢، والغرغرة تكون عند قبض الروح وبلوغها الحلقوم، فيصدر عند ذلك صوت الغرغرة وقال تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^٣، فإذا أتى اليقين انقطع العمل، وأغلق باب التوبة، فمن

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٣/ ٢٥٤ بتصرف يسير.

^٢ رواه الترمذي، ح ٣٥٣٧، وحسنه الألباني.

^٣ سورة الحجر آية (٩٩)

تاب قبل أن يُغرغر، وقبل طلوع الشمس من مغربها، تاب الله عليه، فإذا غرغر العبد، أو طلعت الشمس من مغربها، فلا توبة، فعَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيُثُوبَ مُسِيءِ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيُثُوبَ مُسِيءِ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا"^١، وعن أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا رَأَاهَا النَّاسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهِمَا فَذَاكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ"^٢.

ونجد معاني أخرى مكملّة ومؤسّسة، ومن ذلك التنصيص على ذكر الموت في قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ"، والموت واعظ عظيم، وفي هذا تحذير بليغ وتخويف للمصرّين على الكتمان ولغيرهم، فإذا نزل الموت انقطعت عروة التوبة، وثبتت عقوبة اللعن، ولذا وردت العقوبة في هذه الآية بصيغة الجملة الاسميّة الدالّة على حلول اللعنة وثبوتها ولزومها للملعونين، وأتى باللعنة المضافة إلى المعرفة للدلالة على العموم، وصرّح باللاعنين: الله والملائكة والناس، وأكّد العموم بلفظ أجمعين، وهذا الأسلوب أشدّ تخويفًا وترهيبًا لمن يُصرّ على الكفر والكتمان، وقد دلت الآية الأخيرة على تئيس الكفار من النجاة من النار إن ماتوا وهم كفّار، وأنهم خالدون في اللعنة والعذاب فلا تخفيف ولا إنظار، نعوذ بالله تعالى من حال أهل النار.

^١ رواه مسلم، ح ٤٩٥٤

^٢ رواه البخاريّ ح ٤٦٣٥ ومسلم، ح ٤١٣

الفصل الرابع: منهج التشريع الإسلامي ونواقضه: يتكون هذا الفصل من مقدمة، ومدخل، وأربعة مباحث.

يبدأ المقطع الثاني من الآية (١٦٣) سورة البقرة، ويمتدّ حتى الآية (٢٥٤)، وموضوعه التمكين التشريعي والتنظيمي لبناء دولة العدل والإحسان والعزّة، دولة القانون والقوة والرحمة، وفيه ثلاثة محاور:

المحور الأول: تقرير حقّ التشريع لله الرحمن الرحيم وحده، وبيان نواقض التشريع الربانيّ وموانعه (منهج موجز لتقرير حقّ التشريع وبيان نواقضه). [البقرة ١٦٣ - ١٧٧].

والآية "وَالْهَكُومُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ" (١٦٣) لها صدر المقطع الثاني؛ لجلال معناها ووفائه بأصل الأصول العقديّة والتشريعيّة.

وأما النواقض (الموانع والفتن المانعة) فكلها تالية لهذا الأصل في السياق، وهي سبعة موانع، أربعة منها عامّة يستوي فيها الناس، ثم أردفها بثلاثة موانع خاصة بالذين أوتوا كتاب الله، وإليك تفاصيلها:

الفتنة الأولى: فتنة اتخاذ الأنداد: والأنداد يشعرون ويطبقون القوانين الباطلة، وهذه أخطر فتنة؛ لقوة تأثير الأسباب والمصالح الماديّة والمعنويّة المتبادلة بين أكابر المجرمين الذين يحكمون بأهوائهم، وبين أتباعهم. وفي التنصيص عليها تذكير بقوله تعالى: "فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (٢٢)

الفتنة الثانية: فتنة ضغط الشهوات والغرائز الحاملة على مخالفة شرع الله تعالى مجده، ومن أخطرها شهوة الأكل، وفي التنصيص عليها في الآية تذكير بفتنة آدم وزوجه في الاستجابة لداعي الغواية.

الفتنة الثالثة: فتنة اتباع الشيطان. وفيها تحذير من اتباع خطوات الشيطان وكيده، وتذكير بفتنته المخرجة لآدم وزوجه من الجنة.

الفتنة الرابعة: فتنة تقليد الآباء وترك شريعة الله بسبب تعطيل العقول.

الفتنة الخامسة: فتنة كتمان ما أنزل الله والمتاجرة بالدين "إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤).

الفتنة السادسة: فتنة الاختلاف في الكتاب "وَالَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦)، اختلاف ومشاقّة في العقائد وفي التشريعات الفقهية وفي الطرق الزكوية، والمدارس الحركية، والسياسية، وغيرها؛ حتى صارت الأمة مفرقة وممزقة...

الفتنة السابعة: فتنة الاختلال في ميزان الدين، واختزال الدين في شعبة من شعبه، وهو فرع عن السادس مثاله: حصر البرّ في استقبال المشرق والمغرب ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنَّ تَوَلَّوْا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ (١٧٧) ومن هذه الفتنة تنشأ فتن الغلو والجهلاء، ولو تتبعنا نشوء الفرق والطوائف في بلاد الإسلام لوجدنا أن منشأ الانحراف هو

الغلو والجفاء، ولا استقامة للأمة إلا بإقامة ميزان الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فإذا أقيم الوزن بالحق تهاوى الباطل!

والمحور الثاني: وضع الشرائع الحافظة لكيان الأمة في الآيات [البقرة: ١٧٨ - ٢٤٢].

المحور الثالث: بيان سنن الخروج من حالة الاستضعاف وصناعة النموذج الرشيد، فذكر الله نماذج تبين كيفية الخروج من أزمة الاستضعاف، وقصّ قصّة التمكين لبني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام، فقد كانت لديهم سلطة تشريعية، ولم تكن لديهم سلطة تنفيذية موحدة، فعين الله لهم ملكاً، فلا دولة إلا باجتماع المرجعية الشرعية والسلطة التنفيذية [البقرة: ٢٤٣-٢٥٤].

وسوف أتدبر في هذا الفصل آيات المحور الأول من سورة البقرة وتشمل الآيات [١٦٣-١٧٧].

إن المتدبر لآيات المحور الأول يجدها تبين حقيقة من أعظم الحقائق التي يجب على العالمين الإيمان بها أو بعبارة أخرى: يجدها تقرر أن التشريع حق لله الرحمن الرحيم وحده، وتبين نواقض التشريع الإلهي وموانعه (فهو منهج موجز لتقرير حق التشريع وبيان نواقضه).

وقد بدا لي بعد تدبر طويل أن للآية الكريمة (١٦٣): "وَالْهَكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ" صدرَ المقطع الثاني؛ لوفائها بأصل الأصول العقديّة والتشريعيّة واستقلالها به.

وأما النواقض (الموانع والفتن المانعة) فكلها تالية لهذا الأصل في السياق، وهي سبعة موانع، أربعة منها عامّة يستوي فيها الناس، ثم أردفها بثلاثة موانع خاصة بالذين أوتوا كتاب الله، وإليك تفاصيلها:

المانع الأول: فتنة اتخاذ الأنداد: والأنداد يشرعون ويطبقون القوانين الباطلة، وهذه أخطر فتنة؛ لقوة تأثير الأسباب والمصالح الماديّة والمعنوية المتبادلة بين أكابر المجرمين الذين يحكمون بأهوائهم، ويشرعون الباطل لأتباعهم. وفي التنصيص عليها تذكير بقوله تعالى: "فَلَا تَجْعَلُوا لِلّٰهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ" الآية (٢٢) في مطلع سورة البقرة.

الثاني: فتنة ضغط الشهوات والغرائز الحاملة على مخالفة شرع الله تعالى مجده، وأخطرها شهوة الأكل، وفي التنصيص عليها تذكير بفتنة آدم وزوجه في الاستجابة لداعي الغواية.

الثالث: فتنة اتباع الشيطان. وفيها تحذير من اتباع خطوات الشيطان وكيده، وتذكير بفتنته المخرجة لآدم وزوجه من الجنة.

الرابع: فتنة ترك شريعة الله وتعطيل العقول وتقليد الآباء والأجداد.

الخامس: فتنة كتمان ما أنزل الله والمتاجرة بالدين "إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤).

السادس: فتنة الاختلاف في الكتاب "وَأَنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦)، اختلاف ومشاقّة في العقائد وفي التشريعات الفقهية وفي الطرق التزكوية، والمدارس الحركية، والسياسية، وغيرها؛ حتى صارت الأمة مفرقة وممزقة...

السابع: فتنة اختلال ميزان التدبّر، واختزال الدين في شعبة من شعبه، وهو فرع عن السادس مثاله: حصر البرّ في استقبال المشرق والمغرب ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ (١٧٧) ومن هذه الفتنة تنشأ فتن الغلو والجفاء، ولو تتبعنا نشوء الفرق والطوائف في بلاد الإسلام لوجدنا أن منشأ الانحراف هو الغلو والجفاء، ولا استقامة للأمة إلا بإقامة ميزان الحقّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فإذا أقيم الوزن بالحقّ تهاوى الباطل!

المدخل: منهج الوقاية في خمس عشرة آية:

لقد توالى مقاطع سورة البقرة، واتسقت مقاصدها، من التأسيس ودعوة الناس إلى اتباع الهدى وعبادة ربهم، والنهي عن اتخاذ الأنداد، ثم ذكر الله تعالى أول قصّة في القرآن الكريم، وفيها أول فتنّة: فتنّة الأكل من الشجرة، وبيّن فيها كيد الشيطان، ثم ذكر قصّة يهود، ونقضهم العهد والميثاق، ثم ذكر الله تعالى تنحية الناكثين، وتولية الوارثين، وبيّن زاد السائرين الربانيين وعدّتهم، ثم بيّن المنهج الأمثل لعلاج المصائب الكونيّة والشرعيّة، وها هو يضع بين أيدينا منهجًا موزونًا وإطارًا راسخًا للوقاية من الفتن ونواقض الصلاح والصلاح في خمس عشرة آية؛ ليؤمّن مسيرة الاستخلاف في الأرض وتبليغ الدعوة تامة سالمة حتى قيام الساعة.

فهو بحقّ منهجٌ جزلٌ يوجزُ ما سبق ذكره من المعاني الكليّة لسورة البقرة، كما أنه أصلٌ مكين وإطار أمين لما سيأتي تفصيله من الشرائع، فقد أودع الله تعالى في هذه الآيات أصولًا جامعة؛ لتأمين الشريعة مما يناقضها، فبدأ بأصل الأصول في المنقول والمعقول: وهو بيان توحيد الألوهية، وقد جعل آيات الخلق عليه دليلًا، ثم حذّر من نقض التوحيد، فذكر أخطر صور الشرك: فتنّة (اتخاذ الأنداد)، ثم فتنّة اتباع خطوات الشيطان في آيتين (وفيه إشارة إلى قصّة أكل آدم عليه السلام كنموذج لبيان الضرر في اتباع خطوات الشيطان، وإن لم تكن زلّة آدم عليه السلام شرًا)، وفتنة التقليد واتباع الآباء، وإغلاق العقول، ثم أقبل إقبالًا كريمًا على الأمة المؤمنة فدعاها إلى التنعم بالطيبات، وشكر المكرم المنعم، وأوقفها عند حدوده تحليلًا وتحريمًا؛ لتكون أسوة حسنة في اتباع الرسالة وحسن استقبال النعم بالشكر، ثم حذّرها من الفتن التي تصيب حملة الكتاب: كتمان الكتاب، والمتاجرة بالدين، والاختلاف، والشقاق، واختزال الدين في بعض شعائره، فدفع فتنّة التدنّس المنقوص الغالي والجاني المقتصر على بعض

الشعائر، ثمّ ختمها بخاتمة جامعة فوضع ميزان الوسطيّة والبرّ والصدق والتقوى بصيغة مجملّة؛
فقدّم لنا منهجًا موجزًا موزونًا لوقاية الدّعوة والأُمَّة الوارثة من الفتن التي أضلّت الأمم النّاكثة.

هذا ما ظهر لي من سياق السورة، وقد قرأت ما تيسّر ممّا كتبه العلماء في الآيات،
وقد سررت كثيرًا حين وجدت العلامة محمد دراز قد عدّ هذه الآيات ذات وحدة موضوعيّة،
فقد جعلها العلامة دراز مقدّمة للمقصد الثالث حسب تقسيمه لمقاصد سورة البقرة، وهو
مقصد عرض شرائع هذا الدّين تفصيلًا^١. وقد تحدّث العلامة دراز عن هذه الآيات قائلاً:
"نيفٌ وعشرٌ من الآيات الكريمة، هي بمثابة الدهليز بين الباب والدار يقطعها السائر في
خطوات ثلاث: "الخطوة الأولى" تقرير وحدة الخالق المعبود. "الخطوة الثانية" تقرير وحدة الأمر
المطاع. "الخطوة الثالثة" فهرس إجمالي للأوامر والطاعات المطلوبة"^٢. ويشبه هذا المسلك ما
ذهب إليه صاحب الظلال رحمه الله تعالى، فقد جمع الآيات (١٥٨ - ١٧٧) في درس
واحد، فقال رحمه الله تعالى: "يستهدف هذا الدرس تصحيح عدد من القواعد التي يقوم عليها
التصور الإيماني الصحيح مع الاستمرار في مواجهة يهود المدينة الذين لا يكفون عن تلبيس

^١ قال رحمه الله تعالى: "اعلم أن هذه السورة (سورة البقرة) على طولها تتألف من: مقدمة، وأربعة مقاصد، وخاتمة. على هذا
الترتيب: المقدمة (في عشرين آية ١ - ٢٠) في التعريف بشأن هذا القرآن، وبيان أن ما فيه من الهداية قد بلغ حدًّا من
الوضوح لا يتردد فيه ذو قلب سليم. وإنما يعرض عنه من لا قلب له، أو من كان في قلبه مرض. المقصد الأول (في خمس
آيات ٢١ - ٢٥): في دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام. وعود على بدء: في أربع عشرة آية "٢٦ - ٣٩". المقصد الثاني
(في ثلاثة وعشرين ومائة آية ٤٠ - ١٦٢) في دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة إلى ترك باطلهم والدخول في هذا الدين الحق.
المقصد الثالث: المدخل إلى المقصد الثالث: (في خمس عشرة آية ١٦٣ - ١٧٧)، وأما المقصد نفسه، فحصره (في ست ومائة
آية ١٧٨ - ٢٨٣) في عرض شرائع هذا الدين تفصيلًا. المقصد الرابع: (في آية واحدة ٢٨٤) ذكر الوازع والنازع الديني الذي
يبحث على ملازمة تلك الشرائع وينهى عن مخالفتها. بعد الإيمان.. والإسلام.. بأيّ الإحسان. الخاتمة (في آيتين ٢٨٥ -
٢٨٦) في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد وبيان ما يرجى لهم في آجلهم وعاجلهم" دراز، محمد
بن عبد الله، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، دار القلم للنشر والتوزيع - بيروت، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، ص
١٩٦ - ١٩٧، بتصرف يسير

^٢ دراز، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ٢٤٢، بتصرف يسير

الحق بالباطل في هذه القواعد وكتمان الحق الذي يعلمونه في شأنها وإيقاع البلبلة والاضطراب فيها.. ولكن السياق يتخذ في هذا الدرس أسلوب التعميم وعرض القواعد العامة، التي تشمل اليهود وغيرهم ممن يترصدون للدعوة. وكذلك يحذر المسلمين من المزالق التي تترصدهم في طريقهم بصفة عامة. وهكذا نجد السياق ما يزال في المعركة.. المعركة في داخل النفوس لتصحيح التصورات والموازن. والمعركة مع الكيد والدس والبلبلية التي يقوم بها أعداء المسلمين"^١.

بيان حقيقة التوحيد وبراهينه، والتحذير من فتنة الذين اتخذوا من دون الله أندادًا، وهي أخبت الفتن التي تنقض التوحيد.

بيان كلمة التوحيد وترسيخها:

لقد أمر ربنا عز وجل في صدر السورة الناس بعبادته وحده، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^٢، ونهاهم عن جعل الأنداد لله رب العالمين، فقال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^٣، وفي هذا الموضع من السورة يذكر الله تعالى هذين الأمرين بالأسلوب الخبري؛ ليثبت قواعد عقيدة التوحيد في القلوب، ويدراً ما ينافيها من الأسباب المفضية إلى اتخاذ الأنداد؛ لأن هذا الأمر هو أصل الأصول وأعظم مقاصد الدين، فإن "أول الدين وآخره وظاهره وباطنه هو التوحيد، وإخلاص

^١ قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط: ٣، ٢٠٠١، ج ١/ ١٤٨ بتصرف.

^٢ سورة البقرة آية (٢١)

^٣ سورة البقرة آية (٢٢)

الدين كله لله هو تحقيق قول لا إله إلا الله. فإن المسلمين وإن اشتركوا في الإقرار بها، فهم متفاضلون في تحقيقها تفاضلاً لا نقدر أن نضبطه؛ حتى إن كثيراً منهم يظنون أن التوحيد المفروض: هو الإقرار والتصديق بأن الله خالق كل شيء وربّه، ولا يميزون بين الإقرار بتوحيد الربوبية، الذي أقرّ به مشركو العرب، وبين توحيد الإلهية، الذي دعاهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يجمعون بين التوحيد القولي والعملي. فإن المشركين ما كانوا يقولون: إن العالم خلقه اثنان، ولا أن مع الله ربّاً ينفرد دونه بخلق شيء، بل كانوا كما قال الله عنهم: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^١، وكانوا مع إقرارهم بأن الله هو الخالق وحده يجعلون معه آلهة أخرى، يجعلونهم شفعاء لهم إليه، ويقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، ويحبونهم كحب الله^٢.

قال الله تعالى: ﴿وَالْهَكُّمَ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^٣، "وَالْهَكُّمَ إِلَهٌ وَاحِدٌ": "وَالْهَكُّمَ" إضافة لفظ "إله" إلى ضمير المخاطبين للتشريف والتعريف، وضمير المخاطبين يعمّ الإنس والجنّ، وفي ذلك تقريب وترغيب واستئناس للقلوب النافرة، لقد حشدت الناس جميعاً في صعيد واحد! المؤمن والكافر، والأبيض والأسود، والغني والفقير، والقوي والضعيف! كلّهم مجموعون في أوثق عروة! عروة التوحيد! فتأمل أيها المؤمن هذه الإضافة الشريفة العامة بالتكريم والتلطف إنها تسوّي بين العباد، وتطرح استعلاء الظالمين واستكبار المجرمين أرضاً.

^١ سورة لقمان آية (٢٥)

^٢ مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: أنور الباز - عامر الجزار، دار الوفاء، القاهرة، ط ٣، ٢٠٠٥م، ج ٢٤/٢٦٤ -

٢٦٥

^٣ سورة البقرة آية (١٦٣)

"وَالْهَيْكُلُ" أيها الناس "إِلَهُ وَاحِدٌ"، فحقيق بكم أن تستمسكوا بأوثق عروة؛ لتعلموا أقداركم، وتضعوا كل أشباح الآلهة والأصنام المنصوبة للإضلال والإذلال تحت أقدامكم، ولتؤدّوا حقوق هذه الأخوة، فتلتقوا على كلمة سواء بآلا يتخذ بعضكم بعضاً أرباباً من دون الله تعالى!

"إِلَهُ وَاحِدٌ": قال العلامة ابن عاشور: "والإخبار عن إلهكم بإله تكرير؛ ليجري عليه الوصف بواحد، والمقصود وإلهكم واحد، لكنه وَسَّطَ لفظَ "إِلَهُ" بين المبتدأ والخبر؛ لتقرير معنى الألوهية في المخبر عنه"^١، وجملة "لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ": خبر ثان؛ لتوكيد التوحيد، "إله" نكرة في سياق "لا" النافية للجنس، فهي نصٌّ في العموم، "إلا" حاصرة، والضمير: "هو" بدلٌ من الضمير المستكنّ في الخبر المقدّر، ثمّ أخبر عن نفسه باسمين من أعظم أسمائه الحسنی أثرًا في صلاح العباد: الرَّحْمَنُ، الرَّحِيمُ. ثمّ أخذت تبسط أمامهم صراطاً مستقيماً تغمره الرحمة من كل جوانبه؛ لتعبر عليه القلوب المبصرة المؤمنة متألفة مطمئنة، فتأوي إلى جنات ونهر ومقعد صدقٍ عند مليك مقتدر، وأما القلوب العمياء فتتخبط في الظلمات، وتهوي بها الأهواء في مكان سحيق!

قال العلامة ابن القيم: "فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها، واتصف قلبه بها، وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها، فعرف حقيقة الإلهية التي يثبتها قلبه لله، ويشهد بها لسانه، وتُصَدِّقُها جوارحه، ونفى تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى الله، وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائفة سالكة سبل ربه ذللاً غير ناكبة عنها، ولا باغية سواها بدلاً كما لا يبتغي

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/٧٤-٧٥ بتصرف يسير.

القلب سوى معبوده الحقّ بدلاً، فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الله كل وقت، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الربّ تعالى، وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلاماً كثيراً طيباً يقارنه عمل صالح، فيرفع العمل الصالح إلى الكلم الطيب"^١.

بيان الآيات والدلائل على التوحيد:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^٢. "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" استفتح ربنا هذه الآية بحرف التوكيد؛ لدفع الشك والارتياب، "خلق": نكرة مضافة تعمّ خلق كلّ ما ذكر في الآية، و"أل" في "السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ": أل للعهد، "واختلاف الليل والنَّهار": "اختلاف": نكرة مضافة تعمّ، و"أل" في "الليْلِ والنَّهارِ": للاستغراق والعموم. والاختلاف مصدر مضاف لفاعله، المراد باختلافهما أنّ كل واحد يُخلّف الآخر، ولاختلافهما في الصفات فذاك مظلّم والآخر منير، ويختلفان في الطول والقصر وغير ذلك"^٣.

"وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ": "أل" في "الْفُلْكِ": للاستغراق والعموم، ووصفها بما وصفت به: "الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ" للامتنان والمدح،

^١ انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر المشهور بابن القيم، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، بيروت: دار الجيل،

١٩٧٣م، ج ١/١٧٢-١٧٣

^٢ سورة البقرة آية (١٦٤)

^٣ انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/ ٧٩

وليست مخصّصة، تجرّي: فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "في البَحْرِ"، والبحر للعموم، وبالجارّ والمجرور: "بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ"، "ما": موصولة تعمّ، والفعل "يَنْفَعُ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: النَّاسَ، والناس يعمّ.

"وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ": "وَمَا" أي: وفيما أنزل، والاسم الموصول يعمّ، والفعل "أَنْزَلَ" في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور في الموضعين: الموضع الأول: "مِنَ السَّمَاءِ"، من: لابتداء الغاية، والسماء للعموم، "مِنَ مَّاءٍ": من للتبعيض وماء نكرة في سياق الامتنان تعمّ، "فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا": الفعل "أَحْيَا" في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: بِهِ، وبالمفعول به: الْأَرْضَ: أل للعموم، وبالظرف: "بَعْدَ مَوْتِهَا"، "وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ": الفعل "وَبَثَّ" في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور في الموضعين: الموضع الأول: "فِيهَا"، الموضع الثاني: "مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ"، كلّ من صيغ العموم، ودابّة: نكرة في سياق الإثبات قال ابن عاشور: "التَّنْكِيرُ فِي دَابَّةٍ لِلتَّنَوُّعِ"^١.

"وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ": "وَتَصْرِيفِ": نكرة مضافة تعمّ، و"أل" في "الرِّيحِ": للاستغراق والعموم. "وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ": "أل" في "وَالسَّحَابِ": للاستغراق والعموم، ووصفه بلفظ: "الْمُسَخَّرِ..." للامتنان، وقد قيّد اسم الفاعل: "المسخر" بظرف المكان: "بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ" و"بين" نكرة مضافة تعمّ، "السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ" للعهد.

"لَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ": آيَاتٍ نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالجارّ والمجرور: لِقَوْمٍ، وقوم نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالجملة الفعلية: "يَعْقِلُونَ"، والفعل في سياق الإثبات مطلق؛ لأنه منزل منزلة اللازم، ويجوز تقييده بمفعول به دلّ عليه السياق: الآيات البينات

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/ ٨٤

والدلائل القاطعة، قال الإمام الطبري: "ثم عرّفهم تعالى ذكره بالآية التي تتلوها، موضع استدلال ذوي الألباب منهم على حقيقة ما نبّههم عليه من توحيده وحُججه الواضحة القاطعة عُذْرهم، فليتدبر أولو الألباب إيجازَ الله احتجاجه على جميع أهل الكفر به والملحدين في توحيده، بأوجز كلام، وأبلغ حجة وألطف معنى يشرف بهم على معرفة فضل حكمة الله وبيانه"^١.

قال العلامة رضا: "إن هذا الكون هو كتاب الإبداع الإلهي المفصّح عن وجود الله، وكماله، وجلاله، وجماله، فكلمات الله في التكوين باعتبار آثارها ومصادقها هي آحاد المخلوقات والمبدعات الإلهية، فإنها تنطق بلسان أفصح من لسان المقال، لكن لا يفهمه الذين هم عن السمع معزولون، وللعلم معادون، الواهمون أن معرفة الله تقتبس من الجدليات النظرية والأقيسة المنطقية دون الدلائل الوجودية الحقيقية، ولو كان زعمهم حقيقة لا وهماً لكان الله سبحانه استدللّ في كتابه بالأدلة النظرية الفكرية، وذكر الدور والتسلسل وغير ذلك من الاصطلاحات الكلاميّة، ولم يستدلّ بالسماء والأرض والليل والنهار والفلك والمطر وتأثيره في الحياة، وغير ذلك من المخلوقات التي أرشدنا القرآن إلى النظر فيها، واستخراج الدلائل والعبر منها، وبقدر ارتقاء العقل في العلم والعرفان يكمل التوحيد في الإيمان، وإنما يشرك بالله أقلّ الناس عقلاً وأكثرهم جهلاً"^٢.

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٢٦٧/٣ بتصرّف.

^٢ انظر: رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، مرجع سابق، ج ٥١/٢ - ٥٢ بتصرّف.

التحذير من فتنة اتخاذ الأنداد، ومعالجتها بالموعظة البليغة.

لقد بين الله تعالى فيما سبق حقيقة التوحيد أحسن بيان، وأقام عليه الآيات البينات وجعل تلك الآيات هادية للذين يعقلون. ثم انتقل الخطاب بفضل الله تعالى ورحمته إلى الموعظة البليغة؛ ليعالج بها القلوب المريضة التي لا تعقل الآيات، ويزجر بها من توسوس له نفسه باتباع القادة والسادة والكبراء فيما يسخط الله تعالى، وينقذ الذين انحطت نفوسهم، وفسدت فطرتهم، فاتخذوا من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله!

والمواعظ القرآنية مفصلة على أحوال الناس، تحقق مقاصدها بالتي هي أقوم، فلا أحسن منها ولا أنفع؛ لأن الله تعالى أعلم بنفوس العباد من أنفسهم. وقد ظنّ بعض الدعاة أن الوعظ أمر سهل يرتجل ارتجالاً، وقد اكتفوا ببعض المؤشرات؛ لقياس مناسبة الموعظة وأثرها في الناس كذرف الدمع، وارتفاع الأصوات بالنحيب، وكثرة المعجبين، وثناء الحضور على الواعظ، وقد وجدنا الذين يعظون التجار وأصحاب السلطان يميلون إلى ما يرضي المستمعين لا ما يدفع عنهم شرور شهواتهم وأهوائهم، ويمنع شرهم وفسادهم.

فإذا قلت لهم: مواعظكم بعيدة عن الواقع، قالوا: "فقلوا له قولاً لئنا!" وهو دليل عليهم؛ لأن لين القول لا يتعارض مع توجيه الخطاب إلى محلّ الداء، وقد أمر الله تعالى رسولنا محمداً عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾^١.

^١ سورة النساء آية (٦٣)

إن منهج الوعظ في القرآن الكريم منهج محكم مفصل تفصيلاً. فانظر كيف عالج هذه الفتنة العظيمة! والرسول عليه الصلاة والسلام أسوتنا في تطبيق منهج القرآن الكريم في الوعظ، وسنته في هذا ظاهرة بيّنة.

وثمة طائفة أخرى تستخفّ بخطاب الوعظ، وتهوّن من شأنه، وتستنكف منه، وتلمز أهله! وفي هذه الآيات ردّ قاطع لكيد هؤلاء وأمثالهم. وإنها لموعظة بالغة منتهاهما لمن كان له قلب.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾^١.

"وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ": مَنْ: للتبعية "النَّاسِ" أل: للاستغراق والعموم، "مَنْ" اسم موصول عام، "يَتَّخِذُ": فعل في سياق الإثبات مقيد بالجارّ والمجرور: مِنْ دُونِ اللَّهِ، وبالمفعول به: "أَنْدَادًا"، وأنّادًا: نكرة في سياق الإثبات مقيدة بالجملة الواقعة صفة له: "يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ"، "يُحِبُّوهُمْ": فعل في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجارّ والمجرور: "كَحُبِّ اللَّهِ".

"وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ": "وَالَّذِينَ" اسم موصول يشمل كلّ المؤمنين، "آمَنُوا": فعل في سياق الإثبات مطلق؛ لأنه منزل منزلة اللازم، واسم التفضيل "أَشَدُّ" مقيد بالتمييز: حُبًّا لِلَّهِ، وبالمفضلّ عليه المقدّر: من حبّ المشركين للأنداد.

^١ سورة البقرة آية (١٦٥)

"وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ"

الواو استئنافية ولو شرطية غير جازمة، وفعل الشرط "يَرَى" وجواب الشرط مقدر: لاستعظموا ما حلَّ بهم، "يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا": الفعل "يَرَى" في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بالظرف: "إِذْ يَرْوْنَ"، وبما سدّ مسد مفعولي يرى: "أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ"، "الَّذِينَ": الاسم الموصول هو الفاعل، وهو عامّ مراد به خصوص المشركين، "ظَلَمُوا": فعل في سياق الإثبات مقيّد بما دلّ عليه السياق، والتقدير: ظلموا أنفسهم باتخاذ أُنْدَاد من دون الله، "إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ" إذ ظرفية، يَرْوْنَ: فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول الأول: "الْعَذَابَ" والثاني مقدر: نازلًا بهم، والعذاب عامّ، "الْقُوَّةَ" "أل" للاستغراق، والمعنى: كلّ القوة لله تعالى، وأكّد العموم بلفظ "جميعًا"، قال ابن عاشور: "أي جميع جنس القوة ثابت لله، وهو مبالغة لعدم الاعتداد بقوة غيره، فمفاد جميع هنا مفاد لام الاستغراق"^١.

"إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا": "إِذْ" ظرفُ زمانٍ ماضٍ وقد دَخَلَتْ في أثناء هذه المستقبلات تقريباً للأمر، وتصحيحاً لوقوعه^٢، تَبَرَّأَ: فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا"، "الَّذِينَ اتَّبَعُوا" الموصول عامّ، والفعل "اتَّبَعُوا" فعل في سياق الإثبات منزّل منزلة اللازم، "مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا": "الذين" الموصول يعمّ، والفعل "اتَّبَعُوا": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به الضمير المقدّر: اتبعوهم.

"وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ" رَأَوْا: فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "العذاب"، وأل للعموم، وهو المعدّ لأهل النار، وَتَقَطَّعَتْ: فعل في سياق الإثبات مقيّد

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/٩٥

^٢ انظر: السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢/٢١٥

بالجارّ والمجرور: بهم، و"الأسباب" "أل" للاستغراق، فكل وسائل التناصر، وأواصر التواصل بين المجرمين في ذلك اليوم معدومة.

"وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا": الفعل "قَالَ": في سياق الإثبات مقيد بمقول القول: "لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا"، "الذين" الموصول يعمّ، والفعل "اتَّبَعُوا": في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: الضمير المقدّر: اتبعوهم. "لو" للتمني، "كرة" نكرة في سياق الإثبات مطلقة، "فَنَتَبَرَّأُ": الفاء واقعة في جواب التمني، والفعل في سياق الإثبات مقيد بالجارّ والمجرور: مِنْهُمْ، "كَمَا" ما مصدرية، والمصدر المنسبك منها ومن الفعل يعمّ، وهو مخصّص بالجارّ والمجرور: "مِنَّا".

"كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ": الفعل "يُرِيهِمُ" في سياق الإثبات مقيد بالمفعولات الثلاثة: الأول: الضمير المتصل، والثاني: "أَعْمَالَهُمْ" نكرة مضافة تعمّ، والثالث: حسرات، وحسرات نكرة في سياق الإثبات مقيدة بالجارّ والمجرور: "عَلَيْهِمْ"، "وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ" في سياق النفي مخصّص بالجارّ والمجرور: "مِنَ النَّارِ" "أل" للعهد، أي النار الحامية المعروفة المعهودة لكم.

في هذه الآية المباركة صنّف الله تعالى الناس إلى فئتين:

الفئة الأولى: الذين آمنوا، وهم الذين عرفوا آيات الله تعالى وعقلوها، فقدروا الله تعالى حقّ قدره، فأحبّوه، وأطاعوه، فشهد لهم بشهادة تطير لها قلوب المؤمنين فرحاً، وأورد الله تعالى تلك الشهادة بصيغة الجملة الاسميّة الدالّة على الثبات والاستقرار والدوام، قال الله تعالى: "وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ"، وهذا ثناء عظيم يعمّ كلّ المؤمنين، وهي صبغة شريفة لا تبديل

لها، ومقياس عدل، ومؤشّر صدق ينبغي أن يُرعى حقّ الرعاية في الدعوة والتربية. ومحبة الله تعالى روح العبوديّة، "فلو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولتعطلت منازل السير إلى الله، فإنها روح كلّ مقامٍ ومنزلةٍ وعملٍ، فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه، ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها، بل هي حقيقة الإخلاص، بل هي نفس الإسلام، فمن لا محبة له، لا إسلام له البتة"^١. وإن "القلب لا يصلح، ولا يفلح، ولا ينعم، ولا يُسرُّ، ولا يلتدّ، ولا يطيب، ولا يسكن، ولا يطمئنّ إلّا بِعِبَادَةِ رَبِّهِ، وَحُبِّهِ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَلَوْ حَصَلَ لَهُ كُلُّ مَا يَلْتَدُّ بِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ لَمْ يَظْمَأَنَّ وَلَمْ يَسْكُنْ؛ إِذْ فِيهِ فَقْرٌ ذَاتِي إِلَى رَبِّهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ مَعْبُودُهُ، وَمُحْبُوبُهُ، وَمَطْلُوبُهُ، وَبِذَلِكَ يَحْصُلُ لَهُ الْفَرَحُ وَالسُّرُورُ وَاللَّذَّةُ وَالنَّعْمَةُ وَالسَّكُونُ وَالطَّمَأْنِينَةُ.

وَهَذَا لَا يَحْصُلُ لَهُ إِلَّا بِإِعَانَةِ اللَّهِ لَهُ فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى تَحْصِيلِ ذَلِكَ لَهُ إِلَّا اللَّهُ فَهُوَ دَائِمًا مَفْتَقِرٌ إِلَى حَقِيقَةِ "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" فَإِنَّهُ لَوْ أَعِينَ عَلَى حُصُولِهِ كُلِّ مَا يُجِبُّهُ وَيَطْلُبُهُ وَيَشْتَهِيهِ وَيُرِيدُهُ، وَلَمْ يَحْصِلْ لَهُ عِبَادَةُ اللَّهِ، فَلَنْ يَحْصِلَ إِلَّا عَلَى الْأَلَمِ وَالْحُسْرَةِ وَالْعَذَابِ، وَلَنْ يَخْلُصَ مِنَ آلَامِ الدُّنْيَا وَنَكْدِ عَيْشِهَا إِلَّا بِإِخْلَاصِ الْحُبِّ لِلَّهِ، بِحَيْثُ يَكُونُ اللَّهُ هُوَ غَايَةَ مُرَادِهِ وَنَهَايَةَ مَقْصُودِهِ، وَهُوَ الْمَحْبُوبُ لَهُ بِالْقَصْدِ الْأَوَّلِ، وَكُلِّ مَا سِوَاهُ إِنَّمَا يُجِبُّهُ لِأَجَلِهِ لَا يَحِبُّ شَيْئًا لِدَاتِهِ إِلَّا اللَّهَ، وَمَتَى لَمْ يَحْصِلْ لَهُ هَذَا لَمْ يَكُنْ قَدْ حَقَّقَ حَقِيقَةَ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) وَلَا حَقَّقَ التَّوْحِيدَ، وَالْعُبُودِيَّةَ، وَالْمَحَبَّةَ لِلَّهِ، وَكَانَ فِيهِ مِنْ نَقْصِ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بَلْ مِنَ الْأَلَمِ وَالْحُسْرَةِ وَالْعَذَابِ بِحَسَبِ ذَلِكَ"^٢.

^١ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ٢، ١٩٧٣ ج ٣ / ٢٧

^٢ ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، تحقيق: أنور الباز - عامر الجزار، دار الوفاء، القاهرة، ط ٣، ٢٠٠٥ م، ج ١٠ / ١٩٣ -

الفئة الثانية: الذين لم يعقلوا الآيات، ولم يقدرُوا الله حقَّ قدره، فانحطت همهم إلى أسفل سافلين، فاحتقروا أنفسهم، واستعبدوها لعبادٍ أمثالهم من أهل الظلم والبغي والفساد، بل عبد كثيرٌ منهم أشياء لا تسمع ولا تعقل، فاتخذوهم من دون الله أندادًا يحبونهم كحبِّ الله! وتالله إنه لخزيٌّ ودناءةٌ وانحطاط لا يقبل به عاقل ذو نفس زكيةً أبيّة، وقد ساق خبرهم بصيغة تدلّ على الازدراء والتسفيه والتحقير، قال الله تعالى: "وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ" فلفظ "مَنْ": اسم موصول أو نكرة موصوفة فيه إيهام للذم والتحقير، والفعل المضارع (يتخذ، ويحبونهم) يدلّ على أن اتخاذهم وحبّهم ليس مستقرًّا ولا ثابتًا، بل يتجدّد ويتغيّر كلّما تجددت أسبابه، فقلوبهم في تقلّب واضطراب. وفي هذه العبارة استهزاء وذم لا يقدر قدره إلا من علم مقدار الخطيئة التي اقترفها هؤلاء المجرمون! والأنداد جمع ندّ، والندّ هو المثلّ، والنظير^١. ولا يضلّ هذا الضلال المبين إلا من سفّه نفسه، فإن العقل، والفطرة، وكلّ شيء في الكون يشهد بالوحدانيّة لله تعالى وباستحالة أن يكون لله تعالى ندّ، وكيف يكون لله ندّ، والله تعالى خالق كلّ شيء! ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^٢، ولذا كان الشرك أعظم الذنوب؛ لأن صاحبه سوى بين العبد والرّب، وبين القويّ العليّ الذي يخلق وبين المخلوق الضعيف الذي لا يخلق! فعن عبد الله بن مسعود، قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ

^١ انظر: الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٣/ ٣٦٨، وابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد

سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م، ج ١/ ٤٧٦

^٢ سورة النحل آية (١٧)

الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: "أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ"^١. وأول نهي صريح في المصحف وأعظم النواهي هو النهي عن جعل الأنداد لله عز وجل، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^٢.

فما الذي يدعو الناس إلى اتخاذ الأنداد اختيارًا يحبونهم كحب الله؟ إنها الأهواء والشهوات التي تسيطر على النفوس، وتستحوذ على العقول، وتُعمي وتُصم؛ حتى يُذل الإنسان نفسه، فيضعها تحت أقدام عبدٍ مثله.

ولقد صرّحت الآية بالآصرة الجامعة بين هؤلاء المشركين وبين الأنداد ألا وهي آصرة المحبة محبة سمع وطاعة، فظهر أن مدار فتنة الأنداد على صرف المحبة إلى من لا يستحقها؛ لاعتقاد التابع المشرك أن الأنداد تنفع وتضر. وأصنافهم كثيرة، ودرجات الاتباع متفاوتة. وإن المرء ليعجب أن يرى من يقرأ هذه المواعظ البليغة ثم يصرّ على سلوك سبيل الذلّة والخزي والتدامة!

وسأذكر ممّن اتَّخَذُوا أَنْدَادًا من دون الله تعالى ثلاثة أصناف:

الأول: أهل السلطان والقوّة من السادة والكبراء.

الثاني: الذين يشرعون ما لم يأذن به الله من أهل السياسة والثقافة والإعلام وعلماء السوء والأخبار والرهبان.

الثالث: الآباء والأجداد.

^١ رواه البخاري، رقم (٧٥٢٠)، ومسلم، رقم (٢٦٧).

^٢ سورة البقرة آية (٢٢-٢١).

ولقد عَرَضَ القرآنُ الكريمُ هذه الفتنة العظيمة، وبيّن أسبابها، وعالجها بأسلوبه البديع الرفيع، فإن هؤلاء القوم لما آثروا الذلّة والهوان، وأعرضوا عمّا يرونها من الآيات البيّنات التي تخاطب العقل بالحجة والبرهان، نحا بهم منحى الوعظ البليغ، فأطلعهم على سوء منقلبهم، وساقهم الله تعالى إلى مشارف دار الخزي والندامة؛ ليذيقهم من مشاهد الحسرة والعذاب الأليم؛ لعلّ ذلك يزعج قلوبهم عن غفلتها وهوانها؛ لتُفَيّق من سكرتها. وهالك المشاهد الثلاثة.

المشهد الأول: رؤية الفريقين العذاب:

"وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ"
أي وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ طَرَفَا الشَّرْكَ:

الفريق الأول: الأنداد المستكبرون من السادة وأكابر المجرمين.

الفريق الثاني: السفهاء الصاغرون الأذلة الذين اتخذوا من دون الله أندادًا، فكلاهم ظالم لنفسه، ولو يرون عذاب الله الذي أعدّه لهم في جهنّم، لعلموا حين يرون ذلك العذاب أن القوة لله جميعًا، وأن الله شديد العذاب^١. ولهذا المشهد مقاصد:

الأول: التخويف الشديد من عقاب الله القويّ العزيز.

الثاني: بيان عجز الأنداد وتجريدهم من كلّ أسباب القوّة والاستكبار.

الثالث: تحذير الأتباع المغفلين من العقابة البئيسة قبل فوات الأوان!

^١ انظر: الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٣ / ٢٨٣

المشهد الثاني: مشهد تبرؤ السادة والكبراء من التابعين:

"إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ"، التبرؤ: التخلص والمفاصلة والمفارقة، لقد تبرؤوا منهم في حال هم أشد ما يكونون فيها إلى الولي والنصير، فيا حسرة من قضى نخبه في طاعة السادة والكبراء والقادة والرؤساء الذين اتخذوهم أنداداً من دون الله تعالى، فلم يُغنوا عنهم شيئاً! وقد حصل التبرؤ حال رؤية العذاب وتقطع الأسباب؛ "لأنها حالة يزداد فيها الخوف والتنصّل ممن كان سبباً في العذاب"^١. "والأسباب" جمع "سبب"، وهو كل ما تسبّب به الرجل إلى طلبه وحاجته. فيقال للحبل "سبب"؛ لأنه يُسبب بالتعلّق به إلى الحاجة التي لا يوصل إليها إلا بالتعلّق به. ويقال للطريق: "سبب"، للتسبب بركوبه إلى ما لا يدرك إلا بقطعه. وللوسيلة "سبب"، للوصول بها إلى الحاجة، وكذلك كل ما كان به إدراك الطلبة، فهو "سبب" لإدراكها"^٢.

المشهد الثالث: تمّي التابعين الرجوع إلى الدنيا للتبرؤ من الأنداد:

"وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا فَنَتَّبِعَهُمْ مِثْلَ تَبَرُّؤِهَا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ"، لما حاق العذاب بالفريقين: التابعين والمتبّعين، وتبرأ المتبّعون من التابعين، ثارت نفوس التابعين للانتقام من السادة والكبراء الذين أضلوهم، فتمنّوا أن يرجعهم الله تعالى إلى الدنيا؛ ليتبرؤوا من أولئك الأنداد الخبثاء! ولكن هيهات هيهات لما يتمنّون! فليس ثمّ إلا الحسرات في نار مؤصدة ما هم منها بمخرجين! لقد بلغت هذه المشاهد بالقلوب الحناجر، فكيف بأهل الجحيم!

^١ أبو حيان، محمد بن يوسف، البحر المحيط، ت: صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ ج ٢/٩١

^٢ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٣/٢٨٣

دعوة الناس إلى الأكل من الحلال الطيب، ونهيهم عن اتباع خطوات الشيطان، وعن سلوك مسالكه، وفي اقتران الأمر بالأكل من الحلال الطيب بالنهي عن اتباع الشيطان تذكير بالفتنة الأولى التي دَلَّى فيها الشيطانُ آدمَ وزوجه بغيرور، ثم ذكر لنا الله تعالى فتنة التقلید واتباع الآباء وتعطيل العقول، وهي نموذج للفتن الناجمة عن اتباع أمر الشيطان بالقول على الله بلا علم.

في هذا الموضع من سورة البقرة يرشد الله تعالى الناس جميعاً إلى ما فيه صلاحهم، ودرء الفساد والفتن عنهم، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^١.

والعداوة بين البشر والشيطان ضاربة الجذور في أعماق الزمان، فقد بدأ إبليس حربه على آدم عليه السلام منذ ظهرت معالم التكريم والتقديم الرباني لهذا الخليفة الكريم، وكان الأكل من الشجرة أول معصية اقترفها الإنسان بسبب وسوسة الشيطان، قال الله تعالى: ﴿فَوَسَّوسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِيَّيْ لَكُمَْا لِمَنِ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَهْكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَْا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^٢.

^١ سورة البقرة آية (١٦٩-١٦٨)

^٢ سورة الأعراف الآيات (٢٢-٢٠)

هكذا صنع إبليسُ الفتنة الأولى، فأوقع الإنسانَ في شركه باستدراجه إلى معصية الله تعالى واتباع خطواته.

ولما كانت الآيات في هذا السياق من سورة البقرة لتقرير منهج الوقاية من الفتن، فقد بيّنت مسالك الشيطان وخطواته في الغواية والفتنة والإضلال بأسلوب جامع، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^١. فما أحسن ورود هاتين الآيتين في هذا الموطن!

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا": "الناس" "أل" للاستغراق، "كلوا" الأمر للامتنان والإباحة، والفعل "كُلُوا" في سياق الإثبات مقيّد بالجواز والمجرور: "من" للتبعية، "ما" موصول يعمّ كلّ ما خلقه الله تعالى في الأرض من المطاعم، الأرض: كلّ الأرض، وبالمفعول به: "حَلَالًا طَيِّبًا": ويجوز إعرابهما حالاً من "ما" الموصولة، قال العلامة ابن كثير: "لما بين تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه المستقلّ بالخلق، شرع يبين أنه الرزاق لجميع خلقه، فذكر ذلك في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالاً من الله طيباً، أي: مستطاباً في نفسه غير ضار للأبدان ولا للعقول"^٢.

"وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ": النهي للتحريم، والفعل "تَتَّبِعُوا" في سياق النهي يعمّ، وقد خصص بالمفعول به: "خُطُواتِ الشَّيْطَانِ"، وخطوات نكرة مضافة تعمّ، "والسلام في (الشَّيْطَانِ) لاستغراق الجنس، ويجوز أن تكون للعهد، ويكون المراد إبليس، وهو أصل

^١ سورة البقرة آية (١٦٩-١٦٨)

^٢ انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ١/ ٤٧٨

الشياطين وآمرهم، فكلّ ما ينشأ من وسوسة الشياطين فهو راجع إليه؛ لأنه الذي خطا الخطوات الأولى"^١.

"والشيطان في لغة العرب مشتقٌّ من شَطَنَ إذا بَعُدَ، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقه عن كل خير"^٢، "والمعنى في النهي عن اتباع خطواته، النهي عن طريقه وأثره فيما دعا إليه، مما هو خلاف طاعة الله تعالى ذكره"^٣، "إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ" "إن" وما بعدها للتعليل، وتقديم الجارّ والمجرور: "لَكُمْ" للحصر، ومفهومه: عدو لكم لا لغيركم، وقد وصف الشيطان بالعدوّ المبين: الظاهر العداوة، لأن الفعل "أبان" فعل لازم ومتعديّ، "ومعنى المبين الظاهر العداوة من أبان الذي هو بمعنى بان، وليس من أبان الذي همزته للتعدية بمعنى أظهر؛ لأن الشيطان لا يظهر لنا العداوة بل يلبس لنا وسوسته في لباس النصيحة أو جلب الملائم"^٤.

وقد أكّد الخبر عن عداوته بحرف التوكيد، وبوروده بصيغة الجملة الاسميّة الدالّة على اللزوم والثبوت، وقدّم شبه الجملة "لَكُمْ" المتعلق بـ "عدوّ" لما في لفظ "عدوّ" من معنى الفعل، وعلى هذا فإنها تفيد حصر عداوة الشيطان لبني آدم، ويجوز أن تكون متعلّقةً بمحذوف على أنها حال من "عدوّ"؛ لأنها لو تأخّرت لجاز أن تكون وصفاً له^٥.

"إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ" "إِنَّمَا" للحصر، ومفهومه: أنه لا يأمر بغير ما ذكر، فلا يأمر بخير أبداً، والفعل: "يَأْمُرُكُمْ" فعل في سياق

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١٠٢/١-١٠٣ بتصرّف

^٢ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ١١٥/١

^٣ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٣٠١/٣

^٤ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١٠٤/٢

^٥ انظر: السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢٨٥/٥

الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجارّ والمجرور: بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ، "السوء" هو الإثم، "أل" فيه للاستغراق، يشمل كلّ أنواع السوء، "وسمّي السوء سُوءًا؛ لأنه يسوء صاحبه بسوء عواقبه"^١، وَالْفَحْشَاءِ هو أقبح الإثم، "أل" فيه للاستغراق، قال العلامة أبو حيان: "مصدر كالبأساء، وهو فعلاء من الفحش، وهو قبح المنظر، ثم توسّع فيه حتى صار يستعمل فيما يستقبح من المعاني"^٢.

"وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ" "وَأَنْ تَقُولُوا" المصدر المؤول يعمّ كل قول قيل على الله بغير علم، وخصّص بالجارّ والمجرور: عَلَى اللَّهِ، وبالمفعول به: "مَا لَا تَعْلَمُونَ" "ما" موصول يعمّ، والفعل في سياق النفي عام، والمعنى: ما لا علم لكم به.

وفي هاتين الآيتين معان كثيرة، أذكر بعضها:

الأمر بالأكل ممّا في الأرض حلالًا طيبًا، قال الله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا"، وقد يثير الأمر بالأكل في سياق التحذير من الفتن العظام التساؤل، والذي بدا لي أن ثمة موعظة بليغة تمدّ إلينا صراطها للعبور والاعتبار! فإن أول تشريع تلقّاه البشر هو ما شرعه الله تعالى لآدم عليه السلام من الإذن بالأكل من الجنة رغدًا حيث شاء، والنهي عن الأكل من الشجرة المعيّنة، والتحذير من كيد الشيطان! فكان ما كان مما سبق بيانه أول السورة عند ذكر قصة آدم عليه السلام.

^١ القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، ط ٢، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م، ج ٢/٦٠

^٢ أبو حيان، البحر المحيط، مرجع سابق، ج ٢/٩٨

وقد أمر الله تعالى في هذا الموطن الناس بالأكل من الحلال الطيّب، وحذرهم من اتباع خطوات الشيطان؛ وفي هذا تذكير وعظة بفتنة آدَم عليه السلام، وفيه تحذير من الفتن المستقبلّة؛ لأنّ الناس قد علموا ما نال أباهم من شؤم المعصية الأولى.

التحذير من اتباع خطوات الشيطان، فإنّ اتباعه يُفضي إلى مشاقّة شرع الله تعالى، ويصرف عن هدايته، فإنّ الشيطان يستدرج من اتبع خطواته إلى المهالك، والخطوات: "جمع خطوة، وهي ما بين القدمين في المشي، فالمعنى النهي عن اتباع الشيطان وسلوك سبله وطرائقه" ^١، "وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ" "لا" ناهية والنهي للتحريم، "خطوات" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، أي: "لا تتبعوا مسالك الشيطان ومذاهبه، ولا تسلكوا طرائقه التي يدعوكم إليها" ^٢.

وقد حذرنا الله تعالى تنصيصاً من فتنة الشيطان؛ حتى لا نقع فيما وقع فيه أبونا آدم عليه السلام، فإنّ وسائل الشيطان وأساليبه في الغواية وتزيين المنكرات كثيرة خبيثة، قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ^٣.

بيان مسالك الشيطان في الإلزال والإضلال، وذكر ثلاثة:

^١ ابن عطية، عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت،

١٤٢٢هـ، ج ١/٢٣٧

^٢ الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ، ج ٥/١٩٦

^٣ سورة البقرة آية (٢٧)

الأول: الأمر بالسوء، والسوء كل قبيح شرعاً من قول أو فعل أو اعتقاد. وعليه فهو كل ما يسوء صاحبه عاجلاً أو آجلاً، وقد بدأ بذكر السوء؛ لأنه أعمّ، والفحشاء أخصّ فهي أخبث السوء وأقبحه، والقول على الله بلا علم أخصّ الثلاثة وأعظم إثماً، وأشدّ ضرراً، فانتقل من الأعمّ الشامل لكلّ أنواع السيئات الصغيرة والكبيرة إلى الأخصّ الأشدّ خبثاً وسوءاً.

الثاني: الأمر بالفحشاء، و"الفحشاء" هي "كل ما استُفحش ذكره، وقُبِح مسموعه" كالزنا، والسرقة، وشرب الخمر.

الثالث: الأمر بالقول على الله تعالى بلا علم، فتشرعون ما لم يأذن به، فتحلّون وتحرمون، وتنسبون إليه من الأخبار ما لا علم لكم به، فتصفونه بما لم يصف نفسه، وتنسبون إليه الشركاء، والولد، والأنداد، "يشير إلى ما اختلقه المشركون وأهل الضلال من رسوم العبادات ونسبة أشياء لدين الله ما أمر الله بها. وخصه بالعطف مع أنه بعض السوء والفحشاء لاشتماله على أكبر الكبائر وهو الشرك والافتراء على الله".^١

وعداوة الشيطان تحمله على الإضرار ببني آدم في أمور دينهم ودنياهم، وقد بيّن القرآن والسنة ذلك أتمّ البيان، وأفرد ابن القيم لهذا الأمر كتابه القيم "إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان"، فذكر كثيراً من صور تلبيس الشيطان ومكره وكيدته، وما نراه اليوم من عبث الشياطين بالناس في مشارق الأرض ومغاربها قد بلغت صورته وأنواعه الدرك الأسفل من الفساد والانحطاط.

^١ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٣/٣٠٣

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/١٠٥

ومن أخبث صور تلبس الشيطان على بعض المسلمين ما نجده من استهانة واستخفاف بكيد الشياطين بلغ ببعضهم مسالمة الشيطان وموالاته، والترويج لبضائعه، ووسائله الخبيثة التي يستتبع بها الناس، وينشر بها السوء، والفحشاء، والقول على الله تعالى بلا علم، فترى بعض هؤلاء ينكرون على من يدعوهم إلى اجتناب خطوات الشيطان، ويسخرون منهم، ويستهنئون بمن يحذرهم من ذلك، ويعدّون ذلك من التخلف، واتباع الخرافات، ونقصان العقل.

ويقابل هؤلاء قومٌ بالغوا في تعظيم كيد الشيطان، فتراهم يخوفون الناس من الشيطان؛ تخويفاً أشدّ من التخويف من الله تعالى، وقد نسبوا إلى الشياطين كثيراً من الحوادث والكوارث الكونية وخاصة الأمراض، والمصائب ونسوا مشيئة الله تعالى.

التحذير من فتنة التقليد واتباع الآباء وتعطيل العقول:

ومن أعظم الفتن التي يُغوي بها الشيطان بني آدم فتنة الإعراض عن دعوة الحق بإغرائهم بتقليد الأوائل، والاستمساك بما ألقوا عليه آباءهم من غير نظر، ولا إعمال عقل، ولا تفكير، وهذه الفتنة عامة يقع فيها أكثر الناس، وقد وقع فيها كثير من المسلمين وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

قال العلامة ابن القيم: "وأخبر سبحانه عن أولياء الشيطان أنهم إذا فعلوا فاحشة احتجوا بتقليد أسلافهم، وزعموا أن الله سبحانه أمرهم بها، فاتبعوا الظن الكاذب والهوى الباطل، قال شيخنا (ابن تيمية) وفي هذا الوصف نصيب كبير لكثير من المنتسبين إلى القبلية من الصوفية والعباد والأمراء والأجناد والمتفلسفة والمتكلمين والعامة وغيرهم يستحلون من الفواحش ما حرمه الله ورسوله ظانين أن الله أباحه أو تقليدًا لأسلافهم، وأصله العشق الذي يبعثه الله، فكثير منهم يجعله دينًا، ويرى أنه يتقرب به إلى الله إما لزعمه أنه يزكي النفس ويهذبها، وإما لزعمه أنه يجمع بذلك قلبه على آدمي ثم ينقله إلى عبادة الله وحده، وإما لزعمه أن الصور الجميلة مظاهر الحق ومشاهده، ويسميها مظاهر الجمال الأحدي، وإما لاعتقاده حلول الرب فيها واتحاده بها، ولهذا تجد بين نساك هؤلاء وفقرائهم وأمرائهم وأصحابهم توافقًا وتآلفًا على اتخاذ أنداد من دون الله يحبونهم كحب الله إما تديُّنًا، وإما شهوة، وإما جمعًا بين الأمرين، ولهذا يتآلفون ويجتمعون على السماع الشيطاني الذي يهيج الحب المشترك، فيهيج من كل قلب ما فيه من الحب، وسبب ذلك خلُّو القلب مما خلِّق له من عبادة الله تعالى التي تجمع محبته وتعظيمه والخضوع والذل له والوقوف مع أمره ونهيهِ ومحابته ومساخطه، فإذا كان في القلب وجدان حلاوة الإيمان وذوق طعمه أغناه ذلك عن محبة الأنداد وتآليها، وإذا خلا

القلب من ذلك احتاج إلى أن يستبدل به ما يهواه، ويتخذه إلهه، وهذا من تبديل الدين وتغيير فطرة الله التي فطر عليها عباده"^١.

وقد بين الله تعالى لنا في هذا السياق المبارك خطر التقليد وتعطيل العقول، فقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا: بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^٢.

وقد استفتح ربنا عز وجل هذا التحذير بأداة الشرط "إذا" الدالة على كثرة وقوع هذا الأمر، وتكرره، فالدعاة يهدون إلى الحق، ويبلغون الناس لا يفترن، والمقلد المعطلة عقولهم معرضون عن رسالة الحق مصرّون على اتباع ما كان عليه آباؤهم من الضلال، "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا: بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ".

"وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ" "إذا" شرطية ظرفية من صيغ العموم، والفعل "قيل" في سياق الشرط يعم، وقد خصص بالجار والمجرور: هُـم، ومقول القول: "اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ"، "اتَّبِعُوا": الأمر للوجوب، فعل في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: الاسم الموصول "مَا" والموصول عام، أَنْزَلَ فعل في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: الضمير العائد، "قَالُوا: بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا": "قَالُوا" فعل في سياق الإثبات مقيد بمقول القول: "بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا"، فعل في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: "مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا"، "ما"

^١ انظر: ابن القيم، محمد بن أبي بكر، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، دار المعرفة - بيروت، ط ٢، ١٩٧٥ م، ج ١/١٥٦-١٥٧

^٢ سورة البقرة آية (١٧١-١٧٠)

موصول عام، والفعل "أَلْقَيْنَا" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: عَلَيْهِ، وبالمفعول به: "أَبَاءَنَا"، وآباء نكرة مضافة تعمّ.

"أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ": أَوَلَوْ: الهمزة للإنكار، والواو حالية: أيتبعونهم ولو كان آبائهم لا يعقلون... "أَبَاؤُهُمْ" نكرة مضافة تعمّ، "لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا" الفعل في سياق النفي يعمّ، فلا عقل لهم، "شَيْئًا" نكرة في سياق النفي تعمّ، "وَلَا يَهْتَدُونَ" الفعل في سياق النفي يعمّ، فلا هدى لهم.

"وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً": الواو استئنافية، ومثل: مبتدأ مضاف إلى مقدر: هادي "الَّذِينَ كَفَرُوا"، والموصول عام، كَفَرُوا: فعل في سياق الإثبات منزل منزلة اللازم، والكفر حقيقة شرعية، الَّذِي: موصول يعمّ، "يَنْعِقُ": التّعق نداء الغنم، وهو فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "بِمَا لَا يَسْمَعُ" وما: موصول يعمّ، لَا يَسْمَعُ: الفعل في سياق النفي يعمّ، مخصص بالمفعول به: "إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً"، إلا: حاصرة.

"صُمُّ بُكْمٌ عُمَيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ": "لَا يَعْقِلُونَ" يجوز أن يورد مورد الفعل اللازم وهو في سياق النفي عام، ومعناه: لا عقل لهم، أو يقدر له مفعول حسب ما يقتضيه السياق.

دعوة المؤمنين إلى الأكل من الطيبات، وشكر الله تعالى، والتحذير من الانتقاص والتبديل العلمي والعملية، فحذر من كتمان الكتاب، وبيع دين الله بثمن قليل، والاختلاف في الكتاب والتنازع والشقاق، واختزاله في بعض شرائعه، ولقد ضلّت الأمم السابقة في أحكام المطاعم، فوقعوا في الشرك بسبب التعدي فيها، وشرعوا ما لم يأذن به الله، وضيّقوا ما وسّع الله، فحرّموا الطيبات، وتعدّوا حدود ما أنزل الله فأحلّوا الخبائث. ولذا كان تفصيل أحكام المطعومات في هذا السياق وربطه بالشكر وعبادة الله تعالى تمهيداً مناسباً لما سيأتي ذكره من التحذير من الفتن التي يقع فيها المتديّنون الذين اختصّهم الله تعالى بالرسالات، فبدّلوا كلام الله تعالى، وكنتموا كثيراً من شرائع الله تعالى، واشتروا بها ثمناً قليلاً، واختلفوا في الكتاب، وأوغّلوا في الشقاق، وغلّوا في دينهم غير الحقّ، فاختزلوا الدين فيما تحوى أنفسهم، والمسلمون ورثة الأنبياء، وهم عرضة لمثل هذه الفتن، فبيّن الله تعالى منهج الهداية والوقاية من الغواية والفتن.

دعوة المؤمنين إلى الأكل من الطيبات، وأمرهم بشكر الله تعالى وبيّن أصنافاً من الخبائث.

انتقل الخطاب في هذا الموطن من خطاب الناس كافة إلى خطاب المؤمنين خاصّة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنَازِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ^١.

^١ سورة البقرة آية (١٧٣-١٧٢)

قد كنت أتساءل: لماذا بدأ بتفصيل أحكام المطعومات قبل غيرها، وهي أوسع الأشياء تخييراً، والأصل فيها الإباحة، فكلّ إنسان يأكل منها ما يشتهي، ويناسب طبعه وذوقه، فلماذا بدأ بتفصيل أحكامها؟ وقد ظهرت لي معانٍ والعلم عند الله تعالى، منها:

الأول: شمول التشريع الربّانيّ وأن التشريع كلّهُ لله تعالى، فإذا كانت هذه العناية فيما أصله الإباحة والتخيير، فإن عنايتها بغيرها أولى وأشدّ.

الثاني: إعلام العباد بأن شرائع الله تعالى كلّها أعلاها وأدناها لمصلحة العباد، فقد أمر بأكل الطيبات لحفظ الأنفس والتمتّع بنعيمها، ونهى عن أكل الخبائث درءاً لفسادها، وأذن للمضطرّ بالمحظورات التي تدرأ ما هو أشدّ فساداً وضرراً. فإذا راعى جلب المصلحة ودرء المفسدة في هذا التشريع الذي أصله الإباحة والتخيير، فمن باب أولى مراعاة ما علت رتبته وعظم شأنه.

من الدلالات اللغويّة والأصوليّة:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ" "الَّذِينَ" موصول يعمّ المؤمنين جميعاً، الفعل "آمَنُوا": في سياق الإثبات مطلق؛ لأنه منزل منزلة اللازم، الفعل "كُلُوا" فعل أمر للإباحة، وهو في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ"، "طَيِّبَاتِ" نكرة مضافة تعمّ، "مَا" موصول عامّ، "رَزَقْنَاكُمْ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالضمير المذكور وبالعائد المقدّر، "وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ": "الْأَمْرُ فِي أَشْكُرُوا لِلْجُوبِ لِأَنَّ شُكْرَ الْمُنْعِمِ وَاجِبٌ"^١، "إِنْ

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/ ١١٤

كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ" الشرط للتهييج والإلهاب، فلا مفهوم له، "إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ": الفعل "تَعْبُدُونَ" في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: الضمير المتقدّم "إِيَّاهُ"؛ لإفادة الحصر والتوحيد.

"إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ" "إِنَّمَا" للحصر، والفعل "حَرَّمَ" يدلّ بمادته على التحريم، وهو فعل في سياق الإثبات مقيد بالجارّ والمجرور: "عَلَيْكُمْ"، وبالمعول به: الميتة وما عطف عليها، ومفهوم هذا الحصر أن ما سوى المذكورات غير محرّم، ولكن وردت نصوص تخصّص عموم هذا المفهوم، كقوله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر: "إن الله ورسوله ينهيانكم عن الحمر الإنسية فإنها رجس"^١، فحرّم الحمر الأهلية، وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: "نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير"^٢، فحرّم كلّ ذي ناب من السباع، وكلّ ذي مخلب من الطير، وبعضهم حمل النهي على الكراهة، أما لفظ "حَرَّمَ" فيدلّ على التحريم تنصيلاً، وقد أضاف التحريم إلى الأعيان والذوات المذكورة: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهلك به لغير الله، ومعلوم أن الأحكام تتعلق بأفعال العباد، ولذا يقدّرون مضافاً يناسب السياق مثل: "أَكَل" أي: حَرَّمَ عليكم أَكَلَ الميتة، والدم ... ويندرج هذا فيما يسمّى دلالة الاقتضاء.

"الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ" "أل" للاستغراق فيهما، وقد حُصّص هذا العموم بنصوص كثيرة من ذلك:

- مفهوم قوله تعالى: "أو دمًا مسفوحًا" قال الشنقيطي: "وَأَشَارَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ إِلَى أَنَّ غَيْرَ الْمَسْفُوحِ مِنَ الدِّمَاءِ لَيْسَ بِحَرَامٍ وَهُوَ قَوْلُهُ: "إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا" فَيُفْهَمُ

^١ متفق عليه

^٢ رواه مسلم

مِنْهُ أَنَّ غَيْرَ الْمَسْفُوحِ كَالْحُمْرَةِ الَّتِي تَعْلُو الْقَدْرَ مِنْ أَثَرِ تَقْطِيعِ اللَّحْمِ لَيْسَ بِحَرَامٍ، إِذْ لَوْ كَانَ كَالْمَسْفُوحِ لَمَا كَانَ فِي التَّقْيِيدِ بِقَوْلِهِ: (مَسْفُوحًا) فائدة"¹.

- ومنطوق الحديث: "هو الطهور ماؤه، الحل ميتته"².

- و"عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ: الْمَيْتَتَانِ: الْحَوْتُ وَالْجَرَادُ وَالِدَّمَانِ: الْكَبِدُ وَالطَّحَالُ"³.

"لَحْمَ الْخِنْزِيرِ" لحم نكرة مضافة تعمّ، و"أل" في "الخنزير" للعموم، ويستثنى الخنزير البحري بالنص: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾⁴. "مَا أَهْلٌ بِهِ لِعَيْرِ اللَّهِ" "ما" موصول عام قال الإمام الطبري: "وما أهل به"؛ لأنهم كانوا إذا أرادوا ذبح ما قريبه لآلهتهم، سمو اسم آلهتهم التي قربوا ذلك لها، وجهروا بذلك أصواتهم، فجرى ذلك من أمرهم على ذلك، حتى قيل لكل ذابح، سَمَّى أو لم يُسمَّ، جهر بالتسمية أو لم يجهر: مُهْلٌ"⁵.

"فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ" "مَنْ" شرطية تعمّ كلّ مضطرّ، الفعل "اضْطُرَّ" في سياق الشرط يعمّ كلّ اضطرار، وقد خصّص الفعل بالحال: "غير باغ ولا عاد"، فأكل، "فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ" "إِثْم" نكرة في سياق النفي بـ"لا" النافية للجنس فهو نصّ في العموم، "إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ" ثناء على الله تعالى، وفيه معنى الترغيب والتحبیب والتعليل، قال العلامة السعدي: "وإنما حرم علينا هذه الخبائث ونحوها، لطفًا بنا، وتنزيهاً عن المضرّ، ومع هذا "فَمَنْ

¹ الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مرجع سابق، ج ٩/١ ٤

² الألباني، محمد، صحيح الجامع، قال الشيخ الألباني: صحيح، حديث رقم: ٧٠٤٨.

³ رواه أحمد وابن ماجه والدارقطني، وجود إسناده الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح، ح/٤٢٣٢

⁴ سورة المائدة آية (٩٦)

⁵ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٣/٣١٩

اضْطُرَّ" أي: ألجئ إلى المحرم، بجوع وعدم، أو إكراه، "عَيَّرَ بَاغٍ" أي: غير طالب للمحرم، مع قدرته على الحلال، أو مع عدم جوعه، "وَلَا عَادٍ" أي: متجاوز الحد في تناول ما أبيح له اضطرارًا.

فيجب، إذاً عليه الأكل، ويأثم إن ترك الأكل حتى مات، فيكون قاتلاً لنفسه. وهذه الإباحة والتوسعة، من رحمته تعالى بعباده، فلهذا ختمها بهذين الاسمين الكريمين المناسبين غاية المناسبة فقال: "إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ". ولما كان الحل مشروطاً بهذين الشرطين، وكان الإنسان في هذه الحالة، ربما لا يستقصي تمام الاستقصاء في تحقيقها - أخبر تعالى أنه غفور، فيغفر ما أخطأ فيه في هذه الحال، خصوصاً وقد غلبته الضرورة، وأذهبت حواسه المشقة. وفي هذه الآية دليل على القاعدة المشهورة: الضرورات تبيح المحظورات"^١.

^١ السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ص ٨١

التحذير من فتنة كتمان ما أنزل الله والمتاجرة بالدين

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾^١.

ها هو ربنا عز وجل يبصّرنا بعاقبة الذين آتاهم الله تعالى الكتاب؛ ليهتدوا به، ويسعدوا في الدارين، فأعرضوا، واتخذوا كتاب الله تعالى ذريعة إلى تحقيق أطماعهم، وإشباع شهواتهم، فبدّلوا وكتّموا واشتروا به ثمنًا قليلًا، فشاقّوا الله تعالى ورسله، وصدّوا عن الحقّ، وساقوا من اتبعهم إلى سواء الجحيم، وإنّما لخطيئة عظيمة وجناية جسيمة، ولهذا كان الوعيد شديدًا؛ لأنّ الجزء من جنس العمل، وقد صوّر القرآن الكريم حالهم الخبيثة تنفيرًا وتحذيرًا، فمن اشترى الضلالة بالهدى، فقد اشترى العذاب بالمغفرة.

"إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ": "إِنَّ": حرف التوكيد يقطع دابر التردد والشكّ عن السامعين، وأما الاسم الموصول "الذين" فيجمع الكاتمين الّاثنين جميعًا من أهل الكتاب من اليهود والنصارى وغيرهم في عمومهم لا يُفعلت منهم أحدًا، والفعل "يَكْتُمُونَ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الاسم الموصول "مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ"، وبمحذوف مقدّر: "وَحَدَفُ مُتَعَلِّقٍ يَكْتُمُونَ الدَّالَّ عَلَى الْمَكْتُومِ عَنْهُ لِلتَّعْمِيمِ أَيْ يَكْتُمُونَ ذَلِكَ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ لِيَتَأَتَّى نِسْيَانُهُ وَإِضَاعَتُهُ"^٢.

^١ سورة البقرة آية (١٧٥-١٧٤)

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/٦٤

"مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ": "مَا": اسم موصول يعمّ، والفعل "أَنْزَلَ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير العائد على الاسم الموصول، وبالجارّ والمجرور: "مِنَ الْكِتَابِ"، وأل يجوز حملها على العهد: التوراة والإنجيل، ويجوز إرادة العموم؛ لأنّ كتمان اليهود والنصارى ما أنزل في كتبهم كتمان لما أنزل الله في جميع الكتب المنزلة.

"وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا": "وَيَشْتَرُونَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "بِهِ"، وبالمفعول به: "ثَمَنًا"، وثمنا: نكرة مقيّدة بالصفة: "قليلًا"، "أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ": الاسم "أُولَئِكَ" مشار به إلى عامّ فهو يعمّهم، "ما" نافية، والفعل "يَأْكُلُونَ" في سياق النفي يعمّ، وهو مخصّص بشيئين: الأول: الجارّ والمجرور: "فِي بُطُونِهِمْ"، وبطون نكرة مضافة تعمّ، وإلا حاصرة، والثاني: المفعول به: "النار"، "أل" للعهد.

"وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ": "وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ": الفعل "يُكَلِّمُهُمُ" في سياق النفي يعمّ، وهو عامّ مخصّص بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالظرف: "يَوْمَ الْقِيَامَةِ"، "وَلَا يُزَكِّيهِمْ" فعل في سياق النفي يعمّ، وهو عامّ مخصّص بالمفعول به: الضمير المتصل، "وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ": تقديم الجارّ والمجرور "هُم" للحصر، وعَذَابٌ نكرة مقيّدة بالصفة: "أَلِيمٌ"، مفهومه لهم عَذَابٌ أَلِيمٌ لا غيرهم.

"أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ": الاسم "أُولَئِكَ" مشار به إلى عامّ فهو يعمّهم، الَّذِينَ موصول يعمّ، "اشْتَرَوْا": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "الضَّلَالَةَ"، وبالجارّ والمجرور: "بِالْهَدَى" وبما عطف عليهما: "وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ" و"أل" للعموم في الأسماء الأربعة: "الضَّلَالَةَ بِالْهَدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ"، "فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ" "ما" اسم

استفهام، والاستفهام للوعيد والتهديد، وهو من صيغ العموم، ويجوز حمل "ما" على
التَّعْجُبِ^١، والمقصود التعجب من هول العقاب ومن سفه السادر في غيه غير المكتثر بالنار
التي هو واقع فيها.

^١ انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٥/٢٠٦

التحذير من فتنة الاختلاف في الكتاب:

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ

لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾^١.

في صدر هذه الآية تأكيد لسنة الله تعالى في مجازاة من شاقَّ الله تعالى وشاقَّ رسله عليهم السلام، "ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ"، أي: "ذَلِكَ" العقابُ والجزاء المذكور في الآيتين السابقتين إنما استحقَّه من استحقَّه جزاءً وفاقاً، قال تعالى: "ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ؛ لِيَتَّبِعُوهُ، فَجَحَدُوا بِهِ، وَبَدَّلُوهُ، وَاخْتَلَفُوا فِيهِ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ"، وإن سبيل الذين اختلفوا في الكتاب بالباطل (بما لم يأذن به الله تعالى) هو الشقاقُ البعيدُ عن الحقِّ والوفاق؛ فحكَّم الله تعالى فيهم بعدله وفق سنته العامة أن من شاقَّ وعاند، عوقب وعذِّب. ومفهومه: أن الذين قابلوا الحقَّ بالقبول والاتباع يكونون في ائتلاف ووفاق بلا اختلاف أثيم، ولا شقاق أليم.

"ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ" يشير باسم الإشارة "ذَلِكَ" إلى عموم الجزاء السابق الذي وقع بالذين يكتُمون الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً، والفعل "نَزَّلَ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "الْكِتَابَ"، وبالجارِّ والمجرور: "بِالْحَقِّ"، "الْكِتَابَ": أل للعهد والمقصود به القرآن الكريم، ويحتمل العموم، قال ابن عاشور: "ومن المحتمل أيضاً أن يكون المراد بالكتاب الجنس أي الذين اختلفوا في كتب الله، فأمنوا ببعضها وكفروا بالقرآن"^٢.

^١ سورة البقرة آية (١٧٦)

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/١٢٦

"بِالْحَقِّ" الكامل الجامع للخير المؤلف بين القلوب، والمانع من الاختلاف الأثيم والشقاق الأليم.

"وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ"^١، "الَّذِينَ" عامّ يشمل كلّ من اختلفوا في كتاب الله تعالى بلا هدى ولا تقى. "اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ" والفعل "اخْتَلَفُوا" في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "فِي الْكِتَابِ"، والكتاب هنا هو الكتاب في قوله: "نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ"، وقد أظهر لفظ "الْكِتَابِ" لم يقل اختلفوا فيه، "وفائدة الإظهار في مقام الإضمار في قوله: "الْكِتَابِ" أن يكون التذييل مستقلاً بنفسه لجريانه مجرى المثل"^٢؛ لتكون الخاتمة قانوناً عاماً يبيّن حال الذين يختلفون في الكتاب في كلّ عصر، "لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ"، التعبير بحرف "في" يدلّ إحاطة الشقاق بهم ولفظ "شقاق" نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالصفة، كأن الشقاق هاوية عميقة لها قاع سحيق بعيدٌ قعره عن أسباب النجاة وأيدي المنقذين.

وقد أطنب العلامة محمد رشيد رضا في تنزيل هذه الآية على واقع الأمة، وسأذكر بعضاً ممّا قاله، قال رحمه الله تعالى: "هذا حكم آخر في الكتاب غير حكم كتمانته، فهو يفهمنا أن الاختلاف فيه بعدّ عن الحق ككتمانته؛ لأن الحقّ واحد وهو ما يدعو إليه الكتاب، والمختلفون لا يدعون إلى شيء واحد،

والشقاق أثر طبيعي للاختلاف، والاختلاف في الأمة أثر طبيعي للتقليد والانتصار للرؤساء، ولولا التقليد لسهل على الأمة أن تُرجع في كل عصر أقوال المجتهدين والمستنبطين إلى

^١ سورة البقرة آية (١٧٦)

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/١٢٦

قول واحد بعرضه على كتاب الله وسنة رسوله، ولكنّ التقليد هو الذي أوقعهم في الشقاق البعيد.

هذا - وإن الكتاب لا مثار فيه للخلاف والنزاع إذا صحت النية، فكل من يتعلّم العربية تعلُّماً صحيحاً، وينظر في سنة النبيّ عليه الصلاة والسلام، وسيرته، وما جرى عليه السلف من أصحابه والتابعين لهم يسهل عليه أن يفهمه، وما تختلف فيه الأفهام لا يقتضي الشقاق، بل يسهل على جماعة المسلمين من أهل العلم والفهم أن ينظروا في الفهمين المختلفين وطرق الترجيح بينهما، وما ظهر لكلّهم أو أكثرهم أنه الراجح يعتمدونه، إذا كان يتعلق بمصلحة الأمة والأحكام المشتركة بينها، وما عساه ينفرد به بعض الأفراد من فهم خاص بمعارفه يكون حجة عليه دون غيره، فهو لا يقتضي شقاقاً^١.

^١ انظر: رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، مرجع سابق، ج ٢/ ٨٧-٨٨ بتصرّف.

إبطال فتنة اختزال الدين في استقبال المشرق والمغرب، والتذكير بالنموذج الأمثل
والأكمل لأهل البرّ والتقوى.

ها هو ربّنا تبارك اسمه ذو الجلال والإكرام ينفي عن الدين فتنة الاختزال والغلو
والجفاء ويبيّن لنا ميزان البرّ والعدل والتقوى. والغلو والجفاء وجهان لفتنة واحدة، فمن غلا
جفا، ومن جفا غلا، وكلّ الغلاة جفاة، وكلّ الجفاة غلاة، ولو تتبععت نشوء الفرق والطوائف
في بلاد الإسلام لوجدت أن منشأ الانحراف هو الغلو في اتباع ما استحسنته أهواؤهم، وإن لم
يكن من البرّ والتقوى في ميزان الشرع، والجفاء عمّا خالف أهواءهم، وإن كان من البرّ والتقوى
في ميزان الشرع.

ولا استقامة للأمة إلا بإقامة ميزان الحقّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من
خلفه، فإذا أقيم الوزن بالحقّ تهوى الباطل! فلا تطفيف عند سيادة موازين القسط، ولا تزوير،
ولا تدليس، ولا تلبيس.

قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ
آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا
عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُتَّقُونَ﴾^١.

^١ سورة البقرة آية (١٧٧)

وقف المفسرون بين يدي قوله تعالى: "لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ"، فأحسنوا الوقوف، واختلفوا في تعيين المخاطبين! قال الإمام الطبري: "اختلف أهل التأويل في تأويل قوله ذلك. فقال بعضهم: معنى ذلك: ليس البر الصلاة وحدها، ولكن البر الخصال التي أبينها لكم. وقال آخرون: عنى الله بذلك اليهود والنصارى"^١.

والذي يظهر لي أن الخطاب عام. وفي هذا الاستهلال تذكير بالفتنة الجسيمة التي اضطربت فيها موازين الظالمين عند "تحويل القبلة"، وفيها تحذير من فتنة الكتمان والتعريض بالمعرضين والمعترضين على منهج الله تعالى في التشريع، وفيها تذكير بمنّة الله تعالى على الأمة الوارثة، بما شرع لها وما اختصّها به من الفضل والكرامة، لقد استهلّ الحديث بإبطال مسلك اختزال الدين والانتقاص من حقائقه؛ لأنه يفضي إلى تشويه الدين بالتدنيّ الغالي والجافي (المعظم بعض شعب الإيمان، والمفرط في بعضها الآخر). ثمّ بيّن ميزان الاستقامة والبرّ والتقوى، فانظر كيف سقت هذه الشرائع والشعائر العظام إلى العباد في آية واحدة!

قال العلامة ابن كثير: "قال الثوري: "وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ" الآية، قال: هذه أنواع البرّ كلّها. وصدق رحمه الله؛ فإن من اتصف بهذه الآية، فقد دخل في عرى الإسلام كلّها، وأخذ بمجامع الخير كلّها"^٢.

قال العلامة دراز: "إن مسألة تعيين الأماكن والجهات في مظاهر العبادات - تلك المسألة التي أشغلت بال المخالفين والمؤلفين نقداً وردّاً - ليست هي كل ما يطلب الاشتغال به من أمر البرّ، بل هي شعبة واحدة من جملة الشعب التي تشتمل عليها، خصلة واحدة من

^١ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج ٣ / ٣٣٦ - ٣٣٨ بتصرف يسير

^٢ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ١ / ٤٨٦

جملة خصاله، وإنما البر كلمة جامعة لخصال الخير كلّها؛ نظرية وعملية، في معاملة المخلوق، وعبادة الخالق، وتزكية الأخلاق، فبتلك الخصال جميعها فليشتغل المؤمنون الصادقون^١. ولما كانت خصال البرّ كثيرة، ودرجاتها في الفضل متفاوتة كان لزماً على الدعاة أن يحدّدوا الأولويات بميزان البر والتقوى؛ لأن تحديد الأولويات سيمنحنا القدرة على حسن استثمار الطاقات، وتجاوز النزاعات.

"لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، "البرّ": التوسّع في فعل الخير مشتقّ من البرّ لاتساعه^٢. وهو حقيقة شرعية في كل طاعة قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى﴾^٣، فالبر: هو ملازمة طاعة الله تعالى بفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه^٤. ولفظ "البرّ": عام؛ لأن "أل" للاستغراق، وقد استعمل هذا اللفظ في القرآن وأودع فيه من المعاني ما لا عهد للعرب به كما في هذه الآية، وقد ردّ الله تعالى في هذه الآية على الذين قصّروا البرّ على تولية وجوههم قبل المشرق والمغرب، وبَيّن لهم حقيقة البرّ، فليست حقيقة البر مقصورة على الصلاة خاصة، بل البر يعمّ جميع الأشياء المذكورة، وأهل البرّ هم الذين صدّقوا الله في تدينهم، وهم المتقون الله تعالى بترك ما نهى عنه وفعل ما أمر به، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى﴾^٥، وفي هذه الآية أيضاً تخلص لحقيقة البرّ ممّا شابها من ميراث الجاهلية، وفيها تأكيد على أن البرّ هو برٌّ من اتقى، وبهذا يتجلّى لنا أن لفظ "البرّ" حقيقة شرعية تشمل كلّ ما يحبه الله ويرضاه من

^١ دراز، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ٢٤٧ - ٢٤٨، بتصرف يسير

^٢ انظر: الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، ط ١، ١٤١٢ هـ، ج ١/١١٤

^٣ سورة البقرة الآية (١٨٩)

^٤ انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ص ٨٨

^٥ سورة البقرة الآية (١٨٩)

الأفعال والتروك الظاهرة والباطنة، فالبرّ: اسم جامع لكلّ ما يؤجر عليه الإنسان^١، والذي يؤجر عليه الإنسان فعل المأمور به من الواجب والمندوب، وترك المنهي عنه من المحرّمات والمكروهات.

"أَنْ تُؤْلُوا" المصدر المؤول يعمّ؛ لأنه مقدّر بنكرة مضافة إلى معرفة: توليتكم، وهو مخصّص بشيئين: الأول: المفعول به: "وُجُوهَكُمْ"، ووجوه نكرة مضافة تعمّ، وضمير المخاطبين يعمهم جميعاً سواء كانوا من أمة الاستجابة أم من أمة الدعوة، والثاني: الظرف: "قَبْلَ" ظرف عامّ، "الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ" "أَل" للاستغراق والعموم، والله تعالى أعلم، "وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ": "لَكِنَّ" للاستدراك ولإثبات أن ميزان البرّ أعمّ من ذلك، "وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ: إِخْبَارٌ عَنِ الْمَصْدَرِ (الْبِرِّ) بِاسْمِ الذَّاتِ (مَنْ) لِلْمُبَالَغَةِ كَعَكْسِهِ"^٢ أي جائز كعكسه، أي: كما يخبر بالمصدر عن الذات، والنحاة يقدّرون محذوفاً. "مَنْ آمَنَ"، "مَنْ" اسم الموصول يعمّ، والتقدير: ولكنّ البرّ الحقّ الكامل برّ من آمن... "أَمَّنَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ..." وبما عطف عليه، "وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ" "أَل" للاستغراق، ومفهومه أن مَنْ لم يؤمن ولو بواحد من الوارد ذكره في النص فقد انتقض إيمانه، "وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى.." "أَتَى": فعل في سياق الإثبات مقيّد بثلاثة قيود: أولها: المفعول به الأول: "المال" والمال "أَل" للعموم، والثاني: الجارّ والمجرور: "على حُبِّهِ": أي: حبّ المال، والثالث: المفعول به الثاني وما عطف عليه: "ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ". "ذَوِي الْقُرْبَى" "ذوي": نكرة مضافة تعمّ، "الْقُرْبَى" "أَل" للاستغراق، والقربى: تعمّ كلّ قربي، والقربى مصدر، كالترجعي بمعنى القرابة،

^١ انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٥/٢١٣

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/١٢٩

وهم من يصلون إليك من جهة والديك، وهم درجات متفاوتة، فيقدّم الأقرب فالأقرب عند تراحم الحقوق والعجز عن الجمع.

"وَالْيَتَامَى": "أل" للاستغراق، واليتيم مَنْ فَقَدَ أَبَاهُ وهو دون الاحتلام، فلا يُتَمَّ بعد احتلام كما ورد عن عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: حَفِظْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- "لَا يُتَمُّ بَعْدَ اخْتِلَامٍ"^١. وقدّم اليتامى على المساكين؛ لأنهم أضعف، وحاجتهم إلى الرعاية أعظم.

"وَالْمَسَاكِينَ" "أل" للاستغراق، والمسكين مُفْعِلٌ مِنَ السُّكُونِ كَأَنَّ الْفَاقَةَ أَسَكَّنَتْهُ^٢، وسلبته القدرة على الحركة والسعي في قضاء حاجاته.

"وَابْنِ السَّبِيلِ" نكرة مضافة تعمّ المسافرين، "وإنما قيل للمسافر "ابن السبيل"، لملازمته الطريق -والطريق هو "السبيل" - ف قيل لملازمته إياه في سفره: "ابنه"^٣. "وَالسَّائِلِينَ" صفة صريحة مقترنة بـ "أل" تعمّ، والسؤال طلب الشيء، "وَفِي الرِّقَابِ" "أل" للاستغراق العرقيّ، يشمل عتق الرقاب وفكّها من أسر العبودية كالمكاتيبين بأداء كتاباتهم.

"وَأَقَامَ الصَّلَاةَ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "الصَّلَاةَ"، والصلاة حقيقة شرعية، وأل للعموم، فتعمّ كل صلاة، "وَأَتَى الزَّكَاةَ" الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "الزكاة"، "الزكاة": حقيقة شرعية، وأل للعموم.

^١ رواه أبو داود، ح ٢٨٧٥، وقال الشيخ الألباني في صحيح الجامع: (صحيح) انظر حديث رقم: ٧٦٠٩

^٢ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج ٢ / ١٥

^٣ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٣ / ٣٤٦

"وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا": "وَالْمُؤْفُونَ" صفة صريحة تعمّ، وهي مخصّصة بشيئين: الأول: الجارّ والمجرور: "بِعَهْدِهِمْ"، وعهد: نكرة مضافة تعمّ، والثاني: الظرف: "إِذَا عَاهَدُوا"، "إِذَا" ظرف زمان مجرد من الشرطيّة يعمّ، والفعل "عَاهَدُوا": في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول المقدرّ، حذف لإرادة العموم، "وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ": "وَالصَّابِرِينَ" صفة صريحة تعمّ، وهي مخصّصة بشيئين: الأول: الجارّ والمجرور: "فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ"، والثاني: الظرف: "وَحِينَ الْبَأْسِ"، "أَل" في الثلاثة الألفاظ للاستغراق، "حِينَ" الظرف عامّ، والمعنى كما نقله العلامة ابن كثير: "في حال الفقر، وهو البأساء، وفي حال المرض والأسقام، وهو الضراء. وَحِينَ الْبَأْسِ أي: في حال القتال والتقاء الأعداء، قاله ابن مسعود، وابن عباس"^١. والصابرين في وقت البأس، وذلك وقت شدة القتال في الحرب.

"أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا"، اسم الإشارة يعمّ المشار إليهم، والاسم الموصول "الذين" عامّ، والفعل "صَدَقُوا" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول المقدرّ، ويجوز أن ينزل منزلة اللازم، وتعريف المبتدأ والخبر يفيد الحصر، ومفهوم المخالفة غيرهم بخلاف ذلك.

"وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ"، اسم الإشارة يعمّ المشار إليهم، والمتقون صفة صريحة، وتعريف المبتدأ والخبر يفيد الحصر، وضمير الفصل مؤكّد للحصر، ومفهوم المخالفة غيرهم ليسوا بمتقين. والتقوى: حقيقة شرعيّة، وهي ملكة تحمل صاحبها على فعل كلّ مأمور به من واجب ومندوب، وترك كلّ منهي عنه من محرم ومكروه.

^١ انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ١/٤٨٨

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^١.

هذه الآية تتناول مقصدًا ضروريًا من مقاصد الإسلام وكنية من كليات الشريعة التي لا تصلح الحياة بدونها ألا وهو مقصد حفظ الأنفس، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى"، "يا" حرف نداء للقريب والبعيد، وأي نكرة مقصودة، وها للتنبيه، والاسم الموصول "الَّذِينَ" من صيغ العموم، والفعل: "آمنوا" في سياق الإثبات مطلق يمتد بشعبه وحقيقته الشرعية؛ ليشمل جميع شرائع الإسلام، وقد عمّ هذا النداء كل ذكر وأنثى اتصف بهذا الوصف الكريم، والفعل "كُتِبَ" يدلّ على الوجوب والفرض بمادته، والفعل "كُتِبَ" في سياق الإثبات مقيد بنائب الفاعل: "الْقِصَاصُ"؛ لأن أصله مفعول به، وبالجارّ والمجرور: "عَلَيْكُمْ"، ولفظ "الْقِصَاصُ": مصدر قاصّة يُقاصُّه قِصاصاً ومُقاصّةً، وأصله من قَصَصْتُ الشَّيْءَ اتَّبَعْتُ أثره؛ لأنه اتباع دم المقتول^٢ والقصاص المماثلة والمساواة^٣، وهنا توجد دلالة اقتضاء ليصحّ الحكم شرعاً، وذلك أن القصاص حقّ لأولياء المقتول وليس بواجب عليهم يندب العفو والتخفيف بأخذ الدية، وعليه فنقدّر: كتب عليكم حقّ القصاص، وأل في "الْقِصَاصُ": للاستغراق فهو عامّ بالنظر إلى أنواع القصاص: قصاص القتل والجراح والضرب، ولكنّه خصّص بالجارّ والمجرور: "فِي الْقَتْلَى": "فِي" لِلظُّرْفِيَّةِ

^١ سورة البقرة آية (١٧٨)

^٢ السمين، الدر المصون مرجع سابق، ج ٢/٢٥٢

^٣ انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج ١١/٥

الْمَجَازِيَّةُ^١، والقتلى: أل للاستغراق فهو عام، ولكنه مراد به الخصوص، فالقصاص في القتلى عمداً لا خطأ ولا شبه عمد، فهذا العموم قد خصصته أدلة أخرى كثيرة.

"الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى": "الْحُرُّ بِالْحُرِّ": أل للاستغراق فهو يعم كل جرّ ذكر، فمنطوقه: أن الحر يقتل بالحرّ، "وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ" يعمّ ذكور العبيد، فمنطوقه: أن العبد يقتل بالعبد، "وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى" تعمّ الإناث، فمنطوقه: أن الأنثى تقتل بالأنثى، وأما "مَفْهُومُ الْقَيْدِ مَعَ مَا فِي الْحُرِّ وَالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى مِنْ مَعْنَى الْوَصْفِيَّةِ يَفْتَضِي أَنَّ الْحُرَّ يُقْتَلُ بِالْحُرِّ لَا بَعِيرِهِ وَالْعَبْدَ يُقْتَلُ بِالْعَبْدِ لَا بَعِيرِهِ، وَالْأُنْثَى تُقْتَلُ بِالْأُنْثَى لَا بَعِيرِهَا.

وَقَدْ اتَّفَقَ عُلَمَاءُ الْإِسْلَامِ عَلَى أَنَّ هَذَا الْمَفْهُومَ غَيْرُ مَعْمُولٍ بِهِ بِإِطْرَادٍ، لَكِنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِي الْمِقْدَارِ الْمَعْمُولِ بِهِ مِنْهُ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الْأَدِلَّةِ الثَّابِتَةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ^٢ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ، وَعَنْ أَنَسٍ "أَنَّ يَهُودِيًّا رَضَ رَأْسَ جَارِيَةٍ بَيْنَ حَجْرَيْنِ فَقِيلَ لَهَا: مَنْ فَعَلَ هَذَا بِكَ: فَلَانَ أَوْ فَلَانَ؟ حَتَّى سَمِيَ الْيَهُودِيُّ فَأُومِتَ بِرَأْسِهَا فَجِيءَ بِهِ فَاعْتَرَفَ، فَأَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَضَ رَأْسَهُ بِحَجْرَيْنِ" رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ وَقَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا يُقْتَلُ وَالِدٌ بِوَلَدِهِ"، وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى قَتْلِ الرَّجُلِ بِالْمَرْأَةِ وَالْمَرْأَةِ بِالرَّجُلِ^٣.

"فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ": الفاء الفصيحة، "مَنْ" اسم شرط عام، الفعل "عُفِيَ" في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بالجارّ والمجرور في الموضعين: الموضع الأول: "لَهُ" الموضع الثاني: "مِنْ أَخِيهِ" "أَخِيهِ" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ،

^١ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج ٢٤٨/٢

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١٣٧/٢

^٣ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج ٢٤٨/٢

"شيء" نكرة في سياق الشرط تعمّ العفو عن أيّ شيء من الدية، وقال السعدي^١: "وفي قوله: "فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ" تزيق وحث على العفو إلى الدية، وأحسن من ذلك العفو مجاناً. وفي قوله: "أَخِيهِ" دليل على أن القاتل لا يكفر، لأن المراد بالأخوة هنا أخوة الإيمان، فلم يخرج بالقتل منها، ومن باب أولى أن سائر المعاصي التي هي دون الكفر، لا يكفر بها فاعلها، وإنما ينقص بذلك إيمانه. وإذا عفا أولياء المقتول، أو عفا بعضهم، احتقن دم القاتل، وصار معصوما منهم ومن غيرهم".

"فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ": الفاء واقعة في جواب الشرط، اتباع خبر لمبتدأ مقدر: الواجب اتباع... واتباع مقيّد بالجاء والمجرور: بِالْمَعْرُوفِ، والمعروف صفة صريحة تعمّ كل معروف في عصره، وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ: معطوف على اتباع، ومقيّد بالجاء والمجرور في الموضعين: الموضع الأول: "إِلَيْهِ" الموضع الثاني: "بِإِحْسَانٍ"، وإحسان مطلق.

"ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ": ذلك العفو تخفيف مقيّد بالصفة: مِنْ رَبِّكُمْ، ورحمة: التذكير للتفخيم، أو موصوفة بمقدّر دلّ عليه السياق: رحمة من ربكم، "فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ": "فَمَنْ اعْتَدَى" الفاء استئنافية، ومن اسم شرط عامّ، "اعْتَدَى": فعل في سياق الشرط يعمّ كلّ من اعتدى ثم عاد إلى القتل ظلماً وعدواناً، فالفعل مخصّص بالظرف: "بَعْدَ ذَلِكَ" العفو والتخفيف، "بعد": نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، واسم الإشارة "ذلك": إشارة إلى العفو وأخذ الدية والتخفيف عن القاتل. وعذاب مقيّد بالصفة: أليم. ويعلم من الواقع وحال المجرمين أن كثيراً من القتلة يستسهلون القتل إذا لم يشدّد عليهم العقاب.

^١ السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ج ١/ ٨٤

وقال الإمام الطبري: "فمن تجاوز ما جعله الله له بعد أخذه الدية، اعتداءً وظلمًا إلى ما لم يُجعل له من قتل قاتلٍ وليه وسفك دمه، فله بفعله ذلك وتعدّيه إلى ما قد حرّمته عليه، عذابٌ أليم"^١، والقول الأول أوفق للسياق، ولو قال قائل نحمل الألفاظ على عمومها، فيشمل الوعيد كلّ من اعتدى من القتلة المعفو عنهم، ويشمل من اعتدى من أولياء المقتول فقتل القاتل أو أحد أقرباء القاتل بعد التخفيف والوفاق والصلح.

قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^٢، "القصاص" عامّ، "حياة" التنكير للتعظيم أي حياة مستقرة طيبة؛ لأن القصاص زاجرٌ لكلّ من تدعوه نفسه إلى القتل والاعتداء على الأنفس، فيكفّ عدوانه خشية القصاص، "يا أولي الأبواب": أولي: نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، الأبواب: أل للاستغراق يعمّ أصحاب العقول الراجحة الذين يدركون أن القصاص مصلحة راجحة، وفيه تعريض وتسفيه بالذين يستنكرون ذلك.

"لعلّ" للتعليل، "تتقون": فعل في سياق الإثبات مقيد بمقدّر حذف للدلالة على العموم: تقون الله ما يفسد حياتكم من شرور التظالم والثأر والعدوان.

^١ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٣/٣٧٥

^٢ سورة البقرة آية (١٧٩)

قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ * فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾:

"كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ": "كُتِبَ عَلَيْكُمُ": "كُتِبَ" فعل يدلّ على الوجوب والفرض بمادته، وقد اختلف العلماء في حكم الآية، فقال الجمهور إنها نسخت بآيات المواريث قال ابن كثير: "اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين. وقد كان ذلك واجباً -على أصح القولين- قبل نزول آية المواريث، فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه، وصارت المواريث المقدرة فريضة من الله، يأخذها أهلها حتماً من غير وصية ولا تحمل منة الموصي، ولهذا جاء الحديث في السنن وغيرها عن عمرو بن خارجة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب وهو يقول: "إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث" ^٢.

وبقيت الوصية مندوبة فيمن لا يرث، قال ابن عاشور: "وَبِالْفَرَايِضِ نُسِخَ وَجُوبُ الْوَصِيَّةِ الَّذِي اقْتَضَتْهُ هَذِهِ الْآيَةُ وَبَقِيَتْ الْوَصِيَّةُ مَنْدُوبَةً بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْوُجُوبَ إِذَا نُسِخَ بَقِيَ النَّدْبُ وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ جُمْهُورُ أَهْلِ النَّظَرِ مِنَ الْعُلَمَاءِ، الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالنَّحْعِيُّ وَالشَّعْبِيُّ وَمَالِكٌ

^١ سورة البقرة آية (١٨٠-١٨٢)

^٢ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ١/٤٩٢

وَأَبُو حَنِيفَةَ وَالْأَوْزَاعِيُّ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَجَابِرُ بْنُ زَيْدٍ^١. وَرَجَّحَ الْإِمَامُ الطَّبْرِيُّ كَوْنَهَا مُحْكَمَةً وَأَنَّهَا فِيمَنْ لَا يَرِثُ مِنَ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ مِنْ أَوَّلِ نَزُولِهَا^٢، وَقَوْلُ الْجُمْهُورِ أَظْهَرَ.

والفعل "كُتِبَ" في سياق الإثبات مقيّد بأربعة قيود: الأول: الجارّ والمجرور: "عَلَيْكُمْ"، والثاني: نائب الفاعل: "الْوَصِيَّةُ"؛ لأن أصله مفعول به، والثالث: الظرف المحض: "إِذَا"، ويجوز أن تكون ظرفية شرطية^٣: "إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ"، ومفهومها إذا لم يحضر الموت فليس بمكتوب، والفعل "حَضَرَ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: أحدكم، وحضور الموت ظهور أسبابه وعلاماته كالمرض وغيره، "أَحَدُكُمْ" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، والرابع: الشرط الخالص: "إِنْ تَرَكَ خَيْرًا"، ومفهومه إن لم يترك خيراً (مالاً) فليس بفرض.

"إِنْ تَرَكَ خَيْرًا"، تَرَكَ: فعل في سياق يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: "خَيْرًا"، "خَيْرًا" نكرة في سياق الشرط تعمّ كل أنواع الخير قلّ أو كثر، والخير هنا المال، ومفهوم الشرط: إن لم يترك خيراً (مالاً) فليس بفرض.

"الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ" "الْوَصِيَّةُ": هي "عِبَارَةٌ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْمَرُ بِفِعْلِهِ وَيُعْهَدُ بِهِ فِي الْحَيَاةِ وَبَعْدَ الْمَوْتِ. وَخَصَّصَهَا الْعُرْفُ بِمَا يُعْهَدُ بِفِعْلِهِ وَتَنْفِيذِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ"^٤، وهي في هذه الآية بعد النسخ حقيقة شرعية لما يعهد الموصي ببذله بعد أن موته لغير الوارث فيما لا يزيد على ثلث ما يتركه من ماله، و"أَل" في "الْوَصِيَّةُ" للعموم، وخصّصت بالجارّ والمجرور في الموضعين: الموضع الأول: "لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ"، و"أَل" فيهما للعموم، والثاني: "بِالْمَعْرُوفِ"

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/ ١٤٩

^٢ انظر: الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٣/ ٣٨٤

^٣ انظر: السمين، الدر المنصون، مرجع سابق، ج ٢/ ٢٦٠ - ٢٦١

^٤ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج ٢/ ٢٥٩

"أَل" للعموم، "حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ" "حَقًّا" نائب عن المفعول المطلق لَكَتَبَ^١، وفائدتها تأكيد الندب، والجارّ والجور: "على الْمُتَّقِينَ" متعلقان بـ "حَقًّا"، والمتقين: صفة صريحة صلة "أَل" تعمّ، وفائدتها التهييج والترغيب، ولا مفهوم لها.

"فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ" "من" اسم شرط عامّ، "بَدَّلَهُ" فعل في سياق يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: الضمير المتصل، والظرف: "بَعْدَمَا سَمِعَهُ"، والظرف بعد: نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، ولفظ "ما" مصدرية، والمصدر المؤول: سمعه يعمّ ما سمعه من الوصية.

"فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ" "إِنَّمَا" للحصر "إِثْمُهُ": نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، الَّذِينَ: اسم موصول يعمّ، والفعل "يُبَدِّلُونَهُ": فعل في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: الضمير المتصل، "إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" للتذكير والتحذير، والمعنى إجمالاً: "فمن بدّل الوصية وحرفها، فغير حكمها وزاد فيها أو نقص -ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الأولى- "فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ"، قال ابن عباس وغير واحد: وقد وقع أجر الميت على الله، وتعلّق الإثم بالذين بدّلوا ذلك "إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" أي: قد اطلع على ما أوصى به الميت، وهو عليم بذلك، وبما بدّله الموصي إليهم"^٢.

"فَمَنْ خَافَ مِنْ مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ": "فَمَنْ خَافَ مِنْ مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا" "مَنْ" اسم شرط يعمّ، والفعل "خَافَ": في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بالجارّ والجور: "مِنْ مُّوصٍ"، وبالمفعول به وما عطف عليه: "جَنَفًا أَوْ إِثْمًا"، والألفاظ: "مُوصٍ، جَنَفًا، إِثْمًا" ثلاث نكرات في سياق الشرط تعمّ، والجنف في هذا السياق

^١ انظر: السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج ٢/ ٢٦٣ نقلاً عن أبي حيان.

^٢ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ١/ ٤٩٥

الخطأ، قال ابن كثير^١: قال ابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدي: الجَنَف: الخطأ. وهذا يشمل أنواع الخطأ كلّها، بأن زاد وارثا بواسطة أو وسيلة، كما إذا أوصى ببيعته الشيء الفُلانيّ محاباة، أو أوصى لابن ابنته ليزيدها، أو نحو ذلك من الوسائل، إما مخطئًا غير عاقد، بل بطبعه وقوة شفقتة من غير تبصّر، أو متعمّدًا آثمًا في ذلك، فللوصيّ -والحالة هذه -أن يصلح القضية، ويعدلَ في الوصية على الوجه الشرعي".

"فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ" الفاء عاطفة لـ "أصلح" على "خاف"، والفعل "أصلَحَ" في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بالظرف: بينهم، "فلا إثم": نكرة في سياق النافية للجنس نصّ في العموم، تعمّ كلّ إثم تنصيصًا، فقد رفع الله تعالى الإثم عن المصلح إذا اجتهد في الإصلاح وأخطأ، وفي هذا ترغيب في الإصلاح "إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ".

^١ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ١/٤٩٥

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ * أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامَ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ^١:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" "يا" حرف نداء لل قريب والبعيد، وأي نكرة مقصودة، وهما للتنبيه، والاسم الموصول "الَّذِينَ" من صيغ العموم، والفعل: "آمنوا" في سياق الإثبات مطلق يمتد بشعبه وحقيقته الشرعية، جواب النداء: "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ" والفعل "كُتِبَ" من الألفاظ التي تدل على الوجوب بمادتها كفرض، وهو في سياق الإثبات مقيد بقيود: الأول: الجار والمجرور: "عَلَيْكُمْ"، والثاني: نائب الفاعل: "الصِّيَامُ" لأن أصله مفعول به، "الصِّيَامُ": لغة الإمساك عن الشيء مطلقاً، وهو حقيقة شرعية، وهو التبعيد لله تعالى بالإمساك عن الطعام والشراب والشهوة من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، "أل" للعهد، "كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ": "كما كتب": الكاف حرف جر "ما" مصدرية، والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف: كتباً ككتبه، أو حال: مشبهاً كما اختاره سيبويه، والمصدر المنسبك يعم، والتقدير: مثل كتبه على السابقين، والتشبيه للتأنيس والحث على التنافس، "الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ": يعم الأمم السابقة، "قَبْلِكُمْ": نكرة مضافة إلى معرفة تعم، "لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" "لعل" للتعليل، والمعنى: لتتزكى نفوسكم، وتحصلوا على فضيلة التقوى.

^١ سورة البقرة آية (١٨٣-١٨٤)

"أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ" أَيَّامًا: "منصوبٌ بعاملٍ مقدَّرٍ يَدُلُّ عليه سياقُ الكلامِ تقديرُهُ: صوموا أيامًا، وَيَحْتَمِلُ هذا النصبُ وجهين: إمَّا الظرفيةَ وإمَّا المفعولَ به اتساعًا"^١. وأيام نكرة في سياق الإثبات قِيَدَت بالوصف: "مَعْدُودَاتٍ"، وجمع المؤنث السالم يفيد التقليل والتهوين، "وَالْمُرَادُ بِالْأَيَّامِ مَنْ فَقُولِهِ: أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ شَهْرُ رَمَضَانَ عِنْدَ جُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ، وَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنْ رَمَضَانَ بِأَيَّامٍ وَهِيَ جَمْعُ قَلِيلَةٍ وَوَصَفَ بِمَعْدُودَاتٍ وَهِيَ جَمْعُ قَلِيلَةٍ أَيْضًا تَهْوِينًا لِأَمْرِهِ عَلَى الْمُكَلَّفِينَ"^٢.

"فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ": "من" اسم شرط يعم، والفعل "كان" في سياق الشرط مَخَصَّصٌ بخبره: مَرِيضًا، وبما عطف عليه: "أو على سفر"، ولفظ "سَفَرٍ": نكرة في سياق الشرط يعم كل ما يسمَّى سفرًا، ونقدَّر بدلالة الاقتضاء: فأفطر في نهار رمضان، "فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ" أي: فعليه "فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ" فعليه عدة من أيام آخر يصومها قضاء، "وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامَ مِسْكِينٍ" قال الإمام الطبري: في قول الله تعالى: "وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامَ مِسْكِينٍ"، قال: "منسوخٌ بقول الله تعالى ذكره: "فمن شهد منكم الشهر فليصمه"؛ لأن "الهاء" التي في قوله: "وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ"، من ذكر "الصيام" ومعناه: وعلى الذين يطيقون الصيام فدية طعام مسكين. فإذا كان ذلك كذلك، وكان الجميع من أهل الإسلام مجمعين على أن من كان مُطِيقًا من الرجال الأصحاء المقيمين غير المسافرين صَوْمَ

^١ السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج ٢ / ٢٦٨

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢ / ١٦١

شهر رمضان، فغير جائز له الإفطار فيه والافتداء منه بطعام مسكين - كان معلومًا أنَّ الآية منسوخة^١.

"فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" "من" شرطية تعمّ، تَطَوَّعَ: فعل في سياق الشرط يعمّ كل تطوّع، وهو مخصّص بلفظ: خيرًا أي بالإطعام أكثر ممّا وجب عليه، (وخيرًا منصوب بنزع الخافض)، "وَأَنْ تَصُومُوا" المصدر المنسبك من أن والفعل يعمّ، والتقدير صيامكم خير من الإفطار والإطعام، وهذا الحكم قبل النسخ.

:

^١ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٣/٤٣٤

قال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^١:

"شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ": "شَهْرُ رَمَضَانَ": خبر مبتدأ مقدر (ذلكم شهر رمضان) وإضافة لفظ "شهر" للتعريف، "الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ": الاسم الموصول صفة لرمضان، والصفة للتشريف، والفعل "أنزل": في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: فيه، وبنايب الفاعل: القرآن؛ لأن أصله مفعول به، وبالحال: "هُدًى" مصدر ونقدر قبله مضافاً: ذا هدى، و"هُدًى": مقيّد بالجاء والمجرور المتعلّق به: "لِلنَّاسِ"، والناس: عامّ، وبما عطف عليه: "بَيِّنَاتٍ"، وبَيِّنَاتٍ نكرة معطوفة على هدى وهي مقيّدة بالصفة: "مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ"، وأل في الهدى والفرقان للعموم أي: وبَيِّنَاتٍ من الهدى والفرقان الإلهي.

وقد شرف الله تعالى رمضان بإنزال القرآن فيه في أعظم لياليه ليلة القدر، "وَفِي مَعْنَى إِنْزَالِهِ وَجْهَانِ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُ أُنْزِلَ فِيهَا جُمْلَةً إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، كَمَا ثَبَتَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَالثَّانِي: أَنَّ مَعْنَى إِنْزَالِهِ فِيهَا ابْتِدَاءُ نُزُولِهِ كَمَا قَالَ بِهِ بَعْضُهُمْ"^٢.

"فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ": "من" اسم شرط يعمّ كل مكلف استوفى الشروط وانتفت عنه الموانع، "شَهِدَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "الشهر"، وأل

^١ سورة البقرة آية (١٨٥)

^٢ الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مرجع سابق، ج ١/ ٧٤

للعهد والمقصود رمضان، "فَلْيَصُومُوا" الفعل المضارع مقترن بلام الأمر، و"هذا إيجاب حَتْمٍ على من شهد استهلال الشهر -أي كان مقيماً في البلد حين دخل شهر رمضان، وهو صحيح في بدنه -أن يصوم لا محالة. ونَسَخَتْ هذه الآية الإباحة المتقدمة لمن كان صحيحاً مقيماً أن يفطر ويفدي بإطعام مسكين عن كل يوم، كما تقدم بيانه. ولما حَتَّمَ الصيام أعاد ذكر الرخصة للمريض وللمسافر في الإفطار، بشرط القضاء^١، "وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ" "من" اسم شرط يعمّ، والفعل "كان" في سياق الشرط مخصّص بخبره: مريضاً، وبما عطف عليه: "أو على سفر"، "سَفَرٌ": نكرة في سياق الشرط يعمّ كل ما يسمّى سفرًا، وهنا نقدّر بدلالة الاقتضاء: فأفطر، "فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ" أي: فعليه عدة من أيام أخر يصومها قضاء.

"يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ" هذا النص وأمثاله دليل لقاعدة رفع الحرج: المشقة تجلب التيسير، والفعل "يُرِيدُ" في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: "بكم"، وبالمفعول به: "اليُسْرَ"، و"أل" في اليُسْرَ" للاستغراق، والإرادة هنا شرعية، فالله تعالى يريد بناكل يسر، "وَلَا يُرِيدُ" فعل في سياق النفي يعمّ، وهو مخصّص بالجاء والمجرور: "بكم"، وبالمفعول به: "العُسْرَ"، و"أل" في العُسْرَ" للاستغراق والعموم.

"وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ" الواو عاطفة على تعليل مقدّر، والمعنى: شرع لكم ما ذكر؛ ليوَسِّع عليكم ويخفّف عنكم، "وَلِتُكْمِلُوا": فعل قي سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "الْعِدَّةَ" وأل للعهد، أي بقضاء الأيام التي أفطرت فيها تكتمل عدّة الشهر، "وَلِتُكْمِلُوا" الله على ما هَذَاكُمْ والفعل "وَلِتُكْمِلُوا" معطوف على ما سبقه، وهو في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "الله"،

^١ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ١/ ٥٠٣

وبالجارّ والمجرور: "على مَا هَذَاكُمْ"، والحرف "على" يتضمن معنى التعليل، و"ما" مصدرية،
والمصدر المسبب عامّ: على هدايته لكم، والتكبير شعيرة من شعائر الله تعالى، ويبدأ التكبير
من غروب آخر يوم من أيام رمضان؛ حتى تبدأ صلاة العيد، "وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" "وَحُيِّمَتْ
هذه الآية بترجيّ الشكر لأنّ قبلها تيسيراً وترخيصاً"^١، الفعل تشكرون: مقيد بمقدر دلّ عليه
السياق.

^١ السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج ١/٢٨٩

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ

فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾^١:

"وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي": "إِذَا" ظرفية شرطية تعمّ، "سَأَلَكَ": فعل في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: ضمير المخاطب، وبالجارّ والمجرور: "عَنِّي"، "عِبَادِي" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ كلّ العباد على ظاهر الصيغة، ويقويه آخر الآية "فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ"، والأمر بالاستجابة لله تعالى للناس أجمعين تأسيساً، والأمر بالإيمان لغير المؤمنين للتأسيس وللمؤمنين للتوكيد والاستدامة، كما أن التعريف بالله تعالى والدعوة إليه بهذه الآية وأمثالها كقوله تعالى "يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ" له تأثير عظيم في النفوس، وذهب ابن عاشور إلى أنه خاصّ بالمؤمنين، قال: "وَالْعِبَادُ الَّذِينَ أُضِيفُوا إِلَى ضَمِيرِ الْجَلَالَةِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ لِأَنَّ الْآيَاتِ كُلَّهَا فِي بَيَانِ أَحْكَامِ الصَّوْمِ وَلَوَازِمِهِ وَجَزَائِهِ وَهُوَ مِنْ شِعَارِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَذَلِكَ اصْطِلَاحُ الْقُرْآنِ غَالِبًا فِي ذِكْرِ الْعِبَادِ مُضَافًا لِضَمِيرِ الْجَلَالَةِ، وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: "أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِيَ هَؤُلَاءِ" بِمَعْنَى الْمُشْرِكِينَ فَاقْتَضَاهُ أَنَّهُ فِي مَقَامِ تَنْذِيرِهِمْ عَلَى اسْتِعْبَادِهِمْ لِلْأَصْنَامِ"^٢.

"فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ"، أُجِيبُ: فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "دَعْوَةَ"، ولفظ "إِذَا"، ودَعْوَةَ نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ كل دعوة، وهذا العموم مخصوص بالحديث: "ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها أو صرف عنه من السوء مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يعجل يقول: قد دعوت ودعوت فلم

^١ سورة البقرة آية (١٨٦)

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/ ١٧٩

يستجيب لي" رواه الترمذي وحسنه الألباني، ولفظ "الدَّاعِ": صفة صريحة تعم كل داع إذا استوفيت الشروط وانتفت الموانع، "إِذَا دَعَانِ". "إذا" تعم كل وقت يدعو العبد فيه ربه ليلاً أو نهاراً، "التقدير: أُجيبُ دعوته وقت دعائه، فيُحتمل أن تكون مجرد الظرفية وأن تكون شرطية، وحذف جوابها لدلالة "أُجيبُ" عليه".^١

"فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي" الفعلان المضارعان مقترنان بلام الأمر، والأمر للوجوب، وكل واحد منهما مقيد بالجار والمجرور الذي بعده: "لي، بي".

"لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ" هذا تعليل، "يَرْشُدُونَ" فعل في سياق الإثبات غير مقيد. انتهت إلى هنا الساعة الثانية بعد منتصف ليلة عيد الفطر ١٤٣٨ هـ، الموافق: ٢٥/٦/٢٠١٧ م، وذلك في مدينة كوالالمبور ماليزيا، سهل الله تعالى ما بقي.

قال الله تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ هُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾^٢

"أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ": الفعل "أَحِلَّ" يدل بمادته على الإباحة، وقد قيد بالجار والمجرور: لكم، وبالظرف: "لَيْلَةَ الصِّيَامِ"، وبنايب الفاعل: الرفث، وقد "ذَهَبَ

^١ السمين، الدر المصون مرجع سابق، ج ٢/٢٩٠

^٢ سورة البقرة آية (١٨٧)

جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّهُ فِي أَوَّلِ شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ الصَّائِمُ إِذَا أَفْطَرَ حَلَّ لَهُ الْأَكْلُ وَالشُّرْبُ وَالْوَقَاعُ بِشَرْطِ أَنْ لَا يَنَامَ، وَأَنْ لَا يُصَلِّيَ الْعِشَاءَ الْأَخِيرَةَ فَإِذَا فَعَلَ أَحَدُهُمَا حَرَّمَ عَلَيْهِ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَسَخَ ذَلِكَ بِهَذِهِ الْآيَةِ^١، "لَيْلَةَ الصَّيَامِ" "لَيْلَةَ" نَكْرَةٌ مضافة إلى معرفة تعميم كلِّ ليالي الصيام، "الصَّيَامِ" حقيقة شرعية، و"أل" للعهد وهو صيام رمضان، "الرَّفَثُ": "كِنَايَةٌ عَنِ الْجِمَاعِ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَرِيمٌ يَكْنِي، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالسُّدِّيُّ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: الرَّفَثُ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ لِكُلِّ مَا يُرِيدُ الرَّجُلُ مِنَ امْرَأَتِهِ"^٢، "أل" للعموم باعتبار أنواع الرفث القولية والفعلية من همس ولمس، وهو مخصص بالجاء والمجرور: "إِلَى نِسَائِكُمْ"، "نِسَائِكُمْ" نَكْرَةٌ مضافة إلى معرفة تعميم الزوجات والإماء.

"هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ": هذه العبارة مشحونة باللطافة والستر، فقد كُنِيَ باللباس عن شدة المخالطة. والجملة "استئناف كالبيان لسبب الإحلال، وهو أنه إذا كانت بينكم وبينهنَّ مثل هذه المخالطة والملابسة قلَّ صبركم عنهنَّ وصعب عليكم اجتنابهنَّ، فلذلك رخص لكم في مباشرتهنَّ"^٣، "أَيُّ: أَحَلَّ لِعُسْرِ الْإِحْتِرَازِ عَنْ ذَلِكَ"^٤.

"عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ": "عَلِمَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بما سدَّ مسدّ مفعوليها: "أَنَّكُمْ كُنْتُمْ.."، "تَخْتَانُونَ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "أَنْفُسَكُمْ"، وأنفس نكرة مضافة إلى معرفة تعميم المخاطبين، فقد ابتلي كثير منهم بذلك،

^١ الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٥/٢٦٧

^٢ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج ٢/٣١٥

^٣ الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ج ١/٢٣٠

^٤ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/١٨٢

فخفف الله تعالى عنهم، والمعنى: "تظلمونها وتنقصونها حظها من الخير. والاختيان من الخيانة، كاللاكتساب من الكسب فيه زيادة وشدة"^١.

"فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ": "فَتَابَ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "عَلَيْكُمْ"، "وَعَفَا عَنْكُمْ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "عَنْكُمْ"، وهذا تأكيد على أن الرخصة بالرفث ناسخة لعزيمة المنع منه.

"فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ": "فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ": الأمر للإباحة، وهو مقيّد بالظرف: "الآن" وكذلك الأفعال المعطوفة عليه مقيّدة بهذا الظرف، ومفهومه قبل ذلك ليس كذلك.

"وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ" الأمر للإباحة، وهو مقيّد بالمفعول به: "مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ"، "مَا كَتَبَ" "ما" موصول عامّ، والفعل "كتب" مقيّد بالمفعول به: الضمير المقدّر، وبالجارّ والمجرور: "لَكُمْ"، والكتب هنا القضاء الكوني والولد من ذلك، قال الطبري: "وقد يدخل في قوله: "وابتغوا ما كتب الله لكم" جميع معاني الخير المطلوبة، غير أن أشبه المعاني بظاهر الآية قول من قال: معناه وابتغوا ما كتب الله لكم من الولد، لأنه عَقِيبُ قوله: "فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ" بمعنى: جامعوهنّ، فَالآنَ يكون قوله: "وابتغوا ما كتب الله لكم" بمعنى: وابتغوا ما

^١ الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ج ١/٢٣٠

كتب الله في مباشرتكم إياهن من الولد والنسل أشبه بالآية من غيره من التأويلات التي ليس على صحتها دلالة من ظاهر التنزيل، ولا خبرٌ عن الرسول صلى الله عليه وسلم^١.

"وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ":
"كُلُوا، وَاشْرَبُوا" الأمر للإباحة، والفعالان في سياق الإثبات يدلان على الإطلاق إن أنزلناهما منزلة السلازم، وقد قيّدت الأفعال كلّها: "بِاشْرَوْهِنَّ، وَابْتَغُوا، وَكُلُوا، وَاشْرَبُوا" بالغاية: "حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ"، وهذه الغاية قيد لإطلاق الأوامر السابقة، ومفهوم المخالفة: فإذا تبين لكم الفجر فلا تباشروهن ولا تأكلوا ولا تشربوا. الفعل "يَتَبَيَّنَ" في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: "لَكُمْ"، وبالجاء والمجرور: "مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ" وبالحال التي تعلّق به الجاء والمجرور: "مِنَ الْفَجْرِ".

"الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ": "الْخَيْطُ" عامّ مخصّص بالصفة: "الْأَبْيَضُ"، "مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ":
"الْخَيْطُ" عامّ مخصّص بالصفة: "الْأَسْوَدِ"، "مِنَ الْفَجْرِ": الفجر عامّ.

"ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ": فعل الأمر "أَتَمُّوا" للوجوب، وهو مقيّد بالمفعول به:
"الصِّيَامَ"، وبالغاية: "إِلَى اللَّيْلِ"، ويقدر: إلى دخول الليل، وقد بينت الآية هذا المقتضى بدلالة الإشارة في قوله تعالى: "أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ"، وليلة الصيام من غروب الشمس إلى طلوع الفجر.

"وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ"، "وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ" "لا" ناهية، والنهي للتحريم، والفعل في سياق النهي يعمّ كل أنواع المباشرة التي يقصد بها الاستمتاع، وهو مخصّص

^١ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٣/ ٥٠٩

بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالحال: "وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ"، قال الرازي: "لَوْ لَمَسَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ بِغَيْرِ شَهْوَةٍ جَازٍ؛ لَأَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَانَتْ تَرَجُلُ رَأْسَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُعْتَكِفٌ، أَمَّا إِذَا لَمَسَهَا بِشَهْوَةٍ، أَوْ قَبَّلَهَا، أَوْ بَاشَرَهَا فِيمَا دُونَ الْقَرْجِ، فَهُوَ حَرَامٌ عَلَى الْمُعْتَكِفِ، وَهَلْ يَبْطُلُ بِهَا اعْتِكَافُهَا؟ لِلشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِيهِ قَوْلَانِ: الْأَصَحُّ أَنَّه يَبْطُلُ، وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ، لَا يَفْسُدُ الْإِعْتِكَافُ إِذَا لَمْ يُنْزَلْ، اِخْتِجَّ مَنْ قَالَ بِالْإِفْسَادِ أَنَّ الْأَصْلَ فِي لَفْظِ الْمُبَاشَرَةِ مُلَاقَاةُ الْبَشَرَتَيْنِ، فَقَوْلُهُ: وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ مَنَعَ مِنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، فَيَدْخُلُ فِيهِ الْجَمَاعُ وَسَائِرُ هَذِهِ الْأُمُورِ، لِأَنَّ مُسَمَّى الْمُبَاشَرَةِ حَاصِلٌ فِي كُلِّهَا. فَإِنْ قِيلَ: لَمْ حَمَلْتُمُ الْمُبَاشَرَةَ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ عَلَى الْجَمَاعِ؟

قُلْنَا: لِأَنَّ مَا قَبْلَ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْجَمَاعُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ وَسَبَبُ نُزُولِ تِلْكَ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْجَمَاعُ، ثُمَّ لَمَّا أُذِنَ فِي الْجَمَاعِ كَانَ ذَلِكَ إِذْنًا فِيمَا دُونَ الْجَمَاعِ بِطَرِيقِ الْأُولَى، أَمَا هَاهُنَا فَلَمْ يُوجَدْ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْقَرَائِنِ، فَوَجَبَ إِنْقَاءُ لَفْظِ الْمُبَاشَرَةِ عَلَى مَوْضِعِهِ الْأَصْلِيِّ وَحُجَّتُهُ مَنْ قَالَ: إِنَّهَا لَا تُبْطَلُ الْإِعْتِكَافُ: أَجْمَعًا عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْمُبَاشَرَةَ لَا تُفْسِدُ الصَّوْمَ وَالْحَجَّ، فَوَجَبَ أَنَّ لَا تُفْسِدُ الْإِعْتِكَافَ؛ لِأَنَّ الْإِعْتِكَافَ لَيْسَ أَعْلَى دَرَجَةٍ مِنْهُمَا وَالْجَوَابُ: أَنَّ النَّصَّ مُقَدَّمٌ عَلَى الْقِيَاسِ^١.

والأرجح أن المباشرة مراد بها خصوص الجماع؛ لأن السياق في الآية يدل على حكم الجماع في الرفث والاختيان والأمر بالمباشرة، ويقويه القياس، ونقل القرطبي عن ابن عبد البر: وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْمُعْتَكِفَ لَا يُبَاشِرُ وَلَا يُقَبِّلُ، وذكر القرطبي أن القبلة مكروهة وإن كانت

^١ الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٥/٢٧٦

بسهولة^١، وتحريم المباشرة خاص بحال العكوف "في المَسَاجِدِ"، و"أل" في المَسَاجِدِ للاستغراق، فكل المساجد داخلة في هذا العموم، ومفهوم المخالفة إن لم تكونوا عاكفين في المساجد فلا نهي.

"تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا" "حُدُودُ" نكرة مضافة إلى معرفة تعميم، "فَلَا تَقْرُبُوهَا" النهي للتحريم، والفعل في سياق النهي يعم كل اقتراب وتعدّي، وهو مخصص بالمفعول به: الضمير المتصل.

"كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ": الفعل "يُبَيِّنُ" في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: "آيَاتِهِ"، ولفظ "آيَاتِهِ" نكرة مضافة إلى معرفة تعميم، وبالجار والمجرور: "لِلنَّاسِ" "أل" لاستغراق الناس، "لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ" للتعليل، والفعل "يَتَّقُونَ" في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به المقدر.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^٢:

"وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ" هذه الآية أصل من أصول المعاملات المالية في الإسلام، وهي من أشمل النصوص التي ترضى مقصد حفظ المال وهو مقصد ضروري من مقاصد الشريعة. "وَلَا تَأْكُلُوا" النهي للتحريم، والفعل في سياق النهي يعم كل أنواع الأكل، وهو مخصص بالمفعول به: "أَمْوَالَكُمْ"، وأموال نكرة مضافة إلى معرفة تعميم كل أصناف الأموال،

^١ انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج ٢/٣٣٢

^٢ سورة البقرة آية (١٨٨)

وبالظرف: بينكم، وبالجارّ والمجرور: "بالباطل"، ومفهوم المخالفة أن الأكل بالحق غير محظور، "الباطل" صفة صريحة تعمّ كل الطرق الباطلة غير المشروعة، وتوهم إلى علة الحكم. "وتُدلّوا بها إلى الحُكّام" الواو عاطفة للفعل "تُدلّوا" على الفعل المجزوم والتقدير: ولا "تدلّوا" والنهي للتحريم، والفعل في سياق النهي يعمّ كل أنواع الإدلاء، وهو مخصّص بالجارّ والمجرور: "بها"، و"إلى الحُكّام"، وأل في الحُكّام للعموم، وغير الحُكّام من الظلمة كالحكام، قال أبو حيان: "مَعْنَاهُ لَا تَرْشُوا بِالْأَمْوَالِ الْحُكَّامَ؛ لِيَقْضُوا لَكُمْ بِأَكْثَرِ مِنْهَا، قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَهَذَا الْقَوْلُ يَتَرَجَّحُ، لِأَنَّ الْحَاكِمَ مَظْنَةُ الرِّشَاءِ إِلَّا مَنْ عَصَمَ، وَهُوَ الْأَقْلُ، وَأَيْضًا: فَإِنَّ اللَّفْظَيْنِ مُتَنَاسِبَانِ تُدَلُّوا، مِنْ إِزْسَالِ الدَّلْوِ، وَالرِّشْوَةِ مِنَ الرِّشَاءِ، كَأَنَّهَا يُمَدُّ بِهَا لِيُقْضَى الْحَاجَةُ. انْتَهَى كَلَامُهُ. وَهُوَ حَسَنٌ"^١.

"لِتَأْكُلُوا" السلام للتعليل، والجارّ والمجرور مخصّص للفعل: "تدلّوا"، وأما الفعل "تأْكُلُوا" فهو مؤول بالمصدر والتقدير: لأَكُلِ فريقٍ من أموال الناس، فهو نكرة في سياق النهي تعمّ، ويخصّص بالجارّ والمجرور: "بالإثم"، وبالحال: "وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ". ويجوز تقديره: لأكلكم، فيكون نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، ويخصّص بالمفعول به: "فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ"، وبالجارّ والمجرور: "بالإثم"، وبالحال: "وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ"، وعليه فلفظ "فَرِيقًا" نكرة في سياق النهي مخصصة بالصفة التي تعلّق بها الجار والمجرور: "مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ"، "أَمْوَالِ النَّاسِ" "أموال" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ كلّ الأموال، "الناس" عامّ، "بالإثم" الباء سببية، والإثم: حقيقة شرعية شاملة لكل ذنب^٢،

^١ أبو حيان، البحر المحيط، مرجع سابق، ج ٢/ ٢٢٦

^٢ انظر: ابن جزي، محمد بن أحمد التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق: عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، ط ١،

١٤١٦هـ، ج ١/ ٢٢٠

و"أل" للعموم فيشمل التسبب بكل وسيلة محرمة، ومفهوم الموافقة: إذا كان أكل فريق من أموال الناس محرماً فأكل المال كله محرم من باب أولى.

"وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ" الواو حالية، وفائدة هذه الحال التقريع والتشنيع، والفعل "تَعْلَمُونَ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به المقدّر، أي: عالمين إثمه وحرمة متعمّدين.

قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^١:

"يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ": الفعل "يَسْأَلُونَ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجار والمجرور: "عَنِ الْأَهْلِ"، "أل" في الأهلة للعموم، "وإنما جُمِعَ الهلال وإن كان مفرداً اعتباراً باختلاف أزمانه، قالوا من حيث كونه هلالاً في شهر غير كونه هلالاً في آخر. والهلال هذا الكوكب المعروف، اختلف اللغويون: إلى متى يسمى هلالاً؟ فقال الجمهور: يقال له: هلالٌ لثَلَاثَتَيْنِ، وقيل: لثلاثٍ، ثم يكون قمراً، وقيل غير ذلك، وسُمِّي هذا الكوكب هلالاً لارتفاع الأصوات عند رؤيته، وقيل: لأنه من البيان والظهور، أي: لظهوره وقت رؤيته بعد خفائه، ولذلك يُقال: تَهَلَّلَ وَجْهُهُ: ظَهَرَ فِيهِ بَشَرٌ وَسُرُورٌ وإن لم يَكُنْ رَفَعَ صَوْتَهُ"^٢.

"قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ" "قُلْ" أمر للنبي صلى الله عليه وسلم أصالة ولأتمته تبعاً، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ"، مواقيت نكرة

^١ سورة البقرة آية (١٨٩)

^٢ السمين، الدر المصون مرجع سابق، ج ٣٠٣/٢ بتصرف يسير.

في سياق الإثبات مقيّدة بالصفة التي تعلق بها الجار والمجرور: لِلنَّاسِ وَالْحَجَّ، وقد جعلها الله تعالى متغيرة وليست كالشمس؛ لتكون صالحة لتحديد الأوقات بها، "لِلنَّاسِ" يعمّ الناس جميعاً، "وَالْحَجَّ" حقيقة شرعية، وخصّ الحج بالذكر؛ لأنه من أعظم الشعائر المحتاجة إلى التوقيت بالأهلة "الحج أشهر معلومات"، و"أل" في الحج للعموم.

"وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا": "الْبِرُّ" "أل" للعموم، "بِأَنْ تَأْتُوا": المصدر المؤول: بإتيانكم للعموم، وخصّص بالمفعول به: "الْبُيُوتَ" "أل" للعموم، وبالجار والمجرور: "مِنْ ظُهُورِهَا"، "ظُهُورِهَا" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ كلّ ظهور البيوت، "كان قوم إذا رجعوا من الحج لم يدخلوا بيوتهم من أبوابها، وإنما يدخلون من ظهورها، ويقولون: لا يحول بيننا وبين السماء شيء وقيل: المعنى ليس البر أن تسألوا عن الأهلة وغيرها مما لا فائدة لكم فيه، فتأتون الأمور على غير ما يجب، فعلى هذا البيوت وأبوابها وظهورها استعارة: يراد بالبيوت المسائل، وبظهورها السؤال عما لا يفيد، وأبوابها السؤال عما يحتاج إليه"^١.

"وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَآتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا": "الْبِرُّ" "أل" للعموم، "مَنْ اتَّقَى" "من" موصول عامّ، والفعل "اتقى" في سياق الإثبات منزّل منزلة اللازم، "وَآتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا": الأمر للوجوب، والفعل "وَآتُوا" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "الْبُيُوتَ" "أل" للعموم، وبالجار والمجرور: "مِنْ أَبْوَابِهَا"، "أَبْوَابِهَا": نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ كلّ أبواب البيوت.

"وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" "اتَّقُوا" أمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: لفظ الجلالة، "لَعَلَّ" للتعليل، "تُفْلِحُونَ" فعل لازم في سياق الإثبات مطلق.

^١ ابن جزى، التسهيل، مرجع سابق، ج ١/ ١١٢

قال الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

الْمُعْتَدِينَ﴾^١:

"وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ": فعل الأمر "قَاتِلُوا" للوجوب، وهذا الفعل في سياق الإثبات مقيّد بقيدين: الأول: بالجار والمجرور: "فِي سَبِيلِ اللَّهِ" أي "فِي طَاعَتِهِ وَطَلَبِ رِضْوَانِهِ"^٢، ومفهومها في غير سبيله لا تقاتلوا، والقيد الثاني المفعول به: "الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ"، والموصول يعمّ كل من يقاتلوننا، "يُقَاتِلُونَكُمْ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، ومفهومه الذين لا يقاتلوننا لا نقاتلهم.

"وَلَا تَعْتَدُوا" النهي للتحريم، والفعل في سياق النهي يعمّ، "إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ" في هذه الجملة تحذير وتنفير من الاعتداء، "لَا يُحِبُّ" الفعل في سياق النفي يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: "الْمُعْتَدِينَ"، فلا حب لهم عند الله تعالى، والْمُعْتَدِينَ: صفة صريحة مقترنة بـ"أَل" تعمّ كلّ معتد، وتومئ إلى علة الحكم، وهي: "الاعتداء"، والله لا يحبّ المعتدي وإن كان مسلماً.

^١ سورة البقرة آية (١٩٠)

^٢ الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٥/٢٨٨

قال الله تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾^١:

"وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ": "اقْتُلُوهُمْ" الأمر يدلّ على وجوب قتال الذين يقاتلوننا، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالظرف: "حَيْثُ"، والظرف يعمّ كلّ مكان، الفعل "ثَقِفْتُمُوهُمْ": في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، أي: أينما وجدتموهم، قال الطبري: "اقتلوهم في أي مكان تمكنتم من قتلهم، وأبصرتهم مقاتلهم"^٢.

"وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ" الأمر بالمعاملة بالمثل للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجار والمجرور: "مِنْ حَيْثُ.."، أَخْرَجُوكُمْ: الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، فقد أخرجوا المسلمين من ديارهم من مكة ظلما وعدوانا، "وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ" أصل الفتنة الابتلاء والاختبار^٣، وأل في الفتنة للعهد، والفتنة في هذا الموضع حقيقة شرعيّة وتعني الشرك كما قال أبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضحاك، والربيع ابن أنس في قوله: "وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ" يقول: الشرك أشد من القتل^٤، وهذا دليل على أن حفظ الدين مقدّم على حفظ النفوس.

^١ سورة البقرة آية (١٩١)

^٢ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٣/٥٦٤

^٣ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٣/٥٦٥

^٤ انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ١/٥٢٥

"وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ" "وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ" النهي للتحريم، والفعل في سياق النهي للعموم، وقد خصص هذا العموم بثلاثة محصلات متصلة: الأول المفعول به: الضمير المتصل، والثاني: الظرف: "عند المسجد الحرام"، وأل في المسجد للعهد، والحرام صفة كاشفة للتعظيم، والثالث الغاية: "حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ"، والفعل "يقاتلوكم" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجار والمجرور: "فيه".

قال القرطبي^١: "لِلْعُلَمَاءِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا - أَكْثَرُهَا مَنْسُوخَةٌ، وَالثَّانِي - أَكْثَرُ مُحْكَمَةٌ. قَالَ جُهَاذٌ: الْآيَةُ مُحْكَمَةٌ، وَلَا يُجُوزُ قِتَالُ أَحَدٍ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُقَاتَلَ، وَبِهِ قَالَ طَاوُوسٌ، وَهُوَ الَّذِي يُفْتَضِيهِ نَصُّ الْآيَةِ، وَهُوَ الصَّحِيحُ مِنَ الْقَوْلَيْنِ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ. وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ مُجَرَّمَةٌ لِلَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ".

"فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ": الفعل "قَاتَلُوكُمْ" في سياق الشرط مخصّص بالمفعول به: الضمير المتصل، "فاقتلوههم" الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، "الكَافِرِينَ" صفة صريحة تعمّم، وتومئ إلى علة الحكم. ومفهوم الشرط: إن لم يقاتلوكم فلا تقتلوههم.

^١ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق ج ٢/٣٥١

قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^١:

هذا فتح لباب التوبة وترغيب فيها، "فَإِنْ أَنْتَهَوْا" الفعل في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بمقدّر دلّ عليه السياق، ومفهوم الشرط: إن لم ينتهوا فإنهم آثمون معذبون.

قال الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^٢:

"وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ" "وَقَاتِلُوهُمْ" الأمر بقتالهم للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بقيدين: الأول: المفعول به: وهو الضمير المتصل، والثاني: "حَتَّى"، و"حتى" في هذا الموضع الظاهر أنها للتعليل بمعنى كي، ويجوز أن تكون للغاية^٣، "حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ"، تحقيقاً لمقصد حفظ الدين، "حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ": والفعل "تَكُونَ": فعل تامّ بمعنى توجد، فهو في سياق النفي يدلّ على العموم، "فِتْنَةٌ": نكرة في سياق النفي تعمّ كلّ فتنة أي شرك. "وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ": الفعل "يكون" تامّ في سياق الإثبات مقيّد بالجار والمجرور: "لِلَّهِ"، وألّ في "الدِّينُ" للعهد أي الإسلام.

"فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ": "فَإِنْ أَنْتَهَوْا" الفعل في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بمقدّر دلّ عليه السياق، "فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ": "عُدْوَانَ" نكرة في سياق لا النافية للجنس نصّ في العموم، فيعمّ كلّ أنواع العدوان بالقول والفعل، والنفي هنا بمعنى النهي والمعنى فلا تعتدوا عليهم، وخبر لا مقدّر: عليهم، "إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ": "إلا"

^١ سورة البقرة آية (١٩٢)

^٢ سورة البقرة آية (١٩٣)

^٣ انظر: السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج ٢/٣٠٩

حاصرة، "عَلَى الظَّالِمِينَ": بدل بإعادة العامل. "الظَّالِمِينَ" صفة صريحة مقرونة بـ"أَل" تعم كل ظالم، وتومئ إلى علة الحكم.

قال الله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^١:

"الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ" "أَل" للاستغراق إن قلنا العبرة بعموم اللفظ، قال الإمام الشوكاني: "إذا قاتلوكم في الشهر الحرام، وهاكوا حرمة قاتلتموهم في الشهر الحرام مكافأة لهم، ومجازاة على فعلهم"^٢، أو للعهد إن أخذنا بسبب النزول، قال السمين في قول الله تعالى: "الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ": "مبتدأ خبره الجار بعده، ولا بُدَّ من حذف مضافٍ تقديره: انتهاك حرمة الشهر الحرام بانتهاك حرمة الشهر، والألف واللام في الشهر الأول والثاني للعهد؛ لأنهما معلومان عند المخاطبين، فإنَّ الأول ذو القعدة من سنة سبع، والثاني من سنة ست"^٣.

قال الإمام الطبري: "يعني ذا القعدة، الذي أوصلكم الله فيه إلى حرمة وبيته، على كراهة مشركي قريش ذلك؛ حتى قضيت منه وطركم "بالشهر الحرام"، الذي صدكم مشركو قريش العام الماضي قبله فيه حتى انصرفتم عن كره منكم عن الحرم"^٤.

والْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ "الْحُرُمَاتُ" "أَل" للاستغراق، وهي جمع حُرْمَةٍ، وهي حقيقة شرعية لكل ما جعل الله تعالى له حدًّا لا يجوز تعديه، فمن انتهك الحرمات فجزاؤه القصاص، وهو: "من باب عطف العام على الخاص، أي: كل شيء يحترم من شهر حرام، أو بلد حرام،

^١ سورة البقرة آية (١٩٤)

^٢ الشوكاني، فتح القدير، مرجع سابق، ج ١/٢٢١

^٣ السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج ٢/٣٠٩

^٤ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٣/٥٧٥

أو إحرام، أو ما هو أعمّ من ذلك، فيعمّ جميع ما أمر الشرع باحترامه، فمن تجرأ عليها فإنه يقتص منه، فمن قاتل في الشهر الحرام، قاتل، ومن هتك البلد الحرام، أخذ منه الحدّ، ولم يكن له حرمة، ومن قتل مكافئاً له قتل به، ومن جرحه أو قطع عضواً، منه، اقتص منه^١.

"فَمَنْ اَعْتَدَى عَلَيْكُمْ": "من" اسم شرط عامّ، "اَعْتَدَى": فعل في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص وبالجار والمجرور: "عَلَيْكُمْ"، "فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اَعْتَدَى عَلَيْكُمْ" "فَاعْتَدُوا" الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بقيدين: الأول: بالجار والمجرور: "عَلَيْهِ" أي ومفهومه عليه لا على غيره، والقيد الثاني: "بِمِثْلِ مَا اَعْتَدَى"، فالمنطوق يدلّ على وجوب المماثلة في الاقتصاص، ومفهومه: من غير زيادة ولا نقصان، "مَا" مصدرية، والفعل "اَعْتَدَى" مؤول بمصدر، والتقدير: بمثل اعتدائه، واعتداء نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، وهو مخصّص: بالجار والمجرور: "عَلَيْكُمْ".

"وَاتَّقُوا اللَّهَ" الأمر للوجوب، وهو فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: لفظ الجلالة، "وَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ" "وَاَعْلَمُوا" الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بما سدّ مسدّ المفعولين: "أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ" أي أيقنوا بأن الله مع المتقين، و"الْمُتَّقِينَ" صفة صريحة تعمّ كلّ متقٍ.

^١ السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ج ١/ ٨٩

قال الله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ

يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^١:

"وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ": الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بقيدين: الأول: المفعول به المقدّر، والثاني: الجار والمجرور: "فِي سَبِيلِ اللَّهِ"، وسبيل نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ "سائر وجوه القُرْبَات ووجوه الطاعات، وخاصّة صرف الأموال في قتال الأعداء وبذلها فيما يَقْوَى به المسلمون على عدوهم"^٢. ومفهومه لا في سبيل غير الله، فلا صلاح لأحوال الناس ولا حفظ لمصالحهم إلا بالتعاون على البر والتقوى، وحسن الإنفاق في سبيل الله تعالى بوضعها في الأهم فالأهم، فيبدأ بالضروريات، فالحاجيات، فإن تعارضت الضروريات قدّم الإنفاق لحفظ الدين على غيره، ثمّ حفظ الأنفس فالعقول فالنسل، والعرض، والإنفاق معيار صادق ومؤشر دقيق على رشد الإنسان أو سفهه، وعلى رشد الأسرة أو سفهها، وعلى رشد المؤسسة أو سفهها وعلى رشد الدولة أو سفهها.

"وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ": "لَا تُلْقُوا" النهي للتحريم، والفعل في سياق النهي للعموم، وقد خصص هذا العموم بشيئين: الأول: الجار والمجرور: "بِأَيْدِيكُمْ"، "أَيْدِيكُمْ" أنفسكم، من إطلاق الجزء وإرادة الكلّ، وهي نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، الثاني: "إِلَى التَّهْلُكَةِ"، "التَّهْلُكَةِ" الهلاك، وذلك بترك ما أوجبه الله تعالى كالجهاد بالمال والأنفس، وبتقحم ما نهى الله عنه كاتباع سنن المجرمين ومناصرة أعداء الدين، وتوريط المسلمين فيما ضرّه أكبر من نفعه.

^١ سورة البقرة آية (١٩٥)

^٢ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ١/ ٥٣٠

"وَأَحْسِنُوا" الأمر للوجوب حقيقة وللدب مجازاً، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بمقدّر عامّ وأحسنوا كلّ شيء تعملونه كما يبيّنه السنّة: "إن الله كتب الإحسان على كلّ شيء"، "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ": "يُحِبُّ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "الْمُحْسِنِينَ"، وهو صفة صريحة تعمّ كلّ محسن، وتومئ إلى العلة، وهي الإحسان، "أحسنوا أيها المؤمنون في أداء ما ألزمتكم من فرائضي، وتجنّب ما أمرتكم بتجنبه من معاصي، ومن الإنفاق في سبيلي، وعوّد القوي منكم على الضعيف ذي الخلة"^١.

قال الله تعالى: ﴿وَأَتُمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِفُوا زُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^٢:

"وَأَتُمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ": "أَتُمُّوا" الأمر بإتمام "الحجّ والعُمْرَة" للوجوب، والإتمام الإتيان بالشيء جميعه^٣، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به وما عطف عليه: "الحجّ والعُمْرَة"، وبالجار والمجرور: "لِلَّهِ"، "والْحَجَّ فِي اللَّعَةِ الْقَصْدِ وَإِنَّمَا يُقَالُ: حَجَّ فُلَانٌ الشَّيْءَ إِذَا فَصَدَهُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، وَأَدَامَ الْإِخْتِلَافَ إِلَيْهِ"^٤، والعمرة الزيارة.

^١ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٢ / ٥٩٥

^٢ سورة البقرة آية (١٩٦)

^٣ انظر: التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢ / ٢١٧.

^٤ الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٥ / ٢٩٦.

و"أل" في الحج والعمرة للعموم، فيجب على كل مكلف إتمام الحج والعمرة إذا شرع فيهما^١، والحج والعمرة حقيقتان شرعيتان معلومتان، "لِلَّهِ" لوجه الله تعالى، ومفهومه أتموهما لله لا لغيره.

"فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ"، أصل الإحصار والحصار: الحبس والمنع بأي سبب، وفصله ابن عاشور بقوله: "الإحصار في كلام العرب منع الذات من فعل ما، يُقَالُ: أَحْصَرَهُ مَنْعُهُ مَانِعٌ وَهُوَ فِعْلٌ مَهْمُوزٌ لَمْ تُكْسِبْهُ هَمْزُهُ تَعْدِيَّةً، لِأَنَّهُ مُرَادِفٌ حَصَرَهُ وَنَظِيرُهُمَا صَدَّهُ وَأَصَدَّهُ.

هَذَا قَوْلُ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ أَئِمَّةِ اللُّغَةِ، وَلَكِنْ كَثُرَ اسْتِعْمَالُ أَحْصَرَ الْمَهْمُوزِ فِي الْمَنْعِ الْحَاصِلِ مِنْ غَيْرِ الْعَدُوِّ، وَكَثُرَ اسْتِعْمَالُ حَصَرَ الْمُجَرَّدِ فِي الْمَنْعِ مِنَ الْعَدُوِّ، قَالَ: وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ [التَّوْبَةُ: ٥] فَهُوَ حَقِيقَةٌ فِي الْمَعْنَيْنِ وَلَكِنَّ الْإِسْتِعْمَالَ غَلَبَ أَحَدُهُمَا فِي أَحَدَهُمَا^٢، وفسره الطبري بقوله: "إِنْ أَحْصَرَ كُمْ خَوْفٌ عَدُوٍّ أَوْ مَرَضٌ أَوْ عِلَّةٌ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْبَيْتِ"^٣.

"فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ"، الفعل في سياق الشرط يعم كل إحصار، "فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ"، الفاء واقعة في جواب الشرط، وبعدها مبتدأ تقديره: الواجب وخبره الاسم الموصول: "مَا"، والموصول يعم، والفعل "استيسر" في سياق الإثبات مقيد بالحال التي تعلق بها الجار والمجرور: "مِنَ الْهَدْيِ"، "أل" في "الهدْي" للعموم، والهدْي: والهدْي حقيقة شرعية، وهو كل ما يصح أن يهدى شرعاً من الغنم والبقر والإبل، فالواجب ذبح ما استيسر من الهدْي، "وهو سبع بدنة، أو سبع بقرة، أو شاة يذبحها المحصر، ويخلق ويحلل من إحرامه بسبب الحصر كما فعل النبي

^١ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٢٠/٣.

^٢ التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢ / ٢٢٢.

^٣ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٢٥/٣.

صلى الله عليه وسلم وأصحابه، لما صدهم المشركون عامَ الحديبية، فإن لم يجد الهدى، فليصم بدله عشرة أيام كما في المتمتع ثم يحل^١، ومفهوم مخالفة: وإن لم تحصروا فأتموا الحج والعمرة.

"وَلَا تَحْلِفُوا رُءُوسَكُمْ" النهي عن الحلق للتحريم، والفعل في سياق النهي للعموم، وقد خصّص بشيئين: الأول: المفعول به: "رُءُوسَكُمْ"، ورؤوس نكرة مضافة إلى معرفة تعم رؤوس كلٍّ محرم بالحج أو العمرة، والنصّ وارد في حلق شعر الرأس للتحلل من الإحرام، والمخصّص الثاني: الغاية "حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ"، والفعل "يبلغ" مؤول بالمصدر المضاف إلى معرفة فهو عامّ، والتقدير: حتى بلوغ الهدى محلّه، وهذا المصدر المؤول مخصّص بالمفعول به: "مَحَلَّهُ"، وأل في "الْهَدْيُ" للعموم العرفي، ولفظ "مَحَلَّهُ": نكرة مضافة إلى معرفة تعم كلَّ محلٍّ يحلّ إنهار دم الهدى فيه، والمحلّ للمحصّر بعدوّ حيث حصر كما فعل رسول الله في الحديبية، وأما المريض فيبعث بهديه إلى الحرم.

"فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ" "مَنْ" اسم شرط يعمّ كلَّ من كان مريضاً أو به أذى من رأسه، "أَذًى": نكرة في سياق الشرط تعمّ، وقد خصّصت بالصفة التي تعلّق بها الجارّ والمجرور: "مِنْ رَأْسِهِ"، رأس نكرة مضافة إلى معرفة تعم رؤوس المترخصين، "فَفِدْيَةٌ": الفدية "الجزاء والبدل"^٢، والسياق يوجب بدلالة الاقتضاء تقدير مقدّرات، والمعنى: ففعل محظوراً من محظورات الإحرام (كحلق شعر الرأس أو إزالة الشعر بغير الحلق، واستعمال الدواء الذي فيه طيب) فعليه فدية أو فالواجب "فِدْيَةٌ"، وفدية نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالصفة التي تعلّق بها الجارّ والمجرور: "مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ"

^١ تفسير السعدي ج ١/ ٩٠

^٢ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٣/ ٧٠

أَوْ نُسْكَ"، قال السمين: "وفي النُّسْك قولان، أحدهما: أنه مصدرٌ يقال: نَسَكَ يَنْسُكُ نُسْكَاً ونُسْكَاً بالضم، والإِسْكَان. والثاني: أنه جمع نَسِيكة، قال ابن الأعرابي: النَّسِيكة في الأصل سَبِيكة الفضة، وتُسَمَّى العبادة بها لأنَّ العبادة مُشَبَّهَةٌ سَبِيكة الفِضَّة في صفائها وُحُلوصِها من الآثام، وكذلك سُمِّي العابدُ ناسِكاً، وقيل للذَّبيحة نَسِيكة لذلك"^١.

والألفاظ: صِيَامٌ وصدقةٌ ونسكٌ نكرات في سياق الإثبات تفيد الإطلاق، وهي حقائق شرعية يَبْتَنِيها السنة كما في صحيح البخاري عن كعب بن عُجرة قال: أتى عَلِيَّ النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أوقد تحت قدر، والقَمْلُ يتناثرُ على وجهي -أو قال: حاجبي - فقال: "يُؤْذِيكَ هَوَامُّ رَأْسِكَ؟". قلت: نعم. قال: "فاحلقه، وصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، أو انسك نسيكة"، والنسيكة الذبيحة. وهذه الفدية فيمن له عذر كالمرض والتأدي من القمل أو غيره، وأما من فعل محظوراً من محظورات الإحرام بغير عذر فعليه عند الإمام الشافعي وأبي حنيفة دَمٌ (نسيكة) وأما الإمام مالك فألْحَقَ مَنْ تَعَمَّدَ ففعل المحذور بلا عذر بمن له عذر في الفدية بصيام ثلاثة أيام أو إطعام ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع، أو ذبح شاة.

"فَإِذَا أَمِنْتُمْ": "إِذَا" شرطية ظرفية تعمّ، والفعل في سياق الشرط يعمّ، ويخصّص بمقدّر دلّ عليه السياق أي أمنت من خوف ما أحصرتم به، "فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ" "مَنْ" شرطية تعمّ، والفعل "تَمَتَّعَ" في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بالجار والمجرور في الموضعين: "بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ"، والتمتع حقيقة شرعية، والعمرة والحجّ حقيقتان شرعيتان، قال الرازي: "التَّمَتُّعُ التَّلَذُّدُ، يُقَالُ: تَمَتَّعَ بِالشَّيْءِ أَيَّ تَلَذَّذَ بِهِ، وَالتَّمَتَّاعُ: كُلُّ شَيْءٍ

^١ السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج ٢/٣١٧

يُتَمَتَّعُ بِهِ، وَأَصْلُهُ مِنْ قَوْلِهِمْ: حَبْلٌ مَاتَعَ أَيُّ طَوِيلٌ، وَكُلُّ مَنْ طَالَتْ صُحْبَتُهُ مَعَ الشَّيْءِ، فَهُوَ مُتَمَتَّعٌ بِهِ، وَالْمُتَمَتَّعُ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ هُوَ أَنْ يُقَدَّمَ مَكَّةَ فَيَعْتَمِرَ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ، ثُمَّ يُقِيمَ بِمَكَّةَ حَالًا لَا يُنْشِئُ مِنْهَا الْحَجَّ، فَيَحُجُّ مِنْ غَايَةِ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ مُتَمَتَّعًا؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ مُسْتَمْتَعًا بِمَحْظُورَاتِ الْإِحْرَامِ فِيمَا بَيْنَ تَحْلُلِهِ مِنَ الْعُمْرَةِ إِلَى إِحْرَامِهِ بِالْحَجِّ^١.

"مَا اسْتَيْسَرَ" الاسم الموصول يعمّ، وهو خبر لمقدّر مثل: الواجب ما استيسر، والفعل "استيسر" في سياق الإثبات مقيّد بالحال التي تعلّق بها الجارّ والمجرور: "مِنَ الْهُدْيِ"، "أَل" في "الْهُدْيِ" للعموم، والهدي حقيقة شرعيّة: شاة أو سبع بدنة أو سبع بقرة، "فَمَنْ لَمْ يَجِدْ" "مَنْ" شرطية أو موصولة تعمّ، "لَمْ يَجِدْ": الفعل في سياق النفي يعمّ، وهو مخصّص بمقدّر: شيئًا يهديه.

"فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ": فالواجب عليه بدلًا عن الهدي صيام ثلاثة أيام في أيام الحج، وسبعة أيام إذا رجع إلى أهله، ولفظ "صِيَامُ" نكرة مقيّدة بما أضيفت إليه، وبالجارّ والمجرور المتعلقين به: "فِي الْحَجِّ"، وأيام نكرة مطلقة، "وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ": معطوف على ثلاثة، ولفظ "إذا" ظرف لما يستقبل من الزمن لِمَحْضِ الظرفية، "رَجَعْتُمْ" فعل في سياق الإثبات. "تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ" لفظ كاملة للتوكيد والتنصيص على إتمام العدد المذكور.

"ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ": "ذَلِكَ": إشارة إلى أَقْرَبِ شَيْءٍ فِي الْكَلَامِ، وَهُوَ هَدْيُ التَّمَتُّعِ أَوْ بَدَلُهُ وَهُوَ الصِّيَامُ، وَهَذَا قَوْلُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَالْجُمْهُورِ،

^١ الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٥/ ٣٠٧

فَلِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمَا عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ هَدْيٌ فِي التَّمَتُّعِ وَالْقِرَانِ"¹، وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: "إِنَّ قَوْلَهُ: ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى الْأَبْعَدِ، وَهُوَ التَّمَتُّعُ، وَعِنْدَهُ لَا مُتَعَةٌ وَلَا قِرَانٌ لِحَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَنْ تَمَتَّعَ أَوْ قَرَنَ مِنْ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَانَ عَلَيْهِ دَمٌ هُوَ دَمُ جَنَائَةٍ لَا يَأْكُلُ مِنْهُ"²، "مَنْ" مَوْصُولٌ يَعْمُ، "أَهْلُهُ" نَكْرَةٌ مِضَافَةٌ إِلَى مَعْرِفَةِ تَعَمُّمٍ، وَالْمُرَادُ بِهِ الْمُحَرِّمُ نَفْسُهُ؛ لِأَنَّ الْغَالِبَ فِي حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ يَكُونَ أَهْلُهُ مِنْ "حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ"، وَقَدْ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي الْمَقْصُودِ بِهَذَا الْوَصْفِ، فَقَالَ مَالِكٌ: هُمْ أَهْلُ مَكَّةَ خَاصَّةً، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ مَنْ يَكُونُونَ دُونَ مَسَافَةِ الْقَصْرِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ؛ لِأَنَّ الْحَاضِرَ خِلَافَ الْمَسَافِرِ، وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: هُمْ أَهْلُ الْمَوَاقِيتِ وَمَنْ يَسْكُنُونَ دُونَ الْمَوَاقِيتِ، وَالْمَوَاقِيتُ هِيَ دُو الْخُلَيْفَةِ وَالْجُحْفَةُ وَقَرْنٌ وَيَكْمَلُمُ وَذَاتُ الْعِرْقِ³.

"وَاتَّقُوا اللَّهَ" الْأَمْرُ لِلْوَجُوبِ، وَالْفِعْلُ فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ مَقِيدٌ بِالْمَفْعُولِ بِهِ: لَفْظُ الْجَلَالَةِ. "وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ" الْأَمْرُ لِلْوَجُوبِ، وَالْقَصْدُ مِنْهُ التَّخْوِيفُ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْفِعْلُ فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ مَقِيدٌ بِمَا سَدَّ مَسَدَّ الْمَفْعُولِينَ، وَالْعِقَابُ: أَلٌ لِلْعُمُومِ.

اللهم آتِ نفوسنا تقواها، واغفر لنا وارحمنا وقنا عقابك وعذابك.

¹ التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢ / ٢٢٩ - ٢٣٠، بتصرف يسير.

² الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٥ / ٣١٢

³ انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٥ / ٣٠٧

قال الله تعالى: ﴿الْحُجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحُجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحُجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾^١:

"الحُجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ": يقدر أهل اللسان محذوفاً مثل: ميقات الحج، والحج حقيقة شرعية، وأل فيه للعموم، "أَشْهُرٌ": نكرة في سياق الإثبات مقيدة بالصفة، ومق دارها "شهران وبعض الثالث، وهو شوال وذو القعدة وعشر ذي الحجة"^٢، "فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحُجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحُجِّ": "مَنْ" شرطية تعم، "فَرَضَ": فعل في سياق الشرط يعم، وهو مخصّص بالجارّ والمجرور: "فِيهِنَّ"، وبالمفعول به: الحج، ومعنى فرض: أحرم بالحج ودخل فيه.

"فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحُجِّ": "رَفَثٌ، وَفُسُوقٌ وَجِدَالٌ": نكرات في سياق "لا" النافية للجنس فهي تعم كل رفث وفسوق وجدال تنصيماً والنفي هنا بمعنى النهي، و"الرفث هو الجماع ومقدماته الفعلية والقولية، خصوصاً عند النساء وبحضورهن، والفسوق وهو: جميع المعاصي، ومنها محظورات الإحرام، والجدال وهو: المماراة والمنازعة والمخاصمة، لكونها تثير الشر، وتوقع العداوة"^٣، "فِي الْحُجِّ": الحج حقيقة شرعية، وأل فيه للعموم.

"وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ"، "ما" شرطية تعم، والفعل "تَفْعَلُوا" في سياق الشرط يعم، وهو مخصّص بالمفعول به: "ما" الموصولة المتقدمة، والجارّ والمجرور: "مِنْ خَيْرٍ"، متعلقان

^١ سورة البقرة آية (١٩٧)

^٢ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٤/١٢١

^٣ السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ج ١/٩١

بصفة مخصصة للاسم الموصول، "خير" نكرة في سياق الشرط تعم كل خير، "يَعْلَمُهُ اللَّهُ":
الفعل في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به وهو الضمير المتصل، والجملة للترغيب والتحييب.

"وَنَزَوْدُوا": الأمر بالتزود للوجوب؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والفعل
"نَزَوْدُوا" في سياق الإثبات مقيد بمقدّر حذف لإرادة عموم كل ما يعين على أداء مناسك
الحج، "فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى" "الزاد" "أل" للاستغراق، "التقوى" حقيقة شرعية، وهي فعل ما
أمر الله تعالى به وترك ما نهى عنه، "وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ" الأمر للوجوب، والفعل في سياق
الإثبات مقيد بالمفعول به وهو "الياء" المحذوفة للتخفيف، "أُولِي الْأَلْبَابِ": نكرة مضافة إلى
معرفة تعم كل أصحاب العقول الخالصة من الزيغ والسفه، ولفظ "الألّباب": أل فيه للعموم،
والخطاب موجه إلى أولي العقول الراشدة تحريضاً للمؤمنين وتعريضاً بالمعرضين الغافلين.

قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ
عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ *
ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^١:

"لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ": "جُنَاحٌ" نكرة في سياق النفي تعم
كل جناح، وهو مخصّص بالجارّ والمجرور المتعلقين به المقدّر.

"أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ": المصدر المؤول في محلّ جرّ بـ في مقدرة، والتقدير: "في
ابتغائكم فضلاً مِنْ رَبِّكُمْ"، المصدر المؤول: نكرة مضافة إلى معرفة تعم، وهو مخصّص بالمفعول

^١ سورة البقرة الآيتان (١٩٨-١٩٩)

به: "فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ"، وفضلاً: نكرة في سياق النفي بـ"ليس" تعمّ، مخصصة بالصفة التي تعلق بها الجارّ والمجرور: "مِنْ رَبِّكُمْ"، والمقصود به التجارة والإجارة أيام الحج وما شابههما.

"فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ"، "إِذَا" شرطية ظرفية عامّة، "أفَضْتُمْ" فعل في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بالجارّ والمجرور: "مِنْ عَرَفَاتٍ"، ومعناه: دفعتم وانطلقتم من عرفات بعد الوقوف فيها، "وَالْإِفَاضَةُ الْخُرُوجُ بِسُرْعَةٍ وَأَصْلُهَا مِنْ فَاضَ الْمَاءُ إِذَا كَثُرَ عَلَى مَا يَحْوِيهِ فَبَرَزَ مِنْهُ وَسَالَ"^١، "اذْكُرُوا" ظاهر الأمر الوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "الله"، وبالظرف: "عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ" و"الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ" المزدلفة، ومفهوم الظرف لا تذكروا أيها المفيضون من عرفات في مكان غير المشعر الحرام كما بيّنته السنة.

"وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ": "وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ" الواو عاطفة على الأمر الأول، والعطف يقتضي التغاير، والفعل "اذْكُرُوهُ" في سياق الإثبات مقيّد بثلاثة قيود: الأول: المفعول به: الضمير المتصل، والثاني: "الكاف وما جرّ بها"، والكاف للتعليل، والمعنى اذكروه شكرًا على هدايته لكم، والثالث: الحال: "وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ": "مِنْ قَبْلِهِ" أي من قبل الهدى الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم، "الضَّالِّينَ": صفة صريحة مقرونة بـ"أل" تعمّ، "تُمْ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ" "أَفِيضُوا" الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "من حيث"، وحيث ظرفية عامّة، "أَفَاضَ" فعل في سياق الإثبات مطلق، ولفظ "النَّاسُ" للعموم، والمخاطب بالأمر "هم قريش ويسمون "الْحُمُسَ" ومن تبعهم من المتحمّسين كانوا يقفون بالمزدلفة ولا يقفون مع سائر

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/ ٢٣٨

الناس في عرفات؛ لأن المزدلفة من الحرم، وعرفات خارج حدود الحرم، ويقولون: نحن أهل الحرم لا نقف إلا بالحرم، فأمرهم الله تعالى أن يقفوا بعرفة مع الناس ويفيضوا منها، وقد كان النبي صلى الله عليه واله وسلم قبل ذلك يقف مع الناس بعرفة توفيقاً من الله تعالى له^١، "وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ" الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: لفظ الجلالة، وبالجارّ والمجرور المقدّر: من كل ذنب، "إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" للتبشير والترغيب.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾^٢:

"فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ" "إذا" شرطية ظرفية تعمّ، "قَضَيْتُمْ" قضى بمعنى أتى بما عليه وأنجزه، والفعل في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: "مَنَاسِكَكُمْ"، ومناسك نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ جميع المناسك، "فَاذْكُرُوا اللَّهَ" الأمر للوجوب في الذكر الواجب وللندب في المندوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: لفظ الجلالة، وبالجارّ والمجرور وما عطف عليه: "كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا"، "كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ": "ذكر" مصدر مضاف إلى الضمير يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: "آبَاءَكُمْ"، وآباء نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، "أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا": أشدّ حال تقدّمت على صاحبها؛ لأنها كانت صفة لـ"ذكر".

"فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ": "فَمِنَ النَّاسِ" "من" للتبعية، "الناس" عامّ، "مَن يَقُولُ" "من" موصول عامّ، والفعل "يَقُولُ" في سياق الإثبات مقيّد بمقوله: "رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا" والفعل للدعاء، وهو في سياق الإثبات مقيّد

^١ انظر: ابن جزي، التسهيل، مرجع سابق، ج ١/١١٥

^٢ سورة البقرة آية (٢٠٠)

بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجارّ والمجرور: "في الدُّنْيَا"، وقد أعرض الله تعالى عن ذكر
مطلبهم؛ لأنه أحقر من أن يذكر، فقد نسوا نعيم الآخرة، فلا خلاق لهم فيها، لقد انحطت
همتهم وتراخت فلم تقوَ حتى على الدعاء الحسن!

"وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ": ما نافية، ولفظ "خَلَقٍ" نكرة في سياق النفي
مسبوقة بمن الجارة المزيدة للتنصيص على العموم.

هذه الآية تبين حال صنف عريض من الناس حصروا غايتهم في متاع هذا الظرف
الزماني والمكاني الضيق: الدنيا، نعوذ بالله من الخذلان وسوء العاقبة.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا
عَذَابَ النَّارِ * أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^١:

"وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً" هذا فريق موفق "من"
موصول عام، يَقُولُ: فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقوله: "رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي
الْآخِرَةِ حَسَنَةً"، الفعل "آتِنَا للدعاء، وهو في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "في الدُّنْيَا"،
وبالمفعول به: "حَسَنَةً"، وما عطف عليهما: "وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً"، ولفظ "حَسَنَةً": نكرة في
سياق الإثبات، قال الرازي: "هَذَا نَكْرَةٌ فِي مَحَلِّ الْإِثْبَاتِ فَلَا يَتَنَاوَلُ إِلَّا حَسَنَةً وَاحِدَةً، فَلِذَلِكَ
اِخْتَلَفَ الْمُتَقَدِّمُونَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ حَمَلَ اللَّفْظَ عَلَى مَا رَأَاهُ أَحْسَنَ أَنْوَاعِ
الْحُسْنَةِ"^٢، وقال ابن عاشور: وَوَقَعَتْ حَسَنَةً فِي سِيَاقِ الدُّعَاءِ فَيُفِيدُ الْعُمُومَ، لِأَنَّ الدُّعَاءَ
يُقْصَدُ بِهِ الْعُمُومُ كَقَوْلِ الْحَرِيرِيِّ: يَا أَهْلَ ذَا الْمَعْنَى وَقِيتُمْ ضُرًّا، وَهُوَ عُمُومٌ عُرِّيٌّ بِحَسَبِ مَا

^١ سورة البقرة الآيتان (٢٠١-٢٠٢)

^٢ الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٥ / ٣٣٧

يَصْلُحُ لَهُ كُلُّ سَائِلٍ مِنَ الْحَسَنَتَيْنِ"^١، وقال القرطبي: "نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ الدُّعَاءِ، فَهُوَ مُحْتَمِلٌ لِكُلِّ حَسَنَةٍ مِنَ الْحَسَنَاتِ عَلَى الْبَدَلِ، وَحَسَنَةُ الْآخِرَةِ: الْجَنَّةُ بِإِجْمَاعٍ. وَقِيلَ: لَمْ يُرِدْ حَسَنَةً وَاحِدَةً، بَلْ أَرَادَ: أَعْطَيْنَا فِي الدُّنْيَا عَطِيَّةً حَسَنَةً، فَحَذَفَ الْإِسْمَ"^٢، وهو الظاهر: فإن الحسنة في الأصل صفة، فهي صفة لمقدر: عَطِيَّةً حَسَنَةً عِيشَةٍ حَسَنَةٍ أَوْ حَيَاةٍ حَسَنَةٍ، أَوْ أَنَّهَا لِكَثْرَةِ الاسْتِعْمَالِ نَزَلَتْ مِنْزِلَةَ اسْمِ الْجِنْسِ وَتَنْكِيرِهَا لِلتَّعْظِيمِ وَالتَّكْثِيرِ، وَأَمَّا حَمْلُ النُّكْرَةِ فِي سِيَاقِ الدُّعَاءِ لِلْعُمومِ كَمَا قَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ عَاشُورٍ فغريب؛ لِأَنَّ الدَّاعِيَ لَا يَطْلُبُ كُلَّ حَسَنَاتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِنَفْسِهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ عَدْوَانٌ فِي الدُّعَاءِ، وَكَذَلِكَ حَمْلُهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ وَهُوَ الْعُمومُ الْبَدَلِي كَمَا فَعَلَ الْإِمَامَانِ الْقُرْطُبِيُّ وَالرَّازِيُّ؛ لِأَنَّ الدَّاعِيَ لَا يَقْصِدُ الْعُمومَ الْبَدَلِي بَلْ يَطْلُبُ عِيشَةً حَسَنَةً وَحَيَاةً طَيِّبَةً فِي عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

"وَقَفْنَا عَذَابَ النَّارِ": "وَقَفْنَا" صِيغَةُ أَفْعَلٍ لِلدُّعَاءِ، وَالْفِعْلُ فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ مَقِيدٌ بِالْمَفْعُولِ بِهِ: "عَذَابُ" وَعَذَابُ نُّكْرَةٍ مِثْلُ مِثْلِهَا إِلَى مَعْرِفَةِ تَعَمُّ كُلِّ أَصْنَافِ الْعَذَابِ، "النَّارُ" "أَل" لِلْعَهْدِ، "أَوَّلَيْكَ" هُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا "نَصِيبٌ" نُّكْرَةٌ فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ لِلْإِطْلَاقِ تَصَدَّقَ عَلَى الْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ وَقِيدٌ بِشَبْهِ الْجُمْلَةِ بَعْدَهُ، وَالِاسْتِيفَاءُ وَالْمَزِيدُ فِي الْآخِرَةِ، "مِنْ" لِلْسَّبَبِيَّةِ، وَ"مَا" مَوْصُولٌ يَعْمُ، "وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ" فِيهِ تَرْغِيبٌ وَتَرْهيبٌ.

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/٢٤٨

^٢ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج ٢/٤٣٣

قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾^١:

"وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ": "واذكروا" صيغة افعل للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: لفظ الجلالة "الله"، وبالجار والمجرور: "في أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ"، وأيام نكرة في سياق الإثبات مقيدة بالصفة: "مَعْدُودَاتٍ"، "وهي الثلاثة التي بعدَ يَوْمِ النَّحْرِ، وَلَيْسَ يَوْمُ النَّحْرِ مِنْهَا؛ لِإِجْمَاعِ النَّاسِ أَنَّهُ لَا يَنْفِرُ أَحَدٌ يَوْمَ النَّفَرِ وَهُوَ ثَانِي يَوْمِ النَّحْرِ، وَلَوْ كَانَ يَوْمُ النَّحْرِ فِي الْمَعْدُودَاتِ لَسَاعَ أَنْ يَنْفِرَ مَنْ شَاءَ مُتَعَجِّلًا يَوْمَ النَّفَرِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ أَخَذَ يَوْمَيْنِ مِنَ الْمَعْدُودَاتِ"^٢.

"فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ" "مَنْ" شرطية تعم كل متعجل، والفعل "تَعَجَّلَ" في سياق الشرط يعم، وهو مخصص بالجار والمجرور: "في يَوْمَيْنِ"، أي: من أيام منى، فخرج من منى قبل غروب اليوم الثاني من أيام التشريق، عملاً بالرخصة "فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ" نكرة في سياق النفي فهي نص في نفي كل إثم عن كل من تعجل إن كان اتقى الله تعالى في حجه فإنه يرجع كيوم ولدته أمه، و"مَنْ تَأَخَّرَ" شرطية أو موصولة تعم كل متأخر، والفعل "تَأَخَّرَ" في سياق الشرط يعم، "فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ" نكرة في سياق النفي فهي نص في نفي كل إثم لمن اتقى.

قال الإمام الطبري: "فمن تعجل في يومين" من أيام منى الثلاثة فنفر في اليوم الثاني "فلا إثم عليه"، لحط الله ذنوبه، إن كان قد اتقى الله في حجه، فاجتنب فيه ما أمره الله باجتنابه، وفعل فيه ما أمره الله بفعله، وأطاعه بأدائه على ما كلفه من حدوده "ومن تأخر" إلى

^١ سورة البقرة آية (٢٠٣)

^٢ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج ١/٣

اليوم الثالث منهن فلم ينفر إلى النفر الثاني حتى نفر من غد النفر الأول، "فلا إثم عليه"، لتكفير الله له ما سلف من آثامه وإجرامه، إن كان اتقى الله في حجه بأدائه بحدوده"^١.

"وَأَتَّقُوا اللَّهَ" أمر بوجوب ملازمة التقوى، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: لفظ الجلالة. "وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَٰهِي تُحْشَرُونَ": الأمر للوجوب، والقصد منه التخويف من الله تعالى، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بما سدّ مسدّ المفعولين، "إِلَٰهِي تُحْشَرُونَ": تقديم بالجارّ والمجرور يفيد الحصر، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بهما، والمقصد الترغيب في الاستعداد للقائه والترهيب من الغفلة.

بعد هذه الحشد المبارك من الأخبار والأحكام، يستأنف القرآن الكريم حملته العاصفة على المنافقين والمخادعين فيكشف مكرهم وكيدهم:

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ﴾^٢:

"وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا" "النَّاسِ" "أل" للاستغراق "مَنْ" موصول يعمّ الأفراد والجماعات والمنظمات والحكومات، "يُعْجِبُكَ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المخاطب ويراد به كلّ من يصحّ أن يخاطب، وأولهم الرسول عليه الصلاة والسلام، "قوله": نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ أقواله المباشرة وغير المباشرة، وأقواله في وسائل الإعلام المعاصرة وما أكثرها! وما أفتكها! وهو مخصّص بالحال التي تعلق بها الجارّ

^١ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٤/ ٢٢٢

^٢ سورة البقرة آية (٢٠٤-٢٠٦)

والمجروح: "فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا"، "الْحَيَاةِ الدُّنْيَا": أَل في الحياة للعموم والدنيا صفة مخصصة، والمعنى: يعجبك قوله في أمور الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وشؤونها وجوانبها المتنوعة، "وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ": "وَيُشْهِدُ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بثلاثة قيود: المفعول به: اسم الجلالة، والثاني: الجارّ والمجروح: "عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ"، "ما موصولة تعمّ، قلب: نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، وبالحال: "وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ"، فهو يخادع مستمعيه بقوله: يشهد الله على ما في قلبي من الإيمان والنصح، "وهو شديد الجدال والعداوة للمسلمين"^٢، "الْخِصَامِ": مصدر ل"خاصم" فيعمّ كلّ مخالصة.

هذه الآية "تُعَلِّمُ الْمُؤْمِنِينَ وَاجِبَ التَّوَسُّمِ فِي الْحَقَائِقِ وَدَوَاخِلِ الْأُمُورِ وَعَدَمَ الْإِعْتِرَافِ بِالظُّوَاهِرِ إِلَّا بَعْدَ التَّجَرُّبَةِ وَالْإِمْتِحَانِ، فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعَرِّضُ مُحْسِنَ ظَاهِرِهِ وَهُوَ مُنْطَوٍ عَلَى بَاطِنٍ سُوِّءٍ وَيُعْطِي مِنْ لِسَانِهِ حَلَاوَةً تَغْيِيرٍ وَهُوَ يُضْمِرُ الشَّرَّ وَالْكَيْدَ"^٣.

"وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ": "إِذَا" شرطية ظرفية تعمّ، "تَوَلَّى": فعل في سياق الشرط يعمّ، "سَعَى": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجروح: "فِي الْأَرْضِ"، "الْأَرْضِ" أَل للعموم باعتبار كلّ قطع الأرض، ومقيّد بالتعليل: "لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ"، "يُفْسِدَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجروح: "فِيهَا"، "وَيُهْلِكَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ"، و"أَل" للاستغراق

^١ انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٧/ ٣٤٥

^٢ الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ج ١/ ٢٥١ بتصرف.

^٣ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/ ٢٧٤

والعموم، "فهذا المنافق ليس له همة إلا الفساد في الأرض، وإهلاك الحرث، وهو: محل نماء
الزروع والثمار، والنسل، وهو: نتاج الحيوانات، الَّذِينَ لا قوام للناس إلا بهما"^١.

"وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ": التصدير باسم "الله" للتعظيم والتخويف، "لَا يُحِبُّ" الفعل
في سياق النفي يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: "الْفُسَادَ"، "أَل" للاستغراق والعموم، يعمّ كلّ
أنواع الفساد في الدين والأنفس والعقول والنسل والأموال.

"وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ" "إِذَا" شرطية ظرفية تعمّ كلّ الأوقات، "قِيلَ"
فعل في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بالجارّ والمجرور: لَهُ، وبالمقول القول: "اتَّقِ اللَّهَ"،
"اتَّقِ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: اسم "الله"، و"أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ"، "أَخَذَتْهُ":
فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجارّ والمجرور: "بِالْإِثْمِ"، وأل في
"الْعِزَّةُ، وَالْإِثْمُ": للجنس، المعنى: "أنه لا يطيع من أمره بالتقوى تكبرا والباء يحتمل أن تكون
سببية أو بمعنى مع"^٢.

"فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ": "فَحَسْبُهُ" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، "لَبِئْسَ": فعل
في سياق الإثبات يفيد الإطلاق، "الْمِهَادُ" أل للعموم، "وَالْمِهَادُ فِيهِ قَوْلَانِ، أَحَدُهُمَا: أنه جَمْعُ
«مَهْد» وهو ما يوطأ للنوم والثاني: أنه اسم مفرد، سُمِّيَ به الفراش الموطأ للنوم"^٣، فلا مهاد شرّ
منها.

^١ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ١/٥٦٤

^٢ ابن جزي، التسهيل، مرجع سابق، ج ١/١١٧

^٣ السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج ٢/٣٥٦

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ

بِالْعِبَادِ﴾^١:

"وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ": "النَّاسِ" "أَل" للاستغراق، "مَن"

موصول عام، "يَشْرِي": معناه يبيع، وهو فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: نَفْسَهُ،

وبالمفعول لأجله: "ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ"، ونفسه نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، ومرضاة نكرة مضافة

إلى معرفة تعمّ، والمعنى: يبيع نفسه لأجل مرضاة الله، "وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ": تصدير الجملة

باسم الجلالة للتعظيم والتكريم، "الْعِبَادِ" السياق يدلّ على أن "أَل" للعموم العرفي يعمّ العباد

المؤمنين^٢.

^١ سورة البقرة آية (٢٠٧)

^٢ انظر: الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٤/ ٢٢٢

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^١:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً": "الَّذِينَ" موصول يعم كل مؤمن، "آمَنُوا": فعل في سياق الإثبات للإطلاق، والإيمان حقيقة شرعية، "ادْخُلُوا" الأمر للوجوب، فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: "فِي السِّلْمِ"، والحال: "كَافَّةً"، وكافّة من صيغ العموم، و"كَافَّةً" حال من الضمير في "ادخلوا" لتوكيد شمول المخاطبين، ويجوز كونها حالاً من السلم، لتوكيد شمول السلم لشرائع الإسلام كلها.

"السِّلْمِ": يعم شعائر الإسلام، "وقد اختلف القراءة في قراءة ذلك، فقراءته عامّة قراء أهل الحجاز: "ادخلوا في السِّلْم" بفتح السين، وقراءته عامّة قراءة الكوفيين بكسر السين، فأما الذين فتحوا "السين" من "السِّلْم"، فإنهم وجهوا تأويلها إلى المسالمة، بمعنى: ادخلوا في الصلح والمساومة وترك الحرب وإعطاء الجزية. وأما الذين قرءوا ذلك بالكسر من "السين" فإنهم مختلفون في تأويله، فمنهم من يوجهه إلى الإسلام، بمعنى ادخلوا في الإسلام كافة، ومنهم من يوجهه إلى الصلح، بمعنى: ادخلوا في الصلح"^٢.

إن لفظ السلم بالفتح والكسر مشترك بين الإسلام والمسالمة، ولا مانع من حمل اللفظ على المعنيين، والقراءتان متواترتان لا ترجيح بينهما.

^١ سورة البقرة الآيتان (٢٠٨-٢٠٩)

^٢ انظر: الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٤/٢٥٣

"وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ": "لَا تَتَّبِعُوا" النهي للتحريم، والفعل في سياق النهي للعموم، وقد خصص هذا العموم بالمفعول به: "خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ"، "خُطُوَاتِ" نكرة مضافة إلى معرفة تعم كل مسالك الشيطان وما أكثرها تشعبًا وتنوعًا، "إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ" تعليل للتحذير والإنذار.

"فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ": الفعل "زَلَلْتُمْ" في سياق الشرط يعم، وهو مخصص بالجاء والمجرور: "مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ"، "بعد" نكرة مضافة إلى معرفة تعم، "ما" مصدرية، والمصدر المؤول يعم، تقديره: مجيء البينات، أل في "الْبَيِّنَاتُ" تعم جميع البراهين والآيات الواضحات القاطعة لكل عذر، "فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بما سدّ مسدّ المفعولين، والقصد من هذه الجملة المباركة التحذير من الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾^١:

"هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ": "هَلْ" الاستفهام بمعنى النفي، الفعل "يَنْظُرُونَ" في سياق هل التي بمعنى النفي يعم، وهو مخصص بالمفعول به: المصدر المؤول "أَنْ يَأْتِيَهُمُ" وإلا حاصرة، المصدر المؤول نكرة مضافة إلى معرفة تعم، وهو مخصص بالجاء والمجرور: "فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ"، "ظل" نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالجاء والمجرور: "مِنْ الْغَمَامِ"، وأل في الغمام للعموم، "وَالْمَلَائِكَةُ" أل "للاستغراق"، "وَقُضِيَ الْأَمْرُ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بنائب الفاعل؛ لأنه في الأصل مفعول به، "أل" في "الْأَمْرُ" إمّا

^١ سورة البقرة آية (٢١٠)

لِلْجِنْسِ مُرَادًا مِنْهُ الْإِسْتِغْرَاقُ أَيْ قُضِيَتْ الْأُمُورُ كُلُّهَا، وَإِنَّمَا لِلْعَهْدِ أَيْ أَمْرٌ هَؤُلَاءِ أَيْ عِقَابُهُمْ أَوْ
الْأَمْرُ الْمَعْهُودُ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ وَهُوَ الْجَزَاءُ"¹.

"وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ" تقديم الجارّ والمجرور للحصر، ومفهومه إلى الله لا إلى غيره
ترجع الأمور كلها، وأل في "الأُمُور" للعموم والاستغراق، ومن مقاصد من هذا التعقيب
التبصير بالمصير والمآل العام الذي لن يفلت منه أحد من العباد.

قال الله تعالى: ﴿سَلِّ بْنِ إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ
بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ * زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْحَرُونَ مِنَ الَّذِينَ
آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾²:

"سَلِّ بْنِ إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ": "سَلِّ" الأمر للوجوب، والفعل في سياق
الإثبات مقيّد بالمفعول به الأول: "بَنِي إِسْرَائِيلَ"، "بَنِي" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ كلّ أبناء
إسرائيل، وعُلّق عن المفعول الثاني بالاستفهام: "كَمْ آتَيْنَاهُمْ"، "آتَيْنَاهُمْ": الفعل في سياق
الإثبات مقيّد بالمفعول به الأول: وهو الضمير المتصل "هم"، وبالمفعول به الثاني: "كَمْ"
الاستفهامية، واسم الاستفهام يعمّ، والاستفهام للتقرير والتقريع، "مِّنْ آيَةٍ" للتمييز، وآية نكرة
مقيّدة بالصفة: "بَيِّنَةٍ".

¹ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢ / ٢٨٧

² سورة البقرة الآيتان (٢١١-٢١٢)

"وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ" "مَنْ" اسم شرط يعمّ، الفعل "يُبَدِّلُ" في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: "نِعْمَةُ اللَّهِ" "نِعْمَةُ" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، وبالجارّ والمجرور: "مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُ"، "بعد" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، "ما" مصدرية، والمصدر المؤول يعمّ، تقديره: مَنْ بَعْدَ مجيئها "فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ" "الْعِقَابِ" يعمّ، والجملة للترهيب والتحذير.

"زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا": "زُيِّنَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "لِلَّذِينَ" والذين اسم موصول عامّ، كَفَرُوا فعل في سياق الإثبات للإطلاق والكفر حقيقة شرعية، "الْحَيَاةُ الدُّنْيَا": "الْحَيَاةُ" أل للعموم والدنيا صفة مخصصة، ويجوز أن تكون أل للعهد، والصفة للتحقير، "وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا": "يَسْخَرُونَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "مِنَ الَّذِينَ"، "الَّذِينَ" اسم موصول عامّ، "آمَنُوا" فعل في سياق الإثبات للإطلاق والإيمان حقيقة شرعية.

"وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" "وَالَّذِينَ" اسم موصول عامّ يشمل كل متقّ، "اتَّقَوْا" فعل في سياق الإثبات مقيّد بظرف المكان: فَوْقَهُمْ، وبظرف الزمان: يَوْمَ الْقِيَامَةِ" والتقوى حقيقة شرعية. "وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ" تصدير الجملة باسم الجلالة للتعظيم والترغيب، "يَرْزُقُ" الفعل في سياق الإثبات مقيّد بشيئين: الأول: المفعول به: "مَنْ"، والموصول يعمّ، والثاني: الجارّ والمجرور: "بِغَيْرِ حِسَابٍ"، "حِسَابٍ": نكرة في سياق النفي تفيد العموم، "يَشَاءُ"، الفعل في سياق الإثبات مقيّد بمقدر.

قال الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^١:

"كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً": "النَّاسُ" "أَل" للاستغراق، "أُمَّةً" نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالصفة: "وَاحِدَةً" فقد "كَانُوا عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ وَهُوَ الْإِيمَانُ وَالْحَقُّ، وَهَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُحَقِّقِينَ"^٢، فاختلّفوا في الدين وتفرّقوا شيعاً، "فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ": "فَبَعَثَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بشيئين: الأول: المفعول به: "النَّبِيِّينَ" و"أَل" في النبين للاستغراق، والثاني: الحال والمعطوف عليه: "مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ".

"وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ": "وَأَنْزَلَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بأربعة قيود: الأول: الظرف: "مَعَهُمُ" والثاني: المفعول به: "الْكِتَابُ" "أَل" للعموم العرفي، أي الكتب المنزلة، والثالث: الجارّ والمجرور: "بِالْحَقِّ"، وأل للكمال، والحق حقيقة شرعية، والرابع: التعليل: "لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ"، "لِيَحْكُمَ" اللام للتعليل، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بقيدين: الأول: الظرف: "بَيْنَ النَّاسِ"، "أَل" في "النَّاسِ": للعموم، والثاني: الجارّ والمجرور: "فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ"، "مَا" اسم موصول يعمّ كل شيء اختلفوا فيه، اخْتَلَفُوا: فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "فِيهِ"، فالمقصد من إنزال الكتب الحكم بين الناس بالشرع المنزل.

^١ سورة البقرة الآية (٢١٣)

^٢ الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٦/٣٧٢

"وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ": "اختلف" فعل في سياق النفي يعم كل اختلاف، وقد حُصص بعده مخصصات: الأول: الجار والمجرور: "فيه" أي: في الكتاب، والثاني: الجار والمجرور: "مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ"، والثالث: المفعول لأجله: "بَغْيًا بَيْنَهُمْ" ^١، "إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ": إلا حاصرة، و"الَّذِينَ" موصول عام، "أُوتُوهُ" الفعل في سياق الإثبات مقيّد بنائب الفاعل؛ لأن أصله المفعول الأول، وبالمفعول به الثاني: الضمير المتصل، "مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ": "بَعْدِ" نكرة مضافة إلى معرفة تعم، "ما" مصدرية، والمصدر المؤوّل بتقدير نكرة مضافة إلى معرفة فيعم، والتقدير: من بعد مجيء البينات، "أل" في "الْبَيِّنَاتُ" للعموم العربي، وهي الحجج والبراهين الظاهرة الباهرة.

"فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ": "هَدَى" فعل في سياق الإثبات مقيّد بثلاثة قيود:

الأول: المفعول به: "الَّذِينَ آمَنُوا"، "الَّذِينَ" اسم موصول عام، "آمَنُوا" فعل في سياق الإثبات للإطلاق والإيمان حقيقة شرعية.

والثاني: الجار والمجرور: "لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ"، "ما" موصول يعم كل شيء من الحق اختلفوا فيه، اخْتَلَفُوا: فعل في سياق الإثبات مقيّد بشيئين: الأول: الجار والمجرور: "فيه" أي: في الكتاب، والثاني: الجار والمجرور: "مِنْ الْحَقِّ"، وأل في الحق للعموم. والحق حقيقة شرعية.

^١ "وَأَعْلَمَ أَنَّ تَعَلُّقَ كُلِّ مِنَ الْمَجْرُورِ وَهُوَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ وَتَعَلُّقَ الْمَفْعُولِ لِأَجْلِهِ وَهُوَ بَغْيًا يَقُولُهُ: اخْتَلَفَ الَّذِي هُوَ مَحْضُورٌ بِالِاسْتِثْنَاءِ الْمُفْرَغِ، وَيَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ كِلَاهُمَا مَحْضُورًا فِي فَاعِلِ الْفِعْلِ الَّذِي تَعَلَّقَا بِهِ، فَلَا يَتَأَتَّى فِيهِ الْخِلَافُ الَّذِي ذَكَرَهُ الرَّضِيُّ بَيْنَ التَّحَاةِ فِي جَوَازِ اسْتِثْنَاءِ شَيْئَيْنِ بَعْدَ آدَاءِ اسْتِثْنَاءٍ وَاحِدَةٍ، لِأَنَّ التَّحْقِيقَ أَنَّ مَا هُنَا لَيْسَ اسْتِثْنَاءً أَشْيَاءَ بَلِ اسْتِثْنَاءُ شَيْءٍ وَاحِدٍ وَهُمْ الَّذِينَ أُوتُوهُ، لَكِنَّهُ مُقَيَّدٌ بِقَيْدَيْنِ، هُمَا: "مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ" و"بَغْيًا": ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/ ٣١٠

والثالث: "يَاذُنِهِ".

"وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ": التصدير باسم الجلالة للتعظيم والتكريم

"يَهْدِي": فعل في سياق الإثبات مقيّد بشيئين: الأول: المفعول به: "مَنْ يَشَاءُ"، "مَنْ" اسم

موصول عامّ، "يَشَاءُ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقدر: من يشاء هدايته.

والثاني: الجارّ والمجرور: "إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ": "صراط" نكرة في سياق الإثبات مقيّدة

بالصفة: "مُسْتَقِيمٍ".

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾^١:

هذه سنة ربانية لا تبديل لها ولا تحويل، وعلى حملة الرسالة الخاتمة أن يعدّوا أنفسهم لمداغة الباطل، وأن يعلموا أنّ سنة المداولة يحكمها عدّاد لا يتقدّم ولا يتأخر "فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا"، والنصر قريب وإن استبطأه المستعجلون.

"أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ": "أَمْ فِي الْإِضْرَابِ كَبَلٌ إِلَّا أَنْ أَمْ تُؤْذَنُ بِالِاسْتِفْهَامِ، وَهُوَ هُنَا تَقْرِيرٌ بِذَلِكَ وَإِنْكَارُهُ إِنْ كَانَ حَاصِلًا أَيْ بَلْ أَحْسَبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا دُونَ بَلَوَى، وَهُوَ حُسْبَانٌ بَاطِلٌ لَا يَنْبَغِي اعْتِقَادُهُ"^٢، "حَسِبْتُمْ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بما سدّ مسدّ مفعوليّه، وبالحال: "وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ"، "يَأْتِكُمْ" فعل في سياق النفي يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: الضمير المتصل، "مَثَلُ الَّذِينَ" "مَثَلٌ" نكرة موعلة في النكارة لا تتعرف بالإضافة فهي تعمّ؛ لأنها في سياق النفي، "وَالْمَثَلُ هُوَ الْمِثْلُ وَهُوَ الشَّبَهُ"^٣ "الَّذِينَ" موصول يعمّ كل الرسل السابقين وأصحابهم، "خَلَوْا" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "مِنْ قَبْلِكُمْ"، وقبل نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ. "مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ

^١ سورة البقرة الآية (٢١٤)

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/٣١٤

^٣ الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٦/٣٧٨

الله قَرِيبٌ" "مَسَّتْهُمْ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وهذه الجملة "تفسيرية للمثل كأنه قيل: ما كان مثْلهم؟ فقيل: مَسَّتْهم البأساء"^١.

"أل" في "البأساء والضراء والرَّسُولُ" للعموم، "الَّذِينَ" موصول يعمّ، وقال أبو السعود: "البأساء أي: الشدّة من الخوف والفاقة والضراء أي: الآلام والأمراض وَزُلْزِلُوا: أي أزعجوا إزعاجاً شديداً بما دهمهم من الأهوال والأفزع" حتى يَقُولَ الرسول والذين ءَامَنُوا مَعَهُ" أي: انتهى أمرهم من الشدة إلى أن يقول الرسول وهو أعلم الناس بشؤون الله تعالى وأوثقهم بنصره "متى" أي متى يأتي "نَصْرُ الله" طلباً وتمنياً له واستطالةً لمدة الشدة والعناء، وقرئ حتى يقول بالرفع على أنه حكاية حالٍ ماضية وهذا كما ترى غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية "أَلَا إِنَّ نَصْرَ الله قَرِيبٌ" على تقدير القول أي فليلهم حينئذٍ ذلك إسعافاً لمرامهم، والمراد بالقرب القرب الزماني، وفي إشار الجملة الاسمية على الفعلية المناسبة لما قبلها وتصديرها بحرف التنبيه والتأكيد من الدلالة على تحقيق مضمونها ما لا يخفى"^٢.

وينبغي أن يعلم أن ألطاف الله عزّ وجلّ ورحماته تنزل على الداعين إلى الله تعالى على قدر صلتهم به، فتخفف هذه الأهوال وتوهنها عليهم وتزيدهم إيماناً وتسليماً.

قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلّٰهِ الدِّينُ وَالْأَفْرَينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾^٣:

^١ السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج ٢/٣٨١ بتصرف.

^٢ أبو السعود، الإرشاد، مرجع سابق، ج ١/٢١٥

^٣ سورة البقرة الآية (٢١٥)

"يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ": الفعل "يَسْأَلُونَ" في سياق الإثبات مقيّد بقيدين: الأول: المفعول به: الضمير المتصل، والثاني: المفعول به الثاني: الجملة المعلقة: "مَاذَا يُنْفِقُونَ"، "يُنْفِقُونَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به المقدم: "مَاذَا"، "مَاذَا": اسم استفهام يعم.

"قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللّٰهِ الدِّينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ": "قُلْ" الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ...": "مَا" اسم شرط عام، وهو مفعول به للفعل الذي بعده، والفعل "أَنْفَقْتُمْ" في سياق الشرط يعم، وهو مخصّص بالمفعول به: اسم الشرط المتقدّم "ما"، "مِنْ خَيْرٍ": متعلق بصفة لاسم الشرط، "خَيْرٍ": الخير المال، وهو نكرة في سياق الشرط تعم، "فَلِللّٰهِ الدِّينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ" كلها من صيغ العموم، "وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ" "مَا" اسم شرط يعم، وهو مفعول به مقدّم مقيّد للفعل الذي بعده: تَفْعَلُوا، "مِنْ خَيْرٍ": متعلق بصفة لاسم الشرط، خَيْرٍ: نكرة في سياق الشرط تعم، "فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ" التصدير باسم الجلالة للتعظيم والتطمين، فالله تعالى يخلف على المنفق.

قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^١:

"كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ" كُتِبَ "فرض، فعل يدلّ بمادته على الوجوب، وهو فرض كفاية، وهو مقيّد بثلاثة قيود: الأول: الجارّ والمجرور: "عَلَيْكُمْ"، على سبيل الكفاية لا التعيين، والثاني: نائب الفاعل: "الْقِتَالُ" "أل" للعهد، وهو حقيقة شرعية، أي: قتال العدو بالشروط المعروفة، والثالث: الحال: "وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ"، أي مكروه طبعاً؛ لما فيه من المشقة

^١ سورة البقرة الآية (٢١٦)

"وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ": هذا بيان لرجحان مصلحة القتال في سبيل الله تعالى على القعود، أَنْ تَكْرَهُوا: المصدر المؤول بنكرة مضافة إلى معرفة: كراهتكم يعمّ، وهو مقيّد بالمفعول به: "شَيْئًا"، وبالحال: "وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ"، ولفظ "شَيْئًا" نكرة في سياق الإثبات تفيد الإطلاق، "خَيْرٌ" نكرة في سياق الإثبات مقيدة بالجارّ والمجرور: "لَكُمْ"، "أَنْ تُحِبُّوا" المصدر المؤول بنكرة مضافة إلى معرفة: حبّكم يعمّ، وهو مقيّد بالمفعول به: "شَيْئًا"، ولفظ "شَيْئًا" نكرة في سياق الإثبات تفيد الإطلاق، وبالحال: "وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ"، "شَرٌّ" نكرة في سياق الإثبات مقيدة بالجارّ والمجرور: "لَكُمْ"، "وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ": "وَاللَّهُ يَعْلَمُ" تصدير الجملة باسم الجلالة يفيد التعظيم والتطمين، والفعل "يَعْلَمُ" في سياق الإثبات مقيّد بمحذوف هو المفعول به؛ ليدلّ على عمومته والتقدير: والله يعلم ما هو خير لكم، وما هو شر لكم، "أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" الفعل في سياق يعمّ، وهو مختصّ بمقدّر دلّ عليه الساق: ما ينفعكم وما يضرّكم.

قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^١:

"يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ" الشَّهْرُ: الفعل "يَسْأَلُونَ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجارّ والمجرور: "عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ"، "أَل"

^١ سورة البقرة الآية (٢١٧)

يحتمل: العهد وهو رجب، ويحتمل العموم فيعم جميع الأشهر الحرم^١، وظاهره أن "أل" للاستغراق اعتباراً بعموم اللفظ، ولفظ "الحرام" صفة مخصصة، "قَتَالٍ" بدل من "الشهر" والبدل هنا مخصص متصل لعموم الشهر. ولفظ "قَتَالٍ" نكرة في سياق الإثبات مقيدة بالجار والمجرور: "فيه". "قُلْ قَتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ": "قُلْ" الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيد بمقول القول: "قَتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ"، "قَتَالٍ" نكرة في سياق الإثبات مقيدة بالجار والمجرور: "فيه"، كبير إثم، قال العلامة ابن عاشور: "وَتَحْرِيمُ الْقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ قَدْ حُصِّصَ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ ثُمَّ نُسِخَ، فَأَمَّا تَخْصِيصُهُ فَبِقَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ إِلَى قَوْلِهِ: الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ [البقرة: ١٩١، ١٩٤]. وَأَمَّا نَسْخُهُ فَبِقَوْلِهِ تَعَالَى:

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ إِلَى قَوْلِهِ فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ [التوبة: ١، ٥] فَإِنَّهَا صَرَّحَتْ بِإِبْطَالِ الْعَهْدِ الَّذِي عَاهَدَ الْمُسْلِمُونَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْهُدْنَةِ، وَهُوَ الْعَهْدُ الْوَاقِعُ فِي صَلَاحِ الْحُدُودِ^٢.

"وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ:" "وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ": "وَصَدُّ" نكرة في سياق الإثبات مقيدة بالجار والمجرور: "عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ"، و"سبيل" نكرة مضافة إلى معرفة تعميم، "وَكُفْرٌ بِهِ": نكرة في سياق الإثبات مقيدة بالجار والمجرور: "بِهِ"، "وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ": أل للعهد، والحرام صفة للتعظيم، "وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ":

^١ السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج ٢/٣٩١

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/٣٢٦

"وَأُخْرِجَ" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، بالجارّ والمجرور: "مِنْهُ"، "أَهْلِهِ" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، "وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ": "الْفِتْنَةُ" تعمّ الفتن في الدين، وهي هنا حقيقة شرعية مراد به الشرك، والفتنة في الدين، وحفظ الدين مقدم على حفظ النفس.

"وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا": "وَلَا يَزَالُونَ": نفي النفي إثبات، "يُقَاتِلُونَكُمْ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالغاية: "حَتَّى يَرُدُّوكُمْ"، والمصدر المؤول بنكرة مضافة إلى معرفة: ردّكم يعمّ، وهو مخصّص بالجارّ والمجرور: "عَنْ دِينِكُمْ"، وإضافة دين للتعيين، وبالشرط: "إِنِ اسْتَطَاعُوا"، والفعل في ساق اشرط يعمّ، وهو مخصّص بمفعول به مقدّر: إن استطاعوا ردّكم، فغاية الكفار من القتال دفع المسلمين إلى الردة عن الدين الحق.

"وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ" "مَنْ" اسم شرط يعمّ، "يَرْتَدِدْ" فعل في سياق الشرط يعمّ كل أنواع الردّة، وقد خصّص بالحال التي تعلق بها الجارّ والمجرور: "مِنْكُمْ"، وبالجارّ والمجرور: "عَنْ دِينِهِ"، وإضافة دين للتعيين، "فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ": الفاء عاطفة للفعل يمتّ على فعل الشرط، فهو فعل في سياق الشرط، والمعنى كل من ارتد عن الدين ومات مرتدّاً فإن حكمه حبوط عمله...

"فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ": "أُولَئِكَ" اسم الإشارة يعمّ كل من مات مرتدّاً، والفعل "حبط" في سياق الإثبات في يفيد الإطلاق وقد قيّد بالجارّ والمجرور: "فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ"، "أَعْمَالُهُمْ" نكرة مضافة إلى معرفة تشمل جميع الأعمال الصالحة التي كان فعلها، فالردة تحبط الأعمال إذا مات صاحبها مرتدّاً، ومفهوم المخالفة أنه إن تاب قبل موته لم يحبط

الله عمله، "وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" "أَصْحَابُ النَّارِ" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ المستحقين لها، وتقديم فيها للحصر، ومفهومه أنهم خالدون في النار لا في غيرها.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ

رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^١:

"إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ" "الَّذِينَ" اسم موصول يعمّ، "آمَنُوا": فعل في سياق الإثبات للإطلاق والإيمان حقيقة شرعية، "وَالَّذِينَ هَاجَرُوا" "الَّذِينَ" اسم موصول يعمّ، "هَاجَرُوا" فعل في سياق الإثبات للإطلاق والهجرة حقيقة شرعية، "وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ"، فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: "فِي سَبِيلِ اللَّهِ"، وسبيل نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، "أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ": أُولَئِكَ اسم الإشارة يعمّ كل من أشير به إليهم؛ "يَرْجُونَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "رَحْمَةَ اللَّهِ"، ورحمة مضافة إلى اسم الجلالة تعمّ، "وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ": تصدير الجملة باسم الجلالة يفيد التعظيم والإخبار عنه بصفتي الغفور الرحيم يفيد التطمين والتأمين والترغيب والتبشير.

قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ

وَأِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِمَّنْ نَفَعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ

تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحُ هُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ

فَأَخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^٢:

^١ سورة البقرة الآية (٢١٨)

^٢ سورة البقرة الآيتان (٢١٩-٢٢٠)

"يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ": الفعل "يَسْأَلُونَ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجار والمجرور: "عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ"، "الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ" "أل" فيهما للاستغراق، فالخمر هي "كل مسكر خامر العقل وغطاه، من أي نوع كان، وأما الميسر: فهو كل المغالبات التي يكون فيها عوض من الطرفين، من النرد، والشطرنج، وكل مغالبة قولية أو فعلية، بعوض سوى مسابقة الخيل، والإبل، والسهام، فإنها مباحة؛ لكونها مُعَيَّنَةٌ على الجهاد، فلهذا رخص فيها الشارع"^١.

"قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ": "قُلْ" الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ"، "إِثْمٌ": نكرة في سياق الإثبات تفيد الإطلاق، وقد قيّدت بالصفة: "كبير"، "مَنَافِعُ" نكرة في سياق الإثبات تفيد الإطلاق، وقد قيّدت بالصفة التي تعلّق بها الجار والمجرور: "لِلنَّاسِ"، وأل في "الناس": للعموم.

"وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا" الواو للاستئناف، "إِثْمٌ": نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، نفع نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، ومعنى "وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا": أن مفاسدهما أكبر من نفعيهما، فالخمر تفسد العقول، ويترتب على فساد العقل الوقوع في الجرائم والآثام، وفي الميسر إتلاف للأموال فيما لم يأذن به الله، وأكل لأموال الناس بالباطل، وفي شرب الخمر أضرار صحية واقتصادية واجتماعية يعرفها المتخصصون مسلمهم وكافرهم، فوجب درء المفاسد، وإن أدت إلى فوات بعض المصالح والمنافع، ما دامت المصالح مرجوحة أو تساوت المصالح والمفاسد؛ لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وهذه الآية "نزلت قبل تحريم الخمر

^١ السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ج ١/ ٩٨.

والميسر، فكان معلومًا بذلك أن الإثم الذي ذكره الله في هذه الآية فأضافه إليهما، إنما عني به الإثم الذي يحدث عن أسبابهما لا الإثم بعد التحريم".^١

"وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ" الفعل "يَسْأَلُونَ" في سياق الإثبات مقيّد بقيدين: الأول: المفعول به: الضمير المتصل، والثاني: المفعول به الثاني: الجملة المعلقة: "مَاذَا يُنْفِقُونَ"، "يُنْفِقُونَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به المقدم: "مَاذَا"، "مَاذَا": اسم استفهام يعمّ.

"قُلِ الْعَفْوَ": "قُلِ" الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "الْعَفْوَ" بالفتح مفعول به لفعل مقدر، والتقدير: ينفقون "العفو"، وَالْعَفْوَ في اللغة الزيادة أي الزائد عن الحاجة، وهو "مَا سَهْلٌ وَتَيْسَرَ وَفَضْلٌ، وَمَنْ يَشُقُّ عَلَى الْقَلْبِ إِخْرَاجُهُ"^٢، و"أل" في "العفو" للاستغراق.

"كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ": الفعل "يُبَيِّنُ" في سياق الإثبات مقيّد بالجار والمجرور: "لَكُمْ"، وبالمفعول به: "الآيَاتِ"، و"أل" في "الآيَاتِ" للعموم العرفي، "لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ": لعلّ للتعليل، والفعل "تَتَفَكَّرُونَ" في سياق الإثبات مقيّد بالجار والمجرور: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ"، وهذه الكلمات الربانية الجامعة تؤصّل لفقه الموازنات بين المصالح والمفاسد العاجلة والآجلة، الفقه الذي لا تستقيم أحوال العباد إلا به، وذلك أن مصالح الدنيا والآخرة متفاوتة وكذلك مفاسدهما، والوسع محدود، وتصريف الطاقات في تحصيل الأصلح فالأصلح، ودرء الأفسد فالأفسد وفق أقوم الموازين هو ما جاءت به الشريعة، قال العلامة أبو السعود: "لعلكم تتفكرون في أموركم المتعلقة بالدنيا والآخرة

^١ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٤/ ٣٣٠

^٢ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج ٣/ ٦١

وتأخذون بما يصلح لكم وينفعكم فيهما وتذرون ما يضرّكم حسبما تقتضيه تلك الآيات المبينة^١.

"وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ": الفعل "يَسْأَلُونَ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجار والمجرور: "عَنِ الْيَتَامَى"، "أل" في اليتامى للاستغراق، والسياق يقتضي تقدير مضاف: "أموال اليتامى"، قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ: "قُلْ" الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ"، وإصلاح نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالصفة التي تعلّق بها الجار والمجرور: هُؤُم، والمعنى: ويسألونك "عن مال اليتامى، وخلطهم أموالهم به في النفقة والمطاعمة والمشاركة والمساكنة والخدمة، فقل لهم: تفضّلهم عليهم بإصلاحكم أموالهم - من غير مَرَزَّة شيء من أموالهم، وغير أخذ عوض من أموالهم على إصلاحكم ذلك لهم - خيرٌ لكم عند الله وأعظم"^٢.

"وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ": الفعل "تُخَالِطُوهُمْ" في ساق اشترط يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: الضمير المتصل، "فَإِخْوَانُكُمْ": نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، وإن تشاركهم في النفقات وتخالطوا نفقاتهم بنفقاتهم بالمعروف فلا حرج فهم إخوانكم في الدين لهم ما لكم، "وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ": تصدير الجملة باسم الجلالة يفيد التعظيم، والفعل "يَعْلَمُ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "الْمُفْسِدَ"، وبالجار والمجرور: "مِنَ الْمُصْلِحِ"، "الْمُفْسِدَ" والمُصْلِحَ صفتان صريحتان صلتا "أل" فهما تعمّان كل مفسد ومصلح، وفي هذه الجملة تحذير من الفساد وترغيب في الإصلاح.

^١ أبو السعود، الإرشاد، مرجع سابق، ج ١/٢٢٠

^٢ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٤/٣٥٤

"وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمُ": "شَاءَ" فعل في ساق اشترط يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به المقدر: إغناتكم، "لَأَغْنَتْكُمُ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، والمعنى: "حملكم على العنت وهو المشقة، وأخرجكم فلم يطلق لكم مداخلتهم"^١. "إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" تصدير الجملة باسم الجلالة يفيد التعظيم، والجملة لبيان فضل الله والتحذير من مخالفة أحكامه.

^١ الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ج ١/٢٦٣

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^١:

إن الحياة الطيبة بكل شعبها الخاصة والعامة لا تتحقق إلا باتباع شرع الله تعالى، والآية الآتية تبين حكمًا عظيمًا من أحكام "النكاح"، فليس للمؤمن ولا المؤمنة أن يؤسس علاقته الزوجية على هواه المطلق، فيختار كل منهما من يعجبه من الناس بلا مراعاة لشرع الله تعالى.

"وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ": النهي للتحريم، والفعل في سياق النهي للعموم، وقد خصص بشيئين: الأول: المفعول به: "المُشْرِكَاتِ"، والمخصص الثاني: الغاية: "حَتَّى يُؤْمِنَ"، والفعل "يُؤْمِنَ" مؤول بالمصدر المضاف إلى معرفة فهو عام، و"المُشْرِكَاتِ" صفة صريحة صلة "أل" تعم كل مشركة، وتوهم إلى علة الحكم. وخصص هذا العموم بمخصص بدليل منفصل: "إن كان عمومها مرادًا، وأنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية، فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله: "وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ"، قال ابن عباس في قوله: "وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ" استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب. وقيل: بل المراد بذلك المشركات من عبدة الأوثان، ولم يُرد أهل الكتاب بالكلية، والمعنى قريب من الأول^٢.

^١ سورة البقرة الآية (٢٢١)

^٢ انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ١/٥٨٢

"وَلَا أُمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ" "وَلَا أُمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ" لفظ "أمة" مطلق مقيد بالصفة "مؤمنة"، ومفهوم الموافقة يدل على أن الحرية المؤمنة من باب أولى خير، ولفظ "مُشْرِكَةٍ" مطلق يصدق على كل مشركة، "وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ": الواو حالية، و"لو" في مثل هذا التركيب شرطية بمعنى "إن"، والفعل في سياق الشرط يعم^١، أي وإن اعجبكم المشركة، فالأمة المؤمنة خير من المشركة الحرة.

"وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا": النهي للتحريم، والفعل في سياق النهي للعموم، وقد خصص بشيئين: الأول: المفعول به: "الْمُشْرِكِينَ"، والمخصص الثاني: الغاية: "حَتَّى يُؤْمِنُوا"، والفعل "يُؤْمِنُوا" مؤول بمصدر مضاف إلى معرفة فهو عام، "الْمُشْرِكِينَ" صفة صريحة صلة "أل" تعم كل مشرك وتوهم إلى علة الحكم.

"وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ": "وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ": "عبد" نكرة في سياق الإثبات تفيد الإطلاق وقد قيد بالصفة: "مؤمن"، ومفهوم الموافقة يدل على أن الحرّ المؤمن خير من باب أولى، "مُشْرِكٍ" نكرة في سياق الإثبات تفيد الإطلاق تعم كل مشرك على سبيل البدل، "وَأَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى أَنَّ الْمُشْرِكَ لَا يَطَأُ الْمُؤْمِنَةَ بِوَجْهِهِ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْعُضَاضَةِ عَلَى الْإِسْلَامِ"^٢، "وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ": الواو حالية، و"لو" شرطية بمعنى "إن"، والفعل في سياق الشرط يعم^٣، أي وإن اعجبكم المشرك، فالعبد المؤمن خير منه.

"أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ" "أُولَئِكَ" اسم الإشارة يعم كل من أشير به إليهم من أهل الشرك؛ "يَدْعُونَ" فعل في سياق الإثبات مقيد بمفعول به دل عليه السياق، وبالجار والمجرور:

^١ السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج ٣١٧/٢

^٢ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق ج ٧٢/٣

^٣ السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج ٣١٧/٢

"إِلَى النَّارِ"، وأل في النار للعهد، المشركون والمشركات يدعون من عاشرهم وخالطهم إلى ما يفضي إلى النار، فهم محادون لله تعالى وشرعه.

"وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ": تصدير الجملة باسم الجلالة يفيد التعظيم، "يَدْعُو" فعل في سياق الإثبات مقيّد بمفعول به، تقديره: العباد أوما شابهه من الألفاظ التي تعمّ، وبالجار والمجرور: "إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ" و"بِإِذْنِهِ"، وهذه الجملة تفيد التطمين والتأمين والترغيب والتبشير، ولم يقل جلّ وعزّ والمؤمنون يدعون... بل أسند الدعوة إلى نفسه تبارك وتعالى تعظيمًا لشأن النكاح بين المؤمنين والمؤمنات، وما يترتب عليه من التعاون والتناصح على لزوم طاعة الله تعالى.

"وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ": الفعل "يُبَيِّنُ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "آيَاتِهِ"، ولفظ "آيَاتِهِ" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، وبالجار والمجرور: "لِلنَّاسِ" "أل" لاستغراق الناس، "لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ" للتعليل، والفعل "يَتَذَكَّرُونَ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به المقدّر.

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ * نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^١:

في هذه الآية تبين لنا أحكام "المجاعة"، وقد بينت أن هذه الوسيلة في الإسلام مبنية على "الطهارة" الحسية والمعنوية، كما أن عقد النكاح مبني على "الإيمان".

"وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ": الفعل "يَسْأَلُونَ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجار والمجرور: "عَنِ الْمَحِيضِ"، والمحيض: مَفْعِل من الحَيْض، ويُراد به المصدر الميمي واسم الزمان واسم المكان، تقول: حاضَتِ المرأةُ تحيضُ حَيْضًا، ومَحِيضًا ومَحَاضًا، فَبَنَوُهُ عَلَى مَفْعَلٍ وَمَفْعَلٍ بالكسر والفتح^٢، والحيض في اللغة: "السَّيْلُ يُقَالُ: حَاضَ السَّيْلُ وَفَاضَ، قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: وَمِنْهُ قِيلَ لِلْحَوْضِ حَوْضٌ، لِأَنَّ الْمَاءَ يَحِيضُ إِلَيْهِ أَيْ يَسِيلُ إِلَيْهِ، وَالْعَرَبُ تُدْخِلُ الْوَاوَ عَلَى الْبَاءِ وَالْيَاءِ عَلَى الْوَاوِ لِأَنَّهُمَا مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ"^٣.

"أل" في "الْمَحِيضِ" للعموم، و"الْمُرَادُ مِنَ السُّؤَالِ عَنِ الْمَحِيضِ السُّؤَالُ عَنْ قُرْبَانِ النِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ بِدَلَالَةِ الْإِفْتِضَاءِ"^٤.

"قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ": "قُلْ" الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "هُوَ أَذَىٰ"، فالحيض مفسدة وأذى يؤذي من يلبسه بالجماع،

^١ سورة البقرة الآيتان (٢٢٢-٢٢٣)

^٢ انظر: السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج ٢/٤١٩

^٣ الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٦/٤١٤

^٤ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق ج ٢/٣٦٥

فيضّر الرجل والمرأة، فالأذى هو علة الحكم بوجوب اعتزالهن وتحريم قربانهن في الفروج التي هي محلّ الحيض، "فَاعْتَزِلُوا" أمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: "النساء"، وبالجار والمجرور: "فِي الْمَحِيضِ"، "أَل" في "الْمَحِيضِ" للاستغراق، فيعمّ كلّ "محيض"، وقد دلّت السنة على جواز الاستمتاع من الحائض بغير الجماع، فعن أنس أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت، فسأل أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- النبي -صلى الله عليه وسلم- فأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- "اصنعوا كل شيء إلا النكاح" رواه مسلم، فوجب تقدير لفظ "جماع" قبل لفظ "النساء" حتى يصحّ الكلام شرعاً أي أنه مدلول عليه بما يسميه الأصوليون: (دلالة الاقتضاء).

"وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ" النهي للتحريم، والفعل في سياق النهي للعموم، وقد خصّص بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالغاية: "حَتَّى يَطْهُرْنَ" بسكون الطاء أي حتى يرتفع الدم وهو الطهر من الحيض، ثم أتى بجملة شرطية وذكر فيها بقية الحكم الأول: "فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ": "إِذَا" شرطية ظرفية تعمّ، "تَطَهَّرْنَ" فعل في سياق الشرط يعمّ، والتطهّر حقيقة شرعية وهو الاغتسال بتعميم البدن بالماء، "فَأْتُوهُنَّ" الفعل في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجار والمجرور: "مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ"، فأمر بالإتيان بقيد كونه في محلّ الحرث، وهو القبل، وهذا الأمر للندب؛ لأن الأمر بعد النهي يعود لما كان عليه، وهو الندب كما ورد عنه صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم "وفى بضع أحدكم صدقة"، وأما الإيلاج في الدبر فحرام، وهو كبيرة من الكبائر.

"إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ": تصدير الجملة باسم الجلالة يفيد التعظيم، والفعل "يُحِبُّ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "التَّوَّابِينَ"، "التَّوَّابِينَ" صفة صريحة تعمّ، وتومئ إلى علة الحكم. "وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ": الفعل "يُحِبُّ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "الْمُتَطَهِّرِينَ"، "الْمُتَطَهِّرِينَ" صفة صريحة تعمّ، وتومئ إلى علة الحكم. وهذا الحب يدلّ على أن التوبة والتطهّر مطلوبان ومأمور بهما شرعاً، فالتوبة من الذنوب واجبة، والتطهّر بعد النقاء من الحيض بالغسل واجب أيضاً.

هذه الآية تبين بأسلوب لطيف عفيف طاهر كيف يكون إتيان النساء، وقد استعمل لفظ "الحرث" وهو المقصد العظيم للنكاح، وكرّر كلمة "حَرِثَ" مرتين ليدلّ على أن التكاثر والتناسل غاية كريمة لقضاء هذه الشهوة، فمن نوى حصول الولد الصالح، فقد قدّم لنفسه خيراً كثيراً، ثم أطلق العنان للزوجين ليستمتعا بالوطء في محلّ الحرث أنّى شاءا، ثم عقّب بالترغيب في الطاعات والترهيب من التفريط في جنب الله تعالى، ليظلّ قلب المؤمن موصولاً بالله تعالى، معلّقاً بالآخرة.

"نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ": "نِسَاؤُكُمْ" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ الزوجات والإماء، "حَرْثٌ لَكُمْ" محلّ حرث استدلّ عليه بدلالة الاقتضاء، "وَالْحَرْثُ مَصْدَرٌ حَرِثَ الْأَرْضَ إِذَا شَقَّهَا بِأَلَةٍ تَشُقُّ التُّرَابَ لِيُزْرَعَ فِي شُقُوقِهِ زَرْعَةٌ أَوْ تُغْرَسَ أَشْجَارٌ. وَهُوَ هُنَا مُطْلَقٌ عَلَى مَعْنَى اسْمِ الْمَفْعُولِ"^١.

"فَأَنْتُمْ حَرْثُكُمْ أَنْتُمْ شِئْتُمْ": الفاء الفصيحة، "فَأَنْتُمْ" الأمر للإباحة، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "حَرْثُكُمْ"، وبالحال: أنى شئتم أو الظرف: أنى شئتم فأنتوا حرثكم،

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق ج ٢/ ٣٧١

"يُبَيِّنُ أَنَّ الْإِنِّيَّانَ الْمَأْمُورَ بِهِ إِنَّمَا هُوَ فِي مَحَلِّ الْحَرْثِ يَعْنِي بَذْرَ الْوَلَدِ بِالتُّطْفَةِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْقُبْلُ
 دُونَ الدُّبْرِ كَمَا لَا يَخْفَى ؛ لِأَنَّ الدُّبْرَ لَيْسَ مَحَلُّ بَذْرِ لِلْأَوْلَادِ ، كَمَا هُوَ ضَرُورِيٌّ"^١ ، "أَنِّي شِئْتُمْ"
 "أَنِّي" مِنْ صَيَغِ الْعُمُومِ ، وَ"مَعْنَاهُ عِنْدَ الْجُمْهُورِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَأَيُّمَةِ الْفُتُوَى: مِنْ أَيِّ
 وَجْهِ شِئْتُمْ مُقْبِلَةً وَمُدْبِرَةً، كَمَا ذَكَرْنَا آنفًا. وَ"أَنِّي" تَجِيءُ سُؤَالًا وَإِخْبَارًا عَنْ أَمْرٍ لَهُ جِهَاتٌ، فَهُوَ
 أَعَمُّ فِي اللُّغَةِ مِنْ "كَيْفَ" وَمِنْ "أَيْنَ" وَمِنْ "مَتَى"، هَذَا هُوَ الْإِسْتِعْمَالُ الْعَرَبِيُّ فِي "أَنِّي". وَقَدْ
 فَسَّرَ النَّاسُ "أَنِّي" فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِهَذِهِ الْأَلْفَافِ. وَفَسَّرَهَا سَيِّوِيهِ بِ"كَيْفَ" وَمِنْ "أَيْنَ"
 بِاجْتِمَاعِهِمَا"^٢.

"وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ" الْأَمْرُ لِلْجُوبِ، وَالْفِعْلُ فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ مَقِيدٌ بِالْمَفْعُولِ بِهِ
 الْمَقْدَّرُ: مَا يَنْفَعُكُمْ فَيَعْمُ الطَّاعَاتِ الْوَاجِبَةُ وَالْمَنْدُوبَةُ، وَبِالْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ: "لِأَنفُسِكُمْ"، وَأَنْفُسُ
 نَكْرَةٌ مِضَافَةٌ إِلَى مَعْرِفَةِ تَعَمُّ، "وَأَتَّقُوا اللَّهَ": الْأَمْرُ لِلْجُوبِ، وَالْفِعْلُ فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ مَقِيدٌ
 بِالْمَفْعُولِ بِهِ: اسْمُ الْجَلَالَةِ، "وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ": الْأَمْرُ لِلتَّحْذِيرِ وَالتَّخْوِيفِ مِنَ التَّفْرِيطِ فِي
 جَنْبِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْفِعْلُ فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ مَقِيدٌ بِمَا سَدَّ مَسَدَّ مَفْعُولِيهِ، "وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ": أَمْرٌ
 لِلْجُوبِ، وَالْفِعْلُ فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ مَقِيدٌ بِالْمَفْعُولِ بِهِ: "الْمُؤْمِنِينَ"، وَهُوَ صِفَةٌ صَرِيحَةٌ تَعَمُّ كُلَّ
 مُؤْمِنٍ، وَتَوَمُّعٌ إِلَى عِلَّةِ التَّبَشِيرِ.

^١ الشنقيطي، أضواء البيان، مرجع سابق، ج ١/٩٢

^٢ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج ١/٩٣

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ * لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ^١:

الأيمان نوع من أنواع العقود التي يجلب بها العبد النفع ويدرك بها الفساد والضرر عن نفسه، وقد يتخذ بعض الناس الإيمان عرضة ومانعاً من الخير، فاستعملها في القطيعة والظلم ومضارة الأزواج، كما في الإيلاء الذي يعقده الرجال لحرمان الزوجات من قضاء وطهرهن بترك الجماع والمعاشرة، وهذه المفسدة تخل بمقاصد عقد النكاح الذي يُعقد؛ لينتفع به الرجل والمرأة في تحقيق مصالحهما، وقضاء وطهرهما، ودرء ما يؤذيهما ويعتتهما، فلما كان ذلك كذلك كان مناسباً أن ترد هذه الآيات في سياق أحكام النكاح.

"وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ": "وَلَا تَجْعَلُوا" النهي للتحريم، والفعل في سياق النهي للعموم، وقد خصص بالمفعول به الأول: اسم الجلالة "الله"، بالمفعول به الثاني: "عُرْضَةً" والمخصص الثالث: الجار والمجرور: "لِأَيْمَانِكُمْ" اللام للتعليل والسببية، والمعنى: لا تجعلوا الله بسبب أيمانكم مانعاً من أن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ، وَالْعُرْضَةُ "فُعْلَةٌ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ، كَالْقُبْضَةِ، وَالْعُرْفَةِ، فَيَكُونُ اسْمًا لِمَا يُجْعَلُ مُعْرَضًا دُونَ الشَّيْءِ، وَمَانِعًا مِنْهُ، فَثَبَّتَ أَنَّ الْعُرْضَةَ عِبَارَةٌ عَنِ الْمَانِعِ"^٢، "لِأَيْمَانِكُمْ" اللام للتعليل والسببية و"أيمان" نكرة مضافة إلى معرفة تعم كل يمين، "أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا": المصادر المنسوبة مؤولة

^١ سورة البقرة الآيتان (٢٢٤-٢٢٥)

^٢ الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٦/٤٢٥

بألفاظ تعمّ، والتقدير: عرضة من البر والتقوى والإصلاح بين الناس، فالظرف: "بين" متعلق بالإصلاح مخصّص له، "النّاس" عامّ.

"ويستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة، أنه: إذا تراحت المصالح، فُدّم أهمها، فهنا تتميم اليمين مصلحة، وامتثال أوامر الله في هذه الأشياء مصلحة أكبر من ذلك، فقدمت لذلك"^١. وقد ختم الله تعالى هذه الآية بجملة جامعة جليّة: "وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"، فالله الذي شرع لنا ما شرع سميع لما نقول عليم بما نسرّ وما نعلن، وبما نفعل وما نذر، وبما يصلحنا عاجلاً وآجلاً.

"لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ": يستفتح ربُّنا هذه الآية بهذا العفو الكريم واللفظ العظيم: "لَا يُؤَاخِذُكُمُ" لا نافية، والفعل في سياق النفي يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجارّ والمجرور: "بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ"، والباء للسببية، أي بسبب اللغو في أيمانكم، "اللغو": "أل" للاستغراق، يعمّ كلّ لغو، وقد خصّص بالجارّ والمجرور: "فِي أَيْمَانِكُمْ"، وأيمان نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ الأيمان غير المعقّدة.

واللغو في الأيمان كأن يحلف بالله "ما فعلت كذا، وقد فعل، ولقد فعلت كذا، وما فعل، وكان ذلك على سبيل سُبوق لسانه من غير تعمّد إثم في يمينه، ولكن لعادة قد جرت له عند عجلة الكلام، والقائل: "والله إنّ هذا لفلان" وهو يراه كما قال، أو: "والله ما هذا فلان!" وهو يراه ليس به، والقائل: "ليفعلنّ كذا والله أو: لا يفعل كذا والله" على سبيل ما وصفنا من عجلة الكلام وسبوق اللسان للعادة، على غير تعمّد حلف على باطل، والقائل: هو مشرك، أو هو يهودي أو نصراني، إن لم يفعل كذا أو إن فعل كذا، من غير عزم على كفر

^١ السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ج ١/١٠٠

أو يهودية أو نصرانية، جميعهم قائلون هُجِرًا من القول وذميًا من المنطق، وحالفون من الأيمان
بألسنتهم ما لم تتعمّد فيه الإثم قلوبهم، كان معلومًا أنهم لُغاة في أيمانهم، لا تلزمهم كفارة في
العاجل، ولا عقوبة في الآجل، لإخبار الله تعالى ذكره أنه غير مؤاخذ عباده، بما لغوا من
أيمانهم، وأنّ الذي هو مؤاخذهم به، ما تعمّدت فيه الإثم قلوبهم^١.

"وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ": لكن حرف استدراك، "يُؤَاخِذُكُمْ": فعل في
سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجارّ والمجرور: "بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ"، "مَا"
موصول يعمّ، والفعل "كَسَبَتْ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المقدّر، "قُلُوبُكُمْ"
نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، "وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ": جملة جامعة تفيض بالتلطّف والرحمة، فالله
تعالى غفور للذنوب حلیم عمّا اقترفه العباد جهلاً وخطأ ونسياناً.

فائدة:

والحلیم مِنْ حَلَم - بالضم - يَحْلُم إذا عَفَا مع قدرة، وَأَمَّا حَلِمَ الأديم فبالكسر،
وَتَثَقَّبَ يَحْلُم بالفتح أي: فسد وثَقَّب، وَأَمَّا «حَلَم» أي رأى في نومه فبالفتح، ومصدر الأول
«الحَلَم» بالكسر ومصدر الثاني «الحَلَم» بفتح اللام، ومصدر الثالث، «الحَلَم» و «الحُلَم»
بضمّ الحاء مع ضمّ اللام وسكونها^٢.

^١ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٤٦/٤-٤٤٧

^٢ السمين، الدر المصون مرجع سابق، ج ٣٢/٢

قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ

عَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^١:

لقد ذكر الله تعالى الحيض، وهو مانع حسي فطري يمنع من الجماع، ثم ذكر هنا مانعاً معنوياً ألا وهو الإيلاء، وهو الحلف على ترك جماع الزوجات، ولالإيلاء جهتان: الأولى: أنه نوع من أنواع الإيمان المنعقدة التي يؤخذ الله تعالى بها أصحابها، والثانية: أنه عارض من العوارض التي تلحق النكاح، وتخل بمقاصده، ومن هذه الجهة يتصل الحديث عن الإيلاء بالحديث عن أحكام النكاح والطلاق.

قال الله تعالى: "لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ

رَحِيمٌ": "لِّلَّذِينَ" الموصول عام، "يُؤْلُونَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: "من نِّسَائِهِمْ"، "نِّسَائِهِمْ" نكرة مضافة إلى معرفة تعم، والإيلاء حقيقة شرعية، "مَعْنَاهُ يَحْلِفُونَ، وَالْمَصْدَرُ إِيْلَاءٌ وَلَيْتَةٌ وَالْوَةُ وَالْوَةُ"^٢، "تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ": التربُّص: "الانتظار"، وهو مقلوب التصبر^٣، أشهر نكرة في سياق الإثبات تفيد الإطلاق، "فَإِنْ فَاءُوا": فعل في سياق الشرط يعم، وهو مخصص بجاء ومجرور مقدّرين: فيهنّ، أي في الأشهر الأربعة، "فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ": في ذكر هذه الجملة إشارة إلى التخفيف بالعفو عن هذا الإيلاء وما ترتّب عليه، "فقد أباح الله تعالى للزوج المولي أن يترك جماع زوجته أربعة أشهر من حين الحلف، ثم يوقف ويطلب بالفيئة

^١ سورة البقرة الآيتان (٢٢٦-٢٢٧)

^٢ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج ١٠٢/٣

^٣ السمين، الدر المصون مرجع سابق، ج ٤٣٥/٢

أو الطلاق. ولهذا قال: "فَإِنْ فَاءُوا" أي: رجعوا إلى ما كانوا عليه، وهو كناية عن الجماع، قاله ابن عباس^١.

"وَإِنْ عَزَّمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ": "العزم: عَقْدُ الْقَلْبِ وتصميُّه: عَزَمَ يَعْزِمُ عَزْماً وَعَزْماً بالفتحة والضمة، وعَزَمَ وعَزَمَ بالكسر"^٢، والفعل "عَزَّمُوا" في سياق الشرط يعم، وهو مخصص بالمفعول به: "الطَّلَاق" (نواوا الطلاق)، والطلاق حقيقة شرعية، وهو ناقض لعروة النكاح، وآثاره على أفراد الأسرة والمجتمع كثيرة خطيرة؛ لذا فصل الله تعالى أحكامه في القرآن الكريم تفصيلاً.

وقوله تعالى: "وَإِنْ عَزَّمُوا الطَّلَاقَ" يدلّ بدلالة الإشارة على "أَنَّ الْأُمَّةَ بِمِلْكِ الْيَمِينِ لَا يَكُونُ فِيهَا إِبْلَاءٌ، إِذْ لَا يَقَعُ عَلَيْهَا طَلَاقٌ"^٣. "فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ": سمیع لما تقولونه عليهم بما تعملونه، وفي هذه العبارة تخويف عظيم وتحذير من الإضرار بالزوجات^٤.

قال الله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^٥:

ذكر الله عز وجل في الآية السابقة العزم على الطلاق، ثم شرع في هذه الآية في بيان بعض الأحكام المتعلقة بالمطلقات، وبدأ بالعِدَّة التي شرعت لحفظ مصالح النكاح والتخفيف

^١ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ١/٦٠٤

^٢ السمين، الدر المصون مرجع سابق، ج ٢/٤٣٥

^٣ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج ٣/١١٢

^٤ انظر: أبا السعود، الإرشاد، مرجع سابق، ج ١/٢٢٤

^٥ سورة البقرة الآية (٢٢٨)

من مفسد الطلاق، قال تعالى: "وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ": هذه الجملة خبر بمعنى الأمر، فهي تفيد وجوب التربص، "وأصل الكلام: وليربص المطلقات، وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر"^١.

"الْمُطَلَّاتُ" صفة صريحة صلة "أل" تعم كل مطلقة، "يَتَرَبَّصْنَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بقيدين: الأول: الجارّ والمجرور: "بِأَنْفُسِهِنَّ" وأنفس نكرة مضافة إلى معرفة تعم، و"في ذكر الأنفس تهييج لهن على التربص وزيادة بعث"^٢، والقيد الثاني المفعول المحذوف، وقد أقيم المضاف إليه مقامه، والتقدير: مضي "ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ"^٣، وقروء نكرة في سياق الإثبات تفيد الإطلاق.

"وَالْقُرُوءُ فِي اللُّغَةِ قِيلَ: أَصْلُهُ الْوَقْتُ الْمَعْتَادُ تَرَدُّدُهُ، وَأَهْلُ الْعِلْمِ اخْتَلَفُوا فِي إِطْلَاقِهِ عَلَى الْحَيْضِ وَالطُّهْرِ: هَلْ هُوَ مِنْ بَابِ الْإِشْتِرَاكِ اللَّفْظِيِّ، وَيَكُونُ مِنَ الْأَضْدَادِ أَوْ مِنَ الْإِشْتِرَاكِ الْمَعْنَوِيِّ فَيَكُونُ مِنَ الْمُتَوَاطِئِ، كَمَا إِذَا أَخَذْنَا الْقَدْرَ الْمَشْتَرَكَ: إِمَّا الْجَمَاعَ وَإِمَّا الْوَقْتَ وَإِمَّا الْخُرُوجَ وَنَحْوَ ذَلِكَ"^٤.

وقال محمد رشيد رضا: "القروء: جمع قرء - بضم القاف وفتحها - ويطلق في اللغة على حيض المرأة وعلى طهرها منه، فالملكية والشافعية على أن القرء هو الطهر، والحنفية والحنابلة في أصحّ الروايتين على أن القرء هو الحيض، وأدلة الأولين أقوى. قال الأستاذ الإمام: والخطب في الخلاف سهل؛ لأن المقصود من هذا التربص العلم ببراءة الرحم من الزوج السابق

^١ الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ج ١/٢٧٠

^٢ الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ج ١/٢٧١

^٣ السمين، الدر المصون مرجع سابق، ج ٢/٤٣٧

^٤ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٢/٤٣٩ بتصرف.

وهو يحصل بثلاث حيض كما يحصل بثلاثة أطهار، فكل من القولين موافق لحكمة الشرع في المسألة"¹.

ولما فرض الله تعالى على المطلقات التبرص ثلاثة قروء، علمنا أن المقصود ذوات الأقرء، وقد خصص هذا النص بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا﴾، فلا عدة على المطلقات قبل الدخول، وأما الإماء فقد أخرجن بالإجماع، وعدتهن حيضتان، قال أبو عمر: "على هذا جماعة العلماء من الصحابة والتابعين وأئمة الفتوى في أمصار المسلمين إلا شيء روي عن محمد بن سيرين أنه قال عدته الأمة في الوفاة والطلاق كعدته الحرة إلا أن تمضي في ذلك سنة فالسنة أحق أن تتبع"²، وأما الحامل فغير داخلة على القول بأن الحامل لا تحيض.

"وَلَا يَحِلُّ لَهَنَّ أَنْ يَكْتُمَنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ": "وَلَا يَحِلُّ": نفي الحل يفيد التحريم، والفعل في سياق النفي يعم، وهو مخصص بالجاء والمجرور: "لهَنَّ"، "أَنْ يَكْتُمَنَّ" المصدر المؤول بتقدير نكرة مضافة إلى معرفة يعم، كتمان ما خلق الله في أرحامهن، "ما" موصول يعم، "خلق": فعل في سياق الإثبات مقيد بالجاء والمجرور: "في أرحامهن" وأرحام نكرة مضافة إلى معرفة تعم، "إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ" الشرط للتهيج فلا مفهوم له.

"وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ" "بُعُولَتُهُنَّ" نكرة مضافة إلى معرفة تعم، والبعولة الأزواج بردهن في زمن العدة، "إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا" مفهومه: إن لم يريدوا إصلاحًا فليسوا أحق بردهن، "وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ" "وَهُنَّ" من الحقوق في حسن المعاشرة مثل

¹ رضا، المنار، مرجع سابق، ج ٢/ ٢٩٤ بتصرف قليل.

² ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، المتوفى: ٤٦٣هـ، الاستدكار، تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، دار الكتب العلمية - بيروت ط ١، ١٤٢١ - ٢٠٠٠م، ج ٦/ ٢١٩

"الَّذِي" موصول بعم، "بِالْمَعْرُوفِ": الصفة الصريحة تعم، "وَلِلرَّجَالِ عَلَىٰ دَرَجَةٍ": "وَلِلرَّجَالِ":
أل للعموم العرفي والمقصود الأزواج، "دَرَجَةٌ": نكرة في سياق الإثبات تفيد الإطلاق، "أي: في
الفضيلة في الخلق، والمنزلة، وطاعة الأمر، والإنفاق، والقيام بالمصالح"^١، "وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ":
غالب على أمره حكيم في قضائه وأمره.

قال الله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ
تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا
جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ * فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْهِمَا أَنْ يَنْتَزِعَا إِنَّ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^٢:

ومن عوارض النكاح الطلاق الرجعي والخلع ويختصان بأحكام مهمة لتحصيل
مقاصد النكاح، "الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ": "الطَّلَاقُ" "أل": للاستغراق، وعمومه مخصوص بصفة
مقدرة: الطلاق الرجعي، وقد استدللنا عليها بدلالة الاقتضاء، مرتان: مرة بعد مرة، قال
العلامة ابن عاشور: "لَيْسَ لَفْظُ الْمَرَّةِ بِمَعْنَى الْوَاحِدَةِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْأَعْيَانِ، أَلَا تَرَى أَنَّكَ تَقُولُ:
أَعْطَيْتُكَ دِرْهَمًا مَرَّتَيْنِ، إِذَا أَعْطَيْتَهُ دِرْهَمًا ثُمَّ دِرْهَمًا، فَلَا يُفْهَمُ أَنَّكَ أَعْطَيْتَهُ دِرْهَمَيْنِ مُقْتَرَنَيْنِ،
بِخِلَافِ قَوْلِكَ أَعْطَيْتُكَ دِرْهَمَيْنِ.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ يُفِيدُ أَنَّ الطَّلَاقَ الرَّجْعِيَّ شُرِعَ فِيهِ حَقُّ التَّكْرِيرِ إِلَى حَدِّ
مَرَّتَيْنِ، مَرَّةً عَقِبَ مَرَّةٍ أُخْرَى لَا غَيْرَ، فَلَا يُتَوَهَّمُ مِنْهُ فِي فَهْمِ أَهْلِ اللِّسَانِ أَنَّ الْمُرَادَ: الطَّلَاقُ لَا

^١ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ١/ ٦١٠

^٢ سورة البقرة الآيتان (٢٢٩-٢٣٠)

يَقْعُ إِلَّا طَلَقَتَيْنِ مُفْتَرَتَيْنِ لَا أَكْثَرَ وَلَا أَقَلَّ، وَمَنْ تَوَهَّم ذَلِكَ فَاحْتَاجَ إِلَى تَأْوِيلٍ لِدَفْعِهِ فَقَدْ أَبْعَدَ
عَنْ مَجَارِيِ الْإِسْتِعْمَالِ الْعَرَبِيِّ"^١.

ثم ذكر رحمه الله تعالى بعد ذلك الأئمة الذين أخذوا بظاهر القرآن الكريم وبالسنة:
"وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ عَوْفٍ وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ وَمُحَمَّدُ بْنُ
إِسْحَاقَ وَحَجَّاجُ بْنُ أَرْطَاةٍ وَطَاوُوسُ وَالظَّاهِرِيُّ وَجَمَاعَةٌ مِنْ مَالِكِيَّةِ الْأَنْدَلُسِ:

مِنْهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ زَيْبَاعٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ بَقِيٍّ بْنِ مُحَمَّدٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ الْحُشَيْيُّ، فَقِيهٌ
عَصَرَهُ بِقُرْطُبَةٍ، وَأَصْبَغُ بْنُ الْخُبَابِ مِنْ فُقَهَاءِ قُرْطُبَةٍ، وَأَحْمَدُ بْنُ مُعِيْثِ الطَّلِيْطِيِّ الْفَقِيهُ الْجَلِيلُ،
وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ مِنَ الْحَنَابِلَةِ: إِنَّ طَلَّاقَ الثَّلَاثِ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ لَا يَقْعُ إِلَّا طَلَقَةٌ وَاحِدَةٌ وَهُوَ
الْأَرْجَحُ مِنْ جِهَةِ النَّظَرِ وَالْأَثَرِ.

وَاحْتَجُّوا بِحُجَجٍ كَثِيرَةٍ أُولَاهَا وَأَعْظَمُهَا هَذِهِ الْآيَةُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الطَّلَاقَ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ
ثَالِثَةً، وَرَتَّبَ حُرْمَةَ الْعُدُودِ عَلَى حُصُولِ الثَّالِثَةِ بِالْفِعْلِ لَا بِالْقَوْلِ، فَإِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِامْرَأَتِهِ: هِيَ
طَالِقٌ طَلَّاقًا، وَلَمْ تَكُنْ تِلْكَ الطَّلَقَةُ ثَالِثَةً بِالْفِعْلِ وَالتَّكْرُرِ كَذَبَ فِي وَصْفِهَا بِأَنَّهَا ثَلَاثٌ، وَإِنَّمَا هِيَ
وَاحِدَةٌ أَوْ ثَانِيَّةٌ، فَكَيْفَ يُقَدِّمُ عَلَى تَحْرِيمِ عَوْدِهَا إِلَيْهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَمْ يُحَرِّمْ عَلَيْهِ ذَلِكَ، قَالَ ابْنُ
عَبَّاسٍ: "وَهَلْ هُوَ إِلَّا كَمَنْ قَالَ: قَرَأْتُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَقَدْ قَرَأَهَا وَاحِدَةً فَإِنَّ قَوْلَهُ
ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يَكُونُ كَاذِبًا".

الثَّانِيَةُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَصَدَ مِنْ تَعَدُّدِ الطَّلَاقِ التَّوَسُّعَ عَلَى النَّاسِ؛ لِأَنَّ الْمُعَاشِرَ لَا
يَدْرِي تَأْثِيرَ مُفَارَقَةِ عَشِيرِهِ إِيَّاهُ، فَإِذَا طَلَّقَ الزَّوْجَ امْرَأَتَهُ يَظْهَرُ لَهُ التَّدَمُّ وَعَدَمُ الصَّبْرِ عَلَى

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/ ٤٠٥

مُفَارَقَتِهَا، فَيَخْتَارُ الرُّجُوعَ، فَلَوْ جَعَلَ الطَّلَاقَ الْوَاحِدَةَ مَانِعَةً بِمُجَرَّدِ اللَّفْظِ مِنَ الرَّجْعَةِ، تَعَطَّلَ الْمَقْصِدُ الشَّرْعِيُّ مِنْ إِبْثَاتِ حَقِّ الرَّجْعَةِ، قَالَ ابْنُ رُشْدٍ الْحَفِيدُ^١: "وَكَأَنَّ الْجُمْهُورَ غَلَبُوا حُكْمَ التَّغْلِيظِ فِي الطَّلَاقِ سَدًّا لِلذَّرِيعَةِ، وَلَكِنْ تَبْطُلُ بِذَلِكَ الرُّخْصَةُ الشَّرْعِيَّةُ وَالرِّفْقُ الْمَقْصُودُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا [الطَّلَاق: ١]".^٢

"فَامْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ": فالواجب إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان فيتركها حتى تنقضي عدتها من غير مضارة، وإمساك نكرة في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: بِمَعْرُوفٍ، وتسريح نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالجاء والمجرور: بِإِحْسَانٍ.

"وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ": "وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ" نفى الحَلِّ يدلّ على التحريم، "يَحِلُّ" فعل في سياق النفي يعمّ، "أَنْ تَأْخُذُوا": المصدر المؤول بلفظ: "الأخذ" يعمّ، "مِمَّا": من للتبعيض، والموصول يعمّ، "شَيْئًا" يعمّ؛ لأنه نكرة في سياق النفي، والمعنى: ولا يحل لكم أخذ شيء مما آتيتموهن، "إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ": إلا حاصرة، والاستثناء مفرّغ، وأن والفعل: "أَنْ يَخَافَا" مؤولان بمفعول لأجله^٣، "أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ": المصدر المؤول يعمّ، "حُدُودَ" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، والتقدير: إلا خوفَ عدم إقامتهما حدود الله تعالى، والخوف هنا بمعنى الظنّ، "والعرب قد تضع "الظن" موضع "الخوف"، "والخوف" موضع "الظن" في كلامها، لتقارب معنييهما"^٤.

^١ ابن رشد، الحفيد، بداية المُجْتَهِد، ط دار المعرفة، ج ٦٢/٢

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٤١٨/٢

^٣ انظر: السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج ٤٤٧/٢

^٤ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٥٥٠/٤

"فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ": "خِفْتُمْ" فعل في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: المصدر المؤول المنفي، وتقديره: عدم إقامتهما، "حُدُودَ" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، "جُنَاحَ" نكرة في سياق النفي تعمّ، "فِيمَا" الموصول يعمّ كلّ شيء افتدت به سواء كان مساويا لما أعطاهما أو أكثر أو أقلّ، وإلى هذا ذهب الجمهور.

وقال الإمام أحمد، وأبو عبيد، وإسحاق بن راهويه: لا يجوز أن يأخذ منها أكثر مما أعطاهما، وهذا قول سعيد بن المسيب، وعطاء، وعمرو بن شعيب، والزهري، وطاووس، والحسن، والشعبي، وحماد بن أبي سليمان، والريّع بن أنس^١، ومن أدلتهم ما رواه "ابن عباس أن جميلة بنت سلول أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت والله ما أعتب على ثابت في دين ولا خلق، ولكنني أكره الكفر في الإسلام لا أطيقه بغضاً، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم أتردن عليه حديقته؟ قالت: نعم، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأخذ منها حديقته ولا يزداد"^٢، وهذا هو مقتضى العدل، فإنه إنما استحقّ استرداد ما دفعه إليها بتفويتها نفسها عليه، فبأي وجه يأخذ فوق حقّه؟

"تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا" "حُدُودَ" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، "فَلَا تَعْتَدُوهَا": النهي للتحريم، والفعل في سياق النهي للعموم، وقد خصّص بالمفعول به: الضمير المتصل، "وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ" "مَنْ" شرطية تعمّ، "يَتَعَدَّ": فعل في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: "حُدُودَ"، وحدود نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، "

^١ انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ١/٦١٧-٦١٨

^٢ صحيح ابن ماجه، محمد ناصر الألباني ح ١٦٧٣

فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ" "الظَّالِمُونَ" صفة صريحة تعمّ، ومفهوم المخالفة: مَنْ لم يتعدّ حدود الله فليسوا بظالم.

"فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ":

في هذه الآية تحليل المطلقة ثلاث تطليقات:

"فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ": "فَإِنْ طَلَّقَهَا" فعل في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: الضمير المتصل، وبمقدّر دلّ عليه السياق: المرّة الثالثة، "فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ" فقد بانت منه، "فَلَا تَحِلُّ لَهُ" نفي الحلّ يفيد تحريمها عليه، "تَحِلُّ" فعل في سياق النفي يعمّ، وقد خصّص عموم الحظر بالجارّ والمجرور: "لَهُ"، مفهومه أنها تحلّ لغيره، وبالغاية: "حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ"، ومفهومه إن لم تنكح زوجًا غيره فلا تحلّ له، وتحلّ لغيره، ولفظ "زَوْجًا" نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالصفة: "غَيْرَهُ".

وقد بيّنت السنة أن حصول الوطء في هذا النكاح شرط لازم: لقوله صلى الله عليه وسلم لامرأة رفاعه لما أرادت الرجوع إلى زوجها الذي طلقها ثلاثاً، وقد تزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير القرظي، فزعمت أنه لا يقوى على الوطء "إنما معه مثل هدبة الثوب"، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أتريدين أن ترجعي إلى رفاعه لا حتى تذوقي عسيلته

ويذوق عسيلتك" ^١، وقد حرّم الإسلام نكاح المطلقة ثلاثاً بقصد التحليل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لعن الله المحلل والمحلل له" ^٢.

"فَإِنْ طَلَّقَهَا": الزوج الثاني، والفعل في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: الضمير المتصل، "فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا": "جُنَاحٌ" نكرة في سياق النفي تعمّ، أَنْ يَتَرَاجَعَا: المصدر المؤول مجرور بمقدّر: في التراجع، ويتعلّق بالاستقرار الذي هو متعلّق الخبر، وقد خصّصا بالشرط: "إِنْ طَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ"، "طَنَّا" فعل في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بما سدّ مسدّ مفعوليه: "أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ"، "حُدُودٌ" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، ومفهومه إن لم يظنّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فعليهما جناح.

"وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ": "حُدُودٌ" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، "يُبَيِّنُهَا" الفعل "يَبَيِّنُ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجارّ والمجرور: "لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"، وقوم نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالجملة الواقعة صفة: "يَعْلَمُونَ"، وهو فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المقدر والمفعول الثاني: "لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَهَا" إذا بينها الله لهم، فيعرفون أنّها من عند الله، فيصدقون بها، ويعملون بما أودعهم الله من علمه، دون الذين قد طبع الله على قلوبهم، وقضى عليهم أنهم لا يؤمنون بها" ^٣.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنِ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَخُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ

^١ رواه البخاريّ ح ٢٦٣٩، ومسلم ح ١٤٣٣

^٢ صحيح أبي داؤود، محمد ناصر الألباني ح ١٨١١

^٣ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٤/٥٩٩

وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبَعْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ
أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ^١:

المضاربة في الرجعة: وهي من عادات الجاهلية.

"وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبَعْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ": "إذا"
شرطية ظرفية تعم، "طَلَّقْتُمُ" فعل في سياق الشرط يعم، وهو مخصص بالمفعول به: "النساء"،
وأل للعموم، "فَلَبَعْنَ أَجَلَهُنَّ": الفعل في سياق الشرط يعم كل بلوغ طال أمده أو قصر قصر،
وهو مخصص بالمفعول به: "أَجَلَهُنَّ"، وأجل نكرة مضافة إلى معرفة، والإضافة هنا للعهد
والتعيين أي الأجل الذي يمكن فيه الإمساك، فإذا فاتت الرجعة، ذكر هذا العلامة
الرازي^٢، وذهب جماهير العلماء إلى حمل الفعل "بلغن" على المقاربة والمشاركة: قال العلامة
القرطبي: "فَارَبْنَ، بِإِجْمَاعٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَلَئِنَّ الْمَعْنَى يَضْطَرُّ إِلَى ذَلِكَ، لِأَنَّهُ بَعْدَ بُلُوغِ الْأَجْلِ لَا
خِيَارَ لَهُ فِي الْإِمْسَاكِ"^٣، "فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ" الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به:
الضمير المتصل، وبالجارّ والمجرور: "بِمَعْرُوفٍ"، والإمساك بمعروف واجب إذا اختار الزوج
الإمساك.

"أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ": حرف "أَوْ" للتخيير، "سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ" الفعل في سياق
الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجارّ والمجرور: والأمر بالتسريح بقيد: "بِمَعْرُوفٍ"
واجب إذا اختار الزوج التسريح.

^١ سورة البقرة الآيتان (٢٣١-٢٣٢)

^٢ الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٦/٤٥٢

^٣ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج ٣/١٥٥

"وَلَا تُنْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا" النهي: للتحريم، والفعل "تُنْسِكُوهُنَّ" في سياق النهي للعموم، وهو مخصّص بثلاثة مخصصات الأول: المفعول به: الضمير المتصل، والثاني: المفعول لأجله: "ضِرَارًا"، والثالث: التعليل: "لِتَعْتَدُوا" السلام للتعليل، والتقدير لتعتدوا على حقوقهنّ، فالحرم الإمساك بقصد الإضرار بالزوجة، والاعتداء؛ لأن الإمساك إنما شرع لمصلحة الزوجين معاً وحفظ النسل، وصلاح المجتمع، والمضارة ظلم وفساد.

"وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ": "مَنْ" شرطية عامّة، "يَفْعَلْ" فعل في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: "ذَلِكَ"، واسم الإشارة يعمّ ما أشير به إليه، فكلّ من أمسك مضاراً معتدياً، فهو ظالم لنفسه بتحميلها الآثام والسيئات وما يعقبها من الخسران، والعبد مأمور بجلب مصالح نفسه ودرء الفساد عنها عاجلاً وآجلاً. "ظَلَمَ" الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "نَفْسَهُ".

"وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُؤًا" النهي لتحريم، والفعل "تَتَّخِذُوا" في سياق النهي للعموم، وهو مخصّص بمخصصين الأول: المفعول به: "آيَاتِ اللَّهِ"، والثاني: المفعول لأجله: "هُزُؤًا"، اتخاذ الآيات هزواً وعبثاً؛ لأنه خلاف مقصود الشرع وحكمته من تنزيل الآيات للتدبر والتذكر والعمل بها، "آيَاتِ" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، ومن استهزأ ولو بشطر آية فقد استهزأ بالقرآن كله.

"وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ": "اذْكُرُوا" ظاهر الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به وما عطف عليه: نِعْمَةُ اللَّهِ، "نِعْمَةً" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ نعم الله تعالى، وهي مخصصة بالجار والمجرور:

عَلَيْكُمْ، "وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ": الواو عاطفة للموصول على
نعمه، "مَا" موصول يعمّ، "أُنْزِلَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير العائد على
الموصول، وبالجار والمجرور: عَلَيْكُمْ، وبالحال التي تعلّق بها "الْكِتَابِ" وما عطف عليه، "أَل"
للعهد وهو القرآن، والحكمة السنة، "يَعِظُكُمْ بِهِ": الجملة حالية قيد للفعل "أُنْزِلَ"، ويجوز أن
تكون قيدًا للفعل "اذكروا"، "يَعِظُكُمْ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير
المتصل، وبالجار والمجرور: "بِهِ".

"وَاتَّقُوا اللَّهَ" الأمر للوجوب بملازمة الحق وإحقاقه، ومنازمة الباطل وإزهاقه، والفعل في
سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: اسم الجلالة "الله"، "وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ":
"وَأَعْلَمُوا" الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بما سدّ مسدّ المفعولين، "كُلِّ" من
صيغ العموم، فالله عليم بكلّ شيء، لا يعزب عنه شيء.

يعدّ **العضل** من أخبث العوارض التي تمنع تحقيق مقاصد النكاح من الإعفاف، وبناء
الأسر المتوافقة، وحفظ النسل، وتماسك المجتمع، قال تعالى: "وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ
أَجَلَهُنَّ" "إِذَا" شرطية ظرفية تعمّ، "طَلَّقْتُمُ" فعل في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول
به: "النِّسَاءَ"، وأل للعموم، تعمّ الزوجات، "فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ": الفعل في سياق الشرط يعمّ كلّ
بلوغ طال أمدّه أو قصر، وهو مخصّص بالمفعول به: "أَجَلَهُنَّ"، وأجل نكرة مضافة إلى معرفة،
والإضافة هنا للعهد والتعيين أي الأجل الذي تنقضي به العدة، وتفتت عند الرجعة، ويحلّ

لهن فيه عقد نكاح جديد. والخطاب للمؤمنين "الذين منهم الأزواج ومنهم الأولياء؛ لأنهم المراد في تَعْضُلُوهُنَّ"^١.

"فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ": "فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ" النهي لتحريم منعهن من نكاح من يرغبن في نكاحه، "تَعْضُلُوهُنَّ": فعل في سياق النهي للعموم، وهو مخصص بمخصصين الأول: المفعول به: الضمير المتصل، والثاني: "أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ"، أن وما بعدها مصدر منصوب بنزع الخافض أي من نكاح أزواجهن، والمصدر المؤول عام؛ لأنه بتأويل النكرة المضافة إلى معرفة، والعضل لغة: "الحبس والتضييق"^٢.

والخطاب عام للمؤمنين "فإن إسناد ما فعله واحد منهم إلى الجميع شائع مستفيض والمعنى إذا وجد فيكم طلاق فلا يقع فيما بينكم عضل سواء كان ذلك من قبل الأولياء أو من جهة الأزواج أو من غيرهم وفيه تحويل لأمر العضل وتحذير منه وإيدان بأن وقوع ذلك بين ظهرائهم، وهم ساكتون عنه بمنزلة صدوره عن الكل في استتباع اللائمة وسراية الغائلة"^٣، "أَزْوَاجَهُنَّ" نكرة مضافة إلى معرفة تعم، والأزواج مجاز باعتبار ما يكون، فيعم من كان زوجاً ومن لم يكن كذلك.

"إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ": "إِذَا" شرطية ظرفية تعم، "تَرَاضَوْا" الفعل في سياق الشرط يعم، وهو مخصص بالظرف: "بَيْنَهُمْ"، وبالجار والمجرور: "بِالْمَعْرُوفِ"، "بِالْمَعْرُوفِ" عام، ومفهوم الشرط أنه إذا لم يتراضوا بينهم بالمعروف فلا مانع من ذلك المنع.

^١ ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي الحاربي، المتوفى: ٥٤٢هـ، المحرر الوجيز في تفسير

الكتاب العزيز، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢هـ ج ١/٣١٠

^٢ الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ج ١/٢٧٨

^٣ أبو السعود، الإرشاد، مرجع سابق، ج ١/٢٢٩

"ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ": "ذَلِكَ" يعمّ المذكور المأمور به والمنهي عنه، "يُوعِظُ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجار والمجرور: "بِهِ"، "مَنْ" موصول يعمّ، يُؤْمِنُ: فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجار والمجرور وما عطف عليه: "بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ"، "ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ": "ذَلِكُمْ" يعمّ المذكور سابقاً، "وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ": "وَاللَّهُ يَعْلَمُ" تصدير الجملة باسم الجلالة يفيد التعظيم والتطمين، والفعل "يَعْلَمُ" في سياق الإثبات مقيّد بمحذوف هو المفعول به؛ ليدلّ على عمومته والتقدير: والله يعلم ما هو خير لكم، وما هو شر لكم، "أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" الفعل في سياق يعمّ، وهو مخصّص بمقدّر دلّ عليه الساق: ما ينفعكم وما يضرّكم.

قال الله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرَضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^١:

شرع الله تعالى ما شرع من أحكام الرضاعة لحفظ المولود الذي هو المقصود الأكبر من النكاح، "وَلَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ النِّكَاحَ وَالطَّلَاقَ ذَكَرَ الْوَلَدَ؛ لِأَنَّ الزَّوْجَيْنِ قَدْ يَفْتَرِقَانِ وَتَمَّ وَلَدٌ"^٢.

^١ سورة البقرة الآيتان (٢٣٣)

^٢ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج ٣/ ١٦٠

قال تعالى: "وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ": هذا خبر بمعنى الأمر، ويفيد الندب تحقيقاً لمصلحة الطفل، وقد يجب الإرضاع لعارض، "الْوَالِدَاتُ" صفة صريحة تعم كل والدة مطلقة أو غير مطلقة، وذهب كثير من المفسرين على أنه مراد به خصوص الوالدات المطلقات، "يُرْضِعْنَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بثلاثة قيود: الأول: المفعول به: "أَوْلَادَهُنَّ"، والثاني: الظرف: "حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ"، والثالث: الجار والمجرور: "لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ". "أَوْلَادَهُنَّ": نكرة مضافة إلى معرفة تعم الأولاد الذكور والإناث، "حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ": حولين نكرة في سياق الإثبات وقد وصفت بوصف كاشف يفيد التوكيد: "كَامِلَيْنِ".

"لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ": "لِمَنْ" الموصول يعم، "أَرَادَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ"، والمصدر مؤوّل بنكرة مضافة إلى معرفة يعم: إتمام الرضاعة، والرضاعة، أل للعهد، ومفهومه أن من لم يرد إتمام الرضاعة فليرضع دون ذلك. ويستنبط بدلالة الإشارة من هذا النص، ومن قوله تعالى: "وَحَمَلُهُ وَفَصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا" أن أقل مدة الحمل ستة أشهر كما اشتهر عند الفقهاء.

"وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ": "على" يدلّ على الإلزام والوجوب، "الْمَوْلُودِ لَهُ" صفة صريحة تعم الآباء، "رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ" نكرتان مضافتان إلى الضمير تعمّان، وهما مخصصتان بلفظ: "بِالْمَعْرُوفِ". "لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا" "لَا تُكَلِّفُ" فعل في سياق النفي يعم، وقد خصّص بنائب الفاعل: "نَفْسٌ"، وهو نكرة في سياق النفي يعم، إلا حاصرة، وبالمفعول الثاني: "وُسْعَهَا"، وهو نكرة مضافة إلى معرفة تعم كل أنواع الوسع.

"لَا تُضَارَّ وَالِدَةُ بَوْلِدِهَا" "لَا تُضَارَّ" النهي للتحريم، والفعل في سياق النهي يعمّ، فتحرم كلّ مضارة، "والِدَةُ" نكرة في سياق النهي تعمّ كلّ والدة، "وَلِدِهَا" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ كلّ ولد، "وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ": لا للتوكيد؛ لأن النهي شقيق النفي، "مَوْلُودٌ لَهُ" نكرة في سياق النهي تعمّ، "وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ": "عَلَى" حرف الاستعلاء يدلّ على الوجوب، "الْوَارِثِ" صفة صريحة تعمّ كلّ وارث للطفل فـ"على وارث الطفل إذا عدم الأب، وكان الطفل ليس له مال، مثل ما على الأب من النفقة للمرضع والكسوة، فدل على وجوب نفقة الأقارب المعسرّين، على القريب الوارث الموسر"^١.

"فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا": لفظ "أَرَادَا" فعل في سياق الشرط يعمّ، "فِصَالًا" نكرة في سياق الشرط تعمّ وهو مخصص بالصفة التي تعلّق بها الجارّ والمجرور، وما عطف عليه: عَنْ تَرَاضٍ وَتَشَاوُرٍ، "تَرَاضٍ" نكرة في سياق الشرط تعمّ، وهو مخصص بالصفة التي تعلّق بها الجارّ والمجرور: "مِنْهُمَا"، "وَتَشَاوُرٍ": نكرة في سياق الشرط تعمّ، وهو مخصص بالصفة التي تعلّق بها شبه الجملة المقدّر: "مِنْهُمَا"، والمقصود الفطام قبل تمام العامّين، "لَا جُنَاحَ" نكرة في سياق النفي تعمّ، فينتفي كل جناح "عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ" مفهوم المخالفة: إن لم يكن ثمّ تراضٍ ولا تشاور فلا يجوز، لوجود الجناح وهو الإثم، والمعنى: "فإن اتفقا والدا الطفل على فطامه قبل الحولين، ورأيا في ذلك مصلحة له، وتشاورا في ذلك، وأجمعا عليه، فلا جناح عليهما في ذلك، فيؤخّذُ منه: أن انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفي، ولا يجوز لواحد منهما أن يستبدّ بذلك من غير مشاورة الآخر، قاله الثوري وغيره،

^١ السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ج ١/ ١٠٤

وهذا فيه احتياط للطفل، وإلزام للنظر في أمره، وهو من رحمة الله بعباده، حيث حجر على الوالدين في تربية طفلهما وأرشدتهما إلى ما يصلحه ويصلحهما^١.

"وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ": "أَرَدْتُمْ": فعل في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصص بالمفعول به: المصدر المؤول: "أَنْ تَسْتَرْضِعُوا"، أي: استرضاع أولادكم، فهو يعمّ؛ لأنه بقوة النكرة المضافة إلى معرفة، "أَوْلَادَكُمْ" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ الأولاد ذكورهم وإناثهم، "فَلَا جُنَاحَ" نكرة في سياق النفي تعمّ، فينتفي كلُّ إثم، والمعنى: "لما بين رضاع الوالدات وقدمه دليلاً على أولويته أتبعه ما يدلّ على جواز غيره فقال: "وإن أردتم" أي أيّها الرجال "أن تسترضعوا" أي أن تطلبوا من يرضع "أولادكم" من غير الأمهات^٢.

"إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ": هذا الشرط للتهييج ولا مفهوم له، قال العلامة الرازي: "لَيْسَ التَّسْلِيمُ شَرْطًا لِلْجَوَازِ وَالصَّحَّةِ، وَإِنَّمَا هُوَ نَدْبٌ إِلَى الْأَوَّلَى وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ أَنْ تَسْلِمَ الْأُجْرَةَ إِلَى الْمُرْضِعَةِ يَدًا بِيَدٍ حَتَّى تَكُونَ طَيِّبَةَ النَّفْسِ رَاضِيَةً فَيَصِيرُ ذَلِكَ سَبَبًا لِصَلَاحِ حَالِ الصَّبِيِّ، وَالِاخْتِيَاظُ فِي مَصَالِحِهِ"^٣، "إِذَا" شرطية ظرفية تعمّ، "سَلَّمْتُمْ" فعل في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصص بالمفعول به: "مَا"، والموصول يعمّ، "آتَيْتُمْ" أوله الزمخشري قائلاً: "ما آتَيْتُمْ ما أردتم إتياءه"^٤، الفعل "آتَيْتُمْ" في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به الأول: الضمير العائد على الموصول، والمفعول الثاني وتقديره: المسترضعات، وبالجارّ والمجرور: "بِالْمَعْرُوفِ"، والمعْرُوف: "صفة صريحة اسم مفعول يعمّ.

^١ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ١/٦٣٥

^٢ البقاعي، نظم الدرر، مرجع سابق، ج ٣/٣٣٨

^٣ الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٦/٤٦٥

^٤ الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ج ١/٢٨١

"وَاتَّقُوا اللَّهَ" الأمر للوجوب، الفعل "وَاتَّقُوا" في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: اسم الجلالة، "وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ": "اعلموا" الأمر للوجوب، والمقصود منه التحذير، وهو في سياق الإثبات مقيد بما سدّ مسدّ مفعوليه: "أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"، "بِمَا تَعْمَلُونَ": "بِمَا" الموصول يعمّ، "تعملون": فعل في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: الضمير العائد.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ خَلِيمٌ﴾^١

لقد جعل الله تعالى لكل شيء قدراً، ففرق بين آمد العدد لحكم بالغة، وقد شرع عدة الوفاة لمقاصد عظيمة منها حفظ النسب.

قال تعالى: "وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا": "الَّذِينَ" الموصول يعم كل متوفى ترك زوجاً، "يُتَوَفَّوْنَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "مِنْكُمْ"، "وَيَذَرُونَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "أَزْوَاجًا"، وهو نكرة في سياق الإثبات يفيد الإطلاق، "يَتَرَبَّصْنَ": خبر المبتدأ، والرباط مقدر: "أي: يتربصن بعد وفاتهم هذه المدة"^٢، وهو خبر بمعنى الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بقيدين: الأول: الجارّ والمجرور: "بِأَنْفُسِهِنَّ" وأنفس نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، والقيّد الثاني المفعول المحذوف، وقد أقيم المضاف إليه مقامه، والتقدير: مضي "أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا"، وخلال

^١ سورة البقرة الآيتان (٢٣٤-٢٣٥)

^٢ رضا، المنار، مرجع سابق، ج ٢/٣٣٢

هذه الفترة يجب على المعتدة الإحداد وهو "تَرْكُ الْمُعْتَدَةِ مِنَ الْوَفَاةِ الزَّيْنَةَ وَالطَّيِّبَ وَمَصْبُوعَ الثِّيَابِ إِلَّا الْأَبْيَضَ، وَتَرْكُ الْخُلِيِّ"^١.

وقد أُخرج من هذا العموم زوجُ الأمة بالإجماع الذي مستنده القياس على حدِّ الزنا، ومن توفي عن زوج حامل؛ لما ورد في الصحيحين "عَنِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ أَنَّ سُبَيْعَةَ الْأَسْلَمِيَّةَ نَفِسَتْ بَعْدَ وَفَاةِ زَوْجِهَا بِلَيَالٍ فَجَاءَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَأْذَنَتْهُ أَنْ تَنْكِحَ فَأَذِنَ لَهَا فَتَنَكَّحَتْ"^٢، وهذا يدلّ على أَنَّ عُمُومَ "وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ"، مُخَصَّصٌ لِعُمُومِ: "وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا".

"فَإِذَا بَلَغْنَ أَجْلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ": "إِذَا" شرطية ظرفية تعمّ، "بَلَغْنَ أَجْلَهُنَّ": الفعل في سياق الشرط يعمّ كلّ بلوغ طال أمده أو قصر، وهو مُخَصَّصٌ بالمفعول به: "أَجْلَهُنَّ"، وأجل نكرة مضافة إلى معرفة، والإضافة هنا للعهد والتعيين أي الأجل الذي تنقضي به العدة، ويحلّ لمن فيه عقد نكاح جديد.

"فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ": "جُنَاحَ" نكرة في سياق النفي تعمّ، "فِيمَا فَعَلْنَ": الجارّ والمجرور مقيّد لما تعلّق به الخبر، "ما" موصول يعمّ كلّ ما كان محرّماً بالإحداد، "فَعَلْنَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بقيدين: الأول: الجارّ والمجرور: "بِأَنْفُسِهِنَّ" والثاني: الجارّ والمجرور: "بِالْمَعْرُوفِ"، "الْمَعْرُوفِ": صفة صريحة اسم مفعول يعمّ. "أَنْفُسِهِنَّ" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، "أَجْلَهُنَّ" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، "وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" "ما" موصول يعمّ، "تَعْمَلُونَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير العائد.

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/٤٤٧

^٢ صحيح البخاري ح ٥٣٢٠ ومسلم ح ٣٧٩٦، واللفظ للبخاري.

"وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ": "جُنَاحٌ" نكرة في سياق النفي تعمّ، فيشمل النفي كلّ إثم، "فِيمَا" الموصول يعمّ، "عَرَّضْتُمْ بِهِ": التعريض هو: التلويح والتلميح بالرغبة في النكاح من غير تصريح، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بقيدين: الأول: الجارّ والمجرور: "به" والثاني: الجارّ والمجرور: مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ"، "خِطْبَةٌ" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ كلّ ما يسمّى خطبة، "والخِطْبَةُ مصدرٌ في الأصل بمعنى الخطب، والخطب: الحاجة، ثم حُصِّت بالتماس النكاح؛ لأنه بعض الحاجات، يقال: ما خطبك؟ أي: ما حاجتك"¹، "النِّسَاءِ" "أل" للعموم، ولفظ النساء موصوف بصفة يقتضيها السياق تقديرها المعتدات عدّة وفاة.

"أَوْ أَكُنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ": "أو" للإباحة والتخيير "أَكُنْتُمْ": أخفيتم²، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "في أَنْفُسِكُمْ"، وأنفسكم نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، "عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ": "عَلِمَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بما سدّ مسدّ مفعوليها: "أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ"، "سَتَذْكُرُونَهُنَّ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، فشرع لكم ما يحسن ذكره ويحقق مصلحتكم في خطبة النساء المعتدات عدة وفاة، ويحفظ حرمة العدة، فاذكروهنّ في أنفسكم أو تعريضاً.

ثم استدرك فقيّد إطلاق الذكر، فقال سبحانه وتعالى: "وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا"، قال أبو حيان: "الدِّكْرُ يقع على أنحاء وأوجه، فاستدرك منه وجهٌ نُهي فيه عن دكرٍ مخصوص، ولو لم يُستدرك لكانَ مَأْذُونًا فِيهِ لِإِنْدِرَاجِهِ تَحْتَ مَطْلَقِ الدِّكْرِ الَّذِي أَخْبَرَ اللَّهُ بِوُقُوعِهِ"³، "وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا": النهي للتحريم، "تُوَاعِدُوهُنَّ" فعل في سياق النهي يعمّ، وهو مخصص

¹ السمين، الدر المصون مرجع سابق، ج ٢/٤٨١

² الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٥/١٠٢

³ أبو حيان، البحر المحيط، مرجع سابق، ج ٢/٥٢٢

بمخصصين: المفعول به: الضمير المتصل، والثاني: "سِرًّا"، وسِرًّا يحتمل أن يكون مفعولاً ثانياً لتواعِدُوهُنَّ، وأن يكون حالاً من الفاعل، والسِرُّ: ضدُّ الجَهْرِ، وقيل: يُطْلَقُ عَلَى الْوُطْءِ^١، والمعنى: لَا يَقُولُ الرَّجُلُ لِهَذِهِ الْمُعْتَدَّةِ تَزَوَّجِي، بَلْ يُعَرِّضُ تَعْرِضًا، وَهَذَا مَذْهَبُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ^٢، "إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا": الاستثناء منقطع^٣؛ لأنه ليس من جنس المستثنى منه: "سِرًّا"، وأما القول المعروف فهو التعريض، والمصدر المؤول بنكرة مضافة إلى معرفة: قولكم يعمّ، "قَوْلًا" نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالصفة: "مَعْرُوفًا".

"وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ": النهي لتحريم عقد النكاح حتى تنتهي العدة، "تَعْرِضُوا" فعل في سياق النهي يعمّ، وهو مخصص بمخصصين: المفعول به: عُقْدَةُ النِّكَاحِ، "عُقْدَةُ النِّكَاحِ": عقدة نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، والنكاح أل للعموم، والثاني: الغاية: "حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ"، المصدر المؤول بنكرة مضافة إلى معرفة: "بلوغ الكتاب" يعمّ، "أَجَلُهُنَّ": أجل نكرة مضافة إلى معرفة إلى معرفة، والإضافة هنا للعهد والتعيين أي الأجل الذي تنقضي به العدة، ويحلّ لمن فيه عقد نكاح جديد.

"وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ": "أَعْلَمُوا" الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بما سدّ مسدّ مفعوليه: "أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ"، "يَعْلَمُ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "مَا"، والموصول يعمّ، "فِي أَنْفُسِكُمْ": أنفسكم نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، "فَاخْذَرُوهُ" الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، فأوجب الحذر من سخط الله تعالى، "وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفْوٌ حَلِيمٌ" الأمر للوجوب،

^١ السمين، الدر المصون مرجع سابق، ج ٢/٤٨٣

^٢ انظر: الشوكاني، فتح القدير، مرجع سابق، ج ١/٢٨٧

^٣ أبو حيان، البحر المحيط، مرجع سابق، ج ٢/٥٢٣

والفعل في سياق الإثبات مقيّد بما سدّ مسدّ مفعوليّه، والمقصود الترغيب والتحبيب وتحسين الظنّ بالله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمُسَوِّعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ * وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^١:

"لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً": "جُنَاحٌ" نكرة في سياق النفي تعمّ، ونفي الجناح مراد به في هذا السياق عدم المؤاخذه على منع المهر "إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ..."، "إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ": الفعل في سياق الشرط يعمّ كلّ طلاق، وهو مخصّص بمخصصات: الأول: المفعول به: "النِّسَاءَ"، "أل" في النساء للاستغراق، والثاني: "مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ" "ما": ظرفية مصدرية، والتقدير مدة عدم المسيس، وأصل المسّ الجنس باليد، والمسيس هنا كناية عن المجامعة، والثالث: "أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً": "أو" بمعنى "إِلَّا أَوْ حَتَّى"، وهي الّتي يُنصَّبُ المضارع بعدها بِأَنْ مُضَمَّة وجوباً، والتقدير: "إِلَّا أَنْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً، أَوْ حَتَّى تَفْرِضُوا، وفرض الفريضة: تسمية المهر"^٢، والمعنى لا جناح عليكم في عدم دفع المهر إن طلقتم النساء قبل المسيس، ولما تفرضوا لهن مهراً، أما إن طلق أحدكم امرأته وقد مسّها ولما

^١ سورة البقرة الآيتان (٢٣٦-٢٣٧)

^٢ الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ج ١/٢٨٤

يفرض لها المهر، فلها مهر المثل، وإن طلقها، ولما يمسخها وقد فرض لها مهرًا، فلها نصف ما فرض كما سيأتي ذكره.

"وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ": "مَتَّعُوهُنَّ": هذا الأمر "ظَاهِرُهُ الْوُجُوبُ، وَهُوَ قَوْلُ عَلِيٍّ وَابْنِ عُثْمَانَ وَالْحَسَنِ وَالزُّهْرِيِّ وَابْنِ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةَ وَالصَّحَّاحَ وَإِسْحَاقَ بْنَ رَاهَوِيَةَ، وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ؛ لِأَنَّ أَصْلَ الصِّيغَةِ لِلْوُجُوبِ مَعَ قَرِينَةٍ قَوْلِهِ تَعَالَى: حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ، وَهُوَ الْأَرْجَحُ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ عَقْدُ نِكَاحِهَا حَلِيلًا عَنْ عَوَضِ الْمَهْرِ"^١.

"مَتَّعُوهُنَّ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بقيود: الأول: المفعول به: الضمير المتصل، والثاني: جملة الحال^٢: "عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ"، فعلى من طلق قبل المسيس ولما يفرض لها مهرًا تمتيع مطلقته على حسب وسعه، والثالث: النائب عن المفعول المطلق المبين للنوع: "مَتَّاعًا بِالْمَعْرُوفِ"، "مَتَّاعًا" نكرة في سياق الإثبات، مقيّدة بالصفة: بِالْمَعْرُوفِ، والرابع: "حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ"، "حَقًّا" مصدر لتوكيد مضمون الجملة التي قبله، ولفظ حق يدلّ بمادته على الإيجاب، وهو موصوف بما تعلّق به الجارّ والمجرور: "عَلَى الْمُحْسِنِينَ"، "الْمُحْسِنِينَ" صفة صريحة تعمّ كلّ محسن، والصفة للإلهاب والتّهييج والتّحريض على إحسان التمتع.

"الْمَوْسِعُ مَنْ أَوْسَعَ إِذَا صَارَ ذَا سَعَةٍ، وَالْمُقْتَرُ مَنْ أَقْتَرَ إِذَا صَارَ ذَا قَتَرٍ، وَهُوَ ضَيْقُ الْعَيْشِ، وَالْقَدَرُ - بِسُكُونِ الدَّالِ وَبِفَتْحِهَا - مَا بِهِ تَعْيِينُ ذَاتِ الشَّيْءِ أَوْ خَالِهِ"^٣.

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/٤٦١ بتصرف

^٢ انظر: السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج ٢/٤٨٨

^٣ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/٤٦٢

"وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَرْصَفْ مَا فَرَضْتُمْ":
 "وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ": الفعل في سياق الشرط يعمّ كلّ طلاق، وهو مخصص بمخصصات: الأول:
 المفعول به: الضمير المتصل، والثاني: الجارّ والمجرور: "مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ"، المصدر المنسبك
 من أن والفعل بتأويل نكرة مضافة إلى معرفة، وتقديرها: ميسكم إياهن، فهو عامّ، والمسيس
 هنا كناية عن الجماع، وذهب بعضهم إلى أن الخلوة تقوم مقام المسيس^١، والثالث: الحال:
 "وقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً"، الواو حالية، "فَرَضْتُمْ": فعل يدلّ بمادّته على الوجوب، وهو في
 سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: هُنَّ، والمفعول به: "فَرِيضَةً"، والمعنى: وقد أوجبتم لهنّ مهراً
 معلوماً، "فَرْصَفْ مَا": فالواجب نصف ما فرضتم، نصف نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، "مَا":
 الموصول يعمّ، "فَرَضْتُمْ": فعل يدلّ بمادّته على الوجوب، وهو في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول
 به: الضمير العائد.

"إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ" الاستثناء هنا يجوز أن يكون متصلاً: من عموم الأحوال: يجب على
 الزوج نصف المهر في كل حال إلا في حال عفوهم، والمصدر المؤول بنكرة مضافة إلى معرفة
 يعمّ، "أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ" "الَّذِي" الموصول يعمّ كل من بيده عقدة النكاح،
 ويحتمل أن يكون الزوج، وهو قول عليّ، وجبير بن مطعم، وابن المسيب، وابن جبير، ومجاهد،
 وشريح، وجابر بن زيد، والضحاك، ومحمد بن كعب القرظي، والربيع بن أنس، وابن شبرمة،
 وأبي حنيفة والشافعي، وأحمد رضي الله عنهم في آخرين^٢. ويحتمل أن يكون الولي وهو قول

^١ الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٦/٤٧٨

^٢ انظر: ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ١،

مالك، وجماعة من السلف، منهم ابن عباس وعلقمة والحسن وقتادة^١، وحمله على العموم أولى، فإن أسقط الولي حق موليته أو الزوج أعطى المهر كله فكله بر.

"وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى" "وَأَنْ تَعْفُوا" المصدر المؤول يعم، تقديره عفوكم أقرب للتقوى، "لِلتَّقْوَى": التقوى حقيقة شرعية، "وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ" النهي للتحريم، "تَنْسُوا": فعل في سياق النهي يعم، وهو مخصص بمخصصين: المفعول به: "الْفَضْل"، والْفَضْل وأل للعموم، والثاني: الظرف: "بَيْنَكُمْ"، و"فيه وجهان، أحدهما: أنه منصوب بـ "تَنْسُوا"، والثاني: أنه متعلق بمحذوف على أنه حال من الفضل أي: كائناً بينكم. والأول أولى لأن النهي عن فعل يكون بينهم أبلغ من فعل لا يكون بينهم"^٢.

"إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" "بِمَا" الموصول يعم، "تعملون": فعل في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: الضمير العائد. وفي هذه العبارة ترغيب في الخير والإحسان، وتحذير من الشر والإساءة.

قال الله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ * فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَدْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

هذا انتقال جليل من عالم المشاحة والشقاق، إلى عالم المسامحة والوفاق، من شرائع عقد النكاح وما يعرض له من العوارض، إلى شعيرة الصلاة، "وَذَلِكَ لِمَا فِيهَا مِنَ الْقِرَاءَةِ وَالْقِيَامِ وَالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَالْخُضُوعِ وَالْخُشُوعِ تُفِيدُ انْكِسَارَ الْقَلْبِ مِنْ هَيْبَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَزَوَالَ

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/٤٦٣

^٢ انظر: السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج ٢/٤٩٨

^٣ سورة البقرة الآيتان (٢٣٨-٢٣٩)

التَّمَرُّدُ عَنِ الطَّبْعِ، وَحُضُولُ الْإِنْتِقَادِ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِنْتِهَاءِ عَنْ مَنَاهِيهِ، كَمَا قَالَ: إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ^١.

قال تعالى: "حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى": "حَافِظُوا" الأمر للوجوب، وهو في سياق الإثبات مقيّد بالجواز والمجرور وما عطف عليه: "عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى"، "الصَّلَوَاتِ" "أل" للعموم، وهذا العموم مخصص بصفة تدرك بدلالة الاقتضاء والتقدير حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ المفروضة، والصلاة حقيقة شرعية للعبادة الخاصة، "وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى" من عطف الخاص على العام للاهتمام والعناية، وهي صلاة العصر لقوله صلى الله عليه وسلم: "مَالَا اللَّهُ بِيُيُوهَهُمْ وَقُبُورُهُمْ نَارًا، شَعَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى حِينَ غَابَتْ الشَّمْسُ"^٢، وفي رواية لمسلم: الصلاة الوسطى صلاة العصر حتى غابت الشمس، وهذا نص صريح على أنها صلاة العصر.

"وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ" الأمر للوجوب، والقيام ركن في الصلاة، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجواز والمجرور: "لِلَّهِ"، ومقيّد بالحال: "قَانِتِينَ"، القُتُوثُ: الطاعة و"الْخُضُوعُ وَالْخُشُوعُ"^٣. "فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا": "خِفْتُمْ" فعل في سياق الشرط يعمّ، مخصص بالمفعول به المقدّر: فَإِنْ خِفْتُمْ عَدُوًّا، "فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا": حالان لفعل مقدّر: فصلوا (صلاة الخوف) راجلين أو راكبين حسب وسعكم.

"فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ": "إِذَا" شرطية ظرفية تعمّ، "أَمِنْتُمْ" فعل في سياق الشرط يعمّ، والأمن: زوال الخوف، "فَأَذْكُرُوا" الأمر للوجوب، فعل في

^١ الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٦/٤٨٢ بتصرف.

^٢ البخاري ح ٢٩٣١ ومسلم ١٤٣٥

^٣ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/٤٦٩

سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "الله"، وبالمصدر المقدّر الموصوف: ذكرًا "كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ"، أي: أقيموا الصلاة قانتين خاشعين، فالذكر هنا الصلاة، والصلاة ذكر كما قال الله تعالى: "فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ" أي إلى صلاة الجمعة^١، "كَمَا عَلَّمَكُم" "ما" مصدرية والتقدير كتعليم الله لكم "مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ" "ما" موصول يعمّ، والفعل "تَعْلَمُونَ" في سياق النفي يعمّ.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾^٢:

"الَّذِينَ" الموصول يعمّ كلّ متوفى ترك زوجًا، "يُتَوَفَّوْنَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: "مِنْكُمْ"، "وَيَذَرُونَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "أَزْوَاجًا"، لفظ "أَزْوَاجًا" نكرة في سياق الإثبات يفيد الإطلاق، "وَصِيَّةً" مصدر منصوب بفعل مقدر: يوصون، ومادة وصية تدلّ على الأمر الجازم، وقد نسخت، ولا وصية لوارث، والواجب ما قرره لها الشرع من الميراث، وقال السعدي: "وأكثر المفسرين أن هذه الآية منسوخة بما قبلها وهي قوله: "وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرِثْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا"، وقيل لم تنسخها بل الآية الأولى دلّت على أن أربعة أشهر وعشر واجبة، وما زاد على ذلك فهي مستحبة ينبغي فعلها تكميلاً لحق الزوج، ومراعاة للزوجة، والدليل على أن ذلك مستحب أنه

^١ انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٦/ ٤٩١

^٢ سورة البقرة الآيتان (٢٤٠-٢٤١)

هنا نفى الجناح عن الأولياء إن خرجن قبل تكميل الحول، فلو كان لزوم المسكن واجبا لم ينف الحرج عنهم^١.

"أَزَوَّاجِهِمْ" نكرة مضافة إلى معرفة تعم، "مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ": "مَتَاعًا" نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالجَارِّ والمجرور: "إِلَى الْحَوْلِ"، وبالصفة: "غَيْرَ إِخْرَاجٍ"، ولفظ "مَتَاعًا" بدل من وصيّة، فهو مبين للوصية.

"فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ": "فَإِنْ خَرَجْنَ": الفعل في سياق الشرط يعم، "جُنَاحٌ" نكرة في سياق النفي تعم، "فِي مَا فَعَلْنَ": الجَارِّ والمجرور مقيّد لما تعلّق به الخبر، "فِيمَا فَعَلْنَ": "مَا" موصول يعمّ كلّ ما كان محرّمًا بالإحداد، "فَعَلْنَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بقيدين: الأول: الجَارِّ والمجرور: "بِأَنْفُسِهِنَّ" والثاني: الجَارِّ والمجرور: "بِالْمَعْرُوفِ"، "الْمَعْرُوفِ": صفة صريحة اسم مفعول يعم، "أَنْفُسِهِنَّ" نكرة مضافة إلى معرفة تعم.

"وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ": غالب على أمره، حكيم في قضائه وشرعه.

"وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ": "وَلِلْمُطَلَّقاتِ": صفة صريحة صلة "أَل"، فهي تعمّ كلّ مطلقة، وقد خصّصَ الجمهورُ هذا العموم بالآية السابقة، فاستثنوا المطلقة قبل الدخول، وقد فرض لها المهر^٢، "مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ": متاع نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالصفة التي تعلّق بها الجَارِّ والمجرور: "بِالْمَعْرُوفِ"، وهو ما تتمتع به المرأة من الأموال، "حَقًّا

^١ السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ج ١/١٠٦

^٢ ابن الجزي، التسهيل، مرجع سابق، ج ١/١٢٨

عَلَى الْمُتَّقِينَ": "حَقًّا": لفظ يدلّ بمادته على اللزوم، وقد تعلّق به الجارّ والمجرور: "على المتقين" للتهييج والإلهاب والتحريض، "الْمُتَّقِينَ" صفة صريحة تعمّ كلّ متقٍ وتومئ إلى علّة الحكم.

قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^١:

الفعل "يُبَيِّنُ" في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "لكم" وبالمفعول به: "آيَاتِهِ"، ولفظ "آيَاتِهِ" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، "لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ": للتعليل، والفعل "تَعْقِلُونَ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به المقدّر.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾^٢:

تمهّد هذه القصة لما ورد بعدها من الأمر بالقتال والإنفاق في سبيل الله تعالى، فهي "لِلتَّحْرِيزِ عَلَى الْجِهَادِ وَالتَّذْكِيرِ بِأَنَّ الْحَذَرَ لَا يُؤَخِّرُ الْأَجَلَ، وَأَنَّ الْجَبَانَ قَدْ يَلْقَى حَتْفَهُ فِي مَظْنَةِ النَّجَاةِ"^٣، ثمّ أحياهم؛ ليكونوا عبرة للناس.

"أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ": "أَلَمْ": الهمزة للاستفهام التقريري، فهذه "همزة الاستفهام دَخَلَتْ عَلَى حَرْفِ النْفْيِ، فَصَيَّرَتِ النْفْيَ تَقْرِيرًا، وَكَذَا كُلُّ اسْتِفْهَامٍ دَخَلَ عَلَى نْفْيٍ"^٤، والفعل "تَرَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا"، "الَّذِينَ" الموصول من صيغ العموم، "خَرَجُوا": فعل في سياق الإثبات

^١ سورة البقرة الآية (٢٤٢)

^٢ سورة البقرة الآية (٢٤٣)

^٣ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/٤٧٥

^٤ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢/٥٠٥

مقيّد بالجارّ والمجرور: مِنْ دِيَارِهِمْ، "دِيَارِهِمْ" نكرة مضافة إلى معرفة تعميم، والحال: وَهُمْ أُلُوفٌ، وألوف جمع كثرة، والثالث: المفعول لأجله: "حَذَرَ الْمَوْتَ".

"فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ": "قال": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "هُمُ"، وبمقول القول: "مُوتُوا"، والأمر للقضاء الكوني، "ثُمَّ أَحْيَاهُمْ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل.

"إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ": تصدير الجملة باسم الجلالة يفيد التعظيم، "فَضْلٍ" في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: عَلَى النَّاسِ، "النَّاسِ" في الموضعين للعموم، "لَا يَشْكُرُونَ" الفعل في سياق النفي يعمّ، وهو مخصّص بمقدّر: فضل الله عليهم.

قال الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^١:

"وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ": الأمر للوجوب، فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "فِي سَبِيلِ اللَّهِ" وسبيل نكرة مضافة إلى معرفة تعميم، "وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بما سدّ مسدّ مفعوليّه، والمقصود التطمين والترغيب في القتال.

قال الله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً

وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^٢:

^١ سورة البقرة الآية (٢٤٤)

^٢ سورة البقرة الآية (٢٤٥)

"مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا": الاستفهام للتحريض والتحضيض والترغيب في الإنفاق في سبيل الله تعالى، "مَنْ" اسم استفهام يعمّ، والاستفهام "الَّذِي": بدل من "ذا" الموصول يعمّ، "يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا": "يُقْرِضُ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "اللَّهُ"، والمفعول الثاني: قَرْضًا حَسَنًا، ويجوز أن يكون نائبًا عن المفعول المطلق، "قَرْضًا": نكرة مقيّدة بالصفة: "حَسَنًا"، والقَرْضُ: القَطْعُ؛ لأنه قَطُعُ شَيْءٍ من المال، هذا أصل الاشتقاق، ثم اختلف أهل العلم في القَرْض فقليل: هو اسم لكلِّ ما يُلْتَمَسُ الجزاءُ عليه. وقيل: أن تُعْطِيَ شيئاً ليرجع إليك مثله^١.

"فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً": "فَيُضَاعِفُهُ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجارّ والمجرور: "لَهُ"، وبالنائب عن المطلق: "أَضْعَافًا كَثِيرَةً"، وهو نكرة مقيّدة بالصفة: "كَثِيرَةً".

"وَاللَّهُ يَغْنِصُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" تصدير الجملة باسم الجلالة يفيد التعظيم، "يَغْنِصُ وَيَبْسُطُ": الفعلان في سياق الإثبات للإطلاق نزلاً منزلة اللازم، ويجوز تقييدهما بمحذوف للدلالة على العموم، "إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ": الفعل "تُرْجَعُونَ" في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "إِلَيْهِ"، وتقديم الجارّ والمجرور يفيد حصر، ومفهومه أن المرجع والمصير إلى الله تعالى وحده لا إلى غيره.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ شَيْءٍ يَفْعَلُونَ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾^١ اِبْعَثْ لَنَا مَلَكًا يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيَكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا

^١ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢ / ٥١١ بتصرف.

لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ^١:

تبين "قصة طالوت" فضل القتال في سبيل الله عز وجل، وتظهر حسن عاقبة من التزم أمر الله تعالى في المدافعة عن دين الله عز وجل، فنحن في هذه القصة أمام حدث عظيم، ومشروع جليل؛ تأسست عليه دولة مسلمة عالمية، وحضارة عاترة بالمنجزات والمعجزات، بدأت مسيرتها في المنفى وأرض الشتات، ثم رفع الله تعالى عمادها بطالوت وجنوده الربانيين المجاهدين، ثم خلقه داوود ثم سليمان عليهما السلام.

قال تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَاءِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى": "أَلَمْ": الهمزة للاستفهام التقريري، فهذه "همزة الاستفهام دخلت على حرف النفي، فصيرت النفي تقريراً، وكذا كل استفهام دخل على نفي"^٢، والفعل "تَرَ" فعل في سياق الإثبات مقيد بالجار والمجرور: "إِلَى الْمَاءِ"، "الْمَاءِ" اسم جمع لا واحد له من لفظه، محلى بـ"أَل" يعم كل واحد من الماء، والماء: "الأشرف"، سُموا بذلك لأنهم يملؤون العيون هيبةً، أو المجالس إذا حضروا، أو لأنهم مليئون بما يحتاج إليهم فيه"^٣، "مِنْ" للتبويض "بَنِي" نكرة مضافة إلى معرفة تعم، "مِنْ بَعْدِ مُوسَى": متعلق بما تعلّق به الجار الأول وهو الاستقرار، ولا يضُرُّ اتحاد الحرفين لفظاً لاختلافهما معنى، فإنَّ الأولى للتبويض والثانية لابتداء الغاية"^٤.

^١ سورة البقرة الآية (٢٤٦)

^٢ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢/٥٠٥

^٣ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢/٥١٣

^٤ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢/٥١٣

"إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّهِمْ أَنَبَتْ لَنَا مَلَكًا نُّقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ": "إِذْ" ظرف لما مضى من الزمن متعلق بفعل مقدر دلّ عليه السياق، والتقدير: "أَلَمْ تَرَ إِلَى قِصَّةِ الْمَلَأِ، أَوْ: حَدِيثِ الْمَلَأِ، وَمَا فِي مَعْنَاهُ. لِأَنَّ الدَّوَاتَ لَا يُتَعَجَّبُ مِنْهَا، وَإِنَّمَا يُتَعَجَّبُ مِمَّا جَرَى لَهُمْ، فَصَارَ الْمَعْنَى: أَلَمْ تَرَ إِلَى مَا جَرَى لِلْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى، إِذْ قَالُوا؟ فَالْعَامِلُ فِي: إِذْ، هُوَ ذَلِكَ الْمَحْذُوفُ، وَالْمَعْنَى عَلَى تَقْدِيرِهِ^١، "قَالُوا": فعل في سياق الإثبات مقيّد بقيدين: الأول: الجارّ والمجرور: "لَنَبِيِّهِمْ هُمْ"، "نَبِيٍّ" مطلق مقيّد بالصفة: "هُمْ"، والثاني: مقول القول: "أَنَبَتْ لَنَا مَلَكًا نُّقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"، وفعل الطلب وجوابه بقوة الأسلوب الشرطي، "أَنَبَتْ" صيغة افعل للالتماس، والفعل "أَنَبَتْ" في سياق الإثبات مقيّد بقيدين: الأول: الجارّ والمجرور: "لَنَا"، والثاني: المفعول به: "مَلَكًا"، وملكًا: نكرة في سياق الإثبات تفيد الإطلاق.

"نُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"، الفعل "نُقَاتِلُ" واقع في جواب الطلب، وهو في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "فِي سَبِيلِ اللَّهِ"، وسبيل نكرة مضافة إلى معرفة تعميم، "قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا": "قَالَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا"، "هَلْ عَسَيْتُمْ": الاستفهام للتقرير والتحذير، "عَسَيْتُمْ": "عسى واسمها، وخبرها {أَلَّا تُقَاتِلُوا} والشرطُ معترضٌ بينهما، وجوابه محذوفٌ للدلالة عليه، وهذا كما توسّط في قوله: {وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ} [البقرة: ٧٠]، وهذا على رأي مَنْ يَجْعَلُ «عسى» داخلةً على المبتدأ والخبر، ويقولُ إِنَّ «أَنَّ» زائدةٌ لئلا يُخْبَرَ بالمعنى عن العين. وأمّا مَنْ يرى أَنَّهَا تُضَمَّنُ معنى فعلٍ متعدٍ فيقول: «عَسَيْتُمْ» فعلٌ وفاعلٌ، و «أَنَّ»

^١ أبو حيان، البحر المحيط، مرجع سابق، ج ٢/٥٦٩

وما بعدها مفعولٌ به تقديره: هل قَارِئُكُمْ عدم القتالِ، فهي عنده ليست من النواسخ، والأول هو المشهور^١.

"إِنْ كُتِبَ": الفعل "كُتِبَ" يدلّ بمادته على الوجوب، وهو في سياق الشرط محصّص بالجارّ والمجرور: "عَلَيْكُمْ"، وبنائب الفاعل: "الْقِتَالُ"، "أَل" في القتال للعهد، "أَلَّا تُقَاتِلُوا": مؤول بنكرة مضافة إلى معرفة: عدم القتال، "أَلَّا تُقَاتِلُوا مُسْتَفْهَمٌ عَنْهُ هَلْ، وَخَبَرٌ لِعَسَى مُتَوَقَّعٌ، وَدَلِيلٌ عَلَى جَوَابِ الشَّرْطِ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ وَهَذَا مِنْ أَبْدَعِ الْإِيجَازِ فَقَدْ حَكَى جُمْلًا كَثِيرَةً وَقَعَتْ فِي كَلَامِ بَيْنَهُمْ، وَذَلِكَ أَنَّه قَرَّرَهُمْ عَلَى إِضْمَارِهِمْ نِيَّةَ عَدَمِ الْقِتَالِ اخْتِيارًا وَسَبْرًا لِمُقْدَارِ عَزْمِهِمْ عَلَيْهِ، وَلِذَلِكَ جَاءَ فِي الْإِسْتِفْهَامِ بِالنَّفْيِ فَقَالَ مَا يُؤَدِّي مَعْنَى «هَلْ لَا تُقَاتِلُونَ» وَلَمْ يَقُلْ: هَلْ تُقَاتِلُونَ لِأَنَّ الْمُسْتَفْهَمَ عَنْهُ هُوَ الطَّرْفُ الرَّاجِحُ عِنْدَ الْمُسْتَفْهَمِ، وَإِنْ كَانَ الطَّرْفُ الْآخَرُ مُقَدَّرًا، وَإِذَا خَرَجَ الْإِسْتِفْهَامُ إِلَى مَعَانِيهِ الْمَجَازِيَّةِ كَانَتْ حَاجَةُ الْمُتَكَلِّمِ إِلَى اخْتِيارِ الطَّرْفِ الرَّاجِحِ مُتَأَكِّدَةً.

وَتَوَقَّعَ مِنْهُمْ عَدَمَ الْقِتَالِ وَحَذَّرَهُمْ مِنْ عَدَمِ الْقِتَالِ إِنْ فُرضَ عَلَيْهِمْ، فَجُمْلَةُ: أَلَّا تُقَاتِلُوا يَتَنَازَعُ مَعْنَاهَا كُلٌّ مِنْ هَلْ وَعَسَى وَإِنْ، وَأُعْطِيَتْ لِعَسَى، فَلِذَلِكَ قُرِئَتْ بِأَنَّ، وَهِيَ دَلِيلٌ لِلْبَيِّنَةِ فَيُقَدَّرُ لِكُلِّ عَامِلٍ مَا يَقْتَضِيهِ. وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ التَّخْرِيسُ^٢.

"قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا": "قَالُوا": فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا"، "وَمَا" اسم استفهام يعمّ، والاستفهام إنكاريّ. "أَلَّا نُقَاتِلَ": المصدر المؤول مجرور

^١ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢/٥١٥

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢/٤٨٥

بحرف مقدر: في ترك القتال، مؤول بنكرة مضافة إلى معرفة: ترك القتال، وهو مخصص بمخصّصين: الأول: الجارّ والمجرور: "فِي سَبِيلِ اللَّهِ"، وسبيل نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، والثاني: الحال: "وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا"، "أُخْرِجْنَا": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا"، "دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا": نكرتان مضافتان تعمّان.

"فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ": الفاء استئنافية و "لما" حينية رابطة فيها معنى الشرط، "كُتِبَ" الفعل يدلّ بمادته على الوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "عَلَيْهِمْ"، وبنائب الفاعل: "الْقِتَالُ"، "أَل" في القتال للعهد، "تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ": "تَوَلَّوْا": فعل في سياق الإثبات يفيد الإطلاق، وضمير الفاعل عامّ خصّص بأداة استثناء "إِلَّا" "قَلِيلًا" مستثنى مقيّد بالصفة: مِنْهُمْ".

"وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ": تصدير الجملة باسم الجلالة يفيد التعظيم، "الظَّالِمِينَ" صفة صريحة تعمّ، والجملة للترهيب والتحذير.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^١:

"وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا": "قال": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "هُم"، ومقول القول: "إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا"، "بَعَثَ" الفعل في سياق الإثبات مقيّد بقيود: الأول: الجارّ والمجرور: "لَكُمْ" لأجلكم

^١ سورة البقرة الآية (٢٤٧)

ومصلحتكم، ذكر "اللام" بدلا عن "على" فيه تلطف، والثاني: المفعول به: طألوت، والثالث: الحال: "مَلِكًا".

"قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ":
"قَالُوا": فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا..."، "أَنَّى"
اسم استفهام للعموم، "يَكُونُ": فعل تامّ فاعله: "الملك"، وهو في سياق الإثبات مقيّد بقيود:
الأول: الجارّ والمجرور: "لَهُ" والثاني: الحال: "أَنَّى"، والثالث: جملة الحال وما عطف عليها:
"وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ"، "الْمُلْكُ" للعهد، "عَلَيْنَا" للاستعلاء متعلّق
بالمملك أو بحال من الملك.

"وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ": "يُؤْتَ" فعل في سياق النفي يعمّ، "سَعَةً": نكرة في
سياق النفي تعمّ، وحُصص بالصفة التي تعلّق بها الجارّ والمجرور: "مِنَ الْمَالِ"، "الْمَالِ": آل
للاستغراق، يعمّ كلّ مال.

"قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ...": "قَالَ" فعل في سياق
الإثبات مقيّد بمقول القول: "إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي
مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ"، "اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بقيدين:
الأول: المفعول به: الضمير المتصل، والثاني: الجارّ والمجرور: "عَلَيْكُمْ"، وقد استعمل حرف
الاستعلاء لكسر تمرّدهم وتعاليتهم بغير حقّ، وليبيان فضل الله على طألوت، "وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي
الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ": "وَزَادَهُ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بقيدين: المفعول به الأول: الضمير

المتصل، والمفعول به الثاني: "بَسْطَةً"، وبسطة نكرة مقيدة بالصفة: "فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ"، "أَل" فيهما للعهد أي وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي عِلْمِهِ وَجِسْمِهِ.

"وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ": الظاهر أنها من قول نبيهم عليه السلام لقومه موعظة وذكرى، "وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ": تصدير الجملة باسم الجلالة يفيد التعظيم والتسليم لأمره، "يُؤْتِي": فعل في سياق الإثبات مقيد بقيدين: المفعول به الأول: "مُلْكُهُ": نكرة مضافة إلى معرفة تعم ملكه الذي يؤتيه لعباده، والمفعول به الثاني: "مَنْ يَشَاءُ" والموصول يعم، والفعل "يَشَاءُ" في سياق الإثبات مقيد بمفعول به يدلّ عليه السياق: مَنْ يَشَاءُ إِبْتِءَاءً، "وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ": واسع ملكه وفضله عليم بما يصلح العباد، وبما يفعلون.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾^١:

"وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ" "قال": فعل في سياق الإثبات مقيد بالجار والمجرور: "لَهُمْ"، "نَبِيُّهُمْ": إضافة نبي للتعين، ومقول القول: "إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ"، "إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ" "آيَةً" نكرة مضافة إلى معرفة تعم، "مُلْكُهُ": نكرة مضافة إلى معرفة والإضافة هنا للعهد والتعين والتعريف، "أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ": "يَأْتِيَكُمُ": مقيد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبجمليتي الحال: الأولى: "فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ" والثانية: "تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ"، وأن والفعل مؤولان بمصدر: إتيان، وهو نكرة مضافة إلى

^١ سورة البقرة الآية (٢٤٨)

معرفة، وأل في "التَّائِبُوتُ" للعهد، "سَكِينَةُ" نكرة في سياق الإثبات مقيدة بالصفة: "مِنْ رَزَقَكُمْ"، "وَبَقِيَّةُ" نكرة مقيدة بالصفة: "مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ"، "ما" موصول عام، "تَرَكَ" فعل في سياق الإثبات مقيد بالضمير المقدر العائد على الموصول، "آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ": "آل" "مقحم لتفخيم شأنهما"^١، "تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ": "تَحْمِلُهُ": فعل في سياق الإثبات مقيد بالضمير المتصل، "الْمَلَائِكَةُ": "آل" للجنس.

"إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ": "آية" نكرة مقيدة بالصفة: "لَكُمْ"، "إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ": الشرط للتهييج والإلهاب.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^٢

"فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ": الفاء عاطفة، "ما" حينية رابطة فيها معنى الشرط، "فَصَلَ" الفعل في سياق الإثبات مقيد بالجار والمجرور: "بِالْجُنُودِ"، "الْجُنُودِ": للعموم العرفي يعم الجنود الذين استجابوا له، "قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ": "قال": فعل في سياق الإثبات مقيد بمقول القول: "إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ"، "بِنَهَرٍ": نكرة في سياق الإثبات مطلقة.

^١ الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ج ١/٢٩٤

^٢ سورة البقرة الآية (٢٤٩)

"فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ": "مَنْ" اسم شرط عام، "شَرِبَ" فعل في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بالجارّ والمجرور: "مِنْهُ"، "فَلَيْسَ مِنِّي": ليس من أنصاري وجندي، ومفهوم المخالفة: من لم يشرب منه، فهو مِنِّي، وهو ما ورد منطوقاً به، "وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ": "مَنْ" اسم شرط عام، "لَمْ يَطْعَمْهُ": الفعل في سياق النفي يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: بالضمير المتصل، ومخصّص بالاستثناء "إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ" قال الإمام الطبري: "ومن لم يطعم ماء ذلك النهر إلا غرفة يغترفها بيده، فإنه مني"^١.

وذهب آخرون إلى أن الاستثناء من "الجملة الأولى وهي: "فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي"، والجملة الثانية معترضة بين المستثنى والمستثنى منه، وأصلها التأخير، وإمّا قُدِّمَتْ لأنها تدلُّ عليها الأولى بطريق المفهوم، فإنه لما قال تعالى: "فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي" فُهِمَ مِنْهُ أَنَّ مَنْ لَمْ يَشْرَبْ فَإِنَّهُ مِنْهُ، فلَمَّا كَانَتْ مدلولاً عليها بالمفهوم صارَ الفصلُ بها كلاً فصل^٢. "إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ": من اسم موصول يعمّ، وهو مستثنى ممن لم يطعمه أو ممن شرب منه، "اغْتَرَفَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "غُرْفَةً بِيَدِهِ"، وغرفة نكرة مراد بها الوحدة وقد قيّدت بالصفة: "بِيَدِهِ"، "إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ"

"فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ" الفاء الفصيحة "شَرِبُوا": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "مِنْهُ"، "إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ" الاستثناء من الضمير "واو" الفاعلين، فهو مخصّص، "قَلِيلًا" نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالجارّ والمجرور: "مِنْهُمْ".

^١ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٣٤٢/٥

^٢ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٥١٣/٢

"فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ": الفاء عاطفة أو استئنافية، ولما اسمية ظرفية حينية وهي متضمنة معنى الشرط على كل حال^١، "جَاوَزَهُ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، "وَالَّذِينَ" موصول عامّ. "آمَنُوا" فعل في سياق الإثبات مقيّد بقوله: "معه".

"قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ": "قَالُوا": فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ"، "لَا طَاقَةَ": نكرة في سياق لا النافية للجنس نصّ في العموم. "وَجُنُودِهِ": نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ.

"قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ": "قال": فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ"، "الَّذِينَ" موصول عامّ، "يَظُنُّونَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بما سدّ مسدّ مفعوليه: "أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ"، "مُلَاقُوا اللَّهِ": الإضافة للعموم العرفي، "كَمْ": نكرة للتكثير مقيّد بالتمييز: "مِنْ فِئَةٍ"، فئة نكرة مقيّدة بالصفة: "قَلِيلَةٍ"، "غَلَبَتْ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بقيدين: الأول: المفعول به: "فِئَةً"، فئة نكرة مقيّدة بالصفة: "كَثِيرَةً"، والثاني: الجارّ والمجرور: "بِإِذْنِ اللَّهِ". "وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ": التصدير باسم الجلالة للتعظيم "الصَّابِرِينَ" صفة صريحة محلاة بـ"أل" تعمّ، وتومئ إلى علّة الحكم. من مقاصد الجملة التطمين والتأمين.

^١ انظر: درويش، إعراب القرآن وبيانه، مرجع سابق، ج ١ / ٣٧٢

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا
وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^١:

"وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى
الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ": الواو عاطفة أو استئنافية، ولما اسمية ظرفية متضمنة معنى الشرط، "بَرَزُوا" فعل
في سياق الإثبات مقيّد بالجَارّ والمجرور: "لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ"، "وَجُنُودِهِ" نكرة مضافة إلى معرفة
تعمّ، "قَالُوا": فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا
وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ، "أَفْرِغْ": عَلَيْنَا صَبْرًا" صيغة افعّل للدعاء، وهو فعل في سياق
الإثبات مقيّد بالجَارّ والمجرور: "عَلَيْنَا"، وبالمفعول به: "صَبْرًا"، وهو مطلق، "وَتَبَّثْ": صيغة
افعل للدعاء، وهو فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "أَقْدَامَنَا"، وأقدام نكرة مضافة إلى
معرفة تعمّ، "وَانصُرْنَا": صيغة افعّل للدعاء، وهو فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجَارّ والمجرور:
"عَلَى الْقَوْمِ" صيغة افعّل للدعاء، والقوم عامّ مخصوص بالصفة: "الْكَافِرِينَ"، وهي صفة صريحة
محلاة بـ"أل" تعمّ، وتومئ إلى علّة الحكم.

قال الله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ
وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى
الْعَالَمِينَ﴾^٢:

"فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل،
وبالجَارّ والمجرور: "بِإِذْنِ اللَّهِ"، "وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول

^١ سورة البقرة الآية (٢٥٠)

^٢ سورة البقرة الآية (٢٥١)

به: "جَالُوت"، "وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به الأول: الضمير المتصل، والثاني: "الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ"، "أل" في "الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ" للعهد، "وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجارّ والمجرور: "مِمَّا يَشَاءُ": "مَا" موصول يعمّ.

"وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ" "دَفْعُ" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: "النَّاسَ"، وأل في "النَّاسَ" للعموم، والناس مخصوص بالبدل: "بَعْضَهُمْ"، بدل بعضٍ مِنْ كُلِّ، "لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ": الفعل في سياق الإثبات للإطلاق، وهو علة الدفع، "وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ": "فَضْلٍ" التنكير للتعظيم والتكثير، وهو مقيّد: بالجارّ والمجرور: "عَلَى الْعَالَمِينَ"، أل في "الْعَالَمِينَ" للاستغراق.

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^١: "آيَاتُ": نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، "تَنْتَلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجارّ والمجرور: "عَلَيْكَ"، وبالحال: "بِالْحَقِّ"، "الْمُرْسَلِينَ" صفة صريحة محلاة بـ "أل" تعمّ.

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ

^١ سورة البقرة الآية (٢٥٢)

الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ^١:

"الرُّسُلُ" "أَل" للاستغراق، "مَنْ" موصول عامّ، "فَضَّلْنَا": الفعل في سياق الإثبات
مقيّد بالمفعول به: بَعْضُهُمْ، وبعض نكرة مضافة والإضافة للتعريف والتعيين، وبالجارّ والمجرور:
"عَلَى بَعْضٍ"، "مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ": "مَنْ" موصول عامّ، "كَلَّمَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد
بالمفعول به: الضمير العائد المقدّر: كَلَّمَهُ، "وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ": "وَرَفَعَ": فعل في سياق
الإثبات مقيّد بالمفعول به: بَعْضُهُمْ، والثاني: "دَرَجَاتٍ"، وتنكير درجات للتعظيم والتكثير.

"وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به الأول:
عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، وبالمفعول به الثاني: "الْبَيِّنَاتِ"، وأل للعهد، "وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ": الفعل في
سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجارّ والمجرور: "بِرُوحِ الْقُدُسِ"، "وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ": "شَاءَ": في سياق الشرط يعمّ،
وهو مخصّص بمفعول يدلّ عليه السياق، "مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ": "اقْتَتَلَ" الفعل في
سياق النفي يعمّ، مخصّص بالجارّ والمجرور: "مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ"، "الَّذِينَ" موصول
عامّ، "بَعْدِهِمْ": نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، "مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ"، ما: مصدرية،
والمصدر المؤول يعمّ، تقديره: مجيء البينات، "الْبَيِّنَاتُ" أل للعموم العرفي، "وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا":
الفعل في سياق الإثبات يفيد الاطلاق، "فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ": "مَنْ" موصول
عامّ، "آمَنَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور، والتقدير: آمن بالله واليوم الآخر،

^١ سورة البقرة الآية (٢٥٣)

"مَنْ كَفَرَ": "مَنْ" موصول عامّ، "كَفَرَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور، والتقدير: كفر بالله.

"وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا": "شَاءَ": فعل في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بمفعول يدلّ عليه السياق، "مَا أَفْتَتَلُوا": الفعل في سياق النفي يعمّ، "وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ": "يَفْعَلُ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "مَا يُرِيدُ"، "مَا" موصول عامّ "يُرِيدُ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به الضمير العائد.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا حُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^١:

"الَّذِينَ آمَنُوا" الموصول يعمّ المؤمنين، "آمَنُوا" فعل في سياق الإثبات يفيد الإطلاق، "أَنْفِقُوا" الأمر حقيقة للوجوب في النفقات الواجبات، وهو مجازا للندب في النفقات المندوبة، وهو فعل في سياق الإثبات مقيّد بقيدين: الأول: الجارّ والمجرور: "مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ": "من" للتبعيض، و"ما" موصول يعمّ، رَزَقْنَاكُمْ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به الأول: كاف المخاطبين، وبالمفعول الثاني: الضمير العائد، والثاني: الحال التي تعلّق به الجارّ والمجرور: "مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا حُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ"، "مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ": "قَبْلِ" نكرة مقيّد بالإضافة إلى مصدر مؤول بنكرة: من قبل إتيان "يَوْمٌ"، "يَوْمٌ" نكرة مقيدة بجملة الصفة:

^١ سورة البقرة الآية (٢٥٤)

"لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا حُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ"، والنكرات الثلاث: "يَبِيعُ وَحُلَّةٌ وَشَفَاعَةٌ" في سياق النفي تعم كل بيع وخلة وشفاعة، والحلّة: "خَالِصُ الْمَوَدَّةِ، مَأْخُوذَةٌ مِنْ تَحْلِيلِ الْأَسْرَارِ بَيْنَ الصَّدِيقَيْنِ"^١.

"وَالْكَافِرُونَ" صفة صريحة صلة آل تعم، "هُمُ" ضمير فصل لتوكيد النسبة، "الظَّالِمُونَ" صفة صريحة، تعريف جزئي الجملة يفيد الحصر والقصر، ومفهومه: الكافرون لا غيرهم هم الظالمون حقًا.

^١ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج ٣/٢٦٦

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾^١:

الحمد لله الحي القيوم الذي بلغني آية الكرسي وأسأله ربي أن ييسر لي إتمام تدبر هذا الكتاب الكريم، وإني لأجد نفسي في مقام عظيم بين يدي جنة عالية من المعاني، أصولها ثابتة، وفروعها في السماء، تغشاها من النفحات والبركات ما يجلّ عن الوصف، كيف لا وقد شارف الفؤاد أجلّ غاية، وأخذ بأطراف أعظم آية، فعن أبي بن كعب قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - "يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم". قال: قلت الله ورسوله أعلم. قال "يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم". قال قلت: "الله لا إله إلا هو الحي القيوم". قال فضرب في صدري وقال: "والله ليُهنِكَ العلمُ أبا المنذر"^٢.

وقد وردت بعد آية الكرسي خمس آيات مباركات كلها تبين الحقيقة الكبرى، وتعالج القضية الأولى قضية الألوهية والربوبية والأسماء الحسنى والصفات العلية، وقد وردت الآيات الست متوالية في سياق الترغيب في النفقة في سبيل الله تعالى، فقد سُبقت بقوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ"، وأتبع بالآيات الداعية إلى النفقة في سبيل، مطلعها قوله تعالى: "مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ".

^١ سورة البقرة الآية (٢٥٥)

^٢ صحيح مسلم ح ١٩٢١

"اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ": الله - تبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره - بدأ بالاسم الأعظم العلم الخاص به وحده؛ "لأنَّه طَرِيقٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمُسَمَّى الْمُتَفَرِّدِ بِهَذَا الْإِسْمِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ أَعْرَفُ الْمَعَارِفِ لِعَدَمِ اخْتِيَاغِهِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى مُسَمَّاهُ إِلَى قَرِينَةٍ أَوْ مُعَوْنَةٍ، لَوْلَا اخْتِمَالُ تَعَدُّدِ التَّسْمِيَةِ، فَلَمَّا انْتَفَى هَذَا الْإِخْتِمَالُ فِي اسْمِ الْجَلَالَةِ كَانَ أَعْرَفَ الْمَعَارِفِ لَا مُحَالَةً لَا سَتِغْنَائِهِ عَنِ الْقُرَائِنِ وَالْمُعُونَاتِ، فَالْقُرَائِنُ كَالْتَكْلُمِ وَالْخُطَابِ، وَالْمُعُونَاتُ كَالْمَعَادِ وَالْإِشَارَةِ بِالْيَدِ وَالصِّلَةِ وَسَبْقِ الْعَهْدِ وَالْإِضَافَةِ"^١. وقد أورد الله تعالى هذه الأخبار في ترتيب حكيم:

- "لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ": استهل هذه الأخبار بنفي صفة الألوهية عن كل معبود، وأثبتها لنفسه، "لَا إِلَهَ": "إِلَه" نكرة في سياق النفي نص في العموم، فهي تنفي ألوهية كل إله غير الله تعالى، فبدأ التعريف بنفسه المقدسة بكلمة التوحيد، ثم ثنى بالثناء على نفسه بصفتين من صفاته الحسنى:

- "الْحَيُّ الْقَيُّومُ"، "الْحَيُّ" أل للكمال: الكامل الحياة الذي لا يموت، وهو وحده الذي يهب الحياة ويقبضها، والحياة سر رباني يسري في الأحياء تحس به القلوب السليمة، فتمتلئ بالتسبيح والحمد لله رب العالمين. "القيوم": صيغة مبالغة على زنة "فَيَعُولُ مَنْ قَامَ بِالْأَمْرِ يَقُومُ بِهِ إِذَا دَبَّرَهُ"^٢، أي البالغ المنتهى في قيامه على شؤون خلقه، فهو وحده "القائم برزق ما خلق وحفظه"^٣. لقد أخبرنا عن صفاته الحسنى وعرفنا بنفسه في أعظم آية في القرآن الكريم؛ لننتقل في إصلاح الحياة عابدين له، مستعينين به متوكلين عليه وحده، ولنأوي إليه مطمئنين راضين بما قدر وقسم.

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١٧/٣

^٢ السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج ٥٤٠/٢

^٣ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٣٨٨/٥

- "لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ": الفعل في سياق النفي يعمّ، فينفي كلَّ أخذ، وخصّص بالمفعول به: الضمير المتصل، "سِنَّةٌ نكرة في سياق النفي تعمّ، والسَّنة "التَّعاس، وهو ما يتقدّم النوم من الفتور، "وَلَا نَوْمٌ": وكررت «لا» في قوله: «ولا نوم» تأكيداً، وفائدتها انتفاء كلِّ واحدٍ منهما، ولو لم تُذكرْ لاحتمالِ نفْيِهما بقيدِ الاجتماع، ولا يُلزَمُ منه نفْيُ كلِّ واحدٍ منهما على حدّته^١، "نوم": نكرة في سياق النفي تعمّ، وهذه الجملة الفعلية تنفي كلَّ عارض نقص، وتطمّن كلَّ مؤمن بأن وليّه الله الحيّ القيّوم لا ينام ولا يعزب عن علمه شيء، وفيها توكيد لكمال صفتي: "الحيّ القيّوم".

- "لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ": "لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ": "لَهُ" السلام للملكية، تقديم الخبر يفيد الحصر، ومفهومه: له لا لغيره، "مَا" الموصول يعمّ، "السَّمَاوَاتِ" "أل" للعهد، "وَمَا فِي الْأَرْضِ": "مَا" الموصول يعمّ، "الْأَرْضِ" "أل" للعهد، فهو مالك ما في السماوات والأرض الذي يصرف أمورها كيف يشاء، فما نطلبه فهو له ومن ملكه وما نحذره كذلك، فهو يتصرف فيه كيف يشاء.

- "مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ": "مَنْ ذَا" اسم استفهام يعمّ، وهو بمعنى النفي و"في هذا الاستفهام من الإنكار على من يزعم أن أحداً من عباده يقدر على أن ينفع أحداً منهم بشفاعته، أو غيرها، والتقريع، والتوبيخ له ما لا مزيد عليه، وفيه من الدفع في صدور عباد القبور، والصدّ في وجوههم، والفتّ في أعضادهم ما لا يقادر قدره، ولا يبلغ مداه^٢". "الَّذِي"

^١ السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج ٢/٥٤١-٥٤٢

^٢ الشوكاني، فتح القدير، مرجع سابق، ج ١/٣١١-٣١٢

الموصول للعموم، "يَشْفَعُ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالظرف: "عِنْدَهُ"، وبالحال الواقعة بعد الحصر: "إِلَّا بِإِذْنِهِ".

- "يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ": الفعل "يَعْلَمُ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به وما عطف عليه: "مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ"، "مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ"، "مَا" موصول يعمّ كل شيء في دنياهم، "وَمَا خَلْفَهُمْ"، "مَا" موصول يعمّ كل ما يستقبلونه في آخراهم^١.

- "وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ" "لَا يُحِيطُونَ" الفعل في سياق النفي يعمّ، فلا إحاطة لهم بشيء من علمه إلا بإذنه، "بِشَيْءٍ" نكرة في سياق النفي تعمّ كل شيء، "عِلْمِهِ" علم مضاف إلى الضمير فهو عامّ، يشمل العلمين:

علمه بنفسه: بذاته وأسمائه وصفاته، وأفعاله، وعظمته وجلاله وجماله وكماله. وعلمه بخلائقه: ما كان منها، وما هو كائن، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون. "إِلَّا بِمَا" إلا حاصرة وما بعدها بدل بإعادة الخافض، فهو مخصّص لـ "شيء"، "مَا" الموصول يعمّ، "شَاءَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقدّر.

- "وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ": "وَسِعَ" الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به وما عطف عليه: السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، "كُرْسِيُّهُ": الإضافة للتعريف والتشريف، "الذي تقتضيه الأحاديث أن الكرسي مخلوق عظيم بين يدي العرش، والعرش أعظم منه"^٢، "السَّمَاوَاتِ"، "أَل" للعموم، وفي الْأَرْضِ للعهد.

^١ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٥/٣٩٦

^٢ ابن عطية، المحرر الوجيز، مرجع سابق، ج ١/٣٤٢

"وَلَا يُؤُودُهُ حِفْظُهُمَا": الفعل في سياق النفي يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: الضمير المتصل، والمعنى: لا "يُثْقِلُهُ"، يُقَالُ: آدِنِي الشَّيْءُ بِمَعْنَى أَثْقَلَنِي وَحَمَلْتُ مِنْهُ الْمَشَقَّةَ، وَهَذَا فَسَّرَ اللَّفْظَةَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ^١. "وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ": ومن حكمته أن ختم أعظم آية بصفتي العلو والعظمة؛ ليفيض على القلوب بنعمة إجلاله وتعظيمه.

فائدة:

"قال الزمخشري:» فإن قلت: كيف تَرْتَبَّتِ الجمل في آية الكرسي غير حرف عطفي؟ قلت: ما منها جملةٌ إلا وهي واردةٌ على سبيل البيان لما تَرْتَبَّتْ عليه، والبيان مُتَّحِدٌ بِالْمَبْنَيْنِ، فلو تَوَسَّطَ بينهما عاطفٌ لكان كما تقول العرب: «بين العصا ولحائها» فالأولى بيانٌ لقيامه بتدبير الخلق وكونه مهيمناً عليه غير ساهٍ عنه، والثانية لكونه مالِكاً لما يدبره، والثالثة لكرياء شأنه، والرابعة لإحاطته بأحوال الخلق وعِلْمِهِ بالمرتضى منهم، المستوجب للشفاعة وغير المرتضى، والخامسة لسعة علمه وتعلُّقه بالمعلومات كلّها أو لجلاله وعِظَمِ قدرته «انتهى. يعني غالب الجمل وإلا فبعضُ الجمل فيها معطوفة وهي قوله:» ولا يُحِيطُونَ «وقوله» ولا يُؤُودُهُ «وقوله: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}»^٢.

قال الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ

وَيُؤْمِنَ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^٣:

^١ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج ٢/٢٧٨

^٢ السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج ٢/٥٤٦

^٣ سورة البقرة الآية (٢٥٦)

"لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ": "إِكْرَاهٌ" نكرة في سياق النفي تعمّ، "الدِّينِ" "أل" للعهد، "قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ": "تَبَيَّنَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجَار والمجرور: "مِنَ الْغَيِّ"، "الرُّشْدُ وَالْغَيُّ": "أل" فيهما للاستغراق.

"فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ" "مَنْ" اسم شرط يعمّ، "يَكْفُرُ": فعل في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بالجَار والمجرور: "بِالطَّاغُوتِ" "أل" للاستغراق، والطاغوتُ بناء مبالغة كالجَبَرُوت والملَكُوت. واشتقاقه من طَعَى يَطْعَى أو من طَعَا يَطْعُو^١، والطغيان تجاوز الحدّ، وهو في الاصطلاح: كل معبود من دون الله، "وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ": فعل في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بالجَار والمجرور: "بِاللَّهِ".

"فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا": "اسْتَمْسَكَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجَار والمجرور: "بِالْعُرْوَةِ"، وهي الحلقة تجعل في طرف الشيء لِيَقْبِضَ عليها من يتناول ذلك الشيء، قال السمين الحلبي: "والْعُرْوَةُ: موضعُ شَدِّ الأيدي، وأصلُ المادّةِ يَدُلُّ على التعلّق، ومنه: عَرَوْهُ: أَلَمَمْتُ بِهِ متعلّقاً، واعتراه الهَمُّ: تعلّق به"^٢. وهذا تمثيل بديع، فقد صوّر المؤمن بالله بالمستمسك بالعروة، فهي استعارة تصريحية مرشّحة، وزاد الصورة تأكيداً بوصف العروة بالوثقى حال كونها: "لَا انْفِصَامَ لَهَا"، "انْفِصَامٌ" نكرة في سياق النفي تعمّ، "وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ": وقد ختم الله تعالى هذه الآية بجملة جامعة جليّة: "وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"، فالله الذي شرع لنا ما شرع سميع لما نقول عليم بما نسرّ وما نعلن، وبما نفعل وما نذر، وبما يصلحنا عاجلاً وآجلاً.

^١ انظر: السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج ٢/٥٤٧-٥٤٨

^٢ السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج ٢/٥٤٨

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُوهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^١:

"اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا": "الَّذِينَ" موصول بـ"آمَنُوا" فعل في سياق الإثبات يفيد الإطلاق، والإيمان حقيقة شرعية، "يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ": "يُخْرِجُهُم": فعل في سياق الإثبات مقيد بالجاء والمجرور: "مِنَ الظُّلُمَاتِ" "إِلَى النُّورِ"، وهاتان الصورتان البديعتان حذف منهما المشبّه، وصرّح بالمشبّه به، فهما استعارتان تصرّحيّتان، فالظلمات هي ظلمات الضلال والباطل، والنور هو نور الهدى والحقّ.

"وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَمُ الطَّاغُوتُ" "الَّذِينَ" موصول بـ"كَفَرُوا" فعل في سياق الإثبات للإطلاق، والكفر حقيقة شرعية، "أُولَئِكَمُ" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، "الطَّاغُوتُ": أل للعموم بـ"كل معبود من دون الله"، "يُخْرِجُوهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ": "يُخْرِجُوهُمْ": فعل في سياق الإثبات مقيد بالجاء والمجرور: "مِنَ النُّورِ"، "إِلَى الظُّلُمَاتِ"، وهاتان الصورتان البديعتان حذف منهما المشبّه، وصرّح بالمشبّه به، فهما استعارتان تصرّحيّتان، فالنور هو نور الهدى والحقّ، والظلمات هي ظلمات الضلال والباطل، "أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"، "أَصْحَابُ" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ. هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ": تقديم الجاء والمجرور يفيد الحصر.

^١ سورة البقرة الآية (٢٥٧)

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ
إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ
الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^١:

"أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ": "أَلَمْ تَرَ" الاستفهام للتعجب، والفعل مقيّد
بالجارّ والمجرور: "إِلَى الَّذِي" والموصول للتعريف والتعيين، وهو هنا لمعهود خاص بينته جملة
الصلة: "حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ"، والفعل "حَاجَّ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: إِبْرَاهِيمَ،
وبالجارّ والمجرور: فِي رَبِّهِ، "أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ" المصدر المنسبك من أَنْ والفعل المقيّد بمفعوليه
يعمّ، والمعنى: لإيتاء الله هذا المجادل الملك، وهو في محل نصب مفعول لأجله بتقدير اللام،
"وفي كونه مفعولاً من أجله معنيان، أحدهما: أنه من باب العكس في الكلام بمعنى أنه وَضَعَ
المِحَاجَّةَ موضع الشكر، إذ كان من حَقِّه أن يشكر في مقابلة إتيان الملك، ولكنه عَمِلَ على
عكس القضية، والثاني: أَنَّ إيتاء الملك حَمَلَهُ على ذلك، لأنه أورثه الكِبَر والبَطَر، فتسبَّب
عنهما المِحَاجَّةُ"^٢، "الْمُلْكَ" "أَل" للعهد.

"إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ": "إِذْ": ظرف لما مضى من الزمان، واستظهر
العلامة ابو حيان أن الظرف "إِذْ" معمولٌ لحَاجَّ، قَالَ: فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول
القول: "رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ"، الفعلان: "يُحْيِي وَيُمِيتُ" في سياق الإثبات قيّد كل واحد
منهما بمفعول حذف للدلالة على العموم، أو أنهما نزلا منزلة الفعل اللازم فلا نقدر مفعولا.

^١ سورة البقرة الآية (٢٥٨)

^٢ السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج ٢/٥٤٨

"قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ": "قَالَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ"، الفعلان: "أُحْيِي وَأُمِيتُ" في سياق الإثبات قيّد كل واحد منهما بمفعول مقدر، أو أنهما نزلا منزلة الفعل اللازم فلا نقدر مفعولا.

"قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ": "قَالَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ"، تصدير الجملة باسم الجلالة "الله" في هذا الرد مهيب جليل يكاد القلب يتصدّع خشية ورهبة وتعظيماً له.

وقعت لي تجربة عجيبة وأنا أتدبر هذه القصة في عام (٢٠٠٣) قبل اثنين وعشرين عاماً من هذا اليوم الذي أكتب فيه هذه الكلمات (٢٤ من ذي القعدة ١٤٤٦هـ، ٢٢/٥/٢٠٢٥م)، وذلك أني حين تفكّرت في خطاب إبراهيم عليه السلام، وكيف انتقل من قوله: "ربي الذي يحيي ويميت" إلى قوله: "فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ"، أحسست وكأن المنزل الذي أنا فيه يهتزّ ويرتجّ، بل كنت أحسّ بارتجاج البيت وأسمع ارتجاج النافذة التي بجواري، ولست أدري أهو انفعال نفسي؟ أم تفاعل كوني؟

"يَأْتِي": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: "بِالشَّمْسِ"، و"مِنَ الْمَشْرِقِ" "أل" في: "الشَّمْسِ"، و"الْمَشْرِقِ" للعهد "فَأْتِ" الأمر للتحدّي والتعجيز، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: "بِهَا" و"مِنَ الْمَغْرِبِ"، "أل" في: "الْمَغْرِبِ" للعهد.

"فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ": "بُهِتَ": "فِعْلٌ مَبْنِيٌّ لِلْمَجْهُولِ يُقَالُ بَهِتَ فَبُهِتَ بِمَعْنَى أَعْجَزَهُ عَنِ الْجَوَابِ فَعَجَزَ أَوْ فَاجَأَهُ بِمَا لَمْ يَعْرِفْ دَفْعَهُ"^١، الذي للتعيين، "كفر": فعل في سياق الإثبات للإطلاق، والكفر حقيقة شرعية.

"وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ": تصدير الجملة باسم الجلالة للتعظيم والترهيب، "لَا يَهْدِي" الفعل في سياق النفي يعم، والهدى المنفي هدى التوفيق إلى طاعة الله تعالى، وهو هدى خاص، وهو مخصص بالمفعول به: "الْقَوْمَ" اسم جمع محلى بـ"أل" فهو عام، وهو مخصص بلفظ: "الظَّالِمِينَ"، وهذا اللفظ صفة صريحة "اسم فاعل" فهو يدلّ بمسلك الإيماء والتنبيه على علة نفي الهداية: وهو "الظلم".

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٣/ ٣٤

قال الله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^١:

"أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا": "أو كالذي مر على قرية" عطف على قوله: "ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه"، وإنما عطف قوله: "أو كالذي" على قوله: "إلى الذي حاج إبراهيم في ربه"، وإن اختلف لفظاهما، لتشابه معنييهما^٢، فهذا "عُطِفَ عَلَى الْمَعْنَى، فَقَوْلُهُ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ [البقرة: ٢٥٨] فِي مَعْنَى (أَلَمْ تَرَ كَالَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ) وَتَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ مَعْطُوفَةً عَلَيْهِ، وَالتَّقْدِيرُ: أَرَأَيْتَ كَالَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ، أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ، وَهُوَ قَوْلُ الْكِسَائِيِّ وَالْفَرَّاءِ وَأَبِي عَلِيٍّ الْفَارِسِيِّ، وَأَكْثَرُ النَّحْوِيِّينَ^٣، "الَّذِي" الاسم الموصول لمعهد خاص بينته جملة الصلة، "قَرْبَةٍ": نكرة في سياق الإثبات، وقد بينتها الجملة الحالية: "وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا"، "عُرُوشِهَا" نكرة مضافة إلى معرفة تعم.

"قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا": "قَالَ": فعل في سياق الإثبات مقيد بمقول القول: "أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا؟" "أَنَّى": الاستفهام للاستنكار والاستبعاد، "وجهان، أحدهما: أَنْ تَكُونَ بمعنى "متى" والثاني: أنها بمعنى كيف"^٤، فهي للعموم على كلا التقديرين،

^١ سورة البقرة الآية (٢٥٩)

^٢ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٥/٤٣٨

^٣ الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٧/٢٦

^٤ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢/٥٦٠

يُخَيِّي: فعل في سياق الإثبات مقيّد بثلاثة قيود: المفعول به: هَـذِهِ، والحال: اسم الاستفهام: أَنِي؟ وظرف الزمان: "بَعْدَ مَوْتِهَا".

"قَامَاتُهُ اللَّهُ مِئَةً عَامٌ ثُمَّ بَعَثَهُ": الفعل "قَامَاتُهُ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، والظرف: "مِئَةً عَامٌ"، "ثُمَّ بَعَثَهُ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، "قَالَ كَمْ لَبِثْتُ": جملة للاستئناف البياني: جواب سؤال مقدّر، "قَالَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "كَمْ لَبِثْتُ"، "لَبِثْتُ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول فيه: "كَمْ"، وكم اسم استفهام عامّ مخصّص بمميزه المقدّر: كم وقتاً لبثت.

"قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ": "قَالَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ"، "لَبِثْتُ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول فيه: "يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ"، ويوم: نكرة في سياق الإثبات للإطلاق.

"قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِئَةً عَامٌ": "قَالَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "بَلْ لَبِثْتُ مِئَةً عَامٌ": "لَبِثْتُ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول فيه: "مِئَةً عَامٌ"، "فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ": "فَانْظُرْ": الأمر للاعتبار، وهو فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ"، وبالحال: "لَمْ يَتَسَنَّهْ"، "طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ" نكرتان مضافتان عامتان، "لَمْ يَتَسَنَّهْ" لم يتغير، والفعل في سياق النفي يعمّ كلّ تسنّه وتغيّر، والهاء أصلية أو هاء سكت. واشتقاقه من السنة على الوجهين، لأنّ لامها هاء أو واو، وذلك أن الشيء يتغير بمرور الزمان"^١.

^١ الزمخشري، الكشف مرجع سابق، ج ١/٣٠٧

"وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ": "انْظُرْ": الأمر للاعتبار، وهو فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: "إِلَى حِمَارِكَ"، "حِمَارِكَ" الإضافة للعهد، "وَلَنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ": "معطوفٌ على محذوفٍ تقديرُهُ: فَعَلْنَا ذَلِكَ لَتَعْلَمَ قَدَرَتَنَا وَلَنَجْعَلَكَ"¹، "وَلَنَجْعَلَكَ": الفعل مقيّد بمفعوليه: الضمير المتصل، والثاني: "آيَةً"، آية نكرة مقيّدة بالصفة: "لِلنَّاسِ"، والناس: أل للاستغراق فهو عام.

"وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها حَمًا": "انْظُرْ": الأمر للاعتبار، وهو فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: "إِلَى الْعِظَامِ" "الْعِظَامِ" "أل" للعموم العرقيّ تعمّ كل العظام التي حوله، ويحتمل أن تكون "عظام الحمار، أو الأموات الذين تعجب من إحيائهم"²، "كَيْفَ": اسم استفهام يعمّ، وهو "منصوبٌ نصب الأحوال، والعاملُ فيها نُنْشِزُهَا"، "نُنْشِزُهَا": فعل مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالحال المتقدّم عليه: "كَيْفَ"، ومعناه: النشز الرفع، ننشزها "نرفع بعضها على بعض ونركبه عليه"³، وزعم بعضهم أن النشوز هو الارتفاع بالتدرج يقال: نشز ناب العير ارتفع قليلاً قليلاً⁴.

وجملة كيف ننشزها بدل من: العظام، في محل نصب، "وذلك أَنَّ نظَرَ البصرية تتعدّى بـ إلى، ويجوزُ فيها التعليقُ، فتكوّنُ الجملةُ في محلّ نصبٍ؛ لأن ما يتعدى بحرف الجر يكون ما بعده في محل نصب به. ولا بدّ من حَذْفِ مضافٍ لتصحّ البدلية، والتقدير: إلى حال

¹ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢/٥٦٦

² البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المحقق: محمد عبد

الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت ط ١ - ١٤١٨ هـ، ج ١/١٥٦

³ البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المرجع السابق، ج ١/١٥٦

⁴ انظر: السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢/٥٦٧

العظام"¹. "ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا": "نَكْسُوهَا": الفعل مقيّد بمفعوليه: الضمير المتصل، والثاني: "لَحْمًا"، ولحم نكرة في سياق الإثبات للإطلاق.

"فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ": الفاء استئنافية، ولما اسمية ظرفية حينية وهي متضمنة معنى الشرط، "تَبَيَّنَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: لَهُ، "قَالَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"، "أَعْلَمُ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بما سدّ مسدّ مفعوليه: "أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"، "كُلِّ" من صيغ العموم.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾²:

"وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى": الواو استئنافية، "إِذْ": في محل نصب مفعول به لفعل تقديره "اذكر"، قَالَ: فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى"، "أَرِنِي" الفعل للدعاء، وهو فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به الأول: الضمير المتصل، والثاني: الجملة المعلقة، "والرؤية هنا بصرية تتعدّى لواحدٍ، وَلَمَّا دَخَلْتُ هَمَزَةُ النُّقْلِ أَكْسَبَتْهُ مَفْعُولًا ثَانِيًا، والأول ياء المتكلم، والثاني الجملة الاستفهامية، وهي معلقة للرؤية، و "كيف" في محلّ نصبٍ: إمّا على التشبيه بالظرف، وإمّا على التشبيه بالحال"³،

¹ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢/٥٦٠

² سورة البقرة الآية (٢٦٠)

³ السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج ٢/٥٦٧

"كَيْفَ" اسم استفهام عام، تُخَيِّي فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "الْمَوْتَى"، "أَل" للعموم.

"قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ": قَالَ: فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "أَوَلَمْ تُؤْمِنْ": الهمزة هنا للتقرير، لأنّ الاستفهام إذا دخل على النفي قرّره، والفعل في سياق الإثبات يفيد الإطلاق، والإيمان حقيقة شرعية.

"قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي": قَالَ: فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي"، "لِيَطْمَئِنَّ" اللام للتعليل، والفعل في سياق الإثبات يفيد الإطلاق.

"قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ...": قَالَ: فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا"، "فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ": "فَخُذْ" ظاهر الأمر أنه للوجوب، ويحتمل أن يكون للإرشاد، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "أَرْبَعَةً" وهو نكرة مقيّدة بالصفة: "مِنَ الطَّيْرِ"، "الطَّيْرِ" "أَل" للاستغراق.

"فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ": "فَصُرْهُنَّ" ظاهر الأمر أنه للوجوب، ويحتمل أن يكون للإرشاد، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجارّ والمجرور: "إِلَيْكَ"، قال "نحويو البصرة (فصرهن إليك) سواء معناه إذا قرئ بالضم من الصاد وبالكسر في أنه معنيٌّ به في هذا الموضع التقطيع. قالوا: وهما لغتان: إحداهما: صار يصور، والأخرى: صار يصير"، "ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا": "اجْعَلْ" ظاهر الأمر أنه للوجوب، ويحتمل أن يكون

^١ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٥ / ٤٩٩

للإرشاد، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "عَلَى كُلِّ جَبَلٍ"، وبالحال: "منهنّ"، وبالمفعول به: "جُزْءًا"، "كُلِّ" من صيغ العموم، "جبل" نكرة تفيد الإطلاق، "جُزْءًا" النكرة للإطلاق.

"ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا": "ادْعُهُنَّ" ظاهر الأمر أنه للوجوب، ويحتمل أن يكون للإرشاد، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، "يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالحال: "سَعْيًا"، "وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ": "وَأَعْلَمُ": الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بما سدّ مسدّ مفعوليه: "أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"، تصدير الجملة باسم الجلالة يفيد التعظيم، وهو العزيز الغالب على أمره، الحكيم في خلقه وأمره.

قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^١:

"مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ": بدلالة الاقتضاء نقدر لفظاً دلّ عليه السياق: أجر أو صدقة قبل الاسم الموصول، وهذا المقدّر نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، "الَّذِينَ" الموصول يعمّ حسب صلته، فيشمل كلّ منفق ماله في سبيل الله، "يُنْفِقُونَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "أَمْوَالَهُمْ"، وهو نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ كلّ الأموال، وبالحال: "فِي سَبِيلِ اللَّهِ"، وسبيل نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ.

^١ سورة البقرة الآية (٢٦١)

"كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ": "حَبَّةٍ" نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالجملة الواقعة صفةً: "أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ"، والفعل "أَنْبَتَتْ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "سَبْعَ سَنَابِلٍ"، وسنابل نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالجملة الواقعة صفةً: "فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ"، "كُلِّ" من صيغ العموم، وحبّة نكرة في سياق الإثبات تفيد الإطلاق.

"وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ": تصدير الجملة باسم الجلالة يفيد التعظيم والتكريم، "يُضَاعِفُ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بقيدين: الأول: المفعول به المقدّر، والثاني: الجارّ والمجرور: "لِمَنْ يَشَاءُ"، "لِمَنْ" الاسم الموصول يعمّ، "يَشَاءُ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به مقدّر، "وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ": تصدير الجملة باسم الجلالة يفيد التعظيم وهو واسع الرحمة والفضل، عليم بكلّ شيء لا تخفى عليه نية متصدّق ولا نفقة منفق.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى هُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^١:

"الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ": "الَّذِينَ" الموصول يعمّ حسب صلته، فيشمل كلّ منفق ماله في سبيل الله، "يُنْفِقُونَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "أَمْوَالَهُمْ"، وهو نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ كلّ الأموال، وبالحال: "فِي سَبِيلِ اللَّهِ"، وسبيل نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ.

^١ سورة البقرة الآية (٢٦٢)

"ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مِنْهُ وَلَا أَدَى": وَالْعَطْفُ بحرف التراخي "ثُمَّ" فيه استبعاد وتنزيه للمنفقين في سبيل الله تعالى عن الوقوع في المنّ والأذى؛ لأن الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله تعالى يغلب عليهم الخير وحبّ الإحسان، ولكن قد يستجدّ لبعضهم على تراخٍ ما يحملهم على المنّ والأذى، "لَا يُتَّبَعُونَ" الفعل في سياق النفي يعمّ، يدلّ بمنطوقه على نفي إتباع النفقة بالمنّ والأذى، ومن باب أولى نفي الأذى أثناء الإنفاق، فالأذى إذا صدر من المنفق وقت إخراجه النفقة كان أشدّ وأفحش، وهو مخصص بالمفعول به الأول: "مَا أَنْفَقُوا"، والاسم الموصول يعمّ، والفعل "أَنْفَقُوا" في سياق الإثبات مقيّد بمفعول به: الضمير العائد، والمفعول به الثاني: "مِنْهُ وَلَا أَدَى"، ومنّ وأذى نكرتان في سياق النفي تعمّان كل منّ وأذى.

"لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ": "أَجْرُهُمْ" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، عِنْدَ رَبِّهِمْ، "وَلَا خَوْفٌ": نكرة في سياق النفي تعمّ، "وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ": الفعل في سياق النفي يعمّ.

قال الله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾^١:

"قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَى": "قَوْلٌ" نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالصفة: "مَعْرُوفٌ"، "مَغْفِرَةٌ" نكرة في سياق الإثبات مطلقة، ومغفرة لمن أساء في تعامله وتجاوز وتعدّى، "صَدَقَةٍ": نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالصفة: "يَتْبَعُهَا أَدَى"، والفعل "يَتْبَعُهَا" في سياق الإثبات مقيّد بمفعول به: الضمير المتصل، "أَدَى" مطلق يصدق على كلّ أذى كبير أو صغير. "وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ": تصدير الجملة باسم الجلالة يفيد التعظيم، وهو غني

^١ سورة البقرة الآية (٢٦٣)

عن خلقه وعن نفقة المنفقين، حلیم يتجاوز عن سيئات المعتدين المتجاوزين حدوده، ويقل عثرات العاثرين.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^١:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا": الموصول يعم، "آمَنُوا" فعل في سياق الإثبات يفيد الإطلاق، والإيمان حقيقة شرعية، "لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى": "لَا تُبْطِلُوا" النهي للتحريم، والفعل في سياق النهي يعم، وهو مخصص بثلاثة مخصصات: المفعول به: "صَدَقَاتِكُمْ"، وصدقات نكرة مضافة إلى معرفة تعم كل صدقة، والمخصص الثاني: "بِالْمَنِّ وَالْأَذَى" "أل" فيهما للاستغراق والعموم، المخصص الثالث الحال: (الكاف بمعنى مشبهين^٢): "كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ"، "كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ": "كَالَّذِي" الموصول من صيغ العموم، "يُنْفِقُ": فعل في سياق الإثبات مقيد بمقيدين: الأول المفعول به: "مَالَهُ"، ومال نكرة مضافة إلى معرفة تعم، والثاني: المفعول لأجله "رِثَاءَ النَّاسِ" "النَّاسِ" عام، "وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ"، وما عاطف جملة "لَا يُؤْمِنُ" على "يُنْفِقُ"، "يُؤْمِنُ": فعل في سياق النهي يعم، وهو مخصص بالجار والمجرور: "بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ".

"فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا": "الصَّفْوَانُ: حَجَرٌ كَبِيرٌ أَمْلَسٌ، وَالْوَابِلُ: الْمَطَرُ الشَّدِيدُ، وَبَلَغَتِ السَّمَاءُ تَبِلًا، وَالصَّلْدُ:

^١ سورة البقرة الآية (٢٦٤)

^٢ السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج ٢/٥٨٥

الأجرُ الأملس^١، الفاء استئنافية، "صَفْوَانٍ": نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالجملة الواقعة صفة له: "عَلَيْهِ تُرَابٌ"، "تراب" نكرة في سياق الإثبات تفيد الإطلاق، "فَأَصَابَهُ وَابِلٌ": "شَيْءٌ" نكرة في سياق النفي تعمّ، "ما" الموصولة عامّة.

"وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ" تصدير الجملة باسم الجلالة يفيد التعظيم، والترهيب، "لَا يَهْدِي" الفعل في سياق النفي يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به "الْقَوْمَ"، والقوم عامّ مخصوص بالوصف: "الْكَافِرِينَ"، واسم الفاعل صفة صريحة تدلّ على علة نفي الهداية المدركة بمسلك الإيماء والتنبيه، فالكفر هو العلة، والهدى المنفي هدى التوفيق لوجود المخصصات المنفصلة التي تعارض العموم اللفظي لهذا النص.

قال الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَنْبِيئًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^٢:

"وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَنْبِيئًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ": "الَّذِينَ" من صيغ العموم، "يُنْفِقُونَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بثلاثة قيود: القيد الأول: "أَمْوَالَهُمْ"، "أَمْوَالَهُمْ" وهو نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، القيد الثاني: "ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ" (أعربها بعضهم حالاً أي: مبتغين مرضاة الله، لأن المعطوف عليه "تَنْبِيئًا" يعسر تأويله بالمفعول لأجله)، والقيد الثالث: "وَتَنْبِيئًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ" أي: مثبتين "مِنْ أَنْفُسِهِمْ"، وأنفس نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ،

^١ السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج ٢ / ٥٨٦ - ٥٨٨ بتصرف.

^٢ سورة البقرة الآية (٢٦٥)

"كَمَثَلِ جَنَّةٍ يَرْبُوَّةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ":
 "جَنَّةٍ" نكرة في سياق الإثبات قيّدت بالأوصاف التي بعدها: الوصف الأول: شبه الجملة:
 "يَرْبُوَّةٍ"، وربة: نكرة في سياق الإثبات تفيد الإطلاق، والثاني: جملة "أَصَابَهَا وَابِلٌ" وما عطف
 عليها: "فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ"، والفعل "أَصَابَهَا" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير
 المتصل، ولفظ "وَابِلٌ" نكرة في سياق الإثبات تفيد الإطلاق، والفعل "فَآتَتْ" في سياق
 الإثبات مقيّد بالمفعول به: "أُكُلَهَا"، وأكلها نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، وبالحال: "ضِعْفَيْنِ"،
 "وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ": التصدير باسم الجلالة للتعظيم والتطمين، "بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ": تقديم
 الجارّ والمجرور للاهتمام والعناية، "بِمَا" الموصول يعمّ، والفعل "تَعْمَلُونَ" في سياق الإثبات مقيّد
 بالمفعول به: الضمير العائد المقدّر، ويجوز أن تكون "مَا" مصدرية، والمقدّر نكرة مضافة تعمّ،
 أي: بعملكم.

قال الله تعالى: ﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ
 فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾^١:

أخرج البخاريّ في صحيحه أن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ "يَوْمًا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فِيمَ تَرَوْنَ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ: {أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ} [البقرة: ٢٦٦]؟
 قَالُوا: اللَّهُ أَعْلَمُ، فَعَضِبَ عُمَرُ فَقَالَ: «قُولُوا نَعْلَمُ أَوْ لَا نَعْلَمُ»، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي نَفْسِي
 مِنْهَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ عُمَرُ: «يَا ابْنَ أَخِي قُلْ وَلَا تَحْقِرْ نَفْسَكَ»، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:

^١ سورة البقرة الآية (٢٦٦)

ضُرِبَتْ مَثَلًا لِعَمَلٍ، قَالَ عُمَرُ: «أَيُّ عَمَلٍ؟» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِعَمَلٍ، قَالَ عُمَرُ: «لِرَجُلٍ غَنِيٍّ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ لَهُ الشَّيْطَانَ، فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ»^١.

"أَيُّوْدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ": "أَيُّوْدُ": الاستفهام للإنكار، والفعل في سياق الاستفهام الذي بمعنى النفي يعم، وقد خصَّص بمخصَّصين: الأول: المفعول به: المصدر المنسبك من أن والفعل: "أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ"، والمخصَّص الثاني: جملة الحال: "وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ"، "أَحَدُكُمْ" نكرة مضافة إلى معرفة تعم، "جَنَّةٌ" نكرة في سياق الإثبات مقيدة بالأوصاف التي بعدها:

الوصف الأول: شبه الجملة: "مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ"، ونخيل وأعناب نكرتان في سياق الإثبات للإطلاق.

والوصف الثاني: جملة "تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ"، الفعل "تَجْرِي" في سياق الإثبات مقيد بشبه الجملة: "مِنْ تَحْتِهَا"، "الْأَنْهَارُ" "أل" للعموم العربي.

والوصف الثالث: جملة "لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ": "كُلِّ" من صيغ العموم، "الثَّمَرَاتِ" أل للاستغراق.

"وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ": الواو حالية يقدر النحاة بعدها "قد"^٢، والفعل "أَصَابَهُ" في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: الضمير المتصل، وجملة الحال: "وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ"، "ذُرِّيَّةٌ" نكرة في سياق الإثبات مقيدة بالصفة: "ضُعَفَاءُ".

^١ رواه البخاري ح ٤٥٣٨

^٢ نظر: السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج ٢/٥٩٧

"فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ": الفاء عاطفة للجملة الفعلية على صفة الجنة، "أَصَابَهَا": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، "إِعْصَارٌ" نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بجملة: "فِيهِ نَارٌ"، ونار نكرة في سياق الإثبات مطلقة، "الإعصار: الريح الشديدة المرتفعة، وتسمّيها العامة: الزّوبعة"^١.

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ: الفعل "يُبَيِّنُ" في سياق الإثبات مقيّد بالجار والمجرور: "لَكُمُ"، وبالمفعول به: "الآيَاتِ"، "أَل" في "الآيَاتِ" للعموم العرفي، "لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ": لعلّ للتعليل، والفعل "تَتَفَكَّرُونَ" في سياق الإثبات حذف معموله؛ ليفيد العموم: لعلكم تتفكرون فيما ينفعكم؛ فتأخذوا به، وما يضرّكم؛ فتجتنبوه.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾^٢:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ" "الَّذِينَ آمَنُوا" الموصول يعمّ المؤمنين، "آمَنُوا" فعل في سياق الإثبات يفيد الإطلاق، "انْفِقُوا" "الْأَمْزُ يُجْوزُ أَنْ يَكُونَ لِلْجُوبِ فَتَكُونَ الْآيَةُ فِي الْأَمْرِ بِالزَّكَاةِ، أَوِ لِلنَّدْبِ وَهِيَ فِي صَدَقَةِ التَّطَوُّعِ، أَوْ هُوَ لِلْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ فِي الطَّلَبِ فَتَشْمَلُ الزَّكَاةَ وَصَدَقَةُ التَّطَوُّعِ، وَالْأَدِلَّةُ الْأُخْرَى تُبَيِّنُ حُكْمَ كُلِّ. وَالْقَيْدُ بِالطَّيِّبَاتِ يُنَاسِبُ تَعْمِيمَ النَّفَقَاتِ.

^١ السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج ٢/٥٩٨

^٢ سورة البقرة الآية (٢٦٧)

وَالْمُرَادُ بِالطَّيِّبَاتِ خِيَارُ الْأَمْوَالِ، فَيُطْلَقُ الطَّيِّبُ عَلَى الْأَحْسَنِ فِي صِنْفِهِ. وَالْكَسْبُ مَا يَنَالُهُ الْمَرْءُ بِسَعْيِهِ كَالْتِجَارَةِ وَالْإِجَارَةِ وَالْغَنِيمَةِ وَالصَّيْدِ.

وَيُطْلَقُ الطَّيِّبُ عَلَى الْمَالِ الْمُكْتَسَبِ بِوَجْهِ حَلَالٍ لَا يُخَالِطُهُ ظُلْمٌ وَلَا غِشٌّ، وَهُوَ الطَّيِّبُ عِنْدَ اللَّهِ^١.

و"أَنْفَقُوا" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجواز والمجرور وما عطف عليهما: "مِنْ طَيِّبَاتٍ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ"، "مِنْ" للتبعيض، "طَيِّبَاتٍ" نكرة مضافة إلى معرفة تعميم، "ما" موصول يعم، "كَسَبْتُمْ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير العائد، "وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ" "ما" موصولة تعميم، والإنفاق الواجب مخصوص بأدلة أخرى كقوله عليه الصلاة والسلام: "لَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسَةِ أَوْسُقٍ صَدَقَةٌ"^٢ و"فِي الرِّكَازِ الْخُمْسُ"^٣.

"أَخْرَجْنَا" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير العائد، وبالجواز والمجرور: "لَكُمْ" وبالحال: "مِنْ الْأَرْضِ".

"وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ" "وَلَا تَيَمَّمُوا" النهي عن قصد الشيء الرديء للإنفاق منه حقيقة للتحريم إن كانت النفقة واجبة، وهو مجاز للكرهية في النفقة نافلة، فعل في سياق النهي يعم، وهو مخصص بالمفعول به: "الْخَبِيثَ"، وبجملة الحال: "مِنْهُ تُنْفِقُونَ"، "أَل" في "الْخَبِيثَ" للعموم، يعم كل رديء لا يستحسنه الناس وإن كان حلالاً، وليس المقصود بالخبيث

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٣/٥٦

^٢ البخاري ح ١٤٤٧، ومسلم ح ٢٣١٣

^٣ أبو داود ح ٣٠٨٧

المحرم؛ لأن المحرم يحرم إعطاؤه وأخذه، "يقال: "تأمت فلانا"، و"تيممته"، و"أتمته"، بمعنى: قصدته وتعمدته"^١.

"مِنْهُ تُنْفِقُونَ": تقديم الجارّ والمجرور: "مِنْهُ" "لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْإِحْتِصَاصِ"^٢، تُنْفِقُونَ: فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "مِنْهُ".

"وَلَسْتُمْ بِأَخِيهِ إِلَّا أَنْ تُعْمِضُوا فِيهِ": الواو استئنافية، "الإغماض غَضَّ البصر، وأراد ها هنا التجوز والمساهلة، معناه لو كان لأحدكم على رجل حقّ فجاءه بهذا لم يأخذه إلا وهو يرى أنه قد أغمض له عن حقه وتركه"^٣، "وَلَسْتُمْ بِأَخِيهِ": اسم الفاعل يتضمن مصدرًا في سياق النفي يفيد العموم، فهو ينفي كلّ أخذ في أي حال من الأحوال، "إِلَّا أَنْ تُعْمِضُوا فِيهِ": "إِلَّا" أداة حصر وأن والفعل مؤنّولان بمصدر "منصوب بنزع الخافض أي: بأن تغمضوا، والتقدير: بإغماضكم فيه، والجار والمجرور متعلقان بأخذه، في هذه الآية استعارة تصريحية وذلك في قوله: "إِلَّا أَنْ تُعْمِضُوا فِيهِ": شبه التجاوز عن الشيء الجدير بالمؤاخذة بغض العين عما يتفادى المرء رؤيته مما يكره"^٤.

"وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ": الأمر بالعلم بأن الله غنيّ حميد للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بما سدّ مسدّ مفعوليه، والمعنى: "واعلموا أيها الناس أن الله عز وجل غني عن صدقاتكم وعن غيرها، وإنما أمركم بها، وفرضها في أموالكم، رحمة منه لكم ليغني بها عائلكم. ويقوي بها ضعيفكم، ويجزل لكم عليها في الآخرة مثوبتكم، لا من حاجة به فيها

^١ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٥٨/٥

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٥٧/٣

^٣ البغوي، معالم التنزيل، مرجع سابق، ج ٣٣٣/١

^٤ درويش، إعراب القرآن وبيانه، مرجع سابق، ج ١/٤١٧ - ٤١٨ بتصرّف.

إليكم. ويعني بقوله: "حميد"، أنه محمود عند خلقه بما أولاهم من نعمه، وبسط لهم من فضله^١.

قال الله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^٢:

"الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ": "الشَّيْطَانُ": "أل" للاستغراق، "يَعِدُكُم": فعل في سياق الإثبات مقيّد بمفعوليه: الأول: الضمير المتصل، والثاني: "الْفَقْرَ" لتعريف الجنس، "وَالْفَقْرُ شِدَّةُ الْحَاجَةِ إِلَى لَوَازِمِ الْحَيَاةِ لِقَلَّةِ أَوْ فَقْدِ مَا يُعَاوِضُ بِهِ، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنْ فَقَارِ الظَّهْرِ، فَأَصْلُهُ مَصْدَرٌ فَقَرَهُ إِذَا كَسَرَ ظَهْرَهُ، جَعَلُوا الْعَاجِزَ مِمَّنْزِلَةً مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ أَذْنَى حَرَكَةٍ لِأَنَّ الظَّهْرَ هُوَ مَجْمَعُ الْحَرَكَاتِ، وَمِنْ هَذَا تَسْمِيَتُهُمُ الْمُصِيبَةَ فَاقِرَةً، وَقَاصِمَةَ الظَّهْرِ"^٣.

"وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ": "وَيَأْمُرُكُم": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجار والمجرور: "بِالْفَحْشَاءِ"، "أل" للاستغراق فيشمل كل شيء محرم قبيح، وأصل الفحش تجاوز الحد في السوء.

"وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا": التصدير باسم الجلالة للتعظيم والتطمين، "يَعِدُكُم": فعل في سياق الإثبات مقيّد بمفعوليه: الأول: الضمير المتصل، والثاني: "مَغْفِرَةً مِنْهُ": نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالجار والمجرور: "مِنْهُ"، وفي هذا القيد تفخيم وتعظيم، "وَفَضْلًا" التنكير للتعظيم والتكثير، "وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" تبشير وترغيب في ابتغاء فضل الله تعالى.

^١ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٥/٥٧٠

^٢ سورة البقرة الآية (٢٦٨)

^٣ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٣/٥٩

قال الله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^١:

"يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ": "يُؤْتِي" فعل في سياق الإثبات مقيّد بمفعوليّه: الأول: الْحِكْمَةُ، "الْحِكْمَةُ" "أَل" للعموم، والثاني: "مَنْ يَشَاءُ"، "من" موصول يعمّ، "يَشَاءُ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بمفعول مقدر.

"وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا" "من" اسم الشرط يعمّ، "يُؤْتَ" فعل في سياق الشرط مخصّص بمفعوله: "الْحِكْمَةُ"، "الْحِكْمَةُ" "أَل" للعموم، "فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا": "أُوتِيَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بمفعوله: "خَيْرًا"، وخير نكرة مقيدة بالصفة: "كَثِيرًا".

"وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ" "وَمَا يَذَّكَّرُ": الفعل في سياق النفي يعمّ، "إِلَّا" حاصرة، "أُولُو الْأَلْبَابِ" أولوا نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ كلّ أصحاب العقول، "الألباب": "أَل" للاستغراق.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾^٢:

"وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ": "مَا" اسم شرط عامّ، وهو مفعول به للفعل الذي بعده، والفعل "أَنْفَقْتُمْ" في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: اسم الشرط

^١ سورة البقرة الآية (٢٦٩)

^٢ سورة البقرة الآية (٢٧٠)

المتقدم "ما"، "مِنْ نَفَقَةٍ" متعلق بصفة مخصصة لاسم الشرط، ولفظ "نَفَقَةٍ" نكرة في سياق الشرط تعميم، "أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ": "نَذَرْتُمْ" فعل في سياق الشرط يعميم، وهو مخصص بالمفعول به، و"نَذْرٍ" نكرة في سياق الشرط تعميم كل نذر، والنذر: هو "ما أوجبه المرء على نفسه تبرؤاً في طاعة الله، وتقرباً به إليه: من صدقة أو عمل خير"^١.

"فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ": "يَعْلَمُهُ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بمفعوله: الضمير المتصل، "لِلظَّالِمِينَ" صفة صريحة تعميم كل ظالم، "مِنْ أَنْصَارٍ" نكرة في سياق النفي مسبقة بحرف "من" فهي نص في العموم تشمل كل نصير، "وَالْأَنْصَارُ جَمْعُ نَصِيرٍ، وَنَفْيُ الْأَنْصَارِ كِنَايَةٌ عَنْ نَفْيِ النَّصْرِ وَالْعَوْتِ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ ظَاهِرٌ، وَفِي الدُّنْيَا لِأَنَّهُمْ لَمَّا بَخُلُوا بِنَصْرِهِمُ الْفَقِيرَ بِأَمْوَالِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ يُعْدِمُهُمُ النَّصِيرَ فِي الْمَضَائِقِ، وَيُقَسِّسِي عَلَيْهِمْ قُلُوبَ عِبَادِهِ، وَيُلْقِي عَلَيْهِمُ الْكَرَاهِيَةَ مِنَ النَّاسِ"^٢.

قال الله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْثَرُهَا الْفُقَرَاءُ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^٣:

"إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ": "تُبْدُوا" فعل في سياق الشرط يعميم، وهو مخصص بالمفعول به: "الصَّدَقَاتِ"، "أَل" في "الصَّدَقَاتِ" للاستغراق والعموم، "فَنِعِمَّا": نعم: فعل في سياق الإثبات مقيّد بالتمييز "ما".

^١ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٥/٥٨٠

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٣/٦٦

^٣ سورة البقرة الآية (٢٧١)

"فَنِعْمًا أَصْلُهُ فَنِعَمَ مَا، فَأُدْغِمَ الْمِثْلَانِ وَكُسِرَتْ عَيْنُ نِعَمَ لِأَجْلِ التَّقَاءِ السَّاكِنَيْنِ، وَمَا فِي مِثْلِهِ نَكْرَةٌ تَامَّةٌ أَيْ مُتَوَعِّلَةٌ فِي الْإِنْجَامِ لَا يُقْصَدُ وَصْفُهَا بِمَا يُخَصِّصُهَا، فَتَمَامُهَا مِنْ حَيْثُ عَدَمُ إِتْبَاعِهَا بِوَصْفٍ لَا مِنْ حَيْثُ إِتْبَاعُهَا وَاضِحَةُ الْمَعْنَى، وَلِذَلِكَ تَفْسَّرُ بِشَيْءٍ. وَلَمَّا كَانَتْ كَذَلِكَ تَعَيَّنَ أَنَّ تَكُونَ فِي مَوْضِعِ التَّمْيِيزِ لِضَمِيرِ نِعَمِ الْمَرْفُوعِ الْمُسْتَتِرِ، فَالْقَصْدُ مِنْهُ التَّنْبِيهُ عَلَى الْقَصْدِ إِلَى عَدَمِ التَّمْيِيزِ حَتَّى إِنَّ الْمُتَكَلِّمَ - إِذَا مَيَّرَ - لَا يُمَيِّرُ إِلَّا بِمِثْلِ الْمُمَيِّرِ. وَقَوْلُهُ: هِيَ مُحْصُوصٌ بِالْمَدْحِ، أَيْ الصَّدَقَاتِ، وَقَدْ عَلِمَ السَّامِعُ أَنَّهَا الصَّدَقَاتُ الْمُبْدَأَةُ، بِقَرِينَةِ فِعْلِ الشَّرْطِ، فَلِذَلِكَ كَانَ تَفْسِيرُ الْمَعْنَى فَنِعَمًا إِبْدَاؤُهَا"^١.

"وَإِنْ تُخْفَوُهَا وَتُؤْتُوَهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ": "تُخْفَوُهَا" فعل في سياق الشرط يعم، وهو مَخْصَصٌ بِالْمَفْعُولِ بِهِ: الضمير المتصل، "وَتُؤْتُوَهَا" فعل في سياق الشرط يعم، وهو مَخْصَصٌ بِالْمَفْعُولِ بِهِ الْأَوَّلِ: الضمير المتصل، والمفعول الثاني: "الْفُقَرَاءَ" "أَل" للاستغراق، "فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ": أفضل للمنفقين؛ لأنه أحفظ للنيات من شوائب الرياء.

"وَيُكْفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ": "وَيُكْفِّرُ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجَارِّ والمجرور: "عَنْكُمْ"، وبمفعول مقدر: شيئاً، وهذا لمقدر موصوف بالجَارِّ والمجرور: "مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ"، وسيئات نكرة مضافة إلى معرفة تعم، "وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ": التصدير باسم الجلالة للتعظيم والتطمين، "بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ": تقديم الجَارِّ والمجرور للاهتمام والعناية، "بِمَا" الموصول يعم، والفعل "تَعْمَلُونَ" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير العائد المقدر، ويجوز أن تكون "مَا" مصدرية، والمقدر نكرة مضافة إلى معرفة تعم، أي: بعملكم.

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٦٧/٣

قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾^١:

"لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ": "هُدَاهُمْ" نكرة مضافة إلى معرفة تعميم، "وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ": "يَهْدِي" فعل في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: "مَنْ"، وهو موصول يعمم، "يَشَاءُ": فعل في سياق الإثبات مقيد بمفعول به مقدر.

"وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ": "مَا" شرطية تعميم، "مَا" اسم شرط عام، وهو مفعول به للفعل الذي بعده، والفعل "تُنْفِقُوا" في سياق الشرط يعمم، وهو مخصص بالمفعول به: اسم الشرط المتقدم "ما"، "مِنْ خَيْرٍ" متعلق بصفة مخصصة لاسم الشرط، ولفظ "خَيْرٍ" نكرة في سياق الشرط تعميم، "فَلَأَنْفُسِكُمْ" "أنفس" نكرة مضافة إلى معرفة تعميم.

"وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ": "تُنْفِقُونَ": فعل في سياق النفي يعمم، وهو مخصص بالمفعول لأجله: ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ، وقد قيل: هو نفْي في معنى النهي^٢.

"وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ": "مَا" شرطية تعميم، وهو مفعول به للفعل الذي بعده، والفعل "تُنْفِقُوا" في سياق الشرط يعمم، وهو مخصص بالمفعول به: اسم الشرط المتقدم "ما"، "مِنْ خَيْرٍ" متعلق بصفة مخصصة لاسم الشرط، ولفظ "خَيْرٍ" نكرة في سياق الشرط تعميم، "يُوَفَّ إِلَيْكُمْ": فعل في سياق الإثبات مقيد بالجار والمجرور: "إِلَيْكُمْ"،

^١ سورة البقرة الآية (٢٧٢)

^٢ أبو السعود، الإرشاد، مرجع سابق، ج ١/٢٦٤

وبجملته الحال: "وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ" وهي تشبه الحال المؤكدة^١، "لَا تُظْلَمُونَ" الفعل في سياق النفي يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به العام وتقديره: لا تظلمون شيئاً، والجملته "من مبتدأ وخبر في محل نصب على الحال من الضمير في «إليكم»، والعامل فيها «يُوفَّ»، وهي تشبه الحال المؤكدة".

قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْثَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾^٢:

"لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ": "لِلْفُقَرَاءِ" "أل" للاستغراق، وقد خصص بالصفة: "الذين"، فالموصول في هذا الوضع صفة مخصصة لعموم الفقراء، "أُحْصِرُوا" فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقيّدات: الأول: الجارّ والمجرور: "فِي سَبِيلِ اللَّهِ"، وسبيل نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، والمعنى: "حُسِسُوا وَمُنِعُوا"^٣، والثاني: جملة الحال: "لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ" وما بعدها من الجمل: "يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْثَافًا"، "لَا يَسْتَطِيعُونَ" الفعل في سياق النفي يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: "ضَرْبًا"، وضرب نكرة في سياق النفي مخصّصة بالجارّ والمجرور: "فِي الْأَرْضِ".

"يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ": "يَحْسَبُهُمُ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول الأول: الضمير المتصل، والثاني: "أَغْنِيَاءَ"، وبالجارّ والمجرور: "مِنَ التَّعَفُّفِ"، "الْجَاهِلُ" صفة صريحة تعمّ، "التَّعَفُّفِ" "أل" لتعريف الجنس، "تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ": فعل في سياق الإثبات

^١ انظر: السمين، الدر المصون مرجع سابق، ج ٢/٦١٥

^٢ سورة البقرة الآية (٢٧٣)

^٣ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج ٣/٣٤٠

مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجارّ والمجرور: "بِسَيِّمَاهُمْ"، "السِّيما - العلامة ويجوز مدّها، و «سيما» مقلوبة قُدِّمَتْ عَيْنُهَا عَلَى فَائِهَا؛ لَأَنَّهَا مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْوَسْمِ فَهِيَ بِمَعْنَى السِّمَةِ أي العلامة"^١.

"لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِخْافًا": الفعل في سياق النفي يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: "النَّاسَ" عامّ، وبالحال: "إِخْافًا"، "ألحف السائل في مسألتها، إذا ألحّ فهو يلحف فيها إلحافًا"^٢، "وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ": "مَا" شرطية تعمّ، وهو مفعول به للفعل الذي بعده، والفعل "تُنْفِقُوا" في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: اسم الشرط المتقدّم "ما"، "مِنْ خَيْرٍ" متعلق بصفة مخصّصة لاسم الشرط، ولفظ "خَيْرٍ" نكرة في سياق الشرط تعمّ، "فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ": التصدير باسم الجلالة للتعظيم والتطمين، فالله تعالى يخلف على المنفق.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^٣:

"الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً": "الَّذِينَ" الموصول يعمّ حسب صلته، فيشمل كلّ منفق ماله في سبيل الله، "يُنْفِقُونَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بثلاثة قيود: القيد الأول: "أَمْوَالَهُمْ"، "أَمْوَالَهُمْ" وهو نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، القيد الثاني: "بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ" "أل" لتعريف الجنس، والثالث: الظرف: "سِرًّا وَعَلَانِيَةً".

^١ السمين، الدر المصون مرجع سابق، ج ٢/٦٢٢

^٢ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٥/٥٩٧

^٣ سورة البقرة الآية (٢٧٤)

"فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ": "أَجْرُهُمْ" نكرة مضافة إلى معرفة تعميم، "وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" "خَوْفٌ" نكرة في سياق النفي تعميم، "يَحْزَنُونَ" فعل في سياق النفي يعميم، فهو ينفي عنهم كل حزن.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكِ بَأْثُهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^١:

"الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ":
"الَّذِينَ" من صيغ العموم، تشمل كل آكل ربا، "يَأْكُلُونَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "الرِّبَا"، والربا حقيقة شرعية مبينة بالسنة، "أل" للعموم، ولفظ الربا يشمل ربا النسيئة وربا الفضل في الأصناف الستة المنصوص عليها في السنة: "الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلا بمثل سواء بسواء يدا بيد فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدا بيد"^٢، وما ألحق بها والبيان والتفصيل في كتب الأحكام.

"لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ": "لَا يَقُومُونَ" فعل في سياق النفي يعميم، مخصّص بالمصدر المبين لنوعه المقدّر بعد "إِلَّا" الحاصرة: إلا قياما "كَمَا يَقُومُ الَّذِي..": الكاف اسم بمعنى مثل وما مصدرية، والتقدير: "مثل قيام الذي يتخبطه

^١ سورة البقرة الآية (٢٧٥)

^٢ مسلم ح ٤١٤٧

الشيطان^١، "يَتَحَبَّطُهُ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجارّ والمجرور: "مِنَ الْمَسِّ"، "وَالْمَسُّ غُبْرٌ بِهِ عَنِ الْجَنُونِ فِي لِسَانِهِمْ"^٢، "الشَّيْطَانُ" "أل" لتعريف الجنس.

"ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا": "قَالُوا": فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا"، "إِنَّمَا" أداة حصر، وتفيد تأكيد التسوية بين حقيقة البيع وحقيقة الربا، "أل" في "الْبَيْعُ" "الرِّبَا" للعموم، "وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا" "إنكارٌ من جهة الله تعالى لتسويتهم، وإبطالٌ للقياس لوقوعه في مقابلة النص، مع ما أشير إليه من عدم الاشتراك في المناط"^٣.

والراسخون في العلم موقنون أن الله تعالى لا يحرم إلا الخبيث، ولا يحل إلا الطيب، ولا يفرق بين المتماثلات، ولا يسوّي بين المختلفات، وأن حكمه هو الأصلح والأفنع للعباد، وقد أجمل الله سبحانه في هذا الموضع لحكمة "فقال الله عز وجل: ليست الزيادة من وجه البيع نظير الزيادة من وجه الربا، لأنّي أحللت البيع، وحرمت الربا، والأمر أمرى والخلق خلقي، أقضي فيهم ما أشاء، وأستعبدهم بما أريد، ليس لأحد منهم أن يعترض في حكمي، ولا أن يخالف أمرى، وإنما عليهم طاعتي والتسليم لحكمي"^٤.

"فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ" "مَنْ" شرطية تعمّ، "جَاءَهُ" فعل في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: الضمير المتصل، "مَوْعِظَةٌ" نكرة في سياق الشرط

^١ السمين، الدر المصون مرجع سابق، ج ٢/٦٣٠

^٢ السمين، الدر المصون مرجع سابق، ج ٢/٦٣٢

^٣ أبو السعود، الإرشاد، مرجع سابق، ج ١/٢٦٦

^٤ الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج ٦/١٣

تعم، وهي مخصّصة بالصفة: "مِنْ رَبِّهِ"، "فَأَنْتَهَى" فعل في سياق الشرط يعم، "فَلَهُ مَا سَلَفَ":
 "مَا" اسم موصول يعم كل ما فعله قبل ورود الموعظة، "سَلَفَ" فعل في سياق الإثبات يفيد
 الإطلاق، "وَأَمَرُهُ إِلَى اللَّهِ" "أَمَرُهُ" نكرة مضافة إلى معرفة تعم كل أمر.

"وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" "مَنْ" اسم شرط يعم كل عائد
 في ارتكاب المنهي عنه، "عَادَ" فعل في سياق الشرط يعم، "أَصْحَابُ" نكرة مضافة إلى معرفة
 تعم. هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ: تقديم الجارّ والمجرور يفيد الحصر. وفي ذكر العقوبة زجر شديد.

قال الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾^١:

"يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا": "يَمْحَقُ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "الرِّبَا"، "أَل" في
 "الرِّبَا" للاستغراق يشمل كل ربا، "وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ": "يُزِيهِ" فعل في سياق الإثبات مقيّد
 بالمفعول به: "الصَّدَقَاتِ"، "أَل" في الصدقات للعموم، تعم كل صدقة، وهذه سنة ربانية ثابتة
 تجري على كل مراتب بالحق والزوال، وعلى كل متصدّق بالزيادة والبركة.

"وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ" "لَا يُحِبُّ" الفعل في سياق النفي يعم، وهو مخصّص
 بالمفعول به: "كُلُّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ"، "كُلُّ" من صيغ العموم تشمل كل كفار أثيم وفي هذا التعقيب
 ربط للأحكام بعلم التوحيد، والعارفون بالله تعالى يدركون مبلغ هذا الوعيد.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ هُمْ

أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^٢:

^١ سورة البقرة الآية (٢٧٦)

^٢ سورة البقرة الآية (٢٧٧)

"الَّذِينَ" عام، "أَجْرُهُمْ" نكرة مضافة إلى معرفة تعميم، "وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" "خَوْفٌ" نكرة في سياق النفي تعميم، "يَحْزَنُونَ" فعل في سياق النفي يعميم كل حزن.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ

مُؤْمِنِينَ﴾^١:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا": الموصول من صيغ العموم، "آمَنُوا" فعل في سياق الإثبات يفيد الإطلاق، "اتَّقُوا اللَّهَ": الأمر للوجوب، الفعل "اتَّقُوا" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: اسم الجلالة، "وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا": "ذَرُوا" أمر بمعنى النهي، وهو يدلّ على وجوب ترك ما بقي من الربا، الفعل "ذَرُوا" في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا"، "ما" موصول من صيغ العموم، والفعل "بَقِيَ" في سياق الإثبات مقيّد بالحال: "مِنَ الرِّبَا"، وأل في الربا للعموم، "إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ" الشرط للتهيج والإلهاب ولا مفهوم له.

قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ

أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾^٢:

"فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ": "لَّمْ تَفْعَلُوا" فعل في سياق النفي يعميم، وهو مخصّص بمفعول عليه السياق، "فَأْذَنُوا" الأمر للتهديد، وهو في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: "بِحَرْبٍ"، وحرب نكرة مقيدة بالصفة: مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

^١ سورة البقرة الآية (٢٧٨)

^٢ سورة البقرة الآية (٢٧٩)

"وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ" "تُبتُمْ" فعل في سياق الشرط يعمّ، "فلكم رؤوس أموالكم": "رؤوس" و "أموال": نكرتان مضافتان على معرفة للعموم، "لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ" الفعلان في سياق النفي للعموم.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^١:

"وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ" "كَانَ" فعل تامّ في سياق الشرط يعمّ، "ذو عُسْرَةٍ" نكرة في سياق الشرط تعمّ كلّ ذي عسرة، "فَنَظِرَةٌ" أي فالواجب إنظاره، "مَيْسَرَةٍ" نكرة في سياق الإثبات للإطلاق، "وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ": "أَنْ تَصَدَّقُوا" المصدر المؤول يعمّ، وتصدقكم خير لكم. "إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ": الفعل في سياق الشرط يعمّ.

قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَىٰ اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^٢:

"وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَىٰ اللَّهِ" "وَاتَّقُوا" الأمر للوجوب، وهو فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "يَوْمًا"، وهو نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بجملّة الصفة وما عطف عليها: "تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَىٰ اللَّهِ"، "تُرْجَعُونَ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بقيدتين: الأول: بالجارّ والمجرور: "فِيهِ" الثاني: بالجارّ والمجرور: "إِلَىٰ اللَّهِ".

^١ سورة البقرة الآية (٢٨٠)

^٢ سورة البقرة الآية (٢٨١)

"ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ": "تَوَفَّى": فعل في سياق الإثبات مقيّد بنائب الفعل:

"كُلُّ نَفْسٍ"، وأصله مفعول أول، وكلّ من صيغ العموم، وبالمفعول به الثاني: "مَا كَسَبَتْ":

"مَا" الموصول يعمّ، "كَسَبَتْ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير العائد،

وبجمله الحال: "وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ"، والفعل في سياق النفي يعمّ.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْب الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُوهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^١

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا": الموصول من صيغ العموم، "آمَنُوا" فعل في سياق الإثبات يفيد الإطلاق، "إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى": "إِذَا" ظرفية شرطية تعم، "تَدَايَنْتُمْ": فعل في سياق الشرط يعم، والفعل مخصص بالجاء والمجرور: "بِدَيْنٍ"، "دَيْنٍ" نكرة في سياق الشرط تعم، ودين مخصص بالصفة: "إِلَى أَجَلٍ"، "أَجَلٍ" نكرة في سياق الشرط تعم، وهي مخصصة بالصفة: "مُّسَمًّى".

"فَاكْتُبُوهُ" الأمر للاستحباب أو الإرشاد، والصارف ما ورد في آية الرهن: "وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ الْآيَةُ"؛ "لِأَنَّ الرِّهَانَ لَا يَجِبُ إِجْمَاعًا وَهُوَ بَدَلٌ مِنَ الْكِتَابَةِ عِنْدَ تَعَذُّرِهَا فِي الْآيَةِ، فَلَوْ كَانَتْ الْكِتَابَةُ وَاجِبَةً لَكَانَ بَدَلُهَا وَاجِبًا وَصَرَّحَ بِعَدَمِ الْوُجُوبِ

^١ سورة البقرة الآية (٢٨٢)

بِقَوْلِهِ تَعَالَى: "فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ الْآيَةَ"^١. "فَاكْتُبُوهُ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل.

"وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ": المضارع مقترن بلام الأمر، والأمر مقيّد بالعدل فهو للوجوب، "يَكْتُبْ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالظرف: "بَيْنَكُمْ"، وبالجارّ والمجرور: "بِالْعَدْلِ" "أَل" للعهد، وبمفعول مقدّر، "كَاتِبٌ" نكرة في سياق الإثبات مطلق.

"وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ": "وَلَا يَأْبَ" النهي يحتمل أن يكون للكرهية أو للتحريم أو للقدر المشترك بينهما، "كَاتِبٌ" نكرة في سياق النهي للعموم. والفعل "يَأْبَ" في سياق النهي للعموم، وهو مخصّص بالمفعول به المصدر المؤول: "أَنْ يَكْتُبَ"، والتقدير الكتابة، وهو مخصّص بقوله تعالى: "كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ": الكاف اسم بمعنى مثل وما مصدرية، والتقدير: مثل تعليم الله له.

"فَلْيَكْتُبْ": المضارع مقترن بلام الأمر، والأمر مقيّد بالعدل فهو للوجوب، "يَكْتُبْ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بمفعول مقدّر، وهو مؤكّد للأمر الأول، "وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ": "وَلْيُمْلِلِ": الأمر للإرشاد، فعل في سياق الإثبات مقيّد بمفعول مقدّر، "وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ": "وَلْيَتَّقِ" الأمر للوجوب، وهو فعل في سياق الإثبات مقيّد بمفعول به: اسم الجلالة: "اللَّهُ رَبَّهُ"، "وَلَا يَبْخَسُ مِنْهُ شَيْئًا" "وَلَا يَبْخَسُ" النهي للتحريم، والبَخْسُ: النقص، بَخَسَهُ حَقَّهُ يَبْخَسُهُ بَخْسًا، وأصله من: بَخَسْتُ عَيْنَهُ، فاستعير منه بَخَسُ الحق^٢، والفعل في سياق النهي

^١ الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مرجع سابق، ج ١٨٤/١

^٢ السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج ٦٥٤/٢

يَعْمَ، وهو مَخَصَّصٌ بِالْجَارِ وَالْمَجْرُورِ: "مِنْهُ" وبالمفعول به: "شَيْئًا"، وشيئا نكرة في سياق النهي تعْمَ كل صغير وكبير.

"فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُجِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ": "الَّذِي" الموصول يَعْمَ، "الْحَقُّ" أل للعموم العرقي، "لَا يَسْتَطِيعُ" فعل في سياق النفي يَعْمَ، وهو مَخَصَّصٌ بالمفعول به المصدر المؤول: "أَنْ يُجِلَّ"، "فَلْيُمْلِلْ" الأمر بالإملال بقيد العدل للوجوب، "وَلِيُّهُ" نكرة مضافة إلى معرفة.

"وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ" "وَاسْتَشْهِدُوا" الأمر للنذب أو الإرشاد، في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "شَهِيدَيْنِ"، "شَهِيدَيْنِ" نكرة في سياق الإثبات مقيّدة بالصفة: "مِنْ رِجَالِكُمْ"، "رِجَالِكُمْ" نكرة مضافة إلى معرفة يَعْمَ.

"فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ": "رَجُلَيْنِ" نكرة في سياق النفي يَعْمَ، وهو مَخَصَّصٌ بصفة مقدّرة، "فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ": فليشهد رجل وامرأتان، والتذكير للإطلاق.

"مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ"، "مِمَّنْ" حرف الجر للتبعيض، والاسم الموصول يَعْمَ، وهما متعلقان بالفعل: "استشهدوا"، والتقدير: استشهدوا مِمَّنْ تَرْضَوْنَ، قال العلامة أبو حيان: "مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ قِيلَ: هَذَا فِي مَوْضِعِ الصِّفَةِ لِقَوْلِهِ: فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ وَقِيلَ: هُوَ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ: رِجَالِكُمْ، عَلَى تَكْرِيرِ الْعَامِلِ، وَهُمَا ضَعِيفَانِ، لِأَنَّ الْوَصْفَ يُشْعِرُ بِاخْتِصَاصِهِ بِالْمَوْصُوفِ، فَيَكُونُ قَدْ انْتَفَى هَذَا الْوَصْفُ عَنْ شَهِيدَيْنِ، وَلِأَنَّ الْبَدَلَ يُؤْذَنُ بِالِاخْتِصَاصِ بِالشَّهِيدَيْنِ الرَّجُلَيْنِ، فَعَرِيَ عَنْهُ: رَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ، وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: وَاسْتَشْهِدُوا،

أَيُّ: وَاسْتَشْهِدُوا مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ، لِيَكُونَ قَيْدًا فِي الْجَمِيعِ^١، "تَرْضَوْنَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بمفعول به: الضمير العائد، وبالحال: "مِنَ الشُّهَدَاءِ"، وأل في "الشُّهَدَاءِ" للعموم.

"أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى": هذه علة إشهاد المرأتين معاً، "لَمَّا كَانَ «أَنْ تَضِلَّ» فِي مَعْنَى لِضَلَالٍ إِحْدَاهُمَا صَارَتْ الْعِلَّةُ فِي الظَّاهِرِ هِيَ الضَّلَالُ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ بَلِ الْعِلَّةُ هِيَ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَى الضَّلَالِ مِنْ إِضَاعَةِ الْمَشْهُودِ بِهِ، فَتَفَرَّغَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى لِأَنَّ فَتُذَكِّرَ مَعْطُوفٌ عَلَى تَضِلَّ بِقَاءِ التَّعْقِيبِ فَهُوَ مِنْ تَكْمِلَتِهِ، وَالْعِبْرَةُ بِآخِرِ الْكَلَامِ"^٢.

"وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا": "وَلَا يَأْبَ" النهي للتحريم بشرط الدعوة للإدلاء بالشهادة؛ لأن الفعل "يَأْبَ" في سياق النهي للعموم، وهو مخصّص بالشرط: "إِذَا مَا دُعُوا"، "الشُّهَدَاءُ" "أل" للاستغراق فهو يعمّ كلّ شاهد، "إِذَا" شرطية ظرفية عامّة، "مَا دُعُوا": "ما" حرف صلة، والفعل في سياق الشرط يعمّ.

"وَلَا تَسْأَلُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ": "وَلَا تَسْأَلُوا" النهي للإرشاد، والفعل في سياق النهي للعموم، وهو مخصّص بالمفعول به: "أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ"، والمصدر المؤول تقديره: كتابته مضاف إلى معرفة يعمّ، وهو مخصّص بالحال: "صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا" وبالجارّ والمجرور: "إِلَى أَجَلِهِ"، وأجل نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ.

^١ أبو حيان، البحر المحیط، مرجع سابق، ج ٢/٧٣٠

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٣/١٠٩

"ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا": هذه هي المصالح المترتبة على القيام بما سبق من الأحكام، "لِلشَّهَادَةِ" للعموم، "وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا": الفعل في سياق النفي يعمّ كل أنواع الريبة.

"إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُوهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا": "إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً" المصدر المنسبك من أن والفعل في "موضع نصبٍ على الاستثناء المنقطع كأنه قيل: لكن التجارة الحاضرة فإنه يجوزُ عدمُ الاستشهادِ والكتِّبِ فيها"^١؛ لأن التجارة الحاضرة ليست من جنس الدين. "تِجَارَةً" نكرة في سياق الإثبات مقيدة بالصفتين: "حَاضِرَةً" "تُدِيرُوهَا" بَيْنَكُمْ، الفعل "تُدِيرُوهَا" في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالظرف: "بَيْنَكُمْ".

"فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا": "جُنَاحٌ" نكرة في سياق النفي تعمّ، أَلَّا تَكْتُبُوهَا: تقول بمصدر مضاف منفي: في عدم كتابتها.

"وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ": "وَأَشْهَدُوا" الأمر للإرشاد، والفعل في سياق الإثبات مقيد بمفعول مقدّر دلّ عليه السياق، وبالشرط: "إِذَا تَبَايَعْتُمْ"، "إِذَا" شرطية ظرفية تعمّ، "تَبَايَعْتُمْ": فعل في سياق الشرط يعمّ، "وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ": "وَلَا يُضَارَّ" النهي للتحريم، والفعل في سياق النهي من صيغ العموم، "كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ": نكرتان في سياق النهي من صيغ العموم.

^١ السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج ٢/٦٧٣

"وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ": "تَفْعَلُوا" فعل في سياق الشرط تعمّ، مخصّص بمفعول مقدّر دلّ عليه السياق، "فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ": تحذير من مقارنة المضاربة ووعيد. "وَاتَّقُوا اللَّهَ" "اتَّقُوا" الأمر للوجوب، وهو فعل في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: اسم الجلالة، "وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ": الفعل في سياق الإثبات مقيد بالمفعول به: الضمير المتصل، "وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ": "كُلِّ" تعمّ كل شيء ظاهر وباطن، وتعقيب الأحكام بذكر اسم الله تعالى فيه تعظيم لشأها وتوثيق لها.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آتِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾^١:

"وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ": "سَفَرٍ" نكرة في سياق الشرط تعمّ، "وَلَمْ تَجِدُوا" الفعل في سياق النفي يعمّ، "كَاتِبًا": نكرة في سياق النفي تعمّ، منطوقه أن السفر وعدم وجود الكاتب شرطان لصحة الرهن، ولكن ثبت في السنة الصحيحة مشروعية الرهن في الحضر: "رَهْنُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دِرْعًا لَهُ بِالْمَدِينَةِ عِنْدَ يَهُودِيٍّ وَأَخَذَ مِنْهُ شَعِيرًا لِأَهْلِهِ"^٢، والكتبة متوافرون في المدينة، وعليه فلا مفهوم لهما؛ لأنهما خرجا مخرج الغالب؛ لأن الكاتب يغلب فقده في السفر في ذلك الزمان.

"فَرِهَانٌ"، الفاء واقعة في جواب الشرط، "وَالرَّهَانُ جَمْعُ رَهْنٍ - وَيُجْمَعُ أَيْضًا عَلَى رُهْنٍ بِضَمِّ الرَّاءِ وَضَمِّ هَاءٍ، وَجَمْعُهُ بِاعْتِبَارِ تَعَدُّدِ الْمُخَاطَبِينَ بِهَذَا الْحُكْمِ.

^١ سورة البقرة الآية (٢٨٣)

^٢ البخاري ح ٢٠٦٩

وَالرَّهْنُ هُنَا اسْمٌ لِلشَّيْءِ الْمَرْهُونِ تَسْمِيَةً لِلْمَفْعُولِ بِالْمَصْدَرِ كَالْخَلْقِ^١، والرهن في الاصطلاح: "اِحْتِيَاسُ الْعَيْنِ وَثِيقَةً بِالْحَقِّ لِيُسْتَوْفَى الْحَقُّ مِنْ ثَمَنِهَا أَوْ مِنْ ثَمَنِ مَنَافِعِهَا عِنْدَ تَعَدُّرِ أَخْذِهِ مِنَ الْعَرِيمِ، وَهَكَذَا حَدَّهَ الْعُلَمَاءُ"^٢، والمعنى: "فالوثيقة أو فالقائم مقام ذلك رهنٌ مقبوضةٌ. قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «فَرَهْنٌ» بضم الراء والهاء، والباقون «فَرِهَانٌ» بكسر الراء وألف بعد الهاء"^٣، وهو نكرة مقيدة بالصفة: "مَقْبُوضَةٌ"، "إِذَا رَهَنَهُ قَوْلًا وَلَمْ يَقْبِضْهُ فِعْلًا لَمْ يُوجِبْ ذَلِكَ، حُكْمًا، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: "فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ" قَالَ الشَّافِعِيُّ: لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ الْحُكْمَ إِلَّا بِرَهْنٍ مَوْصُوفٍ بِالْقَبْضِ، فَإِذَا غُدِمَتِ الصِّفَةُ وَجَبَ أَنْ يُعَدَّمَ الْحُكْمُ، وَهَذَا ظَاهِرٌ جَدًّا. وَقَالَتْ الْمَالِكِيَّةُ: يَلْزَمُ الرَّهْنُ بِالْعَقْدِ وَيُجْبَرُ الرَّاهِنُ عَلَى دَفْعِ الرَّهْنِ لِيُخَوِّزَهُ الْمُرْهِنُ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: "أَوْفُوا بِالْعُقُودِ" وَهَذَا عَقْدٌ، وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "الْمُؤْمِنُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ" وَهَذَا شَرْطٌ، فَالْقَبْضُ عِنْدَنَا شَرْطٌ فِي كَمَالِ فَائِدَتِهِ. وَعِنْدَهُمَا شَرْطٌ فِي لُزُومِهِ وَصِحَّتِهِ"^٤.

"فَلِإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ": "أَمِنَ" فعل في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به، "فَلْيُؤَدِّ" الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "أَمَانَتَهُ"، وأمانته نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ كلّ أمانة، "الَّذِي" اسم موصول يعمّ، "وَلْيَتَّقِ اللَّهُ رَبَّهُ" الأمر للوجوب، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: اسم الجلالة.

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٣/ ١٢٠ بتصرف.

^٢ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج ٣/ ٤٠٩.

^٣ السمين، الدر المصون، مرجع سابق، ج ٢/ ٦٧٨.

^٤ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج ٣/ ٤١٠.

"وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ" النهي للتحريم، والفعل في سياق النهي يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: "الشَّهَادَةُ"، "وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثَمُ قَلْبُهُ" "مَنْ" اسم الشرط عامّ، "يَكْتُمْهَا" فعل في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: الضمير المتصل.

"وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ": ذكر اسم الله تعالى فيه تعظيم لشأن التوثيق، وفيه وعظ وتحذير من الإخلال بالعقود والشهادة.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْزِزُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^١:

"لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ": اللام للملكيّة، تقديم الخبر يفيد الحصر، ومفهومه: لله لا لغيره، "مَا" اسم موصول يعمّ، "السَّمَاوَاتِ": "أَل" للعموم أو للعهد، "وَمَا فِي الْأَرْضِ": "مَا" اسم موصول يعمّ، "الْأَرْضِ": "أَل" للعموم أو للعهد، فهو مالِك ما في السماوات والأرض الذي يصرف أمورها كيف يشاء.

"وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ": "تُبْدُوا" فعل في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: "مَا فِي أَنْفُسِكُمْ"، "مَا" اسم موصول يعمّ، "أَنْفُسِكُمْ"، نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، "تُخْفُوهُ" فعل في سياق الشرط يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به: الضمير المتصل، "يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ": "يُحَاسِبْكُمْ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجارّ والمجرور: "بِهِ".

^١ سورة البقرة الآية (٢٨٤)

"فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ": "فَيَغْفِرُ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به مقدّر: الذنوب، وبالجارّ والمجرور: "لِمَن يَشَاءُ"، "مَن" موصول يعمّ، "يَشَاءُ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بمفعول به مقدّر، "وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ": الفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: "مَن يَشَاءُ"، "مَن" موصول يعمّ، "يَشَاءُ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بمفعول به مقدّر.

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ": التصدير باسم الجلالة للتعظيم والتطمين والتحذير، فالله تعالى لا يخلف الميعاد، وهو قادر على إنفاذ وعده ووعيده. "كُلِّ" من صيغ العموم.

الخاصة:

تقرر الآيتان الأخيرتان من سورة البقرة الحقيقة الكبرى التي بيّنتها الآية الأولى وهي:
أن القرآن "لا ريب فيه" وأنه "هدى للمتقين"؛ وقد تمت كلمات ربنا صدقاً وعدلاً، واهتدى
به المتقون، فقد آمن الرسول عليه الصلاة والسلام بما أنزل إليه والمؤمنون، وسمعوا أحكامه
وأطاعوا، ودعوا واستجاب دعاءهم.

قال الله تعالى: ﴿أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ
وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾^١:

"أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ": "أَمَّنَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد
بالجارّ والمجرور: "بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ"، "الرَّسُولُ" محمّد عليه الصلاة والسلام، "بِمَا" اسم
موصول يعمّ، "وَالْمُؤْمِنُونَ" صفة صريحة محلاة بـ"أل" تعمّ كل مؤمن، وهو معطوف على اسم
"الرسول".

"كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ" "كُلٌّ" من صيغ العموم، ويشمل الرسول عليه
الصلاة والسلام والمؤمنين، "أَمَّنَ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالجارّ والمجرور: "بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ
وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ" الكلمات الثلاث: "مَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ" نكرات مضافات إلى معرفة تعمّ، "لَا
نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ": "نُفَرِّقُ" فعل في سياق النفي يعمّ، وهو مخصّص بالظرف: "بَيْنَ
أَحَدٍ"، "أَحَدٍ" نكرة في سياق النفي تعمّ، وهو مخصّص بالصفة: "مِنْ رُسُلِهِ"، "رُسُلِهِ" نكرة
مضافة إلى معرفة تعمّ.

^١ سورة البقرة الآية (٢٨٥)

"وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ": "قَالُوا": فعل في سياق الإثبات مقيّد بمقول القول: "سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ"، الفعلان "سَمِعْنَا" و"أَطَعْنَا" في سياق الإثبات للإطلاق نزلاً منزلة اللازم، ويجوز تقييدهما بمحذوف مقدّر للدلالة على العموم، "غُفْرَانَكَ": دعاء بالمغفرة، "وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ": تقديم الخبر يفيد الحصر، ومفهومه إليك لا إلى غير.

قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^١:

"لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا": "لَا يُكَلِّفُ" الفعل في سياق النفي يعمّ، وهو مخصّص بالمفعول به الأول: "نَفْسًا"، والثاني: "إِلَّا وُسْعَهَا"، ونفس نكرة في سياق النفي تعمّ، "وُسْعَهَا" نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ.

"لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ": الجملة مستأنفة، "لَهَا" تقديم الخبر يفيد الحصر، ومفهومه لها لا لغيرها، "مَا كَسَبَتْ": "مَا" موصول يعمّ، "كَسَبَتْ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير العائد، "وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ": "وَعَلَيْهَا" تقديم الخبر يفيد الحصر، ومفهومه عليها لا على غيرها، "مَا اكْتَسَبَتْ": "مَا" موصول يعمّ، "اِكْتَسَبَتْ": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير العائد.

^١ سورة البقرة الآية (٢٨٦)

"رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا" "لَا تُؤَاخِذْنَا" دعاء، والفعل في سياق لا الدعائية للعموم، وهو مخصّص بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالشرط: "إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا"، الفعلان "نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا" في سياق الشرط يفيدان العموم، ومعمولات الفعلين محذوفة لإرادة العموم.

"رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا" "وَلَا تَحْمِلْ" هذه الصيغة للدعاء، والفعل في سياق لا الدعائية للعموم، وهو مخصّص بثلاثة مخصّصات: الأول: الجار والمجرور: "عَلَيْنَا"، والثاني: المفعول به: "إِصْرًا"، وهو نكرة في سياق لا الدعائية تعمّ، والثالث: صفة المفعول المطلق المقدر: "كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا"، "مَا" موصولة تعمّ، "حَمَلْتَهُ" فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، الجار والمجرور: "عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا"، "الَّذِينَ" موصول يعمّ.

فائدة: "الْإِصْرُ فِي اللُّغَةِ: الثَّقَلُ وَالشِّدَّةُ، ثُمَّ سُمِّيَ الْعَهْدُ إِصْرًا لِأَنَّهُ ثَقِيلٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي" [آلِ عِمْرَانَ: ٨١] أَيَّ عَهْدِي وَمِيثَاقِي وَالْإِصْرُ الْعَطْفُ، يُقَالُ: مَا يَأْصِرُنِي عَلَيْهِ آصِرَةٌ، أَيَّ رَحِمٍ وَقَرَابَةٍ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْعَطْفُ إِصْرًا لِأَنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِ يَنْثُقِلُ عَلَى قَلْبِكَ كُلُّ مَا يَصِلُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَكَارِهِ".^١

"رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ" "وَلَا تُحَمِّلْنَا": لا للدعاء، "تُحَمِّلْنَا": فعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به الأول: الضمير المتصل، والثاني: "مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ"، "مَا" موصول يعمّ، "طَاقَةٌ" نكرة في سياق لا النافية للجنس نصّ في العموم.

^١ الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج ٧ / ١٢١

"وَأَعْفُ عَنَّا": صيغة افعل للدعاء، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور:

"عَنَّا"، "وَأَعْفِرْ لَنَا" صيغة افعل للدعاء، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالجاء والمجرور: "لَنَا"،

"وَارْحَمْنَا": صيغة افعل للدعاء، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل.

"أَنْتَ مَوْلَانَا": "أَنْتَ مَوْلَانَا": جملة اسميّة ركنها: المبتدأ والخبر معرفتان؛ لإفادة الحصر، ومفهومها لا مولى لنا غيرك، والجملة للتذلل والافتقار والاستكانة بين يدي طلب النصر: "فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ"، "فَانصُرْنَا": صيغة افعل للدعاء، والفعل في سياق الإثبات مقيّد بالمفعول به: الضمير المتصل، وبالجاء والمجرور: "عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ"، "الْقَوْمِ" "أل" للاستغراق فهو عامّ، وهو مخصّص بالصفة: "الْكَافِرِينَ".

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: ٢٨٤]، قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرِّكْبِ، فَقَالُوا: أَيُّ رَسُولَ اللَّهِ، كُفِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ، الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ"، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فَلَمَّا افْتَرَاهَا الْقَوْمُ، ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي إِثْرِهَا: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْ بِهِ وُجُوهَهُ وَكُتِبَ لَهُ مِنْ رُحْمَةِ رَبِّهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [البقرة: ٢٨٥]، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَحَهَا اللَّهُ تَعَالَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {لَا

يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ
أَخْطَأْنَا { [البقرة: ٢٨٦] " قَالَ: نَعَمْ " { رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِنَا { [البقرة: ٢٨٦] " قَالَ: نَعَمْ " { رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ { [البقرة: ٢٨٦] "
قَالَ: نَعَمْ " { وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ { [البقرة:
٢٨٦] " قَالَ: نَعَمْ " ١.

وقد منّ الله تعالى بفضله ورحمته إتمام هذه السورة الساعة الحادية عشرة قبل منتصف
ليلة الثلاثاء السابع من شهر ذي الحجة ١٤٤٦ هـ، فالحمد لله على توفيقه، وأسأله برحمته أن
يسّر لي إتمام التفسير الأصولي للقرآن المجيد، وأستغفره سبحانه وتعالى لي ولوالدي ولأحبي
وأتوب إليه من كل زلل وخطأ وتفريط، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ
عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ
لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ٢.

١ مسلم ح ٣٤٥

٢ سورة البقرة الآية (٢٨٦)